دور الأزهر في الحياة المصرية

إبان الحملة الفرنسية ومطلع القرن ١٩

الطبعـــة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦

دكتور
مصطفى محمد رمضان
استاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة
جامعـــة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تهرع الأمم فى أوقات محنتها الى تاريخها تستمد منه الالهام والدعم النفسى لترشيد الحاضر وانارة الطريق الى المستقبل ، وقد بدأت أمتنا بعد محنتها فى سنة ١٩٦٧ حين اعترتها فترة من فترات اليأس القاتل ، بدأت تبحث فى صفحات تاريخها لكى تعى دروس ماضيها وتتضح لها الرؤية على معالم الطريق .

وفى غضون ذلك عقدت الندوة الدولية لتاريخ القاهرة فى ربيع عام ١٩٦٩ (١٣٨٩ هـ) ، وبرز دور الأزهر فى تاريخ أمتنا خلال المناقشات التى أثيرت فى تلك الندوة وخاصة دوره فى نهاية القرن الثامن عشر ، وذلك عندما قدم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوى بحثا قيما عن صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر فنبه الباحثين الى أهميته .

وبدأت فكرة هذا البحث تبرز الى الوجود ، ومن ثم كان اختيارى لهذا البحث وعنوانه « دور الأزهر فى الحياة المصرية ابان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر » وقد كان لهذا الدور أهمية بالغة فى تاريخ مصر القومى بوجه عام ، حيث كانت البلاد ابان هذه الفترة على مفرق الطرق ، تحوط بها الأطماع الخارجية ، وتعج بالفوضى الداخلية ، على أشلاء نظم منهارة ، ولا يدرى الى أى سبيل سوف تتجه البلاد .

ومن ناحية أخرى ، فقــد كان لهذا الدور أهمية كبرى فى تاريخ الأزهر بوجه خاص ، وذلك لأنه شارك مشاركة فعالة فى أحداث هــذا العصر السياســية ، ففى خلال تلك الأحــداث لعب الأزهريون دورا سياسيا أثبتوا خلاله أنهم ليسوا رجال دين فحسب ، وانما هم رجال دين ودنيا معــا ، اذا دعا داعى الجهاد تركوا دروس العلم وأصبحوا جنودا فى الميدان •

ولقد أدركت أهمية الموضوع بعد المضى فيــه ، ذلك لأن الشعب المصرى لانكاد نسمع له صــوتا فى كتب التاريخ منذ عهد الفراعنة ، سواء فى الحروب أو الزعامة أو القيــادة ، وانما نراهم فى العمائر الراقية والصــناعات الدقيقة وفى تلك الخبرة الزراعية التى يمتاز بها سكان وادى النيل ، وعندما هبطت الحملة الفرنسية أرض الــكنانة فى صيف عام ١٧٩٨ ميلادية بقيادة بونابرت بدأ هــذا الشعب يظهر على مسرح الحوادث تحت زعامة شعبية منظمة ، تدافع عن مصر لأول مرة فى تاريخها منذ عهد الفراعنة ، وقاد رجال الأزهر المقــاومة الشعبية ضد جيش الاحتلال بعد انهيــار مؤسسة المماليك العسكرية ، وكانت سنوات الاحتلال الثلاث سنوات مقاومة وجهــاد مستمر تعطلت فيهــا الدراسة بالأزهر ، وتفرغ شيوخه وطلابه للذود عن حياض الوطن •

تلك هى أهم الأسباب التى حدتنى الى اختيار هذا الموضوع •

وأما عن مصادر هذا البحث : فقد استقت الرسالة مادتها العلمية من عديد من المصادر ، منها الوثائق المخطوطة التى لم تنشر بعد ، ومنها المطبوعات •

أما الوثائق المخطوطة فقد تنوعت على الوجه التالى :

أولا : الوثائق المستمدة من سجلات دفترخانه الشهر العقــارى بالقــــاهرة ، وهى عبارة عن سجلات المحاكم الشرعية لمصر فى العصر العثمانى ، والتى كانت تعرف من قبل لدى الباحثين بسجلات المحكمــة

الشرعية بشبرا ، نظرا لأنها كانت محفوظة بهـا قبل نقلها الى أرشيف الحفظ بدفترخانه الشهر العقـارى ، وهى موجودة بحالة جيدة غير أن غالبيتها غير مفهرسة ويصعب على البـاحثين الاهتـداء الى مطلوبهم منها الا بعد التنقيب المضنى ، كمـا أن الخطوط التى كتبت بهـا تلك السجلات يصعب على البـاحث المبتـدىء فك أشكالها الا بمعرفـة بعض الخبراء •

وهـذه سجلات لها أهميـة بالغـة فى تاريخ مصر ابان الحكم العثمانى بوجه عام نظرا لأن كثيرا من الأحـداث والمعـاملات اليومية كانت تسجل بهـا مثل عقود الزواج والطلاق والملكية والبيع والشراء والتنـازل والهبـه والوقف والاستبدال وقضايا المنـازعات بأنواعهـا وحصر مخلفات الموتى وتعيين النظار على الأوقاف والمهن وما الى ذلك من الحقوق والمعاملات والوظائف •

وأهم سجلاتها التى رجعنا اليها هى :

١ — **سجلات محكمة الباب العالى** : وبها مختلف المعاملات اليومية

٢ — ثم **سجلات القسمه العسكرية** : وهى عبـارة عن سـجلات لحصر مخلفات الموتى •

٣ — ثم **سجلات الديوان العالى** : وكانت تابعـة لديوان الوالى العثمانى •

٤ — ثم **سجلات تقـارير النظر** : وهى عبـارة عن قرارات كان يصدرها قاضى عسكر أفندى أى قاضى القضـاة التركى لتعيين النظار لادارة الأوقاف وغير ذلك من الوظائف •

ثانيا : الوثائق المستمدة من دار الوثائق القومية بالقاهرة ومن أهمها :

١ — **دفاتر المعيـة السنية العربيـة المترجمـة عن التركيـة** : وهى عبـارة ، عن مكاتبـات الوالى محمد على وخلفـائه الى البـاب

العالى بالآستانة ، كما أنها تحتوى على الأوامر والقـــرارات التى كان يصـــدرها الوالى داخل البلاد .

٢ — **ثم محافظ الفرمانات السلطانية التركية:** وبها تراجم لمضمون الفرمانات باللغـــة العربية .

٣ — **ثم محافظ الحجج الشرعية :** وهى عبارة عن حجج شرعيـــة لسنوات ومحاكم مختلفـــة .

٤ — **ثم سجلات الجامع الأزهـــر :** وهى دفاتر خاصـــة بتسجيل طلبـــة الأزهر وأخرى خاصـــة بأعمال المجلس الأعلى للأزهر ، ومحافظ قديمة وهى لسنوات مختلفة بعد عام ١٩٠٠ ، وهى موجودة بحالة سيئة وغير منظمة ، ويصعب على البـــاحثين الاستعانة بهـــا ، لأنها مطروحة أرضا بطريقـــة التشوين أو التكويم ، وقد فحصت فيها كثيرا جـــدا ، فلم أحصل الا على القليل جدا ، وهى فى طريقها الى التلف .

ثالثا : الوثائق المستمدة من المخطوطات النادرة :

ويأتى فى مقدمتها :

— مخطوطـــة المؤرخ عبـــد الرحمن الجـــبرتى : « تاريخ مـــدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ هـ الى سنة ١٢١٦ هـ » وهى عبارة عن مذكرات أولية كتبها الجبرتى بخط يده عن الفترة ، مابين بداية المحرم ١٢١٣ هـ حتى نهـــاية رجب من نفس السنة ، وهى محفوظة بمكتبـــة جامعة ليـــدن بهولندا وقـــد حصلنا على نسخة منها عن طريق التصوير بالميكروفيلم ، وقـــد جاءت باضافات جديدة وهامة انتفع البحث بها .

— ثم مخطوطة محمـــد بن يوسف جوريجى جمليان هيـــاتم عن (مكاتبات علماء الأزهر الى سلاطين الدولة العثمانيـــة) وهى محفوظة بمكتبة رفاعه الطهطاوى بسوهاج وتوجد صورة منها عن طريق النسخ

باليـد بدار الـكتب المصرية بالقاهرة وهى ذات أهميـة بالغة استفاد البحث بهـا •

— ثم المخطوطة التى كتبهـا (الشيخ احمـد العريشى) قاضى القضـاة عن النظام القضـائى بمصر أثنـاء الحمـلة الفرنسية وهى محفوظـة بدار الـكتب بالقاهـرة وقـد أثبتنـاها بملحق الوثائق فى نهـاية البحث •

— ثم المخطوطة التى كتبها (الشيخ أبو الوفا المراغى) « المعجم الأصغر لتراجم ومؤلفات علماء الأزهر » وخاصة تلك المؤلفات التى لم تنشر بعد •

المطبوعات :

هذا عن الوثائق المخطوطة ، أما عن المطبوعات فيأتى فى مقدمتها ماكتبه المعاصرون للأحداث آنذاك ، أمثال :

— المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى فى كتابيه : كتاب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبـار » ثم كتـاب « مظهر التقـديس بزوال دولة الفرنسيس » والجبرتى عمدة مصادرنا بطبيعة الحال •

— الشيخ عبد الله الشرقاوى فى مؤلفه : « تحفـة الناظرين فى من ولى مصر من الولاة والسلاطين » •

— والمعلم نقـولا ترك فى مذكراته والمؤرخ الانجليزى أدوارد وليم لين فى كتابه « المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم » ترجمـة عدلى طاهر نور •

ثم تأتى بعـد ذلك كتـابات المؤرخين المحـدثين وفى مقـدمتهم ماكتبه الأسـتاذ الدكتور عبد العزيز الشـناوى نظرا لأن لسيادته كبير

عناية بتـــاريخ الأزهر فى تلك الفترة فى مؤلفاته : « عمر مكرم بطل المقـــاومة الشعبية » و « دور الأزهر فى الحفـــاظ على الطابع العربى بمصر ابان الحكم العثمانى » و « صـــور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر » •

وكذلك ماكتبه الدكتور محمد فؤاد شكرى عن الحملة الفرنسية ، ومصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، وما كتبـــه المؤرخ عبـــد الرحمن الرافعى ، فى تاريخ الحركة القومية وعصر محمـــد على ، وما كتبـــه المؤرخ الأمـــريكى « كرستوفر هيرولد » عن بونابرت فى مصر ، وغير ذلك من المصـــادر والمراجع المطبوعـــة التى جاء ذكرهـــا فى حواشى الرسالة ووردت فى قائمة المصادر والمراجع •

هذا عن أهمية البحث ومصـــادره •

أما عن ماهية هـــذا البحث • فيتكون من مقدمة وأحد عشر فصلا وملحق بأهم مصادر البحث ومراجعـــه • وقـــد توصلت بالاعتماد على تلك المصادر الى الحقـــائق الآتيـــة :

تناولت الرســـالة فى الفصـــل الاول : فى عجالة سريعـــة تاريخ الأزهر منذ الفواطم حتى قـــدوم الحملة الفرنسية ، وأبرزت بوجـــه خاص ، الظروف والملابسات السياسية التى أدت الى الوضـــع المتميز الذى تمتع به علماء الأزهر •

ففى بداية القرن الثامن عشر كانت حالة الدولة العثمانيـــة تنتقل من سىء الى أسوأ نظرا لسوء الحـــالة الداخليـــة وكثرة الحروب التى خاضتها ضـــد بعض الدول الأوربيـــة ، وخاصـــة الروسيا والنمسا ، وفى ظل هـــذا التطور بدأت تضـــعف قبضـــة الحكومة المركزية على ولاياتها رويدا رويدا مما ترك للقوى المحليـــة حرية أوســـع للعمل ، فتبـــدلت طبيعـــة الحكم فى الولايات العثمانية ، وتمكن المماليـــك فى مصر من ايقاف الانكشارية عند حدها ، وانشأوا جيشا خاصا بهم •

واضطرت تلك الفئـــات الحاكمة بدورها ، أن تمنح نفوذا أوسع للقوى الوطنيـــة ، فأصبح للعلماء تأثير كبير على الحكومة المحليـــة . وأصـــبح لهم نوع من الزعامة الاختيـــارية التى ارتضـــاها الحكام والمحكومين عى السواء .

وزاد من سلطة العلماء ، توزيع سلطة المماليك فى هـــذه الفترة بين عـــديد من المتنـــافسين ، وأصـــبح كل منهم فى حاجـــة الى دعم جمـــاهيرى ، فزاد تقربهم الى العلماء وضاعفوا من هداياهم اليهم . وأدرك العلماء بدورهم ، أن المماليك بحاجة اليهم ، بصفتهم وسطاء . ومفاوضين ، فزادوا فى الدالة عليهم ، وتضـــاعفت أهميـــة العلمـــاء السياسية وزادت ثرواتهم حتى شـــغلوا مكانا عليا فى المجتمع المصرى وعظمت قوة ارادة الشعب بهم .

وتقدمت حركة العلماء بالـــكفاح فى مجالين :

أولا : حملوا لواء المعارضـــــة فى ديوان القـــاهرة الذى كانوا أعضاء فيه بحكم مركزهم المرموق .

ثانيا : قادوا الحركات الشـــعبية الثورية ونظموا كفاح الشـــعب المصرى ضـــد حكامه الظالمين من العثمانيين والمماليك .

ففى مجال المعارضة بالديوان : اعتمدت الرسالة على وثيقة هامة لم تنشر بعد وهى بتـــاريخ ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) وهى عبارة عن مذكرة رفعها علماء الأزهر الى السلطان العثمانى ، يعارضـــون فيهـــا بعض قرارات السلطان المالية التى يأمر فيها بقطع بعض المرتبـــات الخيرية. وذلك بعد أن عارضوها معارضة قوية فى احـــدى جلسات الديوان . وهذا مما يدحض الرأى القائل بأن مشـــايخ الأزهر لم يشـــتركوا فى قضايا المجتمع ولم ينالوا مكانة الا بفضل الديوان الفرنسى .

وفى مجال قيـــادة الحركات الثورية : اعتمدت الرسالة على وثيقة

الحقوق الـكبرى التى أخذها علماء الأزهر على أمراء المماليـك بعـد الحركة الثورية التى قادها العلماء بزعامة الشيخ عبـد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى عام ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥ م) ضد ظلم المماليـك لأهالى بلبيس وهى الوثيقة التى طالما تحدث عن أهميتها المؤرخون دون علم بتفاصيلها ولم تنشر بعد •

وهكذا نرى أن الأزهريين خرجوا من النطاق الأكاديمى المغلق ، وشاركوا فى الحيـاة العـامة ، ونظموا كفـاح الشعب قبـل مجىء الحملة الفرنسية ، ولم تكن الحملة الفرنسية هى التى بعثت اليقظة كما يدعى البعض •

الفصل الثانى : عن سـياسة بونابرت الاسـلامية ، دوافعهـا ومظاهرها وموقف الأزهر منها •

هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر فى صيف عام ١٧٩٨ وانهارت قوة المماليك أمام الزحف الفرنسى ، وانتهج بونابرت سياسة اسلامية لخـداع الرأى العـام ، وذر الرماد فى عيون المصريين المسلمين ، وتخدير العاطفة الدينية ، للاستيلاء على قلوب المصريين بعد الاستيلاء على بلادهم ، فأغرق البـلاد بسيل من منشوراته التى ادعى فيهـا أن الفرنسيين مسلمون مخلصون ، وأنهم يحترمون النبى محمد عليـه الصلاة والسلام كما يحترمون القرآن العظيم •

بيد أن العلماء لم تخدعهم حيل بونابرت فانتهج كبار علماء الأزهر سياسة حذرة قوامها : المـداراة للمحتل الماكر ، حتى يهيئوا لأنفسهم فرصـة مناسبة للانقضاض عليه ، فقبلت هيئـة كبار العلماء عضوية الديوان الفرنسى ، وتزعم الشيوخ الصغار المقـاومة ونظموا الـكفاح وانضم شباب المجاورين الى صفوف المقـاومة وانتقل الأزهريون من نصر الى نصر •

رفض الشيوخ الكبار بالديوان الفرنسى ، التبعية الفرنسية عندما رفضوا أن يزينوا صدورهم بالشارة الفرنسية التى ترمز الى هذه التبعية •

رفضوا الأفكار الفرنسية التى بشر بها الفرنسيون فى جلسات الديوان ، والتى تتعارض مع تعاليم الدين الاسلامى ، وبذلك تصدوا لأولى حملات الغزو الفكرى الأجنبى فى البلاد •

فى الفصل الثالث : انتقل الأزهريون الى مرحلة الرفض للوجود الفرنسى فقادوا ثورة القاهرة الأولى التى تعد أول ثورة ضد الاستعمار الأجنبى فى تاريخ مصر الحديث ، وتغلبت قوة السلاح الفرنسى على شجاعة الثوار ، ودخل الفرنسيون الأزهر بخيولهم بعد اخماد الثورة وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتفوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه والقوها بصحنه ونواحيه » كما يقول الجبرتى ، وقدم الأزهر ابان هذه الثورة عددا من زعمائه ، استشهدوا فى ساحة الشرف ، فكتبوا بدمائهم الزكية صفحة مشرقة فى تاريخ الكفاح المصرى ، وآلمت بونابرت المقاومة المصرية بزعامة العلماء ، وتحطمت آماله فى الشرق فاتخذ طريقه سربا عائدا الى بلاده •

فى الفصل الرابع : مضى الأزهر لم تثقله الجراح ، بل على العكس أنضجته المعارك ، وصقلته المقاومة ، فشارك بنصيب وافر فى ثورة القاهرة الثانية ، وقدم فيها أيضا عددا من زعمائه الشهداء ، ولم ترهبه سياسة كليبر (خليفة بونابرت) التى انتهجها لاذلال علماء الأزهر ، بل على العكس قابل الأزهريون الارهاب بالارهاب •

فأعدت مجموعة ثورية من طلبة الأزهر خطة برواق الشوام لاغتيال كليبر ، ونجحوا فى تنفيذ هدفهم ، واستطاعوا بذلك أن

يوجهوا الى المستعمر ضربة رائعــة فى هـــدفها واحكامهــا ، والتى تميزت بضخامة الهــدف مع ضآلة الخســائر ، ولجأ المستعمرون الى تزييف بطلها (سليمان الحلبى) وحاولوا ابعاد الدافع الدينى ، الذى دفعه لارتكاب الحادث وأثبتوا الدافع الشخصى ، والمنفعة الشخصية فى محاضر التحقيق ، على الرغم من وضوح هدف سليمان فى الجهاد فى سبيل الله ، وقد وضعنا الحق فى نصابه فى هذا الموضوع •

وزاد اضطهاد الفرنسيين للأزهر ، وتعقبوا زعمــاءه وأجهدوهم بفرض الضرائب والتعذيب ، واضطر الأزهريون الى اغلاق الأزهر فى عهد (منو) وظل مغلقــا نحو عام من الزمان ، وتفرق غالبية طلبتــه وشيوخه فى الأقاليم ، وفقــدت القــاهرة عقلها المفكر باغلاق الأزهر ، فنعم الفرنسيون بهدوء نسبى ، ولجأوا عندما داهمتهم جيوش الانجليز والأتراك الى اعتقــال كبار العلماء بالقلعــة خوفا من قيــامهم بثورة عليهم •

وهكذا خرج الأزهر من هــذه الأزمة متوجا بتــاج من الفخار ، يعتز به فى مجال الدفاع عن البلاد فى مواجهة الاستعمار الأجنبى •

وكان من أهم النتــائج المستفادة من دروس الحمــلة ، أهميــة العامل الدينى فى الدفاع عن البلاد ، فقد ظهرت أهمية العامل الدينى فى تعبئــة الشعب للمقــاومة واعلان الجهاد الدينى ، وبذلك نرى أنه لم يحدث قط فى تاريخ الأمة الاســلامية من عصر الفتوح الى حرب رمضان ، أن انخذلت أمتنا فى معركة كانت العقيدة لواءها ، والايمــان ذخيرتهــا ، وارادة الجهــاد ســلاحها ، وهذا هو التفســير الحقيقى لتــاريخنا •

فى الفصل الخامس : تحــدثت الرســالة عن الأزهر ابان عصر الاضطراب السياسى ، فعقب جلاء الفرنسيين رزحت البلاد تحت وطأة عهد من الفوضى السياسية امتد من سنة ١٨٠١ — ١٨٠٥ م وتعــددت

فيـــه مراكز القوى فى البلاد ، من الانجليز والأتراك والمماليك ، ولم يلبث الانجليز أن رحلوا عن البلاد فى مارس ١٨٠٣ وتركز الصراع بين الأتراك والمماليك •

فالأتراك عادوا الى البـــلاد والفكرة المســـيطرة على أذهانهم هى أنهم نظروا الى مصر على أنهـــا فتح جـــديد ، وانعكست هذه الفكرة على معظم تصرفاتهم وكانت لديهم أوامر صريحة من البـــاب العـــالى بابعاد العلماء عن مسرح الحوادث وابعادهم عن دائرة الضوء ، وكان هذا جزءا من مخطط عثمانى كبير للقضـــاء على مراكز القوى فى البلاد ، أملا فى رجوع سلطة الدولة العثمانية الى قوتهـــا فقد كانت تريد أن يكون نفوذها عاليـــــا ، ومن ثم عزلوا قاضى القضـــاة المصرى الذى عينه الفرنسيون وعينوا قاضيا تركيا مكانه ، كما عزلوا عمر مكرم من نقابة الأشراف وعينوا نقيبا تركيا أيضا مكانه •

وطلب القاضى العثمانى الجـــديد من أرباب العقـــارات والأملاك أن يشتروها مرة ثانية من الدولة بحجة أن مصر قـــد ملكها الفرنسيون وبفتحهـــا صـــارت ملـــكا للسلطـــان ولـــكن علمـــاء الأزهر تصدوا له وناقشوه مناقشـــة علمية وطلبوا من الصـــدر الأعظم عـــزله ، فنزل على رغبتهم •

وفى غضون ذلك بلغ التـــذمر الشعبى مداه ، بسبب خيبة الأمل التى منى بهـــا الشعب ، فقد كان ينتظر العدل والانصاف من العثمانيين المسلمين بعد جلاء الفرنسيين أعـــداء الدين ، وأعلن العلمـــاء رفضهم للظلم أيا كان مصدره سواء كان مصـــدره الفرنسيون أعداء الدين ، أم كان مصدره العثمانيون حماة الدين كما يدعون •

ولقـــد كثرت الضرائب الجزافية فى فترة الاضـــطراب السياسى بكثرة المتصارعين على الحكم ، وحاول العلماء ايقاف الفوضى الضرائبية فى البـــلاد ، وعندما أثقل المماليك كاهل الشعب بالضرائب فى مارس

١٨٠٤ م تزعم العلماء حركة شعبية لطردهم من القاهرة ، وقد أوضح البحث تلك الحركة بوجـــه خاص وشرح مراحل تفـــكير العلمـــاء فى الثورة .

الفصل السادس : وهو عن دور العلماء فى خلع خورشيد وتولية محمـــد على بعـــد سلسلة من الانقـــلابات العســـكرية جاء خورشـــيد الى الحكم يدفعـــه جشع غير محدود لجمع الأموال من الشعب فابتدع مختلف الوسائل لابتزازها من الأهالى ، فتصدى له العلماء ، وأوقفوا اجراءاته الضرائبيـــة ، فاســـتجلب جنودا من الأكراد المتهورين لحكم القـــاهرة بالقوة وعبأ العلماء الشعب فى ثورة هادرة وحاصروه بالقلعة فى صفر ١٢٢٠ هـ (مايو ١٨٠٥ م) .

وبرز عمر مكرم كشخصية قوية وكزعيم لحركة العلماء وقادها فى يقظة واعية ، واليه يرجع الفضل فى نجاحها ، فقـــد استنفر الشعب لحمل السلاح ونظم حركة المقاومة والحصار .

وقدم العلماء الى خورشيد مطالب الشعب التى كان فى مقدمتها :

١ — اخلاء القاهرة من الجنود .

٢ — منع الارهاب العسكرى ، وعـــدم السماح لأى جنـــدى بدخول القاهرة حاملا سلاحا معه .

٣ — عدم فرض ضريبة على الأهالى بدون موافقة علماء الأزهر .

رفض خورشيد المطالب الشعبية فتطورت حركة العلماء وتقدمت الى الأمام خطوة أكثر جرأة حيث نادوا بخلع خورشد من الولاية .

وفى غضون ذلك ظهر محمـــد على كقائد للفرقة الألبانية ، وكان صـــاحب حيلة بمقتضى الفطرة فعمل على استغلال هذا المناخ المشحون بعوامل السخط والغضب من الأتراك لصـــالحه ، فتمكن من السيطرة الأدبية على شخص عمر مكرم زعيم العلماء ، وتمكن من اقناع العلماء

بأنه يعطف على قضــايا الشعب ، وقبل المطالب الشعبية التى رفضها خورشيد ، فاعتبره العلماء المنقذ الوحيد لحالة الفوضى التى تردت فيها البلاد فنادى به العلماء واليا على البــلاد حيث قبل المطالب الشعبية ، ولم يفكر العلماء فى تعيين مصرى واليا لأن السلطان لم يكن ليقر هذا التعيين ، ولم تكن حركتهم موجهة الى السلطــان وانمــا الى الوالى الظالم ، كما أنهم كانوا يعتبرون السلطان خليفة المسلمين وكان العلماء متشبعين بفكرة الوطــن الاســلامى الــكبير أكثر من تشبعهم بفكرة الوطن القومى وكان مفهوم الوطنيــة ملحقــا بمفهوم الدين ، وكانت العاطفــة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفــة الدينيــة بحيث كان يصعب الفصل بينهما •

الفصل السابع : (دور زعمــاء الشعب فى تدعيم سلطة محمــد على) تمكن محمد على من جنى ثمرة كفــاح الشعب ، ولم يظهر من جانبه فى العــامين الأولين من حكمه ، ما يجعل العلماء يشــعرون أنه لايريد مشاورتهم بل على النقيض من ذلك ، فقــد كان فى حاجة اليهم لمساعدته فى جمع الضرائب وعقد السلف والقروض لسد حاجته الملحة الى المال ، والاعتماد عليهم فى اقنــاع سلطان الآستانة بضرورة بقائه فى مصر ، ثم الاعتماد عليهم فى خداع المماليك وعــدم السماح لهم بدخول القاهرة مرة أخرى •

وقــد أوضــحت الرسالة بوجه خاص دور الزعمــاء فى مقاومة الانجليزية التى هبطت أرض مصر فى ربيع عام ١٨٠٧ بقيادة فريزر ، فقد برزت الزعامة الشعبية فى مجال جــديد هو تعبئة الشعب للدفاع عن حــدود البلاد ضد الغزو الأجنبى •

ففى الوقت الذى استعد فيــه جنود الأتراك بالقــاهرة للهروب عندما سمعوا بقدوم الحملة ، وتباطأ محمد على فى العودة من الصعيد خوفا من عواقب الأمور المرتقبــة •

قام العلماء بزعامة عمر مكرم بتعبئة الجماهير فى القاهرة للجهاد الدينى وحض القاهريين على حمل السلاح والتبرع لتسليح الشعب ، وذهب عمر مكرم الى طلاب الأزهر وهم عدته فى كل حركة وأمرهم بترك حضور الدروس ، وأمر المدرسين بترك الدراسة. وخرج الأزهر شيوخا وطلابا الى المدينة لتعبئة الرأى العام وأشعلوا الحماس فى قلوب القاهريين بما كانوا يلقونه من خطب على المنابر ومن المناداة فوق المآذن بضرورة الجهاد فى سبيل الله ، وأشرف عمر مكرم بنفسه على تحصين العاصمة ، وحقق الشعب انتصارا رائعا على الانجليز فى رشيد •

سمع محمد على بانتصار الشعب فأسرع فى العودة الى القاهرة. وأزعجته الاستعدادات الشعبية ، فقد ظهر واضحا أن الزعامة الشعبية قادرة على تعبئة الرأى العام وتجنيد الأهالى للدفاع عن البلاد . وأدرك أن هذا ليس من صالحه ، فعمل جاهدا على ايقاف هذا التيار الجارف ، وأعلن على المشايخ قوله « ليس على رعية البلد خروج. وانما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر » — وهكذا نظر محمد على الى قضية تسليح الشعب تحت قيادة الزعامة الشعبية بعين الريبة ووأدها فى مهدها ، وتكشف الموقف بعد جلاء الحملة عن مخطط لتصفية الزعامة الشعبية •

الفصل الثامن : (تصفية الزعامة الشعبية) عمل محمد على منذ طرد المماليك من القاهرة على توزيع كثير من القرى التى كانت بأيديهم. ودخلت فى حوزة حكومته على العلماء ، كما أطلق يده فى كثير من الأوقاف ، وكانت هذه المكاسب غير عادية ، كان غرض محمد على منها خبيثا وهو اظهارهم بمظهر المستغلين للشعب ، فزالت هيبتهم من نفوس الشعب ، وذلك لأنهم تناولوا نظام الالتزام بأدواته القائمة بما فيها من مساوىء (كاتخاذ الخدم والمقدمين والأعوان والحبس والتعذيب والضرب بالفلقة والكرابيج •••) •

وبذلك وقعوا فى الـــكمين الذى نصـــبه محمـــد على لهم بأحكام ودقة ، وأحدث هذا هدفا مزدوجا لمحمد على :

١ — زالت هيبة العلماء من نفوس الشعب •

٢ — تشاحن العلماء فيما بينهم على الظفر بهذه المـــكاسب فتصدعت جبهتهم وتم انقســـامهم وفشـــلت جهود العقـــلاء منهم لاعادة وحـــدتهم •

وبدأ محمد على يصطاد فى الجو العكر فتنـــاول الخـــلاف الذى بين العلماء وعمقه فحدد اقامة الشيخ « عبـــد الله الشرقاوى » شيخ الجامع الأزهر ونصر عليه فريقا آخر بزعامة « الشيخ محمد الأمير » وأهمل مشورة عمر مكرم فعاش فى عزلة عميقـــة من ســـنة ١٨٠٧ — ١٨٠٩ وبدأ فى تقليم أظافر العلماء ، فألغى امتيـــازاتهم من الأراضى المعفاة من الضرائب وســـواها بغيرها فى رمضـــاء ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧) وقرر الضرائب على أراضى الأوقاف تمهيدا للأستيلاء عليها وغير ذلك من الاجراءات الضرائبية •

آلمت تلك الاجراءات قطاعا كبيرا من الشعب فلجأوا الى ساحـــة الجامع الأزهر ، وعنـــدما طلب العلماء من محمد على رفع هذه المظالم قال لهم « لست بظـــالم وحـــدى فأنتم أظلم منى » ووجـــدها عمر مكرم فرصـــته الذهبيـــة للخروج من عزلته ، فتمكن من جمع كلمـــة العلماء فى البـــداية للتصـــدى لمحمد على فى وحدة قوية ، وتعاهـــد العلماء على الوحدة بالجامع الأزهر غير أنهم خرجوا وقلوبهم شتى •

ذلك أن محمد على تمكن من اصطياد شيخين من ضعاف النفوس وهمـــا الشيخ « محمد المهدى » والشيخ « محمد الدواخلى » واستغل حقدهما على عمر مكرم ، وأرخى لهما حبـــال الود ، ولوح لهما بالمنافع الشخصية ، وتمكن بذلك من تفريق كلمة العلماء ، وعزل عمر مكرم وشل

حركته وتقويض زعامته ، وعزله من نقـــابة الأشراف ونفاه الى دمياط، وحاول تشويه سمعته لدى الباب العالى •

فى الفصل التاسع : كان الحـــديث عن (نهاية الزعامة الشعبية) بعد نفى عمر مكرم تحطمت جبهة العلماء وقـــدم محمد على النفعيين منهم وعزل ذوى المبـــادىء الذين لا تلين لهم قنـــاة ، وواصل تنفيذ مخططه الى الحكم المطلق ، فدبر مؤامرة لاغتيـــال المماليك اغتيـــالا جماعيا بالقلعة فى عام ١٨١١ ، فأرهبت تلك المذبحة الزعماء والشعب ، فلا شك أن مذبحة القلعة كان لها تأثير مزدوج على المماليك والشعب •

ومضى محمد على غير هيـــاب ولا وجل فاســـتولى على أراضى الأوقـــاف ســـنة ١٨١٢ ثم اســـتولى على جميـــع الأراضى المصريـــة عام ١٨١٤ م •

واختفت معارضـــة العلماء العلنيـــة ، وغدت معارضتهم صامتة مكتومة ، وتزعم هـــذه المعارضة الصامتة المؤرخ الشيخ « عبد الرحمن الجبرتى » الذى أخـــذ يوجه النقد اللاذع الى محمد على وحكومته ، وكانت هذه المعارضـــة لها أثرها وخطورتها ، لأنهـــا تتصل فى جوهرها بضرورة توفر العـــدل فى الحاكم لوجوب الطاعة له من الشعب ، ولما كان محمد على غير متصف بالعـــدل فى نظر الجبرتى ، فقد وجب على الرعية عدم الطاعة له •

وخاف محمد على عاقبـــة نشر تلك المبـــادىء على الشعب ، وعزم على الانتقـــام من الجبرتى وتحطيم قلمه ، فتربص به وبأهل بينـــه ففى سنة ١٢٣٨ هـ روعه بقتل ابنـــه الوحيـــد « خليل » وتسببت تلك الحادثة فى ارهاب الجبرتى وغشيه الحزن حتى ابيضـــت عينـــاه من بكائه على وحيده ، وامتنع عن مواصلة تسجيل يومياته ، وظل منزويا بداره الى أن وافاه الأجل فى رمضان ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) •

وواصل محمد على سياسته فى الاجهـــاز على الأزهر ، وعنـــدما بدأ نهضـــته فى مصر لم يفكر فى اصـــلاح الأزهـــر ، بل رمقه بعين الريبـــة ، ونظر اليه على أنه البيئـــة الوحيدة فى مصر لنمو المعارضة المصرية فأنشأ المـــدارس الحديثة بعيدا عنه ، وربى بهـــا طائفـــة من أنصاف المتعلمين الذين يدينون بالولاء له ، ويكونون عبيـــد احســـانه وهو ولى نعمتهم •

وتم عزل الأزهر بذلك عن الحيـــاة العصرية وأهمل أمره ، فبـــدأ يضمحل نفوذه ، ودخل فى دور من أدوار الضعف ، وعاد علماؤه الى النطاق الأكاديمى المغلق ، وأصبحوا فى وحشة مع المجتمع وفى جفوة معـــه •

هذا وقـــد اقتضى البحث أن نعرض فى ايجاز شديد فى الفصل العاشر (لدور الأزهـــر فى الحيـــاة العلميـــة) ابان فترة البحث مع الاشارة الى أثر الحمـــلة الفرنسية فى طائفـــة منهم وهم « الجبرتى والخشاب والعطار » •

وصفو القول أن محمد على قضى بذلك على الطلائع الأولى لليقظة المصرية ، وانتقلت قيـــادة الأمة من أيدى الصفوة المتعلمة وتركزت فى الجيش فتغلبت على البـــلاد الروح العسكرية فجرتهـــا الى مغامرات خارجية شخصية جرت عليها الدمار والخراب والاستعمار فى النهاية•

واذا كان محمد على قـــد نجح فى تكوين جيش جديد فى مصر ، ولم تلبث القوى الحربيـــة القـــديمة أن أصـــابها الفناء ، فان التعليم لم يصبه الفنـــاء ، بل ظل يحيـــا جنبا الى جنب مع التعليم الحديث ، ويجدد نفسه يوما بعـــد يوم ، وما زال الأزهر يشارك فى تربية ناشئة البـــلاد ، والاشراف على شئون التربية والتعليم فى مصر الى يومنـــا هـــذا •

وأخيرا فهذا اسهام متواضــع فى الــكتابة عن دور الأزهر فى تاريخ أمتنا ، فى فترة وجيزة من حيــاته المــديدة الحافلة ، لعلها تفى ببعض ماله فى أعنــاقنا من فضل ، ولا أدعى لهــذا العمل الــكمال فالــكمال لله وحده ، وفوق كل ذى علم عليم ، وكل ما أرجوه أن أكون قــد وفقت فى اخراجه وفقا لمــا يتطلبه منهج البحث ، فلهذا حاولت مااستطعت الى ذلك سبيلا ، وان كانت الأخرى فحسبى أننى اجتهدت، ولم أدخر جهدا فى سبيل ذلك ، وجل المنزه عن الخطأ أسأله سبحانه أن يكون عملى هذا مقبولا ، وسعى مشكورا ، انه سبحانه خير مسئول.

ولا يسعنى فى هــذا المقــام ، الا أن أقــدم أســمى آيات الشكر والعرفان بالجميل الى أســتاذى الفــاضل الدكتور عبد العزيز الشناوى ، فقــد منحنى من وقتــه الثمين والضيق الشىء الــكثير ، على الرغم من مشاغله الــكثيرة ، وكان لتشجيعه وتوجيهاته أثر طيب فى اخراج هــذا البحث ، وكذلك الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور محمود منسى الذى أعطانى من وقته وجهده مالا أنساه ، كما لايفوتنى أن أقدم وافر الشكر الى موظفى (دفتر خانه الشهر العقارى) بالقاهرة ، فقد يسروا لى مهمة الاطلاع على كثير من الوثائق المودعة بالدار ، وكــذلك الى موظفى دار الوثائق القوميــة بالقــاهرة فقــد قدموا لى خدمات لا أنساها .

القاهرة فى ١٩٨٥/١١/١

دكتور

مصطفى محمد رمضان

الفصل الأول

الأزهر منـــذ الفواطم حتى عهــد الحمـــلة الفرنسية

الأزهر فى العصر الفاطمى :

تمهيد : فى نشأة الأزهر السياسية :

منذ أن أسس العباسيون دولتهم بالعراق فى سنة ١٣٢هـ (٧٥١م) أخذ العلويون [١] يناوئون سلطانهم ، لاعتقادهم أنهم أحق بالخلافة منهم ، وقد أنشأ العلويون مراكز لهم فى كثير من الأماكن ، ففرقة القرامطة [٢] العلوية استطاعت أن تؤسس لها امارة فى البحرين ، واستطاع الحمدانيون [٣] أن يؤسسوا لهم مراكز فى سورية واستقلوا بها وجعلوها قاعدة علوية ، كما استبد البويهيون [٤] بالخلفاء العباسيين فى بغداد وبسطوا سلطانهم فى العراق وفارس وفرضوا عليها المذهب العلوى حتى لم يعد للخليفة العباسى من الأمر شىء .

---

(١) العلويون هم الذين ينتسبون الى على بن أبى طالب بن عم الرسول عليه السلام وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، ولقد ضيق الخلفاء العباسيون الخناق عليهم ، ولذلك عمد أئمة الاسماعيلية منهم الى الاختفاء ونشر دعوتهم فى الكتمان ، فاتخذوا من مدينة سلمية بالشام مركزا لنشر دعوتهم ، وانتشر دعاتهم من هذه البلدة الصغيرة الى مختلف البلدان والذى يعنينا منهم هنا هم الفرقة التى انتشرت بالمغرب وهم أتباع عبيد الله المهدى من الاسماعيلية (أنظر تفصيل الحديث عن نشأة الفرق الشيعية فى مؤلف — د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى — الطبعة السادسة — القاهرة — ١٩٦٢ جـ ٣ ص ١٩٢ — ٢٠٣) .

(٢) القرامطة فرقة من الشيعة الاسماعيلية . المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٢ .

(٣) ، (٤) الحمدانيون والبويهيون من الشيعة الاسماعيلية — المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٠١ — ٢٠٣ .

واستطاع المهدى « عبيدالله الفاطمى » أن يوطد حركته فى المغرب ثم استطاع الفاطميون من بعده أن يمدوا نفوذهم الى مصر فى عهـد المعز لدين الله رابع الخلفـاء الفاطميين بالمغرب ، فـدخلت الجيوش الفاطمية مدينـة الفسطاط بقيـادة جوهر الصقلى فى السابع عشر من شعبان ٣٥٨ هـ (١٧ يوليو ٩٦٩ م) (٥) وأسس الفاطميون بمصر حاضرة جـديدة لملـكهم سموها القـاهرة تفـاؤلا بالنصر (٦) ، ففى نفس الليـلة التى دخل فيهـا جوهر الصقلى الفسطاط وضع مخططا لمدينة القاهرة لتكون قاعـدة لملـكهم فى مصر ، ومعقـلا ومركزا للخـلافة الفـاطمية (٧) .

ثم بنى الفـاطميون بعـاصمتهم مسجدا جامعـا سموه بالأزهر بدأوا فى انشائه فى ٢٤من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠م) وتم بنـاؤه فى ٧ من رمضان ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) فاستغرق بناؤه عامين

---

(٥) محمد عبد المنعم خفاجه الأزهر فى الف عام — الطبعة الأولى — القاهرة ١٣٧٤ هـ جـ ١ ص ١٣ .

(٦) اختلف المؤرخون فى هـذه التسمية ، فقيل انهـا تتعلق بطـالع المـدينة الفلـكى فقد وضع أساسها جوهر الصقلى حين طلوع كوكب يقال له القاهر وقيل : لأنها تقهر من شذ عنها ، أو أن هذا الاسم مأخوذ من قول المعز لجوهر حين وجهه الى فتح مصر : « ولتـدخلن الى مصر ... وتبنى مدينـة تسمى القـاهرة تقهر الدنيـا » (محمد عبد الله عنـان — تاريخ الجامع الأزهر — الطبعـة الثانية — القاهرة ١٩٥٨ صص ١٦ — ١٧) .

(٧) عرفت مصر قبل قيـام القاهرة ثلاث عواصم اسـلامية أولها : الفسطاط التى أنشأها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) عقب الفتح الاسلامى ، والثانية : مدينة العسكر التى أنشأها العباسيون عقب انتزاعهم مصر من الأمويين سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) والثالثة : مدينـة القطائع التى أقامها أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) .

وثلاثة أشـــهر ، وافتتح للصـــــلاة فى يوم الجمعـــة ٧ من رمضـــان ٣٦١ هـ [٨] .

واذا كان قيـــام القاهرة المعزية رمزا لظفـــر الدولة الفاطميـــة وسيادتها ، فقـــد كان قيـــام الجـــامع الأزهر رمزا لســـيادة الدعوة الفاطميـــة .

وقـــد أصبح الأزهر منذ انشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمى فـــكانت تقـــام فيـــه صلاة الجمعة والعيدين ، وكان الخليفة الفاطمى يؤم النـــاس بنفسه ، وكانت أول صـــلاة أقامها الخليفة المعز لدين الله بالأزهر هى صـــلاة عيـــد الفطر ســـنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) حيث ركب الخليفة الى المسجد وأم النـــاس فى الصلاة ، وألقى خطبة رائعة كان لها تأثير بالغ فى نفوس المصلين وظل المعز يخطب فى الأزهر بنفسه [٩] فى الجمع الثـــلاث الأخيرة من شهر رمضان وفى الأعياد ، وتابعه فى ذلك بنوه من بعده ، حتى تم انشاء جامع الحـــاكم بأمر الله ، فأقيمت فيه صـــلاة الجمعة فى شهر رمضان سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) حيث أم الخليفة الحاكم بأمر الله الناس فى الصلاة [١٠]

وقـــد عنى الفاطميون بتنظيم الاشراف على الأزهر ، فعينوا له فقيها يتولى الخطابة فى صلاة الجمعـــة والحفـــلات الدينية بين يدى

---

(٨) أقيم فى كل حاضرة من هـــذه الحواضر (الفسطاط والعســـكر والقطائع) مسجد جامع ، كانت على التوالى : جامع عمرو بن العـــاص ، وجامع العسكر ، وجامع احمد بن طولون .

(٩) أنظر هيئـــة صـــلاة الجمعة الخليفية فى كتاب : محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره صص ٩٧ — ٩٩ .

(١٠) د. حسن ابراهيم حسن ، د. جمال الدين سرور — الأزهـــر تاريخه وتطوره — وزارة الأوقاف وشئون الأزهر — القـــاهرة — ١٩٦٤ ١٩٦٤ صص ١٨ — ١٩ .

الخليفـــة أو نائبـــه ، كما نظموا شئون المســـجد بصـــفة عامة ، وفى أواخر العصر الفاطمى تسند الى كبار رجال الدين مثل داعى الدعاة ، أما الشئون الخاصة بالدراسة والأساتذة والطلاب فكان يرجع فيها الى الخلفاء ونوابهم من كبار رجال الدولة (١١) .

حلقات الدعاية بالأزهر :

كانت المساجد الجامعـــة منذ صـــدر الاسلام حتى انشاء الأزهر محور الارتكاز تقوم حولها خطط القبـــائل المختلفـــة ، وتحمل منـــذ البـــداية طابعـــا رســـميا ، وكانت كـــذلك مركزا للدعوات والخطب والمجـــالس الرســـمية وبهـــا يعقـــد ديوان الخراج ، ومجلس القضاء الأعلى ، ويجلس بهـــا قاضى القضاة ، وتتلى فيهـــا الأحكام والأوامر والمنشورات ، وكانت أيضا مركزا للحلقات العلمية والأدبية ، وعلى هذا النحو كانت المساجد الجامعـــة فى مصر قبل الأزهر ، فـــكانت تعقـــد فيها الحلقـــات العلمية على مختلف المـــذاهب الفقهية ، فجـــامع عمرو ابن العاص أنشئت به منذ أوائل القرن الثالث عدة زوايا يدرس بهـــا الفقه على مختلف المـــذاهب ، وكان لـــكل زاوية أســـتاذ يجرى عليـــه الرزق ، وكان منهـــا الزاويـــة المشـــهورة التى تنســـب الى الامـــام الشافعى (١٢) .

والأزهر منذ انشائه كانت له تلك الصـــفات كلها ، غير أنه كانت لاتدرس فى حلقـــاته غير دروس الفقه الشيعى بخطة دراسية موجهة دعمهـــا وقواها الخلفـــاء الفاطميون أنفسهم ووزراؤهم العظام ، وكان

---

(١١) المرجع السابق ص ١٨ .

(١٢) تقى الدين المقريزى . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . مكتبة احيـــاء العلوم . لبنـــان — بيروت — لم تذكر سنة الطبع . ج ٣ ص‌ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

على رأسهم يعقوب بن كلس الذى كان يلقى بنفسه بالأزهر دروسا فى الفقه الشيعى على المذهب الفاطمى •

وقد استصحب الفاطميون معهم الى عاصمتهم الجديدة بمصر دعاتهم من أرباب الفقه الشيعى الذين تربوا تربية فاطمية خاصة فى شمال أفريقيا ، ومن هؤلاء بنو النعمان ، وهم من أكابر علماء الشيعة بالمغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية وجعلتهم دعاتها وأصلهم من القيروان وينتسبون الى أبى حنيفة النعمان (١٣) ابن محمد بن منصور القيروانى الذى كان من أعظم علماء الشيعة بالمغرب تولى القضاء للمعز لدين الله بالمغرب وقدم معه الى مصر هو وبنوه، وتولى ابنه « على بن النعمان » منصب قاضى القضاة بمصر فى أواخر عهد المعز لدين الله ، وكان من أعظم دعاتهم ، وكانت حلقات أولئك العلماء المغاربة بالأزهر فى بادىء أمرها حلقات دعاية دينية وسياسية يحضرها فى غالب الأمر الأكابر من العلماء والخاصة من الناس ، ولم تكن لها صفة الدروس العامة (١٤) •

بداية الدراسة الجامعية :

يذكر المقريزى أنه فى أواخر عهد المعز لدين الله (صفر سنة ٣٦٥هـ — أكتوبر سنة ٩٧٥م) جلس قاضى القضاة « على بن النعمان » بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت وهو المسمى بكتاب « الاختصار » فى جمع حافل من العلماء والكبراء وأثبتت

---

(١٣) أبو حنيفة المغربى : يسميه الاسماعيلية « سيدنا القاضى النعمان » ليميزوا بينه وبين أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى، كما يسمونه أحيانا أخرى « القاضى الأجل » ويعرف عندهم أيضا « بأبى حنيفة الشيعة » (د. حسن ابراهيم حسن وزميله — مرجع سبق ذكره ص ٣٠) •

(١٤) محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره ص ٤١ •

أسماء الحاضرين فكانت هذه أول حلقة فى الجامع الأزهر ثم أعقبتها حلقات دراسة العلم على يد بنى النعمان وغيرهم من علماء الشيعة أمثال (المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى) الذى تقلد رياسة الدعوة بمصر سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٨ م) (١٥) .

وفى أوائل عهد العزيز بالله حدث بالجامع الأزهر حدث جامعى آخر . فقد جلس بالجامع الأزهر يعقوب بن كلس وزير المعز لدين الله ثم وزير ولده العزيز بالله من بعده ، وقرأ على الحاضرين من الناس كتابا ألفه فى الفقه الشيعى على مذهب الفاطميين . يحتوى على ماسمعه فى أصول المذهب من المعز لدين الله وولده العزيز ، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية نسبة الى مؤلفها الوزير « يعقوب » (١٦) وكان يجلس لتدريسه ويجتمع على حلقته خاصة الناس ، وعامتهم كما كان يحضر عليه الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر ورجال الدولة ، وأفتى الناس يومئذ بما فيه حتى ليذهب البعض الى أن « مجالس ابن كلس » كانت أول مجالس

---

(١٥) انحدر المؤيد فى الدين من أسرة فارسية من شيراز اتخذت التشيع دينا لها والفاطمية مذهبا ، وتقلد رياسة الدعوة الاسماعيلية فى شيراز سنة ٤٢٩ هـ ورحل الى مصر سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٧ م) .

(١٦) ولد يعقوب بن كلس ببغداد ورحل الى مصر حيث تربى فى حاشية كافور الأخشيدى حتى صار فى ديوان كافور الخاص وكان على دين اليهودية فأسلم ولزم الصلاة ودراسة القرآن وتفقه فى الدين ، ولما مات كافور كان (أبو الفضل جعفر بن الفران) يحسده فقبض عليه وسجنه ، ولما خرج من السجن سافر الى المغرب ولحق بخدمة المعز لدين الله الفاطمى ، وجاء فى ركابه الى مصر ، وظل يترقى حتى تولى الوزارة للعزيز سنة ٣٦٥ هـ وعظمت منزلته فى الدولة ، وينقل ابن خلكان عن ابن زولاق أنه تولى الوزارة للمعز لدين الله أيضا ، وانه أول من وزر للدولة الفاطمية فى مصر ، وكان يحب العلم والعلماء ، ويجتمع العلماء عنده (ابن خلكان — وفيات الأعيان : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — القاهرة — ١٩٤٨ جـ ٦ صص ٢٦ — ٣٤) .

جامعية حقيقيـــة عقدت بالجامع الأزهر ، وكانت تمتـــاز عن مجالس بنى النعمان بتحررها من القيود الرسمية واتجاهها نحو الغايات العلمية قبل اتجاهها نحو المثل المـــذهبية . كان انشاء الأزهر يرجع الى غاية مذهبية أريد بهـــا أن يكون الأزهر رمزا للخـــلافة الجـــديدة ومنبرا لدعوتهـــا (١٧) .

كما كان ابن كلس هو أول من فـــكر فى اتخـــاذ الجامع الأزهر معهدا للدراسة المنظمة المستقرة ففى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) استأذن ابن كلس الخليفـــة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جمـــاعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلســـه ويلازمونه ، ويعقـــدون دروسهم بالأزهر فى كل جمعـــة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيها ، ورتب لهم العزيز أرزاقا خاصة ومرتبات شهرية وأمر بانشاء دار لسكناهم بجوار الأزهر « وخلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات » وذلك تشريفا لهم وتكريما ، وكان لهم أيضا من مال الوزير « يعقوب » صلة فى كل سنة (١٨) ويعتبر هـــذا أول فوج من الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجـــامع الأزهر وأجـــريت عليهم الأرزاق الثابتـــة وباشروا مهمتهم العلمية تحت اشراف الدولة بطريقة منظمة مستقرة ، وأن الأزهر اكتسب عندئذ لأول مرة صفته العلميـــة الحقيقيـــة كمعهد للدراسة المنظمـــة بادئا بذلك حيـــاته العلمية الحافلة الطويلة (١٩) .

---

(١٧) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره ص ٤٣ .

(١٨) المقريزى — الخطط — ج ٣ ص ٢٣٠ .

(١٩) محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره ص ٤٤ .

دار الحكمـــة :

ويبـــدو أن الفـــاطميين تحرجوا من كثرة الدعوة لمـــذهبهم فى المساجد وخاصة فى الجـــامع الأزهر ، فأنشأوا لذلك دارا خاصة كانت تسمى « دار الحكمة » أو « دار العلم » لبث الدعوة الفاطمية بطريقة علمية منظمـــة تمتزج فيهـــا النظريات والآراء الفلســـفية بالأصـــول والمبـــادىء المـــذهبية ، ولـــكى تـــكون أبعـــد أثرا فى غزو الأذهان والعقـــائد من مجالس الأزهر ، والمجالس الأخرى التى كانت تعقـــد بالقصر ، وأوكل الفاطميون الاشراف على شئونها الى داعى الدعاة ، وأنشأوا لها ديوانا خاصا بشئونها (٢٠) .

ومع أن دار الحكمة نافست الأزهر مدى مائة عام فى الدراسات العلمية والفقهية الممتازة ، لكن الأزهر ظل فى هذه الفترة ملاذا للعلوم الدينية المحضة ، واعتنت دار الحكمة بدراسة عقائد المذهب الفاطمى، وكانت تدرس بهـــا بجانب ذلك علوم اللغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة وما اليها (٢١) .

نظام الأروقة المبكر بالأزهر :

عنيت الدولة الفاطميـــة منذ انشاء الأزهر باستقدام الطلاب الى الأزهر من البـــلاد التى تحت سيطرتها لدراســـة المـــذهب الفاطمى ، وهؤلاء الطلاب تكونت منهم الأروقة بالأزهر منذ انشائه ، وكان طلاب كل ناحيـــة من البـــلاد تسكن فى ناحيـــة من المسجد (٢٢) ، ويذكر المقريزى أن عدد الطلبـــة الغرباء الذين كانوا يلازمون الاقامة بالأزهر فى الأروقة الخاصـــة بهم فى عصره فى أوائل القرن التاسع الهجرى

---

(٢٠) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره صص ٥٠ — ٥٣ .

(٢١) المقريزى — الخطط — جـ ٢ ص ٣٤٠ .

(٢٢) محمد عبد المنعم خفاجه — مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٣٦ .

بلغ ٧٥٠ طالبا « مابين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة »(٢٣) وهو رقم كبير يدل على ضخامة العدد الذى كان يضمه الأزهر بصــفة عامة من طلاب مصر وطلاب الأمم الاسلامية المختلفة فى تلك العصور. وكان هؤلاء الطلبــة لا يؤدون عن تعليمهم أية نفقــة أو كلفة ورتبت لهم الدولة أرزاقا منتظمة تكفى للانفاق عليهم (٢٤) .

مشاركة الأزهر فى الحياة العلمية فى العصر الفاطمى :

كان للأزهر نشاط ضخم فى الحيــاة العلمية فى العصر الفاطمى كله حتى نهاية عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، ولقد تقــدمت بذلك الحركة العلمية فى مصر عنهــا فى العهــدين الطولونى والأخشيدى ، ويمكن أن نقــارن بما كان فى العراق مهد الخــلافة العباسية ، فقد ازدهرت العلوم العقليــة والفلسفية فى القــاهرة وسارت شوطا بعيدا ، وظهر كثير من المؤرخين والفلاسفة والعلماء والرياضيين واللغويين والنحويين والأدباء .

ومن المرجح أن فقيــه مصر ومؤرخها الحسن بن زولاق ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) كان من الذين تولوا الدراسة بالأزهر يومئذ ، فقــد كان صــديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته ، ثم صــديق ولده العزيز من بعــده ، ومن المعقول أن يقع عليه الاختيــار للتدريس بالمعهد الفاطمى الجديد (٢٥) . وكان من أساتذة ذلك العصر ودرس بالأزهر المؤيد فى الدين هبةالله الشيرازى(٢٦) داعى الدعاة فى عهد المستنصر الفاطمى ومنهم

---

(٢٣) المقريزى — الخطط — جـ ٣ صص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٢٤) انظر تفصيل ذلك فى البحث الذى كتبنــاه عن دور الأوقاف فى دعم الأزهر ، القاهرة ، سنة ١٩٨٤ م .

(٢٥) محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره — ص ٨٦ .

(٢٦) انظر بعض مؤلفات المؤيد ومحــاضراته بالأزهــر فى كتاب — محمد عبد المنعم خفاجه — مرجع سبق ذكره صص ٣١ — ٣٤ .

المسبحى « محمد الحرانى » المتوفى ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) تولى الوزارة للحاكم بأمر الله وألف عدة كتب فى التاريخ منها تاريخه « أخبار مصر وفضائلها » وقد ضاع هذا الكتاب ووصلتنا منه بعض الشذور عن المقريزى وغيره من المؤرخين ، ومنهم ابن الهيثم الفيلسوف ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) والقضاعى الفقيه المحدث ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) وابن باشاذ ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) والشاطبى الضرير الذى برع فى علوم القرآن ٥٩٠ هـ [٢٧] (١١٩٣ م) .

الأزهر فى العصر الأيوبى ٥٦٧ — ٦٤٨ هـ (١١٧١ — ١٢٥٠ م)

عصر الانتقال على يد صلاح الدين :

تمهيد : نجحت الحركات العلوية كما سبق أن شرحنا فى تمزيق دولة الخلافة العباسية ، حتى ضعفت فى العصر الفاطمى ، ولم يستطع أهل السنة الوقوف أمام هذه الحركات العلوية الا عندما أدرك الوزير النابه « نظام الملك » السلجوقى سنة ٤٨٥ هـ (١١٩٤ م) أن محاربة العلويين لاينبغى أن تكون فى قهرهم عسكريا وسياسيا فحسب ، بل وفى قهرهم ثقافيا واداريا ، ولم تكن هذه المعركة الثقافية والادارية معركة سهلة ، فقد بذل فى سبيلها كل غال وكل جهد حتى استطاع أو يتوصل الى أغراضه [٢٨] .

رأى نظام الملك أن النشاط العلمى لهؤلاء القوم يجب أن يواجه بنشاط علمى مماثل ، وأن الدعاية العلوية يجب أن تقاوم بدعاية مثلها ، ولذلك أخذ يفكر جديا فى انشاء مراكز ثقافية تقف أمام ذلك

---

(٢٧) انظر تفصيل الحديث عن هؤلاء الأعلام فى كتاب : محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره ص ص ٨٦ — ٩٠ .

(٢٨) البروفسور : رجيس بلاشير — مقدمة كتاب « التربية والتعليم فى الاسلام » للدكتور محمد اسعد طلس — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٥٦ ص ٢٨ .

انتشاط ورأى ضرورة ايجاد معاهد علمية منظمة تخرج رجالا يستطيعون الوقوف أمام الدعوة العلوية ، وكانت تلك المعاهد تحمل اسم ذلك الوزير وكان فى مقدمتها المدرسة النظامية فى بغداد [٢٩] .

وقد ورث الأتابكة عن السلاجقة العناية بتأسيس المدارس فانتشرت المدارس فى عهدهم الى غرب العالم الاسلامى ، وتولى نور الدين محمود بن زنكى حركة تشييد المدارس ، ففى عهده انتشرت المدارس فى الشام والجزيرة وكان يفد الى هذه المدارس العلماء من نيسابور وبغداد .

وورث صلاح الدين الأيوبى عن نور الدين نظام تأسيس المدارس لنشر المذهب السنى ، فعندما قدم الى مصر وتقلد الوزارة على عهد العاضد وجه اهتمامه الى القضاء على المذهب الشيعى فى مصر بنفس الطريقة التى اتخذها نظام الملك السلجوقى فى بغداد والشرق ، وهى انشاء المدارس التى تعنى بتدريس فقه أهل السنة والجماعة فأنشأ فى عهد العاضد « المدرسة الناصرية » سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) بجوار جامع عمرو بن العاص بالفسطاط لتدريس المذهب الشافعى الذى كان صلاح الدين يدين بعقائده ، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة فى ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكى عرفت باسم « المدرسة القمحية » [٣٠] .

ثم عزل صلاح الدين قضاة الشيعة وأسند وظيفة قاضى القضاة فى مصر الى « صدر الدين عبد الملك بن درباس » الشافعى. فعمل بمقتضى مذهبه ، بالامتناع من اقامة خطبتين للجمعة فى بلد

---

(٢٩) المرجع السابق — ص ٣٠ .

(٣٠) د. عبد الرحمن زكى — القاهرة — تاريخها وآثارها من جوهر القائد الى الجبرتى المؤرخ (٩٦٩ — ١٨٢٥ م) الدار القومية — القاهرة — ١٩٦٦ — ص ٧١ .

واحد ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقامها بالجامع الحاكمى . وظل الجامع الأزهر معطلاً من اقامة الجمعة فيه الى أن أعيدت فى أيام الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) (٣١) .

وبعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وانتقال السلطة الى صلاح الدين توسع فى تشييد المدارس ، فبنى مدرسة لفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم « المدرسة السيوفية » (٣٢) وشيد مدرسة أخرى لدراسة الفقه الشافعى بجوار ضريح الامام الشافعى (٣٣) وامتد نشاط المدارس السنية بعد صلاح الدين الى أبنائه وأمرائه من بعده ، حتى بلغ عددها فى القاهرة وحدها حوالى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) ثلاث عشرة مدرسة (٣٤) ، وقد تحدث عن هذه المدارس ابن جبير الذى زار القاهرة فى عهد صلاح الدين (٣٥) .

ولقد أريد لهذه المدارس السنية فى بداية أمرها القضاء على الأزهر ، ولكنه صمد وظل يمارس مهمته العلمية فى ظل الأيوبيين، وكل ما هنالك أنه تحول الى معهد سنى لدراسة علوم الدين على المذاهب الأربعة واختلف منهاج الدراسة فى هذا العصر عنه فى العصر الفاطمى ، فقد تعين لكل مذهب شيخ كان له الاشراف الكامل على الطلاب الذين يتبعون مذهبه .

---

(٣١) المقريزى — الخطط — ج ٣ ص ٢٣٣ .

(٣٢) خربت تلك المدرسة وحل محلها الآن جامع الشيخ مظهر بشارع المعز لدين الله على يسار الداخل الى شارع المعز لدين الله من شارع السكة الجديدة — د. عبد الرحمن زكى — مرجع سبق ذكره ص ٧٢

(٣٣) هدمت هذه المدرسة فى عهد الأمير عبد الرحمن كتخدا وحل محلها مسجد الامام الشافعى (المرجع السابق — ص ٧٢) .

(٣٤) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٣٥) محمد بن جبير — رحلة ابن جبير — مطبعة المشهد الحسينى — القاهرة — لم تذكر سنة الطبع — ص ٤٠ ، ٤٢ .

وقصـد كثير من العلماء البـارزين الأزهـر فى العصر الأيوبى أمثـال عبـد اللطيف البغـدادى الذى وفـد على مصر سنة ٥٨٩ هـ (١١٨٩ م) أيام الملك العـزيز بن صـلاح الدين وتولى التـدريس بالأزهر بضـعة أعوام ، كما وفـد على مصر الطبيب موسى بن ميمون المعـاصر لعبـد اللطيف البغـدادى وألقى دروسا بالأزهر فى الطب والرياضـة والفلك (٣٦) وأصبح الأزهر مسرحا لنشاط كثير من العلماء أمثال العـلامة الشاعر الصوفى المصرى « عمر بن الفارض » المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) وقـد لبث حينـا يقيم بالجامع الأزهر ، وكان يعقد حلقـاته الصـوفية والروحية به ، ومنهم الشيخ « أبو القاسم المنفلوطى » والشيخ المحـدث « سـعد الدين الحارثى » ، والشيخ « جمـال الدين السيوطى » و « شهاب الدين السهروردى » والمؤرخ « شمس الدين ابن خلـكان » صـاحب « وفيات الأعيان » المتوفى سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) فقد وفـد على القاهرة سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩م) وأقام بها حينا وألقى دروسه بالجـامع الأزهر كما ذكر عن نفسه فى كتابه (٣٧) .

الأزهر فى العصر المملوكى ٦٤٨ — ٩٢٣ هـ (١٢٥٠ — ١٥١٧ م) :

بعـد وفاة الملك الصـالح نجم الدين أيوب فى سـنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ابان معركة المنصورة ، انتهت بذلك دولة بنى أيوب بمصر ، وكان الصـالح قـد أكثر من شراء المماليـك فى عهده فعقب وفاته قتلوا ابنه (توران شاه) ، واستبدوا بعـدها بالحكم فى مصر وظلوا يتوارثونه حتى الفتح العثمانى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) .

---

(٣٦) محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره — صص ١١١—١١٢

(٣٧) وفيـات الأعيان — جـ ٢ ص ٥٥٨ ، ومحمد عبد الله عنـان — مرجع سبق ذكره صص ١١٢ — ١١٣ ومحمد عبد المنعم خفاجة — مرجع سبق ذكره جـ ١ صص ٦١ — ٦٢ .

أدرك سلاطين المماليك فى عهدهم أهمية الأزهر الثقافية ، وعلى الرغم من أنهم سنيون ، فقد رأوا أو السنية لاتتعارض مع الأزهر بعد زوال الفكر الفاطمى منه وسرعان ما اتجه المماليك الى الأزهر ، ورأوا ضرورة عودة النشاط العلمى الى أروقته وتوجيهه وجهة سنية صحيحة ، وكان الظاهر بيبرس أول من عنى منهم بالأزهر ، فأعاد اليه خطبة الجمعة فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) بعد أن ظلت معطلة به نحو مائة عام [٣٨] وأوكل الى الأمير « عزالدين أيدمر الحلى » نائبه فى السلطنة أمر العناية بالأزهر وتجديد عمارته ، ورتب فيه دروسا لقراءة الفقه الشافعى واسترد له كثيرا من أوقافه المغصوبة [٣٩] .

وكان لسقوط بغداد فى يد المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٣٥٨ م) وتقهقر المسلمين فى الأندلس أمام ضربات الفرنجة المدمرة التى أضعفتهم وقربتهم الى النهاية . كانت هذه الحوادث تهيىء لمصر وللأزهر أسمى مكانة ، فقد استقبلت مصر كثيرا من العلماء النازحين من بغداد والأندلس وأصبحت مصر مركز الاشعاع الحضارى فى العالم الاسلامى ، ومحط آمال المفكرين ، وتركزت آمال المسلمين فى معاهد القاهرة وبخاصة الأزهر [٤٠] .

وقد توسع سلاطين المماليك فى بناء المدارس بمصر فى عهدهم حتى أنهم أنشأوا ثلاثا منها ملاصقة للأزهر ، فأنشأ الأمير « علاءالدين طيبرس » مدرسة عرفت بالمدرسة الطيبرسية على يمين الداخل من باب المزينين المطل على ميدان الأزهر سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وقرر

---

(٣٨) المقريزى — الخطط — جـ ٣ ص ٢٣٣ .

(٣٩) محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره — ص ١٣ .

(٤٠) د. أحمد شلبى وزميله — الأزهر تاريخه وتطوره — ص ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

بها درسا للفقهاء الشافعية [٤١] . وبنى الأمير « أقبغا عبد الواحد » مدرسة أخرى عرفت بالمدرسة الأقبغارية ، وهى على يسار الداخل من باب المزينين مقابلة للمدرسة الطيبرسية ، وقرر بها دروسا للشافعية والحنفية ، وجعل بها عدة من الصوفية وطائفة من القراء وجعل عليها أوقافا ، وأنشأ الأمير « جوهر القنقبائى » مدرسة صغيرة لتعليم الأطفال عرفت بالمدرسة الجوهرية [٤٢] ، عند بابه الشرقى الصغير تجاه زاوية العميان [٤٣] .

وعلى الرغم من منافسة المدارس الشديدة للأزهر ، فانه كان دائما يضم من الطلاب العدد الكثير من جميع أنحاء العالم الاسلامى ، فقد كان يقطن فى أروقته منهم عدد كبير بلغ فى أوائل القرن التاسع الهجرى زهاء سبعمائة وخمسين طالبا ففى سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) قام الأمير سودون المتولى على نظارة الجامع الأزهر باخراج المجاورين من الجامع ، ومنعهم من الاقامة فيه لما أشيع أن أناسا يبيتون به ويفعلون المنكرات ويقول المقريزى ان عدد هؤلاء بلغ ٧٥٠ مجاورا من جنسيات مختلفه [٤٤] .

ويلاحظ أن المدارس التى نشأت فى هذا العصر كانت كلها عالة على الأزهر تأخذ منه وتستمد علماءها من خريجيه وأساتذته ، ويوجهها الأزهر توجيها علميا [٤٥] . وأضحى الأزهر جامعة الاسلام الكبرى

---

(٤١) على مبارك . الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ ج ٤ ص ١٨ .

(٤٢) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩ .

(٤٣) كان هذا الباب يسمى باب السر — المرجع السابق — نفس الصفحة .

(٤٤) الخطط المقريزية — ج ٣ صص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٤٥) محمد عبد المنعم خفاجه — مرجع سبق ذكره — ج ١ ص ٧٤ .

فى هذا العصر ، وزخر بكبار الشيوخ والعلماء الذين نهضوا بعلوم الشريعة وحافظوا على العربية وعلومها ، وكان منهم رجال القضاء والفتوى ، واحترمهم الحكام ، وطلبوا نصحهم ونزلوا عند حكمهم .

وعلى الرغم من اقبال العلماء على تولى وظائف التدريس فى المدارس لما تدره عليهم من مرتبات وفيرة ، فانهم كانوا يتطلعون دائما الى شرف الجلوس والتدريس بالأزهر باعتباره جامعة الاسلام الكبرى [٤٦] . ومن أشهر من نبغوا فى هذا العصر من العلماء فى مختلف العلوم الاسلامية النويرى صاحب نهاية الأرب ٧٣٢هـ (١٣٣١م) وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) وابن هشام صاحب المؤلفات الشهيرة فى النحو ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) وتقى الدين السبكى شيخ علماء الشافعية فى عصره ٧٥٦هـ (١٣٥٥م) وابن منظور صاحب لسان العرب ٧٦١ هـ (١٣٥٩ م) وابن عقيل النحوى ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) والدميرى صاحب حياة الحيوان ٨٠٨ هـ (١٤٠٥م) وابن دقماق المؤرخ ٨٠٩هـ والفيروزأبادى صاحب القاموس المحيط ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) والقلقشندى صاحب صبح الأعشى ٨٢١هـ (١٤١٨) والمقريزى المؤرخ الشهير ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) والحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ ٨٥٢ (١٤٤٨ م) والسخاوى صاحب الضوء اللامع فى علماء القرن التاسع ٩٠٢ هـ (١٤٩٦ م) والسيوطى صاحب تاريخ الخلفاء ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) وابن اياس المؤرخ ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) [٤٧] .

ومن أشهر العلماء الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر واشتركوا فى حلقات التدريس بالأزهر العلامة المؤرخ « ابن خلدون » ودرس نظرياته فى علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وغير ذلك مما

---

(٤٦) محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره — ص ١٢٦ .

(٤٧) د. أحمد شلبى وزميله — مرجع سبق ذكره — ص ٢٢٢ .

شرحه فى مقدمته الشهيرة ، واتصل به عن كثب القلقشندى والمقريزى وابن حجر العسقلانى .

ووفد على مصر أيضا العلامة المغربى (محمد تقى الدين الفاسى) المتوفى سنة ٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م) ودرس كذلك بالجامع الأزهر وكان ممن تتلمذ عليه العلامة بن حجر [٤٨] . .

ويمكننا القول بأن هذا العصر هو عصر الأزهر الذهبى من حيث الانتاج العلمى لكثرة العلماء الذين تخرجوا فى أروقته وبرعوا فى كثير من العلوم الاسلامية وتمتع الأزهر فى ظل دولة سلاطين المماليك بعناية خاصة ، وتمتع العلماء فى ظلهم بالحياة والنفوذ ، وشغلوا كثيرا من وظائف القضاء العليا وغير ذلك من مناصب التوجيه والارشاد .

الأزهر فى العصر العثمانى ٩٢٣ — ١٢١٣ هـ (١٥١٧ — ١٧٩٨ م) :

ضعفت دولة سلاطين المماليك بعد تحول طريق التجارة الشرقية الى رأس الرجاء الصالح وخسرت مصر موردا ماليا غزيرا يتمثل فى حصيلة الضرائب الجمركية ، وتسربت عوامل الفساد الى دولة المماليك فامتدت اليها أطماع الدولة العثمانية ، فغزاها السلطان سليم الأول العثمانى ، وهزم المماليك بقيادة قانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق فى رجب ٩٢٢ هـ (أغسطس ١٥١٦ م) وتقدمت الجيوش العثمانية فدخلت مصر فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) [٤٩] .

---

(٤٨) محمد عبد الله عنان — مرجع سبق ذكره — ص ص ١٢٦—١٢٧ .

(٤٩) أنظر نهاية المماليك فى مؤلف : د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، عبد الرحمن الرافعى ، مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٠ ص ص ٥٢٩ — ٥٣٨ .

بذلك خضعت مصر خضوعا تاما للحكم العثمانى وانفصمت عرى الوحدة التى كانت قائمة بين مصر وبين بلاد الشام ، وسقطت تبعية الحجاز ، بعد أن تحول شريف مكة بولائه نحو الدولة العثمانية ، وانتقل مركز الخلافة من القاهرة الى الآستانة وخسرت مصر زعامة العالم الاسلامى ، وهبطت من دولة مستقلة كاملة السيادة الى ولاية عثمانية (٥٠) ٠

ولم يحاول العثمانيون عثمنة الشعب المصرى ، أى صبغه بالصبغة العثمانية ، ولم يحاولوا ربطه بالحضارة العثمانية ، واكتفوا بالوشيجة الدينية الاسلامية (٥١) واهتموا باضعاف مصر وكسر شوكتها لكى يتمكنوا من أن يعيشوا بسلام ، وعزلوها عن بقية أنحاء العالم، واتسم حكمهم بالاستعلاء وسوء الادارة ، وأصبحت مصر فى عهدهم، نهبا مباحا بين الوالى العثمانى وجنود الحامية العثمانية ، وبكوات المماليك ٠

بذلك انهار صرح الحركة الفكرية فى مصر الاسلامية ، وامتد الظلام الى مرافق الحياة بها ، وأصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور ، فانكمشت حركة التعليم به لاهمال النفقة عليه ، غير أنه استطاع خلال هذه المحنة الشاملة أن يصمد وأن يستبقى شيئا من مكانته وهيبته القديمة ، واستطاع الأزهر أن يسدى الى اللغة العربية وعلومها أجل الخدمات ابان العصر العثمانى وبرز دوره فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر خلاله ٠

---

(٥٠) د٠ عبد العزيز الشناوى : دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى ٠ من ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٦٩ — مطبعة دار الكتب المصرية ٠ القاهرة ، ١٩٧١ ص ٣ ٠

(٥١) المرجع السابق ص ٤ ٠

ويرى الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوى أن هناك عدة عوامل ساعدت الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر كان فى مقدمتها :

أولا : عدم تدخل العثمانيين فى شئون الأزهر ، حيث لم يجعلوا من التركية لغة الدراسة بالأزهر ، ولم يفرضوا عليه الدراسات التركية اللغوية والأدبية أو دراسة الحضارة التركية والفكر التركى ، والتزموا بتقاليـــدهم فى حكم البـــلاد المفتوحـــة ، فلم يزجوا بأنفســـهم فى شئون الأزهر •

ثانيا : كان الاســـتقلال المـــالى للأزهر فى مقدمة العوامل التى أسهمت فى نجاح الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ، فقـــد كان الأزهر يتمتع باستقلال مالى عن الحكومة بفضل أوقافه المرصودة عليه من أهل الخير ، وفى ظل هذا الاستقلال عاش الأزهر بعيدا عن الخضوع للنفوذ العثمانى وأصبح لعلمائه مركز مرموق فى هذا العصر•

ثالثا : لم يكن فى مصر معاهـــد تنـــافس الأزهر أو تدانيه فى مجال الدراسات الاسلامية العليـــا لأن المـــدارس التى كانت تنـــافسه على عهد الأيوبيين والمماليـــك قـــد أصـــابها الاضـــطراب وتلاشـــت مواردها ، وعدت آثارا دارسة ، وقـــد نجم عن هذا المركز الانفرادى الممتاز الذى كان للأزهر فى مجال نشر الثقافة الدينية ، أن أصبحت له القيادة العلمية والفكرية فى مصر وسائر العالم الاسلامى •

رابعا — أن الالتحام كان قائما على أشده بين علماء الأزهر وبين جمـــاهير الشعب المصرى فقـــد كانت عواطف المصريين مشدودة اليـــه لمركزه المرموق فى مصر ، فشخصوا بأبصارهم اليه ، وبعثوا بأبنائهم لتلقى العـــلم فى رحابه وبـــذلك تهيأ للأزهـــر منـــاخ صحى لتأدية رسالتـــه (٥٢) •

---

(٥٢) دور الأزهر فى الحفـــاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى — مرجع سبق ذكره صص ١٤ — ٢١ •

خامسا : ومما ساعد على ذلك أيضـا قيـام الزعامة الشعبية فى علماء الأزهر ، فقـد كانت الغالبية العظمى من علمائه على جانب كبير من الورع والتقوى والزهد والايثـار والتواضع والترفع عن الصغائر، ولم تؤثر فيهم عوامل الرغبة والرهبـة من الحكام ، فتصدوا لهم من أجل مصلحة الشعب ، وأسـدوا لهم النصح فى غير تهيبولا وجل ، وبذلك خرج الأزهر من النطاق الأكاديمى المغلق وشـارك فى الحيـاة العـامة ، وكانت زعامة علمائه زعامة نظيفـة حانية عطوفة على الشعب فاستراح لها ، وتفيأ فىظلالها الأمن والزاد الروحى والارشادوالتوجيه الدينى يتلقاه باللغة العربية (٥٣) .

سادسا : عدم تعيين العلماء العثمانيين فى منصب شيخ الأزهر ، فقـد تركت الدولة هـذا المنصب يشغله العلمـاء المصريون دون أن ينافسهم فيـه علماء عثمانيون وكان هـذا مما أعان الأزهر على الحفاظ على اللغة العربية (٥٤) .

دعم الترابط العربى والاسلامى :

وأخيرا : فقـد أصـبح الأزهر مركزا للاشعاع الثقافى العربى والاسلامى فى وسط العالم العربى فقـام بدور كبير فى مجـال دعم الترابط العربى ، وأضحى يشكل رباطا قـويا يربط بين أجزاء الوطـن العربى ويؤلف بين العرب جميعـا فى مشارق الأرض ومغاربها ، ووفد عليه العلماء والطلاب ينشدون العلم فى حلقاته وأروقته ، ووجدوا فى رحابه الأمن والملاذ والرعاية والزاد الروحى والتراث الفكرى .

وكان لأبنـاء كل بلد من بلدان العـالم العربى والاسـلامى رواق فى الأزهر فـكان هنـاك رواق للمغـاربة ، ورواق للشوام ، ورواق

---

(٥٣) المرجع السابق — صص ٢٣ — ٢٩ .
(٥٤) نفس المرجع ص ٤٢ .

للأتراك ، ورواق الجبرت لأبنـــاء الحبشة والصومال وأرتريا ، ورواق المــكاوية لأبنـــاء الحجــاز ، ورواق السليمانيـــة — اســـم قبيـــلة فى أفغانستان — خصص لأبنـــاء أفغانستان ، ورواق البغدادية ويقيم فيه أبنـــاء العراق ، ورواق الهنود لأبنـــاء الهند وباكستان ، ورواق دكارنة صليح لأبنـــاء تشاد ورواق السنارية لأبنـــاء السودان ، ورواق الجاوة ويسمى الآن رواق أندونيســـيا لأبنـــاء جنوب شرق آســـيا وغيرها من الأروقة الخاصة بالآفاقيين (الأجانب) (٥٥) .

وبجانب أروقة الأجانب ، كانت هنـــاك أروقـــة خاصـــة بالمصريين مثل : رواق الصعايدة لأبنـــاء الصعيد ، ورواق الشراقوة لأبناء الشرقية ورواق البحاروة لأبناء البحيرة ، ورواق الفيمة لأبنـــاء الفيوم ، ورواق الفوه (٥٦) .

أزدياد نفوذ العلماء فى نهاية العصر العثمانى :

الظروف والملابسات السياسية لأزدياد نفوذ العلماء :

كان السلطـــان العثمانى محور الدولة ، ولم يكن بامكان الدولة أن تسير سيرا سليما مالم تكن قيادتها فعالة ، ومنذ بداية القرن السابع عشر كانت سلسلة السلاطين الأقوياء قـــد انتهت ، وتلاها عهد ضعفاء الخلق والذكاء من الساطين ، ونشأ بذلك صراع على النفوذ بين فئـــات موظفى الامبراطورية العثمانية (٥٧) . وفى نهاية القرن السابع عشر انتقل محور

---

(٥٥) انظر فى بيـــان أروقـــة الأزهـــر — على مبـــارك — الخطط التوفيقيـــة — مرجع سبق ذكره ج ٤ صص ٢١ — ٤٣ .

(٥٦) هذا الرواق أنشـــأه عمر مكرم لأبنـــاء فوه من أعمـــال البحيرة واشترى لهم دارا بحى طولون ووقفهـــا عليهم (انظر مسلسلة ٣٤١ مادة ١٦٣ ص ٧٤ من سجلات محكمة البـــاب العـــالى — بدفتر خانه الشـــهر العقـــارى بالقـــاهرة) .

(٥٧) البرت حورانى . الفكر العربى فى عصر النهضة — ترجمـــة كريم عزقول — لبنان — بيروت ١٩٧٠ ص ٥١ .

السلطان الى كبير الوزراء أو الصدر الأعظم ، وأصبحت داره (الباب العالى) مركز القرارات بدلا من غرفة السلطان ذات القباب فى القصر السلطانى حيث كان ينعقد مجلس السلطان، كما كانت الظروف الخارجية للامبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت تنتقل من سىء الى أسوأ نظرا للحروب التى خاضتها الدولة ضد بعض الدول الأوربية وبخاصة الروسيا والنمسا .

فى هذا الجو من الاضطراب السياسى ، ارتفع مركز العلماء ، وأصبح لهم نفوذ اجتماعى وسياسى كبير ، ونعموا بفرص خاصة للحصول على مزيد من الثراء ، فكان رزقهم يأتيهم رغدا من عدة جهات : بتعيينهم نظارا على الأوقاف الخيرية والأهلية واصدارهم فتاوى تقدم للمحاكم فى القضايا المطروحة أمامها . وسعيهم ليكونوا ملتزمين طبقا لنظام الالتزام ، وأخيرا كانوا يحصلون على أنصبتهم من الأوقاف التى أوقفها أهل البذل من المسلمين على الأزهر أساتذة وطلابا . وأصبحوا فى مأمن نسبيا من تدابير المصادرة نظرا لمركزهم الدينى المرموق (٥٨) .

وفيما كان هذا التطور السياسى مستمرا كانت سلطة الحكومة المركزية فى الولايات تضعف رويدا رويدا ، مما ترك للقوى المحلية حرية أوسع للعمل ، فتبدلت طبيعة الحكم فى الولايات العثمانية ونشأت فى كل من آسيا وأفريقيا فئات حاكمة شبه مستقلة كفئات المماليك فى القاهرة وبغداد وصيدا ، وقد تمكنت هذه الفئات من ايقاف الانكشارية عند حدها ، وأنشأت جيوشا خاصة بها واستطاعت أن تدافع عن الحدود ، مما اقتضى زيادة فى الضرائب .

وقد اضطرت هذه الفئات الحاكمة بدورها أن تمنح نفوذا أوسع

---

(٥٨) أنظر تفصيل الحديث عن موارد العلماء فى بحث للمؤلف عن دور الأوقاف فى دعم الأزهر . مرجع سبق ذكره .

مجالا للقـوى الوطنيـة ، فأصبح للأعيـان والعلمـاء تأثير كبير على الحكومة المحلية (٥٩) .

وأصبحت مصر فى نهـاية هـذه الفترة نهبا مقسما بين الباشـا التركى وقواد الحامية العثمانية وأمراء المماليك ، وكثرت الضرائب على كاهل الشعب ، وأصبحت حقوقـه مهضـومة ، ولم يكن يحد من سلطان هؤلاء الحكام غير العلماء ، فقـد غدا لهم نفوذ روحى كبير على الحكام والشعب ، فهم رجال الدين وحملة الشريعة ، ولم يكن الحكام يخشون شيئا قـدر خشيتهم لهـذا النفوذ الروحى الذى يتمتع به علماء الأزهر ولم تكن هنـاك رابطة تربط بين هؤلاء الحكام وبين الشعب فهم غرباء عنه جنسا ولغة ومشاعر ، أما العلماء فهم مصريون مثله ، نشأوا فى قلب الريف يحسون احساس أهلهم واخوتهم ، فاتجـه الشعب اليهم يبثهم شكواه ويطلب منهم الوقوف بجانبه ضـد أطماع حاكميه ، وكان العلماء يسعون بهذه الشكوى الى الحكام ويقدمون لهم النصيحة ، وكان الحكام يستمعون غالبـا لهذا النصح ، ويستجيبون لوساطـة العلماء ومن ثم عقد لهم نوع من الزعامة الاختيارية التى ارتضـاها الحكام والمحكومين على السواء .

وزاد من سلطة العلماء توزيع سلطة المماليك فى هـذه الفترة بين عـديد من المتنـافسين ، وأصبح كل منهم فى حاجة الى دعم جماهيرى، فزاد تقربهم الى العلماء وضاعفوا من هداياهم اليهم ، وأدرك العلماء بدورهم أن المماليك بحاجـة اليهم بصفتهم وسطاء ومفاوضين ، وبذلك تضاعفت أهميتهم السياسية وزادت ثرواتهم حتى شغلوا مكانا عليا فى المجتمع المصرى (٦٠) وعظمت قوة ارادة الشعب بهم .

---

(٥٩) ألبرت حورانى . الفكر العربى فى عصر النهضة — مرجع سبق ذكره — صص ٥٢ — ٥٤ .

(٦٠) د. عفاف لطفى السيد — الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصـادية لعلماء القـاهرة فى القرن الثامن عشر — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥١ مايو ١٩٦٩ — ترجمة الدكتور أمين العيوطى صص ٧٢ — ٧٣ .

مواقف خالدة :

كان من أوائل هؤلاء العلماء الذين وقفوا فى وجه الطغيان دفاعا عن الشعب الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق شيخ الجامع الأزهر فقــد وقف هــذا الشيخ الجليل فى وجه داود باشا والى مصر ٩٤٥ — ٩٥٦ هـ (١٥٣٨ — ١٥٤٩ م) وقال له أنت لا تصلح للحكم ، وأنت تحت الرق ، ومادمت غير معتوق فالأحكام باطلة فهم داود باشــا باعدامه فمنعه الجند ، وأبلغ الأمر للسلطنة فأرسلت ورقة عتقــه له مع الشكر لشيخ الاســلام الذى لم يكن له مرتبــات فى دفاتر الحكومة حينذاك والذى لم يقبل أى هبــة أو هــدية من الوالى ، مع التنبيــه على الوالى بحسن السير مع الرعية والاستعانة بالعلماء فى الحكم حسب الشريعــة الاســلامية (٦١) .

وفى عام ١١٤٨هـ (١٧٣٥ م) أرسل السلطان بابطال بعض المرتبات الخيرية ، واجتمع أعضاء الديوان لتلقى ذلك الأمر ، فلمــا قرىء عليهم المرسوم السلطانى بادر القاضى العثمانى فقال : « أمر السلطان لايخالف وتجب طاعته » فانبرى له أحد الأعضاء الشيوخ ، وهو الشيخ سليمان المنصورى وقال له : « ياشيخ الاسلام ••• ان ذلك مخالفة للشرع ولا يسلم للامام فى فعل مايخالف الشرع ولالنائبه أيضا فسكت القاضى »(٦٢) وقال الباشا « هذا يحتاج الى المراجعة » أى الرجوع الى السلطان .

وقــد كلف الديوان الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر وقتئذ بوضع مذكرة (عرضحال) الى السلطان محمود الأول ١١٤٣ — ١١٥٨ هـ (١٧٣٠—١٧٤٥ م) على لسان العلماء ، فكتب الشيخ الشبراوى

---

(٦١) أمين سامى باشا — تقويم النيل — الطبعة الأولى —القاهرة— ١٩٢٨ — جـ ٢ صص ١٩ — ٢١ .

(٦٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبــار — المطبعة العامره الشرفية — القاهرة — ١٣٢٢ هـ جـ ١ ص ١٥٣ .

مذكرة مطولة ، تتلخص فى شرح وجهة نظر علماء الشريعة فى عدم جواز قطع هذه المرتبات ، لأنها اذا قطعت بطل الاشتغال بالعلم وتوقف حفظ القرآن « وحصل خلل فى تلك الرسوم وآل ذلك الى خراب هذا الاقليم العظيم وبطلان مافيه من الخير » وقد خوف العلماء السلطان من مغبة قيام الأهالى بثورة فقالوا : « وربما قامت الرعية وهاجت واضطربت أحوالها وماجت لأن قطع المعايش والأرزاق يفضى الى قبيح الأفعال وسوء الأخلاق » .

ثم ذكروا له مافعله الحكام السابقون من بذل وسخاء فى هذا الصدد وأفتى بذلك علماء الشريعة من السلف الصالح ، وطلب الشيخ الشبراوى من السلطان باسم العلماء أن يطلق هذه المرتبات وألا يضيق على الناس فى حياتهم المعيشية ، وختم المذكرة بذكر بعض الأحاديث الشريفة التى تحض على بذل الخير ، وطلب للسلطان حسن الختام (٦٣) .

من هنا نعلم أن أوامر السلطان لم تكن ترهب علماء الأزهر ولم تمنعهم من الاحتجاج والاعتراض ، وهل هناك حكم بعدم دستورية مرسوم سلطانى أوضح وأجرأ وأكثر دقة من هذا الحكم الذى أصدره الشيخ المنصورى ، فأسكت القاضى التركى وألزم الباشا التركى أيضا بأن يقول : ان الأمر يحتاج الى المراجعة .

---

(٦٣) عبد الله الشبراوى : صور كتب بعض علماء مصر الى سلاطين الدولة العثمانية ، وفرمانات صادرة من أمراء الفرنساوية بمصر . جمع محمد بن يوسف جوريجى جمليان هياتم . فرغ من جمعها فى شوال ١٢١٧ هـ — نسخة مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ١٠٠ تاريخ ، وتوجد منها نسخة أخرى بدار الكتب المصرية بالقاهرة . بخط الكاتب حسن رشيد ، وقد نقلها عن نسخة سوهاج بتكليف من دار الكتب فى سنة ١٩٣٦ تحت عنوان آخر وهو : « منشورات قائد الفرنساوية فى مصر أثناء الحملة الفرنساوية » تحت رقم ٦٢١٠ تاريخ صص ١٣ — ٢٤ وقد نقلنا عن النسخة الأخيرة .

هـــذا المبدأ الخطير الذى يعلنـــه الشيخ « المنصورى » ببساطة فى مواجهة نائب السلطان ، والذى يسقط الشرعيـــة عن أى مرســـوم سلطانى يخالف الشريعـــة الاسلامية ، يعلنه أحد كبار العلماء فى سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) (٦٤) .

وهـــذا مما يدحض مايذهب اليه البعض من أن مشايخ الأزهر لم يشتركوا فى قضـــايا المجتمع ، ولم ينـــالوا مكانة الا بفضـــل الديوان الذى اخترعه بونابرت بمصر ابان الحملة الفرنســـية والذى يعتبر فى نظرهم أول مجلس وزراء فى تاريخ مصر (٦٥) .

وكان المملوك « يوسف بك الـــكبير » (٦٦) يحقـــد على العلمـــاء زعامتهم ويحاول أن يشنع عليهم مستغلا بعض المواقف ، فاستغل مرة سببا جنسيا خطيرا للانتقـــام من المشايخ ذلك أن أحد المنتسبين الى المشايخ ويدعى الشيخ « صـــادومة » (٦٧) وقع بامضـــائه على سوأة

---

(٦٤) محمـــد جلال كشك : ودخلت الخيـــل الأزهر . النـــاشر الدار العلمية . بيروت — لبنان — سنة ١٩٧٢ ص ٨٣ .

(٦٥) د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٦٩ جـ ١ ص ١٠٤ .

(٦٦) يوسف بك الـــكبير من أمراء محمـــد بك أبو الذهب ، أمره فى سنة ١١٨٦ هـ وزوجه بأخته وبنى له دارا على بركة الفيـــل تجـــاه جامع الماس ، وأخذ بعض الأماكن المجـــاورة غصـــبا ، وأراد أن يهـــدم جامع خير بك فعارضـــه الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى . وكان يوسف بك هـــذا على عداء دائم مع العلماء (الجبرتى — عجـــائب الآثار جـ ٢ ص ١٧) .

(٦٧) قال الجبرتى عن الشـــيخ صـــادومة : انه كان رجلا مسنا ذا شيبة وهيبة وأصله من سمنود وله شـــهرة فى الروحانيـــات ، وتحـــريك الجمـــادات والجن ، وللنـــاس اختلاف فى شأنه ، وكان يعتقد فيه الشيخ حسن الـــكفراوى ، وله به عشرة ومحبة ، ويخبر عنه انه من الأوليـــاء وعندما حـــدثت فضيحته على يد المملوك يوســـف بك حـــدث تأثر للشيخ الـــكفراوى ، ومات مغوما فى أعتابها .

امرأة • والحكاية كما يرويها الجبرتى ، أن الأمير يوسف بك اختلى بمحظيته فرأى على سوأتها كتابة ، فسألها عن سبب ذلك وتهددها بالقتل ، فأخبرته أن امرأة أخذتها الى الشيخ صادومة فكتب لها ذلك ليحببها الى سيدها ، فنزل الأمير فى الحال ، وهو فى عنفوان الغضب ، وقبض على الشيخ صادومة وقتله ورماه فى البحر (٦٨) •

وعلى الرغم من أن الشيخ المذكور لم يكن من العلماء الا أن الأمير استغل هذا الحادث للتشهير بالعلماء وأحضر تماثيل جنسية من بيت صادومة ويقول لجلسائه : انظروا أفاعيل المشايخ •

وتربص العلماء للمملوك يوسف بك وعزموا على تحديه فى موقف آخر يتصل بهم مباشرة ، فاتفق أن الشيخ عبد الباقى طلق زوجة بعض المماليك فى غيابه على يد الشيخ حسن الجداوى المالكى على قاعدة مذهبه وزوجها من آخر ، وحضر زوجها الأول من الفيوم، وذهب الى ذلك الأمير وشكا له ، فأرسل الأمير أعوانه الى الشيخ عبد الباقى فقبضوا عليه ووضعوا الحديد فى رقبته ورجليه وحبسوه مع المجرمين •

وعند ذلك أدرك العلماء أن الأمير تجاوز حده وتدخل فى الفقه وشئون المشايخ « فركب الشيخ على الصعيدى العدوى والشيخ الجداوى » وغيرهم من العلماء وذهبوا اليه وخاطبه الشيخ على الصعيدى وعنفه على تدخله فى اختصاصات العلماء فقال له الأمير : « أفعالكم يا مشايخ أقبح » فرد عليه الصعيدى بأن ماحدث من طلاق المرأة أمر معمول به فى مذهب المالكية ونحن أعلم بالأحكام الشرعية ، فقال الأمير : « لو رأيت الشيخ الذى فسخ النكاح فقال الشيخ الجداوى : أنا الذى فسخت النكاح على قاعدة مذهبى فقام

---

(٦٨) المصدر السابق ج ٢ ص ص ١٨ — ١٩ •

على أقدامه وصرخ وقال : والله أكسر رأسك ، فصرخ عليه الشيخ على الصعيدى وسبه وقال له : لعنك الله ولعن الياسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » (٦٩) .

وخاف الأمراء عاقبة الأمر وأحضروا الشيخ عبد الباقى من السجن فأخذه العلماء وخرجوا وهم يسبون الأمير وهو يسمعهم ، وهذا الموقف يدل على مدى ماوصلت اليه سلطة العلماء ، ومكانتهم فى هذا العصر .

وكان الشيخ على الصعيدى (٧٠) معاصرا لعلى بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب ، فكان يأخذ شكاوى الناس ويذهب بها اليهما فلا يردان له طلبا . وقال الشيخ الصعيدى مرة لأبى الذهب : « لاتضجر ولا تأسف على شىء يفوتك بغير حق فى الدنيا فان الدنيا فانية ، وكلنا نموت ، ويوم القيامة يسألنا الله عن تأخرنا عن نصحك ، وهانحن قد نصحناك وخرجنا من العهدة » وكان اذا امتنع الأمير عن اجابة طلبه صرخ فيه قائلا : « اتق النار وعذاب جهنم » ثم يمسك يده ويقول له : « أنا خائف على هذه اليد من النار » (٧١) .

---

(٦٩) المصدر السابق ج ٢ صص ١٨ — ١٩ .

(٧٠) ولد الشيخ على الصعيدى سنة ١١١٢ هـ ببنى عدى بالصعيد وحضر الى الأزهر وتلقى العلم على شيوخ عصره ، وتولى رئاسة رواق الصعايدة ، وله مؤلفات كثيرة تدل على تمكنه فى الفقه المالكى ، وهو أول من شرح كتب المالكية وعلق عليها بكثير من الحواشى ولم تكن المالكية تعرف ذلك قبله فهو أول من خدم تلك الكتب ، وكان شديد الشكيمة فى الحق يصدع به ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخشى فى الحق لومة لائم (الجبرتى — عجائب الآثار — ج ١ صص ٤٢٠ — ٤٢٢) .

(٧١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٢١ .

وكان الشيخ الصعيدى يمنع شرب الدخان فى حضرته فكان اذا دخل على « على بك الكبير » أخبروه قبل وصوله فيرفع الشبك من يده ويخفيه من وجهه ، واذا دخل دار أحد الأمراء ورأى من يشرب الدخان شنع عليه وكسر آلته ، ولو كانت فى يد كبير الأمراء .

تعصب الأزهريين للمذهب الشافعى :

عقب وفاة الشيخ أحمد الدمنهورى (٧٢) شيخ الأزهر سنة ١١٩٠هـ (١٧٧٦ م) ظل منصب مشيخة الأزهر شاغرا حتى عام ١١٩٢ هـ وتدخل الأمير ابراهيم بك وعين الشيخ عبد الرحمن العريشى الحنفى (٧٣) ، وكان هذا التعيين مخالفا لما جرت به العادة من تعيين أحد علماء الشافعية فى هذا المنصب لأن المذهب الشافعى مذهب غالبية سكان القطر المصرى : وعليه غالبية علماء الأزهر المصريين .

---

(٧٢) ولد الشيخ احمد الدمنهورى عام ١١٠١ هـ (١٦٨٩ م) بمدينة البحيرة وتلقى العلم بالأزهر وبرع فى كثير من علوم الشريعة والعربية والطب والهندسة والكيمياء وغيرها وتولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٧م) وتوفى عام ١١٩٠هـ (انظر ترجمة الشيخ الدمنهورى فى وفيات سنة ١١٩٠هـ — الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٢ ص ص ٢٦ — ٢٨) .

(٧٣) ولد الشيخ عبد الرحمن العريشى بقلعة العريش من أعمال غزة وبها نشأ ، وحضر الى الأزهر وتتلمذ على شيوخ عصره ، ودرس قواعد المذهب الحنفى على الشيخ حسن الجبرتى ومرنه فى الفتوى ومراجعة أصول المذهب وتولى مشيخة رواق الشوام ، ولما توفى مفتى الحنفية تولى منصب الافتاء فعظم صيته وتميز على أقرانه وقصده أرباب الدعاوى للفتوى ، وبعد وفاة الشيخ الدمنهورى توصل لدى الأمراء وتولى مشيخة الأزهر ، فتعصب ضده علماء الشافعية كما ذكرنا الى أن عزل بعد سبعة أشهر فأصابه القهر كما يقول الجبرتى وتوفى بعد ذلك بقليل فى ١١٩٣ هـ (انظر ترجمته فى : عجائب الآثار جـ ٢ ص ص ٥٥ — ٥٧) .

وغضب لذلك علماء الشافعية وذهبوا الى الشيخ محمد بن الجوهرى — وكان من أكابر العلماء عرف بالزهد والامتناع عن مخالطة الناس وخاصة الأمراء والأعيان [٧٤] واختاروه شيخا للأزهر فأبى ، غير أنه وعدهم بالقيام لنصرتهم وتولية من يريدونه فاجتمعوا ببيت الشيخ البكرى ، واختاروا الشيخ أحمد العروسى شيخا للأزهر ، وأرسلوا الى الأمراء مذكرة جاء فيها : ان مشيخة الأزهر من مناصب علماء الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد ، وخصوصا اذا كان آفاقيا وليس من أهل البلد ، وأنهم اتفقوا على تعيين الشيخ أحمد العروسى [٧٥] لذلك ، وختم العلماء عليها وأرسلوها الى ابراهيم بك ومراد بك فأبيا أن يوافقا على ذلك ، وقال ابراهيم بك : « أى شىء هذا الكلام ؟ أمر فعله الكبار يبطله الصغار ، ولأى شىء لايتقدم الحنفية فى المشيخة على الشافعية ؟ أليسوا مسلمين ؟ ، ومذهب النعمان أقدم المذاهب ، والأمراء حنفية والقاضى حنفى والوزير حنفى والسلطان حنفى » وثارت فيهم العصبية وتمسكوا برأيهم •

ربما كان رأى ابراهيم بك له وجاهته من ناحية اتاحة الفرصة أمام جميع العلماء من أى مذهب لتولى منصب المشيخة ، فلا يعقل أن يحرم من المشيخة علماء المذاهب الأخرى وخاصة المذهب الحنفى الذى ينتمى اليه السلطان • لكن القضية كانت فى نظر العلماء قضية وطنية قوامها التعصب للمذهب (الشافعى) مذهب غالبية المصريين •

---

(٧٤) انظر ترجمة الشيخ محمد بن الجوهرى فى الفصل العاشر من هذا البحث عن « دور الأزهر فى الحياة العلمية » •

(٧٥) كان الشيخ أحمد العروسى من كبار الشافعية المعروفين بالتقوى والورع ، وقد ولد عام ١١٣٣ هـ (١٧٢١ م) بقرية منية عروس احدى قرى محافظة المنوفية ودرس بالأزهر على كبار العلماء ، ولازم الشيخ على الصعيدى فترة طويلة ، وكانت وفاته بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣م) (الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٢ ص ص ٢٦٧ — ٢٧٠) •

وتمسك العلماء برأيهم ، وقادهم الشيخ الجوهرى واعتصموا بجامع الامام الشافعى وباتوا به ليلة ، وحضر اليهم يوم الجمعة فى اليوم التالى مراد بك ، وكلم الشيخ الجوهرى ، فقال الشيخ لمراد : « البلد بلد الامام الشافعى وقد جئنا اليه وهو يأمرك بذلك ، وان خالفت يخشى عليك ، فما وسعه الا أنه أحضر فروة والبسها للشيخ العروسى على مشيخة المذهب الشافعى ، وركب المشايخ ومعهم الشيخ العروسى وذهبوا الى ابراهيم بك وشربوا عنده القهوة ، وتابع العلماء سعيهم الذى استمر نحو سبعة أشهر وفى النهاية خلع العريشى ، وعين مكانه العروسى فى المشيخة ، وخرج العلماء منتصرين فى معركتهم مع مراد وابراهيم . ولم يسمحوا لهما بالتدخل فى شئون الأزهر .

حركة شعبية يتزعمها الشيخ الشرقاوى وعلماء الأزهر :

حدثت هذه الحركة فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥م) فقد وفد الى القاهرة فلاحون من قرية تتبع مركز بلبيس عاصمة مديرية الشرقية فى ذلك الوقت ، وكانت للشيخ عبد الله الشرقاوى (شيخ الجامع الأزهر يومئذ) حصة من الأرض بهذه القرية ، وقدم الفلاحون شكواهم الى الشيخ الشرقاوى بأن مماليك محمد بك الألفى ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه من الضرائب .

اتصل الشيخ الشرقاوى فى أول الأمر بابراهيم بك ومراد بك وطلب منهما وقف هذه المظالم ، ولكن الأميرين لم يبديا اهتماما وأهملا وساطة الشيخ ، فثارت ثائرته وحضر الى الأزهر فى اليوم التالى وعقد اجتماعا لهيئة كبار العلماء وعرض عليهم الأمر فقرروا الاضراب العام ، وأغلقوا الأزهر ايذانا ببدء الثورة ، وخرج المجاورون يأمرون الناس باغلاق الأسواق والحوانيت ، وتجمع الناس فى ساحة الأزهر ، فتقدمهم الشيخ الشرقاوى يتبعه العلماء ، وتوجهوا الى منزل الشيخ محمد أبو الأنوار السادات والذى كان مجاورا لمنزل

ابراهيم بك ولهذا وقع اختيارهم له ولما للشيخ السادات من نفوذ كبير لدى جماهير الشعب ولمنزلته لدى الأمراء .

رأى ابراهيم بك هذه الجموع الثائرة على مقربة من داره فأرسل رسولا من طرفه الى المشايخ وهو « أيوب بك الدفتردار » فحضر اليهم وسألهم عن سبب تجمعهم فأجابه الثوار : « نريد العدل ورفع الظلم واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » فرد عليهم الدفتردار بأنه : « لايمكن الاجابة الى هذا كله فاننا اذا فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات » فرد عليه المجتمعون بأن : « هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس . وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ » (٧٦) فوعدهم الدفتردار بعرض مطالبهم على ابراهيم بك .

وتطورت المسألة من مجرد المطالبة بوقف اعتداءات مماليك الألفى على أهالى قرية شرقية بلبيس الى حركة شعبية تنادى بضرورة وضع حد للمظالم التى يتعرض لها الشعب ، ومطالبة الحكومة بضغط المصروفات والحد من الاسراف فى استيراد المماليك ، وتأمين الأفراد على أموالهم وأرواحهم (٧٧) .

لم يرجع الدفتردار الى الثوار بجواب كما وعد ، فعاد زعماء الشعب الى الجامع الأزهر ، وقضوا ليلتهم بالمسجد ، وصمموا على المضى فى حركتهم لليوم الثالث عى التوالى ، وبدأت بوادر النصر فقد أرسل اليهم ابراهيم بك يعضدهم ويقول لهم : « أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى وأرسل الى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك

---

(٧٦) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٧٧) عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية — دار الكتاب العربى — القاهرة سنة ١٩٦٧ صص ٢٩ — ٣٠ .

فتزلزلت أركان مراد بك وخاف من تفاقم الثورة ، فأرسل الى المشايخ يقول لهم : انه أقلع عن ظلم الشعب ، وطلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم فـذهبوا اليه بالجيزة ، فلاطفهم والتمس منهم السعى فى أمر الصلح » .

وفى اليوم الثـالث للثورة نزل البـاشا من القلعـة الى منزل ابراهيم بك واجتمع الأمراء هنـاك وأرسلوا الى العلماء بالحضـور ، فحضر الشيخ السادات والسـيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوى والشيخ خليل البـكرى والشـيخ محمد الأمير وغيرهم من العلمـاء ، ومنعوا العـامة من الذهاب معهم الى الاجتمـاع ، ودارت مناقشات حامية بين المجتمعين ، انتهت باصـدار وثيقـة متضمنة شروط العلماء واعلان توبة الأمراء عن الظلم والتزامهم بالعدل .

وقـد ذكر الجبرتى مضمون هذه الوثيقة ولم يذكر نصها الأصلى، وقـد عثرنا على أصل هـذه الوثيقـة مسطرة فى سـجلات الديوان العـالى [٧٨] ، وهـذه الوثيقـة غاية فى الأهمية ، لأنها تعطينا صورة عن ترتيب زعمـاء الشعب فى نهـاية القرن الثامن عشر تبعا لمنزلتهم الشعبية ، وهم الذين آلت اليهم الزعامة الشعبية قبل الحملة الفرنسية بسنوات قليـلة ، وترتيبهم بألقـابهم الرسمية كالآتى حسب ورودهم بالوثيقـة :

١ — السيد الشريف الشيخ أبو الأنوار بن وفا (السادات) شيخ السجادة الوفوية .

---

(٧٨) سجل رقم ٢ مادة ٤٧٣ صحيفة ٣٠٠ من سجلات الديوان العالى المحفوظة بدفترخانة الشهر العقارى بالقـاهرة — (محفوظـات المحكمـة الشرعية سابقا — والخاصة بالمحاكم المصرية فى العصر العثمانى) ومما هو جدير بالذكر أن هذه الوثيقة تنشر لأول مرة .

٢ — السيد الشريف الشيخ خليل البكرى الصديقى شيخ سجادة بنى الصـــديق •

٣ — الســـيد الشريف عمــر (مكرم) أفنــدى نقيب الأشراف بمصر حالا •

٤ — صفوة العلماء العاملين الشيخ عبــد الله الشرقاوى شــيخ مشايخ أهل الافادة والافتى والتدريس بالجامع الأزهر حالا •

٥ — الشيخ محمد الحــريرى الحنفى مفتى الســادة الحنفيــة بمصر حالا •

٦ — الشيخ محمد الأمير مفتى السادة المالكية بمصر حالا •

٧ — الشيخ مصطفى الصاوى من كبار علماء الشافعية بالأزهر •

٨ — الشيخ عبد المنعم العمارى من كبار علماء المالــكية بالأزهر •

٩ — الشيخ أحمد العريشى من كبار علماء الحنفية بالأزهر •

١٠ — الشيخ ابراهيم السجينى من كبار علماء الشافعية بالأزهر •

١١ الشيخ زين الدين المنصــورى من كبار علماء الحنفية بالجامع الأزهر •

١٢ — زين الدين سالم بن مسعود الفوى شيخ رواق المغــاربة بالأزهر •

وجاءت أســماء هؤلاء الاثنى عشر متقــدمة على أسماء الأمراء المماليك فى الوثيقة وهم :

١ — ابراهيم بك الــكبير (محمد) (٧٩) قائمقام بمصر المحروسة سابقا وأمير الأمراء بها حالا •

---

(٧٩) أى تابع محمد بك أبو الذهب •

٢ — أيوب بك دفتردار مصر المحروسة حالا .

٣ — أيوب بك الكبير أمير الحج المصرى سابقا (محمد) .

٤ — سليمان بك (محمد) حاكم ولاية جرجا سابقا .

ويلى المماليك رؤساء الأوجاقات السبعة العثمانية (٨٠) .

ولعل أول مايلفت النظر فى هذا الترتيب هو تقدم العلماء على من عداهم من الحكام المماليك والأتراك هذا باستثناء قاضى القضاة

(٨٠) الأوجاق : (فى الاستعمال العربى) هو فى الأصل الموقد . وتطلق على الطائفة من الجند والنسبة اليها أوجاقلو (فى الاستعمال العربى وجاقلى كانوا يجمعونها على وجاقلية) والأوجاقات هى الفرق الآتية :

١ — المتفرقة فى الأصل التركى القديم كانوا أصحاب نوع من الاقطاعات ، وخدمتهم فى مصر حفظ القلاع الخارجة عن القاهرة مثل : العريش والاسكندرية ودمياط وأبو قير وأسوان وأبريم .

٢ — الجاوشان : جمع جاوش وهو الفارس ومنهم أرباب الديوان العمومى وأمين الشون .

٣ — جمليان : هو تحريف لجنليان جمع فارس للكلمة التركية (جنللو) نوع من الفرسان لحفظ الجسور السلطانى .

٤ — تفكشيان : هو تحريف لكلمة (تفنكجيان) ومفرده (تفنكجى) وهو الجندى المسلح بالبندقية .

٥ — الجراكسة : هم من فرسان المماليك بمصر .

٦ — المستحفظان : رجال الحفظ وهم جند الانكشارية ومنهم أمير الحج وهم تحت طلب السلطان .

٧ — العزبان : طائفة كانت فى الأصل من جنود البحرية ومنهم أمين البحرين . (أنظر محمد شفيق غربال — مقال عن مصر عند مفرق الطرق — مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة — المجلد الرابع — الجزء الأول — عدد مايو ١٩٣٦) .

بمصر الذى تقـــدم اسمه الجميع وصـــدرت الوثيقـــة بحضوره وبين يديه ونعتته الوثيقة بالألقاب الآتية :

« بين يدى سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاســـلام علامة الأنام قاموس البـــلاغة ونبراس الأفهام أشرف السادة الموالى الأعالى الأعزة الـــكرام النـــاظر فى الأحكام الشرعيـــة قاضى القضـــاة يومئذ بمصر المحمية الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه آمين ... » . ومع حضور الباشا والى مصر ابان هذه الحركة وهو صالح باشا .

ويلاحظ أيضا تقـــدم أرباب الســـجاجيد [٨١] من المشـــايخ على العلماء ، وذلك راجع لنفوذهم بين طبقـــات الشعب وكثرة أتبـــاعهم ، وقد كانت لهم المشورة فى جميع الأمور الهـــامة بالديوان الخصـــوصى بالقلعـــة . ويلاحظ أيضـــا أن مفتى الحنفية كانت له المـــكانة التالية

---

(٨١) أرباب السجاجيد هم كما ذكرهم حسين افنـــدى الروزنامجى فى حديثـــه عن ترتيب الديار المصرية : كان بمصر اربع سجاجيد على عهـــد الحملة الفرنسية :

١ — سجادة السادة البكرية — وشيخها الشيخ خليل البكرى ويرجع نسبه الى أبى بكر الصـــديق .

٢ — سجادة السادة الوفائيـــة — وشيخها محمـــد السادات ويرجع نسبه الى سيدنا على بن ابى طالب .

٣ — سجادة السادة العنـــانية — وشيخها الشيخ العنـــانى ويرجع نسبه الى عمر بن الخطاب .

٤ — سجادة السادة الخضيرية — وشيخها الشيخ الخضيرى ويرجع نسبه الى الزبير بن العوام .

ورتب لهم السلطان ترتيبـــا عظيما واعطى لهم بلادا ومكنهم فيهـــا ، ويحضرون فى الديوان الخصوصى ولهم المشورة فى جميع الأمور ، ولهم على البـــاشا فراوى فى وقت المقـــابلة عند طلوع القلعـــة (انظر شفيق غربال المرجع السابق ص ٢٤ .

بعد شيخ الأزهر نظرا لأن المـــذهب الحنفى هو مذهب الدولة العثمانية الرسمى ، وتلاه فى الذكر مفتى المالـــكية ، نظرا لأن غالبيـــة الصعايدة على المـــذهب المالـــكى ، ولهم مكانة مرموقة بالأزهر ، ويتمتع رواق الصعايدة بالأزهر بعصبية قوية ، وكان شيخ رواقهم يخشاه الجدبع .

وكانت أهم الشروط التى فرضها العلماء وأثبتوها بالوثيقة هى :

١ — تنزيل جوامك [٨٢] المسلمين المطلوبة من المال الميرى .

٢ — اجراء جرايات المستحقين وعلوفات الفقراء والمساكين .

٣ — اجراء المقرر للجامع الأزهر وجراياته من وقفه الخاص به ولا يؤخذ منه شىء من المـــكوس والمظالم (دعم ميزانيـــة الجـــامع الأزهر) .

٤ — اجراء أموال الحج ومتعلقاته حكم قـــديمها على ماهى عليه من زمن الملوك والسلاطين (دعم ميزانية الحج) .

٥ — منع التفاريد على البلاد والرعايا والفقراء .

٦ — منع الـــكشاف الجائرة فى بلاد الله التى عـــذبوها ونهبوها ودمروها .

٧ — ازالة الفلتجية (بعض طوائف العسكر) من مصر القـــديمة لايذائهم المسلمين .

٨ — لايزاد على دفتر المرحوم الأمير محمـــد بك أبو الذهب فى رفع المظالم ويزال مااستحدث بعده .

---

(٨٢) جوامك : جمع جامكية وهى كلمة فارســـية معنـــاها بدل تعيين أو بدل جراية .

٩ — ترفع المكوس الجارية فى البنادر والموارد وما جعل على المآكل والمشارب ٠

١٠ — ازالة جميع الحوادث والمظالم من جميع الأقطار المصرية ٠

١١ — لايتعرض أحد منهم (من المماليك) للسادة الأشراف بجميع البلاد بأى وجه من الوجوه وينهى أمرهم فى حوادثهم الخاصة بهم الى أفنديهم ونقيبهم فى سائر الأقطار والأزمان ٠

١٢ — لايتعرض أحد منهم لنواب الشريعة المحمدية وينهى أمرهم فى حوادثهم الى أفنديهم قاضى عسكر أفندى ٠

١٣ — أن يقوموا بعمارة السواقى الموصلة للمياه الى القلعة ٠

١٤ — عدم انزال الغلال من الديار المصرية الى بلاد الكفرة والمشركين أعداء الدين ٠

وبذلك نلاحظ أن حركة العلماء حققت عدة أهداف :

أولا : أنهم أجبروا الأمراء على التفاوض معهم ٠

ثانيا : نزل الأمراء على ارادة العلماء ووافقوا على الغاء جميع التشريعات الضرائبية الجائرة ٠

ثالثا : عزل الحكام الجائرين من المناطق التى تضررت بوجودهم بها ٠

رابعا : امتدت مطالبهم لتشمل تقرير ميزانية الدعم للحرمين ٠

خامسا : استصدروا وثيقة بهذه الحقوق وقع عليها القاضى والأمراء بحضور والى مصر ٠

وتضمنت الوثيقة العبـــارات الآتيـــة :

« أجاب الأمراء بالسمع والطاعة وعـــدم مخالفة الجماعة .. وكل من خالف ذلك فيكون على ساداتنا أرباب السجاجيد وعلماء الاســـلام والأمراء قهره واستخلاص كل ماهو مطلوب منه لأربابه » (٨٣) .

وانتهت بذلك الحـــركة وعاد العلمـــاء الى الأزهر وحولهم جموع الثوار يعلنون على النـــاس صـــدور اللائحة الجديدة أو الاتفاقيـــة الجديدة باسم السادة العلماء : « حسبما رسم ساداتنـــا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمـــكوس بطالة من مملكة الديار المصرية » .

وكان نداء الشعب حسب عرف العصر معنـــاه أن علمـــاء الأزهر أصبحوا يهيمنون على الأمور فى البلاد ، وكان هـــذا فى الواقع تطورا خطيرا دفع البعض الى وصف هذه الوثيقة بأنها « الوثيقة السياسية الـــكبرى » (٨٤) أو « وثيقة حقوق الانسان » (٨٥) .

وقال عباس العقاد فى بيان أهميتها :

« ولو أنهـــا كتبت فى بعض البـــلاد الأوربيـــــة لجاءنا خبرها مع كتب القوم فى علوم السياسة الحديثـــة بعنوان من تلك العنـــاوين الـــكثيرة عن حقوق الشعب أو الدستور الأكبر أو (الماجناكارتا) وما اليها من مصطلحاتهم التاريخية ، ولـــكن العلمـــاء الذين دعوا أمراء العصر الى توقيع ذلك العهـــد ، لم يحسبوا أنهم جاءوا الى النـــاس بعهد جـــديد غير التـــذكير بعهد كتاب الله وسنة رسول الله التى نسيها

---

(٨٣) سجل رقم ٢ مادة ٤٧٣ صحيفة ٣٠٠ من سجلات الديوان العالى — مصـــدر سبق ذكره .

(٨٤) محمد فريد ابو حديد — زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم — كتاب الهلال — عدد ٧ — القاهرة — ١٩٥١ ص ٥٨ .

(٨٥) محمود الشرقاوى — الجبرتى وكفـــاح الشعب — القـــاهرة — ١٩٦٦ ص ٢٥ .

أولئك الأمراء ، وكتب الموثق « حجة » عليهم بشهادة الرعية وشـــهادة « الأمة » التى تأمر بالمعروف من عباده العلماء » [٨٦] •

بيد أن الجبرتى ذكر أن كل شىء عاد الى ماكان عليه وزيادة بعد صـــدور الوثيقـــة وقال الأستاذ محمد جلال كشك : « يجب ألا يفسد علينا تعليق الجبرتى نحن أبنـــاء القرن العشرين مغزى الحادثة ، فليس المهم أن الاتفاقيـــة نقضـــت ، فتـــاريخ الأمم يكاد ينحصر فى اخلال الحكومات بالاتفاقيات أو الدســـاتير التى تجبر على اصـــدارها تحت الضـــغط [٨٧] •

ولـــكن المهم هو أن مجرد اقرار الاتفاقيـــة ، وصدورها بأسماء العلماء « حسب مارسم ساداتنـــا العلماء » والوصول اليها عبر ضغط الثوار وتحركهم وبعد مفاوضـــات كل ذلك يدل على أن الشيوخ والعامة لم يكونوا مجرد قوة رمزية ، بل كانوا يستطيعون دائمـــا تحويل كل مظهر سخط الى اضراب عام يتطور الى مواجهة شاملة تطالب باصلاحات أوسع من حدود المشكلة المبـــاشرة التى أثارها الحادث ، وأنهم كانوا يستطيعون مواجهة الأمراء وفرض مطـــالبهم واجبـــارهم على التراجع والتسليم ولو بنية الغـــدر » [٨٨] •

وبذلك نرى أن علماء الأزهر لم يكونوا أبدا رجال كهنوت منعزلين عن مجرى الحيـــاة العـــامة وانما شاركوا الشعب فى شعوره ودافعوا عنه فى مواجهة ظلم الحكام •

وخلال هـــذه الأحداث السالفة الذكر بدأت تتضح معالم مجتمع

---

(٨٦) عبـــاس العقـــاد . محمد عبده ، العـــدد (١) من أعلام العرب مكتبة مصر ، — القاهرة — ١٩٦٢ صص ٢٦ — ٢٧ •

(٨٧) ودخلت الخيل الأزهر — مرجع سبق ذكره ص ٨٥ •

(٨٨) محمد فريد أبو حديد بك — مرجع سبق ذكره — ص ٤٦ •

العلماء بالأزهر فانقسم العلماء الى فريقين : فريق تصدى لخدمة الجماهير والدفاع عن قضاياهم لدى الحكام ، وهؤلاء اعترفوا كما قرر الشيخ عبد الله الشبراوى للوالى العثمانى أحمد باشا كور بأنهم ليسوا أعظم علماء مصر : « لسنا أعظم علمائها بل نحن المتصدرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة وأهل الحكم فيها » (٨٩) وقل انتاج هذا الفريق من الناحية العلمية .

وفريق آخر انقطع لدراسة العلم بالأزهر فبرزوا فى ميدان التأليف فى كثير من علوم عصرهم ، وسوف نفصل ذلك فى الفصل الخاص بدور الأزهر فى الحياة العلمية ان شاء الله .

على أبواب الثورة :

فى نهاية هذه الفترة قوى احساس العلماء بما يجب عليهم نحو مواطنيهم وبما ينبغى عمله للأهالى وضرورة التحرر من ظلم الحكام ، ولهذا كثرت الثورات فى هذه الفترة الأخيرة التى سبقت مجىء الحملة الفرنسية ، حتى أن بعض الباحثين يغالون فيشبهون الوضع فى مصر فى هذه الفترة بالحالة التى كانت عليها فرنسا قبل الثورة الفرنسية ١٧٨٩ فيقول هذا البعض :

« ونحن اذا بحثنا حال فرنسا قبيل ثورتها لانستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدا فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر » ويضيف بأن هذه الحركات كانت جديرة « أن تنتهى اما بثورة تامة كثورة فرنسا ، واما باصلاح تدريجى شامل يتناول كل نظمها » وان الذى لم يوصلها الى هذا الحد من الثورة أن حكام مصر كانوا دائما ينزلون عند ارادة الشعب بعد أن يروا غضبته ويصلحون مايشكو منه من فساد ، ويقومون مايشير اليه من اعوجاج .

---

(٨٩) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ١ ص ١٩٣ .

وكان هنـــاك عامل آخر جعل هـــذه البوادر الثورية لاتصل الى ثورة حاسمة لصـــالح الشعب المصرى ، وهـــذا العامل كان خارجيا ، وأعنى به نـــكبة الحمـــلة الفرنسية التى نزلت بالبـــلاد سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) [٩٠] •

ويذهب البعض الآخـــر الى أن السبب الذى من أجله لم يتعـــد العلماء الحركات الشعبية ضـــد المماليك بشكل أكثر تكرارا مما فعلوا ، هو ذلك الاعتماد المتبـــادل بين المماليك والعلماء ، المـــالى من ناحيـــة والسياسى من ناحية أخرى [٩١] •

نخلص من هذا العرض السريع لدور الأزهر فى مصر ابان العصر العثمانى الى القول : بأن قيـــادة الجمـــاهير فى نهاية القرن الثامن عشر أضحت بيـــد نخبـــة من العلماء قاموا بدور كبير فى خدمة المجتمع المصرى ، جعل منهم هـــذا الدور جهازا من أجهزة الحكم القائم مهمته الوقوف فى صف الجماهير كلما هددهم خطر الحكام •

وكان فى مقدمة تلك النخبـــة الشيخ محمـــد أبو الأنوار بن وفا السادات شيخ السجادة الوفوية ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ خليل البكرى شيخ سجادة بنى الصديق ، والشيخ عبـــد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمـــد الأمير مفتى المالـــكية والشيخ مصطفى الصـــاوى من كبار علماء الشـــافعية بالجامع الأزهر والشيخ سليمان الفيـــومى وغيرهم ممن تبوأوا مكانا عليـــا فى نفوس الشعب فى هذه الفترة •

وسوف نلاحظ ابان حوادث الحمـــلة الفرنسية أن هؤلاء الزعماء قـــد اضطلعوا بمهمة الدفاع عن البـــلاد فى مواجهة الغزو العسكرى والفكرى لمصر الاســـلامية •

---

(٩٠) محمد فريد ابو حديد بك — مرجع سبق ذكره — ص ص ٤٦ — ٤٨
(٩١) د. عفاف لطفى السيد — مرجع سبق ذكره — ص ٧٣ .

الفصل الثاني

سياسة بونابرت الاسلامية دوافعها ومظاهرها
وموقف الأزهر منها

سياسة برنابرت الاسلامية دوافعها ومظاهرها وموقف الآزهر منها :

تمهيد : موقف الأزهر من الغزو الفرنسى :

استولى برنابرت على الاسكندرية فى ١٩ محرم ١٢١٣ هـ (٣ يوليو ١٧٩٨ م) [١] وتقدم بسرعة الى القاهرة ، وهزم المماليك بقيادة مراد بك عند « شبراريس » [٢] فى ١٣ يوليو ، ثم واصل بونابرت زحفه على القاهرة وعسكر فى بر الجيزة عند امبابة ، واستعد مراد بك بجيشه للتلاحم مع الفرنسيين فى معركة فاصلة عند امبابة ، أما ابراهيم بك فقد وقف بجيشه على ضفة النيل الشرقية عند بولاق .

وأما الجامع الأزهر ، فعندما وصلت الأخبار الى القاهرة بانتصار الفرنسيين فى شبراريس أصبح مكانا لاجتماع طوائف الشعب المختلفة ، وأصبح بذلك الساحة الشعبية الوطنية لتعبئة الروح المعنوية للجهاد ضد الفرنسيين ، ويذكر الجبرتى أن العلماء كانوا يجتمعون كل يوم بالأزهر لقراءة البخارى وغيره من الدعوات ،

---

(١) هذا التاريخ طبق ماقرره الجبرتى ، ويذكر كاتب بونابرت (بوريين) فى مذكراته أن نزول الجيش الفرنسى الى الاسكندرية كان صبيحة يوم الاثنين ٢ يوليو (أحمد حافظ عوض — فتح مصر الحديث ص ٩٥) .

(٢) تذكر المصادر الفرنسية أن المعركة وقعت عند شبراريس ، وليس فى شبراخيت وهناك قريتان تحمل اسم شبراريس احداهما : شبراريس البحيرة وتقع على الشاطىء الغربى لفرع رشيد جنوب شبراخيت بنحو نصف ساعة ، والثانية : شبراريس المنوفية من قرى مركز تلا على الشاطىء الغربى لترعة الباجورية وتقع جنوب كفر الزيات على مسيرة ثلاث ساعات ، والمعركة دارت فى شبراريس البحيرة — خطط على مبارك ج ١٢ ص ١٢٢ .

واجتمع مشايخ الطوائف المختلفة كالأحمدية والرفاعية والبراهمة [٣] وغيرهم من أرباب الأشاير [٤] وأخذ الجميع ينادون بقولهم « يا لطيف » [٥] .

ولكن الوضع اختلف عندما صعد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الى القلعة فأنزل منها علما كبيرا سمته العامة « البيرق النبوى » فنشره بين يديه وطاف به فى أنحاء القاهرة مناديا بالجهاد الدينى ضد الغزاة ، فاجتمع حوله ألوف من الشعب مسلحين بالأسلحة والعصى يهللون ويكبرون ، ومعهم الطبول ، واشتعلت بذلك حماسة الجماهير ، وأغلق التجار متاجرهم وخلت الأسواق من الناس ، وأقبل الشعب على حمل السلاح حتى غلا سعره وارتفعت روح الجهاد بين طبقات الشعب .

بيد أن هذه الجموع الغفيرة لم يكن لها أى دور ايجابى فى المعركة ، ذلك لأن بونابرت حسم الموقف الحربى بانتصاره على جيش مراد بك عند امبابة فى ٢١ يوليو ولم يكن للجماهير أى تأثير اللهم الا تلك الأصوات التى كانت يدوى صداها فى الأفق ، وخاب أمل الجماهير فى جيش المماليك التقليدى فى الدفاع عن البلاد ، ويرجع الجبرتى أسباب هزيمة المماليك الى أنهم « متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ، ورفاهيتهم مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى رويتهم ، مغمورون فى غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ماوقع من خذلانهم وهزيمتهم » [٦] .

---

(٣) البراهمة هنا هم اتباع ابراهيم الدسوقى المعروف ، وليس المراد بهم براهمة الهند .

(٤) أرباب الأشاير : هم مشايخ الطرق الصوفية ، وكل طائفة منهم معروفة باشارة خاصة يزينون بها صدورهم .

(٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٦ .

(٦) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٧ .

ولا أظن أن محللا معاصرا يستطيع أن يقـدم تشريحا لطبقـة منهارة ، وجيش انتهى دوره كقوة مقاتلة ، بمثل مافعل الشيخ الجبرتى، « مما يؤكد أن فهم قوانين التخلف ، وعوامل النصر لم تكن مستعصية على شيوخ الأزهر ، ولـكن لم يسعفهم الدهر » (٧) .

وعندما وقعت الهزيمة بجيش مراد بك انسحب الى الصعيد ، وفر رفيقـه ابراهيم بك الى الشام ، وتركوا القـاهرة عزلاء بدون أسلحة أو قوات تدافع عنها ، فاشتد الـكرب بسكان القـاهرة ، وشرع كثير من الناس القـادرين فى الرحيل من القـاهرة ، واستمر خروج الناس من القاهرة طوال (ليلة الأحد ٨ صفر ١٢١٣ هـ — ٢٢ يوليو) بحريمهم وأولادهم ، ناجين بأنفسهم ، فخـرج تلك الليـلة معظم أهل القاهرة فارين بأنفسهم الى الأقاليم .

هجرة بعض مشايخ الأزهر من القاهرة وعودتهم :

بعد هجعة من الليل فى تلك الليلة الرهيبـة التى سـيطر الفزع فيهـا على النـاس أشـار بعض أصحاب الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر عليه بالرحيـل قائلين له بأن الفرنج : « وصلوا الى باب الحديد (٨) وحرقوه وعبروا منه وهم الآن ينهبـون ويقتلون أهـل تلك

---

(٧) محمد جلال كشك ودخلت الخيل الأزهر — الدار العلمية — بيروت ١٩٧١ ص ١٦٩ .

(٨) باب الحديد — من أبواب سور القاهرة الصلاحية الشمالى التى شيدت فى عصر صـلاح الدين الأيوبى وكان يعرف بباب المقس لوقوعه فى قرية المقس التى كان يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل ، ثم عرف باسم باب الحـديد لأنه كان مركبا عليه بوابه من الحديد ونسب اليه ميـدان باب الحـديد وكان هـذا الباب يقع عنـد مدخل قم البحر من جهة الميدان المذكور ، وقد هدم حوالى عام ١٨٤٧ (د. عبدالرحمن زكى — القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القـائد الى الجبرتى المؤرخ — القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٩) .

الناحية ويفسقون فى نسائهم » ثم قالوا له « ان مكثنا أو توانينا بعد ساعتين يصلوا الينا فأرسل الشيخ عبد الله (الشرقاوى) الى الشيخ محمد السادات من أزعجه وأقلقه واستحثه فى سرعة الركوب » فخرج الشيخ السادات مسرعا وحمل معه ماخف وما يلزم وركب وخرج [٩] بصحبته الشيخ عبد الله الشرقاوى وكذلك خرج السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ محمد الأمير مفتى المالكية والشيخ خليل البكرى شيخ السجادة البكرية والشيخ سالم مسعود شيخ رواق المغاربة وغيرهم ، وأخذ الجميع معهم حريمهم ، وبذلك خلت القاهرة من كبار المشايخ من علماء الأزهر وعندما رأى عامة الناس خروج العلماء « اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم » [١٠] .

غير أن العلماء ما أن خرجوا من أبواب القاهرة وتوسطوا الصحراء حتى تلقتهم العربان فنهبوهم ، وسلبوا متاعهم وما معهم من الأمانات لأن غالبية سكان القاهرة كانوا قد أعطوهم مايعز عليهم من مال أو مصاغ « فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا عليهم » فرجع بعضهم وهم الذين تأخروا وبلغهم ماحصل لاخوانهم

---

(٩) عبد الرحمن الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ هـ الى سنة ١٢١٦ هـ ص ٣ وهى مخطوطة بخط يد الجبرتى رحمه الله . محفوظة بجامعة ليدن تحت رقم cod. AU. 2437 وقد حصلنا على نسخة منها عن طريق التصوير بالميكروفيلم وهى ذات أهمية بالغة فى توضيح بعض الحقائق الخاصة بالحملة ، لأنها عبارة عن مذكرات أولية كتبها الجبرتى لنفسه عن فترة الحملة ، غير أنها ناقصة حيث تؤرخ لستة أشهر فقط من المحرم ١٢١٣ حتى ناهية رجب ١٢١٣ هـ وتحتوى على بعض الاضافات التى حذفها الجبرتى عند اخراج كتابيه (مظهر التقديس) و (عجائب الآثار) سوف نشير اليها خلال هذا البحث .

(١٠) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ الى ١٢١٦ هـ ص ١٣ .

« فأما الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى فانهم لما رأوا هذا الحال وأخذ العرب من الشيخ الشرقاوى جملين بما عليهم » انحازا الى المطرية وأرسلا الى شخص يدعى (أبو طويله) لنجدتهما ومن معهما فحضر اليهم ومنع عنهم هجوم العربان الذين كانوا محتاطين بهم واستمر محافظا عليهم وأما السيد عمر النقيب والشيخ الأمير والشيخ سالم مسعود شيخ رواق المغاربة ذهبوا الى عرضى [11] ابراهيم بك بعد أخذ متاع الشيخ سالم ومتاع حريمه وودايع كانت تصحبهم [12] .

الأزهر محط الأنظار :

ألقت هذ الظروف الصعبة بالمسئولية على عاتق رجال الأزهر ، واجتمع بالأزهر بعض العلماء والأعيان الموجودين بالقاهرة فى صباح الأحد ٢٢ يوليو ١٧٩٨ (٨ صفر ١٢١٣) غداة معركة امبابة وأخذ المجتمعون يفكرون فى الخطة التى يتبعونها حيال هذه الكارثة التى حلت بهم لتخفيف الأمر الواقع شأن كل مدينة كبيرة هزم الجيش المدافع عنها .

وبعد أن تشاور العلماء فى الوضع القائم اتفق رأيهم على أن يرسلوا الى بونابرت — قائد جيش الفرنسيين الذى مازال بالبر الغربى — وفدا استطلاعيا يستعلم أخبار الفرنسيين ونواياهم تجاه البلاد وأهلها ، وكان هذا الوفد مكونا من رجل مغربى « من أعيان طرابلس يقال له على بك ويعرف بأبى القاسم نزيلا بمصر

---

(١١) عرضى : مأخوذة من الكلمة التركية « أوردو » ومعناها الجيش او الفيلق ، وتؤدى معنى المعسكر .

(١٢) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٦ هـ ص ١٤ ويلاحظ أن هذه المخطوطة قد كشفت لنا الستار عن معلومات جديدة عن خروج العلماء من القاهرة وخاصة الشيخ محمد الأمير الذى اختلف المؤرخون قبل ذلك فى أمر اشتراكه فى ديوان القاهرة .

يعــرف لغتهم وأصــحبوا معــه آخر من رواق المغــــاربة وآخر من المتعممين » [١٣] من علماء الأزهر • وهكذا عندما انهارت القيادة الرسمية التى كانت تتمثل فى المماليك والوالى العثمانى ، انبثقت قيــادة جديدة من المشايخ الصــغار باعتبار أن المشــايخ الــكبار كانوا مع الخارجين أو يتعــذر عليهم بحكم مكانتهم أن يبــدأوا هم الاتصــال بالسلطــة الجديدة • فاجتمع هؤلاء وتشاوروا وقرروا مفاوضة بونابرت ، وسوف يتحمل هؤلاء المشايخ الصــغار عبء مقــاومة الاحتلال الفرنسى للبلاد طوال مدة الاحتلال •

توجه هــذا الوفد الى بولاق وأراد النزول فى مركب للتعــدية الى البر الغــربى فلم يتمكنــوا من ركوب المركب لأن المــدافع كانت مازالت تضرب بعض الطلقــات فرجعوا ولم يتمكن من الذهاب بعــد هــدوء الضرب سوى أبو القاسم المغربى الذى يعرف اللغة الفرنسية فعبر النهر وقابل بونابرت وأعطــاه رســالة العلماء ولم يفصح لنــا الجبرتى عن محتويات هــذه الرسالة ويبدو أنها كانت لطلب الأمان من الفــاتح الجــديد والاستئذان لحضــور وفــد من العلماء لمفاوضــة بونابرت والتعرف على مطالبــه ونواياه بالنسبة للأهالى [١٤] بدليل أن بونابرت عندما تسلم الرسالة قال للرسول المغربى على لسان الترجمان: « لمــا لم يأتينــا أحد من مشايخكم ؟ فقال له : ها أنا جئت لأستأذن لهم فى الحضور وأخــذ الأمان لهم وللنــاس ، فقال (بونابرت) نحن أرسلنا لــكم فى السابق مكاتبة فيها الــكفاية » فرجع أبو القــاسم المغربى الى العلماء وأخبرهم بأن بونابرت يطلب جمــاعة من وجهــاء العلماء لمفاوضــته •

---

(١٣) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من ســنة ١٢١٣ هـ الى سنة ١٢١٦ هـ ص ١٤ •

(١٤) ذكر الجبرتى فى عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٠ (أن مضمون هذه الرسالة « الاستفهام عن قصدهم ») •

فذهب الوفد الثانى من العلماء وعلى رأسه الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وعبروا النيل الى بر امبابة فوجدوا بونابرت قد توجه الى الجيزة واستقر بقصر مراد بك هناك ، فتوجهوا اليه وتلقاهم بونابرت « بالتعظيم وبش فى وجوههم وأمنهم » بيد أن العلماء قالوا له « نريد أن تكتبوا أمانا للناس » فرد عليهم بونابرت قائلا : « قد أرسلنا لكم سابقا ذلك » (١٥) فقالوا لابد من ذلك « لأجل اطمئنان الناس والرعية » فكتب لهم أمانا آخر مضمونه كما ذكر الجبرتى : « من معسكر الجيزة خطابا لأهل مصر — اننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا (لم حضرنا) (هكذا فى الأصل) (ويقصد لم نحضر) لا بقصد ازالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا الى البر الغربى خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقون وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم عندنا وهرب بعضهم ونحن فى طلبهم حتى (لم يبق) (هكذا فى الأصل) منهم أحد بالقطر المصرى ، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون

---

(١٥) لعل بونابرت يقصد بذلك ، المنشور الذى أذاعه فى الاسكندرية ووصلت منه عدة نسخ الى القاهرة قبل معركة امبابه ، أو لعله يقصد البيان الآخر الذى نشره بعد معركة امبابه ولم يذكره الجبرتى وانما جاء فى مراسلات بونابرت ج ٤ وثيقة ٢٨١٨ ونصه كالآتى : « من معسكر الجيزة فى ٤ ترميدور (٢٢ يوليو) الى أهل القاهرة انى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعا بعدم مقاومتى . انى جئت لابادة جيش المماليك وحماية التجارة وأهالى البلاد الأصليين ، فليطمئن الخائفون وليرجع الفارون الى بيوتهم وليستمر الأهالى فى اقامة الشعائر الدينية كالمعتاد ، واطمئنوا على عائلاتكم وبيوتكم وأملاككم واطمئنوا على دينكم الذى أحترمه . ولما كان من غرضى الا يختل الأمن وأن يسود النظام فيتألف ديوان من سبعة أعضاء يجتمعون فى الأزهر يتصل منهم اثنان بقومندان الموقع ويتخصص أربعة بالمحافظة على الراحة والنظام وتدبير شئون البوليس » (عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ١ ص ٨٩ حاشية ٢)

مطمئنين » (١٦) ثم قال لأعضاء وفد العلماء « أريد أن يكون منكم سبعة أنفار مشيرين ومدبرين للأمور يحضرون فى كل يوم عند صاحب الديوان واثنين آخرين للمجىء والذهاب وقضاء الحوائج ورتبوا لكم حكاما للمناصب وأمور السياسة » (١٧) فذكر له أعضاء الوفد بأن المشايخ الكبار قد غادروا المدينة خوفا من الاحتلال ، فطلب منهم بونابرت بأن يكتبوا لهم بالحضور فاستكتبوه عدة مكاتبات لهم بالحضور والأمان .

وظل هذا الوفد فى مهمته لدى بونابرت حتى الغروب حتى أن أهالى القاهرة ذهب بهم الظن فى مصير أعضاء الوفد كل مذهب ، وعند وصولهم الى القاهرة وقت العشاء ومعهم مكاتبات الأمان ، وأمامهم المنادى الذى نادى على الناس بالأمان ، اطمأنت نفوس الشعب بعض الاطمئنان بعد أن كانوا فى خوف لغيابهم .

وفى صباح الاثنين ٩ صفر (٢٣ يوليو) أرسلوا الأمان الى المشايخ بالأقاليم لرجوعهم ، فحضر على أثر ذلك الشيخ محمد السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى ومن كان معهما من الفارين من ناحية المطرية ، وكذلك حضر الشيخ خليل البكرى أما السيد عمر مكرم فانه لم يحضر ولم يطمئن للرسالة وذهب مع ابراهيم بك وكذلك الشيخ

---

(١٦) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ هـ الى سنة ١٢١٦ هـ ص ١٤ والجبرتى هنا يختلف مع نفسه فى كتابيه « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » حيث يذكر فيهما — أن هذا الأمان الذى ذكرناه بالمتن قد ارسله بونابرت مع (أبو القاسم المغربى) الذى كان أول من قابل بونابرت وطلب منه الأمان فأعطاه هذا الأمان . (عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٠) ويلاحظ أن هذا الأمان به بعض العبارات من منشور بونابرت الذى اذاعه على الناس وقت نزوله بالاسكندرية وسبق لنا تعليق عليه .

(١٧) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس — ص ١٤ .

سالم مسعود شيخ رواق المغـاربة .. وكـذلك الشيخ محمـد الأمير لم يحضر [١٨] .

هـذه هى رواية الجبرتى بشأن مفاوضـات العلماء مع بونابرت بعـد معركة امبـابة غير أن المراجع الفرنسية تذكر أن بعض التجـار الفرنسيين بالقـاهرة هم الذين قاموا بهذه المفاوضات .

فيذكر ريبو [١٩] أن أحـد التجـار الفرنسيين بالقـاهرة ويدعى المسيو بودوف Baudeuf ومعه جمـاعة من التجـار الأجانب قابل مصطفى بك نائب الوالى العثمانى بالقـاهروطلبوا منه أن يتوجه لمقابلة بونابرت بالجيزة ، وعرضوا عليه وساطتهم لدى بونابرت وذهب هـذا الوفد ومعهم ترجمان من معسكر الفرنسيين وقابل بونابرت وعرض عليه تسليم المـدينة فى مقابل عهد بحمـاية الأرواح والأموال وطمأنينـة السكان ، وصـارح بونابرت الوفد بأن أول أغراضـه المحافظـة على سعادة الشعب المصرى واحترام شـعائره الدينيـة وأمواله . وبعد انتهـاء المقـابلة سار الجنرال ديبوى Dupuy على رأس طليعة من الجنود لاحتـلال المـدينة ، وفى اليوم التـالى (٢٣ يوليو) دخل الجيش المـدينة على أثر تلك الطليعـة ، وفى أثنـاء عبـور الجنود النيل استدعى بونابرت بعض علماء الأزهر وأغا الانكشارية (المحافظ) لمقابلته بمعسكره بالجيزة وأعطاهم منشوره الى سكان القاهرة [٢٠] .

---

(١٨) المصـدر السابق ص ١٥ .

(١٩) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ١ صص ٩٠ — ٩١ (نقـلا عن ريبو) فى كتابه (التـاريخ العلمى والحربى للحمـلة الفرنسية ج ٣) .

(٢٠) تتفق رواية المعـلم « نقولا الترك » مع رواية « ريبو » فى أن الذين قاموا بالمفاوضـات هم جمـاعة من تجار الأجانب بالقـاهرة « من قبل علماء البلد والأعيان » بيـد أن رواية الجبرتى ادعى للثقة كمـا ذكرنا (المعلم نقولا الترك — ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية) ص ٢٩ نشر وترجمة المسيو دجرانج — باريس — ١٨٣٩ م .

ورواية الجبرتى أدعى للثقة كما ذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى لأن الجبرتى شاهد عيان لحوادث ذلك العصر كان يدون معظم مشاهداته فى حينها ، أما رواية ريبو فقد دونت عقب وقوع تلك الحوادث بمدة طويلة ، وليس يخلو هذا التدوين من خطأ أو تحريف، كما لايعقل أن أهل البلد لايفكرون فى حالهم فى ذلك الوقت العصيب ويتركون لتجار من الأجانب مهمة البت فى أمر خطير يتعلق بمصيرهم كما أن نابليون ذكر فى مذكراته التى أملاها على الجنرال برتران فى منفاه بسانت هيلانه بأنه أرسل ترجمانا من قبله غداة معركة امبابة لمقابلة علماء الأزهر ومشايخه وأن هؤلاء تولوا زمام الحكومة بعد المعركة واجتمعوا ليتشاوروا واتفقوا على تسليم المدينة . فذهب وفد من المشايخ على رأسه كتخدا الباشا (نائبه) وقابلوا نابليون بالجيزة. وهذه الرواية كما نرى أقرب الى رواية الجبرتى ولا تنافيها ، والذى يفهم من تقارب الروايتين أن بونابرت أرسل ترجمانه لمقابلة العلماء باعتبارهم زعماء الشعب ، ولمقابلة الوالى باعتباره نائب السلطان (وكان بونابرت كثير الاهتمام باستبقاء علاقات الود مع سلطان تركيا) فقابل الترجمان العلماء الذين كانوا بالأزهر ولم يقابل الوالى لأنه هرب من مصر الى سوريا عقب معركة امبابة مع ابراهيم بك رئيس المماليك ولابد أن يكون الترجمان قد قابل مصطفى بك نائب الباشا [٢١] ، فذهب وفد أبى القاسم الطرابلسى [٢٢] الذى أشار اليه الجبرتى ، ولما عاد أبو القاسم وسمع العلماء حديثه السالف مع بونابرت ذهب وفدهم لمقابلته وجرى بينهم الحديث السالف .

---

(٢١) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ١ ص ص ٩١ — ٩٢ .

(٢٢) انفردت مذكرات الجبرتى — « تاريخ مدة الفرنسيس .. » بذكر اسم رئيس اول وفد ارسله العلماء الى بونابرت للمفاوضات بشأن تسليم المدينة وتأمين الأهالى وهو كما ذكر الجبرتى : على بك وكنيته أبو القاسم من أعيان طرابلس كان نزيلا بمصرويعرف الفرنسية .

حضور بونابرت الى القاهرة :

عبرت القوات الفرنسية نهر النيل الى القاهرة فى اليوم التـــالى لمعركة امبابة ٢٢ يوليو ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) ودخلوا القـــاهرة بقيـــادة الجنرال (ديبوى) مساء « كما يقول المعلم نقولا الترك » وســـاروا قدامه بالمشاعل الى أن دخلوا المـــدينة ، والمنـــادية تنـــــادى أمامه بالأمان على الرعية والأعيـــان (٢٣) وفى الصـــباح وجد أهالى القاهرة منشورا ملصقا على الجـــدران يطمئن المصريين ويؤمنهم ويهدىء من روعهم (٢٤) وفى الثلاثاء ١٠ صفر (٢٤ يوليو) دخل بونابرت القاهرة دخول الفاتحين ونزل بقصر محمد بك الألفى المطل على بركة الأزبكيـــة واتخذه مقرا لقيادته (٢٥) .

سياسة بونابرت الاســـلامية ودوافعها :

كان بونابرت يدرك أن غزو مصر سوف يعرضـــه لصدامين محتمين الأول صـــدام بينـــه وبين الأتراك ، والآخر صدام بينه وبين المصريين، أما بالنسبة لصـــدامه مع الأتراك فقـــد حاول منذ البـــداية انتهـــاج أسلوب لا يبعث على قلق الأتراك ، وهو الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر وأن فرنسا سوف تتولى دفع الجزية المقـــررة على البـــلاد للسلطان فى مواعيد منظمة ، وأن تسك العملة باسم السلطان ، ويخطب باسمه فى المساجد وغير ذلك من المظـــاهر الشكلية ، وأن تتولى فرنسا الاحتفـــاظ بمصر مؤقتا رعاية لمصـــالح الدولة العثمانية ، وهـــذه فى

---

(٢٣) « ذكر تملك جمهور الفريساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية » مرجع سبق ذكره — ص ٣٠ .

(٢٤) أوردنا نص هذا المنشور ص ٣٧ من البحث حاشية ٢ .

(٢٥) كان محمد بك الالفى قـــد أنشأ هـــذا القصر وزخرفه فى السنة السابقة لقدوم الفرنسيين وصرف عليه أموالا كثيرة وفرشه بالأثاث الفاخر . (الجبرتى عجائب الآثار — ج ٣ ص ١١) .

الواقع كانت خطة مرحليـــة لجيش الاحتـــلال ريثما يتسنى لبونابرت السيطرة على الأمور فى البلاد .

وأما بالنسبة للصـــدام مع المصريين ، فـــكان أخشى مايخشـــاه بونابرت لأن تقـــارير القنـــاصل التى كانت تفد تبـــاعا الى فرنســـا وتصف الأوضـــاع الداخليـــة فى مصر قبل قدوم الحملة ، كانت تؤكد على تجنب الصـــدام بعواطف المصريين الدينيـــة ، وتحدثوا عن وضع الأزهر وعلمائه ، ومكانتهم بين الشعب المصرى ، وقـــد اقترح تاليران (وزير الخارجية الفرنسية) فى تقريره الذى قدمه الى حكومة الادارة عن مسألة فتح مصر : أن توضع لجنة مؤلفة من شخصين أو ثلاثة على رأس الحمـــلة لغزو مصر ، على شريطة أن يتميز أعضـــاء هـــذه اللجنة بالحكمة والحذر والارادةالقوية وأن يكونوا أصحابمعرفة — انأمكن — بأحوال البلاد التى يذهبون لفتحها ، وفى وسعهم أن يحملوا الفرنسيين قاطبـــة فى هذه البلاد على احترام تقاليد أهلها وعاداتهم وشعائرهم الدينيـــة ، وكذلك موقفهم من المرأة ، فلا يصح أن يسلك الفـــاتحون مسلكا قـــد يجعل المصريين يعتقـــدون أنهم اســـتبدلوا ظلمـــا بظلم واستعاضوا عن شر بما هو شر منه ، أما السبيل السوى الى استمالة المصريين وكسب ودهم فهو تبجيل علمائهم وشيوخهم ، واحترام أهل الرأى منهم ، لأن هؤلاء العلماء أصحاب ســـيطرة كبيرة على الشعب وتسلط عظيم على تفكيره [٢٦] .

وعلى هـــذا الأساس عمد بونابرت الى انتهـــاج سياســـته التى عرفت فيما بعد بالسياسة الاســـلامية ، وكان على بونابرت لكى يحرز بعض التقدم فى هذه السياسة أن يتجه الى علماء الأزهر نظرا لمكانتهم الاســـلامية بمصر بوجه خاص ، وفى العـــالم الاسلامى على وجـــه

---

(٢٦) د. محمد فؤاد شكرى — الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر — دار الفكر العربى — القاهرة — لم تذكر سنة الطبع — ص ٧٤ .

العموم ، فقد قرر بونابرت فى مذكراته : « أن الأزهر يقابل جامعة السربون فى باريس ، وأنه أشهر جامعة فى الشرق » [٢٧] ونظر بونابرت الى العلماء نظرة تقدير استنادا الى أن لهم صفتين : الصفة الأولى : أنهم الصفوة الممتازة من الطبقة المستنيرة فى البلاد ، والمتعمقون فى الدراسات الدينية واللغوية ، أو السربونيون ، وكان بونابرت أول من أطلق عليهم المصطلح الجامعى الحديث « دكاترة الشريعة » وأما الصفة الثانية : فهى أنهم زعماء الشعب المصرى اعتاد الشعب أن يفزع اليهم فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بوجه خاص [٢٨] ، لكى يحموه من جبروت الحكام ، وفى استطاعتهم أن ينظموا كفاح الشعب فى وجه الحملة .

لذلك عمل بونابرت على التقرب اليهم واحترامهم ، وخطب ودهم لكى يكونوا واسطة بينه وبين الشعب المصرى المتدين ، وقد أفصح بونابرت فى مذكراته عن البواعث التى أملت عليه التقرب الى علماء الأزهر فقال : « انهم زعماء الشعب المصرى ، وأنهم ظفروا بثقة ومودة سكان مصر على بكرة أبيهم » ومضى يقول : « ان مشاعر الغيرة والحقد قد افتعلت فى نفوس الأتراك العثمانيين والمماليك على علماء الأزهر ، فجعلتهم يعملون على اقصاء هؤلاء العلماء عن المشاركة فى تصريف الشئون العامة ، وقرر بونابرت أنه كان من خطل الرأى أن يحذو الفرنسيون حذ الأتراك العثمانيين والمماليك فى انتهاج هذه السياسة ، كما أنه كان فى حكم الاستحالة أن يتطلع الفرنسيون الى ممارسة نفوذ سريع على المصريين لأن الفرنسيين أغراب عن الشعب

---

(٢٧) د. عبد العزيز محمد الشناوى — صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر — من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس — ابريل ١٩٦٩ مطبعة دار الكتب — القاهرة ١٩٧١ ص ٥ .

(٢٨) المرجع السابق صص ٥ — ٦ .

المصرى ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة — فى نظر بونابرت — الى وسطاء بين الحكام الفرنسيين وبين جماهير الشعب ، ثم قال : « وقد فضلت العلماء ودكاترة الشريعة ، لأنهم أولا : هم كذلك بطبيعة الحال . وثانيا : لأنهم هم مفسرو القرآن ، وان أكبر العقبات التى واجهتنا ، وسوف تواجهنا أيضا ، انما تنبثق عن الأفكار الدينية . وثالثا : لأن هؤلاء العلماء ذوو طباع هادئة ، ويحبون العدالة ، وعلى درجة من الثراء ، وأصحاب مبادىء خلقية عالية ، وهم بدون منازع أكثر الناس أمانة فى مصر ، ولا يركبون الخيل ، ولا يمارسون أعمالا عسكرية ، ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة » (٢٩) .

مظاهر من سياسة بونابرت الاسلامية :

تلاحقت مظاهر سياسة بونابرت الاسلامية وهو لايزال فى عرض البحر المتوسط فى طريقه الى مصر ، وتمثلت المظاهر الأولى فى عدة منشورات كتبها وهو على ظهر بارجة القيادة أوريان فأصدر منشورا مؤرخا فى الثانى والعشرين من يونيو ، أى قبل وصول الحملة الى الاسكندرية بيومين ، وقد أوضح بونابرت للجنود أن الشعب المصرى يدين بالاسلام ، وأن أول ركن من أركان الاسلام هو الشهادتين « لا اله الا الله محمد رسول‌الله » فلا ينبغى‌معارضة المصريين فى عقيدتهم الدينية ، أو تخطئتهم فيها ، بل عليهم أن يسلكوا معهم نفس المسلك الذى انتهجوه من قبل مع اليهود والايطاليين ، وعليهم أن يظهروا نحو المشايخ والأئمة الاحترام الذى أظهروه

---

(٢٩) المرجع السابق — ص ٨ نقلا عن مذكرات بونابرت . ويلاحظ أن بونابرت تجاهل الأحداث التاريخية عندما قرر فى مذكراته أن علماء الأزهر لاينتظر منهم تزعم حركة مسلحة ، لأنهم هم الذين نظموا ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ضد الاحتلال الفرنسى ، كما اشتركوا فى ثورة القاهرة الثانية ١٨٠٠ ، ودبروا مقتل الجنرال كليبر على يد سليمان الحلبى الأزهرى ، كما قادوا ثورة هادرة ضد طغيان الوالى العثمانى خورشيد باشا سنة ١٨٠٥ .

لحاخامات اليهود ، وأساقفة المسيحيين وعليهم أن يكونوا متسامحين حيال التقاليد التى يقضى بها الشرع ، وأن يحترموا المساجد كما احترموا كنائس اليهود وكنائس المسيحيين والأديرة ، وأن يحترموا ديانة محمد كما يحترمون ديانة موسى وديانة عيسى ، وحضهم على احترام العادات المصرية الاسلامية وخاصة فيما يتعلق بسلوكهم نحو النساء » [٣٠] .

وبذلك يكون بونابرت قد وضع (وهو مايزال فى عرض البحر) أساس خطة للاستيلاء على قلوب المصريين بعد الاستيلاء على بلادهم ، وسوف يؤكد هذه الخطة فى بقية منشوراته الى الشعب المصرى .

كما كتب بونابرت أيضا وهو على ظهر البارجة أوريان منشورا آخر باللغة الفرنسية موجها الى الشعب المصرى شرح فيه الخطوط الرئيسية للسياسة التى يعتزم انتهاجها فى مصر ، وقام المستشرقون المرافقون للحملة بترجمة المنشور الى اللغة العربية ، وساعدهم مترجمون من الأسرى المسلمين الذين كان فرسان القديس يوحنا قد اعتقلوهم فى جزيرة مالطة منذ سنوات طويلة ، وألقوا بهم فى غيابة السجن ، وأطلق بونابرت سراحهم عقب استيلائه على الجزيرة وهو فى طريقه الى مصر [٣١] من باب الدعاية للحملة ، وأعطاهم

---

(٣٠) المرجع السابق صص ١١ — ١٢ .

(٣١) كان هؤلاء المعتقلون من التجار المسلمين ، وهم أخلاط من الترك والعرب والسوريين والمغاربة ، كانت تأسرهم سفن مالطة فى جولاتها فى البحر المتوسط ، ويعتبر فرسان مالطة أن أسرهم واجب دينى ، وكانوا يقضون عليهم بالسجن على ظهر السفن الحربية ، ويجبرونهم على الأشغال الشاقة ، فيقضون بقية عمرهم فى هذا الشقاء ، وكان عدد هؤلاء الأسرى الذين أطلق بونابرت سراحهم نحو السبعمائة ، وأحضرهم معه الى الاسكندرية لكى يستغلهم فى الدعاية لحملته ، وذكر

المنشور فسبقوه به الى القاهرة لـكى يحدثوا بذلك الأثر الذى أراده بونابرت ، وهو أنه ليس عدوا للاسـلام والمسلمين بل على العكس كما يبدو من هذا الحدث أنه مناصر للاسلام والمسلمين •

ولعل أهم مايتضح فى هـذا المنشور ، هى الخطوط الرئيسـية لسياسة بونابرت الاسـلامية التى اعتزم انتهاجهـا فى مصر ، فقـد حاول فيـه تخـدير العـاطفة الاسلامية وعدم الاصطدام بها لـكى لايثير فى وجهه حربا دينيـة وجهادا اسـلاميا يقضى على مشروعـه من أساسه ويعصف بآماله ، وهـذه دروس مستفادة من عبر التاريخ السالفـة ابان الحروب الصليبية ، ومن ثم فقـد بدأ منشوره بالبسملة على نحو مايفعله المسلمون فى كل ماكانوا يكتبون من كتب ومراسلات، ثم بشهادة لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه ، ويلاحظ أنه أغفل وأن محمدا رسول الله ، وأكد فى أكثر من موضع فى هذا المنشور أنه لن يتعرض بسوء للدين الاسـلامى بل انه أكثر من المماليك عبادة لله ، وقرر أن الفرنسيين مسلمون مخلصون ، لأنهم حاربوا البابا الذى يحرض النصـارى دائما على محـاربة الاسـلام ، وقاتل فرسـان القـديس يوحنـا وشردهم لـكراهيتهم للاسـلام والمسلمين ، وأكد بونابرت أن الفرنسيين محبون للسلطان العثمانى لعلمه بمنزلتـه لدى المصريين الذين يعتبرونه خليفة الاسلام والمسلمين •

الجبرتى أن « فيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار مالطـة ويعرفون باللغـات » ، ولم يكن النشاط العـدائى الذى مارسه هؤلاء القراصنة ضد المسلمين ، هو السبب الذى حمل بونابرت على غزو مالطة والقضاء عليهم، ولـكن انبثق موضـوع غزو الجزيرة عن اعتبـارات تتصل بالسـياسة العليـا لفرنسا ، واستهدف توفير الأمن الداخلى والخارجى لنظـام الحكم الذى جاءت به الثورة الفرنسية — انظر تفصيل هـذا الموضوع فى البحث الضافى الذى قـدمه الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى فى الندوة الدولية لتاريخ القاهرة تحت عنوان (صور من دور الأزهر فى مقـاومة الاحتـلال الفرنسى لمصر ٠٠) مرجع سبق ذكره صص ١٧ — ١٨ حاشية رقم ٢ .

والحق أن هـذا المنشور يلخص سـياسة بونابرت الاسلامية ، استهدف منه تأكيد المبادىء الآتية فى أذهان الشعب المصرى :

أولا : أن الفرنسيين مسلمون مخلصون ، وأنهم لايضمرون شرا للاسـلام بل انهم يكنون احتراما عميقا للنبى عليه الصـلاة والسلام والقـرآن العظيم والهـدف من ذلك اشـاعة الطمأنينـة فى نفوس المصريين وجذب قلوبهم الى الحكم الفرنسى .

ثانيا : الفصل بين المصريين والمماليك ، والهـدف من ذلك اشاعة الفرقة فى صفوف المسلمين ، وضمان حيدة المصريين لحصر العمليـات الحربية فى أضيق نطاق ممكن .

ثالثا : ابراز أن الفرنسيين أتوا الى مصر لتحـرير المصريين من ظلم المماليك ولم يأتوا غزاة قاهرين .

رابعا : محـاولة بذر الروح الانفصاليـة فى الشـعب المصرى وتذكيره بأمجاده واغرائه بشغل المنـاصب التى حرم منها ابان العصر العثمانى .

خامسا : التقرب الى السلطـان والزعم بالولاء له حتى لايجـد المصريون سـبيلا الى الثورة بسبب ولائهم للسلطان الذى كان الشعب ينظر اليه على أنه خليفة المسلمين [٣٢] .

رأى علماء الأزهر فى منشور بونابرت :

للجبرتى تعليق لاذع على ما احتواه هـذا المنشور من مزاعم فقد وصفه بأنه ملىء « بالاغراء والتحذير والتخيل » [٣٣] وأنه « مكيدة »

---

(٣٢) د. عبد العزيز محمد الشناوى — صور من دور الأزهر — مرجع سبق ذكره صص ١٩ — ٢٠ .

(٣٣) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سـنة ١٢١٣ الى ١٢١٦ هـ ص ١٣ .

وأن فيـــه ادعاء بأن الفرنسيين « قـــدموا من طرف السلطـــان وأنهم جاءوا ليزيلوا عن المصريين الظلم » (٣٤) وعلق على زعم بونابرت بأنه يحترم القـــرآن العظيم بقـــوله : « ان احترام القـــرآن وتعظيمه ، بالتصـــديق بما فيـــه ، وهو من آيات النبى الدالة على صـــــدقه ، وأنه نبى آخر الزمان ، وأن أمتـــه أشرف الأمم ، وهؤلاء لجميع ذلك نافون ، وفيما عـــدوه كاذبون ، وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليهـــا وهم معرضون » (٣٥) . وأما التعظيم الحسن فهو غرض مأمور به بقوله « لايمسه الا المطهرون » فيحرم على المحـــدث والجنب مس آية من القـــرآن ، وهـــؤلاء قـــد شـــوهد الـــكثير منهم يتغوط ويمســـح بأوراق المصـــاحف ويرميهـــا ملطخـــة فى الطريق ومحـــل النجاسات فأين أعزك الله التعظيم الذى يزعمـــه هـــذا المفترى !؟ ثم قال ان قوله : « وأحترم نبيه » من باب عطف الـــكذب على الـــكذب لأنه لو احترمه لآمن به وصدقه واحترم أمته (٣٦) .

ولا شك أن علماء الأزهر سخروا من أسلوب هذا المنشور قبل أن يسخر منه الباريسيون كما توقع المنـــدوب الفرنسى البحرى (جوبير) الذى كتب الى وزير البحـــرية يقول : « لعلـــكم أيهـــا البـــاريسيون تضحكون حين تقرأون هـــذا المنشـــور الاســـلامى الذى وضعه قائدنا الأعلى ، ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور ولا شك فى أنه محدث أثرا كبيرا جـــدا » وقـــد اعترف نابليون نفسه وهو يعقب عليه بعـــد ذلك فى منفـــاه بسانت هيلانه أن المنشور قطعـــة من الدجل « ولكنه دجل من أعلى طراز » وقال لشخص آخر من أصدقائه فى سانت هيلانه

---

(٣٤) عبدالرحمن الجبرتى — مظهرالتقديس بزوال دولةالفرنسيس — طبعـــة وزارة التربيـــة والتعليم — تحقيق وتعليق : أحمد زكى عطيـــة ، وعبد المنعم عامر ، ومحمد فهمى عبد اللطيف — القاهرة ١٩٦١ جا ص ٥٦

(٣٥) سورة يوسف — الآية ١٠٥ .

(٣٦) الجبرتى — مظهر التقديس — مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٦٢ .

« على الانسان أن يصطنع الدجل فى هــذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد الى النجاح » (٣٧) .

وتوجــد اختــلافات واضــحة بين النصــين العربى والفرنسى للمنشور ، فالأصل الفرنسى الموجود فى محفوظــات وزارة الحربيــة الفرنسية والموجود فى مكاتبات بونابرت تحت رقم ٢٧٢٣ ، ليس فيه ذكر قوله فى المقــدمة : « بسم الله الرحمن الرحيم » وليس فيه أيضا « **لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه** » وليس فيــه عبارة « من طرف الفرنساوية المبنى على أســاس الحرية والتســوية » بل جاء فى أوله : « من بونابرت عضــو المجمع العلمى القومى والقــائد العــام » وليس فى الأصل الفرنسى مطلقــا قــوله بأن الفرنسيين : « مسلمون مخلصون » ولــكن جاء فيــه أن الفرنسيين « أصــدقاء للمسلمين الصــادقين » (٣٨) ففى العبــارة الأخــيرة للنص الفرنسى عــدم ادعاء الاســلام ، والخلاف بين النصين على هــذا الوجه كان مقصــودا ، فبونابرت لايريد أن يكتب بالفرنسية مايؤخذ عليه ويحفظ عليه فى التــاريخ ويعرضــه لتشــويه ســمعته أمام مواطنيــه من الفرنســيين ، وكان أحــرص النــاس وأنفــذهم نظرا الى هــذين الأمرين (٣٩) وانما أمر بونابرت بأن تحرر الترجمــة العربيــة بهــذه الادعاءات الخاصــة بالدين الاســلامى ونبيه وقرآنه لتضليل المصريين وخــداعهم .

وبالرجوع الى الأصل العربى الذى وقع فى يد الجبرتى نجد به

---

(٣٧) كرستوفر هيرولد — بونابرت فى مصر — ترجمة فؤاد أندراوس — دار الــكتاب العربى للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٦٧ صص ٩٨ — ٩٩

(٣٨) د. عبد العزيز الشناوى : صــور من دور الأزهر .. مرجع سبق ذكره ص ١٦ .

(٣٩) أحمد حافظ عوض — فتح مصر الحــديث أو نابليون بونابرت فى مصر — القاهرة ١٩٢٥ ص ١٠٩ .

كثيرا من الأخطـــاء النحوية ، وقـــد سجلها الجبرتى فى مذكراته (٤٠). ويظهر أن هـــذه الأخطاء صححت بعـــد ذلك عنـــد طبع « عجـــائب الآثار » لأن غالبيتهـــا غير موجودة به الآن ، وقد أعرب الجبرتى بعض عبارات المنشور اعرابا تهكميا على طريقة الخطيب الشربينى فى شرحه لقصـــيدة أبى شادوف (٤١) ، وذلك مثل قوله فى اعراب « مسلمين » فى قول بونابرت « ان الفرنساوية هم أيضا مسلمين » قوله : مسلمين صوابه الرفع ، ونكته العدول الى النصب اشارة الى أن اسلامهم نصب ومثل قوله فى اعراب « وأحترم نبيـــه » معطوف على ماقبله من باب عطف الـــكذب على الـــكذب لأنه لو احترمه لآمن به وصدقه واحترم أمتـــه (٤٢) ، وعلى هـــذا النســـق أعـــرب بعض كلمـــات المنشـــور وعلق عليه .

الاحتفال بالأعياد الدينيـــة الاسلامية :

كان من مظاهر سياســـة بونابرت الاســـلامية اهتمـــامه العميق بالأعياد الاســـلامية فقـــد حاول استغلال الفرص التى أتاحتهـــا له الأعيـــــاد المصرية التى يحتفـــل بهـــا أهل مصر ، وارتبطت ذكراها بأحـــداث « منحت أهل مصر رزقهم ودينهم » (٤٣) كالاحتفـــال بوفاء النيل والمولد النبوى الـــكريم ، ومولد الامام الحسين رضى الله عنه ، وحدث فى عام ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) أن اتفق وقوع الاحتفـــال بوفاء النيل وبالمولد النبوى فى تاريخين لا يفصل بينهما أســـبوع هما ١٧ ،

---

(٤٠) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٦ مصـــدر سبق ذكره .

(٤١) شرحها فى كتابه المعروف « هز القحـــوف فى شرح قصـــيد أبى شـــادوف »

(٤٢) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر .. صص ٧ — ٨ .

(٤٣) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ٢٠٥ .

٢٣ أغسطس (٥ — ١١ ربيع الأول) ، بعد اسـتيلاء الفرنسيين على القـاهرة بشهر .

ففى يوم الجمعـة الموافق ٥ من ربيع الأول احتفل بونابرت بعيد وفاء النيل عنـد ملتقى النيل بالخليج ، حيث أقام الفرنسيون منصة فى هـذا المـكان اتخذ بونابرت فيهـا مجلسـه ، ليشرف على أول الاحتفـالات ، وجلس بجواره قواده فى ثيـابهم العسكرية ، وقـد اختلط بهم أعضـاء ديوان القـاهرة من العلماء وغيرهم من أعيـان المسلمين ، ويذكر الجبرتى فى هذا الصدد أن الفرنسيين « زينوا عدة مراكب وغلايين ، ونادوا على النـاس بالخروج الى النزهة فى النيل والمقيـاس والروضـة على عادتهم ، وأرسل صـارى عسكر أوراقا لـكتخدا الباشا والقاضى وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمنـاصب وغيرهم بالحضـور فى صـبحها ، وركب صحبتهم بموكبه وزينتـه وعسـاكره وطبوله وزموره الى قصر قنطرة السـد وكسروا الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونفوطـا حتى جرى المـاء فى الخليج » (٤٤) .

وعلى الرغم من هـذه المبـادرة من طرف بونابرت فى الاحتفاء بهـذا العيد القومى الا أن المسلمين من المصريين استنكفوا أن يخرجوا للمشاركة فى هذا العيد كما يقول الجبرتى : « وأما أهل البلد (المسلمين) فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب عى العـاده سـوى النصارى الشوام والقبط والأروام والافرنج البلديين ونسائهم » (٤٥) وشاء بونابرت أن يعتبر الاحتفـال بوفاء النيل نجاحا شخصيا عظيما، على الرغم من انعـدام الحمـاسة الشعبية بصورة واضـحة فذكرت صـحيفة لوكوربيـه دى ليجيبت (بريد مصر) واسمها بالفرنسـية

(٤٤) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ١٥ .

(٤٥) المرجع السابق نفس المـكان .

(Le coorrierde L. Egypte) (وهى أول صــحيفة تطبــع فى مصر) أنه فى عودته الى الأزبكية كان يتبعه « حشد كبير من الناس يتغنون بمدح الرسول والجيش الفرنسى » وهذا هو التزييف الحقيقى للتاريخ، قال عنــه كرستوفر هيرولد « وهى مبالغــة صــحفية ينفيها الجبرتى — المؤرخ المتزن — نفيا باتا » (٤٦) .

وعندما حلت مناسبة الاحتفــال بالمولد النبوى ، قرر علماءالأزهر ورؤساء الطوائف الدينيــة الاســلامية عدم الاحتفال به بسبب ظروف الاحتــلال الفرنسى ، بيــد أن بونابرت سأل مشايخ الديوان عن ذلك ولمــاذا لم تبــدأ الاحتفــــالات التى كانت تبــدأ قبلهــا بأســبوع « فاعتذر الشيخ البكرى » (وكان يترأس الاحتفالات التى تقام بهــذه المنــاسبة) و (اعتذر) بوقف الحــال وعــدم المصروف (٤٧) غير أن بونابرت لم يقبل عــذره وأعطاه ثلاث مائة ريال فرانســه ، وأقيمت الاحتفــالات على مدى ثلاثة أيام بليــاليها وفى يوم الخميس ١١ ربيع وهو يوم المولد دقت الموســيقى بالأزبكية أمام بيت الشيخ البكرى . وقد جامل بونابرت الشيخ البكرى فى هــذا اليوم وتنــاول طعــــام العشاء فى منزله .

وانتهز برنابرت هــذه المناسبة وقلد الشيخ خليل البكرى منصب نقــابة الأشراف الذى كان شاغرا بخروج السيد عمر مكرم مهــاجرا الى الشام عقب معركة امبابة ، فــدعى بونابرت الشيخ خليل البكرى فى منزله فى مساء الخميس ، وخلع عليه فروة ثمينــة بهذه المناسبة ، وبدأ البكرى فى مبــاشرة مهام منصبه ونودى بالقاهرة « بأن من كان له دعــوى على شريف أو لشريف عليــه دعــوى فعليــه ببيت نقيب الأشراف » (٤٨) .

---

(٤٦) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ٢٠٦ .

(٤٧) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٢٠ .

(٤٨) المصــدر السابق نفس الصفحة .

وكان منصب أمير الحج شاغرا ، فعين بونابرت فى هذا المنصب مصطفى بك كتخدا البـــاشا العثمانى فى ٢ سبتمبر ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) وكان مصطفى بك قــد آثر البقـــاء فى القـــاهرة ولم يخرج مع الوالى العثمانى بعــد معركة امبابة الى الشـــام ، وكان هــذا التعيين يتسق مع سياسة بونابرت الاســـلامية من ناحيـــة ، ويستهدف من ناحيـــة أخرى التقرب الى البـــاب العـــالى ، وأقام بونابرت الاحتفالات بهذه المنـــاسبة ، وخلع على مصطفى بك خلعـــة خضراء ، وأهـــدى اليـــه جوادا كريما ، وغطـــاء للرأس مرصـــعا بقطع من المـــاس والأحجار الـــكريمة ، وأمر باطلاق المـــدافع كوسيلة اعلاميـــة لابلاغ ســـكان القاهرة بهـــذا التعيين (٤٩) ، وقــد استغل بونابرت هـــذه المنـــاسبة استغلالا دعائيا جبـــارا حيث أرسل عـــدة رسائل الى : سلطان الدولة العثمانيـــة ، والى شريف مكـــة ، وحكام طرابلس وتونس والجزائر ، يخبرهم فيهـــا أن الحكم الجـــديد فى مصر قـــد كفل الأمن والطمأنينة للحجاج ، وبذلك لاينقطع قـــدوم حجاج هـــذه الأقاليم الى مصر فى موسم الحج .

ومن الأعياد الدينيـــة التى اعتـــاد سكان القـــاهرة الابتهاج بها مولد الامام الحسين ، وكان الذى يتولى الاشراف على هذه الاحتفالات هو الشيخ محمد السادات وكان قـــد عقد العزم على ترك الاحتفـــال به هـــذا العام ولـــكن الجبرتى يذكر فى مذكراته أن « بعض المنافقين دس دسيسة عنـــد الفرنج » وذلك عنـــدما سأل بونابرت عن ســـبب عـــدم عمل المولد كالمعتاد ، فرد ذلك المنـــافق : مراد الشيخ السادات لايعمله الا اذا رجع المماليك ، فبلغ الشيخ الســـادات ذلك فشرع فى عمله على ســـبيل الاختصـــار سبع ليـــال ، وكان يعمل فى الســـابق خمسة عشر ليلة (٥٠) وكان آخره يوم الثـــلاثاء الموافق ٢١ ربيع الآخر

(٤٩) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر — ص ٤٣ .
(٥٠) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٢٩ .

سنة ١٢١٣ هـ وفى هـذا اليوم حضر بونابرت الى منزل الشيخ محمد السادات وتناول طعام العشاء بهذه المناسبة ، وركب عائدا الى مقر القيادة الفرنسية [٥١] •

من هذا نرى أنه على الرغم من محاولة بونابرت اظهار عواطف طيبة تجاه أعياد المسلمين الدينية واحتفالاتهم القومية ، وذلك بتشجيعهم على اقامتها ومشاركة الفرنسيين فيها بالمال والابتهاج بها ، على الرغم من ذلك الا أن الشعب ، وعلى رأسه علماء الأزهر كان يقف موقفا سلبيا فى غالب الأحيان من هذا النفاق والدجل السياسى البونابرتى فكانت تقام الاحتفالات وتنصب الزينات تحت ضغط سلطات الاحتلال الفرنسى •

والجبرتى يعتبر اهتمام الفرنسيين بالاحتفال بالموالد التى تنتشر فيها الموبقات انما قصد الفرنسيون من ذلك افساد أخلاق الشعب فيقول فى صدد احتفال الفرنسيين بمولد السيد على البكرى ، « فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج على الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهى وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة ماأعيد » [٥٢] •

ومن مظاهر سياسة بونابرت الاسلامية ، أنه أظهر الاحترام لعلماء الأزهر وحاول التودد اليهم ، بأن أبقى لهم امتيازاتهم من حصص الالتزام وأبقى لهم وظائفهم على الأوقاف والرزق الاحباسية التى كانوا يقومون بالاشراف عليها قبل الحملة الفرنسية « وأمر

---

(٥١) أنظر شرحا وافيا لسياسة بونابرت الاسلامية — دوافعها ومظاهرها فى مؤلف الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى — صور من دور الأزهر •• مرجع سبق ذكره •

(٥٢) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ صص ٨٤ — ٨٥ •

بأن يؤدى رجال حرس الشرف الذين يرابطون أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر، اذا جاءوا الى مقر القيـــادة ، فاذا دخلوا هـــذا المقر خف لاستقبالهم رجال اليـــاوران والمترجمون يرحبون بهم ، ويقودونهم الى الصـــالون الرئيسى فى القصر ، وتقـــدم لهم المرطبـــات ثم القهوة ، فاذا فرغوا من تناولهم دخل عليهم بونابرت ورحب بهم ، وجلس وسطهم ، محاولا أن يدخل فى نفوسهم الطمأنينة والثقـــة • وكان يخوض معهم بواسطة المستشرق فانتور (الذى كان يقوم بوظيفة المترجم) فى مناقشـــات علمية ، تتنـــاول القرآن الـــكريم ، ويطلب بونابرت من المشايخ تفسير بعض الآيات ، وكان يحرص على اظهـــار الاحـــترام الشـــديد للنبى صلوات الله وسلامه عليه » [٥٣] وكان غرض بونابرت من ذلك واضحا وهو استمالة العلماء الى جانبـــه ، وخـــداعهم ، وبذلك ينصرف الشعب عن مقـــاومة الحملة عنـــدما يرى رؤساءه الدينيين وزعمـــاءه الشعبيين مع بونابرت على هـــذه الطريقـــة من الوفاق والود • وقـــد أشـــار بونابرت فى مذكراته بخصال علماء الأزهر وقال : « انهم طاعنون فى السن ، وان علمهم وطبـــاعهم وثراءهم ، بل وعراقة أصلهم ، وكرم محتدهم ، كل أولئك يحمل الانسان على اظهـــار مزيـــد من الاحترام نحوهم » [٥٤] وأصدر بونابرت قرارا فى ٢٧ يوليو ١٧٩٨ م (١٢١٣هـ) بتخصيص حصـــان لـــكل عضو من أعضـــاء ديوانى القاهرة ، وكان هذا القرار يحمل معنى التكريم والتقـــدير للمشايخ علمـــاء الأزهـــر بالذات ، لأن عضـــوية ديوان القاهرة كانت فى تلك الأثنـــاء مقصورة عليهم [٥٥] •

---

(٥٣) د• عبـــد العزيز محمـــد الشـــناوى — صـــور من دور الأزهر صص ٣٢ — ٣٣ .

(٥٤) المرجع السابق نفس المـــكان .

(٥٥) المرجع السابق ص ٣٤ .

فكان هذا القرار ينسحب عليهم ، كما أن وسائل المواصلات فى مدينة القاهرة كانت تخضع فى ذلك الوقت للتفرقة العنصرية ، وللنظام الطبقى معا : فالخيل يستخدمها الأتراك العثمانيون والمماليك • أما البغال فيركبها العلماء بحجة أنها تمشى الهوينا ، وفى هدوء يناسب وقار العلماء أما الحمير فكانت تركبها الجماهير ، بيد أن قرار بونابرت هذا السالف الذكر لم يوضع موضع التنفيذ (٥٦) •

وبونابرت كان يود أن يذهب الى أبعد من ذلك فى دجله على الشعب المصرى المسلم فقد كان ينوى الذهاب الى حج بيت الله الحرام بمكة فقد أفضى الى أحد رفاقه بسانت هيلانه بهذا الحديث : « ليس الذى يعجبنى فى الاسكندر الأكبر حملاته الحربية •• بل أساليبه السياسية لقد كان محقا حين أمر بقتل بارمينون الذى عارض بحماقته فى تخلى الاسكندر عن التقاليد الاغريقية وكان منتهى حسن السياسة أن يذهب لزيارة « معبد آمون » فهو بهذا فتح مصر • ولو أننى مكثت فى الشرق لأقمت على الأرجح دولة كدولة الاسكندر بذهابى الى مكة للحج » (٥٧) ويعتبر هذا الحديث مجرد تسلية أو عبث أو ثرثرة يملأ بها نابليون الفراغ الذى كان يعيش فيه فى منفاه •

تعيين علماء الأزهر بديوان القاهرة :

ومن مظاهر سياسة بونابرت الاسلامية تعيين علماء الأزهر بديوان القاهرة فبعد أن استقر بونابرت بالقاهرة بدأ فى تنفيذ ماوعد به الشعب المصرى من انشاء حكومة راقية فى مصر ليكسب بها مودة الشعب وثقته ، ولذلك أصدر أمره من قصر الألفى بالأزبكية بتشكيل ديوان من علماء الأزهر وشيوخه وهذا هو نص المنشور الخاص به :

---

(٥٦) نفس المرجع ص ٣٥ •

(٥٧) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره — ص ٢٥٦ •

معسكر القاهرة ٧ ترميدور من السنة السادســة للجمهورية ٢٦ يوليو ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) نحن بونابرت عضو المجمع العلمى القومى[٥٨] والقائد العام للجيش نأمر بالآتى :

أولا : تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أشخاص .

ثانيا : يتألف هــذا الديوان من المشايخ : السادات والشرقاوى والصــاوى والبكرى والفيومى والعريشى وموسى السرسى والســيد عمر نقيب الأشراف ومحمــد الأمير وعليهم أن يجتمعوا اليوم الساعة الخامسة مساء فى منزل كخيا الشاويشية ، وعليهم أن ينتخبوا رئيسا لهم ، وأن يختــاروا أمينا (كاتم سر) من غير الأعضــاء ويعينوا اثنين من الــكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية ، ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجنــد) لادارة الشرطة ، وعليــه أن ينتخب لجنة مؤلفــة من ثلاثة لمراقبــة الأسواق وتموين المــدينة ولجنة من ثلاثة آخرين يعهد اليهم بمهمــة الاشراف على دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها الى امتداد فرسخين منها .

ثالثا : يجتمع أعضــاء الديوان كل يوم من الظهر ، ويبقى منهم ثلاثة أعضاء على الدوام فى دار المجلس .

رابعا : يقام على باب الديوان حرس فرنسى وآخر تركى .

خامسا : على الجنرال بيرتيــــه (Berthier) [٥٩] وقومنـــــدان

---

(٥٨) كان بونابرت يفخر بعضــويته فى المجمع العلمى الفــرنسى ، ولذلك كان يقــدم صــفته العلمية فى جميع أوامره ومنشوراته على صفته العسكرية ، وكان قــد عين عضــوا بالمجمع العلمى الفرنسى منذ ديسمبر ١٧٩٧ (د. عبد العزيز محمد الشــناوى — صــور من دور الأزهــر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى — مرجع سبق ذكره ص ٢٩) .

(٥٩) كان الجنرال بيرتيــه رئيســا لهيئــة أركان الحرب فى جيش بونابرت .

المـــدينة [٦٠] أن يكونا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لاجراء مايلزم لأعضـــائه ، ولكى يأخذا عليهم تعهدا بألا يعملوا شيئا ضـد مصلحة الجيش [٦١] .

وهذا المنشور يختلف من بعض وجوهه عمـــا جاء فى الجبرتى، فالجبرتى ذكر أن أعضاء الديوان عشرة أعضـــاء ليس فيهم عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ محمد الأمير ، والشيخ أبو الأنوار السادات . فهؤلاء الثلاثة لم يشتركوا فى ديوان القاهرة فعلا فهو يقول :

« وفى يوم الخميس ثالثعشر صفر[٦٢] أرسلوا أى(الفرنسيون) بطلب المشايخ والوجاقلية عنـــد قائمقام صارى عسكر . فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشـــاوروامعهم فى تعيين عشرة أنفـــار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفـــاق على الشيخ عبدالله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصـــاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمـــد المهـــدى والشـــيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهور والشيخ أحمـــد العـــريشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ محمد الدواخلى [٦٣] .

فيكون الجبرتى قـــد ذكر ثلاثة أعضـــاء آخرين مكان السيد عمر مكرم والشيخ محمد السادات والشيخ الأمير هم : الشيخ الدمنهورى

---

(٦٠) كان يشغل هـــذا المنصب الجنرال ديبوى ، وكان بمثابة حاكم القاهرة وكان يلقب أحيـــانا بشيخ البلد ، وهو اللقب الذى كان يطلق على كبير الأمراء المماليك بالقاهرة قبل قدوم الحملة .

(٦١) د. عبد العزيز محمد الشناوى — المرجع السابق — صص ٢٩ — ٣٠ نقلا عن الوثائق الفرنسية .

(٦٢) وقع سهوا من الجبرتى فى هذا التاريخ فالأصح ان يوم الخميس يوافق ١٢ صفر وليس ١٣ لأنه ذكر أن يوم الجمعة السابق يوافق ٦ صفر فيكون الخميس بذلك ١٢ صفر .

(٦٣) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ١١ .

والشيخ الشبراخيتى والشيخ الدواخلى وزاد على ذلك محمد المهدى كاتم سر الديوان • وهذا هو التشكيل الفعلى للديوان •

ويرجع سبب هـذا الاختلاف الى أن منشور بونابرت قد تضمن مشروع تشكيل الديوان ، فاختـار لعضويته جماعة من عظماء المشايخ المتصدرين ، فقـد اختـار عمر مكرم والشيخ محمد الأمير (٦٤) على الرغم من خروجهما من القـاهرة مع المماليك والوالى العثمـانى الى الشام ، ولم يكن يعلم بخروجهما • وأما عن الشيخ السادات فانه خرج أيضا مع الشيخ الشرقاوى ومن تبعهما كمـا سبق أن ذكرنا وعاد الى القاهرة بعد أن وصلتهم رسائل الأمان من بونابرت ، بيد أنه كان مريضا كما ذكر الجبرتى بسبب ماحـدث له من رعب أثنـاء هجوم البدو عليه حالة خروجه من القاهرة ولم يتمكن من الحضور فى بداية عقد الديوان وظل ممتنعا أنفة عن الاشتراك فى جلسات الديوان (٦٥) •

ولمـا كان الشيخ السادات ذا نفوذ كبير بين المصريين ، فهو من أكابر العلماء ومن بيت كبير من بيـوت الأشراف وهو بيت السـادة الوفائيـة فقد حرص بونابرت حرصا شديدا على استمالته الى الحكم الجديد رغم أنه لم يقبل عضـوية الديوان مع صـدور أمر بونابرت باعتماد عضـويته ، وحاول بونابرت معـه مرة ثانيـة عنـدما أراد

---

(٦٤) كان السائد قبل ذلك أن الشيخ محمد الأمير قـد بقى بالقاهرة ولم يخرج وأبى أن يشترك بالديوان واختلف المؤرخون فيه بيد أن مخطوطة الجبرتى التى حصلنا عليها من جامعـة ليـدن تقطع بأن الشيخ الأمير خرج مع عمر مكرم الى الشام ولم يحضر الى القاهرة الا بعد أن احتل الفرنسيون يافا (الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ الى سـنة ١٢١٦ ص‌ص ١٤ — ١٥) .

(٦٥) قال الجبرتى بشأن الشيخ السادات : « وأما الشيخ السادات فلم يحضر معهم لتوعك حصل عنـده بسبب انزعاجه من هـذه القضـية وحركاتها » المصدر السابق ص ١٥ .

بونابرت تعيينــه على رأس لجنة عهد اليها فحص شكاوى الأفراد من مصـادرة أموالهم وهـذه اللجنـة مؤلفـة من الشـيخ السـادات والمسيو « روستى » (Rossette) قنصـل النمسا والجنرال جونو [٦٦] ، وليس لدينـا مايدل على أن هـذه اللجنة انعقدت أو عملت عملا ما ، ولعل الشيخ السادات لم يقبل أيضا عضوية تلك اللجنة .

وقال الجبرتى عن موقف الشيخ السادات حيال الفرنسيين « ولما قـدمت الفرنسـاوية الى الديار المصرية فى أوائل سنة ١٢١٣ هـ لم يتعرضوا له فى شىء وراعوا جانبه وأفرجوا عن تعلقاته وقبلوا شفاعته وتردد اليه كبيرهم وأعاظمهم وعمل لهم ولائم ، وكنت أصـاحبه فى الذهاب الى مساكنهم والتفرج على صنائعهم ونقوشهم وتصـاويرهم وغرائبهم » [٦٧] .

وأما عن الشيخ محمد المهـدى فقد كان سكرتيرا للديوان وقـد ذكره الجبرتى على أنه من جملة الأعضاء ، وهـذا هو السبب فى أن الجبرتى عد أعضـاء الديوان عشرة أعضاء ، والواقع أنهم تسعة أعضاء كما سبق أن ذكرنا فى أمر التأسيس الفرنسى أما الشيخ المهدى فلم يكن من الأعضـاء التسعة وانما كان سكرتيرا للديوان ومع أن الشيخ المهدى لم يكن عضوا الا أنه كان له نفوذ فى الديوان وفى غير الديوان أكثر مما كان للأعضاء ، فقـد ذكر الجبرتى عن نفوذه فى ذلك العصر « ولما حضرت الفرنساوية الى الديار المصرية ... اجتمع بهم وواصلهم وانضم اليهم وسايرهم ولاطفهم فى أغراضهم وأحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله فـكان هو المشار اليه فى دولتهم مدة اقامتهم بمصر والواسطة العظمى بينهم وبين النـاس فى قضاياهم وحوائجهم،

---

(٦٦) عبـد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القوميـة ج ١ ص ٩٦
(نقلا عن مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٩٣) .

(٦٧) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٤ ص ٢٠٥ .

وأوراقه وأوامره نافـذة عند ولاة أعمـالهم حتى لقب عندهم وعنـد النـاس بكاتم السر ، ولما رتبوا الديوان رتبوه لاجراء الأحكام بين المسلمين فى قضـاياهم ودعاويهم كان هو المشار اليه فيـه وخـدمة الديوان والموظفون فيـه تحت أوامره واذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه وبأيديهم العصى يوسعون له الطريق » (٦٨) .

وهكذا تألف ديوان القـاهرة الأول لحكم البلاد فى ظل الاحتلال الفرنسى ، من علماء الجامع الأزهر ، وعلى الرغم من أن غرض بونابرت من ذلك كان تحقيقـا لسياسته الاسلامية واستمالة العلماء والاستفادة من نفوذهم الواسع ، وعلى الرغم أيضـا من أن سلطة هذا الديوان كانت محدودة وخاضـعة لتوجيه المحتلين ، فان فى تأليفه على هـذا النحو تنويهـا ظـاهرا بأهميـة الجامع الأزهر ومكانة علمائه واعترافا بزعامتهم الشعبية (٦٩) .

وأنشأ بونابرت فى القـاهرة ديوانا عاما يجمع منـدوبين من دواوين الأقاليم والقـاهرة فى جمعيـة عامة سميت بالديوان العام ، وكان أول اجتماع لهم ٥ أكتوبر ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) ، وكان الغرض من هـذا الديوان العـام هو تنظيم شئون القضاء ، وحقوق الملكية ، وطرق توريثها وتحديد الضرائب وجبايتها (٧٠) .

ولما كانت بعض هذه المسائل ذات صبغة دينيـة تمس الشعور الدينى للأهالى فقـد اشترط بونابرت فى اختيـار الأعضاء أن يكونوا من بين الذين اشتهروا بالعلم والـكفاءة وطريقة استقبالهم للفرنسيين،

---

(٦٨) المصدر السابق ج ٤ ص‌ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٦٩) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره ص ١٥٥ .

(٧٠) د. محمد فؤاد شكرى — الحمـلة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص‌ص ١٠٢ — ١٠٣ .

وعهد بونابرت الى مندوبيه (مونج وبرتوليه) بتتبع المناقشات وتدوين أسماء الأعضاء الذين يمتازون عن زملائهم فى الديوان سواء بنفوذهم أو بكفايتهم .

وقد أناب بونابرت عنه فى افتتاح الديوان العام المسيو برتوليه وقام الترجمان بتلاوة خطبة الافتتاح معربة على الأعضاء ، وأهم مافى هذه الخطبة أنها كشفت عن وجه الفرنسيين سافرا بالنسبة لأطماعهم فى البلاد العربية التى كانت قطعة من الامبراطورية العثمانية فقد أثاروا العصبية المحلية المصرية بهدف تفتيت الوحدة الاسلامية التى طالما أقلقت الأوربيين وأرقت مضاجعهم فهو يقول :

« ان قطر مصر هو المركز الوحيد ، وأنه أخصب البلاد .. الا أن دولة الترك شددت فى خرابه ثم ان طائفة الفرنساوية اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه » (٧١) .

وبذلك تبين للمصريين بما لايدع مجالا للشك صحة تنبئهم بأن الصداقة الفرنسية العثمانية زعم باطل ، وقد سبق لنا ماأورده الجبرتى فى تفنيده لتلك الأكذوبة عندما علق على منشور بونابرت .

انتخاب علماء الأزهر للمناصب القيادية بالديوان العام :

بعد أن استمع الأعضاء الى خطبة الافتتاح قام الأعضاء بانتخاب الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للديوان بأغلبية ساحقة وكان لانتخابه بهذه الأغلبية اعتراف بفضل الأزهر ومكانة علمائه ووزنهم فى المجتمع المصرى ابان الحملة الفرنسية ، وأن جميع الأعضاء الموجودين فى اجتماع الديوان العام والذين أتوا من جميع أنحاء مصر لم ينسوا هذه المكانة للعلماء فكان هذا الاجماع والالتفاف حول الأزهر وعلمائه .

---

(٧١) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ صص ٢٣ — ٢٤ .

ثم اجتمع الديوان يوم الأحد ٢٦ ربيع الثانى (٧ أكتوبر) ونود أن نأتى بنص الجبرتى الخاص بأعمال الديوان فى هذا اليوم لأنه من ناحية لم ينشر من قبل ، ومن ناحية أخرى يوضح لنا اكتساح علماء الأزهر للمناصب القيادية بالديوان . قال الجبرتى فى مذكراته « تاريخ مدة الفرنسيس » .

« وفى يوم الأحد ذهبوا الى الديوان وعملوا مثل عملهم الأول وكتبوا أوراقا بأسماء أنفار لينظروا فيها كذلك فطلع أكثرها باسم الشيخ مصطفى الصاوى فجعلوه مباشرا (يعنى وكيلا) على الشيخ (يعنى الرئيس) ثم قالوا أرضيتم بأن يكون الشيخ الشرقاوى كبيرا والشيخ مصطفى مباشرا عليه قالوا : نعم رضينا ، قال : ارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم ثم كتبوا أوراقا أخرى أيضا وأداروها ونظروا فى أكثرها فطلع الشيخ الفيومى و (الشيخ) المهدى فقال الترجمان : رضيتم بالجماعة أن يكون هؤلاء الاثنين مفتشين عليهما قالوا : رضينا ، قال : ارفعوا أيديكم ففعلوا وأضافوا لهم السيد محمد الدواخلى » [٧٢] .

ثم استقر رأيهم على اختيار ٢٨ عضوا للديوان الخاص ، وجعلوا لكل ثغر وبندر من الأقاليم ٦ أعضاء ، وكان هذا هو رأى الديوان تقريبا فى نظام مجالس الديوان ولما عرض هذا الرأى على بونابرت أجرى عليه بعض التعديل بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) وهو أن يكون الديوان العمومى من ٢٥ عضوا ٩ من القاهرة وواحد عن كل مديرية من المديريات الست عشرة التى يتألف منها القطر المصرى ويختار من بينهم ٩ أعضاء للديوان الخصوصى الذى يجتمع باستمرار فى القاهرة ولكل مديرية ديوان من ٩ أعضاء [٧٣] ويلاحظ

---

(٧٢) المصدر السابق ص ٣٢ هذا النص عبار عن محضر هذه الجلسة كاملا ولم يذكر لنا الجبرتى كيف حصل على هذا النص الكامل لجلسة الديوان العام .

(٧٣) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٠٧ .

أن هذا التعــديل لم ينفذ لقيام ثورة القاهرة الأولى وابطال الديوان ، ثم أعيــد الديوان مرة أخرى فى ديسمبر ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) وأدخل بونابرت فى نظامه تعديلا آخر •

نظرة عامة على موقف علماء الأزهر بالديوان :

على الرغم من أن علماء الأزهر كانوا يكونون الأغلبية الساحقــة بديوان القــاهرة وعلى الرغم أيضا من أنهم احتلوا المنــاصب القيادية بالديوان العــام ، الا أنهم لم ينســوا وضــعهم بين مواطنيهم ولم ينغمسوا فى مساعــدة الفرنسيين لاحكام قبضتهم على البلاد ، وانما كان دائما هو مساعدة الأهالى كلما اشتدت عليهم وطأة المحتلين ، وطلب التخفيف عنهم والتوسط من أجلهم لدى الحــاكم الجــديد اذا مانزل بالمواطنين ضرر أو كاد ، ولم ينسوا هــذا الواجب حتى فى أشد فترات الارهاب الفرنسى للمواطنين •

فقــد توسط المشايخ من علماء الأزهر لدى الفرنسيين للتخفيف على التجار عنــدما قرر الفرنسيون عليهم بعض الأموال على ســبيل القرض والسلفة وعجز الأهالى عن دفعهــا ، واضطر الفرنسيون الى تخفيض تلك الأموال وانقصــوها الى نصف المطلوب مع التوسيع فى المهلة مراعاة لجانب العلماء (٧٤) •

بل انهم وقفوا وقفة انسانية عندما تشفعوا بالديوان فى أسرى المماليك وقبل الفرنسيون شــفاعتهم ، وأطلقــوا سراح الأسرى منهم « فدخل الــكثير منهم الى الجامع الأزهر وهم فى أسوأ حال وعليهم الثيــاب الزرق المقطعــة فمكثــوا به يأكلون من صــدقات الفقــراء المجاورين به » (٧٥) •

---

(٧٤) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ١٣ •

(٧٥) المصــدر السابق ج ٣ ص ١٢ •

على أن محـــاولة التقريب بين الفرنسيين ومشـــايخ الأزهر فى الديوان باءت بالفشل وتبين الفرنسيون أنهـــا محاولة من جانب واحد، فقـــد حدث أن اســـتدعى بونابرت اليه الشيخ عبـــد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ومعه جمـــاعة من العلماء فلما استقر بهم المجلس نهض بونابرت وأتى بشارة الجمهورية الفرنسية والتى يسميها الجبرتى (الطيلسان) المثلث الألوان ، ووضـــعه على كتف شيخ الأزهر تكريما له ، ولـــكن شيخ الأزهر « رمى به الى الأرض وامتقع لونه واحتـــد طبعه » كما تغير وجه بونابرت أيضا لهذه الاهانة الظاهرة وتميز غضبا، فتدخل الترجمان قائلا للعلماء « يا مشايخ أنتم صرتم أحبابا لصـــارى عسكر وهو يقصـــد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والنـــاس وصار لـــكم منزلة فى قلوبهم » فرد عليه المشايخ قائلين : « لـــكن قـــدرنا يضيع عنـــد الله وعند اخوانـنـــا من المسلمين » فاغتـــاظ بونابرت من ذلك وبلغ عنه مترجموه أنه قال فى شأن الشيخ الشرقاوى « أنه لايصلح للرياسة » بيد أن بقيـــة العلماء استعفوا بونابرت من ذلك فأذعن بونابرت لمشيئة المشايخ فى أمر هذه الطيالس ولـــكنه أصر على أن يضعوا فى صدورهم على الأقل الشارة المثلثـــة الألوان (الجوكار) « وهى العلامة التى يقـــال لها الوردة » فطلب العلماء منه مهلة اثنى عشر يوما (٧٦) .

بيـــد أن بونابرت أرسل فى نفس ذلك اليوم الى الشيخ محمـــد السادات فحضر اليه وصـــادف أعضـــاء الديوان منصرفين ، ولما استقر به المجلس « تملق بين يديه بلطيف القـــول الذى يعـــربه الترجمـــان ويتضاحك ويقبل يده تارة وركبته أخرى (٧٧) وأظهر بونابرت للسادات المحبة والصـــداقة وأهدى له خاتما من الماس وطلب منه الحضور من الغـــد . وحضر الشيخ الســـادات فى صـــباح اليوم التالى وعمل له بونابرت مقدمات لوضع العلامة » فلحسن أخلاق الشيخ ســـايره ولم

---

(٧٦) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٧ .

يظهر التأبى من ذلك فسر بذلك (بونابرت) كثيرا وأتى بوردة وشكها بدبوس لطيف فى ثوب الشيخ فضحك له وفرح الآخر فرحا زايدا .

وأراد الشيخ الســـادات بلباقته حل الموقف المتـــأزم بين علمـــاء الديوان وبين بونابرت فعنـــدما حضر بقيـــة المشايخ فى نفس اليوم « قال لهم الشيخ السادات اجبروا أنتم الآخرين خاطر صارى عسكر ولا تخالفوه فى وضع الوردة واذا قمتم من مجلسه ارفعوها فسكتوا ونهض فرشق لـــكل واحد واحدة وهم مظهرين البشاشة وهو مسرور بذلك » وهكذا اتفق المشايخ على أن يجعلوها جواز مرور لدى برنابرت « اذا دخلوا مجلسه وضـــعوها واذا خرجوا رفعوها » (٧٨) وعنـــدما وجد بونابرت أن الشعب لايقبل شارة الجمهورية هذه نادى المنـــادى بابطال هذه الشارة عن العـــامة ، وما لبث الأمر كله أن الغى بعد قيام ثورة القـــاهرة الأولى ، على الرغم من أن بونابرت كافح من أجل هذا الغرض كثيرا لدرجـــة أنه ارتدى يوما الملابس الشرقيـــة المـــكونة من العمامة والقفطان ليستقبل بهـــا أعضـــاء الديوان حتى يخجل المشايخ ويحملهم على أن يضعوا الشارة على الأقل (٧٩) ولـــكن العلماء تمسكوا بموقفهم واحترموا وطنيتهم ورفضـــوا التبعيـــة مهمـــا كان فى ذلك تشريف لهم كما زعم بونابرت . وقـــد استاء أحد الباحثين من موقف العلماء الذين رفضـــوا أن يزينوا صـــدورهم برمز الثورة الفرنســـية

---

(٧٧) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من ســـنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٦ ص ٢٤ وليس فى رواية الجبرتى هـــذه مبالغة لأن بونابرت هو الذى قال لأحد جنرالاته فيما بعد وهو يهرب من روســـيا فى غير هوادة « اننى حين اكون فى حاجة الى زيد من النـــاس لا أحجم عن شىء فاننى أقبل . . . » (كريستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ٢٥٦) .

(٧٨) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٢٤ .

(٧٩) كريستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ١١٠ .

وعلق عليه بقوله : « وكان أحرار أوربا يتخاطفونه حينئذ » (٨٠) وقد تعرض هذا الباحث لهجوم من بعض المصريين فوصفه أحدهم بأنه امام المدرسة الاستعمارية فى مصر ، واستطرد يقول مدللا على وجهة نظره : « أما نحن فنرى أن الحق مع المشايخ على طول الخط وموقفهم مفهوم على ضوء الحقيقة التى تعتبر الثورة ، أى ثورة أوربية غير قابلة لعبور البحر الأبيض مع سفن الغزاة ، بل انها بمجرد هذا العبور تتحول الى غزو وسيطرة » (٨١) شارة الثورة الفرنسية عندنا لم تكن تعنى الا الاستعمار الأوربى ، ومن ثم فعندما ألقاها المشايخ على الأرض فان ذلك يعنى رفض لشارة المحتلين ، رفض للتبعية ، رفض الانتماء الى المحتلين ، وتشبث بالذات ، وباستقلال هذه الذات واصرار على الانتماء الى هذه الذات (٨٢) .

والآن ننتقل مع أسلافنا من مشايخ الأزهر من رفض شعار المستعمر الى رفض أفكاره ، وهذا ماحدث فى جلسات الديوان العام عندما أراد الفرنسيون أن يعرضوا على المشايخ ماستحسننته عقولهم من نظم المواريث الفرنسية ، ولكن العلماء الأجلاء كانوا أزهد الناس فيها بفضل مالديهم من تشريع اسلامى ينظم حياتهم وعلاقاتهم ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

موقف العلماء من تشريعات بونابرت :

كانت أهم المسائل التى بحثها الديوان هى : مسألة النظام القضائى المدنى والجنائى وما يجب وضعه لاصلاحه ، وموضوع

---

(٨٠) صبحى وحيدة « فى أصول المسألة المصرية » — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة سنة ١٩٥٠ ص ١٢٨ .

(٨١) محمد جلال كشك — ودخلت الخيل الأزهر — مرجع سبق ذكره ص ١٧٦ .

(٨٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

المواريث والتشريع الذى يكفل ضبطها والاصلاحات المقترحة لاثبات ملكية العقارات وفرض الضرائب •

وكانت هذه الموضوعات الخطيرة التى تمس التشريع الاسلامى فى صميمه قد اقترحها بونابرت ، ولا شك أن غرضه الخبيث من وراء بحثها هو زعزعة الثقة فى التشريع الاسلامى تمهيدا للقضاء عليه واستبدال التشريع الفرنسى به ، ولكن علماء الأزهر تنبهوا لهذه المقترحات الخطيرة ووقفوا لها بالمرصاد ، فعندما بحث مجلس الديوان موضوع النظام القضائى يوم الخميس أول جمادى الأولى سنة ١٢١٣ (١١ أكتوبر ١٧٩٨) كان من رأى الأعضاء أن يبقى النظام القضائى بمصر على ماهو عليه وأن لا يتغير شىء من ترتيب المحاكم ونظامها ، بيد أنهم حددوا رسوم التقاضى التى تدفع للقضاة وموظفى المحاكم ، وطلبوا أن يكون تعيين القضاة فى كل مديرية من حقوق الدواوين المؤلفة بالمديريات ، « واتفقوا على تقرير القضاة ونوابهم على ذلك » [٨٣] •

وجاء بحث موضوع التشريع الخاص بنظام المواريث يوم الأحد (٤ جمادى الأولى ١٣ أكتوبر) وقد بدأت المناقشة فى هذا الموضوع الخطير بسؤال من القاضى ملطى [٨٤] وجهه الى علماء الأزهر قال : « يا مشايخ اخبرونا عما تصنعونه فى قسمة المواريث » فأخبره العلماء بفروض المواريث الشرعية ، فرد القاضى ملطى : « ومن أين لكم ذلك ؟ » فقال العلماء : « من القرآن » وتلوا عليه بعض آيات

---

(٨٣) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٥ •

(٨٤) كان القاضى ملطى كاتبا عند أيوب بك الدفتردار قبل الحملة، وكان من أقباط مصر ويرأس المحكمة التجارية التى أنشأها بونابرت بالقاهرة للفصل فى المنازعات التجارية والمدنية والتى سماها الجبرتى (محكمة القضايا) مؤلفة من ستة من التجار المسلمين وستة من القبط (الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٠) •

المواريث . وتدخل الفرنسيون قائلين : (نحن عندنا لانورث الولد ونورث البنت .. لأن الولد أقدر على الكسب من البنت) وقد علق الجبرتى على نظام المواريث الفرنسية التى عرضوها على الديوان بأنها « بحسب تحسين عقولهم » أى أنها قوانين من وضعهم هم وليست قوانين سماوية كما هو الحال فى نظام التوريث الاسلامى . وقال ميخائيل كحيل الشامى أحد أعضاء الديوان : « نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون » وعند ذلك انحسم الموقف ، وطلب المندوبان الفرنسيان أن يكتب العلماء قواعد تقسيم المواريث طبقا لأحكام الشريعة الاسلامية ودليل هذه الأحكام من آيات القرآن الكريم فوعدهم العلماء بتقديم هذا البيان فى جلسة مقبلة (٨٥) .

وفى جلسة الاثنين (٥ جمادى الأولى) قدم العلماء البيان المطلوب وفيه كيفية قسمة المواريث الشرعية ، وفروضها وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك ، وانتهت الجلسة باستحسان نظام التوريث الاسلامى .

واضطر بونابرت الى التسليم باقرار هذا النظام الاسلامى ولم يتعرض له لأن علماء الأزهر كانوا لمثل هذه الغزوات الفكرية بالمرصاد .

ولما جاء دور مناقشة مسألة تسجيل عقود الملكية والضرائب التى تدفع عليها (٨٦) أبدى أعضاء الديوان الاستياء من هذا النظام

---

(٨٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥ .

(٨٦) كان بونابرت قد أصدر أمره فى ١٦ سبتمبر ١٧٩٨ بانشاء ادارة لتسجيل مستندات التمليك سميت « مصلحة التسجيلات وادارة أملاك الحكومة » وجعل مقرها فى بيت مرزوق بعابدين ، وأمر بأن يقدم ملاك العقارات حجج تمليكهم القديمة والجديدة لتسجيلها فى مقابل رسوم ٢ فى المائة من قيمة العقارات يدفعها الملاك أجمعون (عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٠) .

المستحدث والذى اعتبره الجبرتى « من أخبث الحيل على نزع الأملاك والعقارات من أيدى أربابها » (٨٧) واعترض علماء الأزهر على اكراه جميع الملاك على تقديم مستندات تمليكهم القديمة لتسجيلها وقالوا: اذا كان الغرض من وضع ضريبة على الأملاك فلتفرض على العقارات نفسها وفعلا وافق الفرنسيون على ذلك وفرضوا ضريبة على العقارات ذاتها (٨٨) .

وعلى الرغم من أن العلماء قد عرضوا على الفرنسيين قائمة بالضرائب التى اقترحوها على الأملاك والعقارات الا أن الفرنسيين لم يقبلوا هذه القائمة التى وضعها المشايخ واستبدلوا بها غيرها « وزادوا شيئا يسيرا عما رتبه مشايخ الديوان » (٨٩) ويظهر أن الفرنسيين تشددوا فى فرض هذه الضرائب غير أن الجبرتى لم يذكر لنا أغلبية مادار فى هذا الاجتماع الأخير والذى كان فى ١٠ جمادى الأولى ١٢١٣ (١٠ أكتوبر ١٧٩٨) وانفض الديوان فى ذلك اليوم دون أن يستطيع تخفيف الضرائب التى استحدثها الفرنسيون ، ولم تكد هذه المقررات المالية الجديدة تذاع على الشعب حتى انفجر بركان الثورة .

وأخيرا يمكن القول بأن موقف علماء الأزهر ابان جلسات الديوان كان موقفا صلبا بالنسبة للتمسك بالتشريع الاسلامى والنظم

---

(٨٧) الجبرتى — مظهر التقديس ج ١ ص ١٠٨ .

(٨٨) يذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أن المسيو بوسليج مدير الشئون المالية هو الذى أشار على بونابرت فى تقرير قدمه له بأن يجيب أعضاء الديوان الى طلبهم وأوضح فى تقريره بأنه يتعذر تسجيل مستندات التمليك القديمة عن البيوت والمنازل لأن معظمها بناها ملاكها وليس بايديهم حجج بها ، ولأن اجراء التحقيق عن مصدر الملكية لكل منزل عمل شاق لايمكن أن يؤدى الى نتيجة (تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٢) .

(٨٩) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٦ هـ ص ٣٣ .

الاسلامية المقررة ، واتسم هـذا الموقف بالرفض لأفـكار المستعمرين الـدخلاء ، وتشبث بالأفـكار الاســلامية وهكذا انتقل أسـلافنا المشايخ من نصر الى نصر ، فقد سبق لهم أن رفضـوا شارة المستعمر وكان معنى ذلك ، رفض التبعية ورفض الانتماء للمحتلين ، ثم انتقلوا الى مرحلة أخرى فى موقفهم الصلب وهى مرحـلة رفض أفـكار المستعمر التى لاتتفق مع شريعتهم وهـذا هو ما أشـار اليـه الشيخ عبـد الله الشرقاوى فى كتابه « تحفة الناظرين » بأن وجود المشـايخ فى ديوان بونابرت « كان فى ذلك رحمـة بأهل مصر ، فانهم جعـلوا من جمـلة ديوانها جمـاعة من المشايخ ، وصاروا يراجعون فى بعض أشياء لاتليق بالشرع »[٩٠] فقـد كان الفرنسيون كما ذكر عنهم « يحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونهـا شرائع »[٩١] وكان هـذا هو الخطر الذى حاربه العلماء فعلا وأعنى به الغزو الفكرى بقوانين المستعمر الوضعية وبذلك سجل التاريخ لهم بكل فخر ذلك الموقف البطولى فى وجه أول موجة من موجات الغزو الفكرى الأوربى التى استهدفت الفكر الاسلامى فى العصر الحديث •

وانتقل علماء الأزهر أخيرا الى مرحلة الثـورة وكانت تعنى رفض الوجود الاستعمارى الفرنسى فى مصر •

---

(٩٠) عبد الله الشرقاوى — تحفـة النـاظرين — جـ ٢ صص ١١٧ — ١١٨ على هامش فتوح الشام •

(٩١) المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٦ •

الفصل الثالث

الأزهر يقـود المقاومة

الأزهر يقود المقـــــاومة :

ثورة القاهرة الأولى أكتوبر ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ)

انتهت جلسات الديوان العـــام فى ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) فكان لنهايتها عـــدة نتـــائج بالنسبة للعلماء ، فقد تحقق العلماء خلال هذه الفترة من مخططات الفرنسيين التى ترمى الى عزل مصر عن دولة الخـــلافة العثمانية وتشجيع الروح الانفصـــالية بين المصريين وبداية دق الاسفين بينهم وبين دولة الخلافة ، ومن ناحيـــة أخرى تحقق العلماء من أن الفرنسيين بدأوا يبـــذرون بذور التشكيك فى النظم القضائيـــة القائمة وبعض التشريعات الخاصة بالمواريث ويلوحون بعدم صلاحيتها، وتيقظ زعمـــاء الشعب بعد أن أسكرتهم حيل بونابرت المـــاكرة ، وتبين لهم ولجميع طبقـــات الشعب حقيقة سياسة الابتزاز والاستغلال عندما بدأ جيش الاحتلال يجمع المال بشتى الوسائل .

وبدأ التنـــاقض بين المستعمر المسيحى وأهل البلاد المسلمين يظهر جليـــا ، وفشلت سياسة التقريب بين الطرفين وتبين بونابرت أنهـــا من جانب واحد . وكان هذا هو السبب الرئيسى للثورة والذى عبر عنه أستاذنا الدكتور عبد العزيز الشناوى بأنه يتمثل فى استحالة ايجاد جو من التعايش السلمى بين الحكم الفرنسى لمصر الاسلامية وبين الشعب المصرى بسبب اختلاف الدين [1] وكان الشعب فى القرن الثامن عشر يشكل مجتمعـــا دينيا ، ينظر الى الدولة العثمانية على أنهـــا دولة الاســـلام الـــكبرى

---

(١) أنظر شرحا مفصـــلا عن العامل الدينى فى كتاب الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى « صور من دور الأزهر فى مقـــاومة الاحتـــلال الفرنسى لمصر .. » مرجع سبق ذكره — صص ٥٧ — ٦٦ .

وسلطانها سلطان المسلمين ، ولم تكن الدولة العثمانية بالنسبة لمصر دولة أجنبيـــة من ناحية الفقـــه الاســـلامى ، لأنه من المبـــادىء المقررة فى الشريعـــة الاسلامية ان بلاد المسلمين جميعها تعتبر دارا واحدة ، مهما تعددت أقاليمها ، والفقـــه الاســـلامى يقسم العالم الى قسمين : دار الاســـلام ، ودار الحرب وتشمل الأولى البـــلاد التى يكون للمسلمين ولاية عليها ، أما دار الحرب فتشمل البـــلاد التى ليس للمسلمين ولاية عليهـــا •

أما بونابرت فقـــد نظر الشعب المصرى اليه على حقيقته : حاكما مسيحيا أوربيا عسكريا أجنبيا ، اســـتولى على بلادهم عنوه وأصـــبح واجبهم يحتم عليهم مجاهرته وعدم الاستكانة لحكمه ، وأخذ الشعب يتربص لهم ويتحين الفرص للانقضاض والانتقام •

وكانت هنـــاك عدة أسباب مباشرة شجعت وساعدت على الثورة ذكر بعضها الشيخ عبد الرحمن الجبرتى — وتتعلق بالاجراءات المـــالية التى قام بها جيش الاحتلال وكان من ضمنها : فرض الضرائب والمغارم الفادحة ، ومصـــادرة كثير من الأملاك وبعضـــها يتعلق بالاجـــراءات الاصـــلاحية كالزام الســـكان بدفـــن الموتى خارج المنـــازل ، وهـــدم البوابات ، واجبار الأهالى على تعليق الفوانيس •

وبعضـــها يتعلق بزيادة نفوذ النصـــارى من القبـــط والشـــوام واستيلائهم على نظارة بعض الأوقاف وجعلها مغنما لهم حتى ثار من أجل ذلك « جم غفير من أولاد الـــكتاتيب والفقهاء والعميان والمؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من الزمنى والمرضى بالمارستان المنصورى وأوقاف عبد الرحمن كتخـــدا وشـــكوا من قطع رواتبهم وخبزهم لأن الأوقاف تعطل ايرادها واستولى على نظارتها النصارى القبط والشوام »

وذهب هؤلاء الثائرون الى بيت الشيخ البكرى « فواعدهم على حضور الديوان وينهوا شكواهم ويتشفع لهم فذهبوا راجعين » (٢) .

والمعلم نقولا الترك يذكر لنا أسبابا أخرى ساعدت على الثورة منها : تبرج النساء وشرب الخمر فيقول : « وخرجت النساء خروجا شنيعا مع الفرنساوية وبقيت مدينة مصر مثل باريس فى شرب الخمر والمسكرات والأشياء التى لاترضى رب السماوات » (٣) .

ولقد حولت بعض البيوت الى أماكن عامة للتسلية والمجون ووضعت خارجها لافتات باللغة الفرنسية تبين نوع اللهو الذى يمارس داخلها وفرشت هذه البيوت بالأثاث الشرقى أو الأوربى « وكان أبسط مايقال عن هذه البيوت انها تقدم الخمور لروادها وتهيىء لهم رقص المخاصرة مع السيدات على أنغام الموسيقى ، وحولت بعض المقاهى فى الأحياء الشعبية الى مراقص ، وفتحت محال الدعارة بكثرة فى شتى أنحاء القاهرة ، وأقبل الجنود الفرنسيون على ارتيادها اقبالا شديدا (٤) ولقد كانت هذه العادات والتقاليد الخليعة تتعارض مع تقاليد المصريين الاسلامية ، كما كانت تتناقض مع ماكان الفرنسيون يدعونه ويذيعونه من سياسة اسلامية تحترم الدين الاسلامى .

وقد أفاض الجبرتى فى الكلام عن الانحطاط الخلقى الذى حدث بالقاهرة عقب دخول الفرنسيين قائلا : « لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير

---

(٢) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٥ .

(٣) نقولا ترك — ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية — صص ٦٥ — ٦٦ .

(٤) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر صص ٨٣—٨٤

الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش » [٥] ولا شك أن هذه البدع قد نفرت أهالى القاهرة من الحكم الفرنسى .

وأخيرا جاء منشور السلطان العثمانى الذى دعا فيه المصريين الى الجهاد الدينى ضد جيش الاحتلال الفرنسى ، وحمله الى القاهرة متسللون أتوا اليها من بلاد الشام ، واتخذ أولئك الرسل طريقهم الى الجامع الأزهر سريا وتلقف علماء الأزهر وطلابه هذا المنشور وأذاعوه بين أهالى القاهرة ولقد كان لهذا المنشور أثره البالغ فى تحريك الناس الى الثورة نظرا لأنه أحاط المصريين علما بمعتقدات جيل الثورة الفرنسية الذين لاينكرون وحدانية الله فقط ، ولا ينكرون رسالة محمد فحسب بل ينكرون وجود الله ، ويهزأون بكل الأديان [٦] .

ومما لاشك فيه أن الدعاية التى بثها ابراهيم بك زعيم المماليك وأحمد الجزار باشا كان لها أثرها أيضا فى تبرم النفوس ، فلقد كان ابراهيم بك والجزار يبعثان من الشام برسائلهما التى تطلب من المصريين القيام بثورة .

---

(٥) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ١٧٠ .

(٦) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر صص ٦٩—٧٠ ويذكر ايضا عن المراجع الفرنسية أن منشورا آخر صدر عن الصدر الأعظم ووصل الى القاهرة منذ ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ يحوى تكذيبا قاطعا لكل مارد ده بونابرت فى منشوراته من حدوث تفاهم بينه وبين السلطان، وقد قرىء هذا المنشور فى مساجد القاهرة وكان فيه تحريض للشعب على قتال الفرنسيين ص ٧٤ .

مقـــدمات الثورة :

فى الثالث من شهر ربيع الثـــانى سنة ١٢١٣ (١٧٩٨ م) أشيع بين النــــاس أنه وردت رسالة من السلطان الى المشايخ فعند ذلك ركب بونابرت بسرعة وذهب الى بيت الشيخ محمد السادات عند المشـــهد الحسينى ووافق ذلك تجمع النـــاس بالمشهد الحسينى فدخل بونابرت بيت السادات على حين غفلة « وجلس عنده وعاد ذاهبـــا فتجمع غوغاء العـــامة بالمسجد الحسينى وزاد لغطهم فمنهم من يقول هاهو حضر الى الشيخ خوفا من قيـــام النـــاس ومنهم من يقول حضوره فى هـــذا الوقت ليأخذ له الشيخ الأمان ومنهم من يقول أتى ليسلم ويدخل فى دين الاســـلام خوفا على نفسه وأمثال ذلك من خرافاتهم وفى حال ركوبه ورجوعه حين رأوه مارا على باب المسجد الحسينى صاحوا جميعا فى نفس واحد قائلين : الفاتحة فتعجب هو وعساكره من جلبتهم »[٧] ولقـــد سأل بونابرت الشيخ الســـادات فى هـــذه الزيارة عن مكتوب السلطان ، فقال له الشيخ (لا علم لى بذلك) [٨] بيد أن هذه الرسائل كانت تقرأ فى المساجد ، والمؤذنون يحضون النـــاس على الثورة من قمم المآذن خمس مرات فى اليوم « وكانت الدعوة الى الثورة تختلط علنا بآذان المؤذنين فيـــدعون الى الله والى الثورة على المآذن صباح مساء ، فبلغ تهييج النفوس أشـــده حتى لتكفى حادثة واحدة أن تضرم بركان الهيـــاج القومى » [٩] .

ويقال أن بونابرت عندما رأى مقـــدمات الهيـــاج بالقاهرة بدت ظاهرة واضحة أبدى استعداده لاعتناق الاسلام أمام شيوخ الديوان

---

(٧) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٢٥ .

(٨) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ١٨ .

(٩) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية (ج ١ ص ٢٧٥) نقلا عن دى لاجونكيير فى كتابه حملة مصر — الجزء الثالث .

من علماء الأزهر ، وذلك بقصد مقاومة هذا النشاط [١٠] • واشاعة طلبه اعلان اسلامه سرت فى القاهرة فى هذه الأثناء كما هو ظاهر من رواية الجبرتى •

وفى أوائل شهر جمادى الأولى قامت مظاهرة ضخمة للاحتجاج على تسلط النصارى القبط والشوام واستيلائهم على الأوقاف • وكان المحرك لهذه المظاهرة هم رجال الأزهر ، وتوجه المتظاهرون الى بيت الشيخ خليل البكرى أحد أعضاء الديوان فصرفهم على أمل أن يقدم شكواهم الى ديوان القاهرة [١١] •

الأزهر محط الأنظار :

التفت الشعب كعادته الى علماء الأزهر يستلهمهم الرأى ويطلب منهم النصيحة فى شأن هؤلاء الأعداء الذين جاسوا خلال الديار وأرغموا المصريين على مختلف المكاره • وكان علماء الأزهر عند حسن ظن الشعب بهم فنظموا كفاحهم وقادوا ثورتهم وكان لاختلاف الدين أثره الواضح فى تحمس الشعب على ضرورة مكافحة أعداء الدين ، وأصبح الشعب بذلك ثوريا من الدرجة الأولى •

وكان الأزهر بطبيعته مهيأ بعوامل الثورة ، فهو أكبر مكان فى القاهرة يجتمع فيه الشعب من كافة طبقاته للصلاة واستماع دروس العلم فضلاً عن المجاورين من طلبة الأزهر الذين ينتمون الى جنسيات عديدة من سكان الأروقة بالاضافة الى طلبة القاهرة وضواحيها الذين يأتون الى الأزهر كل يوم فى الصباح وقد جمعوا أخبار القاهرة وضواحيها فيتناقلها الجمع الغفير من المجاورين والمترددين على الأزهر ويأخذون فيها رأى مشايخهم من علماء

---

(١٠) كرستوفر هيرولد — بونابرت فى مصر ص ٢٦٣ •

(١١) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر صص ٣٢ — ٣٣ •

الأزهر ، وفى المساء يتفرق جمع الطلبــة فى أعماق المدينة وضواحيها من جديد فينشرون على الأهالى ماجد من رأى القادة العلماء ، وقد كان هذا الرأى هو الصواب دائما .

ولقد فعلت هذه العوامل الذاتية فعلها الشديد فى تهيــة القاهرة للثورة على الفرنسيين فى مدة وجيزة قبل أن تنقضى ثلاثة أشــهر على دخول المحتلين القاهرة ، وأصبحت القاهرة على حافة الثورة ، وكانت مجرد فتوى من العلماء بوجوب جهاد الفرنسيين كفيلة باشعال الثورة .

تــكوين لجنــة الثورة :

على الرغم من أن الجبرتى يقص أحــداث الثورة ساعة بساعة ويوما بعد يوم الا أنه لايشير اشارة واضحة على قيــام تنظيم يدبر هــذه الثورة وينظم حركتها ، ولــكن وثائق الحمــلة الفرنسية تؤكد وجود هذا التنظيم الذى كان مقره الأزهر فيقول ريبو (١٢) : « لقــد اجتمع الى جانب تذمر الأهالى واستيائهم نشر الدعاية الى الثورة فكان فى الجامع الــكبير المعروف بالأزهر لجنــة لتــدبير الثورة تعمل على اثارة الــكراهية فى نفوس الناقمين » (١٣) .

« ويقول نابليون فى مذكراته ان الشعب قــد انتخب (ديوانا) للثورة ونظم المتطوعين للقتــال واســتخرج الأسلحــة المخبوءة ، وأن الشيخ السادات انتخب رئيسا لهــذا الديوان ، وذكر فى تقريره الى حكومة « الديركتوار » عن ثورة القاهرة أن لجنــة الثورة كانت تنعقد بالأزهر » (١٤) .

---

(١٢) ريبو أحد مؤرخى الحمــلة والذى تولى تحرير الأجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ من كتاب التــاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر (عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٤٥١) .

(١٣) ، (١٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥ .

وأغلب الظن أن هـذا التنظيم الذى دبر بكفاءة تفجير الثورة ، أثبت كفاءته أيضا فى كتمان ذلك التـدبير لدرجة أن رجلا مثل الجبرتى كان يجهل هـذا التشكيل على الرغم من أنه أمدنا ببعض زعمـائه كما سنذكر ذلك فيما يلى :

والأستاذ عبد الرحمن الرافعى يقرر أن دعاة الثورة « تعاهـدوا على الاجتماع ليـلة الأحد » (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) جمادى الأولى لرسم الخطة الواجب اتبـاعها فاجتمعوا وكان عـددهم فى ذلك الاجتمـاع ثلاثين (١٥) ولقـد أطلق بونابرت على هـذه اللجنة حينـا « مجلس الثوار » وحينا آخر (ديوان المتمردين) وحينا ثالثا « ديوان الدفاع » كما أطلق عليها بعض الفرنسيين اسما رابعا « اللجنـة المتآمرة » . وقدر بونابرت عدد أعضاء هذه اللجنة بما يقرب من المائة « ويبدو أن بونابرت كان مبالغـا فى هـذا التقدير لأن التشكيلات الثورية تكون فى العادة محصـورة فى نطاق ضيق ، وخصوصـا فى مرحلة الاعداد للثورة » (١٦) ومن الواضح أن لجنة الثورة كانت مكونة من النصف الثانى من العلماء ، وكان من بين هؤلاء قواد الثورة كما أشـار الى ذلك المعلم نقولا ترك عنـد بداية الثورة فيقول : « نزل أحد المشايخ الصغار ، وكان من مشايخ الأزهر وبدأ ينـادى فى المـدينة ان كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغى لنـا أن نغازى فى الكفار . وكان أغلب أهل البلد معهم الاس بذلك » ولفظة (الاس) التى اختارها نقولا ترك تعنى فى العـامية المصرية أمر متفق عليه مكتوم له رمـز معين مما يؤكد وجود تنظيم وعلى مستوى جمـاهيرى واسـع ، وان كلمة السر متفق عليها .

---

(١٥) لم يذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى المصدر الذى استقى منه هذا العدد . تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٢٧٧ .

(١٦) د. عبد العزيز الشناوى — صـور من دور الأزهـر ص‌ص ١٠٠ — ١٠١ .

ولقد نظمت لجنـــة الثورة حمـــلة دعائية ناجحة لتحريك الشعب وتهيئتـــه للثورة ، واعتمد مجلس الثورة على التكوين الطائفى لمجتمع القاهرة فقـــد كان من سمات المجتمع المصرى وجـــود طوائف الحرف وكان شيخ كل طائفـــة يمارس سلطات واســـعة فنية وادارية وتأديبية على أفراد طائفته . وكان علماء الأزهر على صـــلات وثيقـــة بشيوخ الطوائف ، فقد حـــدث ابان القرن الثامن عشر تلاحم شديد بين رؤساء ثلاث هيئات : علماء الأزهر وشيوخ طوائف التجـــار والحرف ، وأرباب الطرق الصـــوفية [١٧] .

لجأ مجلس الثورة فى حملتـــه الدعائيـــة ضـــد جيش الاحتلال الفرنسى الى تعبئـــة الشعور الدينى لدى الجماهير واختار لهذا الغرض طائفتـــان من رجاله وهم : خطبـــاء المساجـــد ، والمؤذنون . فيـــذكر الجبرتى أن « بعض المتعممين انتبذ يهيج العـــامة ويدعوهم للقيام على قتل الفرنج المتغلبين ويعظهم بالوعظ المبين ويقول وجب عليكم الجهـــاد يا مسلمين كيف ترضون لأنفسكم يا أحرار بـــدفع الجزية للـــكفار أما عندكم نخوه أما بلغتـــكم دعوة فتجمع كثير من غوغاء الأنام وتحلقوا للحـــديث والـــكلام » [١٨] وأخذ مؤذنو المساجد يحرضـــون الشعب من فوق قمم المآذن على الجهاد الدينى والقيـــام بالثورة فى كل يوم خمس مرات مع آذان الصلاة ، فـــكانت الدعوة الى الصلاة والدعوة الى الثورة تختلطان علنـــا فى آذان سكان القاهرة . ويقول بونابرت فى مذكراته فى هذا الصدد « انه من فوق أربعمائة منارة من مساجد القاهرة كانت تنطلق أصـــوات المؤذنين تطلب من المسلمين القيام على

---

(١٧) د. عبـــد العزيز الشناوى — صـــور من دور الأزهر ص ص ١٠١ — ١٠٢ .

(١٨) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٣٤ .

الفرنسيين ، وكان المؤذنون يصفونهم تارة بأنهم أعداء الله ، وتارة أخرى بأنهم غير مؤمنين وتارة ثالثة بأنهم كفرة » (١٩) .

ونظمت لجنة الثورة أيضا حملة دعائية ناجحة ضد أعضاء الديوان الرسمى من الشيوخ واتهموهم « بممالأة الفرنسيين حتى لايستمع الجمهور لنصائحهم فى الاخلاد الى السكينة وقد أفلحوا فى احراج مركز أعضاء الديوان فأخذت منزلتهم تتضعضع فى نفوس الشعب » (٢٠) وهذا الموقف طبيعى وضرورى لكل قيادة جماهيرية اذ لابد لها من عزل الأجهزة الرسمية التى مهما تكن عواطفها ، الا أنها بحكم الضغط الواقع عليها يمكن أن تكون عاملا مثبطا فى مرحلة الثورة، لذا رأى أعضاء الثورة عزلها وتجريدها من كل قدرة على التأثير ، مع أنهم استغلوا مركز أعضاء الديوان بعد ذلك لتخفيف وطأة التنكيل بعد القضاء على الثورة .

نستطيع القول بعد هذا أن مجلس الثورة الذى تكون فى أروقة الأزهر يعتبر على حد علمنا أول مجلس تكون للقيام بثورة ضد الاستعمار الغربى فى تاريخ مصر الحديث ووقعت على كاهله مقاتلة أقوى جيش فى العالم — فى ذلك الوقت — فالأزهر اذن « كان مركز الثورة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقد شغل هذا المركز بعد أكثر من مائة عام ، فان الأزهر خلال سنة ١٩١٩ كان فى فترة من الزمن المعسكر العام للثورة القومية التى قامت فى مصر عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى والتاريخ يعيد نفسه » (٢١) .

---

(١٩) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر صص ١٠٢ — ١٠٣ نقلا عن مذكرات بونابرت .

(٢٠) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٢٧٦ .

(٢١) المرجع السابق .

ويقرر أستاذنا الدكتور عبد العزيزة الشناوى أن الفرنسيين كانوا يتوقعون قيـام القاهرة بالثورة ولـكنهم كانوا يجهلون ساعة الصفر أى أنهم لم يكونوا يعلمون ترقيت قيـامها والأدلة على ذلك اتخـاذ عـدة تدابير مشددة للأمن واجراءات عسكرية وأخرى مدنية وقائيـة واسـتخلص أسـتاذنا أربعـة مظـاهر للدلالة على علم الفرنسـيين بالثورة وهى :

١ — اتجاه الفرنسيين الى ترحيل المغاربة من مصر نظرا لخطورتهم .

٢ — اخراج سكان القلعـة وتحصينها .

٣ — قتل رسل المماليك الذين كانوا يحملون الرسائل الى الثوار .

٤ — الأمر بعدم استضافة الأغراب .

أحـداث الثورة :

بدأت طلائع الثورة من صحن الأزهر حيث احتشد جمع غفير من الشعب والمجاورين منذ الصباح الباكر من يوم الأحد ١١ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) وتعالت أصواتهم بالهتاف وتنادوا بالجهاد وكان هذا الجمع يتكون حسب ماذكر الجبرتى من « السوقة والجعيدية وأهل العطوف والحسينية وطايفة المغـاربة بالفحـامين وكفر الزغارى والطماعين وسكان الرباع والحارات » وخرج بعض الشيوخ الصـغار وبدأ ينادى فى المدينة « ان كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر لأن اليوم ينبغى لنـا أن نغازى فى الـكفار » (٢٢) ويظهر أن هـذا النـداء كان من أجل تنظيم كتائب الثوار ، لأن الجماهير كانت قـد احتشدت منذ الصـباح البـاكر فى الطرقات « من غير قائد يقودهم ولا رئيس يسوسهم » فعمل زعماء الثورة على لم شملهم أولا بالجامع الأزهر وبعد ذلك يكون التنسيق .

---

(٢٢) نقولا ترك — مذكرات نقولا ترك ص ٢٨ .

وخرجت أول كتيبة من الأزهر وعلى رأسها الشيخ (بدر المقدسى) وهو يتقدم الثوار ممتطيا صهوة جواد [٢٣] وكان عـددهم كمـا ذكر الجبرتى « نحو الألف بل أكثر » [٢٤] وأخـذت الجمـوع نردد برفع الصـوت متجاوبين « نصر الله المسلمين » ويرددون أيضا فى الـكلام « الله ينصر الاسـلام » وظلت هذه الجموع فى سيرها الى أن وصلت الى بيت قاضى القضـاة بحى بين القصرين [٢٥] فخاف القاضى عاقبة تجمهر الثوار « وأغلق أبوابه وأوقف حجابه فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب » •

قتل حاكم القـاهرة :

علم الجنرال Dupuy حاكم القاهرة بالخبر فنزل الى المدينة على عجل فى كتيبـة من الفرسان وبأيديهم السيوف المسلولة ليرهبوا الناس برؤيتها « وذهب الى بيت الشرقاوى بالعينيـة [٢٦] فامتنع منه الشيخ وأنـكر نفسه بالـكلية » [٢٧] ويظهر أن الجنرال ديبوى كان يريد من الشيخ عبد الله الشرقاوى التوسط لدى الجماهير لفض الثائرين بيد أن الشيخ الشرقاوى امتنع • كمـا صرح بذلك الجبرتى ويمكن أن يفسر امتناع الشيخ الشرقاوى بأن له صـلة بالثورة أو أنه خاف من حرج الموقف لدى جمـاهير الثوار لأنه كان يعلم بنيتهم المبيتـة على الثورة• ثم توجه ديبوى الى بيت القـاضى فوجد عنده تلك الجموع مزدحمـة فخاف عاقبـة الاحتكاك بهـا وقفل راجعا وخرج من بين القصرين الى باب الزهومة • ولـكن كتيبـة أخرى كان يقودها « (رجل عطـار)

---

(٢٣) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٣٤ •

(٢٤) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٦ •

(٢٥) يعرف بخط بيت القاضى حاليا بجوار قسم الجمالية الحالى •

(٢٦) العينية : بحارة كتامه المجاورة للأزهر •

(٢٧) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر صص ٣٤ — ٣٥ •

متزيا بزى الفقهاء وهو ينادى فى الناس ويقول : الله أكبر يامسلمين قد أمركم العلماء بقتل المشركين فاستعدوا يا جدعان واضربوا منهم كل بنان » (٢٨) .

وكان الثوار قد نصبوا كمينا بالأشرفية فناداهم ذلك العطار الذى ذكره الجبرتى « ونزل الى جهة الأشرفية حتى أسمع من بها من الجمعية فبادروا نحو ديبوى وضربوه وأثخنوا جراحاته وقتلوه وقتل معه كثير من أصحابه الفرسان وحمله الباقون وفروا من سر المارستان » (٢٩) ولقد أخفقت المحاولات التى بذلها لارى كبير الجراحين فى الجيش لانقاذ حياة الجنرال ديبوى ففاضت روحه بعد ثمانى دقائق من اصابته (٣٠) .

وبعد مقتل محافظ القاهرة تشجع الثوار وزادت حماستهم وأخذوا حذرهم وسيطروا على مداخل القاهرة « ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويله وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذاها » (٣١) وأقاموا المتاريس فى الشوارع من « مصاطب الحوانيت » وغيرها من الأحجار لتعويق الفرنسيين وقت المعركة .

---

(٢٨) ، (٢٩) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٣٥ وسر المارستان هو ممر سرى مبنى للطوارىء ويؤدى الى شارع آخر خلف المارستان المنصورى وتوجد هذه الطريقة المعمارية فى كثير من العمائر بالقاهرة المعزية أيضا ممر سرى بمسجد السلحدار المطل على شارع المعز لدين الله وحارة برجوان فاذا دخله السالك من حارة برجوان يخرج الى شارع المعز وبالعكس ويستعمل وقت الحروب والاغارة على المدن وكانت هذه الطريقة مستعملة فى القصور فكان فى كل قصر « ممر سرى » يمتد تحت الأرض مسافات طويلة تسمح للأمير المحاصر بالافلات من الحصار .

(٣٠) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر ص ١١٥ .

(٣١) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٦ .

وبينما تحصن الثوار داخل القاهرة المعزية على هذا النحو السابق فقد لجأ الفرنسيون الى حصـــار المـــدينة الفاطميـــة ، وكان بونابرت قـــد تلقى نبأ اندلاع الثورة فى نحو الساعة العـــاشرة صباحا ، وكان قـــد غادر القـــاهرة للتفتيش على بعض الحصون الجارى اقامتها فى مصر القديمة وجزيرة الروضة فقفل راجعا على وجه السرعة الى القاهرة وعند وصـــوله الى باب المـــدينة من جهة مصر القديمة استقبله الثوار بسيل من الصخور فعاد أدراجه ثم تمكن من الوصول الى قصر الألفى من ناحية بولاق (٣٢) وكانت بولاق (قـــد شذت عن الوفاق) كما يقول الجبرتى أى أنها لم تشترك فى الثورة لبعـــدها وقربهـــا من معســـكر الفرنسيين (٣٣) .

اقتحام حى الأروام ومغزاه :

زادت حمـــاسة الثوار بعد مصرع محافظ القاهرة (٣٤) وانتصارهم على كتيبته التى كان من بين قوادها برتلمى الرومى وكيل المحافظة وظن الثوار أن فى استطاعتهم الانتصار على بقية أعدائهم ، فاندفعوا الى حى الأروام واقتحمـــوه وكان به كثير من نصـــارى الشـــوام والقبط المتعاونين مع جيش الاحتـــلال (٣٥) والذين أصبحوا عيونا على اخوانهم

---

(٣٢) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ٢٦٥ .

(٣٣) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٦ .

(٣٤) كان بمثابة حاكم القاهرة ولذلك يلقب (شيخ البلد) وهو اللقب الذى كان يعطى لرئيس المماليك قبل الحمـــلة ، والجنرال ديبوى من قواد الجيش الفرنسى الذى حارب فى ايطاليـــــا تحت قيـــادة بونابرت قبـــل مجيئه الى مصر .

(٣٥) سبقت الاشـــارة الى تعـــاون برتلمى الرومى ويعقوب القبطى وغيره من المبـــاشرين الذين سيطروا على أموال الأوقاف ونهبوها لحسابهم مما أثار عليهم حافظة المستحقين وقاموا بمظاهرة سبقت الاشارة اليها .

المسلمين لحساب المحتلين فكان قتالهم فى نظر الثوار قضاء على أذناب الفرنسيين من النصارى الخونة • وان كان حدث سبى للنساء ونهب للحوانيت فهذه الأمور من فعل العامة كما ذكر الجبرتى وهى من الأمور التى لايمكن تداركها وقت الثورة ، حتى أن النهب والسلب امتد الى بيوت المسلمين المجاورة لبيوتهم •

كذلك حاصر الثوار بيت « كفاريللى » الذى أودع فيه الفرنسيون بعض الآلات العلمية وحاول بعض الفرنسيين الموجودين بالمنزل الدفاع عن أنفسهم ولكن العامة اقتحموا المنزل وقتلوا بعض رجاله « وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات المصانع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظير » (٣٦) •

وحاصر جمع آخر من الثوار المستشفى العسكرى وقتلوا بعض الفرنسيين على بابه ، وهاجم الثوار كثيرا من جنود الفرنسيين الذين كانوا يسيرون فى شوارع القاهرة ولا يحملون أسلحتهم وفوجئوا بالثورة وسيطر الثوار على القاهرة كلها باستثناء ميدان الأزبكية وقلعة الجبل وبركة الفيل حيث كانت ترابط معظم القوات ، وانقطع الاتصال بين هذه المراكز الرئيسية الثلاثة ووزع الثوار أنفسهم الى مجموعات هاجمت مواقع المخافر الفرنسية وفتكوا بحراسها وازداد الثوار ثقة بأنفسهم وغدا مركز الفرنسيين حرجا للغاية (٣٧) •

اليوم الثانى للثورة :

منذ عاد بونابرت الى القاهرة بعد نشوب الثورة (٢٢ أكتوبر) أدرك بونابرت خطورة الموقف لأن دعاة الثورة ذهبوا أثناء الليل الى

---

(٣٦) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٣٢ •

(٣٧) د• عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر ص ١١٩ •

القرى المجاورة للقاهرة يستصرخون أهلهـا لجهـاد الفرنسيين ، وبدأ أهالى تلك النواحى يتوافدون فى الصباح الى المـدينة ، فوجه بونابرت بعض قواته الى أطراف المـدينة لمنع دخول أحد من خارجهـا ، ونجح بونابرت فى حصر الثورة فى القاهرة [٣٨] وعـرف بونابرت أن مركز الثورة الحقيقى هو الجامع الأزهر وكان الثوار قـد أقاموا المتـاريس والحواجز فى سائر الشوارع والدروب المؤدية الى الأزهر ، ولا سبيل الى وصـول القـوات اليه مبـاشرة لاخضـاع الثوار لأن الحوارى والدروب المؤدية اليـه تمكن الثوار من الـدفاع وتجعلهم يصـطادون الفرنسيين ، ولم يتدرب الجيش الفرنسى على مثل هـذه الحروب فى مثل هذه الظروف [٣٩] .

جهـاز الدعاية :

عمل الثوار على أن يكون لهم جهـاز دعاية نشـط مهمته اطلاق الشائعات التى من شأنها تقوية الروح المعنوية فى نفوس الثوار فـكان من بين الشائعات التى أطلقت صباح الاثنين (٢٢ أكتوبر) « وصفقوا عندها بالأكف وحلف السامع على صحتها الايمان وصرخوا بها وزغردت النساء من الطيقـان كقولهم : ملك المسلمون القلعة وتحصن بهـا من الأكابر خمسة أو سبعة أسماء ليس لها وجـود دعوى من غير شـهود وتناقلوها بينهم وأثبتوها وأشـهروها وحققوها » [٤٠] وكانت أقـوى

---

(٣٨) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٣٩) كانت القاهرة المعزية فى تلك الأثنـاء تتكون من عـدة احيـاء بها كثير من الشوارع والحارات والدروب الملتوية التى تكثر بها المنحنيات والعطوف مما يمكن الشعب المـدافع عنهـا من الاختبـاء ومفاجأة القوات المهاجمة واصـطيادهم مما يجعل مهمة اخضـاع المـدينة أمرا عسيرا وما زال كثير من احيـاء القاهرة الفاطمية على هـذا التخطيط الى وقتنـا هذا (١٩٨٥ م) .

(٤٠) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٣٧ .

الشائعات قتل بونابرت بطريق بولاق « وأشاعوا أيضـا باتفـاق قتل صارى عسكر بطريق بولاق » ولقد قوت هذه الشائعة من الروح المعنوية للثوار فى صباح الاثنين « وعندها قوى عزمهم ونشاطهم فمنهم من يقول هلكوا وماتوا وآخر يصرخ بقوله قتلوا وفاتوا » (٤١) .

كما أطلق جهـاز الدعاية خبر وصـول الامدادات من العـربان والفلاحين ومعهم ألوف الفرسان المعدات الحربية وأنهم تجمعوا خارج المـدينة واشتبكوا مع الفرنسيين وقتلوا ماعلى تلال البرقية من جنود الفرنسيين « وحلفوا على ذلك الطلاقات » (٤٢) كما أشـاع الثوار أن الفرنسيين طلبوا منهم الصلح لأنهم أصـابهم العطش وهم على التـلال ولم يبق منهم الا خمسن وأكثرهم قتله العرب والفلاحون .

قصف الجامع الأزهر :

بيد أن بونابرت فـكر بسرعة وكان قـد أمر بنصب المدافع على سفح المقطم بالقرب من القلعـة لـكى تعاون مدافع القلعة فى قصف حى الثوار ، فأصـدر أمره فى الساعة الثانية بعد الظهر الى القـوات الموجودة بالقلعـة بقصف الجامع الأزهر بالمدفعية وقتل الثوار واحراق المنـازل واحتلال الجامع وخاطبهم : أن عليكم « أن تضربوا الجـامع (الأزهر) بالمـدافع ... وعليكم أن تقتحموا الجامع الأزهر بكتائبكم تحت حمـاية المـدفعية ... وعليكم أن تقتلوا جميع من فى الجـامع وأن تضعوا فيه حرسا قويا » (٤٣) .

ونفذت أوامر بونابرت تنفيـذا صارما ، فقـد أخذت المـدفعية تقـذف حى الأزهر بقنـابلها وركزت الضرب على الجامع رغبـة فى

---

(٤١) ، (٤٢) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٣٧ .

(٤٣) د. عبـد العزيز الشناوى — صـور من دور الأزهـر صص ١٢٦ — ١٢٧ .

التنكيل بالثوار (٤٤) وأخذت آلاف القنـــابل تنهال على الأزهر والأحياء المجاورة له كالصـــنادقية والغورية والفحـــامين ففتكت بكثير من الثوار والأهالى وتحطمت الدور والمتـــاجر وانتاب الأهالى فزع شديد والقت انفجارات القنابل الرعب فى نفوس النـــاس ، وشـــعروا بقسوة القوة الحربيـــة الفرنسية لأول مرة ، لأن الشعب كان بعيـــدا عنهـــا فى حين تصدى لها المماليك وظل الشعب المصرى منذ دخول الحمـــاة حتى ثورة القاهرة لايرى من الفرنسيين الا التقرب والسياسة والمجاملة ، فلمـــا قامت الثورة واصطلى الشعب بهذا الضرب الهـــادر « ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه نادوا ياســـلام من هذه الآلام ياخفى الألطاف نجنا مما نخـــاف » (٤٥) .

ويذكر ريبو وهو شاهد عيان بأن الجامع الأزهر أوشك أن يتداعى مما ناله « من شـــدة الضرب فتدفن تحت أنقاضـــه الجماهير الحاشدة فيه وأصبح الحى المجاور للأزهر صـــورة من الخراب والتدمير فلم يكن يرى فيـــه الا بيوت مدمرة ودور محترقة ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين كان يسمع لهم أنين موجع وصيحات مرعبة ، وكانت الجهات القريبـــة من الأزهر ولا سيما شوارع الغورية والصـــنادقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة » (٤٦) .

---

(٤٤) يقول ريبو ان اطلاق القنـــابل بدأ فى الساعة الرابعة تماما ، لـــكن الـــكولونيل ديترو يقول فى يومياته ان الضرب ابتدأ فى الظهر واستمر الى الليل وروايتـــه ادعى الى الثقة لأنه شاهد لتلك الحوادث شهادة عيان (عبد الرحمن الرافعى تاريخ حركة القومية ج ١ ص ٢٨٦) .

(٤٥) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٧ .

(٣٦) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٢٨٧ نقلا عن ريبو — التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية ج ٣ .

موقف علماء الديوان :

لقد مر بنـا كيف كان موقف الشـيخ عبـد الله الشرقاوى شيخ الأزهـر ورئيس الـديوان عنـدما ذهب اليـه الجنرال ديبوى محافظ القاهرة لـكى يساعده فى تسكين الهيـاج الذى أحدثه الثائرون عنـد بيت القاضى ، فقـد امتنع عن مقابلته واختفى بمنزله وأنكر نفسه ولا شك أنه بهذا الموقف يتعاطف مع الثوار .

وكان موقف غالبية العلماء من أعضاء الديوان هو السلبية « فمنهم من هرب من داره وقعد مختفيـا عند جاره ومنهم من أغلق بابه وقعـد عنـد حريمـه ومنهم من خرج بنفسه مهاجرا وأقام بعمارة قايت باى بالصحراء » (٤٧) ، (٤٨) وقـد قلنا غالبية العلماء من أعضاء الديوان لأن الجبرتى قرر فى مذكراته الخاصـة أن الشيخ البكرى الذى تولى نقابة الأشراف على أيديهم « نبه على جهات الأزبكيـة وثبطهم عن القيـام بالـكلية » وكان منزله يقع بحى الأزبكية « وكذلك الفيومى بحـارة عابدين وقوصون » وهو محل سكنة أيضا فـكل من هذين الشيخين منع الثوار عن المشاغبة وخوفهم سوء العاقبة ، بيد أن المانع لهم فى الغالب كما ذكر الجبرتى هو قربهم من مساكن العسكر » .

وعندما وجد الشيخ البكرى أن الثوار ماضـون فى ثورتهم خاف عاقبـة وجوده بينهم « وأخذ معه السرسى والمهدى وذهبوا الى عنـد كاتب الرزنامة » وهو بوسيلك مدير الشئون الماليـة ، فأرسل معهم من

---

(٤٧) المقصـود بعمارة قايت باى مسجده الموجود بمقـابر المماليـك بالصحراء الشرقية وهى مجاورة لمقابر المجاورين من علماء الأزهر بالقرافة الشرقيـة .

(٤٨) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٣٦ .

يوصلهم الى بونابرت ، « ولما دخلوا عليه وجدوه منفعلا وخاطره بما جرى مشتغلا فسألهم عن هذا الواقع والشر المتتابع فقالوا له هذا فعل سفهاء الرعية ومن ليس لهم فى العواقب روية فقال ، وأين مشايخ الديوان ومدبرين الجمهور ، ومن اليهم مقاليد الأمور الذين قدمناهم واخترناهم وعلى غيرهم ميزناهم ورفعناهم فأخبروه بأنهم معذورون وعن الوصول ممنوعون فلم يقبل منهم هذا الاعتذار وقال : لابد من حضورهم عند طلوع النهار » (٤٩) وان لم يحضروا فى هذا الميعاد وحصل منهم المخالفة والعناد ضربنا عليهم المدافع والبنبات ولم ينفعهم بعد ذلك الاعتذار ، واركبوا أنتم ونادوا بالأمان فى كل طريق ومكان « بيد أن هؤلاء العلماء الثلاثة لم يتمكنوا من دخول المدينة فأرسلوا رسولا للثوار فرجع بخفى حنين » (٥٠) وبات الناس على هذا الوضع ليلة الاثنين ، موقف الثوار العازمين على مواصلة القتال بقيادة الصف الثانى من العلماء ، وموقف علماء الديوان الذى اتسم بالسلبية فى مجمله وتهديد بونابرت بضرب الأزهر •

توسط العلماء لدى بونابرت :

وعندما نفذ بونابرت وعيده بضرب الأزهر وفرغ مالدى الثوار من سلاح لم يجد العلماء بدا من الظهور بعد اختفائهم ، وتوسطوا لدى بونابرت يطالبونه بالكف عن ضرب الأزهر بمدفعيته ، لأنهم رأوا أن المدفعية قد انتصرت على شجاعة الثوار وأرهبتهم وهزمت مقاومتهم فقام أعضاء الديوان بدورهم المنتظر وهو التدخل لمنعه من ابادة الشعب ، « وركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم

---

(٤٩) هو نهار الاثنين ٢٢ اكتوبر ثانى أيام الثورة قبل ضرب الأزهر بالمدفعية •

(٥٠) المصدر السابق نفس الصفحة •

هــذا النازل ويمنع عسكره من الرمى المتراســل ويكفهم كمــا انكف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال » (٥١) .

وكانت نيـــة المشايخ ظاهرة من عبارة الجبرتى الأخيرة « والحرب خدعة وسجال » يعنى أن المشايخ أرادوا أن يكتموا نية التربص بالعدو حتى تتاح لهم فرصـــة أفضل لقتاله ومن ثم ينبغى خــداعه بالتوسط من أجل الصلح والاستفادة من الهدنة بتقوية الثورة بدلا من انتحــار الثوار أمام مدفعية بونابرت الغاشمة .

وبذلك نرى مع الأستاذ محمد جلال كشك بأن « الجبهة الوطنيـــة واحدة الشيوخ الصغار يقودون الجمــاهير المقاتلة ، والمؤذنون ينادون بالجهاد والشيوخ الــكبار يتسترون على الحركة ويكتمون أخبارها عن بونابرت ويسعون فى الهدنة اذا مابدا أن الثورة ستتحول الى مذبحة وتبين أن الاستمرار فى القتال فى هذه المرحلة يعنى الانتحار » (٥٢) .

ذهب العلمــاء الى بونابرت لأجل العفو ومنع قــواته من الضرب « فعاتبهم بسبب التأخير واتهمهم فى التقصــير فاعتذروا اليه فقبــل عــذرهم فى الظــاهر وأمر بمنع الرمى بالقنابل » (٥٣) وشرط عليهم بونابرت أن يعاقب الذين تسببوا فى الثورة وثبت أنهم قتلوا وأثاروا الفتنة ، فقبل العلماء ذلك .

خرج العلماء من عند بونابرت وأمامهم المنادى « يصيح بالأمان فى المسالك » (٥٤) فلما تسامع الناس بذلك سادت الســكينة واطمأن الناس ، وهكذا تغلبت قوة الحديد والنار على مقــاومة شــعب أعزل لا سلاح معه .

---

(٥١) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٧ .

(٥٢) محمــد جلال كشك — ودخلت الخيل الأزهر — مرجع ســبق ذكره — ص ٢٣٣ .

(٥٣) ، (٥٤) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس ص ٣٨ .

دخلت الخيل الأزهر :

استهدف الأزهر بعد قمع الثورة لأشد ضروب الانتقــام ونزلت بعلمائه النوازل فقد سلط عليهم بونابرت جام غضبه وســوط عذابه • وكانت أشــد الفعــال وقعــا فى نفوس المســلمين هو دخول القوات الفرنسية الجامع الأزهر بخيولهم ، وانتهكت حرمة الأزهر لأول مرة فى تاريخه الطويل ، ولقد وصف لنا الجبرتى هذا المشهد الهمجى بقوله :

« وبعد هجعة من الليل (ليلة الثلاثاء ٢٣ أكتوبر) دخل الافرنج المــدينة كالسيل ومروا فى الأزقة والشوارع لايجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند ابليس وهدموا ماوجدوه من المتاريس ، ودخل طائفة من باب البرقيــة ومشــوا الى الغورية وكسروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلموا باليقين ألا دافع لهم ولا كمين، وتراسلوا ارسالا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع الأزهــر ، وهم راكبــون الخيول وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والــكتبة ونهبوا ماوجدوه من المتــاع والأوانى والقصــاع والودائع ، والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الــكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيــــه وألقوها بصــحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه (٥٥) •

وهكذا دخل الفرنســيون الأزهر بهــذا الأسلوب البربرى الذى [illegible] الا الاحتلال الصليبى لبيت المقــدس فى القرن الحادى عشر ولا يفوقه الا احراق الاحتــلال الصهيونى للمسجد الأقصى فى القرن العشرين (٥٦) •

---

(٥٥) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٧ •

(٥٦) محمد جلال كشك — مرجع سبق ذكره ص ٢٣٤ •

وتذكر المراجع الفرنسية أن القوات التى دخلت الأزهر كانت بقيادة الجنرال « ديما » (٥٧) الذى كان يتقدمهم على ظهر جواده وهو يلوح بسيفه فى صحن الأزهر الشريف فى صلف وغرور ، وتواثب الفرنسيون الى الجامع واقتحموه اقتحام الضوارى غير مكترثين لحرمته الدينية والعلمية ، ثم أخلى الفرنسيون الجامع بسرعة ممن فيه وقبضوا على كثير من الثوار ممن وجدوا به « ووجدوا فى بعض الأروقة انسانا فذبحوه ومن الحياة أعدموه » (٥٨) .

وكان اقتحام الأزهر على هذا النحو الهمجى معناه سقوط كل زيف ودجل حاول بونابرت أو يستر أهدافه خلفه ، لأن الأزهر هو مركز قيادة الأمة روحيا ووطنيا تتركز فيه الزعامة الدينية والوطنية ، واقتحامه واهانته على هذا النحو هو اهانة للدين الاسلامى الذى ادعى أنه يحترمه ، فمهما تكن خسائر ثورةالقاهرة الأولى كان مكسبها الأعظم، هو أنها كشفت حقيقة العدو وعرته من كل زيف وأنه عدو الدين وليس بصديق كما ادعى ومن ثم علق الشيخ الجبرتى على أعمالهم بقوله « وفعلوا بذلك الأزهر ماليس عليهم بمستنكر لأنهم أعداء الدين وخصماء متغلبين وغرماء متشمتين » (٥٩) (كذا) .

الفرنسيون ينهبون كتب الأزهر :

عندما اقتحم الفرنسيون الأزهر بخيولهم عمدوا الى خزائن الكتب ونهبوا منها الشىء الكثير يقول الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر « ونشروا الكتب التى فى الخزائن يعتقدون أن بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف

---

(٥٧) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ٢٦٨ .

(٥٨) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٣٩ .

(٥٩) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٣٩ .

نفيسة » [٦٠] وما تركوه من الـكتب والمصاحف فقد حطموه بأرجلهم وأهدروا قدسيته كما قال الجبرتى : « دشتوا الـكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسـوها » [٦١] وبينما كان هـذا يجرى « رأى النـاس شخصا غريبا يتسلل خارجا من الأزهر وهو كهل فرنسى بدين يلبس خفين ورداء يخفى بين ثنـاياه شيئا ضخما — وهو يتخذ سمته الى الأزبكية ، متعقبـا الفرسان ورماة القنابل وجثث القتلى فلما وصـل الى مقر القيـادة أثار ظهوره الدهشـة . ذلك الرجل كان (مارسيل) المستعرب والمشرف على المطبعـة ، وقـد أخرج من تحت ردائه مخطوطا رائعا للقرآن الـكريم يرجع تاريخه للقرن الثالث عشر استنقذه من سورة غضب الفرنسيين المدمرة [٦٢] .

وان الذى يلوم الثوار من العـامة على ماأحدثوه بالآلات العلمية التى كانت موجودة بمقر المهندسين فى بيت كفاريللى ، عليه أن يوجـه لوما أشـد الى هؤلاء الفرنسيين الذين كانوا بلا شـك أكثر تقـدما وحضارة وفهما لمـا فى الـكتب ، وتقـديرا لقيمتها العلمية ، من عامة المصريين الذين هجموا على بيت كفاريللى فى ثورة هادرة يدفعهم عامل وطنى هو الدفاع عن حريتهم ضد الغاصب الدخيل .

لقـد كان بونابرت على علم بما حـدث لخزائن الـكتب بالأزهر ، لأنه عنـدما اجتمع لديه شـيوخ الأزهر فى قصر الألفى بالأزبكية غداة الثورة قال للمشايخ :

ولابد أنهم احتجوا لديه بما حدث لـكتبهم من النهب والتخريب : « ان الدم الذى أريق فيـه الـكفاية ، وان كتب الأزهر المقدسة سترد

---

(٦٠) تحفة النـاظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين — طبعة مصطفى البابى الحلبى على هامش كتاب فتوح الشام فى جزءين — الطبعة الرابعة — القاهرة ١٩٦٦ ج ٢ ص ١٢٢ .

(٦١) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٧ .

(٦٢) كرستوفر هيرولد — مرجع سـبق ذكره ص ٢٦٩ .

اليهم ، فليطهروا اذن الجامع الذى انتهكت حرمته ، وليدفنوا موتاهم وليعلنوا عفوه الكريم على الملأ » (٦٣) ولقد كان منظرا مؤثرا حقا عندما خر الشيوخ على ركبهم أمام بونابرت وقبلوا الكتب الدينية التى ردها اليهم • وكانت نية بونابرت متجهة الى هدم الجامع الأزهر فقد أصدر الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب تعليماته (وهى صادرة بأمر القائد العام) الى الجنرال بون Bon بتاريخ (٢٣ أكتوبر) : « بهدم الجامع الأكبر ليلا اذا أمكن ، وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع » (٦٤) •

اخلاء الأزهر من الجنود :

كان احتلال الأزهر على الصورة السابقة أمرا مهينا للأمة بأثرها لأنه مركز قيادتها وزعامتها الروحية وموطن احترامها منذ أمد بعيد ، فهو ليس مجرد مسجد فالفرنسيون هدموا عدة مساجد واحتلوا مسجد السلطان حسن وركبوا المدافع فوقه ولا شك أن الاعتداء على هذه المساجد أثار غضب الشعب ، ولكن الأزهر أكبر من ذلك • ومن ثم لم يسكت العلماء على هذه الاهانة وذهب وفد كبير من الشيوخ الى بونابرت يوم الأربعاء (٢٤ أكتوبر) يطلبون منه العفو واصدار الأمان ليطمئن الناس وتزول مخاوفهم ، فوعدهم بونابرت « وعدا مشوبا بالتسويف » كما يقول الجبرتى وطالبهم بارشاده عن الذين تسببوا من الأزهريين فى اثارة الشعب ، فلم يتهموا أحدا ، فقال لهم بونابرت « نحن نعرفهم بالواحد » (٦٥) •

ثم طلبوا منه اخراج الجنود من الجامع الأزهر ، فأجابهم الى ذلك

(٦٣) المرجع السابق ص ٢٧٠ •

(٦٤) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ١ صص ٢٩٢ — ٢٩٣ •

(٦٥) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٨ •

وأمر باخراج الجنود من الجامع فى الحال ، ولـكنه ترك منهم سبعين جنـديا لضبط الأمن والنظام فى الأحيـاء المجاورة ، ومراقبة الطلاب « أسكنوهم بدار عند درب القزازين » (٦٦) .

وتذكر المراجع الفرنسـية أن بونابرت القى فى وفـد العلمـاء « خطبـة طويلة جمع فيهـا بين التقريع واللوم ، واعلان الصفح عن سكان القـاهرة » (٦٧) وعرفهم فيها أنه علم أن موقف معظم المشايخ كان يتسم بالضعف ، ثم مضى يقول لهم ان النبى عليه الصلاة والسلام كان يمقت اثارة الفتنـة مقتا شـديدا ، وأكد لهم أنه لايريد أن يمر يوم واحد على مدينـة القـاهرة دون أن تقـام فى مساجدها شعائر الصـلاة كالمعتـاد وأعلن لهم أنه يرد لهم المصـاحف التى اسـتولى عليها جنود الجيش وفعلا استلم المشـايخ المصـاحف لاعادتهـا الى الجامع الأزهر وحمل كل شيخ مجموعة منها ، وذهبوا بها الى الجامع ، وبعد أن تم اخراج الفرنسيين منه وتم تنظيفـه صعد الشيخ عبد الله الشرقاوى المنبر وخطب فى الجمـاهير خطبة نقل اليهم فيها تصريحات بونابرت (٦٨) ونأخذ من هـذه الرواية أن بونابرت كان لايزال متمسكا بسياسته الاسلامية على الرغم من قيام الثورة .

وقد سجل لنا المعلم نقولا الترك رواية أخرى مفادها أن بونابرت رفض طلب كبار المشايخ بشأن اخراج الجنود من الأزهر ، فخرج العلماء من عنـده وأرسلوا له الشيخ محمد الجوهرى ، وكان معروفا بالورع والتقوى ، وله مكانة كبيرة بين العلماء ، كما عرف عنه أنه لم يقابل حاكما قط طوال حيـاته ، فـدخل على بونابرت قائلا : « ماقابلت حاكما عادلا كان أم ظالما والآن قـد أتيت متوسـلا اليك أن تأمر باخراج العسكر

---

(٦٦) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٤١ .

(٦٧) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر ص ١٣٦ .

(٦٨) المرجع السابق — ص ص ١٣٦ — ١٣٧ .

من الجامع الأزهر وتغفر ذنب هؤلاء القوم الفجر واتخذنى مدى العمر داعيا لك ناشدا فضلك فانشرح أمير الجيوش من ذلك الخطاب وانعطف وأجاب قائلا : اننى عفوت وصــفحت » [٦٩] ثم أمر برفع الجنود من الأزهــر •

واذا صــحت رواية نقولا ترك فى ذهاب الجوهرى الى بونابرت وهو الذى أخذ على نفسه ألا يقــابل حاكما قط طوال حياته حفاظــا على كرامته الشخصية اذا صحت هذه الرواية فان لها مغزى أشار اليه بعض البــاحثين بقوله : « ان الشيخ الجوهرى عرف أن كرامة الأمة وكرامة رموزها ومقدســاتها فوق الــكرامة الفردية ، وعرف أن مصر قــد احتلها الأجنبى وأصبحت مستعمرة •• وأنه لم يعد بالامكان كما كان الحــال — أن يترفع قادة الشــعب عن الحــاكمين فيأبون زيارة الحــاكم » [٧٠] •

ويرى أستاذنا الدكتور الشناوى أن من الصعب الأخذ برواية نقولا ترك عن وســاطة الشيخ الجوهرى لأنهــا لو كانت صحيحة « لما تردد الجبرتى فى ذكرها بل وفى ابرازها ابرازا قويا ، وبخاصة لأن الجبرتى سجل للشيخ مواقف هامة ومشرفة تتصل بمشيخة الأزهر » هذا فضلا عن أنه « كانت تربط هــذا الشــيخ الوقور بالجبرتى أوثق الصــلات العلمية والاجتماعية » [٧١] « ويذكرسيادته واقعةتضعف رواية المعلمنقولا ترك ، فقــد أذاع علماء الأزهر أعضــاء الديوان فى ذات اليوم الذى قابلوا فيــه بونابرت بيانا الى سكان القاهرة قرروا فيــه أن بونابرت استجاب لشفاعتهم •

---

(٦٩) « ذكر تملك جمهور الفرنســاوية الأقطــار المصرية والبــلاد الشامية » مصدر سبق ذكره — ص ٦٩ •

(٧٠) محمد جلال كشك — مرجع سبق ذكره ص ٢٣٥ •

(٧١) د• عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهــر •• مرجع سبق ذكره — صص ١٣٩ — ١٤٠ •

وعلى كل حال فقـد خرج المستعمرون من الأزهر ، وقام العلماء بتنظيفـه من دنس الفرنسيين الذين أحدثوا فيـه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وعاد اليه من هرب منه من العلمـاء والطـلاب فرارا من فظائع الفرنسيين •

الانتقام من الثوار :

أذاع بونابرت الأمان على الشعب ونشر عفوه العام على لسـان المنـادين فى أنحـاء القاهرة ، ثم عمد الى تصفية الثورة وقطع رؤوس أبطالها فى الخفـاء • وأصـدر أوامره الى الجنرال برتييه « تفضـل أيها المواطن القـائد بأن تأمر قومندات القـاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيـدهم سـلاح • فليؤخذوا الى شـاطىء النيل •• بعـد هبوط الظـلام ؛ ولتلق جثثهم المقطوعـة الرؤوس فى النهـر » (٧٢) •

ويلاحظ أن الفرنسيين كانوا يرمون الجثث فى النيل بدون رؤوس حتى يصعب التعرف على شخصية أصحابها اذا طفت على صفحة النيل•

وفضـلا عن اعـدام هؤلاء المسجونين ، فقـد قرر بونابرت فى مذكراته أن السلطات الفرنسية ألقت القبض على ثمانين شخصا ، قال بونابرت عنهم أنهم كانـوا من بين مائة عضـو كانوا يشـكلون مجلس الثورة ، وقـد تم القبض عليهم لـيلا • وفى الساعة السادسـة من صباح يوم ٢٤ أكتوبر حكمت محكمة عسكرية باعدامهم جميعا (٧٣) وقد علق نابليون على هذا الحـادث بعد ذلك بنحو عشرين عاما بقوله يصف شهداء القلعـة « كانوا قـوما ذوى تفكير عنيف متطرف » (٧٤) والى

---

(٧٢) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره — ص ٢٧١ •

(٧٣) د• عبـد العزيز الشناوى — صـور من دور الأزهـر صص ١٤٣ — ١٤٤ •

(٧٤) كرسـتوفر هيرولد — مرجع سـبق ذكره ص ٢٧١ نقـلا عن مذكرات نابليون •

يومنا هـذا يوصف الثوار والفـدائيون من جانب المستعمرين بالتطرف والتهور وتوصف أعمالهم بالتخريب [٧٥] • وهكذا نجد جهرا بالعفو عن الأبرياء ، واعداما للمعارضـين فى الخفـاء وتحت جنح الظلام « وهى سـياسة خليقـة بأن تحظى برضى مكيـافللى » كمـا يقول كرستوفر هيرولد [٧٦] •

واستمرت عملية قطع الرؤوس على يد برتلمى اليونانى الذى هتف الثوار بهلاكه ابان ثورتهم وانتـدبه الفرنسيون « للعسس على من حمل السلاح أو اختلس وبث أعوانه فى الجهات ، يتجسسون فى الطرقات، فيقبضون على النـاس بحسب أغراضهم ، وما ينهيه النصـارى من أبغاضهم فيحكم فيهم بمراده ويعمل برأيه واجتهاده » [٧٧] وكان يوما على المسلمين عسيرا ، فقـد تشفى فيه فرط الرمان الذى أبغضه العامة وانتقم النصارى من المسلمين وقبضوا عليهم بحسب أغراضـهم كمـا أشار الجبرتى •

اعـدام زعمـاء الثورة :

كان الشيخ محمد أبو الأنوار السادات فى مقدمة من ارتاب فيهم بونابرت ونسب اليه فى مذكراته قيـادة الثورة ، بيد أنه تردد كثيرا فى شأنه وقال عنـه « انه مع قيـام البينـات على أنه زعيم الثورة فقد عفا عنه ، ورأى أن الضرر من قتله أكثر من نفعه لمـا كان له من المنزلة الرفيعة فى الشرق ، ولأن قتله يجعله شهيدا فى نظر الشعب [٧٨]

---

(٧٥) يصف الاسرائيليون الفدائيين الفلسطينيين الذين يـدافعون عن وطنهم بالمخربين ويصـفون أعمـالهم بالتخريب ، وهكذا دائما والتـاريخ يعيـد نفسـه •

(٧٦) بونابرت فى مصر — ص ٢٧١ •

(٧٧) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٨ •

(٧٨) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٢٩٤ نقلا عن مذكرات نابليون •

وقــد ذكر بونابرت فى مذكراته حديثا مثيرا ، دار بينه وبين الجنرال كليبر ، وكان الأخير قــد جاء من الاسكندرية ، وذهب لمقابلة بونابرت فى مقر القيــادة العــامة للجيش الفــرنسى فى ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨ ، ووقع بصره على الشيخ السادات ، وكان يبــدو على الشيخ أنه شــبه مقبوض عليه • فقــال بونابرت لــكليبر مشيرا الى الشيخ السادات : انه زعيم الثورة فرد كليبر : — ولمــاذا لاتعدمه رميــا بالرصــاص ؟ بونابرت : — ان هذا الشعب يختلف عن شعبنا ، وعاداته تختلف عن عاداتنا • يجب أن يكون لهــذا الشعب زعمــاء ، وانى أفضل أن يكون زعماؤه من مثل هــذا الطراز الذى لايستطيع أن يركب حصــانا ، أو يمسك سيفا ، انى أفضــلا هــذا الطراز من الزعماء ، على طراز زعماء مثل مراد بك وابراهيم بك ، وان اعــدام هــذا الرجل العجوز الضعيف لن ينجم عنه أى نفع ، بل سيكون له نتــائج مؤسفة بالنسبة لنــا ، غير مانظن » (٧٩) ولابــد أن بونابرت قــد وصــله نبأ تخلى الشيخ الشرقاوى عن نجــدة محافظ القــاهرة عنــدما ذهب اليــه فى منزله بالأشرفية • بيد أن بونابرت غض طرفه عن الموقف السلبى الذى وقفه غالبية أعضــاء الديوان والقى القبض على خمسة من زعماء الثورة من الشيوخ وهم كما ذكر الجبرتى: « الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبــد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اســماعيل البراوى » (٨٠) وذكرت الصحف الفرنسية أن المشايخ الذين أعدموا لقيادتهم للثورة كانوا ستة لا خمسة (٨١) كما ذكر الجبرتى وأضافت اليهم السيد عبد الــكريم •

---

(٧٩) د. عبد العزيز الشناوى — صــور من دور الأزهر — ص١٧٠ نقــلا عن مذكرات بونابرت •

(٨٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٨ •

(٨١) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القوميــة ج ١ ص ٢٩٥ نقــلا عن جــريدة (كوربيــه دى ليجبت) العــدد الصادر فى ٢٠ بروميرِ (١ نوفمبر ١٧٩٨) •

اعتقل هؤلاء العلماء فى منزل الشيخ خليل البكرى ، وقــد ذكر الجبرتى فى مذكراته الخاصـــة أن العلماء عارضـــوا فى القبض على هؤلاء المشايخ قائلين « هذا أمر قبيح وفعل غير صليح فان العلماء شأنهم التعظيم ومعاملتهم التبجيل والتكريم ، فلم يستمعوا لمقـــالتهم » [٨٣] ولمـــا صمم الفرنسيون على القبض عليهم وحبسهم طلب العلمـــاء أن يكون حبسهم عند أرباب جنسهم [٨٣] .

وفى منتصف ليلة الأحــد ٤ نوفمبر أخـــذتهم قوة فرنســـية من منزل الشيخ البكرى بحجة أن بونابرت يريد أن يتحدث معهم ، فلمـــا صاروا خارج الدار وجـــدوا قوة كبيرة فى انتظـــارهم ويذكر الجبرتى فى مذكراته أن هذه القوة عنـــدما أرادت القبض على زعمـــاء الثورة تمردوا ورفعوا أصواتهم بالاحتجاج فضربهم الفرنسيون « وصرعوهم فى الأرض ثم سحبوهم مشحطين وعند جامع أزبك عروهم من ثيـــابهم وكتفوهم وصـــعدوا بهم الى القلعـــة فسجنوهم الى ضحوة النهار ، ثم أنزلوهم من باب الجبل خلف القلعـــة وقتلوهم رميا بالرصـــاص » ودفنوهم فى حفرة بالوهـــدة التى عند المزراق أسفل القلعـــة ونسفوا عليهم التراب [٨٤] .

وقـــد ظل مصير هؤلاء المشايخ مجهولا لدى سكان القاهرة عـــدة أيام وتردد أعضـــاء الديوان عدة مرات على بونابرت يلتمسون منـــه الافـــراج عنهم ظنـــا منهم أنهم على قيـــد الحيـــاة ، وكان بونابرت يستمهلهم ، وأخيرا علم الشعب بما حـــدث للثوار من المشايخ وعنـــدما انتشر خبر قتلهم فى القاهرة . خاف الفرنسيون عاقبـــة الثورة فى حى الأزهر فأرسلوا بعض قواتهم الى منطقـــة الأزهـــر لمراقبـــة الموقف ، والاستعداد لسحق أية حركة يقوم بها الأزهريون .

---

(٨٢) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٤١ .
(٨٣) المصـــدر السابق نفس الصفحة .
(٨٤) الجبرتى — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٤٣ .

وذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى فى كتابه « تحفة الناظرين .. » « أن الفرنسيين قتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما » [٨٥] ونعتقد مع أستاذنا الدكتور الشناوى أن ليس فى هـذا العدد الذى ذكره شيخ الأزهر مبالغـة لأن الشيخ الشرقاوى وهو شيخ الأزهر كان أدرى من غيره بالعلماء وأسمائهم ، ولابد أنه وقف على عدد وأسماء العلماء الذين نفذ فيهم الفرنسيون أحكام الاعدام [٨٦] .

كان هؤلاء المشايخ فى مجموعهم طرازا خاصـا من العلماء الذين يستطيعون مخاطبـة الجمـاهير وتحريكهم وقيـادتهم كمـا يفهم من ترجمة الجبرتى لهم [٨٧] .

فيـذكر الجبرتى عن الشيخ (أحمـد الشرقاوى) بأنه كان من فقهـاء الشافعية تعلم على يد والده الشيخ ابراهيم الشرقاوى ، وتفقه وأنجب ولـما توفى والده تصـدرللتدريس بالأزهر مكانه « واجتمعت عليه طلبـة أبيه وغيرهم ولازم مكانه بالأزهر طوال النهار يملى ويفيد ويفتى على مذهبـه ، ويأتى اليه الفـلاحون من جيرة بلاده بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم فيقضى بينهم ، ويكتب لهم الفتاوى فى الدعاوى التى يحتاجون فيهـا الى المرافعـة عند القاضى وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه ويستمعون لقوله ويمتثلون لأحكامه وربما أتوه بهـدايا ودراهم ، واشتهر ذكره » وقال فى صفته أنه كان جسيما عظيم اللحية فصيح اللسان ، وهـذا يؤكد أنه كان من خطبـاء الثورة والمحرضـين عليها معتمدا على فصاحته ووجاهته .

---

(٨٥) عبد الله الشرقاوى — تحفـة النـاظرين على هامش فتـوح الشام جـ ٢ ص ١٢١ .

(٨٦) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر — ص ١٤٦ .

(٨٧) ترجم الجبرتى لخمسة من هؤلاء العلماء فى وفيات سنة ١٢١٣هـ فى كتابه عجائب الآثار جـ ٣ ص ص ٦٤ — ٦٥ .

والشيخ (عبد الوهاب الشبراوى) كان من فقهاء الشافعية تفقه على مشايخ عصره وتصدر للتدريس بالمدرسة الجوهرية بالأزهر وبالمشهد الحسينى ويحضر درسه جمهور غفير من الشعب يستفيدون منه « وكان حسن الالقاء سلس التقرير جيد الحافظة جميل السيرة ، مقبلا على شأنه ، ولم يزل ملازما على حالته حتى اتهم فى اثارة الفتنة وقتل بالقلعة شهيدا » .

والشيخ (يوسف المصيلحى) ، كان شابا صالحا نبيها فاضلا من فقهاء الشافعية تفقه على علماء عصره وتصدر للتدريس بجامع الكردى « وكان مهذب النفس ، لطيف الذات حاو الناطقة مقبول الطلعة خفيف الروح » واستشهد وهو فى مقتبل حياته لأنه كان من الصف الثانى من صغار العلماء الذين تزعموا الثورة .

وأما الشيخ (سليمان الجوسقى) [٨٨] كان عالما من علماء الأزهر تولى المشيخة على زاوية العميان بعد وفاة الشيخ الشبراوى ، وقد قادهم بالشهامة والصرامة والجبروت وقد نظم جماعة المكفوفين (العميان) وجعل منهم قوة ارهابية تخشى صولتها فى القاهرة والأرياف حتى أصبح بفضل هذا التشكيل المرعب من « أعيان الصدور المشار اليهم فى المجالس تخشى سطوته وتسمع كلمته ، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا ولم يزل حتى حمله التفاخر فى زمن الفرنسيس على توليه كبر اثارة الفتنة وقتل فيمن قتل بالقلعة ولم يعلم له قبر » [٨٩] كما يقول الجبرتى .

وكان الشيخ (اسماعيل البراوى) ابن أحمد البراوى الشافعى وابن أخى الشيخ عيسى البراوى الشهير الذكر ، تصدر بعد وفاة والده لالقاء الدروس « وكان قليل البضاعة الا أنه تغلب عليه النباهة

---

(٨٨) نسبه الى (الجوسق) قرية من أعمال بلبيس بمحافظة الشرقية .

(٨٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٦٤ .

واللسانه والسلاطة والتــداخل وذلك هــو الذى أوقعــه فى حبــائل الفرنساوية وقتل مع من قتل شهيدا ولم يعلم له قبر » [٩٠] •

ويلاحظ من ترجمة الجبرتى لهؤلاء العلماء الخمسة أنهم يشتركون فى صــفة واحدة وهى المقــدرة على مخاطبــة الجمــاهير بفصاحتهم والسيطرة عليهم ، فهؤلاء فى الواقــع كانوا خطبــاء الثورة والداعين لها لمــا لهم من نفوذ كبير على جمــاهير القاهرة ولقــد بذلوا دماءهم زكية فى سبيل عزة وطنهم والزود عن حياضه ، وضربوا أروع الأمثلة فكانوا شهداء أول ثورة قامت فى وجهو المستعمر فى العصر الحديث •

ويلاحظ أن الجبرتى لم يترجــم الا لخمســة من علمــاء الأزهر الشهداء ، وقــد ذكرنا من قبل أن الشــيخ عبد الله الشرقاوى قرر أن الذين استشهدوا نحو ثلاثة عشر عالما من علماء الأزهر « والتفسير الذى يساق فى هــذا الصدد لاغفــال الجبرتى ترجمــة باقى علماء الأزهر الشهداء هو أنه اكتفى بخمسة منهم ، كى يفسح لنفسه مجالا لترجمة الشهداء الآخرين مثل السيد محمد كريم حاكم الاسكنــدرية الوطنى ، والأمراء المماليك الذين سقطوا فى معركة امبابة ومما يؤيد هذا التفسير أن الجبرتى لم يترجم الا لثلاثة من الأمراء المماليك ضحايا معركة امبابة مع أنهم تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح ••• وعلى ذلك فان علمــاء الأزهر الخمسة الذين خصهم الجبرتى بترجمتــه كانوا يشــكلون أكبر نسبة فى تراجم وفيــات سنة ١٢١٣ هـ (١٥ يونية ١٧٩٨ — ٤ يونية ١٧٩٩) وكانت نسبة تراجم مجتمع العلماء تفوق نسبة تراجم مجتمع العسكريين » [٩١] •

أما ماتكبده الشعب من خسائر فى الأروا حفكانت خسائر فادحــة ارتفع فيهــا عدد الضحايا الى أربعــة آلاف شهيد كما ذكر ريبو مؤرخ

(٩٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٦٥ .
(٩١) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الأزهر ص ١٥١ .

الحملة ، أما بونابرت فقد قرر فى التقرير الذى وضعه عن ثورة القاهرة الأولى أن عــدد الضحايا المصريين يتراوح بين ألفى قتيل وبين ألفين وخمسمائة قتيل [٩٢] وقــلا بلغت خسائر الجانب الفرنسى نحو ثلثمائة قتيــل ، ومع هــذا يقول الــكتاب الفرنســيون « ان بونابرت عامل المصريين بعــد الثورة بالرفق ، وأبدى لهم من التســامح والتســاهل شيئا كثيرا » [٩٣] .

وتابعهم فى ذلك بعض الــكتاب الغربيين أمثال كرستوفر هيرولد الذى يقول « وأصبح صفح بونابرت عن ثوار القاهرة موضوعا محببا للرســامين والمثــالين خلال حكم نابليون » [٩٤] ثم يقــول « ومع أن بونابرت لم يطلق العنان بالضبط لفضيلة الرحمة ، فانه لايمكن القول أنه خرق روح العفو الذى أصــدره » فماذا كان يريد هؤلاء بعد قتــل علماء الأزهر بالجملة والقاء جثثهم فى النيل كأحط المجرمين بلا محاكمة؟ وبعد ازهاق أرواح أكثر من ثلاثة آلاف نسمة » ثم ماهو أكبر من ذلك من خرق حرمة المعهد الاســلامى المقــدسة وجعله اصــطبلا للخيول ومرحاضا للجنود ماذا كنتم تريدون أن يفعل بالمصريين أكثر من هــذا يادعاة المــدنية وأنصار العــدل والانسانية أو حمــلة راية « الحرية والمساواة والاخاء » [٩٥] ولــكن بونابرت كان أصــدق من هؤلاء الذين يتحدثون عن رأفتــه بقوله « ان الرأفــة فى ذاتهــا فضــيلة تافهــة حقيرة مالم ترتكز على دوافع سياسة » [٩٦] .

---

(٩٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٩٣) أحمد حافظ عوض — مرجع سبق ذكره صص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٩٤) بونابرت فى مصر ٢٧٠ .

(٩٥) أحمد حافظ عوض — مرجع سبق ذكره ص ٢٥٩ .

(٩٦) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ٢٧١ .

طـابع الثورة :

لعلنا نلاحظ بعد هذا العرض لثورة أكتوبر ١٧٩٨ أنها كانت ثورة دينيـــة نظمها رجال الأزهر ضـــد المستعمرين الفرنسيين معلنين فيهـــا رفضهم للوجود الفرنسى ، وذلك الرفض الـــذى نبع أساسا من واقع الشعور الدينى الذى كان بمثـــابة الصخرة التى تحطمت عليهـــا آمال بونابرت فى اقامة مستعمرة له على أرض مصر .

وعلى الرغم من أن مجلس الثورة كان بزعامة الشيخ الســـادات وعضـــوية رجال الصف الثـــانى من العلماء ، واتخذوا من الأزهر مركزا لتنظيم ثورتهم ، وقام الأزهريون بالدور الرئيسى فيهـــا ، تخطيطا ، وزعامة ، ومشاركة فى أحداثهـــا ، على الرغم من ذلك كله ، يحاول فريق من الباحثين (٩٧) القول : « بأن ثورة القاهرة ضـــد الفرنســـيين كانت ثورة قومية وطنيـــة لم يكن للدين ورجاله نفوذ كبير فيهـــا أو أثر خطير فى توجيهها » (٩٨) .

ان من يقرأ الجبرتى وغيره من مصادر الحملة الفرنسية يرى ضعف هذا الرأى الذى يطلق عشوائيا دون دراسة أو تمحيص، فالجبرتى يقول عن أحداث اليوم الأول للثورة (الأحد ٢١ أكتوبر) أنه كان من شعارات الكتيبة الأولى للثورة ، « نصر الله المسلمين .. الله ينصر الاسلام »(٩٩)

---

(٩٧) على رأس هـــذا الفريق الأستاذ الدكتور (محمد أنيس أستـــاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة ، وقـــد ذكر هذا الرأى فى الندوة الدوليـــة لتاريخ القاهرة المنعقدة فى القاهرة فى مارس وابريل ١٩٦٩)

(٩٨) د. سعيد عبد الفتـــاح عاشور — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥١ مايو ١٩٦٩ مقال عن البحوث التى قدمت فى النـــدوة الدوليـــة لتاريخ القاهرة والخاصـــة بتـــاريخ الأزهر ص ١٧ .

(٩٩) كانت بقيـــادة السيد بدر المقـــدسى الذى كان يتقدم الثوار على صهوة جواده ، وقـــد نجا السيد بدر المقدسى من عقـــاب الفرنسيين بعـــد الثورة بهروبه الى الشام (الجبرتى تاريخ مدة الفرنسيس بمصر — ص ٣٤)

ويذكر الجبرتى أن فتوى رجال الأزهر قد انطلقت بين الثوار بوجوب الجهاد الدينى ضـــد الفرنسيين فيقول « أقبل رجل عطـــار يتزيا بزى الفقهاء وهو ينـــادى فى الناس ويقول : ••• الله أكبر يامسلمين قـــد أمركم العلماء بقتل المشركين فاســـتعدوا ياجـــدعان وأضربوا منهم كل بنـــان » (١٠٠) والمعلم نقولا ترك ، وهو معاصر أيضا لأحداث الثورة يقول فى مذكراته عن أحداث اليوم الأول للثورة بأن أحد الشيوخ الصغار طاف بشوارع القـــاهرة ينـــادى الشعب بقوله : « ان كل مؤمن موحد بالله عليـــه بجـــامع الأزهـــر ، لأن اليوم ينبغى لنـــــا أن نغـــــازى فى الـــكفار » (١٠١) •

من تلك النصوص نتبين أن الثورة كانت دينيـــة أعلن فيها علماء الدين من رجال الأزهر الجهـــاد الدينى ضد المستعمرين ، وكان مركز تجمعهم هو الأزهر ويجمع على هـــذه الحقيقـــة فـــريق من المؤرخين والبـــاحثين وغيرها ممن عرفوا بالأصـــالة الفكرية ، وســـلامة الحكم والتقـــدير •

وفى مقدمة هؤلاء الباحثين أستاذنا الدكتور عبدالعزيز الشناوى الذى رد على هـــذه الآراء بقوله : « ينسى هؤلاء الباحثون أن المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر كان مجتمعا دينيا متزمتـــا ، تغلب على أفراده ثقافـــة دينيـــة ، وتسيطر عليـــه آراء دينية ، وتوجهه دوافع دينيـــة » (١٠٢) ثم أضاف سيادته بأن الخطأ يرجع فى تقـــدير هؤلاء الباحثين فى أنهم « يتحسسون الأسانيد فى عبارات ينتحلونها من تاريخ الغرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولا يقيمون وزنا للفروق الصارخة بين المجتمع الاســـلامى فى مصر فى القرن الثامن عشر ، وبين

---

(١٠٠) المصـــدر الســـابق — ص ٣٥ •

(١٠١) المعلم نقولا ترك — مذكرات نقولا ترك ص ٢٨ النص العربى •

(١٠٢) صـــور من دور الأزهر ص ١٥٦ •

المجتمعات الأوربيـــة فى القرنين التاسع عشر والعشرين » [١٠٣] وبعد أن استعرض سيادته شعارات الثوار التى سلف ذكرها قرر بأنها تغاير الهتـــافات التى عرفتهـــا مصر فى القرن العشرين بوجـــه خاص مثل : « مصر للمصريين » أو « يحيى الاستقلال التـــام » ولم يهتف الثوار بحياة السيد محمد السادات زعيم الثورة ، أو باسم أى زعيم مصرى آخر ، لأن أى زعيم مصرى مهما بلغت مكانته ومهابتـــه ، ونفوذه فى نفوس الجمـــاهير كان يتضـــاءل مركزه ، اذا قورن بسلطـــان الدولة العثمانية ، على أساس أنه سلطان المسلمين [١٠٤] .

والأستاذ محمد شفيق غربال يذكر فى بحث له « ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين وقام الفلاحون فى الأقاليم كلما اتيحت لهم الفرصة . وقـــد ذكرنا من الأسباب مايكفى لتفسير هذا الـــكرة ، دون أن نلجأ الى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب فى القرن التاسع عشر ، والتاريخ الصحيح لا يجد فى الفتن الشعبية بالقـــاهرة والأقاليم الا باعثا ايجابيا واحدا هو الرغبة فى العودة لمـــا ألفه الناس ، ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالا ، وانما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانيـــة [١٠٥] .

ويقرر الأستاذ « أندريه ريمون » [١٠٦] ان الاسلام لم يكن أبدا مجرد عقيدة ، وانما كان أيضا أسلوبا للحيـــاة الحرة الـــكريمة ، وأنه من المبالغـــة أن ننكر أثر العامل الدينى فى كراهية المصريين لبونابرت وحكمه ومقاومتهم العنيـــدة للحمـــلة الفرنسية ، وهى المقـــاومة التى

---

(١٠٣) المرجع الســـابق صص ١٥٦ — ١٥٧ .

(١٠٤) المرجع الســـابق — ص ١٥٨ .

(١٠٥) محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب ، والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ القاهرة ١٩٣٢ — ص ١٥ .

(١٠٦) أندريه ريمون : مدير المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق وعضو الندوة الدولية لتاريخ القاهرة .

وجدت زعامة قوية لها فى رجال الأزهر وعلمائه » ثم أضاف الأستاذ ريمون : « ان هذه الاعتبارات لم تغب مطلقا على فطنة بونابرت فأدرك أثر سلطان الدين على عامة المصريين ، وحاول أن يتودد الى علماء الأزهر ليتقرب عن طريقهم الى الشعب المصرى • ولكن المشايخ والعلماء أظهروا عنادا كبيرا نبع أساسا من واقع الشعور الدينى ، لأن رابطة الدين فى ذلك العصر كانت تفوق أية رابطة أخرى وطنية أو قومية وعلى هذه الصخرة بالذات تحطمت آمال بونابرت فى اقامة دولة له على أرض مصر » (١٠٧) •

نخلص من هذا الى تأكيد القول بأن ثورة القاهرة الأولى كانت ثورة دينية ، نظمها رجال الأزهر ، معلنين رفضهم للوجود الاستعمارى الفرنسى ، بعد أن رفضوا شارته الاستعمارية ، وأفكاره الدخيلة كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، وكان هدفهم من ذلك هو العودة الى حكم الدولة العثمانية التى كانت فى نظرهم دولة الاسلام الكبرى وسلطانها هو سلطان المسلمين ، ولا يعتبرون وجودها فى ديارهم يمثل استعمارا من دولة أجنبية عنهم ، لأن وشيجة الدين ابان هذه الأحداث كانت أقوى الروابط التى تجمع حولها المسلمون فى ظل الخلافة العثمانية ، ولم تكن العاطفة القومية أو العاطفة الوطنية قد ظهرتا بعد •

كما يجب أن نلاحظ أن ثورة القاهرة ، كانت أيضا ثورة نظيفة ، فعلى الرغم مما فعله الأقباط من التعاون مع المستعمرين منذ دخولهم البلاد ، الا أن الثورة استهدفت المستعمرين فقط ، ولم يتطاول الثوار

---

(١٠٧) د. سعيد عبد الفتاح عاشور مرجع سبق ذكره ص ١٧ وقد سجل سيادته رأى « أندريه ريمون » الذى قال به أثناء المناقشات التى دارت فى الندوة الدولية لألفية القاهرة حول طابع ثورة القاهرة الأولى وكان تأييدا للرأى الذى جاء فى البحث الضافى الذى تقدم به الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوى والذى سبقت الاشارة اليه .

فيها على اخوانهم الأقبـــاط ولم تقع اعتداءات على أموالهم باستثناء ما أحدثه العـــامة بحارة الروم الجوانيـــة من نهب وسلب لم يصـــب النصـــارى وحدهم وانما أصـــاب المسلمين المجاورين لهم أيضا ، وهذه أمور غالبـــا ماتحدث ابان الثورات والاضطرابات ولا يمكن تلافيها ، ولم تكن باشارة زعماء الثورة وانما كانت كما وصفها الجبرتى خروجا عن الحد (١٠٨) •

وكان الموقف العـــام لزعمـــاء الثورة من اخوانهم الأقبـــاط ، هو التعاطف ، وكانت ثورة أكتوبر بذلك تختلف عن ثورة القاهرة الثانيـــة (٢٠ مارس ١٨٠٠) التى وقعت فيهـــا اعتداءات طائفية مؤسفة « ومرد هذا الاختلاف الى أن قيـــادة الثورة الأولى كانت مصرية خالصة تمثلت فى رجال الأزهر ، بينما كانت قيادة الثورة الثانية يتقاسمها العثمانيون والمماليك والمصريون ، وكان موقف الزعماء المصريين ••• موقفا سليما ونبيلا فقـــد وجهوا الشعب لمحـــاربة الفرنسيين دون ســـواهم وبدت منهم صـــور رائعـــة من التكافل الاجتماعى ، أما العثمانيون والمماليك مثل ناصف باشا ، ونصوح باشا ، وابراهيم بك ومحمد بك الألفى فكانوا يأمرون الثوار بالاعتـــداء على الأقبـــاط » (١٠٩) وهو أمر لم يرض عنه زعماء الثورة من المصريين •

وكانت ثورة القاهرة ثورة انسانية ظهر فيهـــا الطـــابع الانسانى واضحا ، ولم يحاول الثوار فيهـــا التنكيل بأعدائهم على غرار مايحدث فى جميع الثورات « وقـــد ظهر هـــذا الطابع الانســـانى أكثر مايكون

---

(١٠٨) قال الجبرتى فى وصـــفه لهجوم العـــامة على حارة الروم الجوانيـــة « وخرجت العـــامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد وامتدت ايديهم الى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانيـــة ونهبوا دور النصـــارى الشوام والأروام وما جاورها من بيوت المسلمين » — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٦ .

(١٠٩) د. عبـــد العزيز الشناوى — صـــور من دور الأزهر صص ١٦٣ — ١٦٤ .

ظهورا بين أفراد الطبقــة المتوسطة من سكان القاهرة ، فقد أظهروا فى أحلك ساعات الثورة عواطف نبيلة ومشاعر سامية حين آووا فى بيوتهم الفرنسيين العزل من السلاح ، وأضفوا عليهم الحمــاية ، وقدموا لهم ماكانوا فى حاجة اليه من طعام » (١١٠) .

نتــائج الثورة :

تمخضت ثورة الأزهر التى تعرف تاريخيا بثورة القاهرة الأولى — عن نتائج مهمة كان من أبرزها أن التنــاقض بين المستعمرين والمصريين بدأ يظهر جليــا وأدرك الفرنسيون بما لايدع مجالا للشــك ، استحالة ايجاد جو من التعايش السلمى بينهم وبين أهل البلاد وتملكتهم الخشية بالشعور بالخوف من الشعب المصرى ، فأخــذوا حذرهم ، وبدأوا فى تجميع قواتهم فى حى الأزبكيــة بدلا من بعثرتهــا فى جميع نواحى القاهرة ومن ثم « أمروا بقيــة السكان على بركة الأزبكيــة وما حولها بالنقلة من البيوت ليسكنوا بها جماعتهم المتبــاعدين منهم ليكون الــكل فى حومة واحدة » (١١١) .

ويعلق الجبرتى على هــذا الوضع الجــديد بقوله : « وذلك لمــا داخلهم من المسلمين ، حتى أن الشخص منهم صار لايمشى بدون سلاح بعد أن كانوا من حين دخولهم البلد لايمشون به أصــلا الا لغرض .. وتنــافرت قلوبهم من المسلمين وتحذروا منهم ، وانكف المسلمون عن الخروج والمرور بالأســواق من الغروب الى طلوع النهــار » وزادت مراقبة الفرنسيين للأزهر لأنهم أدركوا أنه مكان لتجمع الثوار .

وكان من نتائج الثورة أن عطل الفرنسيون الديوان بعد اخمادها، وانصرفوا الى تحصين المــدينة خوفا من وقوع ثورة أخرى ، وبعــد

---

(١١٠) انظر تفصيلات عن هــذه المشاهد فى الأمثــلة التى أوردها الأستاذ الدكتور الشناوى فى المرجع السابق صص ١٦٤ — ١٦٧ .

(١١١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣١ .

أن هدأت الأحوال رأى بونابرت أن مقتضى السياسة أن يزيد فى التودد الى المصريين فأعاد انشـــاء الديوان ، ولـــكنه بدأ يدخل فيـــه بعض العنـــاصر الموالية له من المصريين ومن الأجانب الموجودين فى مصر ، أى بشكل مختلط من المشايخ والتجار والأجانب •

كما كون بونابرت كتيبة من الجنود المرتزقة من طائفة المغاربة(١١٢) الموجودين بمصر ، وأخرى من المرتزقـــة الأروام المقيمين بالقـــاهرة ، والذين أظهـــروا ولاءهم للجيش الفرنسى (١١٣) وأراد بونابرت بـــذلك أن يوفر بعض الجنود الفرنسية ، وأن يستخدم هؤلاء الجنود المرتزقة فى قمع الثوار والخـــارجين على الفرنسيين ، فحـــدث منهم ايذاء كثير للشعب •

وكان من النتـــائج الايجابيـــة أن تعـــلم المصريون أن الفرنسيين لايمكن طردهم بالثورة العزلاء ، فلابد من السلاح لأنهم قاتلوا الفرنسيين حتى نفذت الذخيرة ، وهو الأمر الذى سوف يعمل الثوار حسابه فى الثورة القادمة ، حيث اخترعوا المدافع وركبوا البـــارود كما ســـيأتى بيـــان ذلك •

---

(١١٢) كانت بمصر فى هـــذه الأثنـــاء جالية كبيرة من المغاربة يرجع أصلهم الى سكان ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وكانوا يعملون بالتجارة وخاصـــة تجارة الفحم ، كما كان لهم رواق بالأزهر له نفوذ كبير ، وكان رئيسهم هو (عمر القلقجى) على عهد الفرنسيين الذى (توسط لدى بونابرت المغـــاربة الفحامين ، وجمع منهم ومن غيرهم عـــدة وافرة وأعطاهم سلاحا وآلات حرب ورتبهم عسكرا ، ورئيسهم عمر المذكور) ودربهم الفرنسيون على حمل السلاح واستخدامه — المرجع السابق ج ٣ ص ٢٩ •

(١١٣) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ١ ص٣٠٥

بونابرت يستكتب العلماء بعض المستندات لاعادة الهدوء :

بعد قمع الثورة ، والجلاء عن الجامع الأزهر ، طلب بونابرت من العلماء أن يكتبوا منشورا الى أهل القاهرة يناشدونهم فيه أن يلزموا الهدوء والسكينة ، وألا يحركوا الفتنة ، ولا يطيعوا أمر المفسدين ، وأن يشتغلوا بأسباب معايشهم وأمور دينهم ، وفيه مديح واطراء لأمير الجيوش بونابرت ، وقد صدر هذا المنشور فى ١٤ جمادى (١١٤) الأولى سنة ١٢١٣ هـ (٢٤ أكتوبر ١٧٩٨) .

بعد هذا المنشور لم تهدأ الأحوال كما أراد بونابرت ، لأن فكرة الثورة والمقاومة كانت قد عمت الأقاليم ، فقد وردت مكاتبات على يد رسول من الشام فى ٢٤ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، احداها : رسالة من أحمد باشا الجزار والى عكا ، وثانيها من أبى بكر باشا ، ورسالة أخرى من ابراهيم بك الى المشايخ فيها لعن لطائفة الافرنج ، والحط من شأنهم ، وذكر عقيدتهم الفاسدة ، وكذبهم ، فلما علم بونابرت بأمرها من مصطفى بك كتخدا ، خاف من تأثيرها على المشايخ وعلى الشعب ، فاستكتب العلماء منشورا آخر الى أهل الأقاليم من العربان والفلاحين ، يحذرونهم فيه من مساعى زعماء المماليك لتحريك الفتنة ، ويكذبون مزاعمهم بأنهم يعملون من قبل السلطان ، وينصحونهم بعدم معارضة العساكر الفرنساوية ، ويمتدحون الفرنسيين ويصفونهم

---

(١١٤) ذكر الجبرتى أن تاريخ هذا المنشور أول جمادى الأخرى ، وهذا خطأ ، لأن اول جمادى الأخرى يوافق ١٠ نوفمبر ، ولا يمكن أن يكون تاريخ المنشور ١٠ نوفمبر لأنه مطبوع فى جريدة (كوريييه دى ليجبت) بالعدد الصادر فى ٣١ أكتوبر ١٧٩٨ أى قبل ١٠ نوفمبر بعشرة أيام ، ومذكور فى الصيغة الفرنسية المنشور ان تاريخه الهجرى ١٤ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ وهذا يوافق ١٤ أكتوبر ١٧٩٨ ، فتاريخ المنشور هو اذن ١٤ جمادى الأولى لا أول جمادى الأخرى كما يقول الجبرتى (عبدالرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٣٠٨) .

بأنهم يحبون المسلمين ، ويمتدحون أمير الجيوش بونابرت ، لأنه تعهد بألا ينازع أحدا فى دين الاسـلام ، وأن يرفع سائر المظالم عن الرعية، ويزيل ما أحدثه الظلمـة من المغـارم ، فلا تعلقوا آمالـكم بابراهيم ومراد ، وارجعوا الى مولاكم مالك الملك وخالق العبـاد ، فقد قال نبيه « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم » (١١٥) .

وقـد يرى البعض أن علمـاء الأزهر واكبوا المستعمر الفرنسى باصـدار هذين المنشورين لمـا فيهما من عبارات ظاهرها الملق والنفاق، لـكن الحقيقـة أن هـذين المنشورين صـدرا عن المشايخ تحت تأثير الظروف ، بل انهما أمليا عليهم تحت تأثير الضغط والارهاب ، ولم يجد العلماء مفرا من النزول على حكم القوة القـاهرة تمشيا مع سياسـة مداراة الفرنسيين ، وهذا ظاهر من عبارة الجبرتى عن طريقة تحريرها، فالجبرتى يقول عن المنشور الأول : « واستهل شهر جمـادى الأخرى بيوم السبت سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) وفيه كتبوا عـدة أوراق على لسان المشايخ » (١١٦) فقوله كتبوا اشارة الى الفرنسيين .

ويقول عن المنشور الثانى : « وفيـه كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخا للبـلاد وألصقوا منها بالاخطاط والأسواق وذلك على لسان المشايخ أيضا » (١١٧) وتظهر اشارة الجبرتى واضحة الى أن أمثال هذه المنشورات أمليت على المشايخ تحت تأثير الضغط والارهاب عند حديثه عن البيـانات التى نشرت باسم الديوان أثنـاء الحملة على سوريا - لمـا وردت الأخبار باحتـلال الفرنسيين يافا ، وجاءت رسالة بونابرت بتفاصيل هـذا الاحتلال حيث يقول : « اجتمع أعضـاء الديوان فقرأ عليهم تلك الرسائل بعد تعريبهـا ، وترصيفها على هذه الـكيفية ، وهى

---

(١١٥) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ صص ٣١ — ٣٢ .

(١١٦) المرجع السابق صص ٣١ — ٣٢ .

(١١٧) المرجع السابق صص ٣١ — ٣٢ .

على لســان رؤســاء الديوان الى الــكافة ، وذلك بالزامهم وأمــرهم بذلك » (١١٨) فهنا نرى عبارة الجبرتى صريحة فى الالزام والضغط .

وكان الشيخ محمد المهدى هو الــذى يتولى صــياغة منشورات بونابرت باللغة العربيــة بعد أن تقوم بترجمتهــا الى العربيــة أجهزة الترجمة الملحقة بالحملة ، وقــد ذكر الجبرتى ذلك صراحة فى مذكراته التى حصلنا عليها أخيرا (١١٩) فقال فى نهــاية المنشور الذى كتب على لسان المشايخ الى أقاليم مصر : « وذلك انشاء كاتب الديوان الشيخ محمد المهدى » (١٢٠) ثم عاد الجبرتى فحذف هذه الاشارة عندما بيض مذكراته فى كل من عجائب الآثار ومظهر التقــديس ، واكتفى بالاشارة الى الشيخ محمد المهــدى اشــارة غامضة يفهمها اللبيب ، فذكر عن المنشور الذى أذاعه بونابرت على لسان أعضاء الديوان عقب عودته من الحملة على ســوريا « أنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » وهو يقصد الشيخ المهدى ، وتتفق المراجع الفرنســية مع الجبرتى فى أن الشيخ المهــدى هو الواضع لمنشور بونابرت فى قالبه العربى ، فقــد ثبت فى رســالة بعث بهــا بونابرت من يافا الى « بوســليج » مدير الشئون المالية بالقاهرة أثنــاء الحملة على سوريا يقول فيها « عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشــورات التى يبعث بهــا فانتور VENTURE الى الديوان وأن تضيفوا اليهــا المحسنات والتنميقات التى يرى الشيخ المهدى ادخالها وأن تنشروها فى أنحاء مصر » (١٢١) .

والمغزى الذى يهمنــا هنــا ، هو أن المحتلين ادراكا منهم لزعامة علماء الأزهر الروحية والشعبية يومئذ ، قــد لجأوا الى هــذه الزعامة

---

(١١٨) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٥١ .

(١١٩) تاريخ مدة الفرنســيين بمصر من ســنة ١٢١٣ هـ الى ســنة ١٢١٦ هـ .

(١٢٠) المصــدر الســابق ص ٤٦ .

(١٢١) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ١ ص٣١١ .

يحاولون استـــغلالها فى تهـدئة الشعب وحمـله على التزام السكينة والخضوع ، أى أنهم استغلوا منزلة العلماء فى تهدئة الشعب •

اعادة تشكيل الديوان :

ظل ديوان القاهرة معطلا بعد ثورة أكتوبر ١٧٩٨ زهاء شـــهرين، ولم يفكر بونابرت فى اعادة تشكيله الا فى شهر ديسمبر عندما عزم على الخروج بحملته الى الشام ، وتبين له من تجربة تعطيل الديوان أن لا سبيل الى حكم الشعب دون وســـاطة زعمـــائه وكبرائه • وتجـــدد الشعور لدى بونابرت بضرورة احداث هيئـــة شبه نيابيـــة تكون سبيل التفاهم بينـــه وبين الشعب المصرى فأعلن عندئذ تشكيل الديوان فى منشور أذاعه على القاهريين فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ أعلن فيـــه تشكيل الديوان على نطاق أوسع من الديوان القـــديم ، وجعل أعضاءه ستين بدلا من عشرة أعضـــاء •

وكان يتألف هذه المرة من ديوانين :

الديوان العمومى : أو الـــكبير من ســـتين عضـــوا يمثلون سكان القاهرة وكان هذا الديوان ينعقد بدعوة من حاكم العاصـــمة ، وأدخل فيـــه الى جانب العلماء ممثلين للطوائف الأخرى من الجند والتجار ، ومشـــايخ الاخطـــاط والأقبـــاط والأجانب ، بعـــد أن أثبتوا ولاءهم للفرنسيين ابان أحداث الثورة ، وبلغ عدد العلماء فيه ١٤عضوا معظمهم من شيوخ الأزهر وهم :

١ — الشيخ عبد الله الشرقاوى	٢ — الشيخ محمد المهدى
٣ — الشيخ مصطفى الصاوى	٤ — الشيخ موسى السرسى
٥ — الشيخ محمد الأمير	٦ — الشيخ سليمان الفيومى
٧ — الشيخ أحمد العريشى	٨ — الشيخ ابراهيم المفتى
٩ — الشيخ صالح الحنبلى	١٠ — الشيخ محمد الدواخلى

١١ — الشيخ مصطفى الدمنهورى ١٢ — الشيخ خليل البكرى
١٣ — السيد حسن الرفاعى ١٤ — الشيخ الدمرداش (١٢٢)

أما الديوان الخصوصى : أو الديمومى كما سماه الجبرتى — فيتكون من ١٤ عضوا ، يختارون من بين أعضاء الديوان العمومى ، وينعقد هذا الديوان يوميا فى القاهرة وبه مندوب فرنسى هو جلوتيه Glautier أحد أعضاء المجمع العلمى ، وكان من بين أعضاء الديوان الخصوصى من علماء الأزهر خمسة وهم :

١ — الشيخ عبد الله الشرقاوى ٢ — الشيخ محمد المهدى
٣ — الشيخ مصطفى الصاوى ٤ — الشيخ سليمان الفيومى
٥ — الشيخ خليل البكرى

ورتب الفرنسيون لأرباب الديوان الخصوصى مرتبات شهرية تدفع لهم نظير تفرغهم لمصالح العامة ، وغير ذلك من الأمور . وقد انتخب أعضاء الديوان الخصوصى الشيخ الشرقاوى رئيسا ، والشيخ المهدى سكرتيرا .

وقد أورد لنا الجبرتى تعليقا على المنشور الذى أعلنه بونابرت لتأسيس هذا الديوان ، فيقول : « وقد أوردت ذلك ، وان كان فيه بعض طول للاطلاع على مافيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر وهى مقولة على لسان بونابرت كبير الفرنسيس » (١٢٣) .

---

(١٢٢) عبدالرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص١٦ .
(١٢٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٨ .

خطأ وقع فيــه بونابرت :

والذى دعا الجبرتى الى أن يعلق على هــذا المنشور بهذا التعليق هو ماوقع فيــه بونابرت من خطأ فاحش ، عندما أوغل فى هذا المنشور ايغالا بعيــدا فى ادعاءاته اذ قال : « واعلموا أيضا أمتكم أن الله قرر فى الأزل هلاك أعــداء الاســلام وتكسير الصلبان على يدى ، وقدر فى الأزل أنى أجىء من المغــرب الى أرض مصر لهــلاك الذين ظلموا فيهــا » وادعى أن الذى يعارضــه انما يعارض مقادير الله ســبحانه وتعالى فيقول : « ان العاقل من يعرف أن مافعلناه بتقــدير الله تعالى وارادته وقضــائه ، ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة » ثم زعم : « أن القــرآن العظيم صرح فى آيات كثــيرة بوقــوع الذى حصــل » [١٢٤] • وأخيرا زعم أنه قادر على معرفة مافى نفس الشخص عنــدما يراه ، وأن الذى يفعــله ويحكم به على النــــاس فهــو حكم الهى لايرد •

ولا حاجــة بنــا الى القول بأن هــذا المنشــور ملىء بالــكذب والبهتان الظاهر البطلان ، الأمر الذى جعل الجبرتى يعلق عليه سلفا بما سبق ، ولقــد كان بونابرت واهما فى ظنــه بأن شعب مصر المسلم وعلى رأســه علماء الأزهر ، وصــلت بهم السذاجــة والغفلة الى حد يصدقون فيــه أمثال هــذه الادعاءات بعلم الغيب وغيرها من الأمور ، وتوجد بالنص الفرنسى لهــذا المنشور فقرة أشد ايغالا فى الادعاء ، ولم ترد بالنص العربى الذى أورده الجبرتى وهى : « ولــكن يأتى وقت يرى فيــه جميع النــاس أننى أهتدى بأوامر من السماء وأن كل جهود الانسان لاتغنيه شيئا ضدى » [١٢٥] •

---

(١٢٤) المصدر السابق — ج ٣ صص ٣٨ — ٣٩ •

(١٢٥) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ٢٧٥ •

والذى نلاحظه فى تأليف الديوان الجـديد ، هو أن علماء الأزهر كان لهم نصيب كبير فى عضويته فضـلا عن رياسته ، وأنه على الرغم مما قاموا به من ثورة هادرة أحرجت مركز الاستعمار الفرنسى بمصر ، على الرغم من ذلك كله فكان بونابرت يحسب لعلماء الأزهر ألف حساب دائما نظرا لمـكانتهم ونفوذهم بين مواطنيهم ، وان حوادث الثورة ، والدور الذى لعبـه الأزهر فيهـا جعلت بونابرت يرى أن من الأفضل وضع الأزهر وهيئـة العلماء الـكبار تحت المراقبة ، وكانت أفضـل وسيلة لذلك هى اشراكهم فى جلسـات الديوان الذى أعاد تشكيله .

العلماء وحملة بونابرت على الشام :

علم بونابرت بأن الأتراك يستعدون للهجوم على مصر ، كما رأى أنه لامفر من القضـاء على ابراهيم بك وجماعته الذين فروا الى الشام وظلوا مصـدر شر دائم له بما يرسلوه من مكاتبات تعكر له صفو حياته بالقاهرة ، فرأى أن من مصلحته أن يبـادر بالهجوم على الشام لأن الهجوم فى نظره خير وسيلة للدفاع .

وليس من موضوعنا أن نتتبع أحداث هذه الحملة ، وان مايهمنا فى هذا الصدد ماقام به بونابرت عنـدما عزم على الخروج الى الشام فى ١٠ فبراير ١٧٩٩ م (٥ رمضـان سـنة ١٢١٣ هـ) أراد أن يفهم المسلمين فى سـوريا أنه على اتفاق مع المسلمين فى مصر ، فاستصحب معه بعض المشايخ من أعضاء الديوان وهم : الشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد الدواخلى ، والشيخ أحمد العريشى ، واختار معهم مصطفى كتخـدا أمير الحج وأدهم أفنـدى بجدقش زاده قاضى قضاة مصر .

بيد أن هؤلاء المشايخ لم يرضخوا لتحقيق أهداف بونابرت الخبيثة فتيقظوا لها وتمردوا على المضى معه الى الشام • ويلاحظ أن بونابرت قسم المشايخ علماء الأزهر من أعضاء الديوان الى قسمين: قسم تركه فى القاهرة وهم من يثق فى هدوئهم وهم الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ خليل البكرى والشيخ موسى السرسى • وقسم أخذه معه : وهم الشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد الدواخلى ، والشيخ أحمد العريشى •

فهو من ناحية : يضمن عدم تجمعهم بالقاهرة ، ومن ناحية أخرى أراد أن يفهم المسلمين فى سوريا أنه على اتفاق مع المسلمين فى مصر بدليل مصاحبة هؤلاء المشايخ الاجلاء له فى غزوته •

تمرد المشايخ بقيادة أمير الحج :

كان بونابرت قد رسم للمشايخ أن يسبقهم بمرحلة ، فلما وصل الى الصالحية كانوا هم فى بلبيس ، ولما جاوز بونابرت الصالحية ، طلب من المشايخ أن ينتقلوا اليها • « فبلغهم وقوف العرب بالطريق فخافوا من المرور ، فذهبوا الى — بلدة — العرين (١٢٦) فأقاموا هناك » (١٢٧) وفى هذه الأثناء وصلت مصطفى كتخدا أنباء من أحمد باشا الجزار ، ومن رئيسه السابق أبى بكر باشا — والى مصر قبل الحملة — يخبرانه فيها أن الجيش العثمانى قادم لتخليص مصر من جهات شتى ، وخيل له أن بونابرت قد ذهب بجيشه الى سوريا ، وأنه يستطيع بما له من مركز امارة الحج ، ومن صفة الوكالة عن والى الدولة فى مصر أن يثير على الفرنسيين حربا عوانا ، فأثر على القاضى ، كما أثر على المشايخ •

---

(١٢٦) العرين : قرية تابعة لمركز فاقوس شرقية وتقع بين ابو كبير وفاقوس •

ويؤخذ من عبـارة الجبرتى أن الذى طاوعه فى ذلك الشـيخ سليمان الفيـومى وعاد الثـلاثة الآخرون الى القـاهرة — الصاوى والعريشى والدواخلى — لأنهم كما يقول الجبرتى خافوا عاقبة الأمور .

والراجح أن هؤلاء الثـلاثة عادوا الى القـاهرة باتفـاق مع مصطفى كتخدا وأن عودتهم كانت من أجل اعلام أهل القـاهرة بأمر المـكاتبات السالفـة ، وما عزم عليه مصطفى كتخدا من الثورة ، وكان تخلف الجميع يتسق فى مخطط واحـد هـدفه التمرد على المضى مع بونابرت الى الشـام ، من أجل أن يفوتوا عليـه تحقيق هدفه الخبيث من اصطحابهم .

وانتقل مصطفى بك والقاضى والشـيخ الفيومى وبعض التجـار والجنـد الذين كانوا معهم ، ونادوا بالجهـاد وخلاص البـلاد ، ثم ذهبوا الى كفور نجم ثم الى ميت غمر (دقهليـة) ودقدوس (١٢٨) وانضم اليهم الجبـالى ، وبعض العربان ، ثم هاجموا قافلة فرنسـية بحرية فى النيل كانت تحمـل مواد تموينيـة الى جنودهم بدميـاط ، فاستولوا على شحناتها (١٢٩) .

وبذلك تـكون ثورة مصـطفى كتخدا قـد امتدت الى محافظتى الشرقية والدقهلية ، معتمـدا فى ذلك على قـدوم جيش الجـزار ، وابراهيم بك من سـوريا « وبلغت قـوته نحو خمسمائة من المشـاة ومثلها من الخيالة » (١٣٠) .

---

(١٢٧) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ صص ٥٠ — ٥٢ .

(١٢٨) كفور نجم : قرية من قرى مركز ابو كبير — محافظة الشرقية — ودقدوس تكتب الآن دقادوس : وهى قرية من قرى مركز ميت غمر — محافظة الدقهليـة .

(١٢٩) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٥٥ .

(١٣٠) أحمد حافظ عوض — مرجع سبق ذكره ص ٣٥٠ .

فلما وصلت أخبـار هـذا التمرد الى القـاهرة ، أصدر الجنرال « دوجا » أمره الى الجنرال « لانوس » حاكم اقليم المنوفية ، بمطاردة مصـطفى بك وجماعته والقضـاء عليهم ، فزحف عليهم ، وبعد عنـاء ومشقة تفرقت قوة أمير الحج ، وفر قائدها هاربا الى دمياط ، وأحرق الفرنسيون القـرى التى اشـتركت فى الثـورة ، لتكون عبرة لغيرها ، وصادر الفرنسيون ممتلكات مصطفى بك بالقاهرة (١٣١) .

أما الشيخ سليمان الفيومى الذى اشترك مع أمير الحج فى هذه الثورة ، وهو الذى يهمنـا فى هذا الموضوع ، فلم يثبت أن الفرنسيين عاقبوه ، أو حتى عنفوه ، كما أن الجبرتى لم يذكر عند ذكره الشـيخ الفيومى فى وفيـات سنة ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) شيئا عن هذه الثورة، غير أنه أشار اليها ابان حوادثها على النحو السالف .

ولقد تعرض أحمد حافظ عوض لهـذه الثورة ، وقال بأن مصطفى كتخدا « أراد أن يؤثر على المشايخ الأزهريين ، وهم حريصون دائمـا على رعاية صوالحهم فلم يتأثر بعض التأثير الا الشيخ سليمان الفيومى، وعاد الثـلاثة الآخرون الى القاهرة » .

ثم تتبع حافظ عوض ترجمـة الشيخ الفيومى لـكى يظهـر أنه ليس بالرجل الثورى على الرغم من اشتراكه فى هذه الثـورة ، وانما كان كما ذكر الجبرتى عنه : بأنه « ساس أموره معهم » مع الفرنسيين وقرروه فى رؤساء الديوان الذى رتبوه لاجراء الأحكام بين المسلمين ، ولمـا نظموا أمور القرى والبلدان المصرية على النسق الذى جعلوه ، ورتبوا على مشايخ كل بلد شيخا ترجع أمور البلدة ومشايخها اليه جعل الشيخ الفيومى شيخا للمشايخ مضافا ذلك لمشيخة الديوان ، وحاكمهم الـكبير فرنساوى ، فازدحمت داره بمشايخ البـلدان فيأتون اليـه

---

(١٣١) انتهى أمر مصطفى كتخدا هذا الى أن قتله الجـزار والى عكا عندما ذهب اليه فظنه جاسوسا ، وأمر بقتله (المرجع السابق ص ٣٥٢) .

أفواجا ، ويذهبون أفواجا ، وله مرتب خاص خـــلاف مرتب الديوان ، واستمر معهم فيوجاهته الى أن انقضت أيامهم ، وسافروا الى بلادهم ، وحضر العثمانية والوزير ، والمترجم فى عداد العلماء المتصدرين [١٣٢] .

ويؤخذ على الأستاذ أحمد حافظ عوض أنه وصف العلمـاء بأنهم « حريصون دائما على رعاية صوالحهم » وعلق على النص السابق الذى ذكره فى ترجمة الشيخ الفيومى بما يفيد أن علماء الأزهر كانوا يتبعون كل موكب ويستفيدون من كل الظروف .

وحقيقة الترجمة التى ذكرها الجـبرتى للشيخ الفيـومى بالذات تعطينـا غير هـذا الذى فهمه أحمد حافظ عوض . فقد اشتهر الشيخ الفيومى فى عهود مختلفـة بأنه كان ملجأ للنـاس عند نزول النكبات بهم سواء فى ذلك عهد ما قبل الحملة الفرنسية ابان قدوم حسن باشا الجزايرلى ، أو فى عصر الحملة الفرنسية وما بعدها .

والجبرتى يذكر عن أخلاق الفيومى مايدحض الرأى الذى انتهى اليه أحمد حافظ عوض فيقول الجبرتى : « ولمـا حضر حسن باشـا الجزايرلى الى مصر وارتحل الأمراء المصريون الى الصـعيد ، وأحاط بدورهم ، وطلب الأموال من نسائهم وقبض على أموالهم ، وجواريهم وأمهات أولادهم ، وأنزلهم سوق المزاد ، التجأ الى المترجم الـكثير من نساء الأمراء الكبار ، فآواهن وأجهد نفسه فى السعى فى حمايتهن والرفق بهن وواساتهن مدة اقامة حسن باشا بمصر وبعدها فى امارة اسماعيل بك ، فلمـا رجع أزواجهن الى امارتهم ازداد قـدر المترجم عندهم ... واشتهر عنـدهم بعـدم قبول الرشـوة ومكارم الأخلاق والديانة والتورع ، فكان يدخل الى بيت الأمير ويعبر الى محل الحريم

---

(١٣٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ص ١١٢ — ١١٤ وفيات سنة ١٢٢٤ هـ ، أخطأ حافظ عوض عندما ذكر أن الشيخ الفيومى توفى سنة ١٢٢٥ هـ والصحيح أنه توفى سنة ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) .

ويجلس معهن وينسرون بدخوله عنـــدهم ، ويقولون زارنا أبونا الشيخ وشاورنا أبانا الشيخ فأشار علينا بكذا ونحو ذلك » •

« ولم يزل مع الجميع على هذه الحالة الى أن طرقت الفرنساوية البـــلاد المصرية وأخرجـــوا منهـــا الأمراء وخرج النســـاء من بيوتهن وذهبن اليه أفواجا أفواجا حتى امتـــلأت داره وما حولهـــا من الدور بالنساء فتصـــدى لهن المترجم وتداخل فى الفرنساوية ودافع عنهن ، وأقمن بداره شـــهورا •• وأحبـــه الفرنساوية أيضا وقبلوا شفاعته•• وحضرت العثمانية والمترجم فى عداد العلماء والمتصدرين وافر الحرمة شهير الذكر بعيـــد الصيت ، مرعى الجـــانب مقبول القول عند الاكابر والأصـــاغر ، ولمـــا قتل خليل أفنـــدى الرجائى الدفتردار وكتخدا بك فى حادثة مقتل طـــاهر باشا التجأ اليـــه أخو الـــدفتردار وخازنداره وغيرهما ، وذهبـــوا الى داره ، وأقاموا عنـــده فحمـــاهم وواســـاهم حتى سافروا الى بلادهم » •

ثم ذكر الجبرتى عن الشيخ سليمان الفيومى بأنه ظل على حاله هـــذا الى وفاته فى ١٥ ذى الحجة ١٢٢٤ هـ « وربما كان جمع النساء خلف جنـــازته كجمع الرجال فى الـــكثرة ومات هـــذا الشيخ الورع مديونا » فقد وجدوا عليه ديونا نحو العشر آلاف ريال سامحه أصحابها فيهـــا (١٣٣) •

والحق أن الأســـتاذ أحمـــد حافظ عوض فى كتابه « فتح مصر الحـــديث » دأب على الحط من شأن المشايخ وانتقد سلوكهم جمـــلة واحدة لايفرق بين البرىء والمـــذنب منهم ، فأردنا أن نبين طرفا من حيـــاة من استهدفهم أحمـــد حافـــظ عوض لـــكى نضـــع الحق فى نصابه ، والواقع أن كل جمـــاعة فيها الصالح والطالح وانحراف القلة لا يدين الـــكثرة ، والسواد الأعظم من كبار علمـــاء الأزهر كانوا ملجأ المظلومين من بنى وطنهم •

---

(١٣٣) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٤ صص ١١٢ — ١١٤ •

الحالة فى الأزهر أثناء الحملة على سوريا :

سافر بونابرت فى حملته على سوريا وترك مقاليد الأمور بالقاهرة لرجلين اشتهرا بالحكمة والدهاء أحدهما : الجنرال (دوجا) الذى استخلفه فى ادارة الشئون الحربية بالقاهرة والوجه البحرى والآخر : هو المسيو (بوسليج) مدير الشئون المالية [١٣٤] فهذان الرجلان اتبعا سياسة حكيمة فى ادارة البلاد تتسم بالود والمجاملة ، واحترام أعضاء الديوان ورعاية جانبهم لعلمهم بأنهم كبراء ، وزعماء الشعب ، ولهم هيمنة على طلبة الأزهر والطبقة الثانية من المشايخ والعلماء الذين لم تصف قلوبهم أبدا للفرنسيين • وكان الفرنسيون يخشون بأسهم وقيامهم بثورة ينتقمون فيها لاخوانهم الشهداء •

اتصل بوسليج بروابط الود مع الشيخ محمد المهدى سكرتير الديوان والشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان وشيخ الأزهر ، والشيخ محمد السادات [١٣٥] والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف • فكان « بوسليج » يبادل هؤلاء الزعماء الزيارة ويجالسهم فى بيوتهم ، اتباعا لسياسة بونابرت السابقة فى تردده على بيوت العلماء وخاصة الشيخ السادات [١٣٦] •

وعندما انتصر بونابرت فى جولته الأولى ، واستولى على العريش فى ٢٠ فبراير ١٧٩٩ أرسل كتيبة من الجنود الى القاهرة تحمل أعلام

---

(١٣٤) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٤١

(١٣٥) لم يكن الشيخ محمد السادات عضوا بالديوان ، ولكن كانت له مكانة لدى الفرنسيين تفوق أعضاء الديوان لما له من هيمنة على أتباعه من أشراف السادة الوفائية الذى كان يتولى مشيخة سجادتهم وله نفوذ كبير على طلبة الأزهر ، فهو الذى تزعم قيادة ثورة القاهرة الأولى كما سلف.

(١٣٦) وذلك مثل زيارتهم لأعيان المشايخ يوم عيد الفطر سنة ١٢١٣هـ « وهنوهم بالعيد وجاملهم الناس بالمداراة أيضا » الجبرتى ج ٣ ص ٥٠ .

قلعة العريش ، وكلف الجنرال (دوجا) أن يرفعها على منارات الجامع الأزهر اعلاما بانتصـــار الفرنسيين فى العريش ، وكتب اليه فى هذا الصدد يقول ، « انى أرى أن تتقـــابلوا الشيخ المهدى وأعضاء الديوان فتتفقوا واياهم على اقامة حفلة صـــغيرة لاســـتقبال الأعلام المرسلة اليكم واذا لم يكن من حرج فضعوها فى الجامع الأزهر ايذانا بالانتصار الذى حازه جيش مصر على عساكر الجزار وأعداء المصريين » (١٣٧) .

واحتفل الفرنسيون برفع الأعلام العثمانية التى غنمهـــا الجيش الفرنسى من (العريش) على منارات الأزهر عصر الخميس ٧ مارس ليلة عيد الفطر ١٢١٣ هـ (١٧٩٩ م) فاصطف الجنـــود رجالا وركبانا تلقـــاء باب الجامع الأزهر ، وطلبوا الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهـــر فسلموه تلك البيـــارق وأمروه برفعها ونصبها على منـــارات الجـــامع الأزهر فنصبوا علمين ملونين على المنـــارة الـــكبيرة ذات الهـــلالين عند كل هلال بيرقا ، وعلى منارة أخرى بيرقا ثالثا ، وأطلقوا المدافع ابتهاجا بهـــذا النصر (١٣٨) .

وكذلك احتفل الفرنسيون برفع الأعلام العثمانية التى اســـتولى عليها الفرنسيون عند فتح (يافا) على باب الجامع الأزهر ليراها الناس ويتحققوا من صـــدق أخبـــار انتصـــار الجيش الفرنسى ، وكان ذلك يوم السبت ١٦ شوال ١٢١٣ هـ (١٧٩٩ م) ، فأرسلوا الاعلام والبيارق التى أحضروها من قلعـــة يافا وعدتهـــا ثلاثة عشر علمـــا الى الجـــامع الأزهر فى موكب كبير تتقـــدمهم الموسيقى الفرنسية . فلما وصلوا الى الجامع الأزهر وضعوا الأعلام على البـــاب الـــكبير منشورة وبعضها على البـــاب الآخر من جهة حارة كتامه بالعينيـــة ، ولم يرفعوها على

---

(١٣٧) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٤٣ نقلا عن مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٨٧ .

(١٣٨) الجبرتى — عجـــائب الآثار جـ ٣ ص ٤٨ .

المنـــارات كما صنعوا فى أعلام العريش (١٣٩) وكان قصد بونابرت من رفـــع الاعـــلام على الجامع الازهـــر بالذات تحقيق هدفين فى وقت واحد : (١) ارهاب الأزهريين • (٢) وسرعة انتشار أخبار انتصاراته •

أولا : لأن الأزهر كان مركزا لحركة مناوأة المستعمرين ، وعنـــدما يعلم المجاورون بانتصار الجيش الفرنسى ويرون أعلام الدولة العثمانية المأسورة يكون لهذا تأثيره الـــكبير فى نفوسهم •

ثانيا : الجامع الأزهر هو المـــكان الوحيد بالقـــاهرة الذى يوجد به تجمع كبير من القاهريين وغيرهم من سكان ضواحى القاهرة ، فرفع أعلام الانتصار به تمكن لاخبار انتصارات بونابرت بالشام أن تنتشر بسرعة فى المدينة وضواحيها •

القبض على عمر مكرم فى يافا واعادته الى مصر (١٤٠) :

كان السيد عمر مكرم نقيب الأشراف قـــد هاجر من مصر بعـــد معركة امبابة ومعه كثير من المصريين صحبة ابراهيم بك ، واستقر السيد عمر فى يافا ، وعندما فتحها بونابرت ، استثنى المصريين من القتل ، ومن

---

(١٣٩) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٤ .

(١٤٠) عمرمكر م نشـــأ فى أســـيوط من اسرة شريفـــة تنتسب الى البيت الهاشمى ، فأبوه سليمان مكرم بن على الأسيوطى الشهير بالتيتلاوى، حفظ القرآن فى اســـيوط وارتحل الى القـــاهرة لطلب العـــلم بالأزهـــر الشريف ، ولم يشتغل بالتدريس فى الأزهر بل انصرف الى الحياة العـــامة يتكسب من تنظره على الأوقاف ولم يطلق عليه لقب شيخ كما جرت العادة عند السادة الأشراف الذين يلقب كل واحد منهم بالسيد فلان ، تولى نقابة الأشراف سنة ١٧٩٣ بعد وفاة محمد البكرى نقيب الأشراف وكان له شأن فى تاريخ مصر قاد شيوخ الأزهر ابان عصر الاضطراب السياسى التى أعقبت خروج الفرنسيين ، وفى بداية حكم محمد على كما ســـنذكر ذلك فى موطن قادم ان شـــاء الله .

بينهم عمر مكرم ، فقـد أكرمه بونابرت وأعاده الى مصر ، وقـد ذكر الجبرتى أن السيد عمر مكرم « حضر الى دمياط وصحبته جمـاعة من أفنـدية الرزنامة وغيرهم وذلك أنهم كانوا بقلعـة يافا فلما حاصرها الفرنساوية وملـكوا القلعـة والبلد لم يتعرضـوا للمصريين وطلبهم (بونابرت) اليه وعاتبهم على خروجهم من مصر ، وأنزلهم فى مركب وأرسلهم الى دمياط من البحر » (١٤١) .

وظل الفرنسيون يتحفظون على عمر مكرم فى دميـاط حتى حضر الى القاهرة فى ٣ صفر ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) ، بعد أن حددوا اقامته ريثما يعود بونابرت من حملته على بلاد الشام لأن عمر مكرم كان يتمتع بشعبية عريضـة وعميقـة فى أوساط الجمـاهير وخشى الفرنسيون أن يكون وجود الزعيم فى القاهرة مدعاة لقيام الشعب بثورة عارمة على الحكم الفرنسى بينما يكون بونابرت متغيبا عنها (١٤٢) .

انتخاب قاضى القضاة من علماء الأزهر :

درج العثمانيون على ارسال قاضى القضـاة الى مصر (١٤٣) وكان هـذا القاضى تركيا وكان حنفى المذهب ، وهو مذهب الأتراك الرسمى ، وكان هـذا القاضى يعين بدوره مندوبين فى المحـاكم المختلفـة يسمى كل منهم « مأذون مولانا أفندى » وبعض هؤلاء « المأذونين » المندوبين

---

(١٤١) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ٥٦ .

(١٤٢) د. عبدالعزيز الشناوى — عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية — مرجع سبق ذكره ص ٥٥ .

(١٤٣) كان يتولى القضـاء بمصر قبل الفتح العثمانى قضاة أربعة من المـذاهب الأربعـة يسمى كل منهم قاضى القضاة ، ولمـا تولى السلطـان سليمان القانونى أبطل نظـام القضاة الأربعة وأمر بتنصـيب قاضى تركى من درجة « قاضى عسكر أفندى » يرسلونه من الآسـتانة ، وهو بمثـابة قاضى القضـاة .

ظلوا زمنا ما أتراكا ، فكانوا يستعينون بالتراجمة ، وكانت مراسيم تعيينهم تصدر من الآستانة لقاضى القضاة ، ولعدد من القضاة من رؤساء المحاكم يبلغون خمسة وثلاثين قاضيا ، على أن مناصب القضاء بمصر عدا منصب قاضى القضاة قد آلت مع الزمن الى القضاة المصريين (١٤٤) .

وقد ساءت حالة المحاكم فى مصر ابان العصر العثمانى ، فكانت مناصب القضاء تباع وتشترى ، وتعرض فى سوق المساومة فترسو على من يدفع الثمن الأعلى وكان هؤلاء القضاة الذين يشترون مناصبهم ينظرون الى عملهم على أنه وسيلة لابتزاز الأموال ، ومن ثم تورع كبار العلماء بالأزهر عن تقلد مناصب القضاء ، وهذا مانلاحظه فى تراجم علماء الأزهر المعدودين الذين ذكرهم الجبرتى فى تراجمه ، فاننا لانرى من بينهم عالما معدودا تولى منصب القضاء فى عهد الحكم العثمانى .

وعندما جاءت الحملة الفرنسية الى مصر أقرت النظام العثمانى فى القضاء ، فظل القضاة السابقون يتولون القضاء وعلى رأسهم قاضى القضاة التركى المولى من قبل السلطان العثمانى ، فلما حدثت حادثة أمير الحج مصطفى كتخدا السالفة الذكر ، وهرب معه (ابراهيم أفندى أدهم) قاضى قضاة مصر ، أصبحت مصر فى ذلك الوقت بغير قاض تصدر باسمه الأحكام ، ويأذن للقضاة بالنظر فى الأحكام والدعاوى ، وعندما رأى الجنرال « دوجا » نائب بونابرت فى مصر أثناء الحملة على سوريا تغيب القاضى ، خاف اضطراب القضاء ، فساس الأمور بحكمة ودهاء ، وترك منصب القاضى لولده المدعو (ملا زاده أفندى) ولم يعترض على ذلك العلماء والمشايخ بل على العكس سرهم هذا الاختيار ، لأن الهيبة التركية كانت متأصلة فى

---

(١٤٤) عبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ٣٩ .

نفوس المصريين فى ذلك الوقت ، فهم يرون أن الدولة العثمانيــة هى دولة الخــلافة الــكبرى ، وسلطــانها هو خليفــة المسلمين فى جميع بقاع الديار الاسلامية ومن يوليه عليهم السلطان العثمانى فله الســمع والطاعة ، وما الى ذلك من مظاهر النفوذ الدينى .

وعنــدما حضر بونابرت من حملته على ســوريا ، لم يقبل هــذا الاختيــار ، وأراد أن يقضى على السيادة العثمانيــة فى مصر ، ويعين أحد علماء الأزهر فى هذا المنصب القضائى الخطر .

وبعد أن أعد العــدة لذلك أصــدر أمره فى ٢٢ محرم ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) بالقــاء القبض على ابن القاضى وسجنه بالقلعة ، وصدرت الأوامر فى الحــال الى أعضــاء الديوان بانتخــاب قاض من علمــاء الأزهر « يكون من أهل مصر ومولود بها يتولى القضاء برأى العلمــاء العلمــاء » (١٤٥) .

وعلى الرغم من أن هــذا الاجــراء كانت له وجاهتــه من جانب بونابرت لتعويد المصريين على تولى هذه المناصب التى استــأثر بهــا العثمانيون الا أن هــذا العمل قوبل فى الديوان باعتراض المشــايخ ، وكان على رأس المعترضين الشيخ محمد السادات .

ويلاحظ أن بونابرت عمد الى دعوة جمهرة من علماء الأزهر من غير أعضاء الديوان ، فقــد أراد أن تــكون مناقشة هــذه المسألة على مستوى أكبر من جمهور العلماء وألا تكون المناقشة مقصورة على أعضاء الديوان بل دعى اليهــا كثيرا من المشايخ أمثال الشيخ محمد السادات والشيخ محمــد الأمير مفتى الحنفية والشــيخ الحــريرى والشــيخ الدسوقى والشيخ محمد الجوهــرى والشيخ موسى السرسى والشيخ أحمد العريشى والشيخ العنانى وغيرهم من العلماء (١٤٦) .

---

(١٤٥) الجبرتى — عجــائب الآثار ج ٣ ص ٧٥ .

(١٤٦) أحمد حافظ عوض — مرجع سبق ذكره صص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

ولنترك الجبرتى يروى لنـا قصـة هـذا الحوار الذى دار فى الديوان بشأن هـذه القضية ، يقول الجبرتى أن العلماء عندما سمعوا أمر بونابرت السالف يتلى عليهم بالديوان « أجاب الحاضرون بقولهم : أننـا جميعا نتشفع ونترجى عنـده فى العفو عن ابن القاضى ، فانه انسان غريب ومن أولاد النـاس الصدور •• وتكلم الشيخ السادات بنحو ذلك فى القـول بأن قال : وأيضـا أنـكم تقـولون دائمـا ان الفرنساوية أحبـاب العثمانية ، وهذا ابن القاضى من طرف العثمانلى، فهذا الفعل مما يسىء الظن بالفرنساوية ويكذب قولهم ، وخصوصـا عند العامة ، فأجاب الوكيل بعدما ترجم له الترجمـان بقوله : لا بأس بالشفاعة ، ولـكن بعد تنفيذ أمر سارى عسـكر فى اختيـار قاضى خلافه ، وألا تكونوا مخالفين ويلحقكم الضرر بالمخالفة » (١٤٧) •

عندما سمع المشايخ والحاضرون فى هذه الجلسة نغمة التهـديد من الوكيل الفرنسى امتثلوا كما يقول الجبرتى لاجراء الانتخاب لاختيار قاضى القضـاة من علماء الازهر المصريين أصـلا • « وعملوا القرعة فطلعت الأكثرية باسم الشيخ أحمـد العريشى الحنفى (١٤٨) ثم كتبوا

---

(١٤٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص‌ص ٧٥ — ٧٦ .

(١٤٨) أحمد العريشى : هو الشيخ أحمد اللحام اليونسى المعـروف بالعريشى الحنفى ، أصله من خان يونس من أعمـال العريش ولهذا نسب اليها ، كما نسب اليهـا ابن بلدته الشيخ عبد الرحمن العريشى شيخ رواق الشوام بالأزهر ، وحضر الى مصر سـنة ١١٧٨ هـ وتلقى العلم بالجـامع الأزهر على الشيخ عبد الرحمن العريشى وعلى الشيخ حسن الجبرتى وعلى المشايخ البيلى والجنـاحى والصبان والفرماوى وغيرهم من شيوخ عصره ، ولمـا توفى الشيخ عبد الرحمن العريشى ، تولى بعـده مشيخة رواق الشام وذكر عنـه الجبرتى : أنه كان فصـيحا متحضرا متضـلعا فى المعقولات والمنقولات ، وقصـدته النـاس فى الافتـاء ، واعتمدوا على أجوبتـه ، وتداخل فى القضايا والدعاوى ، وتقلد نيـابة القضاء فى مصـر لبعض قضاة العسكر أشهرا ، ولهذا كان انتخاب العلماء له ليكون قاضى القضـاة

عرضحالا بصورة المجلس والشفاعة » وأمضاه الحاضرون ورفع الى بونابرت •

بونابرت يقبض على الشيخ السادات ويعنفه لمخالفته :

عندما اطلع بونابرت على محضر جلسة الديوان السالفة، وعرف ماحدث من مخالفة العلماء ، وخاصة ماقاله الشيخ السادات « تغير خاطره عليه وأمر باحضاره آخر النهار ، فلما حضر لامه وعاتبه » (١٤٩) ولولا وساطة الشيخ محمد المهدى سكرتير الديوان ، والمندوب الفرنسى بالديوان وهو المسيو « جلوتيه » لدى بونابرت لما أفرج عنه بونابرت، لأنه ظل محجوزا عنده حصة من الليل كما يقول الجبرتى •

وترجع معارضة العلماء فى أمر تعيين قاضى القضاة من علماء مصر الى ماسبق أن أشرنا اليه من تأصل الهيبة التركية والنفوذ التركى فى نفوس المصريين، زمنا طويلا ، فهم يرون أن ولاية القضاء على المسلمين تصدر من حاكم مسلم •

وترجع معارضة الشيخ محمد السادات بالذات الى أمور شخصية ذلك أنه كان فى هذه الأثناء شيخا لسجادة السادات الوفائية وينتمى الى سلالة الأشراف ولا يخفى ماكان لهؤلاء السادة من نفوذ وهيبة فى نفوس الشعب المصرى نظرا لكثرة أتباعهم وأوقافهم ، وهذا لم

= فى مصر لما له من خبرة سابقة فى مجال القضاء ولما قتل كليبر عزله الفرنسيون لكون القاتل من رواق الشوام ، ولما تبينوا براءته أعادوه، وعندما خرج الفرنسيون من مصر وعاد العثمانيون اليها فصلوه من منصبه وعينوا فى منصبه تركيا من جنسهم ، وظل يعمل مستشارا قانونيا بصدر الفتاوى لأصحاب القضايا الى أن توفى سنة ١٢١٨ هـ — الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ صص ٣٠٦ — ٣٠٧ •

(١٤٩) المصدر السابق ج ٣ ص ٧٦ •

يتوفر لـــكثير من علماء الأزهر حتى ولو كان شيخا للأزهر ، ومن ثم كان الشيخ محمد السادات يقدم فى كثير من الأحيان على كبار العلماء وعلى شيخ الأزهر فى الحفـــلات وفى المجالس الهامة التى كانت تعقد للأمور الهامة ابان العصر العثمانى وقبل مجىء الحملة الفرنسية وكان يليه فى الذكر شيخ السجادة البكرية ثم نقيب الأشراف وبعد ذلك شيخ الأزهر ان وجد ، ثم المفتون على المذاهب الأربعة وبقية العلماء (١٥٠) .

هكذا كان الترتيب أرباب السجاجيد أولا ثم يليهم العلماء ، وكان القـــاضى يقـــدم على هؤلاء وأولئـــك وينعت عادة بقولهم « ســـيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاســـلام علامة الأنام قاموس البـــلاغة ونبراس الأفهـــام أشرف الســـادة الموالى الأعالى الأعزة الـــكرام النـــاظر فى الأحكام الشرعيـــة قاضى القضـــاة يومئـــذ بمصر المحمية الموقع خطه الـــكريم أعلاه دام علاه آمين » (١٥١) .

فـــكيف يقبل السادات أن يعين أحد علماء الأزهر قاضيا للقضاة فترتفع بذلك مرتبتـــه ويقدم . عليه بل ويتحكم فى كثير من الوظـــائف لأنه هو الذى تصـــدر باسمه الأحكام فى سائر محـــاكم مصر ، ويعين القضاة ، ويعين النظار والموظفين على الأوقاف وغيرهم .

ويبدو أن هذه العوامل الشخصية كانت من جملة الأســـباب التى جعلت الشيخ السادات يعارض فى تنصيب أحد علماء الأزهر قاضـــيا

---

(١٥٠) وجدت هذا الترتيب فى الوثيقة الهـــامة التى سبق ذكـــرها بالفصل الأول المسجلة بسجلات الديوان العالى بتاريخ ٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٠٩ هـ وهى وثيقـــة أخذها أرباب السجاجيد والعلماء على الأمراء بصـــد الثورة التى قادها الشيخ عبد الله الشرقاوى ضـــد ظلم المماليـــك وهـــذه الوثيقة موجودة فى سجل رقم ٢ مادة ٤٧٣ صفحة ٣٠٠ من سجلات الديوان العالى بدفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة (المحكمة الشرعية سابقا) .

(١٥١) مسلسلة ٢ مادة ٤٨٣ صـــفحة ٣٠٠ من سجلات الـــديوان العـــالى ســـالفة الذكر .

للقضـــاة فى مصر فترتفع بذلك أسهم العلمـــاء على أرباب السجاجيد يومئـــذ •

كانت هذه أول مرة ولى فيهـــا قاضى القضاة بانتخاب علماء مصر، وهى بلا شك خطوة كبرى فى سبيل تقـــدم النظام القضائى فى مصر ، لأن الحكومة العثمانية دأبت على ارسال قضـــاة جهـــلاء فى الأحكام الشرعية فضـــلا عن جهلهم لغة البلاد فانتخاب قاضى قضاة مصر من بين علماء الأزهر لاشك سوف يرفع من منزلة القضاء •

ولقد أصدر بونابرت أوامره باقامة حفل كبير بمناسبة تولية قاضى القضـــاة الجـــديد الشيخ أحمد العريشى ، ودعا الى هذا الاحتفـــال أعضاء الديوان العمومى وبعض العلماء والأعيان من غير أعضائه ، وبدأ الاحتفـــال بموكب كبير بـــدأ من منزل الجنرال دوجا قائمقام بونابرت « وركب الجميع الى بيت سارى عسكر — بونابرت — ومعهم الشيخ أحمد العريشى فألبسه — بونابرت — فروة ثمينة وركبوا جميعـــا الى المحكمة الـــكبرى بين القصرين [١٥٢] وأصدر بونابرت أوامره بالافراج عن ابن القاضى فى أعقاب هذا الاحتفال » •

ولقد أراد بونابرت أن يستغل هذه المناسبة ويشرح للناس فيهـــا رغبته الحقيقيـــة فى انهاء الحكم العثمـــانى من مصر بمناســـبة تعيين قاضى قضـــاة مصر من المصريين فأصـــدر منشورا الى محفل الديوان بوجه عام « وخطابا الى السادات والعلماء » بوجه خاص شرح فيـــه موقفـــه بالنسبة الى موضـــوع القاضى التركى وابنـــه الذى لا يصح أن يولى مكانة لصغر سنه فقال « فاستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختـــاروا باتفاقهم قاضـــيا شرعيا من علمـــاء مصر وعقلائهم لأجل مرافقـــة القرآن العظيم باتبـــاع سبيل المؤمنين ، وكـــذلك مرادى أن

---

(١٥٢) الجبرتى : عجـــائب الآثار جـ ٣ ص ٧٦ .

حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعا أن يكون لابسا من عندى وجالسا فى المحكمة ، وهكذا كان فعل الخلفـاء فى العصر الأول باختيار جميع المؤمنين » ثم أعلن لأول مرة انقضـاء دولة العثمانيين من مصر بقوله : وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمانلى من أقاليم مصر وبطلت أحكامها منهـا ، وأخبروهم أن حكم العثمانلى أشـد تعبا من حكم الملوك وأكثر ظلما ، والعـاقل يعرف أن علمـاء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهليـة للأحكام الشرعية يصلحون للقضـاء أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم » (١٥٣) .

ثم أصـدر أمره الى حكام الأقاليم بالـديار المصرية ينقل اليهم نبأ اختيار الشيخ أحمد العريشى قاضيا لقضـاة مصر باجماع العلماء ، وطلب اليهم أن يبينوا لأهل البـلاد أن حكومة العثمـانيين قد زالت أيامها من مصر ، وأن تعاليم القرآن الـكريم لاتقر بحـال أن يحضر العثمانيون من الآستانة ليقوموا بالقضاء بين النـاس فى بلد لايفهمون لغة أهله ، وفضـلا عن ذلك فان اسـتانبول ذاتهـا لم يدخل فيهـا الاسـلام ، ويعتنق أهلها العقيدة المحمدية ، الا بعد أن كان مضى على وفاة الرسول ثلاثة أو أربعة قرون — بل انه لو عاد النبى الكريم نفسه الى الأرض مرة ثانية لمـا ظهر بها ، ولمـا اتخـذ مقامه بين أهلهـا ، ولنزل حتما بأرض القاهرة المقدسة وعلى ضفاف النيل ، أما زعيم العالم الاسلامى فهو شريف مكة صـديق الفرنسيين ، ولا جدال فى أن علماء القاهرة قـد أضحوا وحدهم أهل العلم دون سـائر النـاس ، ولا يعـارض انسـان فى أنهم أكبر العلمـاء على الاطـلاق فى أقطـار الامبراطورية العثمانية (١٥٤) .

---

(١٥٣) الجبرتى — عجـائب الآثار جـ ٣ ص ٧٧ .

(١٥٤) د. محمد فؤاد شكرى — الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر — مرجع سبق ذكره — ص ١٠٠ .

موقف العلماء ابان معركة أبى قير البرية ١٧٩٩ (١٢١٤ هـ) :

فشل بونابرت فى حملته على الشام ، وبدأت تظهر بوادر الفشل فى تأسيس امبراطورية شرقية ، وخاصة أن الانجليز أعداءه الألداء صمموا على اخراجه من مصر ، وتم الاتفاق بينهم وبين العثمانيين على اعداد حملة كبيرة لهذا الغرض بواسطة الجيوش العثمانية فى البر ، ومعاونة الأسطول الانجليزى فى البحر ، وكانت تلك الخطة تقضى بأن تبعث الدولة العثمانية جيشين : أحدهما : تنقله السفن العثمانية والانجليزية من رودس والموانى العثمانية الى أبى قير ، والثانى : يزحف من سوريا معتمدا على تجمع المماليك فى مصر (١٥٥) •

عندما وصلت بونابرت الأنباء ، أسرع بتشتيت ماتجمع من المماليك ومنعهم من معاونة العثمانيين ، وعندما وصله خبر نزول الحملة العثمانية فى أبى قير بقيادة مصطفى كوسه باشا فى ١٧ يولية ١٧٩٩ (١٢١٤ هـ) جمع قواته بسرعة مذهلة وتقدم بهم الى أبى قير ، وتمكن من هزيمتهم فى ٢٥ يولية وأسر قائد الجيش التركى مصطفى كوسة باشا •

وليس من موضوعنا أن نتتبع أخبار هذا الصراع ، وان مايهمنا هو الاجراءات التى قام بها بونابرت لتهدئة الجبهة الداخلية ، وموقف العلماء ابان هذه الحوادث • فقد أصدر بونابرت منشورا الى الديوان الخصوصى ، وهو قطعة من المغالطة التى لجأ اليها من أجل استمالة قلوب أعضاء الديوان والشعب ، فقد بين لهم فيه أنه ذاهب لمحاربة الكفار « من الموسقو (الروس) الافرنج الذين كراهيتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله •• يكرهون الاسلام ، ولا يحترمون القرآن » مع أنه لم يكن بهذه الحملة جنود من الروس ، وانما ضرب

---

(١٥٥) أحمد حافظ عوض — مرجع سبق ذكره ص ٣٦٩ •

لهم على هــذا الوتر الحساس ليســتميل قلوب الأهالى ، ثم ذكر لهم بأنه مسلم موحد بالله يدافع عن الاســلام ضــد هجوم النصــارى ، وخلاصــة القــول أن بونابرت أكثر فى هــذا المنشــور من التزلف للمصريين ، وادعى أنه مسلم ، كما طعن فى المسيحية ، مع أن الشعب أدرك هــذه الأكاذيب ، وأصبح لاينخدع بهــا ، وعرف أنها ظــاهرة البطلان ، ثم طلب أخيرا منهم أن يلزم النــاس الهدوء أثنــاء غيابه ، وهددهم بالانتقام ممن يحدث فتنة أثناء غيابه (١٥٦) .

وقد اعترض المسيو بوسليج مدير الشئون المــالية على التمادى فى هــذا الدجل ونصح بونابرت قبل سفره أن يعدل عنه فى رسائله الى الشعب ، وأوضح له أن هــذه الأقوال لايمكن أن تخــدع أحــدا وأنها قــد تتخذ دليلا على ضعف الفرنسيين فتكون مدعاة الى الثورة بدلا من أن تكون وسيلة لمنعها (١٥٧) .

موقف العلمــاء :

أحــدثت حملة العثمانيين على مصر حركة فى نفوس المصريين ، فانتعشت أرواحهم ، وتجددت آمالهم ، وخيل لهم الخلاص من الاحتلال الفرنسى وقــد روى لنــا الجبرتى وصف هــذه الحالة بقوله : « فلما تحققت هــذه الأخبــــار كثر اللغط فى النـــــاس وأظهروا البشر ، وتجاهروا بلعن النصـــارى ، واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحــارة البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامه مع بعض نصارى الشوام ، فقال المسلم للنصرانى ، ان شاء الله تعــالى بعد أربعــة أيام نتشفى منكم وكلام من هــذا المعنى ، فذهب ذلك النصرانى الى الفرنسيس مع عصبة من جنسه ، وأخبروهم بالقصة ، وزادوا وحرفوا ، وعرفوهم أن قصــد

---

(١٥٦) الجبرتى — عجــائب الآثار جـ ٣ صص ٧٩ — ٨٠ .

(١٥٧) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٧٨ .

المسلمين اثارة فتنــة ، فأرسل قائمقام الى الشيخ المهــدى ، وتــكلم معه فى شأن ذلك وحاجه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان ، فقام المهدى خطيبــا وتــكلم كثيرا ونفى الريبــة ، وكذب أقوال الخصوم ، وشدد فى تبرئة المسلمين عمــا نسب اليهم ، وبالغ فى الحطيطة ، والانتقاص من جانب النصارى » (١٥٨) .

والواقع أن الشيخ المهدى نجح فى القضاء على هذه الفتنة التى كادت تشتعل بسببها القــاهرة فى هذه الأوقات العصيبة بين المسلمين والنصــارى ، ومن ثم عــد الجبرتى له هـــذا الموقف من مواقفــه المحمودة أثنــاء الاحتــلال ، فقــال عنه فى هــذا الصــدد : « وهذا المقام من مقاماته المحمودة » (١٥٩) .

وقــد أخذ عليه الفرنسيون هــذا الموقف ، واتهموه بالطمع فى الشهرة والتزلف الى الجمــاهير ، فالمسيو بوسليج مدير الشئون المالية الذى كان يرقب الأحداث بالقــاهرة ويطالع بهــا بونابرت أثنــاء غيابه فى معركة أبو قير ، يقول فى رسالة له الى بونابرت عن الشيخ المهدى: « انه رجل يطمع فى الشهرة والتزلف للجمــاهير ، وانه يضحى بجميع الفرنسيين فى سبيل الاحتفــاظ بمنزلتــه بين النــاس ومع ذلك فانه مثابر على مقابلتنا » (١٦٠) .

ويبدو أن الشيخ محمد المهــدى عنــدما أحس بقــدوم الجيش العثمانى خاف من العواقب المرتقبـــة عنــد دخول الجيش العثمانى القاهرة ، فأراد أن يخفف من غلوائه فى مصــاحبة الفرنسيين ، وأن ينــاصر الشعب ، ولذلك نجــد بونابرت يقول عنه عند عودته منتصرا

---

(١٥٨) الجبرتى — عجــائب الآثار ج ٣ صص ٧٨ — ٧٩ .

(١٥٩) المصــدر السابق — ذات المــكان .

(١٦٠) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص٨٠

من معركة أبى قـــير : « ان المهــدى والصـــاوى ماهم بونو [١٦١] أى ليسوا بطيبين ونحو ذلك » [١٦٢] .

وسبب كراهية الفرنسيين للمهدى والصاوى هو ماذكره الجبرتى من « أن الأغا [١٦٣] الخبيث كان يريد أن يقتل فى كل يوم أناسا بأدنى سبب ، فـــكان المهــدى والصاوى يعارضـــانه ، ويتكلمان معـــه فى الديوان ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبـــة ، وهو يرسل الى ســـارى عسكر فيطالعه بالأخبـــار ويشكو منهما ، فلمـــا حضر عاتبهم فى شأن ذلك ، فلاطفوه حتى انجلى خاطره » [١٦٤] .

وقال المسيو بوسليج لبونابرت فى رسالة وافاه بهـــا شارحا له مواقف العلماء : « أنه راض عن سلوك السيد الســـادات ، وان سلوك السيد عمر مكرم لا بأس به ، وان السيد خليل البكرى متهيب وجل ، والباقون خونه ، ومتعصبون (!!!) » [١٦٥] .

وبعد عودة بونابرت من معركة أبى قير البرية منتصرا ، عمد الى اقامة الاحتفـــالات فى القاهرة ابتهـــاجا بنصره ، وعلى الرغم من أن الظواهر فى القـــاهرة كانت تدل على أن سلطة الفرنسيين أصبحت قوية

---

(١٦١) كلمة (بونو) مأخوذة من الكلمة الفرنسية Bon بمعنى طيب كما فسرها الجبرتى فى سياق كلامه .

(١٦٢) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٨١ .

(١٦٣) هو مصطفى أغا من مرتزقة الأتراك بالقاهرة أيام الاحتلال — عينه الفرنسيون محافظا للقاهرة بعـــد أن عزلوا محمد المســـلمانى الذى كان معينا باشـــارة أعضـــاء الديوان ، ويقول الجبرتى عن مصـــطفى أغا هذا ، أنه كان تابع (خادم) عبد الرحمن أغا مستحفظان (محافظ المدينة) سابقا وقد قتله الثوار ابان ثورة القاهرة الثانية .

(١٦٤) الجبرتى — عجـــائب الآثار — ج ٣ ص ٨١ .

(١٦٥) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٨٠ نقلا عن مراسلات بوسليح وبونابرت الواردة فى ريبو الجزء السادس .

وقـــدمهم أصبحت راسخة الا أن بونابرت سرعان مارحل من مصر فى طريقـــه الى فرنسا ليقوم بصنع الأحـــداث العالميـــة المعروفة بحروب نابليون فى أوربا •

بونابرت يخاطب العلماء بلغة جديدة :

لجأ بونابرت فى كثير من المنـــاسبات الى التزلف الى العلمـــاء والتحدث اليهم بلغـــة المسلم الحقيقى المـــدافع عن الاســـلام ، بيد أنه غير هذه السياسة فجـــأة بعـــد عودته من موقعـــة أبى قير البرية عندما اجتمع لديه مشايخ الأزهر فوجد فى وجوههم حزنا ظاهرا كمـــا يقول المعلم نقولا الترك فقال لهم : « لقد أخذنى منكم العجب أيهـــا العلماء والسادات اذ أننى أراكم تغتمون وتحزنون من انتصارى ، حتى الآن ماعرفتم مقدارى وقـــد خاطبتكم مرارا عديدة وأخبرتكم بأقوالى بأننى أنا مسلم موحد ، وأعظم النبى محمد وأود المسلمين ، وأنتم انى الآن غير مصـــدقين وقـــد ظننتم أن خطابى هذا خشية منكم مع أنكم شاهدتم بأعينكم وسمعتم بآذانكم ، قوة بطشى واقتدارى •• فقولى لكم انى أحب النبى محمد ، ذلك لأنه بطل مثلى ، وظهوره مثل ظهورى ، بل وأنا أعظم منه ، اذ أننى غزوب أكبر منه ، ولى باقى غزوات غزيرة ، وانتصارات كثيرة سوف تسمعونها بآذانكم وتشاهدونها بأعينكم ، فلو كنتم عرفتمونى ، لـــكنتم عبدتمونى ••• الخ » (١٦٦) •

ويلاحظ أن بونابرت يخـــاطب العلمـــاء بلغـــة جـــديدة قوامهـــا الاستهزاء بهم وبنبيهم على خلاف ماعودهم من قبل فى منشوراته من التودد اليهم وهـــذا يدل على يأسه من عدم نجاح سياسته الاســـلامية التى أعلنها لهم وشعوره بالفشل ازاءها قرب سفره الى فرنسا • ويبدو أن هـــذا النص به زيادات من صنع نقولا الترك ، وخاصة فيما يتعلق بغزوات بونابرت فى المستقبل •

---

(١٦٦) المعلم نقولا الترك — « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية » ص‌ص ١٢١ — ١٢٢ •

رحيل بونابرت :

على الرغم من انتصار بونابرت فى معركة أبى قير البرية ٢٥يوليو ١٧٩٩ (١٢١٤ هـ) الا أنه أحس بحرج مركزه فى مصر ، وأدرك فشله الزريع ، ومن ناحية أخرى فقد انهارت فرنســا خارجيــا ، وخسرت الأقاليم التى فتحتها ، وتكونت محالفــة أوربيــة ضــدها ، فصحت عزيمته على الهروب من مصر ، فخرج منها خائفا يترقب ، واتخذ طريقه سربا الى باريس ، لينال فيها ما تطمح اليه نفسه من المجد والفخار ، ووعد بونابرت فى منشوره الى الجنود وفى رسالتــه الى الديوان أن يعود سريعــا « وقــد يكون هــذا من حسن السياسة ولــكنه لم يكن من الأمانة فى شىء » (١٦٧) .

---

(١٦٧) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ٤٤٦ .

الفصل الرابع

الأزهر فى عهـدى كليبر ومنـو

الأزهر فى عهـد كليبر :

لابد لنـا قبل أن نتنـاول أحوال الأزهـر فى عهـد كليبر ، أن نشـير أولا الى أن المجتمع الأزهرى فى نهـاية فترة بونابرت بدأت تتضح معالمه ، وتبين لنـا موقف رجاله من خلال نضالهم ومعاركهم ضد الفرنسيين • واذا أردنا أن نقسم رجال الأزهـر بالنسبة لموقفهم من الاحتلال الفرنسى فيمكننا القول بأنهم كانوا يتكونون من ثلاثة صفوف•

الصف الأول : ويتكون من كبار العلماء المتصدرين ، وهم هيئـة كبار العلماء الذين اختـارهم بونابرت أعضـاء فى ديوان القاهرة ، أمثال الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر ورئيس ديوان القاهرة ، والشيخ محمد المهـدى سكرتير الديوان والشـيخ سليمان الفيـومى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ موسى السرسى والشيخ محمد الأمير والشيخ أحمـد العريشى والشيخ محمـد الدواخلى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ خليل البكرى وغيرهم ، وهؤلاء العلماء رأوا بثاقب نظرهم ألا يتركوا الأمور بيد جيش الاحتلال الفرنسى ، وأنه لاضـير عليهم من مداراة المحتلين فى خطتهم ، فتقلدوا المناصب فى الديوان ، وكانوا بذلك واسطة بين الشعب وبين المستعمر ، وعلى الرغم من خطة المـداراة هـذه التى التزموا بهـا مع العـدو ، فانهم رفضوا الانتماء الى المستعمر عنـدما رفضوا أن يزينوا صـدورهم بالشارة الفرنسية، كما رفضوا أفـكار الفرنسيين التى بشروا بهـا فى اجتماعات الديوان كما أسلفنا ، وعملوا على مساعدة الصفين الثانى والثالث من الأزهريين الثوريين ، وذلك بمواقفهم السلبية ابان ثورة القاهرة الأولى ، ثم الدفاع عنهم لدى الحكام الفرنسيين ، عندما أرادوا البطش بهم •

الصف الثــانى : وأما الصف الثــانى فيتكون من العلمــاء الشبان الذين اشتهروا بالعنف الثورى ابان أحــداث ثورة القــاهرة الأولى ، منهم من قضى نحبه شــهيدا ابان حوادث الثورة ، ومنهم من ينتظر على قيد الحيــاة واشترك فى أحداث ثورة القاهرة الثانية وكان منهم الشيخ محمد الأمير الصغير نجل الشيخ الأمير الــكبير ، والشيخ فتوح الجوهرى شــقيق الشيخ محمــد بن الجوهرى المشهور ونجل الشيخ الجوهرى الــكبير ، وقــد فضل هــذا الفريق الابتعــاد وعدم الاتصــال بالمحتلين ، وظل على عــدائه لهم ، وهــو الذى نظم ثورة القاهرة الأولى وانضم اليهم فريق من رجال الصف الأول من العلمــاء فى فترات الالتحــام بالفرنسيين كان منهم الشيخ محمــد السادات الذى ترأس مجلس قيــادة ثورة القــاهرة الأولى والسيد عمر مكرم بعد عودته من الشام فقد اشترك معهم فى ثورة القاهرة الثانية .

الصف الثالث : ويتكون هــذا الصف من الجمع الغفير من طلبــة الأزهر (المجاورين) وكان هؤلاء الطلبــة على رأى قادتهم من رجال الصف الثــانى من العلماء ولا شك أن شهداء هؤلاء كانوا أكثر عــددا لأنهم فى كل زمان ومكان وقود الثورة المشتعل وجنودها المجهولون .

ولقد نــكب الأزهر فى عدد كبير من زعمــائه فى ثورة القاهرة الأولى وظل على عــدائه للمحتلين ، رغم ماكانوا يبــدونه من احترام للأزهر ورجاله الا أن هــذه المظاهر لم تكن تخفى الحقيقــة الواضحة، وهى أن علماءه وطلابه كانوا يرون فى أولئــك المحتلين ألد أعــدائهم وأخطرهم على كيانهم ودينهم ، ولقــد ترك انتهاك الفرنسيين لحرمة الأزهر واقتحامهم له بخيولهم ، ترك أثرا شديدا فى نفوس الأزهريين وضغنا لايمحى ، وصمموا على الانتقام منهم فى أقرب فرصــة تلوح لهم ، وظل الأزهر يفور ويغلى بهذا العداء .

كليبر والعلماء :

كتب بونابرت وصية لخليفته كليبر قبيل سفره الى فرنسا كى يسير على نهجه فى استمالة العلماء واحترامهم ، وكان مما جاء فى هذه الوصية : « انكم تعرفون أيها المواطن القائد ، نظرتى الى السياسة الداخلية لمصر ، ومهما تفعلون فستجدون المسيحية دائما أصدقاءنا ، ولكن يجب منعهم من أن يتجاوزوا حدود الأدب مع مواطنيهم والاستخفاف بهم ... واذا حصلتم على ثقة كبار مشايخ القاهرة كسبتم الرأى العام فى مصر كلها ، ومن بين الزعماء الذين يمكن أن يتخذهم هذا الشعب قادة له ، ليس هناك من هم أقل خطرا من المشايخ الذين هم قوم هيابون ، لا يعرفون القتال ، ولكنهم — شأنهم فى ذلك شأن القسيسين — يوحون بالتعصب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين » [١] .

على الرغم من تلك الوصية السالفة ، الا أن كليبر لم يكن على مثال سلفه بونابرت الذى كان بارعا فى كسب القلوب ، فقد كان كليبر مشحونا بالغرور والصلف ، كما « كان بونابرت سياسيا حسابا ، أما كليبر فجندى عاطفى » [٢] . ولقد ظهر هذا الفارق بين الرجلين واضحا عندما ذهب أعضاء الديوان لمقابلة كليبر لأول مرة ، فيحدثنا الجبرتى عن هذا اللقاء الجاف فيقول : « ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة سارى عسكر الجديد للسلام عليه فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ، ووعدوا الى الغد فانصرفوا وحضروا فى ثانى يوم وقابلوه فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرت فانه كان بشوشا يباسط الجلساء ويضحك معهم » [٣] .

---

(١) د. عبد العزيز محمد الشناوى — صور من دور الأزهر — مرجع سبق ذكره صص ١٩٣ — ١٩٤ نقلا عن النص المحفوظ بوزارة الخارجية الفرنسية (وثيقة رقم ٤٣٧٤) .

(٢) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره — ص ٤٢٨ .

(٣) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٢ ص ٨٣ .

وقال ريبو كاتب تاريخ الحملة عن بونابرت فى مجال المقارنة بينه وبين كليبر : « ان بونابرت كان يمتاز بأساليبه البسيطة المألوفة وعاداته البعيدة عن الفخفخة والأبهة أضف الى تلك قامتـه القصـيرة وقوامه الضـئيل ، ومع ذلك فقـد كان المصريون يقـدرون عظمـة بونابرت فيقولون عنه : « بونابرت الـكبير » بينما كانوا يقولون عن خلفـه « كليبر الطويل » (٤) .

ووقف كليبر من خطة الدعاية الاسـلامية موقفا مغايرا لسلفه ، نظرا لاختـلاف طبيعته عن طبيعـة بونابرت المشـحونة بالأحـلام الاسـتعمارية ، ولم يكن فى منشـورات كليبر من الأمور التى تتعلق بالدعاية الاسلامية الا نادرا .

ولعل المنشور الوحيـد الذى أصـدره كليبر ، وردد فيـه بعض أساليب السياسة البونابرتية ، هو أول منشـور وجهه الى شعب مصر بعد أن تولى قيـادة الحمـلة ، والذى بدأه بالبسملة ، وهو أمر نادر الحدوث فى منشورات هـذا القـائد ، ثم ان كليبر وصف نفسه فى بداية المنشور بأنه « محب أهل الملة المحمدية » وفيه يخاطب المصريين بقوله : « علمنا أن غاية مرادكم ونهـاية راحتـكم اقامة دينكم دين الاسـلام الدين القويم ، والمحافظة على أحكام الشريعـة المحمدية ، واكرام الملة الاسـلامية ، فاعلموا أن الدين المحمدى هو الدين المـكرم المعتبر الاكرام المعظم عنـدنا بأحسـن الاكرام والتعظيم ، واعلموا أننـا نحب تعظيم دينـكم ونريـد اكـرامه أكثر ممـا كان فى زمن المماليـك ... » .

ثم ختم المنشور بهذه العبـارة : « وهـذا مما فى نفوسنا من

---

(٤) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ١٠٥ (نقلا عن ريبو التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية — الجزء السادس)

تعظيم دينكم ، واحترام ملتكم التى أمـــرت بكل خـــير ونهت عن كل شـــر ... »(٥) .

ولم يكن كليبر من أنصـــار البقاء فى مصر ، وكان موقفـــه من أطمـــاع بونابرت موقف العـــداء فقـــد بدا له أن الخير كل الخير فى التعجيل باعادة الجيش الى فرنسا ، فالحاجة ماسة اليه فى فرنسا ، وهو فى مصر ينحل شيئا فشيئا ، وأما التضحية بحياة آلاف الجنود للمســـاومة بهم فى دنيـــا السياســـة ، فقـــد بدت له فكرة واهية بل فظيعـــة (٦) .

وعلى الرغم من أن الهـــدوء النسبى قـــد ساد القاهرة والأقاليم فى أول عهد كليبر وذلك بسبب انتصار الفرنسيين فى موقعـــة أبو قير البرية ، الا أن الأحوال السياسية قـــد تحرجت ، وأخـــذت الصعاب تتفاقم ذلك أن الجيوش العثمانية كانت ماتزال ماضية فى استعدادها لغزو مصر ، والأســـطول الانجليزى الذى يقوده ســـير سدنى سميث يجوب الميـــاه المصرية من يافا الى الاسكندرية ، ويقطع على الحمـــلة سبيل الاتصال بفرنسا .

زحف الجيش العثمانى الى مصر ، والتقى الفرنسيون بطلائع هذا الجيش وهزموها فى موقعـــة دميـــاط فى نوفمبر ١٧٩٩ م ، ولـــكن العثمانيين استمروا فى زحفهم على مصر من طريق سيناء ، ورأى كليبر

---

(٥) صدر هذا المنشور بتاريخ ٦ من سبتمبر ١٧٩٩ .

أنظر : د. احمد حسين الصاوى . فجر الصحافة فى مصر ، دراسة فى اعلام الحملة الفرنسية ، الهيئـــة المصرية العامة للـــكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، فقـــد قام بدراسة قيمة لمنشورات الحملة ونشر معظمها ، وعرض بافاضـــة لأسلوب الدعاية الاســـلامية الذى انتهجـــه بونابرت ، وقارن بينـــه وبين كليبر ومنو .

(٦) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره ص ٤٢٨ .

بعد التشاور مع قواده أن يقبل ماعرضه عليه العثمانيون والانجليز ، من عقد الصلح علىأساس جلاء الفرنسيين عنمصر ، وانتهت المفاوضات فى ذلك الى عقد معاهدة العريش •

معاهــدة العريش :

عقدت معاهــدة العريش فى ينـــاير سنة ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) ونصت على أن يجلو الفرنسيون عن مصر بأسلحتهم ومعداتهم ، بشرط أن يكون جلاؤهم عن القاهرة فى ظرف ٤٥يوما على الأكثر بعد التصديق على المعاهدة •

أرسل كليبر بهــذا النبــأ الى أعضـــاء الديوان ، وأعلن ذلك فى منشوره على الشعب والصقت منه نسخ فى الأسواق والشوارع فعمت الفرحة البلاد واستبشر الناس خيرا •

بيد أن الانجليز نقضــوا شروط الصـــلح بنـــاء على أوامر من دولتهم وأصروا على أن يسلم الفرنسيون أنفسهم كأسرى حرب وألا يسمح لهم بالذهاب الى فرنسا ، وفى أثناء ذلك كانت القوات العثمانية قـــد توغلت فى داخل البلاد ، وتقدم كليبر بجنوده للدفاع عن القاهرة، وهزم العثمانيين عند عين شمس فى مارس ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) (٧) •

ثورة القاهرة الثانيـــة :

ظلت النفوس فى القـــاهرة متحفـــزة للثـــورة على الفرنسيين ، وعندما انفصلت كتيبة من الجيش العثمانى والمماليك (٨) ودخلوا القاهرة فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) ، انطلقت الشرارة الأولى للثورة ،

---

(٧) الرافعى تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ١٣٩ •

(٨) دخلت هذه الـــكتيبة بقيادة نصوح باشا التركى •

وتجدد القتـــال فى جميع أنحـــاء القاهرة واســـتعد الشعب لمقـــاومة الفرنسيين فى مختلف نواحى القـــاهرة ، وهكذا لم يكد الجنرال كليبر يخرج ظـــافرا من معركة عين شمس حتى واجه فى القاهرة ثورة جديدة فى ٢٠ مارس أشد وأعظم من ثورتها الأولى .

وثورة القاهرة الثانية صـــفحة مجد مصرية . فالجيش العثمانى كان قـــد سحق تماما على يد كليبر خلال ساعات ، فلم يستغرق خروج كليبر من القـــاهرة وسحقه للجيش الذى كان يقوده الصـــدر الأعظم فى عين شمس ، وعودته منتصرا الى القـــاهرة أكثر من خمس عشرة ساعة بينما قاومته القـــاهرة حوالى خمسة أسابيع . ولقد كانت ثورة دينيـــة أيضـــا ساهمت فيهـــا العناصر الاسلامية الموجودة بالقـــاهرة « وكانت أول ثورة فى الشرق تواجه الاستعمار الغربى بهـــذا الشمول والصمود الذى دام أكثر من شهر كامل » (٩) .

بدأت الثورة فى بولاق ثم امتدت بسرعة الى سائر الأحياء وانبث الثوار فى جميع النواحى وأقاموا المتـــاريس فى الشـــوارع ، ونادى نصوح باشا القـــائد العثمانى (الذى انحاز الى القاهرة بعـــد معركة عين شمس) بقتل النصـــارى ، فهموا « يقتلون من يصـــادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم » (١٠) وينهبـــون بيوتهم بنواحى بين الصورين وباب الشعرية والموسكى وامتد النهب والسلب الى بيـــوت المسلمين المجاورين لهم .

والحق أننـــا لا يمكن أن نصف اعتـــداء المسلمين فى هذه الثورة على النصارى المتعـــاونين مع الفرنسيين ، بأنه اعتـــداء طائفى ، لأن الثوار قتلوا كثيرا ممن تعـــاونوا مع جيش الاحتـــلال حتى ولو كان

---

(٩) محمد جلال كشك — مرجع سبق ذكره ص ٢٩٣ .

(١٠) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ٩٦ .

هـــذا الخائن مسلما ومن هؤلاء الخونة المرتزقة (مصطفى أغا) أغا القاهرة — المحافظ — ، وأن ماقام به النصـــارى من تعاون صريح مع جيش الاحتـــلال الفرنسى [١١] جعلهم جميعا فى مقدمة الخونة الذين يجب على الثوار أن يتخلصوا منهم لكى لا يضربوا الثـــورة من ظهرها وهـــذا ماحدث فعـــلا ، فقد تحزب النصـــارى باحيائهم « واحترسوا وجمع كل منهم ماقـــدر عليه من العسكر الفرنساوى والأروام ، وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون ، فوقعت الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمى بالبندق والقرابين من طبقات الدور على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر » [١٢] .

اذن كان من الطبيعى أن تمتد يد القصاص لهؤلاء الخونة ، لأنهم كما سبقت اشارة الجبرتى « كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود » فلابد من تصفيتهم أولا لـــكى يتفرغ الثوار لمحاربة المحتلين الأجانب .

---

(١١) أمثال : برتلمى الرومى الذى تعـــاون مع الفرنســـيين فى قهر الشعب بالقـــاهرة والمعـــلم يعقـــوب الذى مشى فى ركاب (ديزيه) الى الصعيد ليدله على مواطن الأمور وكان يشترك فى القتـــال مع الفرنسيين بشجاعة وضراوة جعلتا الفرنسيين يقـــدمون له ســـيفا تذكاريا تكريما له ، فلما غادر بونابرت مصر عاد يعقوب الى القاهرة ، وعينه كليبر قائدا الفيلق القبطى الذى شكل لمعاونة الفرنسيين فى قهر المصريين ، وفى عهد الجنرال مينو رقى الى رتبـــة جنرال وعين مساعدا للجنرال بليار فى مارس ١٨٠١ للدفاع عن القـــاهرة ضـــد الجيش التركى الانجليزى ، وعند تسليم القاهرة فى يونيو ١٨٠١ خرج يعقوب فارا بجلده مع الفرنسيين خوفا من انتقـــام الأهالى وركب السفينة مع الجنود الفرنسيين .

(١٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٩٦ .

الهجوم على مقر القيــادة الفرنسية :

انطلقت الجموع الثائرة الى معسكرات الفرنسيين بالأزبكية حيث القيــادة العــامة للجيش الفرنسى ، وكان عدد الثوار فى هذا الهجوم كما يقــدرهم (ريبو) نحــو عشرة آلاف ثائر ، وقابلهم الفرنسيون بوابل من نيران المــدافع والبنــادق ، فاضــطر الثوار الى التقهقر ، واحتلوا بعض المنــازل المجاورة لميدان الأزبكية ، وأطلقوا النار منهــا على المعسكر الفرنسى ، وامتدت الثورة الى كثير من النواحى ، وتضاعف عــدد الثوار الذين انضموا اليها ، ونشــط دعاة الثورة من الأزهريين الشبان الذين كانوا يحرضــون الأهالى على الانضــمام الى الثوار ، وامتلأت شوارع القــاهرة وميادينها ، حتى بلغ عددهم كما يقــدرهم المسيو (جالان) خمسين ألف ثائر (١٣) حاملين البنــادق والأسلحــة والعصى ، وانضم اليهم كثير من النساء والأطفــال ، وكان لهم نداء يهدر وصياح يصم الآذان ، ويذكر الجبرتى أن « معظم أهل مصر ماعدا الضعيف الذى لاقوة له للحرب » (١٤) اشترك فى هذه الثورة .

واستحضر الثــوار ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين التى كانت لهم بالمطرية ، واستخدموها فى هجومهم على المعسكر الفرنسى ، ولعدم وجود القنــابل استعملوا كرات الموازين الحديد وغيرها من قطع الحديد التى جلبوها من الوكائل والدكاكين ، وأخــذوا يجمعون القنــابل التى تتساقط عليهم من المواقع الفرنسية ويستعملونها كقذائف جديدة للضرب على الفرنسيين .

اليوم الثــانى للثورة :

اتسع نطاق الثورة ، وفــكر الثوار فى ايجاد وسيلة لسد حاجتهم من القنــابل والمــدافع التى يتفوق بهــا أعداؤهم ، فأنشأوا فى أربع

---

(١٣) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ٢ ص ١٤٣ .
(١٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٩٧ .

وعشرين ساعة معملا للبـــارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، وأنشأوا معملا لاصـــلاح الأسلحة والمـــدافع ، ومعملا آخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصـــناع للعمل فيـــه ، وقـــدموا مالديهم من الحـــــديد والآلات والموازين قال الجبرتى : « وأحضروا لهم مايحتـــاجون اليه من الأخشـــاب وفروع الأشجار والحـــدايد ، وجمعوا الى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك فصار هذا كله يصنع ببيت القاضى والخان الذى بجانبه والرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشـــهد الحسينى » [١٥] .

ويذكر شاهد عيان لتلك الثورة [١٦] أن سكان القاهرة قاموا « بما لم يستطع أحـــدا أن يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنـــابل ، من حديد المساجد وأدوات الصـــناع ، وفعلوا مايصـــعب تصديقه — وما راء كمن سمع — ذلك أنهم صنعوا المدافع » [١٧] .

ولعل مايمكن أن نستمده من عبرة من تاريخ نضال أسلافنا ضـــد الاستعمار الأوربى ، أن الثورة الصـــناعية والتقـــدم التكنولوجى لن نظفر به الا من خلال معاركنا الضـــارية التى تنضـــج الفكر وتشـــعل طاقتـــه الـــكامنة الجبـــارة ، فالاختراع وليد الحاجة كما يقولون . وعلى العكس من ذلك لن نحرز تقـــدما تـــكنولوجيا من خلال فترات الوداعة والاستسلام والرضوخ للأجانب .

يقول محمـــد جلال كشـــك أن « ثوار القاهرة هم الذين وضعوا

---

(١٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٩٨ .

(١٦) المسيو مارتان أحد مهندسى الحمـــلة فى كتابه « تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر »

(١٧) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ١٤٦ نقـــلا عن مارتان .

أقدامهم على درب التكنولوجيا ، لأنهم قرروا القتال ضد الحضارة الغربية ، فمن يعادى الحضارة الغربية ، ويكون جادا فى قهرها ، لابد أن يكتشف وأن يمتلك وسائل تفوقها ... ومائة ألف متعاون مثل (يعقوب) ومائة ألف متردد على بيت « حسن كاشف » حيث كانت المكتبة والآلات العلمية للحملة ، لم يكن ليفيدهم تعاونهم ولا انبهارهم ، فى كسب التكنولوجيا الغربية » (١٨) .

وخشى كليبر فى بادىء الأمر عاقبة الاندفاع فى مهاجمة القاهريين فعمد أولا الى احكام الحصار حول القاهرة ، ومنع الاتصال بينها وبين المدن والقرى المجاورة ، ولجأ الى الحيلة والخداع ، فعمل على تفريق العناصر الثلاثة الموجودة داخل القاهرة وهم (الأتراك ، والمماليك ، والمصريون) فبدأ فى مفاوضة الأتراك على أن يخرجوا من المدينة بسلاحهم ، وبدأ أيضا فى مفاوضة مراد بك وكان قد قرب بجيشه من القاهرة ، وأشرف على دخولها . فتوقف على مشارفها ريثما يتم الصلح مع الفرنسيين .

وتوجه كليبر الى القاهريين ولجأ الى أقسى أنواع العنف فى قمع ثورتهم وسلط مدافعه على المدينة تنشر فيها الدمار والخراب ، وعهد الى الجنرال رينيه أن يصوب نيرانه الى الجامع الأزهر مركز تنظيم المقاومة وتعبئة الروح الجماهيرية للقتال ، وشدد الفرنسيون الحصار على القاهرة وبولاق وأشعلوا النيران بهما .

وجرى على سكان القاهرة من الأهوال « مالا يسطر فى كتاب ولم يكن لأحد فى حساب » (١٩) وغلت الأقوات بسبب حصار القاهرة ،

---

(١٨) محمد جلال كشك — ودخلت الخيل الأزهر — مرجع سبق ذكره — ص ٣٣٠ .

(١٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٠٣ .

وكان ذلك دافعا الى انتشار النهب والسلب بسبب المجاعة التى حلت وسرعان ما أحرز الفرنسيون نجاحا كبيرا فى القضاء على الثورة اذ نجح كليبر فى مهادنة مراد بك[٢٠] ، فعقد معه معاهدة صداقة فى ٥ أبريل (١٨٠٠) وكان لهذه المعاهدة أثر كبير فى القضاء على ثورة القاهرة فقد أقبل مراد مباشرة على مساعدة الفرنسيين فى اخماد الثورة ، فقدم لهم المؤن والذخائر ، وأرسل لهم عددا من المراكب المحملة بالحطب والمواد الملتهبة لاحداث الحرائق فى القاهرة، وبذلك تمكن الفرنسيون من اخماد الثورة بفضل الحرائق التى أشعلوها فى الأحياء الوطنية وفى حى بولاق على وجه الخصوص ، كما ساعدهم مراد فى احكام الحصار حول القاهرة لاجبارها على التسليم.

وعندما أشرفت المدينة على الهلاك طلب القاهريون التسليم وأبرموا صلحا مع الفرنسيين فى ٢١ أبريل ١٨٠٠ وحصل الجنود العثمانيون على مهلة ثلاثة أيام للخروج من القاهرة ، هم ومن تبعهم

---

(٢٠) مراد بك حمل لواء المقاومة ضد الفرنسيين فى الصعيد ، وطارده الجنرال ديزيه فى أرجاء الصعيد مدة عام بطوله ، وكبده خسائر فادحة ، وقبل مراد بك معاهدة الصداقة مع الفرنسيين لأنه لم يدفع الميرى للباب العالى سنين طويلة ، كما انه خشى من استعداد الأتراك فى سوريا للزحف على مصر واستردادها ، فأصبح يخشى أن يعمد العثمانيون بعد انتصارهم الى طرد المماليك أنفسهم من مصر بعد طرد الفرنسيين ، وقويت شكوكه بعد ان نشر الفرنسيون شروط معاهدة العريش ، لذلك اقدم على عقد هذه المعاهدة تدفعه اليها مصلحته الشخصية ، وقامت السيدة نفيسة المرادية ، زوجة مراد بك بدور كبير فى ابرام هذه المعاهدة ، فقد ظلت هذه السيدة بالقاهرة ولم تخرج مع زوجها الى الصعيد ، واظهر بونابرت ، ثم كليبر من بعده كثيرا من ضروب العناية والاحترام لهذه السيدة، فكان هذا سببا آخر دفع مراد الى التقرب الى الفرنسيين بهذه المعاهدة ، وكانت المراسلات الأولى بينهما عن طريق السيدة نفيسة المرادية . وهذه المعاهدة تتنافى مع ما أعلنه بونابرت فى منشوراته وبياناته الى المصريين من انه انما جاء الى مصر لمحاربة المماليك وانهاء حكمهم ومحوهم من الوجود.

من المماليك وبعض زعمـــاء القاهرة ممن اشتركوا فى الثورة ، وخافوا من انتقـــام الفرنسيين منهم ، أمثال السيد عمر مكرم ، والسيد أحمد المحروقى كبير التجار وغيرهم •

موقف رجال الأزهر من هـــذه الثورة :

كانت زعامة هـــذه الثورة قدرا مشتركا بين الأزهريين والعثمانيين والمماليك فقد أطلق العثمانيون الشرارة الأولى للثـــورة بدخولهم الى القاهرة عقب معركة عين شمس • وقـــد اشترك فيهـــا العلماء الشبان الذين ينتمون الى الصـــف الثـــانى من علماء الأزهر وكان على رأسهم أولاد العلماء الـــكبار أمثال : « سيدى محمد نجل الشيخ الجوهرى ، وسيدى محمد نجل الشيخ الأمير » والشيخ فتوح الجوهرى ابن الشيخ الجوهرى الـــكبير • وكان دور هؤلاء الشباب هو حشـــد الجمـــاهير وتعبئتهم للقتـــال كما يبـــدو من كلام الجبرتى فقد قال : « هذا والاغا والوالى يكررون المناداة وكذلك بعض أولاد العلماء كسيدى محمد نجل الشيخ الجوهرى وسيدى محمد نجل الشيخ الأمير والسيد عمر نقيب الأشراف » [٢١] •

أما الصف الأول من كبار العلماء فقـــد تحملوا امداد الثوار بما يحتاجون اليه من مال لشراء الأسلحة وامداد المقاتلين بالزاد والعتاد ، وكان الشيخ محمد السادات والشيخ مصطفى الصاوى أول من بـــذلا المـــال فى هذا الصدد فالجبرتى يذكر بأن الشيخ السادات دفع عشرة أكياس [٢٢] كما دفع الشيخ مصطفى الصاوى جملة من الأكياس أيضـــا لم يعينها الجبرتى[٢٣] •

---

(٢١) الجبرتى — مظهر التقديس — ج ٢ ص ٤٥ •

(٢٢) يحتوى الـــكيس على خمسمائة قرش عثمانى والقرش به ٤٠ بارة (نصف فضة) أى مايقرب من عشرين قرشا حاليـــا ، وكانت البـــارة والقرش هما أساس التعامل فى عصر الجبرتى •

(٢٣) الجبرتى — مظهر التقـــديس — ج ٢ ص ٤٥ •

أما الزعيم عمر مكرم فقــد اشترك فى الثورة بدور كبير وكانت له قيــادة الجمــاهير ، ومن ثم فقد خرج مع العثمانيين عقب ابرام الصلح وخشى من انتقــام الفرنسيين منه ان هو بقى فى القــاهرة ، وهنــا نجــد أن عمــر مكرم كان الى ذلك الوقت يربط كيانه السياسى ومستقبله بدعامتى الحكم العثمانى اللتين تتمثلان وقتــذاك فى الوالى والأمراء المماليك . ولا يستطيع المرء أن يجد تفسيرا لخروج عمر مكرم من القاهرة الا أنه أراد أن يكون بمفازة من تنكيل الفرنسيين به [٢٤] .

أما بقيــة الصف الأول من العلماء من أعضــاء ديوان القاهرة ، فقد كان دورهم هو التوسط عنــدما أصبح الثوار فى خطر ، فقد سعوا الى حقن الدماء ، وأصــابهم بسبب ذلك الشر الــكثير ، فعندما أرسل الفرنسيون يطلبون وفــدا من العلماء من أجل الصلح وانهاء القتال ، ذهب الشرقاوى والمهــدى والمرسى والفيــومى وغيرهم ، ذهبوا الى كليبر ، واتفقوا معه على « وقف القتال وأن يعطى أهل مصر أمانا شافيا، وأن البــاشا والــكتخدا ومن معهما من الجنود العثمانيين يخرجون من مصر ويلحقون بالعرضى [٢٥] وعلى الفرنساوية القيــام بما يحتاجون اليه من المؤنة والذخيرة حتى يصلوا الى معســكرهم ، وأما الأجنــاد المصرية فمــن أراد منهم المقــــام بمصر فليبــق ومن أراد الخروج فيخرج » [٢٦] وأخذ العلماء عهدا على كليبر بعدم الانتقام من الشعب بعد خروج المماليك والعثمانيين من القاهرة .

غير أن المشايخ أهينوا من الثوار عندما رجعوا اليهم بهذه الشروط

---

(٢٤) د. عبد العزيز محمد الشناوى — عمر مكرم .. مرجع سبق ذكره — صص ٧٧ — ٧٨ .

(٢٥) العرضى كلمة مأخوذة من الــكلمة التركية (أوردو) ومعنــاها الجيش أو الفيلق وتؤدى معنى المعسكر ، والمراد بهــا هنا معسكر الجيش العثمانى (الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ٢ ص ١٥٣ حاشية (١)) .

(٢٦) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ١٠٣ — ١٠٤ .

« وقاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى • والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ، ومرادهم خذلان المسلمين ••• وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول » (٣٧) ونادى بعض الثوار بقوله : « الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضربت عنقه » (٣٨) •

وكان ممن أهين ابان حوادث الثورة الشيخ خليل البكرى فقد أشيع عن ابنته أنها كانت تتصل ببونابرت ، واتهمه الثوار أيضا أنه يوالى المستعمرين ويرسل اليهم الأطعمة ، وقد هاجم الثوار داره ، ونهبوها ، وأضرموا النار فيها ، وسحبوه مع أولاده وأخرجوه ماشيا على أقدامه ورأسه مكشوف ، لولا أن عثمان كتخدا أنقذه منهم ، وآواه التاجر أحمد محمود محرم فى داره مع حريمه ، وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انتهت الثورة (٣٩) كما أحرق الثوار بيت الشيخ محمد المهدى سكرتير الديوان •

وعلى الرغم من أن العلماء تحملوا هذه الاهانات ابان حوادث الثورة وتحملوا عبء الضرائب الاجبارية للانفاق على الثوار ، فان الفرنسنين أيضا قد أثقلوا كاهلهم بالغرامات بعد انتهاء الثورة •

رأى الجبرتى فى الثورة :

كره الجبرتى تلك الثورة ومحركيها لما نزل ابانها بالشعب من الارهاق والتعب حتى هلك الناس ، وشكا غالبية الشعب من

---

(٢٧) المصدر السابق — ج ٣ ص ١٠٤ •

(٢٨) تزعم هذا الاتجاه قائد المقاتلين من المغاربة ولم يذكر الجبرتى اسمه ، واتهمه الجبرتى بأنه كان يود دوام القتال لأنه يتيح له ولطائفته جو السلب والنهب •

(٢٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٩٨ •

ايذاء العثمانيين للرعية وخطفهم مايجدونه معهم ، حتى تمنوا زوالهم ، ورجوع الفرنسيين على حـد قوله ، وكانت نظرية الجبرتى فى الثورة أن يكون القـائمون بهـا أقوياء بالسلاح حتى يقاتلوا بجد ، واذا لم يكن لديهم اسـتعداد مسبق للقتـال فأولى بهم أن يتجنبوا الاشتباك مع الأعداء حتى يستعدوا لذلك ؛ « وقـد قيل قاتل بجـد والا فدع ، وقال الشعبى من جملة كلام : وصادفنا فتنـة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء » [٣٠] •

« ومن أمثال العـامة : اصبر على الجار السوء ، فاما أن يرحل واما أن يموت ، وفى بعض الآثار (انا لنبش فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم) » [٣١] •

كما راعه تلك المشاهد المؤسفة التى أهين فيها كبار المشـايخ من عامة الثوار ، وكان ذلك فى نظره « بسبب غلبـة الجهـلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء » [٣٢] وجاءت مذكرة الشيخ السادات التى كتبهـا الى عثمان كتخـدا الدولة ؛ وأرسـلها اليه على يد أحمد المحروقى معبرة عن وجهة نظر الجبرتى ، وأثبت الجبرتى صورتها وفيما يلى نصها : « حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وما هى من الظالمين ببعيد •

ظننت أنـك عـدتى أسطو بها   ويدى اذا اشتدالزمان وساعدى
فرميت فيـك بغـير ما أملتـه   والمرء يشرق بالزلال البـارد

أما بعد فقـد نقضت عهـدى وتركت مودة آل بيت جدى وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين السفلة فأعنتهم على البغى والجور وسـارعت فى تنجيز مرامهم الفاسـد على الفور من الزامكم الـكبير

---

(٣٠) المصـدر السابق — ج ٣ ص ٩٣ •
(٣١) الجبرتى — مظهر التقـديس ، ص ١٩٩ •
(٣٢) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٣ ص ١٠٣ •

والصغير والغنى والفقير اطعــام عســكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات وبلغ فى النهب والفساد غاية الغــايات فكان جهــادهم فى أماكن الموبقـــات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى فاستحكم الدمار والخراب ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب فبــذلك كان عسكركم مخذولا وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا كيف لا وأكابركم أضمرت السوء للمرتزقة فىتضييق معايشهموأخذ مرتباتهم واتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقــاتهم وقــد أخفتم أهل البــلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنــة بعد طفئها ثم فررتم فرار الفيران من النسور وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور فواغوثاه واغوثاه اغثنا ياغيـــاث المستغيثين واحكم بعدلك يا أحكم الحاكمين وانصرنا وانتصر لنا فاننا عبيدك الضعفاء المظلومون يا أرحم الراحمين » (٣٣) .

موقف كليبر من الثوار :

على الرغم من أن الجنرال كليبر تعهــد بأن يعفو عفوا عاما عن جميع أهالى القــاهرة ، وعن المصريين الذين اشـــتركوا فى الثورة ، ولــكنه نقض عهده عقب دخوله الى القــاهرة ، فعنــدما ذهب كبــار المشايخ والأعيــان اليه عنفهم ولامهم على مافعــله الثوار ، وحملهم مسئولية ماحدث وهددهم باحراق القــاهرة وقتل أهلها عن آخرهم ، وطلب منهم عشرة ملايين فرنــك (٣٤) وتحمل العلمــاء من هــذا المبلغ الضخم قــدرا كبيرا حيث تحمل الشيخ السادات (٥٣٥٠٠٠ فرنك) وكان مبلغــا ضخما لايحتمل . والشيخ محمد بن الجوهرى (٥٠٠٠٠ فرنك) وأخيــه الشيخ فتوح (٥٠٠٠٠ فرنك) وتحمل الشيخ مصطفى

---

(٣٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ١٠٨ — ١٠٩ .

(٣٤) الجبرتى — عجــائب الآثار ج ٣ ص ١١٢ وهــذا المبلغ طبق ما أورده الجبرتى وتذكر المصادر الفرنسية ومنها مذكرات نابليون بأن الغرامة كانت ١٢ مليون فرنك (الرافعى تاريخ الحركة القوميــة — ج ٢ ص ١٧١ حاشــية (١)) .

الصاوى (٥٠٠٠٠ فرنك) والشيخ العنانى (٢٥٠٠٠٠ فرنك) تخصم من المبلغ نظير نهب دور الفارين من العثمانلى مثل « المحروقى والسيد عمر مكرم ، وحسين أغا شنن ، وما بقى تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على أهل البلد وتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصا ، أنظروا من يكون منكم رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ »(٣٥) .

ولقد كان يوما على المشايخ عسيرا فلقد أغلق الحراس عليهم الأبواب ومنعوهم من الخروج « وبهت المشايخ وامتقعت وجوههم ونظروا الى بعضهم البعض وتحيرت أفكارهم ولم يخرج عن هذا الأمر الا البكرى والمهدى ، لكون البكرى حصل له ماحصل » . والمهدى حرق بيته بمرأى منهم ... ولم تزل الجماعة فى حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل منهم أن لم يكن شيئا مذكورا ، ولم يزالوا على ذلك الحال الى قرب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون فى عرضهم ، فالذى انحشر فيهم ولم يكن معدودا من الرؤساء أخرجوه بحجة أو سبب ، وبعضهم ترك مداسه وخرج حافيا وما صدق بخلاص نفسه » (٣٦) .

ثم استأذن الشيخ المهدى (وكان ممن أعفى كما سبق) للمشايخ بالانصراف « الخالص نتوجه حيث أراد والمشبوك يلزمون به جماعة من العسكر حتى يغلق المطلوب منه » (٣٧) فانصرف الجميع وقبضوا على الصاوى وفتوح بن الشيخ الجوهرى وحبسوهما ببيت قائمقام واما الشيخ العنانى فهرب ولم يجدوه واحترقت داره فأضافوا غرامته على غرامة الشيخ السادات .

---

(٣٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١١٢ .

(٣٦) ، (٣٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص‌ص ١١٢—١١٣ .

اهانة الشيخ السادات :

أما الشيخ السادات فقــد حبسه الفرنسيون فى القلعة ورغم أن عثمان بك البرديسى [٣٨] تشفع له لدى الفرنسيين ولــكن الفرنسيين قالوا له : أما القتل فلا نقتله لشفاعتك وأما المــال فلابد من دفعــه ، ولابد من حبســه وعقوبتــه حتى يدفعــه » [٣٩] ثم أنزلوه الى بيت قائمقام فمكث به يومين ثم أصــعدوه الى القلعــة ثانيا وحبسوه فى حاصل [٤٠] ينــام على التراب ويتوسد بحجر وضربوه ثم طلب « زين الغفار كتخدا فطلع اليه هو وبرطلمين فقال لهما أنزلونى الى دارى حتى أسعى وأبيع متاعى وأشــهل حالى ، فاســتأذنوا له وأنزلوه الى داره فأحضر ماوجــده من الدراهم .. ثم قوموا ماوجــدوه من المصــاغ والفضــيات والفراوى والمــلابس وغــير ذلك بأبخس الثمن .. فبلغ المــدفوع بالنقدية والمقومات ٢١٠٠٠ ريال فرانسه [٤١] . والمحافظون عليه من العسكر ملازمونه لايتركونه يطلع الى حريمه ولا الى غيره .. وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا فى الصــباح ومثلها فى الليل .. وحبسوا زوجته معه ، فكانوا يضربونه بحضرتهــا وهى تبكى وتصيح وذلك زيادة فى الانــكاء ، ثم أن المشــايخ وهم الشرقاوى والفيومى

---

(٣٨) عثمان بك البرديسى من زعماء المماليك من اتباع مراد بك ، وكان قــد ذهب مع الذين توسطوا فى الصلح لدى الفرنسيين أثناء ثورة القاهرة الثانية كما كان البرديسى هو الذى أبرم المعاهدة التى وقعت بين مراد بــك والفرنسيين (فى ٥ أبريل سنة ١٨٠٠) وكان فيها نائبا عن سيده مراد بك .

(٣٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١١٣ .

(٤٠) الحاصل هو المخزن بلغــة ذلك العصر وما زالت هذه الــكلمة مستعملة فى ريف مصر الى الآن .

(٤١) ذكر الجبرتى فى حوادث شوال سنة ١٢٠٣ هـ أن قيمة الريال الفرانسه فى هذه الأثناء كانت ١٠٠ نصف فضه (الجبرتى — عجائب الآثار ج ٢ ص ١٩١) .

والمهدى والشيخ محمد الأمير تشفعوا فى نقلها من عنده فنقلوها الى بيت الفيومى ، وبقى الشيخ على حاله وأخـــذوا مقـــدمه وفراشـــه وحبسوهما وتغيب أكثر أتباعه واختفوا » [٤٢] .

ولقد ساءت حالة الشيخ الســادات لأن الفرنســيين أسرفوا فى اهانتـــه وعم السخط رجال الأزهر فقـــد كان له به كثير من الأتبـــاع بالاضـــافة الى أتباعه من الشعب وبلغ من اهانتـــه أنه أصبح يتشفع بكبار القبط الذين علا مركزهم لدى الفرنسيين تحت قيـــادة زعيمهم المعلم يعقوب القبطى الذى وكل اليه الفرنسيون جمع المـــال المفروض وأصبح يروح ويغدو تتبعـــه الأعوان والعســـاكر ، فعرض السادات على كبار القبط رهن حصصه ، ولـــكن القبط أخبروه « بأنه لابـــد من تشهيل قـــدر نصف البـــاقى أولا ولا يمكن غير ذلك ، وأما الحصص فليست فى تصرفه ولمـــا تكرر ارســـاله للنصـــارى وغيرهم نقلوه الى القلعـــة ومنعوه الاجتماع بالنـــاس » [٤٣] وذلك فى ٥ محرم ســـنة ١٢١٥ هـ (٢٩ مايو سنة ١٨٠٠) .

والواقع أن الفرنسيين كانوا يعتقدون أنه هو المسئول عن ثورة القاهرة الأولى ولولا أن الفرنسيين خافوا مما يحدثه اعدامه من عواقب وخيمة ضـــد جيش الاحتـــلال لأعدموه بعـــد ثورة القاهرة الأولى . فان بونابرت رأى أن يبقى عليه لمـــا اعتقـــده من أن الحكم باعدامه — يضر بمركز الفرنسيين أكثر مما ينفعهم وذكر نابليون فى مذكراته « أن الجنرال كليبر راجعه فى رأيه هذا عقب اخمـــاد الثورة الأولى أكتوبر ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) وسأله كيف لايقضى باعـــدامه وهو زعيم الثـــورة

---

(٤٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ١٦٣ — ١١٤ .

(٤٣) المصدر السابق — ج ٣ ص ١٢١ .

فأجابه نابليون أن اعــدام مثل هذا الشيخ الجليل لايفيد الفرنسيين بل يؤدى الى عواقب وخيمة » [٤٤] .

وقال نابليون عن الشيخ السادات فى موقع آخر عند الــكلام على أخماد ثورة القاهرة الثانية : « ان السادات قــد خص بغرامة فادحة، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين على أنهم أسرفوا فى اهانته لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده ، فقد رفض أن يدفع الغرامة فاعتقل وسجن بالقلعة ولم يعبأ بالتهــديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالعصى ، وهكذا ضرب السادات وأهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب ، وكانت هــذه المعــاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة سنة ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) فقــد قابله بالعفو والتسامح مع قيــام البينات عليه بأنه زعيم الثورة [٤٥] .

وبقى الشيخ السادات مسجونا بالقلعــة الى أن قتــل الجنرال كليبر على يد سليمان الحلبى وتولى قيــادة جيش الاحتلال الجنرال منو فأطلق سراحه وذلك بعــد أن سدد الغرامة المفروضة عليه فى ٢٦ صفر ١٢١٥ هـ (١٩ يوليو ١٨٠٠ م) كما يقول الجبرتى : « وفى سادس عشرينه (صفر) أفرجوا عن الشيخ السادات ونزل الى بيته بعد أن أغلق [٤٦] الذى تقرر عليه واستولوا على حصصه واقطــاعه وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أســلافه وشرطوا عليه عــدم الاجتماع بالنــاس وأن لايركب بدون اذن منهم ويقتصد فى أموره ومعاشه ويقلل أتباعه » [٤٧] .

---

(٤٤) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — جـ ٢ ص ١٧٥ نقلا عن مذكرات نابليون .

(٤٥) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — جـ ٢ صص ١٧٥ — ١٧٦ نقلا عن مذكراه نابليون .

(٤٦) أغلق الذى عليه يعنى أكمل دفعه للفرنسيين .

(٤٧) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٤٢ .

تعــذيب السادات :

وقد ذكر الجبرتى أنه يقال أن مراد بك هو الذى أغرق الفرنسيين بزيادة قهر الشيخ السادات بعد صلح الأول معهم « وعمل لهم ضيافة فى بر الجيزة » وسبب عداء مراد للشيخ الســادات أنه عنــدما حضر الفرنسيون الى الاسكندرية وزحفوا على القــاهرة • واجتمع الأمراء بالمشايخ ليشاوروهم فى أمر القتــال تــكلم الشيخ السادات مخاطبا الأمراء بالتوبيخ قائلا : « كل هــذا (بسبب) سوء فعالــكم وظلمكم وآخر أمرنا معكم ملــكتمونا للافرنج » ثم وجه الخطاب الى مراد بك — قائلا له : « وخصوصا بأفعالك وتعديك أنت وأمرائك على متــاجرهم وأخذ بضائعهم واهانتهم » فأسرها مراد للسادات فى نفسه وكتم حقده حتى اصطلح مع الفرنسيين فأغراهم باهانة الشيخ السادات ففعلوا به ماذكرنا وذلك فى اليوم الثانى من الضيافة [٤٨] •

هجرة علماء الأزهر من الاضطهاد :

وهكذا نكل الفرنسيون بكثير من علماء الأزهــر ورجاله واشــتد اضطهادهم لهم فى عصر الجنرال كليبر حتى اضــطر بعضهم الى ترك القاهرة والفرار الى الأقاليم أو الى الشــام وممن ترك القــاهرة فى هذه الفترة الشيخ (حسن العطار) [٤٩] صــديق الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فقــد ترك القــاهرة مهاجرا الى أســيوط فأقام بها ثمانيــة عشر شهرا ، وكان يراسل الجبرتى فى هــذه الفترة بمراســلات ذكر بعضها فى كتابه [٥٠] وكان ممن خرج بعد هــذه الثورة هاربا لفداحــة الغرامة التى فرضت عليه هو (الشــيخ العنانى) الذى هــرب ولم

---

(٤٨) المصــدر السابق ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٤٩) انظر ترجمة الشيخ العطار فى الفصل العاشر من هذا البحث .

(٥٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ١١٤ — ١١٦ .

يجدوا له أثرا وأحرقوا داره [٥١] وكذلك هـــرب الشيخ (محمـــد بن الجوهرى) فانه اختفى فلم يجـــدوه ونهبوا داره ودار نسيبه المعروف بالشيخ الشويخ وتوسل بالست نفيسة المرادية فرفعت عنه الغرامة [٥٢] وكان ممن هاجر الى الشام الشيخ (شامل أحمد بن رمضان الطرابلسى) شيخ رواق السادة المغـــاربة بالجامع الأزهر خرج الى بيت المقدس ثم توفى بها فى نفس السنة التى خرج فيهـــا من مصر [٥٣] كما هاجـــر الشيخ عبد الفتـــاح بن الجوهرى الشهير بفتوح الجوهرى سافر الى بلدة جارية فى التزامه يقال لها كوم النجار [٥٤] .

ولقد زادت هجرة العلمـــاء من العاصـــمة وخاصـــة بعـــد مقتل الجنرال كليبر ، وزادت الريبـــة وخاف العلماء الاضطهاد ، وعنـــدما عرف الفرنسيون عزم العلماء خافوا من عاقبة ذلك وأعلنوا على الناس أوامر بعـــدم انتقـــال الناس ورجوع المسافرين ومن لم يرجع بعـــد ١٥ يوما نهبوا داره يقول الجبرتى فى حوادث شـــهر صـــــفر ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) « فى أوائله سافر بعض الأعيان من المشايخ وغيرهم الى بلاد الأرياف بعيـــالهم وحريمهم ، وبعضهم بعث حريمه وأقام هو ، فسافر الشيخ (محمـــد الحريرى) الى أسيوط وصحب معـــه حريم الشيخ السحيمى و (حريم) صهره الشيخ المهدى فلما رآهم النـــاس عزم الـــكثير منهم على الرحلة واستأجروا المراكب والجمـــال وغير ذلك فلما أشيع ذلك كتب الفرنسيون أوراقا ونادوا فى الأسواق بعدم انتقال

---

(٥١) المصـــدر السابق — ج ٣ ص ١١٣ .

(٥٢) المصـــدر السابق — ج ٣ ص ١١٤ .

(٥٣) أنظر ترجمة الشيخ شامل فى عجائب الآثار للجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٤ هـ ج ٣ ص ١١٩ .

(٥٤) أنظر ترجمة الشيخ فتوح بن الجوهرى فى عجائب الآثار للجبرتى وفيـــات ســـنة ١٢١٥ هـ ج ٣ ص ١٧٥ وانظر ترجمـــة موجـــزة له فى الفصـــل العـــاشر .

النـــاس ورجوع المسافرين ومن لم يرجع بعد خمسة عشر يوما نهبت داره فرجع أكثر الناس ممن سافر أو عزم على السفر الا من أخذ له ورقة بالاذن من مشاهير الناس » (٥٥) .

وهكـــذا ظل الأزهـــر منذ ذلك الحين يزداد نقمة على الفرنسيين ويزداد الفرنسيون امعانا فى مراقبتـــه واضـــطهاد رجاله وعلمائه . وكثيرا ماكان الفرنسيون يدخلونه بأسلحتهم غير مبالين بما له من مرتبة فى نفوس أهل مصر وشيئا فشيئا اشـــتد الجفاء بين أهل مصر وبين الفرنسيين ولم تعد هناك مودة ظاهرة كما كان ذلك أيام بونابرت .

اشتداد نفوذ القبط وسيطرتهم :

بعد ثورة القـــاهرة الثانيـــة اشتد نفوذ القبط وزادت سيطرتهم ووكلهم الفرنسيون بجمع المـــال المطلوب تحت قيـــادة زعيمهم (المعلم يعقوب) القبطى ، وقـــد مر بنـــا كيف تشفع بهم الشيخ الســـادات ليخففوا عنه مافرض عليه من غرامات وتبع ذلك « تطاول النصارى من القبط والنصارى من الشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم ، وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكانا وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين » (٥٦) .

ولقد تشدد القبط فى معـــاملة المسلمين فى هذه الفترة ، وتشبه القبط بالأمـــراء المماليـــك فى الاقامة بالأقاليم فنزل كل كبير منهم الى اقليم وأقام بعاصمته مثل الأمير الـــكبير ومعهم العساكر الفرنسيون وأحاطوا أنفسهم بالأبهة والعظمة والكتبة والصيارف والأتباع والأجناد والخيام والخـــدم والفراشين والطباخين والحجاب وغير ذلك مما يحيط بالحكام ويرسل الى ولايات الأقاليم الذى نزل به المأمورون من القبط

---

(٥٥) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٤١ .
(٥٦) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١١٤ .

أيضا بمنزلة الكشاف ومعهم العساكر الفرنسيين والطوائف والجاويشية وغـــيرهم فينزلون على البـــلاد والقـــرى ويطلبون المـــال والضرائب الشـــاقة بالعسف والظلم وأذاقوا النـــاس أنواعا شتى من النـــكال واضطر الناس الى مصانعتهم ومصانعة أتباعهم بالمـــال والرشـــا حتى أجهدوا الناس من ظلمهم (٥٧) •

وقـــد أدرك بعض القبط أنهم أمعنوا فى خيانة اخوانهم المسلمين ابان عصر الحمـــلة الفرنسية ، ولذلك غادروا مصر مع الحملة الفرنسية تاركين وطنهم لخوفهم من الانتقـــام ، فقد كانوا يعلمون أن ماحـــدث منهم لا يمكن أن يغفره لهم العثمانيون ومن ثم خرجوا مع زعيمهم المعلم يعقوب كبير المبـــاشرين الذى كان قـــد أمعن فى خيانتـــه للشعب ، حيث يذكر بعض أشياعه(٥٨) :

أن الفرنسيين كلفوه بتنظيم شبكة مخابرات على الشعب لصـــالح الفرنسيين كانت تمتد من مصر الى سوريا قبل جلائهم عن مصر بخمسة شهور (٥٩) •

قتل كليبر واغلاق الجامع الأزهر :

عقب اخمـــاد ثورة القاهرة الثانية جرى على رجال الأزهر ماجرى من اضطهاد العلماء واهانتهم كما سبق أن شرحنا • واضطر كثير منهم الى مغادرة القاهرة الى الأقاليم ، وضـــيق الفرنسيون الخنـــاق على

---

(٥٧) أنظر وصفا مفصـــلا لمـــا قام به القبـــط فى هـــذا الشأن فى عجائب الآثار للجبرتى ج ٣ صص ١١٨ — ١١٩ .

(٥٨) د. لويس عوض — تاريخ الفكر المصرى الحديث ج ١ ص ٢٠٢

(٥٩) أنظر العرض الوافى الذى قدمه محمد جلال كشك — عن الجنرال العميل — المعلم يعقوب فى مؤلفه — ودخلت الخيل الازهر — الفصل الثامن صص ٤١٩ — ٤٦٣ .

العلماء وأكثرا من دخول الأزهر لمراقبة تحركات أساتذته وطلابه لعلمهم أنهم زعمـــاء الثورات والاضطرابات ، وحدث للشعب المصرى ماحدث لزعمـــائه بل أشد نكالا • من فرض الضرائب ومصادرة الأموال وغير ذلك من الأهوال • حتى شحت الأقوات ، وتسلط على الشعب النصارى من القبط وغيرهم ممن أرخى لهم الفرنسيون العنان فسلطوا عليه جام غضبهم وسوط عذابهم ، فأصبحت الحالة فى القاهرة لاتطاق •

وفى هـــذا الجو الذى ازداد فيـــه الجفاء بين المصريين والمحتلين وقع حادث اهتزت له القاهرة وتهدد الأزهر بأخطـــار شـــديدة ، ذلك الحادث هو اغتيال الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية على يد طالب من طلبـــة الأزهر هو سليمان الحلبى — فى ١٤ يونيـــة سنة ١٨٠٠ م (٢١ محرم سنة ١٢١٥ هـ) •

لقد كان الجنرال كليبر يقيم فى بيت الألفى بالأزبكيـــة ، ولـــكن هـــذا البيت الذى كان مقرا للقائد العام قـــد أصابته أضرار كثيرة من قنابل الثوار ، فأقام كليبر مؤقتا بالجيزة بجوار المركز العـــام لأركان الحرب حتى يتم اصـــلاح قصر الألفى ولـــكنه فى يوم ١٤ يونية ١٨٠٠ (٢١ محـــرم ١٢١٥ هـ) جاء من الجيزة ومعـــه المهنـــدس المعمـــارى المسيو بروتان Protain ليفحص أعمـــال الترميمات الجارية فى مقر القيـــادة العـــامة بالأزبكية ، ثم تنـــاول الغـــــذاء فى بيت الجنرال داماس الذى كان يقيم فى دار مجاورة لمقر القيـــادة العـــامة ، وكان يربط بين هذه الدار ومقر القيادة ممر طويل فوقه تـــكعيبة من العنب ، وخرج كليبر بعد الغذاء ومعه المهنـــدس بروتان ليتفقد أعمال الترميم بمقر القيـــادة وبينما هما يســـيران فى ذلك الممر طلع عليهما سليمان الحلبى متنكرا فى هيئـــة متسول يطلب صـــدقة « فأشار اليه كليبر — بالرجوع ، وقال له : مافيش ، وكررها فلم يرجع ، — ولـــكن سليمان — أوهمه أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها فلما دنا منه كليبر مد سليمان

ـ اليه يده اليسرى كأنه يريد تقبيل يده ، فمد اليه الآخر يده ، فقبض سليمان عليه وضربه بخنجر كان أعده فى يــده اليمنى أربع ضربات متوالية ، فشق بطنـــه وسقط الى الأرض صارخا فصاح رفيقه المهندس فذهب ســـليمان اليـــه وضربه أيضـــا عـــدة ضربات وهـــرب »[٦٠] ولكن ســـليمان الحلبى لم يذهب بعيدا عن مسرح الجريمـــة ذلك أنه اختفى « فى البستان المجـــاور لبيت ســـارى عسكر المعـــروف بغيط مصباح بجانب حائط متهدم » [٦١] .

عندما سمع الحراس من العسكر الذين كانوا خارج باب القصر صرخة المهنـــدس دخلوا الى مكان الاستغاثة مسرعين فوجدوا قائدهم كليبر مضرجا بدمائه يعـــانى سكرات الموت ، والمهندس بروتان ملقى هو الآخر على بعد أمتار منه ولم يجـــدوا القـــاتل ، فانزعج الحراس ونادوا بالنفير العـــام وخرجوا مسرعين يجرون فى كل ناحية يفتشون على القاتل ، واجتمع رؤساء الفرنسيين وأرسلوا العساكر الى الحصون والقـــلاع ، وظنوا أن هـــذا الاغتيـــال نتيجة لمؤامرة كبيرة دبرها أهل القاهرة ، وأقبل الجنود الفرنسيون من كل مكان الى ميدان الأزبكية ، وأخذوا يفتشون عن الجانى فى كل مكان ، وتوعدوا النـــاس بالانتقام والأخذ بالثأر ، وهددوا باحراق المدينة ، فسرى الرعب الى النـــاس فـــلاذوا بالفـــرار ودخلوا بيوتهم وأغلقوهـــا عليهم ، وأغلق التجـــار دكاكينهم ، وخلت الطرق من المـــارة ، وأخـــذت دوريات الجنود تطوف الشوارع والأحياء للبحث عن الجانى .

ولـــكن سرعان ماعثر الجنود على القـــاتل بعد ساعة من ارتكاب الجريمة فقـــد « وجدوه منزويا فى البستان المجاور لبيت سارى عسكر

---

(٦٠) الجبرتى ـــ عجائب الآثار ـــ ج ٣ صص ١٢١ ـــ ١٢٢ .

(٦١) المصـــدر السابق ج ٣ ص ١٢٢ .

المعروف بغيط مصباح بجانب حائط متهدم » (٦٢) وحاول سليمان الهرب ولـكن الجنود قبضوا عليه وساقوه الى دار أركان الحرب حيث كان قواد الجيش مجتمعين •

سليمان الحلبى كما صورته مضابط التحقيق :

تبين من استجواب القاتل (٦٣) بعد التحقيق معه أن اسمه سليمان مولود ببلدة حلب بالشام من والد (تاجر) يدعى الحاج محمد أمين ، وأن سنه أربعة وعشرين عاما ، وكان يتكسب من صنعة الـكتابة بالخط العربى ، وتلقى العلم بالأزهر منتسبا الى رواق الشوام ، وقـد ظل بالأزهر ثلاث سنوات قبل هـذا التاريخ وقبل ارتـكاب الجريمة غادر سليمان بلدته حلب وذهب الى بيت المقدس والتقى فى بيت المقـدس بضابط من ضباط الجيش العثمانى اسمه أحمد أغا كان يعرفه سليمان منذ كان رئيسا للانكشارية فى مدينـة حلب وشـكا سليمان لأحمد أغا مظالم والى حلب الذى أرهق والده ، وأجبره على أداء غرامات فادحة ، فوعده أحمـد أغا برفع المظالم عن والده ، ولـكنه اشـترط عليه فى مقابل ذلك أن يذهب الى مصر ويقتـل الجنرال كليبر قائـد الحمـلة الفرنسية ، ثم أرسله الى « ياسين أغا » حاكم غزة وأوصاه أن يعطيه مبلغا من المـال لنفقات السفر ، وسافر سليمان الحلبى من القدس الى

---

(٦٢) المصـدر السابق ج ٣ ص ١٢٢ .

(٦٣) تولى القوميسير (سارتلون) مدير مهمات الجيش تحقيق القضية فكتب محضرا باستجواب سليمان الحلبى عقب الحادثة ، واستجواب المتهمين الآخرين ، وقد استخلصت هـذه المعلومات من كتاب الجـبرتى الذى ذكر التحقيق فى كتابه نقلا عن النسخة العربية وقـد نشر الفرنسيون التحقيق يومئذ باللغات الفرنسية والعربيـة والتركية ، وقـد ذكر الجبرتى هـذه التحقيقات بكاملها وبما فيها من أخطاء لغوية — عجائب الآثار — ج ٣ صص ١٢٢ — ١٤٠ .

الخليل ثم سافر الى غزة وقابل (ياسين أغا) الذى شجعه على قتل الجنرال كليبر ثم وعده أن يرفع الغرامات عن والده ، وأعطى له أربعين قرشا مصاريف السفر من غزة الى مصر ، وقصد سليمان الى سوق غزة فاشترى منها خنجرا •

وسافر من غزة راكبا هجينا يتبع قافلة تحمل الصابون والدخان الى مصر ووصلت القافلة الى ريف يسمى الغيطة فى ناحية الألفية وحطت رحالها هناك عندئذ غير سليمان راحلته فاستبدل بالهجين حمارا استأجره من فلاح من بلدة الغيطة وحضر به الى القاهرة •

وصل سليمان القاهرة فى ١٤ مايو ١٨٠٠ (١٢١٥ هـ) ، وذهب الى معلمه التركى (مصطفى أفندى البروسه لى) [٦٤] وهو شيخ فى الثمانين من عمره ، كان سليمان قد تعلم على يده الخط فى صغره فذهب اليه وسلم عليه لسابق معرفته به وبات عنده أول ليلة غير أنه لم يفض اليه بعزمه ، ثم انتقل من عنده وسكن الجامع الأزهر برواق الشوام فقضى به نحو ثلاثين يوما ، تعرف خلالها بأربعة من المجاورين برواق الشوام هم : محمد الغزى وأحمد الوالى وعبد الله الغزى وعبد القادر الغزى ثم أطلعهم على نيته ، فنصحوه بالاقلاع عن قصده لاستحالة تنفيذه ، ولكنه لم يسمع لنصحهم فرموه بالطيش والجنون •

وبدأ سليمان يتتبع خط سير الجنرال كليبر فتوجه الى الجيزة فى مساء ١٣ يونية حيث كان كليبر ، وسأل الحراس عن موعد خروج الجنرال كليبر فعلم منهم أنه يذهب كل يوم الى حديقة سراى القيادة

---

(٦٤) نسبه الى (بروسه) من بلاد الاناضول بتركيا — ويلاحظ أن الجبرتى كتبها البرصلى وهذا الاستعمال تركى — وقد استعمل الجبرتى اللام والياء للنسبة فى كلمات كثيرة مثل : العثمانلى نسبه الى العثمانيين ، والمماليك المصرلية نسبه الى مصر •

العامة بالأزبكية وفى صباح ١٤ يونية ١٨٠٠ م (٢١ محرم ١٢١٢٥ هـ) تتبع سليمان خطوات الجنرال كليبر فسار على أثره الى جزيرة الروضة ثم عاد وراءه الى الأزبكية بالقاهرة ثم تمكن من التسلل الى حديقة الألفى واختفى فى ساقية بها يترقب مقدم غريمه .

وفى تمام الساعة الثانية بعد ظهر السبت ٢١ محرم ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) مر عليه الجنرال كليبر يصحبه المهندس بروتان فانقض عليهما كما سبق أن شرحنا .

اجراء التحقيق :

حاول سليمان انكار مانسب اليه من جريمة قتل القائد العام والشروع فى قتل كبير المهندسين بروتان ، ولكنه ووجه بعدة قرائن، منها : أن الحائط الذى كان مختفيا وراءه كان به آثار دماء وكانت ملابسه ملوثة بدم الجريمة ، ووجدوا خنجرا فى مكان اختفائه وعلى نصله الدماء . وعندما أخذه الجنود الى منزل الجنرال داماس استجوبه الجنرال منو [٦٥] وتعرف عليه المهندس بروتان الذى كان يرافق كليبر وأرشد اليه من بين طائفة من العمال وضع بينهم خصيصا للتأكد من صحة التعرف ، كما شهد الشهود بأنه كان يتتبع القائد العام منذ عدة أيام . وازاء اصرار المتهم على انكاره ، قرر الجنرال منو احالته على العذاب ، وأحضروا له برتلمى الرومى [٦٦] فشد وثاقه ومازالوا يضربونه حتى « طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح فارتفع عنه الضرب

---

(٦٥) الجنرال منو — عينه كليبر قومندانا للقاهرة فى شهر مايو عقب اخماد ثورة القاهرة الثانية وبقى بها الى أن قتل كليبر فتولى استجواب القاتل بصفته قومندان المدينة واقدم قواد الحملة . وكان قائدا على رشيد منذ قدوم الفرنسيين وقد كان أظهر أنه مسلم وتزوج بامرأة مسلمة من رشيد .

(٦٦) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ٣ ص ١٨٢ .

وانفكت له سواعده وصـــار يحكى من أول وجديد [٦٧] ولمـــا اعترف سليمان بجنايته ، وذكر أنه سكن فى الأزهر برواق الشوام وتعرف على أربعة من طلابه وأسر اليهم بنيته أمروا بالقبض عليهم » .

القبض على شيخ الأزهر وقاضى القضاة :

قال الجبرتى : « ثم انهم أمروا باحضار الشيخ عبدالله الشرقاوى والشيخ أحمد العريشى القاضى ، وأعلموهم بذلك وعوقوهم الى نصف الليل والزموهم [٦٨] باحضار الجمـــاعة الذين ذكرهم القـــاتل ، وأنه أخبرهم بفعله فركبوا وصحبتهم الأغا — محافظ القاهرة — وحضروا الى الجامع الازهـــر وطلبوا الجمـــاعة فوجـــدوا ثلاثة منهم (وهـــم عبد الله الغزى ومحمد الغزى وأحمد الوالى) ولم يجدوا الرابع وهو (عبد القادر الغزى) فأخذهم الأغا وحبسهم ببيت قائمقـــام — حاكم القاهرة — بالأزبكية ثم انهم رتبوا صـــورة محاكمة على طريقتهم فى دعاوى القصاص » وتبين من التحقيق والاستجواب النهائى للمتهمين أن أقوالهم تتلخص فيما يلى :

المتهمون الأربعة مجاورون برواق الشوام بالجامع الأزهر :

أولا : السيد (عبد الله الغزى) شاب فى الثلاثين من عمره ولد فى غزه ورحل الى الجامع الأزهر وجاور فى رواق الشوام ، وصناعته قراءة القرآن الـــكريم ، واعترف بأنه تعرف على سليمان الحلبى القاتل ، ورآه

---

(٦٧) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٢٤ .

(٦٨) يلاحظ أن الجبرتى أخطأ فى الضمائر فجمعها والأصح تثنيتها ، فالأصح أن يقول : واعلموهما ، وعوقوهما ، والزموهما لأن الضمير هنـــا يعود الى الشـــيخ الشرقاوى والشيخ العـــريشى فقط فلزم ضمير المثنى لا الجمع .

لآخر مرة قبيل الحادث بثلاثة أيام ، وأقر فى النهـاية بأن سليمان[٦٩] أعلمه بأنه حضر الى مصر لقتل الجـنرال كليبر وأنه حاول منعـه عن قصـده[٧٠] .

ثانيا : السيد (محمد الغزى) شاب فى الخـامسة والعشرين من عمره ولد فى غزة ورحل الى الجـامع الأزهـر وجاور برواق الشوام . وصناعته قراءة القرآن الـكريم منذ خمسة سنوات بالجـامع الأزهر . قرر فى النهـاية أنه يعرف سليمان منـذ كان طالبـا بالأزهر من ثلاثة أعوام ، وأنه رآه قبل الحادث بيوم واحد ، وأن سليمان تحدث معه فى ذلك اليوم وقال أنه سيرحل فى رحلة لايعود بعدها ونفى نفيا قاطعا أن يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى عنده علم بنية القاتل[٧١] .

ثالثا : السيد (أحمد الوالى الغزى) شاب متوسط العمر من غزة . حضر الى الجامع الأزهر من مدة عشر سـنين وجاور برواق الشـوام ووظيفته قراءة القرآن الـكريم ، وقد اعترف فى النهـاية أن سليمان أخبره عند قـدومه الى مصر أنه جاء ليجاهد فى سبيل الله بقتل أحـد النصارى ، وأنه حاول أن ينصحه بالعدول عن قصده .

رابعا : السيد (عبد القادر الغزى) ولد بغـزة وحضر الى مصر وجاور بالأزهر فى رواق الشوام ، ووظيفته قراءة القرآن وقـد هرب عبد القادر عندما طلبـه الفرنسيون ولم يعثروا عليه غير أنهم حاكموه

---

(٦٩) يلاحظ أن عبد الله الغزى أنكر فى بداية التحقيق أن سـليمان كاشفه بنيتـه فى قتل كليبر ، وعنـدما ووجه باعترافات سليمان وقابلوه به اعترف فى النهاية بمعرفتـه كما ذكرنا غير أن محمد عبد الله عنان يذكر أن عبد الله الغزى أصر على تأكيده بأن سليمان لم يكاشـفه بنيته (تاريخ الجامع الأزهر ص ١٧٧) والأصح ماذكرناه .

(٧٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٣٤ .

(٧١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٣٣ .

غيابيا (٧٢) نظرا لأن سليمان أعلمه بعــزمه على قتــل كليبر ولم يخبر الفرنسيين بذلك ٠

وقــد أدى استجواب المشايخ الأربعــة الى القبض على شخص آخر هو : السيد (مصطفى أفندى البرسه لى) ، معلم تركى سنه احدى وثمانين سنة ، ذكره الشــيخ أحمــد والى وقال ان سليمان كان يذهب للقراءة فى منزله ، وقــد سئل مصطفى أفنــدى عن صلتــه بسليمان فأجاب بأن سليمان كان تلميذه منذ ثلاث سنوات وأنه جاءه عند قدومه الأخير الى القاهرة وبات عنده ليلة ثم طلب منه أن يبحث له عن مثوى آخر حيث لايستطيع لفقــره أن يؤويه فى بيتــه ، وقال انه لم يخبره بسبب حضوره ولم يعرف عن نيته شيئا ٠

محاكمة المتهمين :

وعلى أثر استجواب المتهمــين أصــدر الجنرال منو أمره بتأليف محكمة عسكرية (٧٣) لمحاكمة المتهمين الستة (٧٤) مؤلفة من تسعة أعضــاء من كبار رجال الجيش الفرنسى ، وانعقــدت المحكمة العسكرية يوم ١٦ يونية ، وبعد سماع بيــان المــدعى العام الذى طالب برؤوس المتهمين، ماعدا (مصطفى أفندى البروسه لى) الذى لم يعلم بنيــة القــاتل ، أصدرت المحكمة حكمها الآتى :

---

(٧٢) ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أنه قبض عليه بعد ذلك واستجوبه الفرنسيون (تاريخ الجامع الأزهر ص ١٧٨) غير أننى لم اجد فى التحقيقات التى أجراها الفرنسيون للمتهمين استجوابا له كمــا حدث لزملائه ، ولــكن القاضى حكم عليه بالقتل غيابيا — الجبرتى ج ٣ ص ١٣٩ ٠

(٧٣) نص هــذا الأمــر فى كتاب الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ١٢٧ — ١٢٨ ٠

(٧٤) أسفر التحقيق عن اتهام سليمان الحلبى والمجاورين الأربعــة برواق الشوام الذين افضى اليهم بعزمه على ارتكاب الجريمة وكذلك المدرس التركى مصطفى أفندى الذى بات عنده سليمان عند حضوره الى القاهرة .

أولا : احـــراق يـــد سليمـــان الحلبى اليمنى ، ثم اعـــدامه على الخازوق [٧٥] ، وتترك جثته حتى تأكلها الطير •

ثانيا : أن يعدم المشايخ الثلاثة : محمد الغزى وعبـــد الله الغزى وأحمد الغزى وذلك بقطع رؤوسهم [٧٦] واحراق جثثهم •

ثالثا : أن يعدم الشيخ عبد القادر الغزى بقطع رأسه وحرق جثته مع مصادرة أمواله •

رابعا : اعدام المتهمين يكون بعد دفن سارى عسكر كليبر بحضور أهل البلد •

---

(٧٥) الاعدام بواسطة الخازوق يتم باستخدام عمود حـــديدى يسمى بالفرنســـية Un Pol أو Un Pieu ، ويقـــوم الجنـــدى المختص بتسخينه بالنـــار حتى يتوهج العمود بالاحمرار من شدة الحرارة ، ثم يقوم الجـــلاد باجلاس المـــذنب على الطرف المدبب فيتغلغل فى جسمه من فتحـــة الشرج بفعل السخونة وبتأثير وزن الجسم وثقله حتى يصل العمود الى أمعاء المذنب فيمزقها ، وكان الهـــدف من استخدام هذه الوسيلة المزيد من تعذيب المذنب عن طريق الموت البطىء •

وكان العثمانيون يمارسون هذه الوســـيلة فى اعدام الأسرى الذين يرى السلطان التخلص منهم انتقـــاما لاستبسالهم فى مقـــاومة الجيـــوش العثمانية ، وكانت هذه الطريقة تستخدم فى مصر فى عصر دولتى المماليك وابان الحكم العثمانى وحكم محمد على •

انظر : د• عبد العزيز محمد الشناوى : اوربا فى مطلع العصـــور الحديثة — دار المعارف • القاهرة ١٩٦٩ ص ٦٣٧ •

(٧٦) كان قطع الرؤوس أو الذبح من الأساليب المتبعة سواء فى أوربا أو فى بلاد الشرق ، وكانت هـــذه الوسيلة تتسم بالرحمة اذا قورنت بالاعدام بواسطة الخازوق وكانت هنـــاك طريقة ثالثـــة هى النشر باستخدام المنشار فى قطع الجسم الى نصفين وكانت هنـــاك طريقـــة رابعة هى : التوسيط فيتال رسم الوالى بتوسيطه أى بضربه بالسيف فى وسطه •

انظر : الدكتور عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق • نفس المكان•

خامسا : براءة مصطفى أفندى واطلاق سراحه .

سادسا : أن تطبع صورة الحكم بعد ترجمته الى العربيـــة والتركية وتعلق صورها بمختلف جهات مصر (٧٧) .

أعجب الجبرتى بطريقـــة الفرنسيين فى محاكمة المتهمين فقال فى هذا الصدد : « قبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم ... بل رتبوا حكومة ومحاكمة ، وأحضروا القاتل وكرروا عليـــه بالسؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم ، وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ، ثم نفـــذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم » ثم قال : « بخلاف مارأيناه بعد ذلك من أفعـــال أوباش العساكر الذين يدعـــون الاســـلام ويزعمون أنهم مجاهـــدون ، وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شـــهواتهم الحيوانية » (٧٨) .

والذى أدهش الجبرتى هو أن تتاح لرجل ذنبـــه واضـــح محاكمة قانونية بدلا من أن يعدم فورا ، ولـــكن الواقع أن الاجراء الذى اتخذ فى هذه الحالة كان يختلف اختلافا كبيرا عن الاجراءات الفرنسية العادية لسبب واحد هو أن المتهمين لم يمثلهم محـــام ، ولم يكن الغـــرض من المحاكمة انصـــاف المتهمين ، بل الـــكشف عن شركائهم فى الجريمة (٧٩) . ولعل أضعف مافى اجراءات التحقيـــق هو اســـتخدام الاكراه مع المتهم بضربه وتعذيبه وهذه وصمة عار فى القضية كلها ، فلقد أرغم سليمان بالضرب حتى أقر بهذه الاعترافات الملفقـــة ، حتى أن كرستوفر هيرولد نراه مضطرا الى الاعتراف بالتلفيق ، فيقول : « والاعترافات التى تنتزع

---

(٧٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٣٨ .

(٧٨) المصـــدر السابق — ج ٣ ص ١٢٢ .

(٧٩) كرستوفر هيرولد — مرجع سبق ذكره — ص ٥٠١ .

بالتعـذيب تحتمل الشك •• أما المنطق الذى ألصقت به المحكمة الخاصة — المشكلة من الفرنسيين — التبعة النهائيـة فى مقتل كليير بالصـدر الأعظم فمنطق زائف لا أساس له فى اعترافات سليمان » (٨٠) •

لقد كانت الدعاية الاستعمارية والعمد الى تشـويه تاريخ سليمان غرضا أساسيا للفرنسيين ، فقـد حاولوا فى هذه المحاكمة اظهار سليمان الحلبى فى ثوب الرجل المأجور الذى دفعته الى فعلتـه روح المنفعـة الشخصية التى حصل عليها من الأتراك له ولوالده ، كما حاول الفرنسيون اظهار الحـادث أثنـاء التحقيق والمحاكمة على أنه مؤامرة أجنبيـة • وذلك عندما أعياهم الحصـول على خيوط المؤامرة الحقيقية التى حيكت داخل أروقة الجامع الأزهر ، معنى هذا عند المستعمر أن الدافع العقائدى للجهـاد فى سـبيل الله لا وجود له ، والموجود الذى يجب أن يسجله التاريخ ، هو الدافع الشخصى من أجل مغنم شخصى •

ويجمع المؤرخون على الاشادة بمسلك الفرنسيين وضبط أعصابهم فى اجراء التحقيق مع المتهمين ، وخصوصا اذا وضـعنا فى الاعتبـار شخصية المجنى عليه ، والجبرتى معـذور فيما قاله من ثنـاء على هذه المحاكمة لأنها كانت صـورة مختلفـة عما كان يفعله العثمانيون الذين كانوا يقتلون بالشبهة كما قال ، ولكن ماعذر المؤرخين بعد ذلك وقد عرفوا حيل وألاعيب الاستعمار فى تشويه تاريخ الأبطال •

الدوافع الحقيقية عند سليمان الحلبى :

لقد وصف لنـا نائب الجمهور (وكيل النيـابة) سليمان بالثبات ورباطة الجأش فذكر أنه كان ينظر الى محاضر التحقيقات بعين رفيعة « وهو كمادح نفسه للقتل الكريه (!) صنع يديه وهو مستريح بجواباته

---

(٨٠) المرجع السابق — ص ٥٠٠ •

للمسائل ، وينظر محاضر سياسات عذابه بعين رفيعة » (٨١) وكان دافع الجهـاد فى سبيل الله واضحا فى سلوك سليمان فقـد مكث بالأزهر ثلاثين يوما قضـاها فى اعداد العـدة لانجاز مهمته فكان يروض نفسه بالصوم والعبـادة والوعظ (٨٢) ، وكتب دعاء بأن ينصره الله فى مهمته وعلقه فوق رأسه فى رواق الشوام بالأزهر (٨٣) .

ولقد أبدى سليمان بطولة نادرة عندما أخـذه الجنود الى مكان تنفيذ الحكم فقـد سار ثابت الخطى مطمئن الفؤاد الى مصيره ، وأبدى من الشجاعة والجرأة والثبات ما أدهش الحاضرين ، فقـد مد يده الى الجمر الموقود ، وكان ينظر لحمه تشويه النـار شيا فلا يهتز بألم ولا ينبض له نبض ، ولا تنبس شفتاه بكلمة ، وعندما سيق الى الخازوق لم تلمح على وجهه أمارة اكتراث بما آل اليه أمره ، كما لم يتقلص له عضل ولم يلتو من أعضـائه عضو ، بل ظل ساكنا سكون الحجر الأصم ، وكل مالحظه عليه المشاهدون أنه حينما رفعته أكف منفذى الحكم لوضعه على الخازوق ، أجال نظره فى الحاضرين مطمئن الفؤاد هادىء الروع ثم فاه بالشهادتين .

وظل سليمان مرفوعا على الخازوق أربع ساعات ونصف ساعة(٨٤) سأل خلالها مرارا شربة ماء ، فلم يجبه أحد الى طلبه مخافة أن يموت قبل أن ينـال من العذاب ماصمم عليه الفرنسيون ، وعندما ناوله أحد الجنود كوب ماء ماكاد يشربه حتى أسلم الروح (٨٥) .

---

(٨١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٣٧ .

(٨٢) ادوار جوان — مصر فى القرن التاسع عشر — ص ١٦٥ من الترجمة العربية لمحمد مسعود — الطبعة الثانية — القاهرة — ١٩٣١ .

(٨٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٣٧ .

(٨٤) الواقع أن هـذا نقلا عن ادوار جوان ، وأعتقد أن فى ذلك مبالغة لأن الخازوق كان محميا ويؤدى الى الوفاة السريعة .

(٨٥) ادوار جوان — مرجع سبق ذكره — صص ١٦٧ — ١٦٨ .

وعندما خرج الفرنسيون من مصر نقلوا معهم ماتبقى من جثمان سليمان [٨٦] الى باريس ، ووضعوا رأسه المحنط داخل دولاب زجاجى يطل الى يومنا هـذا على الزائرين فى المتحف الجنائى بباريس ، وقد كتبت عليه لافتة تقول : « رأس قاتل ، والاسم : سليمان الحلبى » [٨٧] وهذه هى كل مخلفات البطل الأزهرى العظيم ، وعظام سليمان الحلبى معروضة بهيكلهـا فى غرفة التشريح بحديقـة النبـاتات الفرنسية فى باريس [٨٨] .

ويذهب البعض الى أن حادثة قتل كليبر ، لم تـكن حادثة فردية بأية حال من الأحوال ، بل هى من اعداد وتنظيم ذلك التشكيل العجيب الذى ترددت أخبـاره فى شكل همسات متناثرة فى كتابات المؤرخين ، ذلك التنظيم الذى دبر ثورة القاهرة الأولى ، وأعـدم منـه بونابرت مجموعة من القادة ، ثم استطاع أن يجدد نفسه ، ويعد السلاح ويدبر اتصالات سرية مع العثمانيين ويقود ثورة القاهرة الثانية ، واستطاع أن يوجه ضربة رائعـة فى هـدفها واحكامها ، وذلك بتنفيذ اغتيـال « سارى عسكر » القائد العام لقوات الاحتلال فى عمليـة هى الأولى فى الشرق والفريدة من نوعهـا .. والتى تتميز حتى اليوم بضـخامة الهـدف وبنجاح العملية مع ضآلة خسائرها بالنسبة للتنظيم الثورى الذى نفذها ، فلم يسقط الا الخلية التى باشرت تنفيذ العمليـة ، ولم يصل التحقيق الوحشى لأى طرف خارج هذه العملية [٨٩] .

---

(٨٦) د. محمد فؤاد شكرى — الحملة الفرنسية ... ص ٥١٠ .

(٨٧) الفريد فرج — سليمـان الحلبى — دار الـكتاب العـربى — القاهرة — ١٩٦٩ صص ٥ — ٦ .

(٨٨) ادوار جوان — مرجع سبق ذكره — ص ١٦٨ .

(٨٩) محمد جلال كشك — ودخلت الخيل الأزهر — ص ٣٧٦ .

ومن الصعب الأخذ بهذه الآراء لأنه لم يظهر حتى اليوم من وثائق البحث العلمى مايثبت أنه كان هناك تنظيم ثورى والواقع أن الفرنسيين الذين باشروا عملية التحقيق مع المتهمين حاولوا جاهدين أن يتصيدوا القرائن والأدلة التى تثبت علم كبار مشايخ الأزهر بنية القاتل وخاصة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، ممـا يدل على غالب شكهم أن الجريمة نفذت بنـاء على مؤامرة حبكت داخل أروقة الأزهر باشارة كبار العلماء ، فقد كانوا يسألون كلا منهم عمـا اذا كان كبـار العلماء لديهم علم بهذه المؤامرة ، ولكن المتهمين أكدوا كلهم بأن مشايخ الأزهر لا علم لهم بذلك ، حتى أن المتهم محمد الغزى عندما كرروا عليه السؤال عن مدى علم الشـيخ الشرقاوى بالمؤامرة ، أكـد لهم أنه لم يخبره بذلك وقال : « انهم لو وضعوه تحت القتل مايقول بذلك » [٩٠].

ويبدو أن الفرنسيين كانوا يودون أن يأخذوا بثأرهم من شيخ كبير من علماء الأزهر كالشيخ الشرقاوى مثـلا ، ومن ثم حاولوا أن يميلوا بالتحقيق مع كل منهم الى اثبـات علم الشيخ الشرقاوى ولقد قبضوا على الشيخ الشرقاوى فعلا يوم ارتكاب الحادث وعوقوه كما ذكـر الجبرتى ، كما قبضوا على الشيخ أحمد العريشى قاضى القضاة وشيخ رواق الشوام بالأزهر ، ثم أفرجوا عنهما فى مساء نفس اليوم ، ولكنهم خلعوا الشيخ أحمد العريشى من منصب قاضى القضـاة لظنهم أن لديه علما بالمؤامرة لكون المؤامرة دبرت برواق الشوام ، وكان يعـلم بها أربعـة من طـلاب الرواق ، فيحتمل أن يكون الطلبـة أسروا اليـه بعلمهم ، ولـكنهم لم يفشوا بذلك خوفا على شيخهم .

ومجرد شكوك الفرنسيين فى العلماء دليل على أن الأزهريين هم الذين يمكن أن تأتى من جانبهم المقـاومة الفعـالة للاحتلال الفرنسى وكل هـذه الوساوس كانت تدور فى أذهان الفرنسيين بيـد أن الأدلة

---

(٩٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٣٣ .

كانت تعوزهم ، ومن ثم عندما دفنوا جثة الجنرال كليبر [٩١] يوم الثلاثاء ٢٥ محرم ١٢١٥ هـ (١٧ يونية ١٨٠٠) بدأوا فى زيادة البحث والتحرى فى أروقة الجامع الأزهر للتفتيش عن السلاح ٠

اغلاق الجامع الأزهر :

تكررت مفاجأة الفرنسيين للجامع الأزهر بقيادة الجنوال منو قائد الفرنسيين الجديد وذلك للبحث عن الأسلحة ، ففى يوم الأربعاء ٢٦ محرم ١٢١٥هـ (١٨٠٠م) « حضر قائمقام والأغا الى الأزهر ودخلا اليه وشقا فى جهاته وأروقته وزواياه بحضرة المشايخ » ثم تكرر البحث والتحرى فى اليوم التالى (الخميس ٢٧ محرم) ودفعهم شكهم الى حفر بعض الأماكن بالأزهر للبحث عن السلاح ، وقام الفرنسيون بعدة اجراءات ، فكتبوا أسماء الطلبة فى كشوف وأمروهم ألا ينام عندهم غريب ولا يؤوا اليهم آفاقيا مطلقا ٠ وطردوا الأتراك المجاورين بالجامع الأزهر فخاف المجاورون وشرعوا فى نقل أمتعتهم من الأزهر ونقل كتبهم واخلاء الأروقة ، كما نقلوا الكتب الموقوفة بها الى أماكن خارج الجامع ٠

ثم أدرك العلماء أن الفرنسيين ازدادت شكوكهم فى رجال الأزهر وخافوا عاقبة هذه الشكوك فربما دبر الفرنسيون لهم مؤامرة ، كما

---

(٩١) احتفل الفرنسيون بتشييع جثمان الجنرال كليبر فى موكب عسكرى حافل يصفه الجبرتى تفصيلا فى كتابه عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٤٠ ، وعند جلاء الفرنسيين عن القاهرة حملوا معهم رفات كليبر حيث يذكر الجبرتى انهم فى ليلة الاثنين ٢٤ صفر « نادوا فى الأسواق برمى مدافع فى صبحه وذلك لنقل رمة كليبر فلا يرتاع الناس من ذلك فلما كان فى صبح ذلك اليوم أطلقوا مدافع كثيرة ساعة نبش القبر بالترب من قصر العينى وأخرجوا الصندوق الرصاص الموضوع فيه رمته ليأخذوه معهم الى بلادهم » ٠

أنظر الجبرتى — المرجع السابق — ج ٣ ص ١٩٤ ٠

أنهم أدركوا أن استمرار الدراسة فى هذا الجو أمر متعذر ، « ثم أن المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى توجهوا فى عصريتها عند كبير الفرنسيس منو واستأذنوه فى قفل الجامع الأزهر وتسميره ... وقصد المشايخ من ذلك منع الريبة بالكلية فان للأزهر سعة لايمكن الاحاطة بمن يدخله فربما دس العدو من يبيت به واحتج بذلك على انجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ولا يمكن الاحتراس من ذلك فأذن كبير الفرنسيس بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطنا فلما أصبحوا (٩٢) قفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات » (٩٣) .

وكانت هذه أول مرة يغلق فيها الجامع الأزهر على مدى تاريخه الطويل ، فقد ظل مفتوح الأبواب نحو ثمانية قرون ونصف منذ انشائه الى أن أغلق وظل الأزهر مغلقا الى أن شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر فأعيد فتحه فى ٢٦ صفر — سنة ١٢١٦ هـ (يونية سنة ١٨٠١ م).

القاهرة بعد اغلاق الأزهر :

الواقع أن الفرنسيين تهيأ لهم الهدوء فى القاهرة خلال الفترة التى أغلق فيها الأزهر ، فقد كان بحق هو المحرك الحقيقى للثورات فى القاهرة وذلك بسبب التجمع الفريد الذى يتكون فى صحن الأزهر كل يوم وما يترتب على ذلك من تهيئة النفوس للتمرد ، وتكوين رأى جماعى يقود الشعب ويحض على الثورة ، وعندما تم اغلاقه تفرق أساتذته وطلابه عائدين الى قراهم فى الأقاليم وفى جميع أنحاء المدينة، ولم تعد هناك رابطة تجمعهم وانفرط عقدهم ، وتعقب الفرنسيون زعماءهم ، وأجهدوهم بفرض الضرائب والاضطهاد والتعذيب ، أمثال الشيخ محمد السادات والشيخ محمد بن الجوهرى وأخيه فتوح الجوهرى وغيرهم من العلماء .

---

(٩٢) يوم الجمعة ٢٨ محرم ١٢١٥ هـ (٢١ يونية سنة ١٨٠٠ م) .
(٩٣) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٤١ .

ولقــد خيم على الشعب المصرى فى هذه الفترة التى تم فيهــا اغلاق الأزهر السكون والوجوم ، وزادت الجفوة بينــه وبين المستعمر وتأصلت روح الــكراهية ، وظل هذا الوضع قائما حتى جلاء الفرنسيين عن مصر •

الأزهر على عهد الجنرال منو :

تولى الجنرال منو [٩٤] قيــادة الحملة الفرنســية عقب اغتيــال الجنرال كليبر لــكونه أقــدم قواد الحملة وأكبرهم سنا ، فخوله قدم رتبتــه العسكرية أن يتولى القيــادة العامة ، ولم يكن توليه القيــادة راجعا الى كفاية عسكرية أو مواهب سياسية أو ادارية •

وكان الجنرال منو على خلاف سلفــه فى نظرته الى البقــاء فى مصر • فبينما كان كليبر من أنصــار التعجيل برحيل الجيش الى فرنسا مع عقــد صلح مشرف مع الانجليز والأتراك • كان منو من أنصــار البقــاء فى مصر ومن ثم حزن الجيش لوفاة كليبر حزنا شــديدا ولم

(٩٤) هو جاك فرانسو منو من عائلة عريقــة فى النسب ، وانتظم فى سلك الجندية ، وكان مؤمنا بمبادىء الثورة الفرنسية ، وانتخب ســنة ١٧٨٩ عضوا فى الجمعية العمومية ، واعلن تنــازله عن امتيازاته فى عهد الملــكية ، وحارب لاخماد الفتن الداخلية فى بداية عهد الثورة واظهر عجزا كبيرا فى قيــادة هذه الحرب بينما لمع نجم بونابرت الذى قمع الفتنة وانقــذ الجمعية الوطنية من فتنــة الثائرين ودسائس الملــكية فى أكتوبر ١٧٩٥ وقــد تعلق منو ببونابرت ولازمه من ذلك الحين وأخذ يتملقه ويحوم حوله، ومن هنا جاء عطف بونابرت عليه فاصطحبه معهضمن قواد الحملة الفرنسية، وعينه بونابرت حاكما لرشيد واعلن اســلامه وتزوج بسيدة مصرية تــدعى زبيدة بنت محمد البواب احد اشراف رشيد ، وكان اسلامه جزءا متمما لخطة بونابرت الاســلامية • وعلى الرغم من عدم كفايته العسكرية والسياسية ، الا انه كان على جانب كبير من الغرور والاعتداد بالنفس ولم يكن محبوبا من جنود الحملة وقوادها وكان يحقد على سلفه كليبر لمنزلته بين قواد الحمــلة وجنودها « وتولى قيادة الحملة بعد مقتله لأنه أكبر القواد سنا »

يكن منشأ هـذا الحزن حب الجيش لقـائده السـابق فحسب بل لأن كليبر أيضـا الى جانب تعلق الجيش به كان صاحب سياسة الجلاء عن مصر والعودة الى فرنسا • وكان قواد الجيش وضـباطه لايثقون فى قيـادة منو الذى وصـفه جماعة منهم بأنه « رجل البـلاط القديم » الذى يجهل فنون الحرب والقتـال جهـلا تاما • وجزع الجيش جزعا شديدا لأن أحدا ماكان ينتظر العودة الى فرنسا فى عهد القائد الجديد، لاعتنـاق منو الاسـلام دينا ، واتخاذه سيدة مسلمة زوجـة له من جهة ، ولأنه كان معروفا بمعارضـته الصريحـة لتلك السياسـة التى أفضت الى عقد اتفاق العريش من [٩٥] جهة أخرى •

وكان خط الدعاية الاسـلامية على عهد منو والذى بدأه بونابرت مغرقا فى التملق الى المصريين ، فامتاز منو عن قائده بأنه اعتنق الاسلام بالفعل ، واتخذ اسم (عبد الله) بجانب اسـمه القديم « جاك منو » وأصهر الى أسرة مصرية شريفـة بمدينـة رشـيد • « وأيا ما كان القول فى الدوافع الحقيقيـة التى أدت بمنو الى اعتناق الاسـلام ، وسواء أكان ذلك فى حد ذاته جزءا من السياسة الدعائية الاسلامية ، أم كان لأسباب أخرى ، فقد كان هذا القائد يضمن منشوراته ما يلقى فى روع قارئها أنه مسلم حقيقة » [٩٦] •

فقد حرص منو على أن يبـدأ منشـوراته بالبسملة والشـهادتين والصـلاة والسلام على رسول الله ﷺ وكانت ترجمة هـذه العبـارات تتصدر كذلك مادة النص الفرنسى للمنشـور ، اذا طبع باللغتين معـا ، بل تتصدر أيضـا الطبعة الفرنسية منه اذا كانت منفصـلة [٩٧] وغير

---

(٩٥) د. محمد فؤاد شكرى — مرجع سبق ذكره — ص ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٩٦) د. أحمد حسين الصاوى . فجر الصـحافة فى مصر ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .

(٩٧) المرجع السابق شكل (٣٨) .

ذلك من أساليب الدعاية التى تفوق فيها على بونابرت [٩٨] .

ولما كان منو من أنصار البقاء فى مصر ، فقد كانت نظرته اليها على أنها مستعمرة فرنسية ، وأخذ فى جمع الباقى من الغرامة التى فرضها كليبر على المدينة ثم فرض عليها هو الآخر ضريبة جديدة قدرها أربعة ملايين فرنك على ملاك الدور ومستأجريها والملتزمين والتجار وأرباب الحرف ، كما فرض ضريبة أخرى قدرها مليون فرنك على التجار وأرباب الصنائع والحرف قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« واستهل شهر رجب الفرد سنة ١٢١٥ هـ (نوفمبر سنة ١٨٠٠) والطلب والنهب والهدم مستمر ومتزايد وأبرزوا أوامر أيضا بتقرير مليون على الصنائع والحرف يقومون بدفعه فى كل سنة قدره مائة ألف وستة وثمانون ألف ريال فرانسه ويكون الدفع على ثلاث مرات كل أربعة أشهر يدفع من المقرر الثلث وهو اثنان وستون ألف فرانسه فدهى الناس وتحيرت أفكارهم واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم » [٩٩] وضج الناس بالشكوى من هذا الظلم ، وعمد كثير منهم الى الهجرة من العاصمة فرارا من الظلم .

اعادة تأليف ديوان القاهرة [١٠٠] :

بعد أن وقع كليبر على معاهدة العريش أخذ من ذلك الحين يستعد للجلاء عن مصر ، فلما نقض الانجليز المعاهدة وتجدد القتال وشبت

---

(٩٨) انظر : العرض الممتع الذى قدمه الدكتور أحمد حسين الصاوى فى كتابه سالف الذكر ، وخاصة فى الباب الثالث حول أساليب دعاية منو .

(٩٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٤٦ .

(١٠٠) تقدم أن ديوان القاهرة كان قد انشىء فى أول الأمر فى ٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨ ثم عطل عقب ثورة القاهرة الأولى وأعيد تأليفه فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ من ديوانين عمومى وخصوصى ، ولما كان معروفا أن ديوان القاهرة كان شبه معطل فى عهد كليبر ، وعلى ذلك فقد صمم منو بعد توليته أن يعيد تنظيم الديوان كجزء من سياسة البقاء فى مصر .

ثورة القاهرة الثانية استمر الديوان معطلا ولم يفكر كليبر فى اعادته بعد اخماد الثورة ، فلما تولى منو القيادة عزم على اعادة تأليف الديوان فى أكتوبر سنة ١٨٠٠ (١٢١٥ هـ) بعد أن لبث معطلا بضعة أشهر وكان أعضاؤه فى هذه المرة تسعة فقط هم كما ذكرهم الجبرتى: الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان ، والشيخ محمد المهدى سكرتير الديوان (كاتم السر) والشيخ محمد الأمير ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ (١٠١) والشيخ موسى السرسى ، والشيخ خليل البكرى والسيد على الرشيدى صهر الجنرال منو ، والشيخ سليمان الفيومى (١٠٢) ويتبين من عرض هذه الأسماء أن غالبيتهم العظمى من كبار علماء الأزهر وكما يقول الجبرتى ليس فيهم قبطى ولا وجاقلى ولا شامى .

ثم عينوا بالديوان بعض الموظفين مثل الشيخ اسماعيل الزرقانى قاضيا والسيد اسماعيل الخشاب كاتبا لمحاضر جلسات الديوان (١٠٣) والشيخ على كاتبا عربيا ، وقاسم أفندى أمين الدين كاتبا روميا (تركيا) والقس روفائيل ترجمانا أول والياس فخر الشامى ترجمانا مساعدا ، والمسيو فوربيه وكيلا للديوان ومدير السياسة والأحكام الشرعية ، ومقدم على خمسة قواسة للحراسة (١٠٤) .

(١٠١) أشار الجبرتى الى نفسه بطريقة ملتوية فقال (وكاتبه) .

(١٠٢) وذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى انه كان الى جانب هؤلاء الأعضاء الأصليين أربعة عشر عضوا من أعضاء الشرف يختارهم القائد العام متى وكيف شاء ، حتى من بين عظماء القبط والشوام والأروام لحضور الجلسات على أن يكون لهؤلاء صوت استشارى فحسب (د. محمد فؤاد شكرى مرجع سبق ذكره صص ٢٦٣ — ٢٦٤) .

(١٠٣) يطلق الجبرتى على وظيفة اسماعيل الخشاب (كاتب سلسلة التاريخ) وهى كما شرحها الجبرتى (جـ ٣ ص ١٤٥) عبارة عن تسجيل لمحاضر جلسات الديوان كما ذكرنا .

(١٠٤) الجبرتى / عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٤٤ وكان مقر الديوان هذه المرة فى بيت رشوان بك بحارة عابدين وكان هذا المنزل يسكنه برتلى الرومى فانتقل منه وخصص للديوان بعد تعميره وفرشه فرشا فاخرا .

وبذلك نرى أن منو اختار كل أعضاء الديوان من علماء الأزهر (أو المتعممين كما يسميهم الجبرتى) تقربا الى الشعب ، فقد ظن أنه بهـذه الوسيلة يمكن أن يكسب رضـاء الشعب غير أن هـذا لم يكن له أثر فى حالة الشعب النفسية ، فقـد ظلت عواطف الشعب عدائيـة تجاه المستعمرين الفرنسيين ، وظلت الجفوة تزداد بينهم ٠

اختصـاص الديوان :

وسع منو من اختصاص الديوان الجديد ، فزاد من اختصاصـه القديم وجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الأحكام التى يتبين خطؤها ، وتقـدم له بشأنها (فتاوى) بما حوته من الخطأ أو من مخالفة الأحكام الشرعيـة ، وجعـله كذلك مجلسـا استشاريا للحكومة لرعاية العـدالة ، وكان من اختصاص الديوان أيضا أن يعلن منشورات القائد العام للشعب المصرى من ناحيـة ويعرض على القائد العـام مطـالب الشعب من الناحية الأخرى ، كما كان من اختصاصه انتخاب القضاة ، وترشـيحهم لمنـاصبهم وطلب عزلهم ، وبذلك نرى أنه كان ينظر فى الشئون المـدنية والدينية ، كما كان محكمة اسـتئناف ومجلسـا أعلى لانتخاب القضاة ٠

وظن الناس أن اعادة الديوان ستنقذهم من الظلم فذهبوا اليـه بشكواهم وازدحم الديوان بكثرة الشاكين ، قال الجبرتى :

« وسر الناس لظنهم أنه انفتح لهم باب الفرج بهـذا الديوان ، ولمـا كانت الجلسة الثانية ازدحم بكثرة النـاس وأتوا اليه من كل فج يشكون » (١٠٥) ٠

---

(١٠٥) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ١٤٥ وقـد وصـف لنـا الجبرتى كشاهد عيان احدى جلسات الديوان (ج ٣ ص ١٤٥) ٠

انتخاب قاضى القضـــاة :

جعل الجنرال منو من اختصاص الديوان الجديد انتخاب القضاة وترشيحهم لمناصبهم [١٠٦] ، وعزلهم كما سبق أن أشرنا ، وكان الشيخ أحمد العريشى منذ مقتل كليبر معزولا لارتيـــاب الفرنسيين فيـــه لأن قاتل كليبر كان ســـوريا ومجاورا برواق الشوام بالأزهر ، ولما تبينت براءته وأمر منو باعادة الديوان وفوض الى أعضـــائه انتخـــاب قاضى قضـــاة مصر فى ٦ رجب ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) خرجت القرعة أيضا على الشيخ أحمد العريشى ، وأعاد الفرنسيون القرعة ثلاث مرات نظرا لعدم ارتياحهم الى الشيخ العريشى .

اصـــلاح القضـــاء :

وعنـــدما باشر الشيخ أحمـــد العريشى مهام منصـــبه صدرت له الأوامر من وكيل الديوان الفرنسى (فوربيه) بأن يعد قائمـــة بأسماء الذين تقلدوا قضـــاء البلاد بأمر من (الشيخ العريشى) ومن لم يتقلد ، وأكدوا عليه فى اجراء القرعة لجميع القضاة فى مصر تحت اشرافه ، قال الجبرتى :

« وفيـــه [١٠٧] أمر الوكيل بتحرير قائمة تتضـــمن أسماء الذين تقلدوا قضـــاء البلاد من طرف القـــاضى والذين لم يتقلدوا ، وأخبر أن السر فى ذلك أن مناصب الأحكام الشرعية استقر النظر فيها له . وأنه لابد من استئناف ولايات القضـــاة حتى قاضى مصر بالقرعة من

---

(١٠٦) يلاحظ أن الديوان فى عهـــد بونابرت هو الذى انتخب الشيخ احمد العريشى ايضا غير أن ذلك كان بنـــاء على امر خاص من بونابرت فى ٢٢ محرم سنة ١٢١٤ هـ ولم ينص فى امر انشاء الديوان فى عهد بونابرت أن من اختصاصه انتخاب القضاة وترشيحهم لمناصبهم .

(١٠٧) اى فى شهر رجب سنة ١٢١٥ .

ابتداء سنة الفرنساوية ويكتب لمن تطلع له القرعة تقليد من سارى عسكر الكبير فكتبت له القائمة كما أشار » (١٠٨) .

وعلى ذلك أصدر منو أمرا فى ٢٢ أغسطس سنة١٨٠٠ (١٢١٥هـ) بتأليف لجنة من (فوربيه) و (بوضوط) و (رجنبيه) كى تبحث « موضوع انشاء المحاكم والطريقة التى تملأ بها وظائف القضاء ، ثم ما يمكن ادخاله من تغييرات مفيدة لتحديد الرسوم القضائية » (١٠٩)

ويبدو أن الجبرتى لم يطلع على صيغة الأمر الموجه الى الشيخ أحمد العريشى بشأن القائمة التى تتضمن أسماء الذين تقلدوا قضاء البلاد على يديه • وقد توصلت الى مخطوطة بدار الكتب المصرية من تأليف الشيخ أحمد العريشى بها اجابات على ستة أسئلة موجهة الى القاضى بشأن القضاء بمصر وقد أجاب عنها القاضى ورفعها الى الديوان فى عهد الجنرال منو (١١٠) .

وتتلخص هذه الأسئلة المطلوبة فى الاستفسار عن عدد البنادر التى يقيم بها القضاة والمحاكم بكامل الأقاليم ، وتاريخ لبس القضاة وكيفية لبسهم ، ومن لبس منهم من اسلامبول ومن تقلد من قاضى مصر، ثم السؤال عمن كان فى مصر من القضاة قبل حضور الفرنسيين وأين كان مقامهم ، وهل كانوا من أهالى مصر أم غرباء ، وعدد نوابهم فى الأقاليم وطلب الفرنسيون منه تعيين الأماكن الخالية من القضاة فى

---

(١٥٨) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٤٦ .

(١٠٩) د. محمد فؤاد شكرى — مرجع سبق ذكره ص ٢٦٢ .

(١١٠) وهذه المخطوطة تحت رقم (٣١٥١) تاريخ ومكتوب فى صفحتها الأولى مايأتى : « هذا دفتر علم وبيان طريق القضاء وأسماؤهم بمصر المحروسة وأقاليمها كما هو مبين فى باطنها والله الموفق للصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله وحده » وهى عبارة عن تسع صفحات وفى نهايتها امضاء الشيخ العريشى قاضى العسكر .

الأقاليم المصرية ، ولولا خشية الاطالة هنـــا لأتينا على ملخص للاجابات التى أوردها الشيخ العريشى فى هذه المخطوطة ، وغاية مايقال عنها أن معلومات الشيخ العريشى كانت قاصرة عن الاحاطة بالنظام القضـــائى فى مصر نظرا لعـــدم تنظيمه وعدم وجود ادارة مركزية للقضـــاء فى مصر لدرجة أنه أجاب بأن « عدد الوكلاء والنواب والـــكتبة والموظفين بهـــذه المحـــاكم لايحيط بهم علمـــا ولا يعلم عددهم الا الله ســـبحانه وتعـــالى » (١١١) .

وكانت تقرأ بالديوان أوامر تقليد القضـــاة بمصر كما ذكر الجبرتى وهو يومئذ من أعضاء الديوان ، فيقول : « وفيـــه — فى شهر رمضان سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) قرىء تقليد الشيخ أحمد العريشى بقضـــاء مصر ، ووصل أيضا تقليد القضـــاء بدمياط لأحمد أفندى عبد القادر ، وابيار للعـــلامة الشيخ رضوان نجا ، ومحلة مرحوم للشيخ عبدالرحمن طاهر الرشيدى وذلك على موجب القرعة السابقة من مدة شـــهرين أو أكثر وقرىء ذلك بالديوان » (١١٢) .

وغاية مايقال عن حركة اصـــلاح القضاء فى مصر أن الفرنسيين بدأوا فى تنظيمه واصـــلاحه على يد الشيخ أحمد العريشى وقـــد كان الاهمـــال والفساد يعم المحاكم الشرعيـــة نظرا لوجود قاضى العسكر من الأتراك الذين لا علم لهم بلغة البلاد ، كما كان هنـــاك بعض قضاة فى مصر من الأتراك أيضـــا وكان كل همهم جمع الأموال من الأهالى وكثرة الرسوم المفروضة على الدعاوى وغير ذلك من أنواع الفساد .

ولـــكن الفرنسيين جعلوا القضـــاة من علماء مصر كما أنهم حددوا رســـوم التقاضى (١١٣) ولا شك أن هـــذا تطور فى اصـــلاح النظام

---

(١١١) أحمد العريشى — المصـــدر السابق ص ٨ .

(١١٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ١٥١ — ١٥٢ .

(١١٣) أصـــدر بونابرت أمرا فى ٤ يولية سنة ١٧٩٩ بتحديد رسوم التقاضى باثنين فى المائة من قيمة النزاع .

القضائى فى مصر ، ولقد قام علماء الأزهر بسد الفراغ فى هـذا المجال نظرا لـكفايتهم العمليـة وقـد حيل بينهم وبين تقلد المناصب القيادية فى جهاز القضاء فى مصر من قبل ابان الحكم العثمانى ، وكانوا يكتفون باصدار الفتاوى الشرعية — الاستشارات القانونية — لأصحاب الدعاوى نظرا لخبرتهم وجهل القضـاة الأتراك الذين كانوا يشترون مناصبهم بالرشا والهـدايا من الاسـتانة ومن قاضى العسكر • وكان القضـاة الأتراك يحكمون فى القضـايا بمقتضى هذه الاستشارات القانونيـة التى يصدرها علماء الأزهر •

بعض الأنشطة الأخرى التى برز فيها رجال الأزهر :

ولقد كثرت مشروعات الجنرال منو الاصلاحية وكان من بين هذه المشروعات التى نفذها منو ، مشروع تعيين مشايخ البـلاد فى القرى وقـد جعله يتم بأمر من القـائد العـام وأن يسرى هذا النظام على جميع المشايخ الموجودين حاليـا • وعين فى هـذا الموضـوع الشيخ سليمان الفيومى (١١٤) عضو الديوان لـكى يكون وكيلا فى ذلك أو كما ذكر الجبرتى « عبارة عن شيخ المشايخ » ويعمل « تحت يد الوكيـل الفرنساوى الذى يقال له بريزون » (١١٥) •

وكان الغرض من هـذا الاجـراء هو جمع الأموال الـكثيرة من المشايخ فى مقابل أوامر التعيين التى تصدر من القائد العـام فى كل سنة ، ومما هو جدير بالذكر أنه كان من بين مشاريع الجنرال منو أن يصـدر جريدة يومية بالعربيـة عنوانها « التنبيـه » وصـدر الأمر بذلك فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ (١٢١٥ هـ) وأسند رياسـة تحريرها

---

(١١٤) الشيخ سليمان الفيومى كان شيخا لرواق الفيمه (رواق طلبة الفيوم) وكان بجانب عضـويته للديوان من أكابر العلماء المتصدرين ، وكان معروفا بمروءته وعطفه على المنكوبين كما سبق أن شرحنـا ذلك بالفصـل الثالث من هذا البحث .

(١١٥) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٤٤ •

الى الشيخ الأديب اسماعيل الخشاب ، لـكن الأمر لم ينفذ ولم تصدر الجريدة (١١٦) .

وكان الغرض من انشاء هـذه الجريـدة « نشر أوامر الحكومة الفرنسية واذاعة أعمـالها فى أرجاء البـلاد ، وتحـذير المصريين من الانسياق وراء أصحاب الميول المغرضـة ومثيرى القلاقل والاضطرابات الذين قـد يعمدون الى استثارتهم ، كما تعمل على دعم الثقة وتأييـد ذلك الاتحـاد الذى تزداد أواصره احكاما يوما بعد يوم بين أهل البلاد وبين الفرنسيين » (١١٧) .

موقف المشايخ فى عهد منو :

غدا ديدان القـاهرة فى عهـد الجنرال منو أداة طيعـة فى يد الفرنسيين ، ولم يجرؤ أحد من أعضائه على معارضة سياسة الفرنسيين فى جمع الأموال ، حتى أن كثيرين من المؤرخين توهموا بسبب ذلك أن الديوان كان يتعاون مع الجنرال منو معـاونة كاملة وثيقة ، دليل الرضا عن حكومته ، والخضوع لسلطان الفرنسيين عن رغبة وارتيـاح ، بيـد أن هـذا الخضوع كان ظـاهريا ، وذلك لعدة أسـباب : لعل أهمها : تمسك أعضـاء الديوان بخطة « المداراة والتريث » بعد كل العقوبات الصـارمة التى أنزلها الفرنسيون بالقاهريين عقب ثوراتهم السابقة ، وانشغال العلماء والمشايخ الى جانب سائر القاهريين بتـدبير الأموال لدفع الغرامات الفادحة التى طولبوا بهـا ، وانتظار الفرج فى وقت كان من المتوقع فيـه أن يبـدأ العثمانيون وحلفاؤهم الانجليز الزحف

---

(١١٦) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص٢١٠ نقلا عن كتاب كليبر ومنوفى مصر لمسيو روسو .

(١١٧) د. محمد فؤاد شكرى — مرجع سـبق ذكره ص ٢٧٨ نقـلا عن روسو .

على الحـــدود المصرية وطرد الحمـــلة من مصر • وعلى ذلك فقـــد ظل الديوان يجيب رغبات منو مسايرة ومداراة له (١١٨) •

منو يستكتب علماء الديوان رسالة الى بونابرت :

أشـــار منو على علماء الديوان فى ١٦ أكتوبر ١٨٠٠ (١٢١٥ هـ) أن يرسلوا تهنئـــة الى بونابرت بمناسبة وصـــوله الى أرفع منـــاصب حكومة الجمهورية الفرنسية (١١٩) وأن ينتهز الأعضاء هذه الفرصـــة ، فيبدوا رغبتهم فى انضمام مصر الى فرنسا نهائيا ، فبادر المشـــايخ : البكرى ، والشرقاوى ، ومحمد الأمير ، والمهدى ، والصاوى ، والفيومى ، والسيد على الرشيدى ، وعبد الرحمن الجبرتى • باعداد رسالة فى هذا المعنى قرئت بالديوان فى ٢٤ جمـــادى الأخـــرى ١٢١٥ (١٣ نوفمبر ١٨٠٠) •

وفى هذه الرسالة هنأ العلماء بونابرت على منصبه الجديد ، وأثنوا عليه الثنـــاء العاطر ، وأسفوا على مغادرته البـــلاد ، ووصفوه بسيف الله المسلول ثمقالوا : « ونحن اذا قلنا أن المصريين يؤلفون مع الفرنسيين أمة واحدة لأصبنا فى هـــذا القول كبد الحقيقـــة ، ويرجع الفضل فى توثيق عرى هذا الاتحاد يوما بعد يوم الى ••• صديقنا عبد الله منو صاحب الصيت الذائع والمقام الرفيع الذى حباه المولى بالحكمة وسداد الرأى » ثم شكروا المولى سبحانه الذى ألهم بونابرت الى اختيـــار عبد الله منو حاكما على مصر ، وختموا رسالتهم بالتوسل اليه ألا يغفل أمر مصر وأهلها الذين يكنون له كل محبة وتقدير ويترقبون عودته بفارغ

---

(١١٨) المرجع السابق ص ٢٦٨ .

(١١٩) عقب عودة بونابرت الى فرنسا انصرف الى احداث انقـــلاب رفعـــه الى قمـــة السلطة فى فرنسا فأسقط حكومة الديركتوار وحل مجلس الخمسمائة ، وأنشأ نظـــام القنصلية ونودى به قنصلا أولا فصـــار صاحب الـــكلمة الفعـــالة فى شـــئون فرنسا (الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٢١٢) .

الصـــبر تلك العودة التى يدعــو اليهــا الدين الاســـلامى الذى ظفر بتقـــديركم (١٢٠) •

ويبـــدو من الخطوط الرئيســـية لهـــذه الرســـالة أن الذى وضع خطتها هو الجنرال منو لتخدم سياسته فى البقـــاء فى مصر ، وليعلم بونابرت أن زعمـــاء مصر من العلماء على وفاق معه محبون لفرنسا ، وقـــد اضطر العلماء الى الانصياع لـــكتابة هذه الأفـــكار التى جاءت فى تلك الرسالة تمشيا مع خطة مداراة الفرنسيين •

جلاء الفرنسيين عن مصر :

ليس من موضوع بحثنـــا أن نستطرد فى سرد حوادث الصراع الذى احتدم بين الفرنسيين من ناحيـــة ، وبين الانجليز والأتراك من ناحية أخرى من أجل اجلاء الحملة عن مصر ، وما يمكن أن نشير اليه هنـــا باختصار : هو أنه بينما كان منو منهمكا فى مشاريعه الاصلاحية، كان الانجليز والترك يعـــدون العـــدة لاعادة مصر الى حظيرة الدولة العثمانية ، وفى ٨ مارس ١٨٠١ (١٢١٦ هـ) نزل الانجليز والأتراك الى شاطىء أبو قير بالاسكندرية وهرع منو بقواته للقائهم ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة عند سيدى جابر يوم ١٣ مارس هزم على أثرها الفرنســـيون ، وتابع الانجليز زحفهم على القـــاهرة والتقى الانجليز والأتراك بالفرنسيين مرة أخرى فى ٩ مايو ١٨٠١ (١٢١٦ هـ) (١٢١) عند الرحمانية وهزمت كذلك القوات الفرنسية ، وأصبح الطريق مفتوحا الى القـــاهرة ، كما زحف الجيش العثمانى من سورية بقيـــادة الصدر الأعظم (يوسف باشا ضيا) ومر بالعريش ووصل الى بلبيس وانتصر

---

(١٢٠) د• محمد فؤاد شكرى — الحملة الفرنســـية •• مرجع سبق ذكره — ص ٢٦٩ •

(١٢١) الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٢١٦ ، ص ٢٣٢ •

على الفرنسيين بقيادة بليار عند بلدة الزوامل [١٢٢] فى ١٦مايو ١٨٠١م، (١٢١٦ هـ) ، وتراجع الفرنسيون أيضا الى القاهرة وتحرج موقفهم وأدركوا أنه لامفر من النزول على ضغط الحوادث وقرر « بليار » التفاوض بشأن الصلح مع الانجليز .

وانتهت المفاوضات بتوقيع اتفاقية الجلاء فى ٢٧ يونية سنة ١٨٠١ م (١٢١٦هـ) ، وتقضى شروطها أن تجلوا الجنود الفرنسية البرية والبحرية التى تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينة القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة ، وعن كل جهة تحتلها من الأراضى المصرية وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد من النيل ومن رشيد وأبى قير يبحرون الى فرنسا على نفقة

الحلفاء ، وأن يتم الجلاء فى أقرب وقت ممكن بحيث لايزيد عن خمسين يوما من تاريخ التصديق على الاتفاق ، وتحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوما .

وتبع ذلك توقيع الجنرال منو [١٢٣] على شروط الجلاء فى الاسكندرية فى ٣١ أغسطس ١٨٠١ (٢١ ربيع الآخر سنة ١٢١٦ هـ) قال الجبرتى : « وفيه ورد خبر باسكندرية بانقضاء الحرب وطلب الفرنسيون الصلح بعد وقوع الغلبة عليهم وهزيمتهم وأخذ منهم عدة أسرى وانحصروا فى الأبراج فأمنوهم وأجلوهم خمسة أيام آخرها يوم الخميس سابع عشرينه » (٢٧ ربيع الآخر) وتم جلاء الفرنسيين عن البلاد فى منتصف شهر أكتوبر ، وبذلك اختتمت من تاريخ مصر

---

(١٢٢) الزامل بلدة تقع فى منتصف الطريق بين بلبيس والخانكة .

(١٢٣) كان الجنرال منو قد هرع بنصف جنوده الى الاسكندرية عندما سمع بنزول الانجليز بها وترك النصف الآخر بالقاهرة بقيادة الجنرال بليار وهزمه الانجليز فى معركة كانوب ٢١ مارس ١٨٠١ ثم اعتصم بالاسكندرية حتى اضطر الى توقيع اتفاقية الجلاء فى ٣١ أغسطس ١٨٠١ .

صفحة مليئة بالحوادث والمحن ، ولـكنها فياضة أيضا بعوامل اليقظة بزعامة علماء الأزهر .

اعتقال العلماء بالقلعـة :

عندما وصلت الأخبار الى القاهرة بوصول قوات الانجليز والأتراك الى ميـاه الاسكندرية ، ارتبك الفرنسيون وأخذ منو يتوعد كل من يذيع هذه الأخبار بين الأهالى فأصـدر منشورا فى ١١ شوال سنة ١٢١٥ هـ (٢٥ فبراير ١٨٠١ م) يطمئن فيه المصريين ويحذرهم تصديق الأخبار الـكاذبة وأنذر كل من يثبت عليه اذاعة هذه الأخبار بالقتل ، وقد ذكر الجبرتى أن هذا المنشور أعلن على الناس يوم ١٤ شوال والصقت منه نسخ فى مفارق الطرق والأسواق .

وقد علق الجبرتى على هذا المنشور بقوله : « فعلم النـاس من ذلك الفرمان — المنشور — ورود شىء وحصـول شىء على حـد كان المرتاب أن يقول خـذنى وليس للنـاس ذكر ولا فـكر الا فى بواقى الفردة وما لزمهم فى المليون ولا شغل لـكل فرد الا بتحصيل مافرض عليـه » (١٢٤) ولـكن أخبـار الحـرب قـد عمت القـاهرة وعلم الشعب بهـا .

ولقد خشى الفرنسيون أن يكون العثمانيون قـد أنشأوا صـلات وثيقة مع كبار المشايخ ، وأن القـاهريين يعتزمون القيـام بالثورة ، وانزعج الفرنسـيون انزعاجا شـديدا ، فأخلوا دورهم ومسـاكنهم ومستشفياتهم ونقلوا متاعهم ومرضاهم الى القلعة وتطايرت الشائعات فى الأوساط الفرنسية عن بدء تجمع الآهلين بجوار الجـامع الأزهـر يتباحثون ويتناقشون ويدبرون لثورة مقبلة (١٢٥) .

---

(١٢٤) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٥٤ .

(١٢٥) د. محمد فؤاد شكرى — مرجع سبق ذكره ص ٤٦١ .

وأدرك المسيو فورييه خطورة الأمر فى القـــاهرة وخاف عواقب الأمور المرتقبـــة فاجتمع بأعضاء الديوان فى ٢٠ شوال ١٢١٥ هـ ووجه اليهم النصح بأن ينصحوا « المفسدين » بالخلود الى السكينة وذكرهم بما حـــدث فى ثورة القـــاهرة الثانية معلنا « أن البلاء يعم المفســـد وغيره » فراجعـــه المشايخ بقولهم : ان العقاب لايكون الا على المذنب قال تعـــالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال آخرون من أهـــل المجلس : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فرد عليهم فورييـــه بقوله : « المفسدون فيما تقـــدم أهاجوا الفتنـــة فعمت العقوبة ، والمـــدافع والبنيان لا عقل لها حتى تميز بين المفســـد والمصـــلح فانهـــا لا تقرأ القرآن » (١٢٦) ٠

وكان هذا بمثـــابة انذار للمشايخ ، فتملـــكهم الخوف ، فاجتمعوا صبيحة اليوم التـــالى (٢١ شوال) بمنزل الشيخ عبد الله الشرقاوى وحضر هـــذا الاجتماع « الأغا (محافظ القـــاهرة) والوالى (رئيس الشرطـــة) والمحتسب وأحضروا مشـــايخ الحـــارات وكبراء الأخطاط ونصحوهم ، وأنذروهم ، وأمروهم بضبط من هو دونهم وأن لايغفلوا أمر عامتهم وحذروهم ، وخوفوهم العاقبة ، وما يترتب على قيـــام المفسدين وجهل الجاهلين وأنهم هم المأخوذون بذلك كما أن من فوقهم مأخوذة عنهم فالعاقل يشتغل بما يعنيه » (١٢٧) ٠

ورغم أن سكان القاهرة وعلى رأسهم رجال الأزهر كانوا مازالوا مرهقين بما نزل بهم من ظلم عقب ثورة القاهرة الثانية ، (وآية ذلك ماذكره الجبرتى فى وصف حالة سكان القاهرة حين قال : على أنه لم يبق فى النـــاس الا رسوم هافته) رغم هذا كان الفرنسيون يرتعدون فرقا من قيام الأهالى بثورة أخرى كعادتهم بزعامة رجال الأزهر ٠

---

(١٢٦) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٣ ص ١٥٦ ٠
(١٢٧) المصـــدر السابق ج ٣ ص ١٥٧ ٠

ومن ثم لجأ الفرنسيون الى اجراء وقائى فاعتقلوا كبار علماء الأزهر وكان فى مقدمة هؤلاء بطبيعة الحال (الشيخ محمد أبو الأنوار السادات) ، فقد قبضوا عليه وأصعدوه الى القلعة ، ولما سأل الشيخ السادات عن سبب اعتقاله فى هذه المرة ، أجيب بأن ذلك من باب الحذر « من اثارة الفتن فى البلد واهاجة العامة لبغضك الفرنسيين لما سبق لك منهم من الايذاء » (١٢٨) .

وفى مساء الثلاثاء ٩ ذى القعدة ١٢١٥ هـ (٢٤ مارس ١٨٠١) اجتمع وكيل الديوان الفرنسى فورييه بأعضاء الديوان ، وأخبرهم أن مقتضيات الأمن تحتم عليهم اعتقال بعض المشايخ ، « وذلك من قوانين الحروب عندنا بل عندكم ولا يكون عندكم تكدر ولا هم بسبب ذلك ، فليس الا الاعزاز والاكرام أينما كنتم ، والوكيل دائما نظره معهم ولا يغفل عن تعليل مزاجهم فى كل وقت ويوم ، ثم انتهى الكلام وانقضى على تعويق (١٢٩) أربعة أشخاص من المشايخ وهم الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى » وبديهى أن اعتقال الجنرال منو لأعضاء الديوان ماكان ليتم لو أنهم كانوا مجرد أدوات طيعة فى يده وحرص الفرنسيون على أن يتم الاعتقال ليلا لئلا يثير ذلك ثائرة الأهالى « فأصعدوهم الى القلعة فى الساعة الرابعة من الليل مكرمين وأجلسوهم بجامع سارية (١٣٠) ونقلوا الى مكانهم الشيخ

---

(١٢٨) المصدر السابق — جـ ٣ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(١٢٩) يستعمل الجبرتى كلمة التعويق للدلالة على اعتقال السلطات لأحد الأفراد والمكان الذى يعتقل فيه الأشخاص يسميه « العرقانه » أى السجن .

(١٣٠) جامع سارية بقلعة الجبل بالقرب من زاوية الشيخ محمد الكعكى ويسميه على مبارك جامع سيدى ساريه ، والشائع أن هذا المسجد ينسب الى صاحبى جليل هو سارية بن زنيم ، وقد ذكره ابن جبير ضمن مشاهير الصحابة فى مصر كما قرر المقريزى فى خططه عند ذكر موضع القلعة نقلا عن كتب المزارات أن ابا الحسن الردينى دفن بخط سارية بالقلعة ، ولكن لم ترد فى كتب التاريخ أن هذا الصحابى جاء الى مصر أو مات بها أو دفن .

السادات فاستمر معهم بالمسجد » وكلف الفرنسيون الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم الشيخ خليل البكرى ، والشيخ محمد الأمير، والشيخ موسى السرسى والشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ (١٣١) أن يتولوا النظر فىشئون البلد، وأنيجتمعوا بالجنرال بليار ولاينقطعوا عنه ، وخصصوا لكل شيخ منهم خادما يختلف اليه فى أعماله وما يحتاج اليه من منزله وسمحوا لمن يريد زيارتهم من أصدقائهم وذويهم بزيارتهم فى القلعة بتصريح كتابى من الجنرال (بليار) قائمقام (١٣٢) القاهرة .

وقد أفرج الفرنسيون عن الشيخ (سليمان الفيومى) يوم ١١ من ذى القعدة سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) وأنزلوه من القلعة للعمل مع بقية أعضاء الديوان ، وعندما ازدادت الأحوال سوءا بهزيمة الفرنسيين فى معركة كانوب انتقل المسيو (فوربيه) بمتاعه الى القلعة ولم ينزل منها ، وحل المسيو (جيرار) محله فى وكالة الديوان ورئاسة الادارة القضائية ، وأرسل فوربيه الى الشيخ (سليمان الفيومى) بأن « ينقل فراش الديوان الى منزله ففعل ولم يترك غير الحصر ، وأمر بحضور أرباب الديوان على عادتهم فكانوا يفرشون سجاجيدهم ويجلسون عليها حصة الجلوس ثم ينصرفون » (١٣٣) وكذلك أمروا الشيخ أحمد العريشى القاضى بأن يحضر ويجلس معهم ولم يسبق له أن حضر مع أعضاء الديوان لأنه لم يكن عضوا فى الديوان الأخير، وانما كان حضوره من باب مراقبة كبار العلماء فقط . وفى ٢٤ ذى

---

(١٣١) أما العضو التاسع وهو على الرشيدى صهر الجنرال منو فلم يذكره الجبرتى ويستفاد من روايته — عن حوادث سنة ١٢١٦ هـ أن على الرشيدى كا برشيد عند اعتقال المشايخ حيث ذكر انه حضر الى مصر صحبة أخته فى أوائل محرم ١٢١٦ هـ .

(١٣٢) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٦٠ .

(١٣٣) المصدر السابق — جـ ٣ ص ١٦١ .

الحجة ١٢١٥ هـ قبضوا على شيخ رواق المغاربة بالجامع الأزهر (الشيخ أبو القاسم المغربى) وحبسوه بالقلعة أيضا بسبب أنه كان يتكلم فى بعض المجالس ويقول أناشيخ المغاربة وأحكم عليهم ويتباهى بمثل هذا القول فخاف الفرنسيون أن يثير هذا الشيخ فتنة فقبضوا عليه وحبسوه [١٣٤] •

وقد كان رواق المغاربة بالجامع الأزهر من أعنف الأروقة وأشدها ميلا الى العنف ، فخاف الفرنسيون من شيخ رواق المغاربة أن يحرك بينهم الثورة وخاصة بعد اغلاق الأزهر وأصبح أغلبهم بلا مأوى •

واستمرت خطة الفرنسيين فى اعتقال كبار العلماء وحبسهم بالقلعة وكل من حامت حوله الشبه قبض عليه • ففى أوائل المحرم سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) قبض الأغا عبد العال على الشيخ (محمد الأمير) وحبس مع بقية العلماء بجامع سارية وسبب ذلك كما يقول الجبرتى: « أن ولد الشيخ المذكور كان من جملة من يستحث الناس على قتال الفرنسيين فى الواقعة السابقة فى مصر — ثورة القاهرة الثانية — فلما انقضت هرب الى جهة بحرى ثم حضر بعد مدة الى مصر فأقام أياما ثم رجع الى فوة باذن من الفرنسيين ، فلما حصلت هذه الحركة وتحذروا شدة التحذر وأخذوا الناس بأدنى شبهة وتقرب اليهم المنافقون ••• ذكر بعضهم لقائمقام أن ابن الشيخ المذكور ذهب الى عرضى الوزير والتف عليهم فأرسل قائمقام الى الشيخ قبل تاريخه » [١٣٥] وسأله عن ابنه فذكر له أنه ببلدة فوة ووعدهم بحضوره ، وأمهلوه عدة أيام فلما انقضت المهلة ولم يحضر ابنه ولا الرسول الذى أرسل فى طلبه قبضوا على الشيخ محمد الأمير وأصعدوه الى القلعة •

---

(١٣٤) المصدر السابق — ج ٣ ص ١٦٦ •

(١٣٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ١٨٥ — ١٨٦ •

وقد ظل الفرنسيون يأخذون النـــاس بالشـــبهة وكاد يقبض على الشيخ خليل البكرى بسبب وشاية غلامه (١٣٦) به لدى قائمقام بليار بأن البكرى وصلته مكاتبـــة من الوزير العثمـــانى بالأمان ، ولولا علاقـــة الشيخ خليل الخاصـــة بالفرنسيين ومعرفتهم أن هذه مكيدة من الأغا عبد العال لحزازة بينـــه وبين الشيخ ، لوقع الشيخ فى الحبس بالقلعة مع بقية العلماء .

ولو قـــدر للشيخ خليل البكرى أن ينـــال شرف الحبس مع بقية زملائه من العلماء فى القلعة لـــكان ذلك خيرا له فى نظرنا من بقائه حرا طليقا مما جر عليه شرا كثيرا عقب خروج الحملة من مصر .

اطلاق سراح العلماء :

عندما تم توقيع اتفاقية الجلاء عن القاهرة فى ٢٧ يونية ١٨٠١ م (١٥ صفر ١٢١٦ هـ) وعلم الناس بنبأ الصلح قابلوه بالابتهاج والفرح وأطلق الفرنسيون فى أثرها سراح المسجونين من العلماء وغيرهم يوم ٢٠ صفر سنة ١٢١٦ (٢ يوليو ١٨٠١ م) .

وقد ظل العلماء فى الحبس مائة يوم على رواية الشيخ عبـــد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين ، فيقول : « وقد حبسونا فى القلعة مع اخوانـــا من العلماء خوفا من قيـــام أهل البلد عليهم كما وقع منهم سابقا فمكثنا فى القلعـــة مائة يوم من تسعة فى ذى القعدة الى آخر

---

(١٣٦) ذكر الجبرتى أن هذا الغلام كان له خادم ، فأرسله الى قائمقام ليشى بسيده وقـــد أحضر الفرنسيون الغـــلام المملوك لدى البكرى فاعترف بوصول مكاتبة الى ســـيده من الوزير العثمانى وذكر للفرنسيين كلاما قبيحا قاله فى حق سيده واستحى الجبرتى عن ذكره لعفة لسانه ونحن أيضا نحفظ لساننا منه ، ورغم ماقام به الغلام فى حق سيده الا أن الشيخ البكرى تشفع فيه وأخذه من الفرنسيين !. ذكرت هذه القصـــة فى عجـــائب الآثار جـ ٣ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف وسبب خروجنا من الحبس وقـوع الصلح بين المسلمين وبين الفرنسيين » (١٣٧) وعلى هذه الرواية تـكون المدة التى قضاها العلماء فى السجن حوالى مائة وعشرة أيام وليست مائة يوم فقط •

ولـكن الجبرتى يذكر أن الافراج عن المسجونين من العلماء كان فى يوم الخميس ٢٠ صفر ١٢١٦ هـ (٢ يوليو ١٨٠١ م) وبذلك يكون العلماء قـد ظلوا حوالى مائة يوم على رواية الجبرتى • ويمكن التوفيق بين الروايتين بتفسير قول الشيخ الشرقاوى • أن آخر صفر : يعنى أواخره فيمكن أن يكون يوم ٢٠ صفر كما ذكر الجبرتى ونحن مضطرون الى هذا التفسير نظرا لأن الشيخ الشرقاوى كان من بين المسجونين فى القلعة وأفرج عنـه مع بقيـة العلماء كما يقول الجبرتى : « وفى يوم الخميس عشرينه ٢٠ صفر سنة ١٢١٦ هـ (٢ يوليو ١٨٠١ م) أفرجوا عن بقية المسجونين والمشايخ وهم الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والشيخ محمد المهدى وحسن أغا المحتسب ورضـوان كاشـف الشـعراوى وغـيرهم فنزلوا الى بيت قائمقـام وقابلوه وشكروه » (١٣٨) •

وبعد الافراج عن العلماء اجتمعوا بالوكيل الفرنساوى فى الديوان اجتماعين أحدهما فى اليوم التـالى للافراج عليهم وهو يوم الجمعـة ٢١ صفر ١٢١٦ هـ (٣ يوليو ١٨٠١ م) وكان الغرض من هذا الاجتماع هو ابلاغ أعضـاء الديوان نبـأ الصلح وعودة السـلام ، والاجتماع الآخر : وهو آخر اجتماع للديوان ، كان يوم ٢٤ صـفر ١٢١٦ هـ (٦ يولية ١٨٠١) وقـد أراد الفرنسيون أن يكون هذا الاجتماع بمثـابة

---

(١٣٧) تحفة النـاظرين على هامش كتاب فتوح الشـام للواقـدى ج ٢ ص ص ١٦٣ — ١٦٦ •

(١٣٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٩٢ •

وداع لأعضـــاء الديوان وتبـــادل فيـــه الفرنسيون مع أعضاء الديوان كلمات المجاملة وحضر الاجتماع « المشايخ والتجار وبعض الوجاقليـــة واستوف الخازندار والوكيل والترجمان » ولقـــد أظهر الفرنسيون فى هذه الجلسة تلطفـــا غير عادى بالأعضـــاء ليزيلوا ما بأنفسهم من ألم الاعتقال ولكن هيهات ، فقال الوكيل : « ان الجنرال منو انسر بسلوككم حتى الآن ... وان الحكام القـــادمين لابد أن يسلـــكوا معكم هـــذا الموضوع ولابد من وصول مكاتيب من بونابرت بعد أربعة أيام أو خمسة وانه لا ينسى أحبـــابه كما لاينسى أعداءه ، ولو لم يكن له من الحسن الا جعلـــكم وسايط لاغاثة النـــاس لـــكان كافيا ، وانكم تعلمون أنه كان نظر الى أحوال المارستان ومصـــالح المرضى وكان قصده أن يبنى جامعا ولـــكن عاقه توجهه الى الشام » وبعد مجاملات طويلة تعـــاقب على ذكرها الفرنسيون ، رد عليهم المشـــايخ بقولهم : « ان الأمر لله والملك له وهو الذى يمكن منه من يشـــاء » (١٣٩) وكان هـــذا الرد من العلماء مع ايجازه ، وتأدبه ، غاية فى التشفى من الفرنسيين ..

علماء الأزهر يخرجون للسلام على الصدر الأعظم :

بعد انقضاء آخر جلسات الديوان ، ركب المشـــايخ وخرجوا من القاهرة لمقـــابلة الصـــدر الأعظم (يوسف باشا ضـــيا) قائد القوات العثمانية المحاصرة للقاهرة وكانت أبواب القاهرة مازالت مغلقة ومنحهم قائمقام تأشيرات الخروج ، وكان خروجهم من طريق بولاق فلما وصلوا الى العرضى قابلهم ابراهيم بك زعيم المماليك بالحفـــاوة وتوجه معهم الى الصدر الأعظم .

وكانت مقـــابلة الصـــدر الأعظم للمشايخ مقـــابلة فاترة تنم عن الاعتلاء التركى والصلف العثمانى حيث يذكر الجبرتى أن الوزير « لم

---

(١٣٩) المصدر السابق — ج ٣ ص ١٩٤ — ١٩٦ .

يقم لقـــدومهم فجلسوا ساعة ••• وخرجوا من عنده » (١٤٠) وسلموا على كبار الشخصيات المصرية التى ســبق أن خرجت من القـــاهرة مع العثمانيين عقب ثورة القاهرة الثانية ، أمثـــال الزعيم عمر مكرم نقيب الأشراف ، والسيد أحمد المحروقى كبير التجار ، وغيرهم ، وقضـــوا ليلتهم فى معسكر الجيش العثمانى ، وفى الصباح عادوا الى القاهرة، ثم عبروا الى البر الغربى بالجيزة وسلموا على حســـين قبطان باشـــا قائد البحرية العثمانية الذى اشـــترك فى حرب الفرنســـيين ثم عسكر بالجيزة ريثما يتم انسحاب الجيش الفرنسى من القاهرة •

اعادة فتح الأزهر وعودة الدراسة به :

عندما تم الصلح وتأهب الفرنسيون للجـــلاء عن القاهرة ، بادر علماء الأزهر الى فتح الجامع الأزهر بعد أن مضى على اغلاقه زهاء عام، وكانت بداية فتحه يوم الأربعاء ٢٦ صفر ١٢١٦ هـ (٨ يوليو ١٨٠١ م) فقد ذكر الجبرتى أنه « فى ذلك اليوم فتحوا الجامع الأزهر وشرعوا فى كنسه وتنظيفه » (١٤١) ودخل الصـــدر الأعظم القاهرة يوم الجمعة الموافق ٢٨ صفر وصلى الجمعة بالمسجد الحسينى ، وبعد الصلاة توجه الى زيارة الجامع الأزهر ، « وطاف بمقصورته وأروقته وجلس ساعة لطيفة وأنعم على الـــكناسين والخدمة بدراهم ثم ركب راجعا » (١٤٢)•

---

(١٤٠) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٩٦ .

(١٤١) المصدر السابق — جـ ٣ ص ١٩٧ .

(١٤٢) يلاحظ أن الأستاذ محمد عبـــد الله عنان ذكر أن الجبرتى قال بأن فتح الجامع الأزهر كان يوم الاثنين ٢٤ صـــفر ، كمـــا ذكر أن الوزير حسين باشا هو الذى احتفل بفتحه فى الجمعـــة التالية ، وهذا بخـــلاف ما أورده الجبرتى فى عجائب الآثار جـ ٣ صص ١٩٧ — ٢٠١ ، وهو الذى ذكرناه فى المتن كما ذكر عنان أيضا رواية أخرى لعلى مبارك فى فتح الأزهر فى غاية المحرم ١٢١٦ هـ ، ولعل الجبرتى أصدق قيلا من على مبـــارك لأنه كان معاصرا لهذه الأحداث .

وكانت مبادرة الصـــدر الأعظم بزيارة الأزهـــر على هـــذا النحو عقب دخوله القـــاهرة اعترافا منه بمكانة الأزهر ، وتقديرا لمركز علمائه وشيوخه ، واجلالا لدورهم البطولى فى مقـــاومة الحملة الفرنسية ، وما قام به من تضحيات جسيمة فى الوقت الذى هربت فيـــه قـــوات ابراهيم بك والعثمانيين الى الشام ، وتحالف مراد بك مع الفرنسيين .

ظل رجال الأزهر يعملون فى تنظيفـــه وتنظيمـــه نحو أســـبوعين لاعادة الحيـــاة الدراسية به الى سابق عهدها ، وفى يوم الجمعـــة ١٣ ربيع الأول ١٢١٦ هـ (٢٤ يوليو ١٨٠١) احتفل الوزير يوسف باشـــا ضـــيا باقامة صـــلاة الجمعـــة بالجامع الأزهر ، وخلع فى هذا اليوم على خطيب الأزهر خلعة (١٤٣) بمناسبة اعادة فتح الأزهر ، وكان يوما حافلا ، أحدث أثرا طيبـــا فى النفوس بعد هذه المدة من اغلاقه ، وبعد الحوادث الخطيرة التى تعرض لها ابان الاحتلال الفرنسى ، الأمر الذى رفع من قدره ، ورفع مكانة علمائه لدى الفاتحين .

---

(١٤٣) جاء فى المصباح المنير : الخلعـــة مايعطيه الانسان غيره من الثياب منحة والجمع خلع ، وخلع عليه خلعة أى أعطاه ثوبا هدية .

الفصل الخامس

الأزهر ابان عصر الاضطراب السياسى

الأزهر ابان عصر الاضطراب السياسى

الوضع السياسى بمصر عقب جلاء الحملة :

بقيت بمصر عقب جلاء الفرنسيين القوات العسكرية التى تعاونت على هزيمتهم وهى قوات العثمانيين والمماليك والانجليز ، ودار صراع بين هذه القوات الثلاث من أجل الاستئثار بحكم البلاد .

أما العثمانيون فقد تطلعوا الى بسط حكمهم المطلق على مصر دون غيرهم ، ولذلك استقر عزمهم على محاربة المماليك والقضاء عليهم ، فعهدوا الى الصدر الأعظم « يوسف باشا ضيا » و « حسين باشا القبطان » قائدى الجيش العثمانى بمصر بابادتهم ، وتظاهر الصدر الأعظم فى بداية الأمر بالود للمماليك على حين كان يدبر المؤامرات للغدر بهم ، فأبعد محمد بك الألفى عن القاهرة حيث عينه أميرا على الصعيد ليسهل عليه القضاء على بقيتهم من ناحية ، ولكى يبذر بذور الحقد بينهم من ناحية أخرى وذلك لأنهم كانوا يتنافسون على امارة الصعيد .

وكانت أساليب الغدر مألوفة لدى العثمانيين ، فاتفق القائدان على أن يدعو كل منهما فريقا من زعماء المماليك الى الاجتماع به ، الصدر الأعظم بالقاهرة ، والقبطان باشا بالاسكندرية ، بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم فى البلاد ، فاذا اجتمعوا فتك الجند بهم أو أخذوهم أسرى ، وأرسلوهم الى السلطان العثمانى يرى فيهم رأيه .

ونجحت مكيدة القبطان بخليج أبى قير بالاسكندرية فى أوائل أكتوبر سنة ١٨٠١ (١٢١٦ هـ) حيث فتك بكثير من زعماء المماليك المرادية فى عرض البحر ، واعتقل بقيتهم ، ولولا توسط الجنرال

هتشنســـون القـــائد الانجليزى Sir John Hutchinson بالاسكندرية لفتك بهم جميعا ، ولـــكن حسين باشا أطلق سراحهم بعـــد أن هدده القائد الانجليزى بالحرب .

وفى القاهرة دبر الصـــدر الأعظم يوسف باشـــا مؤامرة أخرى حيث دعاهم الى ديوان عقـــده بقصره فى ١١ جمادى الآخرة ١٢١٦ هـ (أكتـــوبر ١٨٠١) ثم قبض عليهم وأراد الغـــدر بهم لولا أن الجيش الانجليزى المرابط بالجيزة هدد الصـــدر الأعظم بالحرب اذا لم يطلق سراحهم فخاف الصدر الأعظم عاقبة الأمر وأطلق سراحهم .

وتحرج مركز حسين باشا القبطان أمام حلفائه الانجليز بعد فشل مؤامرته على المماليك بالاسكندرية ، فلم يلبث أن سافر من أبى قير الى الآستانة فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٠١ (رجب ١٢١٦ هـ) [١] واعتزم الصدر الأعظم الرحيل الى الآستانة بعد ذلك بقليل ، فاستدعى (محمد خسرو باشا) [٢] ليسلمه زمام الحكم قبل سفره فحضر الى القاهرة فى ١٧ رمضان ١٢١٦ هـ (يناير ١٨٠٢ م) واستقر فى الحكم ، وارتحل الصدر الأعظم يصحبه جزء كبير من الجيش العثمانى وخاصة الانكشارية فى ١٠ شوال ١٢١٦ هـ [٣] .

أما المماليك فكانوا يرون أنهم حكام البلاد الأصليون ، ونصيبهم فى قتال الفرنسيين يؤهلهم لأن يستعيدوا مركزهم القديم ، بيـــد أن الحملة الفرنسية كانت قـــد تمكنت من تسديد ضربة قوية اليهم فرقت

---

(١) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٢١٤ .

(٢) كان خسرو أول وال عثمانى يعين فى مصر بعد جلاء الفرنسيين، وكان قبل توليته وكيلا لحسين باشا القبطان ومن خاصة أصـــدقائه ، وهو الذى سعى له فى هذا المنصب . أنظر الرافعى — تاريخ الحركة القومية — جـ ٢ ص ٢٨٧ .

(٣) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٢١٩ .

شملهم وحطمت هيبتهم التى كانوا يتمتعون بهـا فى البلاد • وعلى أثر وقيعة القبطان والصدر الأعظم بهم زادت النفرة بينهم وبين العثمانيين، فتجمع أتباع مراد بك وأتباع ابراهيم بك بالجيزة ، وانتقلوا فى رمضان ١٢١٦ هـ (يناير ١٨٠٢ م) الى الصعيد لاعادة تنظيم قوتهم استعدادا لقتال العثمانيين (٤) •

وأما الانجليز فكانوا يخشون عودة الفرنسيين ، ويطمحون الى بسط نفوذهم فى وادى النيل ، واتخاذ مصر قاعـدة حربيـة وبحرية ليضمنوا سيادتهم فى البحر المتوسط وليضمنوا بسط نفوذهم السياسى والتجارى فى الشرق ويضمنوا سـلامة طريقهم الى الهند ، وقد بقيت للانجليز بعـد جلاء الفرنسيين قوة بالقاهرة ، وأخرى بالاسكندرية (٥) وتريث الانجليز بعض الوقت فى الجلاء عن مصر ، حتى ينجلى الموقف وتستقر الأوضاع فيها • وكان يهمهم أن يقوم فى مصر حكم ثابت قوى يستطيع أن يدافع عن البلاد اذا حدث الفرنسيون أنفسهم بالعودة الى غزو مصر ، ورأوا أن تعود مصر ولاية عثمانية لتتمتع بالضمانة الأوربية العـامة لسلامة الدولة العثمانية ، على أن القائد الانجليزى كان قليل الثقـة فى كفاية العثمانيين العسكرية ورأى أن المماليك هم أصلح قوة للدفاع عن البـلاد ، اذا أحسن تنظيمهم وساد التفـاهم بينهم وبين الدولة العثمانية صـاحبة السيادة على مصر ، وعلى هذا بدأ الانجليز فى السعى لاعادة المركز الذى كان عليـه أمراء المماليـك قبل قـدوم الفرنسيين ، ولـكن أخفقت جهود القائد الانجليزى فى التوفيق بين المماليك والعثمانيين ، وتدخل لانقاذ الأمراء من تآمر العثمانيين عليهم

---

(٤) المصـدر السابق — جـ ٣ ص ٢١٨ •

(٥) كان الجيش الانجليزى فى مصر مؤلفا من ستة عشر ألف مقـاتل بقيادة الجنرال (هتشنسون) يحتلون الاسكندرية ورشيد ودمنهور ، وتلحق به القوة التى قدمت من الهند بقيـادة الجنرال (بيرد General Baird) وعددها نحو ستة آلاف مقاتل معسكرين بالجيزة •

وفى مارس سنة ١٨٠٣ جلت القوات البريطانية عن مصر قبل أن يستتب الحكم فيها وأخذوا معهم محمد بك الألفى أحد كبار المماليـــك ليرتبوا معه طريقة عودة المماليك الى الحكم •

وأما الفرنسيون فقـــد بذلوا مســـاعيهم لعـــدم ازدياد النفـــوذ الانجليزى فى مصر وسرعة جلاء قواتهم عنها ، كما حاول الفرنسيون أيضا كسب فريق من المماليك ، وتنافس بذلك الفرنسيون والانجليز فى كسب ود المماليك فانحاز الألفى وأنصـــاره الى الانجليز ، كما انحـــاز عثمان بك البرديسى ورجاله الى الفرنسيين (٦) •

موقف الزعامة الشعبية :

فى وسط تلك الفوضى السياسية صمم علماء الأزهر على المشاركة فيما يدور حولهم من نزاع ، فنظموا كفاح الشعب صـــاحب المصلحـــة الحقيقيـــة فى تقرير مصيره ، ووقفوا فى وجه الطامعين الذين أرهقوا الشعب وسلبوا أقواته ، بكثرة مافرضوه من ضرائب ، وكانت حوادث النضال أثناء الحملة الفرنسية قـــد أنضجت الزعامة الشعبية ، فبرز الى الميـــدان عمر مكرم ومحمد السادات والشيخ عبـــد الله الشرقاوى وغيرهم ممن حملوا لواء المعارضـــة ابان عصر الاضطراب السياسى ، وكان لهم الفضل فى اظهـــار شخصـــية الشعب المصرى فى تلك الفترة الحاســـمة من تاريخ مصر ، ومضى الشـــعب بقيـــادتهم مصمما على المشاركة الفعالة فى حكم بلاده ، وحاول الأتراك والمماليك بدورهم ابعاد القيادة الشعبية عن الميدان •

بداية الصراع على السلطة :

عقب عودة العثمانيين الى مصر بدأت أولى مراحل الصراع على السلطة ، فقد عزمت الدولة العثمانية على أن تستخلص البلاد لنفسها ،

(٦) عبـــد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القوميـــة — ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٧ •

فكانت تعليماتها الى الصدر الأعظم وحسين باشا القبطان تقضى بابادة المماليك والتخلص منهم لما كانوا يلقونه من تأييد انجليزى وفرنسى، غير أنهم لم يتمكنوا من تنفيذ غرضهم بسبب حماية الانجليز للمماليك ، وانسحب المماليك الى الصعيد لتنظيم صفوفهم من جديد .

ولما كان الانجليز قد بدأوا فى الرحيل عن القاهرة فى المحرم سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) من ناحية ، وانسحب المماليك الى الصعيد من ناحية أخرى ، فقد أعقب ذلك صراع على السلطة فى القاهرة ، بين جنود الحامية العثمانية (الألبان بقيادة طاهر باشا ومحمد على ، والانكشارية بقيادة خسرو باشا) (٧) .

وعلى هذا النحو تمضى الحوادث فى القاهرة بين سنتى ١٨٠١ — ١٨٠٥م (١٢١٦—١٢٢٠هـ) تخضع للظروف والملابسات الداخلية،ويبدأ نفوذ العلماء يظهر شيئا فشيئا كقوة موازنة بين القوى المتصارعة الى أن يصبح فى مقدورهم فى النهاية تزعم الثورة على الوالى التركى خورشيد وطرده واختيار محمد على بدله ونزول الباب العالى على ارادتهم .

عودة العثمانيين وسياستهم الجديدة :

عاد العثمانيون الى القاهرة فى موكب حافل على رأسه الصدر الأعظم وخرجت جموع الشعب لاستقبالهم ، واستأجروا الدور المطلة على الشوارع الرئيسية التى يمر منها الموكب ، وقد وصف الجبرتى

(٧) كان الجيش العثمانى الذى اشترك فى فتح مصر يتألف من خليط من الجنود الأكراد والانكشارية والألبان خصوصا ، وكان الألبان قوام هذه القوة العثمانية لتفوقهم العددى على غيرهم منذ مغادرة الصدر الأعظم للبلاد ، فقد خرج قسم كبير من الانكشارية معه ، وصار نجاح الولاة فى دعم باشويتهم متوقفا على مدى مؤازرة الجنود الألبان لهم . انظر : د. محمد فؤاد شكرى . مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ — ١٨١١ م) جامعة القاهرة — ١٩٥٨ جـ ١ ص ٣ .

هذا الموكب وصفا مسهبا لفرحة الشعب بعودة العثمانيين الى البلاد • لأن المجتمع فى مصر كان مجتمعا اسلاميا ولأن العاطفة الوطنيــة كانت متشابكة ممتزجة مع العاطفة الدينية بحيث لم يكن من السهل الفصــل بينهما بل ان العــاطفة الدينيــة كانت جارفة تكتسح أمامها العــاطفة الوطنيــة ان وجدت • غير أن الجبرتى لم يكن مطمئنا الى العثمانيين، وأشار الى ســذاجة الشعب لفرحته بالقادمين فقال : « ففرح النــاس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير » ثم علق على مظــاهر الأفراح الشعبية تعليقا مع نظرة الشعب الى الدولة العثمانية فقــال : « ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ويوفق أولى الأمر للخــير والعــدل المطلوب ويلهمهم سلوك ســواء السبيل القويم ، ويهديهم الى الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين » [٨] •

ولم تــكن النفوس قــد صلحت كما تمنى الجبرتى ، فمــا كاد العثمانيون يستقرون بالقــاهرة حتى بدأت حركة الانتقــام من الذين تعاونوا مع الجيش الفرنسى ، وكان على رأسهم الشيخ خليل البكرى وابنته ، فبعث الصــدر الأعظم يستدعى البكرى وابنته فى ٢٤ ربيع الأول ١٢١٦ هـ (٤ أغسطس ١٨٠١ م) وذهبت قوة فأحضرت الفتــاة من بيت أمها بالجودرية [٩] بعد الغروب ، وسألوها عما كانت تفعله مع الفرنسيين فقالت : انى تبت من ذلك ، وسألوا والدها : ماتقول أنت ؟ فقال : أقول انى برىء منهــا فــكسروا رقبتها [١٠] ، أى قتلوها ، وعزل

---

(٨) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٩٧ — ٢٠٠ •

(٩) يقع شارع الجودرية بالقرب من أول شارع المؤيد وينتهى الى أول شارع الخطاب ، أما حارة الجودرية فتتفرع منه وتمتد الى جامع بيبرس والى درب سعادة فى شارع الأزهر ، والجودرية اسم لطائفــة من العسكر كان عددهم اربعمائة اختطوا هــذا الشارع أيام الحــاكم بأمر الله الفاطمى • انظر : على مبارك — الخطط التوفيقية — جـ ٣ ص ٣٩ — ٤٤ •

(١٠) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٢٠٢ •

الصـــدر الأعظم الشيخ خليل من نقابة الأشراف ، لأنه تولاها فى غيبة عمر مكرم النقيب الأصلى ووطد علاقتـــه بالفرنسيين وسمح لابنته أن تتبرج معهم ، وأساء بتصرفاته وأسلوب معيشته فى الحياة الى سمعة بيت البكرى العريق ، وصـــدر قرار بتعيين عمر مكرم نقيبا للأشراف لموقفـــه العدائى لجيش الاحتلال ، والحق كما يقول الدكتور الشناوى أن تصرفات الشيخ خليل البكرى قـــد يسرت أمام العثمانيين مهمة اعادة عمر مكرم الى منصـــبه القـــديم نقيبـــا للأشراف ، فهم فى اقصائهم الشيخ خليل البكرى عن نقابة الأشراف كانوا يعتمدون على أســـانيد قوية بعدم الأهلية لشغل منصب النقيب [١١] ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بالنسبة للانتقـــام من الشيخ خليل البكرى بل تعداه الى سحب الثقة منه بالنسبة لمشيخة السجادة البكرية ففى شهر ذى القعـــدة من نفس السنة طلب محمد خسرو باشا علماء الأزهر وتكلم معهم فى شأن الشيخ خليل البكرى ، وقال لهم بأنه « لا يصلح لسجادة الصديق وأريد عزله من غير ضرر عليه بل وأعطيه اقطاعا لنفقته » [١٢] فاســـتقر رأى العلماء على عزله وتعيين الشيخ محمد ســـعد [١٣] مكانه فى مشـــيخة السجادة البكرية [١٤] •

---

(١١) د• الشناوى — عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية — مرجع سبق ذكره ص ٨٨ •

(١٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٢٢ •

(١٣) ذكر الجبرتى عندما ترجم له فى وفيات سنة ١٢٢٧ هـ أنه كان يكنى بأبى السعود ج ٤ ص ١٧٦ •

(١٤) يذكر الجبرتى فى ترجمته للشيخ خليل البكرى أنه عند وفاة أخيه الشيخ أحمد البكرى الصـــديقى الذى كان متوليـــا على سجادة البكرية لم يخلفه الشيخ خليل فى مشيخة السجادة لمـــا فيه من الرعونة وارتكابه أمورا غير لائقـــة بل تولاها ابن عمه السيد محمد أفندى مضـــافة لنقابة الأشراف فلما توفى ابن عمه محمد أفندى البكرى تولى الشيخ خليل مشيخة السجادة البكرية وتولى نقـــابة الأشراف السيد عمر مكرم وذلك سنة ١٢٠٨ هـ فلمـــا =

ولقد كانت هـذه ضربة قاصـمة قضت على مركز الشيخ خليل البكرى بين أتبـاعه الـكثيرين الذين كان له عليهم سلطان كبير ، فقد كان يتولى رئاسة الاحتفـال بالمولد النبوى الذى كان يقام عادة عند بيت عائلة البكرى بحى الأزبكية بدرب عبـد الحق ، وكذلك الاحتفـال بذكرى الاسراء والمعواج فى شهر رجب بزاوية الدشطوطى خارج باب العدوى ، وكان « يتحاكم لديه خلفـاء الطرائق الصوفيـة وأصحاب الأشاير البـدعية (الطرق الصوفية) كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية وغيرهم فيفصل بينهم » (١٥) .

وعندما تولى الشيخ محمد أبو السعود البكرى مشيخة السجادة البكرية ، تولى القيـام بهذه المهام ، واشتهر ذكره بعد أن كان خاملاً مغمورا ، ويقول عنه الجبرتى : « ان الباشا خلع عليـه فروة سمور

= حضر الفرنسيون الى مصر تولى الشيخ خليل البكرى نقابة الأشراف كما أشرنا فى المدن ، وذكر الجبرتى انه بعد أن اخذت من الشيخ خليل مشيخة السجادة البكرية خمل أمره وباع ماكان تحت يده من حصص الالتزام وسدد بأثمانهـا ديونه واقتصر على ايراده فيما يخصه من وقف جده لأمه الأستاذ الحنفى ، ثم يقول الجبرتى بأن الشيخ خليل « تصدى لأذيته أنفار من المتظاهرين مثل السيد عمر مكرم النقيب والشيخ محمد وفا السادات وخلافهما حتى أنه كان عقد لابنـه سيدى أحمد على بنت المرحوم محمد أفنـدى البكرى فتعصبوا عليه بعد عزله من المشيخة والنقابة » وابطلوا العقد وفسخوا النكاح ببيت القاضى وتسلط عليه كل من له دين أو دعوى أو مطالبة حتى بيعوه حصصه واشترى دارا بدرب الجماميز بعطفـة الفرن وترك بيت اسرته بالأزبكية ، ولم يزل على حال خموله حتى مات بسبب مرض الفتق على حين غفلة فى منتصف ذى الحجة سنة ١٢٢٣ هـ ودفن عند أسلافه بمشهد البكرية بالامام الشـافعى » رحمـه الله وعفا عنه . الجبرتى — عجـائب الآثار — ج ٤ ص ٩٢ — ٩٣ .

(١٥) انظر الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٧٦ .

وأنعم عليه بخمسة أكياس » وأمر له أن « يأخذ له فائظا [١٦] فى بعض الاقطاعات ويعفى من الحلوان » [١٧] • كما ذكر عنه الجبرتى أنه كان طيب الذكر ومن بقيـــة السلف الصالح يتصل نسبه الى « محمد بن أبى السرور البكـــرى الصـــديقى المؤرخ المعروف فى العصر العثمانى، ومات بعد أن بلغ التسعين وزيادة فى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) » [١٨]•

العلماء يعارضون أطماع القاضى التركى الجديد :

كانت الفكرة المسيطرة على أذهان الجيش العثمانى هى أنهم نظروا الى مصر على أنها فتح جديد ، ولهم بفضل هذا الفتح أن ينهبوا ويسلبوا أرزاق المصريين ، ويسيئوا معاملة الشعب أبلغ اساءة •

وانعكست هـــذه الفكرة على جميـــع تصرفاتهم فى البـــلاد عقب عودتهم وسوف نحاول فيما يلى بيان بعض هذه الأعمال وخاصة مايتصل منها بمجتمع العلماء من رجال الأزهر •

كان من بين الاجراءات التى باشرها العثمانيون عند عودتهم الى القاهرة هو اعادة منصب قاضى القضاة الى العنصر التركى ، فقد عزلوا الشيخ أحمـــد العريشى الأزهـــرى المصرى الذى تولى منصب قاضى القضاة على يد الفرنسيين وعينوا مكانه قاضـــيا تركيا لم يذكر الجبرتى

---

(١٦) الفائظ : هى اللفظة العربية الفائض ، وهو مبلغ من المال كان يتبقى للملتزم بعد تأدية الضرائب المطلوبة للحكومة على الحصة أو الاقطاع الذى يتولى جمع ضرائبه .

(١٧) الحلوان : هو الرسم الذى تتقاضاه الحكومة لنقل حق أو منفعة من شخص الى آخر ، (انظر : شفيق غربال — مجلة كلية الآداب — مرجع سبق ذكره — ص ١٠) .

(١٨) أنظر ترجمة الشيخ محمـــد أبو السعود البكرى فى : الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

له اسما ، وانما ذكر أن هذا القاضى « حصل منه تعنت فى الأحكام . وطمع فاحش وضيق على نواب القضــاء بالمحــاكم ومنعهم من سماع الدعاوى ، وأراد أن يفتح بابا فى الأملاك والعقــار ويقول انها صارت ملــكا للسلطان » وطلب من أرباب العقــارات والأملاك أن يشتروها مرة ثانية من الميرى لأن مصر قــد ملــكها الحربيون وبفتحها صارت ملــكا للسلطان ، ولــكن فقهاء الأزهر ناقشوه مناقشة علميــة ووقع بينــه وبينهم مباحثات انتصروا فيهــا عليه وشكاه رجال الدولة الى الوزير يوسف باشا ضيا ، فعند ذلك عزله الوزير وعين مكانه قاضــيا آخر هو (قدسى أفنــدى) [١٩] نقيب الأشراف بحلب سابقا . ونقل المعزول متاعه من المحكمة فكانت مدة ولايته خمسة عشر يوما [٢٠] .

وعاد الفساد الى الحيــاة القضائية مرة أخرى على يد القــاضى التركى ، وتدخل العساكر العثمانيون فى الدعاوى فــكانوا يأخــذون ضريبــة لهم على الدعاوى الشرعيــة فيقول الجبرتى : « واذا تداعى شخص على شخص أو امرأة مع زوجها ذهب معهم أتباع القلق [٢١] الى المحكمة ان كانت الدعوى شرعية فاذا تمت الدعوى أخذ القــاضى محصوله ويأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوى » [٢٢] .

ومما هو جدير بالذكر أن الدولة العثمانية ظلت تمــارس هــذا

---

(١٩) عزل قدسى افندى يوم الخميس اول جمــادى الأولى ١٢١٦ هـ وتولى القضاء عوضا عنه (عبد الله أفندى) قاضى الميرى وكاتب الجمرك (الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٠٧) .

(٢٠) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٢٠٢ .

(٢١) القلق تحريف للــكلمة التركية « قوللق » وهو مركز العسكر او مانسميه الآن نقطة الشرطة وتطلق على ضابط نقطة الشرطة العثمانى كما تطلق احيــانا على احد رجال نقطة الشرطة من الجنود . (محمد شــفيق غربال — مجلة كلية الآداب — مرجع سبق ذكره ص ٢٢ حاشية رقم (١) .

(٢٢) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٢٠٣ .

التقليد التقليد بتعيين تركى فى منصب قاضى القضاة فى مصر الى أن قامت الحرب العـــالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ •

ودخلت تركيا الحرب ضد بريطانيـــا وحلفائهـــا فى ٥ من نوفمبر ١٩١٤ فانتهزت بريطانيـــا الفرصـــة وأعلنت فى ١٨ من ديسمبر ١٩١٤ وضع مصر تحت الحمـــاية البريطانيـــة وزوال السيادة العثمانيـــة عن البـــلاد [٢٣] وفى هـــذا يقول الأستاذ محمد رفعت « من الطريف أن نذكر أن ممارسة تعيين مصرى فى منصب قاضى القضاة المسلم قد توقفت برحيل الفرنســـيين سنة ١٨٠١ (١٢١٦ هـ) ولم تستأنف حتى قطعت علاقتنـــا مع تركيا فى ســـنة ١٩١٤ ، فى أثنـــاء الحـــرب العالميـــة الأولى » [٢٤] •

منصب نقابة الأشراف :

واذا كان منصب قاضى القضاة من المناصب التى اعتاد الأتراك أن يتولوها فى مصر ابان العصر العثمانى فان هنـــاك منصبا آخر لم يكن لهم سبق ولاية عليه وأعنى به منصب نقيب الســـادة الأشراف بمصر ، فقد طمع فى هذا المنصب دجال تركى حضر الى مصر فى ركاب الجيش العثمانى •

وعندما استهل شهر شعبان ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) حدثت المؤامرة لانتزاع منصب نقيب الأشراف من السيد عمر مكرم الى رجل تركى من

---

(٢٣) جاء هذا الاعلان البريطانى باسم وزير خارجية بريطانيا ونشر معربا فى جريدة الوقائع المصرية فى العدد الصادر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ .

(24) « It is interesting now to note that the practice of appointing an Egyptian to the post of Moslem chief Judge Stopped with the departure of the French in 1801, and was not resumed until our relation with Turkey were severed in 1914, during the Frist Great War ».

Rifaat M., Awakening of Modern Egypt. London. 1947. P. 9

الأفاقين والمحتالين يدعى (يوسف أفندى) حضر الى مصر ومعه مرسوم بولايته على نقـابة الأشراف ومشيخة المـدرسة الحبانية ، وقد كان هذا الشخص متسببا فى بيع الخردة والياميش بخان الخليلى قبل الحملة وهو من متصـوفة الأتراك الذين يحترفون الوعظ والاقـراء باللغـة التركية ، وعندما توفى شيخ رواق الأتراك بالأزهر تولى مشيخة الرواق بمعونة بعض الفقهاء ، ثم طرد من المشيخة وسافر الى الآستانة وأقام هنـاك مدة اقامة الفرنسيين بالبلاد ، وما زال يتحايل على رجال الدولة فى الآستانة ويخدعهم بأنه كان شيخا بالأزهر وله معرفة بالعلم فأعطوه هذا المرسوم السابق الذكر ولـكن رجال الدولة بالقـاهرة لم يلتفتوا اليه نظرا لسلوك السيد عمر مكرم المعروف كما يقول الجبرتى : « وذلك لاجتماع الخاص والعـام على حسن سيرة السيد عمر أفندى وقيامه بواجب هـذا المنصب ، وخلوص نيتـه فى كل مذهب ، وقـد جاهد فى الله حق جهاده ، وبذل نفسه وماله للغزاة والمجاهدين من عباده ، وسافر الى الشام مرتين ، وباشر الحادثتين (٣٥) ، وله بأرباب الحاجات عناية ومنزلة للمجتدى نعمى وللخائف وقاية ، فلا أخلى الله الوقت من وجود أمثاله ، وأفاض عليه سوابغ أنعامه وأفضاله » (٣٦) .

---

(٣٥) يقصـد بالحادثتين : حادثة فتح مصر على يد الفرنسيين ، وثورة القاهرة الثانية ، وقد سافر الى الشام بعد كل منهما كما سبق أن بينـا .

(٣٦) هذا هو ماقاله الجبرتى فى السيد عمر مكرم بعد هذه الحادثة فى كتابه مظهر التقديس (ج ٢ ص ٢١٥) ولـكنه عاد فحذف هذا الـكلام عندما دون هذه الحوادث فى كتابه عجائب الآثار (ج ٣ صص ٢١٤—٢١٥) وغاية ماذكره فى عجائب الآثار انه قال « بأن أعيان الأشراف بمصر تجمعوا وقالوا لا يكون هـذا (يوسف أفندى) حاكما ولا نقيبا علينا أبدا . . وحضر الصدر الأعظم فلم يصغوا اليه ولم يسعفوه وأهمل أمره وهكذا شأن رؤساء الدولة أدام الله بقاءهم اذا تبين لهم الصواب فى قضية لايعدلون الى خلافة » ويظهر أن الجبرتى عندما عاين ظلم العثمانيين بعد عودتهم الى مصر ثانيـا =

والواقع أن الصـــدر الأعظم يوسف باشا ضيا قـــدر مواقف عمر مكرم فلم يعبأ بالحاح الأغاق التركى الذى الح فى طلب منصب نقيب الأشراف نظرا لأن الســـيد عمر مكرم كان فى فترة وجود الفرنسيين بالديار المصرية تابعا للأتراك فقد خرج من القاهرة وذلك بسبب النزعة الدينية المتأصلة فى نفسه والولاء للســـلطان العثمانى سلطان المسلمين والالتصاق بالدولة العثمانية على اعتبار أنها دولة الاسلام الكبرى (٣٧) وعنـــدما أرجعـــه (بونابرت) الى مصر بعد فتح (يافا) ظل موجودا بالقاهرة واعتزل الفرنســـيين الى أن وقعت معاهـــدة العريش ، ودخل الأتراك القاهرة وتعـــاون معهم فى اثارة سكان القاهرة على الفرنسيين فى ثورة القاهرة الثانية ، وبعد القضـــاء على الثورة خرج عمر مكرم معهم الى الشام مرة أخرى •

كل هذه المواقف السابقة للسيد عمر مكرم تجاه الاحتلال الفرنسى جعلت الصـــدر الأعظم يراعى جانبـــه ويرى أنه أهل لنقابة الأشراف ولم يصغ لالحاح مواطنه التركى •

ولـــكن بمجرد قدوم محمد خسرو باشا الى القاهرة فى ١٣ من رمضان ١٢١٦ هـ (١٧ يناير ١٨٠٢) وهو أول وال عثمـــانى يعين لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها بذل يوسف أفندى التركى مساعيه لديه من جديد لتعيينه نقيبا للأشراف استنادا الى مرسوم صـــادر من السلطان بذلك وأن هذا المرسوم واجب النفـــاذ ، فقلده محمـــد خسرو نقـــابة

=
وقارن بين افعـــالهم وافعـــال الفرنسيين بدا يغـــير احكامه عليهم وعلى انصـــارهم وقـــد كان السيد عمر مكرم فى هـــذه الفترة تابعا لركابهم فى نظر الجبرتى نظرا لخروجه معهم من القـــاهرة مرتين ثم عودته عندما خرج الفرنسيون •

(٣٧) يلاحظ ان المجتمع فى مصر فى هذه الفترة كان مجتمعا دينيا خالصا، وكانت الفكرة الاسلامية فيه سمة بارزة عميقة الجذور — د• عبـــد العزيز الشناوى — عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ص ٤٦ •

الأشراف فى ٢٩ من رمضان سنة ١٢١٦ هـ (٢ فبراير ١٨٠٢) وفى ذلك يقول الجبرتى : « وفى ليلة الأربعاء تاسع عشرينه — من رمضان — ذهب يوسف أفندى الى عند والى مصر فقلده نقابة الأشراف والبسه فروة بعد أن كان أهمل أمره » (٣٨) .

ولكن السيد عمر مكرم ظل على ولائه للعثمانيين فخرج مع المشايخ لوداع الصدر الأعظم عند عودته الى الآستانة فى ١٠ شوال ١٢١٦ هـ (١٣ فبراير ١٨٠٢) ، ويبدو أنه تحدث مع الصدر الأعظم فى موضوع اعادة منصب النقابة اليه ، وطلب منه أن يبذل مساعيه لدى السلطان فى هذه المسألة عقب عودته الى الآستانة .

ويبدو أيضا أن الصدر الأعظم توسط لدى السلطان فى اعادة عمر مكرم ، فلم يمض وقت طويل على وصوله الى الآستانة حتى فاتح السلطان فى موضوع نقابة الأشراف واستطاع تسويتها معه (٣٩) وقد وصل الى القاهرة فى ١٥ ذى الحجة ١٢١٦ هـ (١٨ من أبريل ١٨٠٢) رسول من الباب العالى يحمل مكاتبات كان من بينها مرسوم باعادة نقابة الأشراف الى السيد عمر مكرم وعزل يوسف أفندى التركى منها، وقد ركب السيد عمر مكرم وصعد الى القلعة وتوجه الى الباشا حيث ألبسه خلعة سمور ، وبذلك عادت نقابة الأشراف الى السيد عمر مكرم بعد أن انتزعها يوسف أفندى منه مدة شهرين ونصف شهر .

دوافع هذه السياسة :

لعل الذى دفع الأتراك الى انتهاج هذه السياسة التى تقوم على أساس تصفية مراكز القوى فى البلاد ، هى تلك الأوامر الصريحة التى أصدرها الباب العالى للوالى (محمد خسرو باشا) عقب توليه زمام الأمور فى البلاد .

---

(٣٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢١٩ .

(٣٩) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — ص ٩٧ .

فقد ذكر المبعوث الفرنسى (سباستيانى Sebastiani) (٣٠) فى تقريره الذى رفعه الى بونابرت عن الحالة السياسية فى مصر عقب خروج الفرنسيين « أن مترجم خسرو باشا قد أطلعه على أوامر من الباب العالى تطلب من باشا القاهرة اذلال رؤساء المشايخ وكبارهم ، ومصادرة أموالهم وأملاكهم بقدر استطاعته ، وايذاء الشيخين البكرى والسادات على وجه الخصوص » (٣١) .

ولعل مترجم خسرو باشا أو المبعوث الفرنسى أو كليهما مما قد أخطأهما التعبير وأنهما قصدا من لفظة « اذلال » معنى آخر هو عدم تسليط الأضواء على كبار مشايخ الأزهر مما يؤثر على نفوذ الدولة العثمانية فى مصر والتى كانت تريد أن يكون نفوذها عاليا . ومن المعروف أن فى مقدمة خصائص الدولة العثمانية أنها دولة دينية توقر رجال الدين ، وتوفر لهم مكانة مرموقة .

وعلى ذلك فقد كان عزل الشيخ أحمد العريشى من منصب قاضى القضاة بمصر وتعيين تركى فى هذا المنصب الكبير ، وعزل السيد عمر مكرم من منصب نقابة الأشراف بمصر ، أقصد أن هذين الاجراءين كانا جزءا من مخطط عثمانى كبير لابعاد كبار العلماء عن مسرح الحوادث ،

---

(٣٠) كان المسيو سباستيانى قد وصل الى مصر فى ١٦ اكتوبر ١٨٠٢ بوصفه وزيرا مفوضا من بونابرت للوقوف على آخر التطورات بها عقب خروج الفرنسيين منها ، ومعرفة موقف كل طائفة من الطوائف المتصارعة على السلطة بها والاتصال بهم جميعا ، وقد كون المسيو سباستيانى ملاحظاته فى تقرير قدمه الى حكومة القنصل الأول ، وقد قامت الحكومة الفرنسية بنشر هذا التقرير الخاص بمهمته فى الجريدة الرسمية فى ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ بعد حذف فقرات منه اقتضت الحكمة السياسية حذفها .

انظر : د. محمد فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن التاسع عشر — ج ١ ، ص ٤٦ .

(٣١) المرجع السابق — ج ١ ص ٤٢ .

وعزلهم عن الصدارة ، والقضاء على هيبتهم فى البـــلاد ، وكان هــذا المخطط بدوره جزءا من خطة أكبر للقضاء على مراكــز القوى بالبــلاد أملا فى رجوع السلطة العثمانية أقوى ماتكون فى مصر .

بيد أن الحوادث التالية ، أثبتت بأن علمــاء الأزهر أكبر من أن يؤثر فيهم أى باشا مهما كانت قدرته فى هذه المرحلة ، وعلى العكس من ذلك فقد كان كل باشا يرد الى القاهرة يبادر فور وصوله الى خطب ود العلماء والتقرب اليهم ، واستمالتهم الى جانبه .

ولقد تمادى العثمانيون فى مخططهم فامتــدت أيديهم الى أموال الشعب المصرى فراحوا ينهبون أرزاقه ويسيئون معــاملة الأهالى أبلغ اساءة ، وانعكست هــذه السياسة على جميع تصرفاتهم وأفعالهم فى البلاد عقب عودتهم [٣٢] ، بيد أن رياح السياسة فى البلاد سوف تأتى بما لا تشتهى الدولة العثمانية .

موقف العلماء من الصراع :

تولى محمد خسرو باشا السلطة فى القــاهرة وكان يحمل أوامر صريحة من الباب العــالى بشأن القضــاء على المماليــك وتحطيم كل قوة لهم ، ولــكن بمجرد أن ترك المماليك القــاهرة دب الخــلاف بين الانكشارية بزعامة خسرو باشــا وبين عساكر الأرناؤد (الألبــانيين) بقيـــادة أحمد طاهر باشا ومحمد على ، وتمكن الجنود الألبـــنيون من طرد خسرو باشــــا من منصـــب الولاية فى محـــرم ســـنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) .

---

(٣٢) راجع أعمــــال النهب والسلب وايــذاء الشعب التى مارســـها العثمانيون عقب عودتهم وذلك فيما كتبه الجبرتى فى كتابه : عجائب الآثار بالجزء الثـــالث صـــفحات ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ .

وفى هذه المرحلة بدأ نفوذ العلماء يظهر وسلطتهم تبدو واضحة فلقد أرسل طاهر باشا اليهم عقب طرد محمد خسرو باشا وطلب منهم أن يختاروا واليـا جديدا ، فاجتمع المشايخ عند القاضى فى دار المحكمة الـكبرى بين القصرين فى ١٤ محرم سنة ١٢١٨ هـ (٦ مايو ١٨٠٣ م) واستقر رأيهم على اختيـار طاهر باشا واليـا الى أن تحضر له الولاية من الآستانة أو يعين وال آخر وركب العلماء والقاضى وذهبوا الى طاهر باشا « وعملوا ديوانا — عند طاهر باشا — وأحضر القاضى فروة سمور البسها لطاهر باشا ليكون قائم مقام حتى تحضر له الولاية أو يأتى وال وكلموه على رفع الحوادث والمظـالم وظنوا فيـه الخير واتفقوا على كتابة عرضحال بصورة ما وقع » (٣٣) .

ولم يسجل الجبرتى عن هـذا الاجتماع (الذى عقده العلماء عند طاهر باشا) سوى ماذكرنا ، ولـكن قنصل النمسا (روشتى) أضاف فى رسالته الى (شتورمر) السفير النمساوى فى الآستانة — أن عمر مكرم كان من بين المتكلمين فى رفع المظالم التى يشكو منها الشعب وأن طاهر باشا والدفتردار خليل أفندى الرجائى قد وعدا المشايخ خيرا . وقد استمرت هـذه المظالم على الرغم من هذه الوعود الكاذبة . فلم يكن لهذه الوساطة التى تكاتف فيها المشايخ ولم ينفرد بهـا عمر مكرم أى أثر ، بل كانت من قلة القيمة وعدم الجدوى بحيث لم ير الجبرتى مسوغا لذكر أية تفاصيل عنها (٣٤) .

ونلاحظ فى هذا التعيين أن سلطة العلماء بدأت تظهر لأن الوالى رغم أنه وصل الى منصب الولاية بحد السيف الا أنه اعتبر مركزه غير قانونى اذا لم يوافق على ذلك العلماء ومن ثم طلب رأيهم ، ومن جهة أخرى فقد كان لسلوك العلماء فى التوفيق بين الوالى والمماليك وتوسطهم

---

(٣٣) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٢٥٩ .

(٣٤) د. محمد فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ جـ ٣ ص ١٢٠٩

لدى الطرفين ما أكسبهم نفوذا على كلا الطرفين وظهرت آثاره فى هذا التعيين ، لذلك نرى العلماء لأول مرة يتحدثون مع الوالى الجديد فى رفع الحوادث والمظالم ، فى حفل تنصيبه عند القاضى ، وكان هذا التدخل فى الواقع شيئا جديدا لم يحدث من قبل من العلماء مع الوالى الجديد ، ويعتبر هذا دليلا واضحا على ضعف سلطة الوالى ، وحاجته الى مساندة الزعامة الشعبية وهذا مما يقوى مركزه أمام الباب العالى وأعدائه من الانكشارية والمماليك •

غير أن الانكشارية سرعان ما انتقموا من (طاهر باشا) زعيم الأرناءود وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الصراع على السلطة •

الفرق بين سلوك العلماء وسلوك التجار ازاء سلطة الوالى :

اختلف سلوك العلماء ازاء سلطة الوالى عن سلوك غيرهم من طبقات الشعب المرموقة ، وخاصة التجار ، فبينما كان الوالى الجديد يبادر بدعوة العلماء واهدائهم الخلع الفاخرة عند حضوره ، ويتقرب اليهم ويخطب ودهم ، كان التجار على النقيض من ذلك يقدمون اليه الهدايا ، وآية ذلك ماحدث مع الوالى (محمد خسرو باشا) عندما حضر عقب جلاء الفرنسيين ، فقد مشى فى ركابه رؤساء التجار وأخذوا يقدمون اليه الهدايا ويبذلون معونتهم له فى اعادة بناء بيت الألفى بالأزبكية وتعميره ، وكان على رأس هؤلاء التجار (أحمد المحروقى) كبير التجار و (المعلم جرجس الجواهرجى) و (أحمد محرم) وغيرهم ، وأخذت جيوش الوصوليين من هذه الطوائف تتقدم ، وتتزاحم عند أعتاب الباشا ، فعلى سبيل المثال ، يذكر لنا الجبرتى أنه عندما شرع محمد خسرو باشا فى تعمير منزله « ونصب خيمة عند بيته بقرب الهرم يجلس بها حصة كل يوم لمباشرة العمل •••• وحسن القرناء للباشا المساعدة وأن الناس تحب ذلك ••• ونبهوا على الناس بالحضور ، فأول ما بدأوا بالنصارى الأقباط ، فحضروا وتقدمهم رؤساؤهم

جرجس الجوهرى ، وواصف وفلتيوسى ومعهم طبول وزمور » (٣٥) الى آخر هذه المظاهر التى اشترك فيهـا أغلبية أرباب الحرف من المسلمين والنصـارى ، فكانت « تحضر الطائفتان والثلاثة ومعهم عدة من الفعلة يستأجرونهم ويحضرون الى العمل .. واذا حضرت طائفة ولم تقـدم بين يديهـا هـدية أو جعـالة طولوا عليهم المـدة وأتعبوهم ونهروهم واستحثوهم فى الشغل ولو كانوا من ذوى الحرف المعتبرة ، كما وقع لتجار الغورية والحريرية ، واذا قدموا بين أيديهم شيئا (هدية مثلا) خففوا عليهم وأكرموهم ومنعوا أعيانهم وشيوخهم من الشغل » (٣٦).

وعندما حضر حريم خسرو باشـا الى القاهرة من تركيا تسـابق التجار فى فرش بيت البكرى لهم لأن العمل فى بيت الوالى كان لايزال مستمرا فيـه يقول الجبرتى فى أواخـر ربيع الثـانى سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) « حضر حريم البـاشا من الجهة الرومية .. فأسكنهم ببيت الشيخ خليـل البكرى (٣٧) وقـد كان عمره قبل حضورهن وزخرفه ، ودهنوه بأنواع الصباغات والنقوش وفرشوه بالفرش الفاخرة ، وفرش المحروقى مكانا،وكذلك جرجس الجوهرى فرش مكانا ، وأحمد بن محرم واعتنوا بذلك اعتناء زائدا حتى أن جرجس فرش بساطا من الـكشمير وغير ذلك » (٣٨) .

وكان هذا السلوك من التجار لحماية أنفسهم ومتاجرهم من تسلط الجنود العثمانيين عليهم بالسلب والنهب ، وهـذا هو موقف التجـار وكبـار الصـناع ومن اليهم ، والذى يتلخص فى مصـانعة الحـكام

---

(٣٥) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٢٣٨ .

(٣٦) المصـدر السابق نفس الصفحة .

(٣٧) كان الشيخ خليل البكرى قـد باع بيتـه بالازبكية واشـترى دارا بدرب الجماميز بعطفة الفرن — الجبرتى جـ ٤ ص ٩٣ .

(٣٨) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٣٩ .

واهدائهم الهـــدايا الثمينة ، والحق أنهم كانوا مضطرين الى مداهنـــة الحكام دفعا لشرورهم .

أما العلماء فكان البـــاشا يبادر عند حضوره باهدائهم الهـــدايا والخلع تقربا اليهم نظرا لمركزهم فى المجتمع المصرى ، وهـــذا حدث بعد تولى خسرو باشا منصب الولاية يقول الجبرتى : « وفى ذلك اليوم ٢٧ شوال ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) عمل حضرة الباشـــا ديوانا وأرســـل الجاويشية الى جميع المشايخ والعلماء وخلع عليهم خلعا ســـنية زيادة على العادة أكثر من سبعين خلعة » [٣٩] .

وعندما كان أحد العلماء يقيم حفلا فى بيته لمنـــاسبة عرس مثلا كان يتقرب اليه الوالى والأمراء بالهـــدايا فى هذه المنـــاسبة ، وعلى سبيل المثـــال : عمل الشيخ عبد الله الشرقاوى وليمة لزواج ابنـــه ودعا حضرة المشار اليه (الوالى خسرو باشا) فحضر فى يوم الأحد ، وحضر أيضا شريف أفنـــدى وعثمان كتخدا الدولة فتغدوا عنده وأنعم (خسرو) على ولد الشيخ بخمسة أكياس رومية وألبسه فروة سمور وفرق على الخدم والفراشين والقراء دنانير ودراهم بكثرة وكذلك دفع عثمان كتخدا وشريف أفنـــدى كل واحد منهم كيسا وانصرفوا [٤٠] .

وعلى ذلك فقد كان المشايخ محفوظى الـــكرامة سواء أقام الوالى أم رحل ، وكثيرا ماكان الوالى الجديد يصب جام غضبه وسوط عذابه على الذين تقربوا الى الوالى المخلوع ، وهذا ماحدث لـــكبير التجـــار أحمد المحروقى عقب طرد خسرو باشـــا ، فقد قبض عليه طاهر باشا وأهانه العسكر « وعروه وشلحوه هو وأتباعه وابنـــه وأخـــذوا منهم نحو عشرين ألف دينار » [٤١] وعنـــدما سمع العلماء باهانة المحروقى

---

(٣٩) المصـــدر السابق — جـ ٣ ص ٢٢٠ .
(٤٠) المصدر السابق — جـ ٣ ص ٢٢١ .
(٤١) المصدر السابق — جـ ٣ ص ٢٥٦ .

سعوا لدى طاهر باشا وتشفعوا فيه وأنزلوه الى داره بعد أن قرر عليه الباشا ستمائة كيس .

كما كان العلماء يعارضون الوالى وأتباعه فى أعمالهم الهمجية (فى القتل والسفك بأدنى شبهة بل لمجرد التخلص من الأنداد) وكانوا يتدخلون لانقاذ المظلومين من أيديهم .

فقد حدث عندما تولى طاهر باشا الحكم ، بدأ يتخلص من أتباع الباشا السابق وكان من جملة هؤلاء (مصطفى أغا) وكيل خسرو باشا ، فتدخل الشيخ السادات وأخذ مصطفى أغا هذا الى بيته بعد فرض غرامة عليه ، ولكن طلبه طاهر باشا مرة ثانية وأخذه وأهانه بالقلعة، فغضب الشيخ السادات وصعد الى طاهر باشا بالقلعة وناقشه بحمية وتشاجر معه على حد قول الجبرتى ، وعندما أطلعه طاهر باشا على رسالة مرسلة من محمد خسرو باشا الى مصطفى أغا ، رد الشيخ السادات عليه بقوله : « هذا لا يؤاخذ به وانما يؤاخذ اذا كان المكتوب منه الى محمد باشا » ولم ينزل الشيخ السادات من القلعة حتى أخذ عليه عهدا بألا يقتل مصطفى أغا ، وخشى طاهر باشا من عواقب غضب الشيخ السادات ، فنزل من القلعة ليلا وذهب الى داره وطيب خاطره (٤٢) .

وهكذا كان الوالى وغيره من الحكام فى هذا العصر يراعون دائما جانب علماء الأزهر ويتقربون اليهم خشية ثورتهم وصولتهم .

ويلاحظ أن طاهر باشا عزم قبل مقتله على التحالف مع المماليك فيذكر الجبرتى أنه فى يوم الأربعاء ٤ صفر ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) « كان طاهر باشا قاصدا التعدية الى البر الغربى ليسلم على الأمراء

---

(٤٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٦٠ .

المصرلية » (٤٣) غير أن الانكشارية عاجلوه بالقتل (٤٤) ، ولم تمهله الحوادث لتنفيذ سياسته •

ويبدو أن طاهر باشا كان فى عزمه أن يحكم حكما طيبا ، فقد تحدث اليه السيد عمر مكرم عن رفع المظالم والأتاوات التى يشكو منها الشعب فوعدهم بذلك ، وأصدر منشورا طمأن فيه الناس على أموالهم وأرواحهم (٤٥) •

محمد على يستعين بمراكز القوى فى البلاد :

ظهر محمد على كقائد للقوات الألبانية بعد مقتل طاهر باشا . وازداد الصراع بينجنود الانكشارية والألبانيين ، فرأى أنيتمم مشروع طاهر باشا الذى عزم على انجازه قبل مقتله ، ولكن عاجله الانكشارية بالقتل ، وهو التحالف مع أمراء المماليك •

ولاحظ محمد على من ناحية أخرى ازدياد سلطان العلماء ، فبدأ يتصل بهم ، ويزورهم ، ويتودد اليهم ، ويشعرهم بأنه مناصر للمطالب الشعبية التى ينادى بها العلماء ، فاستمالهم بذلك الى جانبه ، وأصبح يبدو فى نظرهم أنه يعطف على قضايا الجماهير ، وبذلك تمكن بذكائه أن يضمهم الى جانبه وأن يستعين بهم فى تحقيق ماتصبوا اليه نفسه، وجاهر أخيرا فى عهد خورشيد باشا بانضمامه الى العلماء والمشايخ •

---

(٤٣) المصرلية : اى المصريين فالجبرتى يستعمل اللام والياء للنسبة فى كثير من الكلمات على الطريقة التركية مثل : العثمانلى ، اليرسه لى، المصرلية وهكذا والأمراء المصرلية همأمراء المماليك الذين كان يعتبرهم الجبرتى مصريين لطول بقائهم فى البلاد واندماجهم فى الشعب المصرى •

(٤٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٦١ •

(٤٥) د. محمد فؤاد شكرى . مصر فى مطلع القرن التاسع عشر — ج ١ ص ١٨٢ •

فهو من جهة تحالف مع القوة العسكرية المتمثلة فى فرسان المماليك الذين كانوا فى هذه الأثناء هم الجبهة القوية ، وهو لاشك تحالف وقتى عمد اليه محمد على ريثما يتمكن من دحر أعدائه من جنود الانكشارية ، ومن جهة أخرى يعلن انضمامه الى زعماء الشعب من العلماء لكى يكسب عطفهم ويتمكن بفضلهم فى النهاية من ارتقاء منصب الولاية على مصر . ولقد لاحظ محمد على بنظرته الصـــائبة مدة اقامته فى مصر ، مقـــدار ما للعلماء من نفوذ وهيبة فى نظر الحكام والأهالى ، ولاحظ أن الولاة يلجأون اليهم دائما ســـواء كانوا معينين من قبل البـــاب العـــالى أو استولوا على السلطة بالقوة ، وأن جميع الأطراف المتصـــارعة أثنـــاء صراعهم كانوا يطلبون تأييـــدهم ويخطبون ودهم وانتهى من ذلك الى أن هـــذه القـــوة من الممكن أن يعتمـــد عليهـــا فى تحقيق مخططه فى الاستيلاء على السلطة فى البلاد ، وخاصـــة أنه كان فى استطاعتهم أن يحشدوا الجماهير وراءهم فى الاتجاه الذى يسيرون فيه .

ولـــكن محمد على كان غاية فى الدهاء والخبث فتريث فى تحقيق هـــدفه حالمـــا يتهيأ له المنـــاخ الملائم لتوليه ، ويصـــفو له الجو من الخصوم المتصـــارعين على الحكم فى البـــلاد ، وقد كان فى استطاعته أن يرتقى كرسى الولاية بعـــد مقتل طـــاهر باشا مباشرة بحكم كونه رئيسا للجنود الألبـــانيين من بعده وهم الجبهة الأقوى ، كما أنه تمكن من السيطرة على القلعة بجنوده ولـــكنه تريث .

أحمد باشا (٤٦) يطلب من العلماء مساعدته :

نصب الانكشارية أحمد باشـــا واليا بعد مقتل طاهر باشا ولـــكن عارض فى هـــذا التعيين الأرناءود والمماليك وبادر أحمد باشـــا يطلب من العلماء أن يتدخلوا لدى محمد على ويقنعوه بقبول ولايته ويجعلوه

---

(٤٦) أحمد باشا : كان واليـــا على المـــدينة المنورة ، وكان موجودا بالقاهرة ابان هـــذه الحوادث ، وكان من المقرر أن يواصل سفره الى مقر منصبه ولـــكن داعبته الآمال فى أن يعين واليا على مصر .

يذعن لطاعتــه ، غير أن أحمد باشا كان متأخرا فقــد سبقه محمد على الى مصـــادقة العلماء وتوطيد علاقاته بهم ، وغدت الثقــة متبادلة بين الطرفين ، ومع أن العلماء كانوا يميلون الى محمد على ، ولكنهم اضطروا الى مجاراة أحمــد باشا وذهبوا الى محمد على وخاطبوه بالأمر ولكنه رد عليهم قائلا : « ان أحمد باشــا لم يكن واليــا على مصر بل انما هو والى المــدينة المنورة .. وليس له علاقة بمصر وأنا كنت الذى وليت طاهر باشا لــكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدولة وله شــبهة فى الجملة ، وأما أحمد باشا فليس له جرة ولا شبهة فهو يخرج خارج البلد ويأخذ معه الانكشارية ونجهزه ويسافر الى ولايته » (٤٧) .

خرج العلماء من عند محمد على وهم مقتنعون بوجهة نظره ، ولكن أحمد باشا اتصل بهم بسرعة لأنه كان يعلم مدى تأثيرهم فى الموقف ، وعندما حضروا لديه طلب منهم اجراء عمليا فى هــذه المرة حيث طلب منهم أن يجمعوا النــاس ويحرضوهم على الثورة على الجنود الأنبان وقتلهم ، فوافقوا ظاهريا وهموا بالخروج من عنده ، غير أنه طلب منهم أن يظلوا عنــده ويرسلوا الى النــاس بأوامره ولــكنهم اعتذروا له بقولهم : « ان عادتنــا أن يكون جلوسنا فى المهمات بالجامع الأزهر ونجتمع به ونرسل الى الرعيــة فانهم عند ذلك لا يخالفون » (٤٨) ثم تخلصوا منه بصــعوبة وخرجوا من عنــده وليس فى نيتهم فعل شىء لصالحه ، لأن الموقف فى نظرهم ســوف يتطور الى مشهد دموى كما جرت بذلك العادة فى هــذه الفترة بين الجنود العثمانيين فى صراعهم على السلطة ، وأن الوقت لم يحن لتــدخلهم ، وتريثوا حالمــا تنقشع هذه السحب .

---

(٤٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٦٣ .

(٤٨) المصــدر السابق — نفس الصفحة .

عودة المماليك الى القاهرة :

وصل المماليك الى الجيزة وظلوا ينتظرون الفرصة المناسبة للتدخل وبدأوا يتصلون بالجنود الألبانيين حتى قبل مصرع طاهر باشا زعيمهم، واتصل محمد على بهم وعبر النيل الى بر الجيزة للسلام عليهم ، واجتمع بزعمائهم ، وألقى فى روع ابراهيم بك أنه يؤيده ، وأنه أولى النـــاس بولاية مصر ، ودخل محمـــد على وابراهيم بك وعثمـــان بك البرديسى يتبعهم باقى زعمـــاء المماليك القاهرة متحالفين ، وأرسلوا رسالة الى أحمد باشا يهددونه فيهـــا ، وطلبوا منه تسليم الذين قتلوا طاهر باشا كما طلبوا منه أن يغادر القاهرة بقواته •

واضطر أحمد باشا الى الخروج من القاهرة على صورة شنيعة ، وتفرقت عساكره [٤٩] وبدأت مشاهـــد اراقـــة الدماء ، كما بدأ السلب والنهب فى بيوت أتباعه •

الحكومة الثلاثية فى القاهرة :

بعد خروج أحمد باشا من السلطة التى لم تدم له غير يوم وليلة أعلن محمد على تحالفه مع المماليك وتـــكشف الموقف فى القـــاهرة عن حكومة ثلاثية ركائزها ابراهيم بك ، وعثمان بك البرديسى (زعيم مماليك مراد بك) ومحمد على ، ونادى المنادى فى القـــاهرة بالأمان للرعية « حسبما رسم ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمـــد على » [٥٠]

---

(٤٩) خرج أحمد باشا من باب الفتوح ودخل مع الانكشارية الى قلعة الظاهر (جامع الظـــاهر) واغلقوها عليهم وبعد عـــدة أيام من محاصرتهم استسلموا وقبض على احمد باشا وحبس فى القصر العينى ، وطرد المماليك باقى الانكشارية من القاهرة بعد أخذ سلاحهم ومتاعهم . أنظر : الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٥٠) يذكر عبد الرحمن الرافعى أن النـــداء كان باســـم ابراهيم بك ومحمد على فقط ، ولـــكن الأصح ماذكره الجبرتى لأنه كان معاصرا .

فكان هذا النداء اعلانا باقتسام السلطة بينهم لأن عادتهم جرت فى تلك الأيام أن يكون النداء بالأمان (حسبما رسم فلان) أى باسم من تملك السلطة الجديدة •

دخل المماليك القاهرة فاستقبلهم الغوغاء بالبشر والسرور وهذه هى عادة الشعب كما يقول الجبرتى أن يفرح بالقادمين الجدد ، دون أن ينظر نظرة بعيدة الى عواقب الأمور المرتقبة ، ولقد كان الشعب المصرى يميل الى أمراء المماليك أكثر من غيرهم ، لأنه ألف حكمهم منذ عهد طويل ، ولا عجب فقد كان المصريون يعتبرون المماليك مصريين لذا كانوا يطلقون عليهم أحيانا (الأمراء المصريون) ولذلك حاول محمد على فى بادىء الأمر أن يترك لهم السلطة حتى يتحملوا تبعة الأحداث المقبلة فى البلاد ، فقد ارتفعت الأسعار بالقاهرة فى هذه الفترة ، وشحت الأقوات بسبب توالى الكوارث وكثرة الضرائب ، وأصبحت البلاد على حافة استياء شعبى ضد الحكام ، فآثر محمد على تجنب الموقف ، وأرخى لابراهيم بك وعثمان بك البرديسى العنان بالقاهرة وغيرها من الأقاليم لكى يتحملا مسئولية سوء الحالة أمام زعماء الشعب •

المماليك يستعينون بالعلماء على توطيد مركزهم :

بعد أن دخل المماليك القاهرة ، اتصلوا بعلماء الأزهر ، وطلبوا منهم أن يكتبوا لهم مذكرة (عرضحالا) الى السلطان العثمانى يطلبون منه الصفح والعفو عنهم لأنهم أنقذوا البلاد من الفوضى التى تجتاحها •

ووضع العلماء مذكرة ضافية مؤرخة فى الثامن منشهر صفر ١٢١٨ (١٨٠٣ م) سجلوا فيها ماتعرضت له البلاد من أهوال ومحن عقب خروج الفرنسيين من مصر ، على يد الولاة الذين تعاقبوا على حكم البلاد ، ودافع علماء الأزهر فى مذكرتهم المستفيضة عن الأمراء

المماليك دفاعا حارا ، وعزوا اليهم انقـاذ البـلاد من حالة الفوضى التى اجتاحتها وقـد أسهب العلماء فى مذكرتهم فى عرض المظالم التى أحدثها خليل أفنـدى الرجائى دفتردار (٥١) خسرو باشا . وعلى الرغم من تعاطف الجبرتى مع المماليك فقـد أغفل الاشارة الى هذه المذكرة ، وقد عثرنا عليها فى مخطوطة هامة سبق أن أشرنا اليها (٥٢) .

الآستانة ترسل واليا يقتله المماليك فى جو من التذمر الشعبى :

كانت الحكومة العثمانية قـد علمت بعزل (خسرو باشا) وفراره الى دميـاط ودخـول أمراء المماليـك القـاهرة وعودة السلطة اليهم فتوجست من ذلك خيفـة ، وعولت على استرداد هيبتها ، فعينت « على باشا الطرابلسى » (٥٣) واليا على مصر بدلا من خسرو وأوفدته الى مصر

---

(٥١) الدفتردار : مصطلح تاريخى معنـاه رئيس الادارة المـالية فى مصر ابان الحكم العثمانى ، ويشرف على الديوان الدفترى وديوان الروزنامه ، وكان الدفتردار فى العادة من الصـناجق المصريين وكان من اختصـاصاته الاشراف المـالى على شئون الولاية وتحصيل أموالها والتعهد بانجاز مهام الحرمين الشريفين ، واعداد الأموال المرصودة على مكة المـكرمة والمـدينة المنورة ، « وتشهيل خزينـة السلطان ومعتادات الآسـتانة » ومحاسـبة الباشا فى آخر عهده بالولاية ، أنظر : د. حسن عثمان المجمل فى التـاريخ المصرى « تاريخ مصر فى العهد العثمانى » القاهرة ١٩٤٢ ص ٢٦٠ .

(٥٢) علماء الأزهر — صـور كتب بعض علماء مصر الى سـلاطين الدولة العثمانية ... جمع محمد بن يوسف جوريجى جمليان هياتم — مصدر سبق ذكره . صص ٢ — ١٣ .

(٥٣) على باشا شخصية عثمانية ارتبطت بتاريخ ليبيا ومصر ، عين واليـا على ليبيا سنة ١٧٩٣ ثم جاء مصر لاجئـا سـياسيا سنة ١٧٩٥ ثم شـاءت الأقـدار أن يقـدم اليها بعد ذلك واليـا معينا من قبل السلطان سنة ١٨٠٣ .

أنظر تاريخ حيـاته مفصلا فى كتاب : د. عبدالعزيز محمد الشناوى : العلاقات المصرية الليبية فى العصور الحديثة . القاهرة ١٩٧٣ . الفصـل الرابع شخصية عثمانية ترتبط بتاريخ مصر وليبيا صص ٣٠ — ٣٣ .

فى أوائل يوليو ١٨٠٣ (١٢١٨ هـ) ، ومعه قوة من ألف جنــدى ونزل بالاسكندرية •

وأرسل على باشا بمجرد وصــوله الى الاسكنــدرية رسولا من طرفه الى سلطات القــاهرة لجس النبض والتعرف على موقف العلماء وزعماء الشعب ، فبــادر المماليك الى عقــد اجتمــاع للديوان حضره العلماء ، وتكلم العلماء شــاكين من ظلم العثمانيين وما أحــدثوه فى البــلاد من فوضى تسببت فى كثرة الضرائب التى أثقلت كاهل الشعب، وكتبوا بذلك مذكرة الى على باشا الوالى الجديد يطالبونه فيهــا برفع هذه المظالم وأرسلوها اليه بالاسكندرية (٥٤) •

وبذلك بدأت أولى حركات التذمر الشعبى ضد تصرفات العثمانيين فى مصر بهــذه العريضة ، فقــد قرنوا فيهــا بين مظــالم العثمانيين والفرنسيين ، وطالبوا برفع ما أحــدثه هؤلاء وهؤلاء ، وأعلنوا بذلك رفضهم للظلم أيا كان مصدره ، سواء كان مصدره الفرنسيون أعــداء الدين ، أو كان مصدره العثمانيون حماة الدين كما يدعون •

وفى غضون ذلك كان التــذمر الشعبى فى القاهرة قد بلغ مداه ، وذلك بسبب خيبــة الأمل التى منى بهــا الشعب ، فقد كان ينتظر العدل والانصــاف من العثمــانيين المسلمين بعــد جلاء (أعــداء الــدين) الفرنسيين ، بيــد أن العثمانيين عادوا اليه بالطمع والجشع معلنين فتح مصر من جديد توصلا الى نهب ثروات البلاد وسلب أرزاق الشعب •

عمد محمــد على الى اســتغلال هــذا المنــاخ المشحون بعوامل السخط والغضب للقضــاء على الوالى الجــديد ، بيد أنه اســتعمل فى ذلك مطرقة المماليك ، فأوعز الى عثمان بك البرديسى بقتل البــاشا

---

(٥٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٧٤ •

الجـــديد (٥٥) وبذلك تخلص من قوة الانكشارية التى عمل على سحقها بمعـــاونة المماليك ، كما ورط المماليك فى هـــذا العمل المعـــادى لسلطة الباب العالى ، تمهيدا للتخلص منهم وبذلك بدأت فترة جديدة من مراحل الصراع على السلطة فى البلاد برز فيها دور علماء الأزهر واضحا .

موقف العلماء من فوضى الحكم العثمانى :

بلغت موجة العداء للعثمانلى فى هذه الأثنـــاء درجة كبيرة جعلت العلماء يرحبون بقنصـــل فرنسا المسيو سباستيانى (٥٦) الذى وصـــل القاهرة فى ٢٦ من أكتوبر سنة ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) وصارحوه بأنهم يتمنون عودة الحكم الفرنسى لمصر ، فلقد بادر المبعوث الفرنسى بعـــد وصـــوله الى القاهرة بزيارة الشيخ (عبد الله الشرقاوى) شيخ الجامع الأزهر فى بيتـــه يوم ٢٧ أكتوبر وحضر الاجتماع عدد كبير من مشايخ الأزهر ، ودار الحـــديث حول اهتمام بونابرت القنصـــل الأول بمصر ، وأظهر المشايخ فى كلامهم مقدار مايكنونه لشخص القنصـــل الأول من محبة وود ، وعلق سباستيانى على هذا الحديث بقوله :

---

(٥٥) قتل المماليك على باشا فى ٢٠ من شوال سنة ١٢١٨ هـ (يناير ١٨٠٤ م) وذلك أن أمراء المماليك تظـــاهروا بدعوته الى القـــاهرة ليتولى الباشوية ، بيد أن دعوته كانت فخا لمقتله ، فقد التقى به وهو فى طريقـــه الى القاهرة جمـــاعة من المماليك منعوه من دخول القاهرة ، وطردوه الى غزة ، وأغروا به جمـــاعة من حراسه فقتلوه وهو فى طريقـــه الى غزة عند قرية القرين بمحافظة الشرقية حاليا .

أنظر تفاصـــيل مقتله فى : الجبرتى . عجـــائب الآثار — ج ٣ صص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٥٦) كان المسيو سباستيانى قـــد وصل الى الاسكنـــدرية فى ١٦ من أكتوبر ١٨٠٢ م بوصفه وزيرا مفوضا من القنصل الأول (نابليون بونابرت) وكان من خطة المبعوث الفرنسى مقابلة زعمـــاء الشعب والتعرف على ميولهم بعد هذه الفترة التى مضت منذ خروج الفرنسيين (د. محمد فؤاد شكرى . مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ج ١ صص ٣٣ — ٣٤) .

« انه دهش مما أبداه المشايخ من شجاعة فى اعلان رغبتهم فى أن يصبحوا مرة أخرى رعايا للقنصل الأول » وفضـــلا عن ذلك فانه يكفى للتأكد من صـــدق رغبتهم هذه وعواطفهم نحو القنصل الأول ، ملاحظة ذلك الحمـــاس العظيم الذى شاهده سباستيانى بنفسه والذى أظهره المشايخ عند اهـــدائهم صـــورة بونابرت ، فقد أهدى المبعوث صـــورة بونابرت لـــكل من كبار المشايخ ليس فى القاهرة فحسب بل وفى البلدان الأخرى التى مر بهـــا (٥٧) وقال سباستيانى تعليقـــا على ما صـــادفه من ترحيب •

« ان مواطنيـــه جوبير (٥٨) Jaubert وبرج Berge قد شهدا بأنه لم يسبق بتـــاتا أن أظهر سكان القـــاهرة مثل هذه العواطف الودية نحو فرنسا قبل مجىء سباستيانى » (٥٩) •

وذكر سباستيانى أن الشيخ (محمد السادات) على الرغم ممـــا ناله من ايذاء بعـــد رحيل الجنرال بونابرت من مصر رجاه أن يبعث اليه بالمواطن (جوبير) حتى اذا ذهب اليه جوبير صـــار السادات يؤكد له مبلغ ولائه ومحبته للقنصـــل الأول ولفرنسا ، وأن المـــدة التى أقامها بونابرت فى مصر كانت عهد خيرات ، وأن مصر لايسعها كلما ذكرت هذه النعم الا مباركة هذا الرجل العادل والرحيم (٦٠) •

---

(٥٧) المرجع السابق ج ١ صص ٣٧ — ٣٨ (وادوار جوان — مرجع سبق ذكره ص ٢٤١) •

(٥٨) هو المسيو جوبير احـــد اعضـــاء لجنـــة العلوم والفنون التى اصطحبها بونابرت معه الى مصر مدة الحملة وقد جاء فى تقرير (سباستيانى) أنه جاء معه فى رحلته الى مصر المسيو (جوبير) وذكره الجبرتى عندما أورد خبر البعثـــة بقوله : « وكان فيهم جبير ترجمـــان بونابرته » — الجبرتى — ج ٣ ص ٢٤٣ •

(٥٩) د • محمد فؤاد شكرى — مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٣٨ •

(٦٠) المرجع السابق — ج ١ ص ٤١ •

غير أن السيد (عمر مكرم) سلك طريق الحيطة والحذر أبان هذه الزيارة ، ونأى بنفسه عن مظنة الاتصال بالمبعوث الفرنسى، وامتنع عن مقابلة (سباستيانى) حيث ذكر الأخير فى تقريره : « انه توجه لزيارة عمر مكرم يوم ٢٨ من أكتوبر ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) ولكن هذا كان مريضا فقابله ولده » [٦١] ولم يذكر سباستيانى أنه تسنى له بعد ذلك مقابلة النقيب بتاتا ، وكان الحذر مبعث عدم مقابلته الفرنسيين فى وقت كان فيه للفرنسيين حزب من بين طوائف البكوات المماليك ، والعلاقات متحرجة بين هؤلاء والدولة العثمانية .

وقد شاطر فى هذا الحذر كل من المشايخ : أحمد العريشى ومحمد المهدى ومحمد الأمير ، وبعث الشيخ خليل البكرى يرجو (سباستيانى) عدم زيارته نظرا لسوء العلاقة بينه وبين الحكومة القائمة [٦٢] ، ورحب الشيخ سليمان الفيومى بزيارة المبعوث الفرنسى وأبدى له « اعجابه الذى يفوق كل الحدود بالقنصل الأول » [٦٣] .

والواقع أن هذه الفترة التى انقضت منذ خروج الفرنسيين من مصر قد أعطت الشعب فى مصر وخاصة علماءه فرصة للمقارنة بين عهدين : عهد سيطر فيه على البلاد حكام فرنسيون يختلفون من حيث العقيدة الدينية مع المصريين المسلمين ، وعهد آخر سابق ولا حق لهذا الحكم الفرنسى وهو حكم الدولة العثمانية وهى رمز الخلافة الاسلامية وأكبر دولة اسلامية والتى يرغب ولاتها فى السيطرة الكاملة على البلاد واستغلال ثرواتها ، والنتيجة التى خرج بها الشعب من خلال هذه المقارنة هى أنه ليس كل اسلامى عادلا ، وليس كل حكم غير اسلامى ظالما .

---

(٦١) لم يكن لعمر مكرم ابن ولعله ابن ابنته صالح افندى مكرم .

(٦٢) د. محمد فؤاد شكرى . مصر فى مطلع القرن ١٩ ج ٣ ص‌ص ١٢٠٨ — ١٢٠٩ .

(٦٣) المرجع السابق — جـ ١ ص ٣٨ .

لذلك ليس بغريب أن يذكر المسيو سـباستيانى هـذا التغـيير الجـديد فى نظرة العلماء الى الفرنسيين فى تقريره الذى قـدمه الى بونابرت عقب عودته الى فرنسا لأن العلماء بدأوا فى هذه الفترة يعيدون تقييمهم للحكم الفرنسى فى مصر ، وبدأوا يقررون أن العدل يمكن أن يتأتى من الحاكم غير المسلم ، وأن الحكام المسلمين ليسوا فى كثير من الأحيان عادلين •

وآية هـذا التغيير ماذكره الجبرتى نفسـه فى كتابه « عجـائب الآثار فى التراجم والأخبار » فقد دون الجبرتى أحـداث الحمـلة الفرنسية بادىء ذى بدء فى يومياته الخاصة التى عثرنا أخيرا على قطعة منها محفوظة بمكتبة جامعة ليـدن بهولندا تحت عنوان : « تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ — ١٢١٦ هـ » وهى بخط الجبرتى ، وسجل فيهـا انطباعاته الأولى عن الحملة وروى وقع النكبة بصـدق وأمانة ، وأصـدر أحكامه على جميـع الأطراف (المماليـك والأتراك والفرنسيين والعلماء) غير متحرج من أحـد ؛ لأنه كان يحتفظ بهـذه المـذكرات لنفسه • فهى بحق تعبر عن شخصية الجبرتى تعبيرا صادقا ، كما أنها تعبر عن مدى ما أصـاب الشعب المصرى من هول المصـيبة • وفيها يذكر سلوك بعض المشايخ ازاء الحكم الفرنسى غير متحرج من أحد ، وخاصـة سلوك الشيخين السادات والمهدى ، وهى الأمور التى حذف بعضها من كتابيه : مظهر التقديس ، وعجائب الآثار ، ولجأ الى الغموض والتعمية فى البعض الآخر (٦٤) ثم أخرجهـا فى كتابه الأول

---

(٦٤) قمنا بدراسة هذه المخطوطة دراسة مركزة فى بحث مستقل تحت عنوان : « مخطوطة من تاريخ الجبرتى فى ليدن دراسة مقارنة بينهـا وبين « عجائب الآثار » و « مظهر التقـديس » وقدمناه الى النـدوة العلميـة الدولية عن (عبد الرحمن الجبرتى وعصره) التى أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة ، فى المدة من ١٦ — ٢٣ من أبريل ١٩٧٤ م •

ومما هو جـدير بالذكر أيضا اننـا نقوم بتحقيق هذه المخطوطة الآن واعدادها للنشر فى أقرب فرصة ان شاء الله •

« مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس » وسجل فيـه انطبـاعاته الأولى ازاء الحكم الفرنسى باعتباره حكما غير اسـلامى ، وأهداه الى الصدر الأعظم يوسف باشـا ضيا فاتح مصر ونشر فى حينه [٦٥] ثم أعاد الجبرتى كتابة تاريخ هذه الفترة مـرة أخرى فى كتـابه الثانى (عجائب الآثار ••) وضمنه الجزء الثالث من هذا الـكتاب بعـد أن أضاف اليها حوادث ما بين سنة ١٢١٦ وسنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠١ وسـنة ١٨٠٥ م) •

وفى هذه الصياغة الجديدة تظهر آراء الجبرتى المعتدلة ، فلقـد أشاد بالفرنسيين فى عـدة مواضع من كتابه (عجائب الآثار ••) ولم يشر اليها اطلاقا فى (مظهر التقديس ••) بعد أن خاب أمله فى الحكم العثمانى — مثال ذلك اعجابه بتفوق الفرنسيين العلمى [٦٦] واعجـابه بتنظيمهم للديوان [٦٧] ولعل أوضح صورة لهذه الموازنة تظهر عنـدما نقارن بين ماكتبه الجبرتى عن حادثة مقتل كليبر ومحاكمة قاتليه فى كلا المؤلفين :

ففى (مظهر التقـديس •••) يورد الجبرتى الحادثة ولا يذكر محاضر التحقيق ولا محاضر جلسات المحـاكمة التى نشرها الفرنسيون

---

(٦٥) حمل الوزير كتاب (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس) معه الى دار السلطنة فأمر السلطان كبير اطبـائه « مصطفى بهجت » بنقله الى اللغة التركية وكان هذا سببا فى رواج الـكتاب بين الأتراك (مقـدمة كتاب مظهر التقـديس جـ ١ ص ١٠) ومما هو جدير بالذكر أنه توجد نسخة مخطوطة منه فى مكتبة بايزيد باستانبول .
أنظر :
(BSOAS, xxv III, 1965, No. 3, P. 542 — 540 :)

(٦٦) أنظر ما قاله الجبرتى معجبا بتفوقهم العلمى فى كتابه (عجـائب الآثار . .) جـ ٣ صص ٧٥ — ٣٧ .

(٦٧) أنظر ما قاله الجبرتى فى شرح نظام الديوان فى كتابه (عجائب الآثار . .) جـ ٣ صص ١٤٤ — ١٤٥ .

فى حينها باللغــات الفرنسية والعربيــة والتركية أما فى (عجــائب الآثار ••) فيورد هذه المحاضر بنصها الأصلى العربى كما نشرت ويعلق عليها تعليقا يدل على اعجابه الظاهر بنظامهم القضائى وضبهم الأحكام فيقول :

« وقــد كنت أعرضت عن ذكرها (محاضر التحقيق) لطولهــا وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغــة ، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفســه الى الاطــلاع عليهــا لتضمنها خبر الواقعة وكيفيــة الحكومة (المحاكمة) ولــا فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفــة الذين يحكمون العقل ولا يتــدينون بدين وكيف وقــد تجــارى على كبيرهم ويعسو بهم [٦٨] رجل أفاقى أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرره، ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعــد أن عثروا عليه ، ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبــوا حكومة ومحاكمــة وأحضروا القــاتل وكرروا عليه السؤال والاســتفهام مرة بالقــول ومــرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين ثم نفــذوا الحكم فيهم بما اقتضــاه التحكيم •• بخلاف مارأينــاه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاســلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شــهواتهم الحيوانيــة مما ســيتلى عليك بعضه » [٦٩] •

كما يلاحظ أن الجبرتى فى كتابه (مظهر التقــديس) يشــير الى الفرنسيين بقوله (الــكفار) ولا يذكر اســم قائــد من قوادهم الا

---

(٦٨) اليعسوب : ملك النحل ، والرئيس الــكبير (قاموس) •

(٦٩) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٢٢ ويؤخــذ من قول الجبرتى : « مما سيتلى عليك بعضه » انه قــد وضع لنفسه خطة لبيــان مفاسد النظام العثمانى والمقارنة بينه وبين الحكم الفرنسى ، وهذا ماأوضحه فعلا عند الحديث عن عودة الحكم العثمانى بعد خروج الفرنسيين من مصر •

مصحوبا بوصف مهين كقوله : (اللعين كفرللى) و (التعس بونابرته) و (الملعون ديبوى) و (الكفرة اللئام) و (الملاعين الكفار) ، ولكنه يحذف كل هذه الأوصاف فى كتابه (عجائب الآثار) ، كما كان يشير الى العثمانيين فى (مظهر التقديس) بقوله عساكر المسلمين أو المسلمين ، أما فى كتابه الثانى « عجائب الآثار » فيطلق عليهم « عساكر العثمانلى » أو « العثمانيون » و « العساكر العثمانية » و « العسكر » (٧٠) .

وذكر الجبرتى المنشور الذى أعلنه بونابرت على الشعب المصرى عند هبوطه أرض مصر فى كتابه « مظهر التقديس » وعلق عليه بالنقد والتجريح لجميع مافيه من أفكار ، وذلك تحت عنوان : « تفسير بعض ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة » (٧١) أما فى كتابه (عجائب الآثار ..) فقد حذف هذا النقد برمته وهذا من رد الفعل الذى أحدثته مظالم عصر الاضطراب السياسى .

ولقد كان الجبرتى يعتقد فعلا أن حكم الدولة العثمانية قد زال من مصر ، بالفعل عندما تسلط عليها الأرناؤد والمماليك ومنعوا قدوم العثمانيين ، وآية ذلك ماذكره الجبرتى فى نهاية ترجمته لعلى باشا الطرابلسى بعد أن أورد قصة مقتله على أيدى المماليك ، فيقول عنه . « أنه كان قد طلب ولاية مصر على ظن بقاء حبل الدولة العثمانية وأوامرها بمصر .. ولم يعلم أنها القاهرة كم قهرت جبابرة وكادت فراعنة » (٧٢) .

---

(٧٠) قام الدكتور محمد أنيس بدراسة مقارنة بين عبارات الجبرتى فى كتابيه :

انظر : د. محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى — معهد الدراسات العربية العالية — القاهرة ، ١٩٦٢ صص ٤٢ — ٤٥ .

(٧١) الجبرتى — مظهر التقديس ... ج ١ صص ٦٠ — ٦٤ .

(٧٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٩٤ .

وعلى ذلك يجب أن نـــلاحظ أن حكم العثمـــانيين فى مصر بدأت تتزعزع أركانه ، ولم يكن هنـــاك من أحـــد يستطيع أن يحكم بهـــذه الأحكام على العثمانيين غير العلماء لأنهم حملة الشريعة، والصفوة الممتازة من الشعب ، ولعل هذا التغير كان من العوامل التى ساعدت (محمـــد على) فيما بعد على الاستئثار بالسلطة فى مصر والاستقلال بهـــا عن الدولة العثمانية والتجرؤ على العثمانيين ومحاربتهم وتهديدهم فى عقر دارهم ، وهـــذا مالم يتمكن منه قبل ذلك (على بك الـــكبير) فى حركته ضد الدولة العثمانية ، وذلك لأن الجو فى مصر لم يكن مهيئا على أيام على بك للاســـتقلال بالبـــلاد ، كما هو الحال فى مصر بعـــد الحمـــلة الفرنسية التى تمكن الشـــعب المصرى خلالهـــا لأول مرة فى عصـــوره الحديثـــة من المقارنة بين فوضى الحكام العثمانيين وغيرهم •

محمد على يصانع العلماء من أجل القضاء على المماليك :

رأى محمد على بثاقب نظره أن الزعامة الشعبية المتمثلة فى رجال الأزهر فى نمو مستمر ، وأن سلطانها أصبح ظاهرا ، وتأثيرها قويا ، فعمد الى كسب ودها للاستعانة بهـــا فى سحق المماليك ، وفى ســـبيل ذلك بدأ فى تقوية علاقتـــه بالعلماء وتودد اليهم ، وعلى الأخص السيد عمـــر مكرم نقيب الأشراف ، الذى أصـــبح فى تلك الأثنـــاء من أقوى الشخصيات الأزهرية ، وله نفوذ شعبى كبير ، فقوى محمد على علاقته به وأقنعه بأنه يعطف على قضية الجماهير المظلومة ويوافق على مطالب الزعماء • ونجح محمد على فى تحقيق هذا الهدف نجاحا كبيرا ، حتى أصبح فى نظر زعمـــاء الشعب المنقذ الوحيد لحالة البلاد السيئة والتى كانت تتدهور باستمرار •

وأما المماليك ، فقد وجه محمد على جهوده للتخلص منهم ، فترك لهم السلطة بادىء ذى بدء ليحملهم تبعـــة الحكم ومساوئه ويجعلهم هـــدفا لسخط الجماهير ، وتريث فى تحقيق هـــدفه ريثما يتهيأ له المناخ الملائم ، ويصفو له الجو ، وخاصـــة أن البـــلاد كانت تشكو من شح

الأقوات بسبب كثرة الصراع على السلطة والذى أدى الى الفساد وكثرة الضرائب وزيادة السلب والنهب .

لـــكن المماليك أضحوا بعـــد عودة زعيمهم محمـــد بك الألفى من انجلترا [٧٣] قوة كبيرة بفضـــل زعامة الألفى الذى كان قـــد عزم على الاستعانة بحماية بريطانيـــا لتثبيت سلطان المماليك فى البلاد ، ورأى محمـــد على أن الألفى لو تمكن من تحقيق أغراضـــه سوف يعصـــف بمخططه الذى رسمه للاستيلاء على السلطة ، ومن ثم رأى أن يعمل على القضـــاء على الألفى أولا لأنه أقوى خصومه وأشدهم بأسا ، خصوصا باستناده الى تأييد دولة أجنبية هى بريطانيا ، فبدأ يستعمل بين المماليك سلاح « فرق تسد » فدب الخلاف بين البرديسى والألفى .

وكان البرديسى يحســـد الألفى على مركزه لدى الانجليز ، فعمل على التخلص منه ، وحاول اغتيـــاله عقب عودته من انجلترا [٧٤] ولكن الألفى نجا وفر الى الصعيد ، وهكذا تمكن محمد على من تفريق جمعهم فضعفت قوتهم ، وبقى ابراهيم بك بالقاهرة والبرديسى بالجيزة ، الى أن حـــدثت انتفاضة الشعب وثورته على المماليك فى مارس ١٨٠٤ .

---

(٧٣) كان محمد بك الألفى قـــد سافر الى انجلترا منذ جلاء الانجليز عن الاسكندرية فى « ذى القعدة ١٢١٧ هـ » ليطلب من الحكومة الانجليزية معاونة المماليك على رجوعهم لحكم مصر .

(٧٤) وصل الألفى الى أبو قير يوم ٣ من ذى القعـــدة ١٢١٨ هـ (١٢ من فبراير ١٨٠٤ م) وســـار الى رشيد وأقلته سفينة القنصل الانجليزى الى القاهرة يرفرف عليها العلم الانجليزى ، وأنفـــذ البرديسى رجاله للقبض على الألفى وقتله ، ولـــكنه تمكن من الفرار الى الصـــعيد ، وتجمع حوله جملة من أنصاره من المماليك والعربان .

دور العلماء فى طرد المماليك من القاهرة (مارس ١٨٠٤) :

عوامل هذه الحركة :

كان السبب المباشر فى هذه الحركة هى الضريبة التى فرضها البرديسى فى شهر مارس ١٨٠٤ م (ذى القعدة ١٢١٨ هـ) لسد مرتبات الجنود المتأخرة ، وأصبحت مطالبة العسكريين بمرتباتهم المتأخرة تشكل خطرا على البرديسى ، فاضطر البرديسى الى فرض ضريبة على العقارات المبنية حددت فئتها مما يعادل ايجار سنة موزعة على المالك والمستأجر وكلف عمال الحكومة بتحصيلها •

وكان الشعب المصرى فى مجموعه صفر اليدين بسبب كثرة الضرائب والمظالم أثناء سنوات الاضطراب السياسى التى أعقبت جلاء الفرنسيين • فالضرائب التى دفعها لحاكميه فاقت حد الوصف ، فقد كان كل حاكم جديد يعمد الى فرض ضريبة على الشعب ويستعمل شتى أصناف العنف فى جبايتها ، وبعد قليل يتغلب عليه خصومه والطامعون فى استغلال البلاد ، ويفرضون على الشعب بدورهم ضرائب جديدة ، ولم تمض فترة يسيرة على الضريبة السابقة ، وهكذا دواليك، وكثرت بذلك الضرائب بكثرة توالى الحكام [٧٥] •

أضف الى ذلك ماكان يقوم به طوائف الجنود العثمانيين والمماليك

---

(٧٥) كان من بين هذه الضرائب الجزافية واكثرها ظلما للشعب واشدها تفننا فى ايذائه ضريبة جائرة سميناها (بالسبعينية) فرضها أحد المماليك ويدعى (سليم كاشف المحرمجى) على اقليم القليوبية ، وهى على كل قرية من كل صنف من الأصناف سبعين : سبعين خروفا وسبعين بقرة وسبعين رطل سمن وسبعين رطل بن وسبعين فرخة وهكذا ، ماعدا حق طريق المعين لقبض هذه الضريبة وحقه خمس وعشرون ألف فضة من كل بلد .

أنظر حديث الجبرتى عن هذه الضريبة فى : عجائب الآثار .. ج ٣ ص ٢٦٦ •

من السلب والنهب ، وكأنهم قد وزعوا الاختصاصات فرؤساء العسكر لهم الضرائب ، وأفرادهم لهم السلب والنهب ، والجميع كان فى نظر الشعب المصرى ظالمين له سالبين لأقواته .

وأصبح الشعب المصرى وخاصـــة فى القاهرة على أبواب مجاعة، وزاد فى سوء الحالة نقص النيل فى تلك السنة جمادى الأولى ١٢١٨ هـ (أغسطس ١٨٠٣ م) نقصا كبيرا أنذر بشح الأقوات ، واستولى بذلك الذعر على النـــاس فى القاهرة « ودخل الناس وهم عظيم وخصوصا مع خراب البـــلاد بتوالى الفرد والمغارم » [٧٦] ودق ناقوس الخطر ، وأصبح الشعب بين أمرين أحلاهمـــا مر ، اما أن يموت جوعا ان هو استسلم لدفع الضريبة الجديدة التى يطلبها البرديسى ، واما أن يعرض نفسه للموت ان هو خالف أوامر حكامه ومستغليه ، واختـــار الشعب التمرد والثورة على مستغليه ، واتجه الشعب شاكيا حالته السيئة الى زعمائه وقادته من علماء الأزهر .

هذه هى طبيعـــة الثورة لدى الشعب المصرى لا يلجأ اليهـــا الا عند المخمصة ، فهو يصبر على الظلم وعنـــدما يتعرض للهـــلاك بسبب كثرة المظالم يلجأ الى الثورة ، والتمرد ، فهو من أقوى شعوب الأرض صبرا على الظلم ، والصبر فى طبيعته مذهب ودين ، والثورة عنـــده لا تحدث الا عنـــدما يصبح على شفا جرف من الهـــلاك ، وتلقف زعماء الشعب هـــذا الشعور لدى جميع طوائف الشعب ونظموه بما لديهم من خبرة سابقة فى الدفاع عن الشعب والوقوف فى وجه حكامه الظالمين .

مراحل تفكير المشايخ فى الثورة :

فى شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٨ هـ انتقلت الأحوال فى القاهرة من سىء الى أسوأ « هذا مع توالى وتتـــابع الفرد والـــكلف على البلاد حتى خرب الـــكثير من القرى والبـــلاد وجلا أهلها عنها خصوصا اقليم

---

(٧٦) المصـــدر السابق . جـ ٣ ص ٢٧٩ .

البحيرة فانه خرب عن آخره » (٧٧) ، فاجتمع العلماء فى منتصف جمادى الأولى سنة ١٢١٨ هـ (٣ من سبتمبر سنة ١٨٠٣ م) للنظر فى شئون الأهالى ، وما يمكن عمله ازاء الغلاء وشح الأقوات .

ولقد مر تفكير علماء الأزهر فى هذه الفترة بمرحلتين :

المرحلة الأولى : هى مرحلة البحث عن مخرج للأهالى من ضيقهم، وكان أول رأى عرض فى هـذا الاجتماع هو أن يخرج العلماء (لصلاة الاستسقاء) ويلوح أن المجتمعين قد استبعدوا هـذه الفكرة ، وذلك لعلمهم أن صـلاة الاستسقاء تفتقد شروطها الأساسية التى منها : رفع الظلم عن الرعية ، ورد المظالم الى أهلها ، والتوبة الى الله تعالى والاقلاع عن الذنوب ، وما الى ذلك من الشروط المفقودة ، ولكى تصح صـلاة الاستسقاء فى نظرهم لابد من مطالبة الحكام أولا بهذه المطالب ، ومن ثم انعقد رأى العلماء على التوجه الى أولى الأمر .

توجه العلماء الى (ابراهيم بك) شيخ البلد فى هذه الأثنـاء ، وطلبوا منه رفع المظـالم عن الأهالى ، ولـكن ابراهيم بك حبـذ لهم الرأى بالخروج لصـلاة الاستسقاء ، ولـكنهم حاجوه بأن صـلاة الاستسقاء تفقد شروطها ، ولابد من رفع المظالم عن الأهالى أولا لـكى تتحقق شروط صـلاة الاستسقاء فرد عليهم ابراهيم متمردا : « هذا أمر لا يمكن ولا يتصـور ولا أقـدر عليه ولا أحكم الا على نفسى » . ولـما قالوا له انهم اذا لم يتحقق لهم رفع المظالم فانهم سوف يهاجرون من مصر ، فرد عليهم قائلا : وأنا سوف أهاجر معكم ، فانصرف العلماء من عند ابراهيم بك يائسين من المماليـك لأن مساعيهم لدى زعيمهم لم تسفر عن حل لمشـاكل الأهالى ، ولـكنهم كانوا قد عزموا على مقاومة الظالمين بالقوة (٧٨) .

---

(٧٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٧٨ .

(٧٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٧٩ .

وفى شهر شعبان سنة ١٢١٨ هـ (٣ من نوفمبر ١٨٠٣ م) زادت اعتداءات الجنود على مافى أيدى الناس بالسلب والنهب العلنى ، وشكا الشعب الى زعمائه رجال الأزهر ، فذهب وفد من المشايخ بزعامة عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد الأمير ، وذهبوا الى بكوات المماليك ، وطلبوا منهم منع اعتداءات العساكر على الأهالى ، وكان رد المماليك كما هى العادة بالوعود الكاذبة باصلاح الأحوال ، ونادى قادتهم بالأمن والأمان للرعية ونبهوا على الأهالى انه اذا « وقع من العسكر أو المماليك خطف شىء يضربوه وان لم يقدروا عليه فليأخذوه الى حاكمه » (٧٩) .

وكان هذا « كلاما فارغا » بتعبير الجبرتى لأنه بعد مرور الحكام بالمناداة خطفوا عمائم الناس . واعتدوا على نسائهم .

وواصل رجال الأزهر مساعيهم فى سبيل رفع الظلم عن الأهالى ، فانتهزوا فرصة وصول رسول من الآستانة يدعى (صالح أغاقابجى) باشا يحمل فرمانا من طرف الباب العالى « يتضمن ولاية على باشا (الطرابلسى) والأوامر المعتادة » وعزموا على اثارة موضوع رفع المظالم عن الشعب ، وعندما انعقد الديوان لقراءة هذا الفرمان يوم الخميس ٢٠ شوال ١٢١٨ هـ (٢ من فبراير ١٨٠٤ م) أناب المشايخ عنهم للتحدث فى الديوان أمام رسول الباب العالى الشيخ (محمد الأمير) « وتكلم الشيخ الأمير فى ذلك المجلس وذكر بعض كلمات ونصائح فى اتباع العدل وترك الظلم ، وما يترتب على (الظلم) من الدمار والخراب » وانتهى الاجتماع « وقد اتفق الحال على ارسال

---

(٧٩) المصدر السابق — جـ ٣ ص ٢٨٣ .

مكاتبات للـكشاف [٨٠] بالحضور والـكف عن البـلاد » [٨١] غير أن هذه الأوامر والمـكاتبات التى تدعوا المماليك بالـكف عن ظلم الأهالى لم تجد شيئا ، وكان الغرض منها امتصاص غضب المشـايخ وتهـدئة خواطرهم ، ولم يبق الا طريق التمرد والثورة على الظالمين .

المرحلة الثانية : مرحلة التمرد والثورة على المماليك :

لم يبق أمام الشـعب من مخرج سـوى طريق التمرد والثورة ، وجاءت الفرصـة عندما فرض البرديسى الضريبـة الجديدة التى سبق أن أشرنا اليهـا وبدأ فى جمعها ، فقـابل النـاس تلك الاجراءات بالمعارضة فى أول يوم لجمعها فى ٢٤ من ذى القعدة ١٢١٨ هـ (١٨٠٤م) وتوسع نطاق تلك المعارضـة ونادى الناس علنا بابطال تلك الضريبة ، وبات النـاس بين مصـدق ومكذب كما يقول الجبرتى نظرا لأنها كانت أول معارضـة من هـذا الشعب الصابر .

وفى اليوم التـالى ٢٥ من ذى القعدة ١٢١٨ هـ (١٨٠٤ م) خـرج

---

(٨٠) كان يحكم الأقاليم بمصر مجموعـة من الـكشاف والصناجق . والصنجق من التركية سنجاق وهو العلم وتطلق على قسم من ولاية كبيرة وعلى حاكمها ايضـا وتسمى سنجقية ، وقد تـكون الصنجقية مجرد رتبة ، (وصنجق طبلخانه) يجمع بين مصطلحين : مصطلح عثمـانى ومصـطلح مملوكى ، فبعض الأمراء فى دولة المماليك كانوا امراء طبلخانة اى يكسبهم مقامهم ان تدق لهم الطبول وغيرها من الآلات الموسـيقية التى تتكون منهـا طبلخانة السلطان ، وكان فى مصر ٢٤ صنجقا تعين منهم الآستانة صناجق الثغور الثـلاثة المهمة الاسكندرية ودميـاط والسويس . ويضـاف الى هؤلاء الصناجق حكام بقيـة الأقاليم الذين لم يبلغوا بعد مرتبـة الصنجقية ويطلق عليهم اسم كشاف ويطلق على الأقليم الذى يحكمه الـكاشف اسـم كشوفيـة .

انظر : محمد شـفيق غربال . مجلة كليـة الآداب — مرجع سبق ذكره صص ١٣ — ١٦ .

(٨١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٩٤ .

الفقراء والعـــامة والنساء فى مظاهرات كبيرة ، خرجوا فيها على هيئة طوائف كل طائفة مع بعضها يصرخون وقـــد رفعوا البيارق ، وبأيديهم دفوف يضربون عليهـــا ، وكانت النساء يندبن وينعين ويقلن على الأمراء كلاما مسجوعا كما هى عادة المصريين فى مثل هذه المناسبات مثل قولهن (ايش تاخد من تفليسى يا برديسى) وصبغن أيديهن بالنيلة ، وغير ذلك من الأفعـــال ، وأغلق النـــاس دكاكينهم ، وأخذت روح السخط تنتقل من حى الى حى حتى عمت أنحاء المدينة ، فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعت الثائر يستولى على الميادين ، والشوارع .

وتوجهت هـــذه الجموع الغفيرة كعادتها الى ساحة الجامع الأزهر وقابلوا زعماءهم من العلماء وشكوا لهم ســـوء حالهم وطلبوا منهم أن ينقذوهم من ظلم المماليك ، واستجاب علمـــاء الأزهر لطلب الجمـــاهير فخرجوا على رأس هـــذه الجموع الثـــائرة وقصدوا بهم الى الأمراء ، وطلبوا منهم الغـــاء الضريبـــــة الجـــديدة التى قررها البرديسى على العقارات المبنيـــة .

موقف محمد على من الثورة :

أراد محمد على أن يستغل هذه الثورة لصالحه ، فهو الذى هيـــأ الجو لمثل هـــذه الثورة كما سبق أن أشرنا ، لـــكى يقضى على هيبـــة المماليك لدى الشعب ، ونبـــه على جنوده بعـــدم التعرض للشعب وتبرأ من هذه الضريبـــة ، وأرسل من جهته رسولا الى الجامع الأزهر يشرح للعلماء موقفـــه وموقف جنوده من هـــذه الفرده ، وأنهم غير راضـــين عنها ، كما أمر عساكره بالمناداة فى الأسواق بابطال هذه الفردة ، وكان عساكره يقولون للثوار « نحن معكم سوا سوا أنتم رعية ونحن عسكر ولم نرض بهـــذه الفردة ، وعلوفاتنا على الميرى ليست عليكم ، أنتم أناس فقراء » (٨٢) وبذلك تمكن محمد على من تعميق السخط وتحويله

---

(٨٢) المصـــدر السابق ، ج ٣ ص ٣٠٠ .

كلية ضــد المماليك ، فمالت قلوب النـــاس اليه وابتهلوا الى الله بازالة دولة المماليك الظالمة وجهروا بالدعاء عليهم • وبذلك كسب محمـــد على الموقف لصالحه ، ولا عجب فقد كان هــذا الموقف من جملة دسائســـه الشيطانية كما وصفه الجبرتى (٨٣) •

موقف المماليك :

أما زعمـــاء المماليك فانهم قابلوا هذه الحركة الثورية بالغطرســـة والـــكبرياء ، والانحراف ، وتوعدوا الأهالى بالانتقام لأنهم لم يمتثلوا لأوامرهم وقال عثمان بك البرديسى « لابد من تقريرها (أى الضريبة) عليهم ثلاث سنوات وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا » (٨٤) ولـــكن موقفـــه أصبح ضعيفا ولم يكن فى استطاعته فعل شىء ، لأنه فرق جنود المماليك على أقاليم مصر للبحث عن الألفى ، ولهذا لم يتمكن من جمع شملهم بسرعة لانشغالهم فى نهب القرى وتحصيل الجبايات •

وانتهز محمد على فرصة غضبة الشعب وقيامه على المماليك فأمر جنوده فهاجموا المماليك الموجودين بالقاهرة ، وحاصروا بيت ابراهيم بك بالداودية ، وبيت عثمان بك البرديسى بالنـــاصرية وكذلك بيوت باقى الأمراء والـــكشاف والأجناد فى جميع أنحاء القـــاهرة ، ومن ثم رأى زعماء المماليك أنفسهم محصورين بين قوتين : قوة ثورة الأهالى من جهة وقوة جنود محمد على من جهة أخرى ، فلاذوا بالفرار ، وخرج البرديسى هاربا من القاهرة وقت الغروب الى مصر القديمة ، ومنها الى ناحيـــة البساتين ثم الى حلوان ، كما فر ابراهيم بك فى صباح اليوم التالى الى الرميلة ثم الى الصحراء •

وبذلك خرج المماليك من القاهرة فى أسوأ حال ، وذهبوا الى الوجه القبلى ، وقـــد أسهم الشعب بزعامة علمـــاء الأزهر فى هــذه الحركة

---

(٨٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ص ٣٠٠ — ٣٠١ •
(٨٤) المصـــدر السابق — ج ٣ ص ٣٠١ •

الثورية وزالت دولة المماليك ودالت دولتهم بعد ذلك ولم تقم لهم قائمة، ونهب عساكر محمد على بيوتهم ، وفعل بهم مافعوه بغيرهم من قبل ، يقول الجبرتى : « وخرج الأمراء على أسوأ حال من مصر ولم يأخـذوا شيئا مما جمعوه وكنزوه من المـال وغيره الا ماكان فى جيوبهم ونهب العسكر أموالهم وبيوتهم وذخائرهم وأمتعتهم وفرشهم وسبوا حريمهم وسراريهم وجواريهم •• وغلب عليهم الخوف والحرص على الحيـاة والجبن وخابت فيهم الظنون وذهبت نفختهم فى الفارغ ، وجازاهم الله ببغيهم وظلمهم وغرورهم •• ولم يقع لهم منذ ظهورهم أشنع من هذه الحادثة •• ولا يحيق المـكر السىء الا بأهله » (٨٥) •

ولقد ساعد على نجاح هـذه الحركة عاملان : الأول : أن المماليك كانوا موزعين على الأقاليم للبحث عن الألفى وهو العـامل الذى سبق أن أشرنا اليه والعامل الثـانى : أن محمـد على انتهز فرصـة غضب الشعب وثورته على المماليك فأمر جنوده بمهاجمة المماليـك الموجودين بالقاهرة ، وبذلك أصبحوا بين قوتين ، قوة تحفز الأهالى ، وقوة جنود محمد على ، وبذلك نجحت هذه الحركة الثورية ، وركب العلماء ينادون بابطال الضريبـة الجديدة على الرغم من الأمراء وفرح النـاس بذلك وسكن اضطرابهم •

وكان من أهم نتـائج هذه الحركة أنهـا قوت من عزم زعمـاء الشعب وشجعتهم على المطالبة بحقوق الأهالى ، وعرفتهم حقيقة مهمة وهى : أن الحكام يهابون ثورة الشعب ويعملون لتمرده ألف حساب ، ومن ناحية أخرى فقد قضت هذه الحركة على حكم المماليك فى البـلاد وعصفت بهيبتهم عند الشعب كما أنها بصرت محمد على من ناحية ثالثة بعواقب تسرعه فى الاسـتيلاء على السلطة فى البـلاد وجعلته يتريث حالما تنضج الثمرة وتتهيأ الظروف •

---

(٨٥) المصدر السابق — ج ٣ ص‌ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .

الموقف فى القاهرة بعد فرار المماليك الى الصعيد :

بعد خروج المماليك من القاهرة فرارا من غضبة الشعب ، ومن سيوف جنود محمد على • أصبح محمد على سيد الموقف العسكرى وصاحب الكلمة فى القاهرة ، ولكنه آثر التريث واظهار اخلاصه للسلطان فدعا (خسرو باشا) من دمياط الى منصب الولاية من جديد ، ولما لم يرض به الجنود دعا خورشيد [٨٦] باشا حاكم الاسكندرية ودعا العلماء لعقد ديوان بشأن تنصيبه وثبته السلطان فى منصبه • وربما قصد محمد على من احضار خسرو ارضاء الانكشارية رغم أنه كان يعلم مسبقا أن الأرنؤد لن يرحبو بهذا التعيين •

وكان هناك عامل مهم جعل محمد على يتريث فى تولى الأمور رسميا فى البلاد ، ألا وهو سوء الحالة المالية فيها فخاف من تحرج مركزه بين مطالبة الجنود برواتبهم وبين زعماء الشعب الذين أصبحت قوتهم لها وزنها فى الموقف السياسى فى القاهرة وهم ليسوا على استعداد للموافقة على فرض ضريبة جديدة لسد مرتبات الجنود المتأخرة اذن فعلى غيره أن يتحمل تبعة الأحداث القادمة •

ويجب أن نلاحظ أن محمد على قد بلغ فى هذه المرحلة من القوة مايجعله قادرا على اثارة المصاعب فى وجه الولاة ، وأن خورشيد باشا وهو الذى تسلم ولاية مصر بارادة (محمد على) كان عليه أن يدخل فى حسابه هذه القوة التى تتوافر الأدلة على أنها لن تتخلى عن السلطة التى لها فى تصريف شئون الحكم [٨٧] •

---

(٨٦) كان خورشيد باشا محافظا للاسكندرية من قبل الباب العالى منذ شهر ذى الحجة سنة ١٢١٦ هـ فى عهد ولاية خسرو باشا ، وكان حكام مدن الساحل من كبار موظفى الدولة يعينهم السلطان مباشرة ويخضعون لسلطانه مباشرة .

(٨٧) توجه محمد على الى الصعيد لمحاربة المماليك ، وذلك بعد أن سلم خورشيد الولاية .

ولذلك فان خورشيد لم يكن واثقا من مركزه ، كما أنه كان غير واثق من موقف العلماء تجاهه • •

خورشيد والعلماء :

كان خورشيد باشا على شاكلة من سبقوه من الولاة الأتراك فيه صلف الترك وغطرستهم واستبدادهم الغشوم ، وكان كغيره يدفعه ميل لابتزاز الأموال بحق وبغير حق ، وكانت نظرتهم جميعا الى مصر كما سبق أن قلنا فى غير موضع أنها كلأ مباح وغنيمة مستباحة يجمعون منها المال بشتى الوسائل بأقصى سرعة لعلمهم بأن مقامهم بها لن يطول ، ثم يعودون منها بالذهب الوفير سواء فى ذلك العسكرى والباشا الكبير • ويذكر لنا الجبرتى قصة أحد العساكر العثمانيين الذين أمر الوالى خورشيد بقتله بسبب افساده فى البلاد ، ولأنه هو وجماعة معه حصدوا القمح قبل أوانه لعلف خيلهم وتسبب فى شكاية الفلاحين وتجمهرهم — يقول الجبرتى فى شأن هذا الجندى أنهم : «وجدوا على وسطه ستمائة بندقى ذهب وثلثمائة محبوب ذهب » [٨٨] • وهذا رغم ماكانت فيه البلاد من ضيق مالى وشح فى الأقوات ورغم تأخر مرتبات العسكر ، واذا كان هذا شأن جندى بسيط ، وصلت حقارته بأن هان على رئيسه فقتله فما بالك بغيره ممن هو أرقى منه فضلا عن الباشا وأعوانه من المستغلين الكبار •

لقد جاء خورشيد الى القاهرة يدفعه جشع غير محدود فى جمع الأموال واصطدم بادىء ذى بدء بعدة عقبات كان من بينها حركة العلماء التى تحطمت عليها مطامعه بدأ خورشيد فى جمع المال من نساء المماليك اللائى تخلفن عن أزواجهن بالقاهرة ، وأرسل فى طلبهن

(٨٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٠٦ •

وفى المقـــدمة منهن : الست (نفيسة المرادية) [٨٩] زوجـــة مراد بك الراحل ، فأرسل اليهـــا الوالى وأحضرها الى القلعـــة ، وادعى عليهـــا أنها تحاول مساعـــدة المماليك فى العودة الى القاهرة ، ومن ثم اعتقلها بالقلعـــة ٠

ولـــكن العلماء لم يقبلوا منه هذا التصرف المجرد من المروءة فى ابتزاز أموال الأرامل من النساء ، وذهب اليه وفـــد من العلمـــاء على رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الســـادات والشيخ الأمير والشيخ الفيومى والشيخ المهدى يصحبهم القاضى ، وعارضوه علنا فى اعتقاله للنساء وخاصـــة الست نفيسة المرادية التى كان يجلها العلماء ويحترمونها ، لدرجة أن الشيخ الأمير عنفـــه بقوله : مخاطبـــا الترجمان « قل لأفندينـــا هذا أمر غير مناسب ، ويترتب عليه مفاسد ، وبعد ذلك يتوجه علينـــا اللوم ، فان كان كذلك فلا علاقة لنا بشىء من هذا الوقت أو نخرج من هـــذه البـــلدة وقام قائمـــا على حيـــله يريد الذهاب » [٩٠] ولـــكن حاشية البـــاشا هدأوا من ثورة الشيخ الأمير وطيبوا خاطره ، واضطر خورشيد الى اطـــلاق سراح الست نفيســـة المرادية تحت ضغط العلماء ٠

---

(٨٩) كانت نفيسة المرادية هذه سرية لعلى بك الكبير وكانت محظيته، ولمـــا مات على بك وتأمر مراد بك تزوج بها ، واشتهرت باسمه ، فأصبحت ســـيدة العصر ، وأكثر نساء الأمراء من جواريها ، وكانت من الخيرات ، لها على الفقراء بر واحسان ، توفيت فى ٢٠ من جمـــادى الأولى ١٢٣١ هـ، ودفنت بمقابر الامام الشافعى ، وهى السيدة الوحيـــدة التى ترجم لهـــا الجبرتى ٠

انظر : الجبرتى ، ج ٤ ص ٢٨٢ ٠

(٩٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج صص ٣١٣ — ٣١٤ ٠

خورشيد يرغب فى التحالف مع العلماء :

عندما علم خورشيد بنيـــة محمد على بالعودة من الصـــعيد الى القاهرة حاول أن يتحالف مع العلماء ضده ، غير أنه أخفق فى استمالتهم اليه ، فأراد أن يجعلهم تحت رقابته فطلبهم اليه ، فلما اجتمعوا لديه قال لهم : « ان محمد على وحسن باشا راجعان من قبلى من غير اذن وطالبان شرا ، فاما أن يرجعا من حيث أتيا ويقاتلا المماليك ، واما أن يذهبـــا الى بلادهما وأعطيهم ولايات ومنـــاصب فى غير أراضى مصر ومعى أمر من السلطان .. أعزل من أشاء وأولى من أشاء وأعطى من أشاء وامنع من أشاء ، ثم أخرج من جيبه ورقة .. وأخبرهم أنها بخط السلطان بما ذكر » [٩١] .

وطلب خورشـــيد من العلمـــاء أن يقيموا عنده بالقلعة مع كبار الضباط ، غير أن العلماء أدركوا أو الباشا يريد أن يبقيهم بالقلعة ليكونوا رهائن عنده ، فاعتـــذروا له بأن كبراءهم كالشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ المهدى غائبون عن القاهرة ، ولا حق لهم أن يقطعوا بمثل هـــذا الأمر الا فى حضرة كبرائهم فأجابهم « على أن يبيت عنده بالقلعة فى كل ليلة اثنان من المتعممين واثنان من الوجاقلية » [٩٢] .

والتفت خورشيد الى محمد على يريد القضـــاء عليه لدى عودته من الصعيد فأنفذ اليه قوة من الجنـــود الدلاة [٩٣] لاعتراض طريقـــه وصده عن دخول القاهرة ، وتقابل محمد على بهم عند طره على مشارف القاهرة ، ولـــكنه تمكن بذكائه من تجنب الصدام بهم « وكاد لهم كيدا » كما يقول الجبرتى وأرسل اليهم يقول : « انما جئنـــا فى طلب العلائف (المرتبـــات) ولسنا مخالفين ولا معاندين » فقال الدلاتيـــة لبعضهم

---

(٩١) الجبرتى — عجائب لآثار — ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٩٢) المصـــدر السابق — نفس الصفحة .

« اذا كان الأمر كذلك فــلا وجه للتعرض لهم » ثم أخلوا الطريق لمحمد على وجنوده لدخول القاهرة •

وهكذا نجح محمد على بدهائه عندما ذكر لهم سببا مقنعا لرجوعه الى القاهرة وهو طلب المرتبــات (العلائف) المتأخرة ، لأن قضية قبض المرتبات المتأخرة تخص الجنود الدلاة أيضا ، ومن ثم قالوا لرؤسائهم: « اذا كنتم تمنعون وتحاربون من يطلب حقه فــكذلك تفعلون معنا اذا خدمناكم زمنا ثم طلبنــا علائفنا » [٩٤] وهكذا نجح محمــد على فى دخول القاهرة دون أن يصطدم بالجنود الدلاة •

تودد محمد على الى العلماء :

لقد آثر محمد على فى هذه الفترة عدم الاصطدام المبــاشر بأية قوة من القوى الموجودة بالقاهرة وخاصــة أن جنوده من الألبــانيين كانوا لا يتعدون ثلاثة آلاف ، مقاتل ، وقد تمكن بدهائه وحسن سياسته على مدى أربعة أعوام أن يجتاز بهم طريقــه الى السلطة دون صدام مباشر سواء كان ذلك مع المماليك أو مع عسكر العثمانيين من الانكشارية، فهو يتحالف مع زعماء الشعب فى وقت تشتت فيه المماليك فى البــلاد ويتمكن من طردهم من القاهرة دون أدنى قتــال ، والأصح أن نقول انه اعتمد على المنــاورة السياسية فى تحركاته فى مصر ينتهز الفرص ويستغلها لصالحه ، ويركب الأمواج لتوصله الى هدفه ، وهاهو يدخل القاهرة هذه المرة لا ليحارب خورشيد وجنوده من الدلاة ، وانما لينتظر موجة شعبية جديدة يركبها لتوصله الى هدفه الذى يسعى اليه ويقضى على خصمه الذى ائتمر به •

---

(٩٣) الدلاة أو الدلاتيــة : كلمة تركية معنــاها المجــانين ومفردها (ديلى) وأطلقت هذه اللفظة على الجنود الأكراد لشهرتهم بالبسالة والتهور والاندفاع الذى يصل الى حد الجنون •

(٩٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٤٧ •

واتصل محمد على بالعلماء ورسم لنفسه أن يكسب ودهم ويصل عن طريقهم الى السلطة ، وكانت الظروف فى القاهرة عقب عودته من الصعيد مهيأة له لكى يلعب لعبته فى استمالة العلماء ، لأن الجنود الدلاة فى هذه الآونة قد ازدادت فظائعهم ومظالمهم ، فاستغل (محمد على) هذا لصالحه فأوعز للمشايخ أن الباشا هو الذى جلبهم لتأييد سلطته ، وهو المسئول عن هذه الفظائع ، وأخذ يحول تيار السخط الشعبى نحو خورشيد ، وقضى بذلك على بادرة الأمل التى كانت تراود خورشيد فى التحالف مع العلماء ، وانحاز الى جانب المطالب الشعبية علنا ، وبذلك أصبحت القاهرة على أبواب ثورة عارمة .

والذى يجب أن نلاحظه هو أن محمد على استغل السخط الشعبى ولم يخلقه ونجح فى توجيه سخط المشايخ والشعب على الدلاة الى شخص خورشيد . فالحركة الشعبية بقيادة علماء الأزهر كانت ماضية فى طريقها تقوى يوما بعد يوم فى هذا المناخ وقد زادتها الحوادث قوة وضراوة ، بينما كانت العناصر العسكرية الدخيلة تضعف يوما بعد يوم لكثرة تطاحنها وتقاتلها على السلطة والنفوذ .

اذن فالذى جعل قوة العلماء تزداد ، هو هذا المناخ الذى تتصارع فيه قوى متباينة ، تسعى كل منها الى تأييد شعبى ودعم جماهيرى عن طريق العلماء ، بذلك زادت وعظمت قوة ارادة الشعب .

الفصل السادس

دور علماء الأزهر فى خلع خورشيد
وتولية محمد على فى مايو ١٨٠٥ م (صفر ١٢٢٠ هـ)

دور علماء الأزهــر فى خلع خورشــيد وتوليــة محمــد على فى مايو ١٨٠٥ م :

تولى خورشـــيد حكم ولاية مصر فى وقت تغيرت فيـــه موازين القوى بالبلاد ، فقـــد وصل الى القاهرة بعد أسبوعين من طرد المماليك منها ، وتمكن المماليك من السيطرة على أقاليم مصر بالصعيد والوجـــه البحرى وضربوا حصـــارا حول القاهرة ومنعوا ورود المؤن اليها فاشتد الضيق بالقاهريين ، وتحول خورشيد الى فرض الضرائب على القاهريين استعمل فى ذلك كثيرا من وسائل الابتزاز ، ولـــكن علماء الأزهر وقفوا لخورشيد بالمرصـــاد ، وأوقفوا كثيرا من خططه التى ابتـــدعها لسلب أقوات الشعب فى وقت اشتد فيه الحصار حول القاهرة .

واعتصم خورشيد بالقلعـــة وصـــمم على حكم البـــلاد بالقوة ، واستجلب لذلك جنود الدلاة الذين ارتكبوا كثيرا من الفظائع والجرائم، وضج النـــاس منهم بالشكوى الى علماء الأزهر ، وقام العلماء بتعبئة الرأى العـــام بالقاهرة ضد خورشيد وجنوده ، وغدا الموقف فى مستهل صفر ١٢٢٠ هـ (مايو ١٨٠٥ م) غاية فى الخطورة ، فالوالى خورشيد رابض فى القلعـــة ، ومحمد على متحزب عليه مع جنوده بالأزبكيـــة والشعب مصمم بزعامة علمائه على أن يقول كلمته .

بداية الثورة :

استهل شهر صفر ١٢٢٠ هـ (مايو ١٨٠٥ م) بازدياد فظائع الجنود الدلاة بالقـــاهرة وخاصـــة بأحيـــاء « مصر القديمة وقصر العينى [1]

---

(١) قصر العينى : يقع تجاه جزيرة الروضـــة ، ويرجع تاريخـــه الى النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى فقد انشأه المقر الشهابى احمـــد ابن العينى الذى كان صـــاحب الحل والعقد بالديار المصرية سنة ٨٧١ هـ،
=

والآثار [٢] ودين الطين » ففى يوم الأربعاء أول صفر خربوا المزروعات، وخطفوا ما بأيدى الفلاحين والمارين وخطفوا النساء والأولاد المسلمين من منازلهم ، وارتكبوا كثيرا من الجرائم الخلقية المنكرة ، وحضر سكان مصر القــديمة نساء ورجالا الى الجامع الأزهر ، يشكون ويستغيثون من أفعال الدلاة الذين أخرجوهم من مساكنهم قهرا عنهم ، وأخـــذوا ثيابهم ومتاعهم ، وحجزوا كثيرا من النساء لديهم •

رأى رجال الأزهر هذه الصـــورة الشنيعة التى حضر بها الأهالى الى ساحة الأزهر ، وزاد التجمهر والهيـــاج ، وكان العلماء على أهبـــة الاستعداد ، وازداد استياؤهم من خورشيد نظرا لسياسته القـــاصرة التى أوجبت أن يعتقل بالقلعة كل ليلة اثنين من العلماء مناوبة ، فمـــا كان من العلماء ليخلصوا له ويقفوا الى جانبه فى نضاله وهم مرغمون معتقلون •

اجتمع العلماء على الفور وتوجهوا الى الباشا وخاطبوه فى وضع حد لفظائع الجنود الدلاة ، فأصـــدر الوالى أمرا للجنود بالخروج من بيوت الأهالى وتركها لأصحابها ، وكان هـــذا أمرا صوريا ، لأن الجنود لم يخضعوا له ولم ينفذوه ، وتوجه العلماء الى خورشيد ثانيا وأخبروه بعصيانهم ، فطلب من العلماء مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة نهائيا وأدرك العلماء بأن الباشا يسلك معهم سياسة التسويف والمماطلة وعزموا على المقاومة •

= وقـــد سكن هـــذا القصر فى العصر العثمانى فئـــة من الدراويش ، وقـــد اتخذه ابراهيم بك أمير المماليك مقرا له ، وأول من جعل منه مستشفى هو بونابرت جعل منه مستشفى عسكريا يسع الف مريض وجريح (أنظر : أحمد عزت عبد الـــكريم — تاريخ التعليم فى عصر محمد على — القاهرة ١٩٣٨ — صص ٢٢١ — ٢٢٢ وانظر : الرافعى تاريخ الحركة القومية ج ١ صص ٢٩٩ — ٣٠٠) •

(٢) الآثار — هى خرائب مدينة الفسطاط •

دور طلبـــة الأزهر :

وفى اليوم التـــالى بـــدأت الثورة بتعطيل الدراســـة بالأزهـــر ، وصدرت الأوامر من العلماء الى طلبـــة الأزهر بالخروج الى الأسواق لتوعية الجماهير وأمر الناس بغلق الحوانيت ، وكانت هذه هى (السرية الأولى) كما يقول الجبرتى ، وبذلك غلت القاهرة وتهيأ الناس للثورة بفضل جهود الطلاب ووصل الخبر الى البـــاشا • فأرسل نائبـــه الى الأزهر فلم يجد به أحدا ، لأن المشايخ بعد اصدار أوامرهم الى الثوار ذهبوا الى بيوتهم ، فتوجه وكيل البـــاشا الى منزل الشيخ الشرقاوى واجتمع به وحضر المقـــابلة السيد (عمر مكرم) وغيره من العلماء ، وعرض وكيل الباشا عليهم عقد هدنة مدتها ثمانيـــة أيام تنتهى فى ١٠ مايو ١٨٠٥ م (١٠ من صفر ١٢٢٠ هـ) يبذل المشايخ نفوذهم خلالها حتى يركن الشعب الصـــاخب الى الهـــدوء وتعود الحياة الى مجراها الطبيعى ، ويتعهد خورشيد من ناحيتـــه باتخاذ الاجراءات الـــكفيلة بردع الجنود الدلاة ، فاشترط العلماء عليه للموافقة على هـــذه الهدنة أن يطهر القاهرة وضـــواحيها من الجنود الدلاة كليـــة فى خلال ثلاثة أيام (٣) • وعند انصراف وكيل الباشا قذفه الثوار بالحجارة وأوسعوه سبا وشتما •

وكانت اجابة مطالب العلماء صعبة لأن الوالى يستحيل عليـــه أن يبعد الجنود عن القاهرة لأنهم عدته فى القتال من جهة ومن جهة أخرى فان لهم رواتب متأخرة والخزانة خالية من المـــال ، ومن ثم ظل الحال على ماهو عليه من اضراب العلمـــاء عن الدراســـة فى الأزهر ، وبقيت الدكاكين مغلقـــة ، وامتنع العلماء عن المبيت فى القلعـــة حسب مارسم لهم الباشا سابقا واضطروا الى الموافقة عليه مرغمين وقتئذ •

---

(٣) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — ص ١٠٠ •

موقف محمد على :

مما تقدم يتبين لنـــا أن الأزهريين قـــد عبأوا الشعب للثورة ، ولم يكن ثمة تدخل ، فيما حدث من محمد على ، ولـــكن محمـــد على اغتنم الثورة كعادته لنفسه ، وبدأ يؤيد المطالب الشعبية وانحاز الى العلماء وأخذ يتردد على كبار العلمـــاء ويضـــم صـــوته اليهم ، ومن ثم اعتبر الثوار أن النزاع القـــائم ينحصر بينهم وبين خورشـــيد باشـــا وحده لا علاقة للأرناءود به • وهكذا نجح محمـــد على بذكائه فى أن يكسب الموقف لصالحه بدون أى مجهود يذكر اللهم الا كلماته المعسولة ووعوده الخلابة لزعماء الشعب •

ولقد تمكن محمد على من الانتصـــار على خورشيد ، عندما طلب منه الصعود الى القلعـــة ليسلمه فرمانا بولاية جدة ، فأدرك أنها خديعة منه للغـــدر به ، فأبى الصعود الى القلعة واضطر خورشيد الى النزول والاجتماع به بمنزله فى الأزبكية ، بحضور العلماء واستغل محمد على هذا التعيين وزادت مرتبتـــه غير أنه لم يذهب الى جده ، وتفادى النقل بفضل مؤازرة العلماء له على البقـــاء فى مصر ، وبذلك خرج من هذه الأزمة منتصرا •

مطالب زعمـــاء الشعب :

استمرت سياسة الاضراب العام سائدة بالقاهرة ، فغالب الأسواق والدكاكين مغلقة ، والدراسة معطلة بالأزهر ، على الرغم من حضـــور الأغا (المحافظ) الى الجامع الأزهر ، ونادى النـــاس بالأمان وطلب منهم فتح محلاتهم ، الا أن الناس قالوا له « وأى شىء حصل بالأمان وهو (أى خورشيد) يريد سلب الفقراء ويأخذ أجر مساكنهم ويعمل عليهم غرامات » وانتهت الفترة التى حددها العلمـــاء لجلاء [٤] الجنود

(٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٤٩ .

الدلاة عن المـــدينة يوم السبت ١١ صفر ١٢٢٠هـ (١١من مايو ١٨٠٥م) واستطاع الوالى أن يبعـــد منهم جزءا تهـــدئة للثوار ، ولـــكن بقى منهم الجزء الأكبر بالقـــاهرة (نحو ١٥٠٠ جندى) (٥) ، ووصل الى علم العلماء أن الجنود ممتنعون عن الجلاء عن القاهرة حتى تدفع لهم مرتبـــاتهم المتأخرة ، ولم يكن فى استطاعة البـــاشا أن يدفع لهم شيئا الا بفرض ضريبة جديدة ، ذلك لخلو خزينة الحكومة من المال . وصمم زعمـــاء الشعب على المضى بحركتهم حتى النصر فاعتزموا أن يحتكموا الى ساحة العـــدالة فى دار المحكمة الـــكبرى بحى بين القصرين وبات الشعب ليلة ١٢ من مايو فى هرج ومرج والنفوس متحفزة للثورة ، وفى صباح ١٢ مايو توجه العلماء الى المحكمة وتبعهم الشعب بجميع طوائفه، واحتشدت هـــذه الجموع الغفيرة بفنـــاء المحكمـــة وحولها وقـــد بلغ عددهم نحو أربعين ألف نسمة ، وانطلقت الشعارات العدائيـــة التى تندد بالعثمانلى وظلمه وتجبره بسبب ماحل بهم من ظلم وارهاق ونادوا بأعلى أصواتهم « شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم » ومنهم من يقول « يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى » و « يالطيف » و « حسبنا الله ونعم الوكيل » (٦) .

وعندما التأم جمع الثوار فى ساحة العـــدالة طلبوا من القـــاضى أن يرسل لاحضار وكلاء الوالى ليحضروا أمام مجلس الشرع ، فأرسل يستدعيهم على عجل ، وعنـــدما انعقد المجلس عرض الزعمـــاء ظلامة الشعب وكتبوا عرضـــحالا بمطـــالبهم وتحـــدد وثائق وزارة الخارجية الفرنسية هذه المطالب بواحد وعشرين مطلبا : كان أهمها حسب ترتيب ورودها فى نشرة الوكلاء الفرنسيين بمصر والمؤرخـــة فى ٢٠ من مايو ١٨٠٥ م (٢٠ من صفر ١٢٢٠ هـ) .

---

(٥) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٦) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٤٩ .

١ — عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة وضرورة انتقالها الى الجيزة •

٢ — عدم السماح لأى جندى بدخول القاهرة حاملا سلاحا معه •

٣ — الامتناع عن فرض أى ضريبة على سكان القاهرة بدون موافقة المشايخ والأعيان •

٤ — اعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى •

أما بقية الشروط فكانت أقل أهمية ، وهى تتعلق بالاجراءات التى يجب اتخاذها لاعادة الهدوء والأمن الى القاهرة والأقاليم ، والمحافظة على حياة السكان ، ثم العودة الى النظام القديم فيما يختص بسفر قافلة المحمل والحجاج الى الأقطار الحجازية [٧] •

على أن الوثائق الانجليزية تزيد على هذه المطالب مطلبا آخر هو تخصيص جزيرة الروضة فى القاهرة لانشاء الحانات والمحال المعدة للترفيه عن الجنود • كما أنها ذكرت أن حظر فرض الضرائب يمتد الى سائر أنحاء القطر المصرى ، وليس الحظر مقصورا على القاهرة وحدها كما جاء فى الوثيقة الفرنسية [٨] •

أما الجبرتى فقد أورد هذه الشروط والمطالب الشعبية فى صورة عامة بقوله : « واتفقوا على كتابة عرض حال بالمطلوب ، ففعلوا ذلك ، وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر ، وايذائهم للناس ، واخراجهم من مساكنهم ، والمظالم والفرد ، وقبض مال الميرى المعجل ، وحق طرق المباشرين (يعنى أجرة جامعى الضرائب فقد كانوا يتقاضون جعلا من المال يسمى حق الطريق) ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك » [٩] •

---

(٧) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — صص ١٠٣ — ١٠٤ •
(٨) المرجع السابق — ص ١٠٤ •
(٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ٣٤٩ — ٣٥٠ •

وقد أخذ مندوبو خورشـــيد هـــذه المطالب بعد أن انفض مجلس الشرع وتوجهوا بهـــا اليه ، ووعدوا برد الجواب فى اليوم التالى ، ولـــكن خورشيد رفض مطالبهم لأنهم رفضوا مقابلته .

خورشيد يدبر خطة لاغتيال عمر مكرم :

كان السيد عمر مكرم نقيب الأشراف هو روح الحركة الشـــعبية فى هذه الأثنـــاء وفى طليعـــة علماء الأزهـــر ، وأكثرهم نفوذا ، وهو المنظم الوحيد لهذه الحركة كما أشـــار الى ذلك المراقبون الأجانب يقول فولابل : « ان السيد عمر مكرم ظهر فى الصـــف الأول من صـــفوف المجاهدين الذين رآهم الشعب لأول مرة يدافعون عن مصالحه » [١٠] وكانت الأوامر فى هذه الأثناء تصـــدر باسمه وينادى المنادى فى أنحاء القاهرة بقوله : « حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء » وكانت هذه العبارة دائما دليلاً على من بيده الأمر فى البلاد .

فأراد الوالى أن يدبر خطة لاغتيـــاله أو اعتقـــاله بالقلعة فيشل بذلك الحركة الشعبية فلجأ الى سياسة المخادعة ، فأرسل فى ليلة ١٣ من صفر ١٢٢٠ هـ (١٣ مايو ١٨٠٥ م) رسولا الى القاضى وترفق فى الجواب وأظهر الامتثال ، وطلب من القاضى أن يحضر اليه مع العلماء فى اليوم التالى ، ليتشاور معهم فى الأمر ، لـــكن السيد عمر مكرم ، فطن الى خطة الغـــدر التى دبرها له خورشيد ، فاتفق مع العلماء على رفض الذهاب اليه ، وصـــدقت نبوءتهم فقد حضر اليهم بعد ذلك من أخبرهم أن الوالى كان قـــد أعد كمينا لاغتيالهم فى طريق القلعة ويؤكد فولابل (المؤرخ الفرنسى) أن السيد عمر مكرم ، كان هو المقصود بهذه المؤامرة لأنه كان زعيم الحركة [١١] .

---

(١٠) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٣٣٥ .

(١١) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم ، ص ١٠٥ .

ويذكر الجبرتى أن الخطة كانت مدبرة للاغتيال الجماعى لزعماء الشعب ، ولم يذكر أنهـا كانت مدبرة لعمر مكرم وحده ، وأن الوالى كان سينسب ذلك العمل الاجرامى الى أوباش العساكر « اذا عوتب فى ذلك » (١٢) وعلى كل حال فقد كانت روح الغدر بادية على كل تصرفات خورشيد ، وخاصـة بعدما اعتصم بالقلعـة ، بيد أن الزعمـاء فوتوا عليه حيلته ، وزادت الجفوة بينهم ، ولمـا علم خورشيد برفض الزعماء قبول دعوته حنق عليهم ، واعتبر امتنـاعهم عن الذهاب اليـه تمردا وعصيانا ، ثم أعلن رفضه لمطالبهم التى قرروها .

العلماء ينادون بمحمد على واليا على مصر (١٣ من صفر ١٢٢٠ هـ) :

عندما رفض خورشيد مطالب الشعب يئس الزعماء من أى اصلاح يأتى على يديه ، فتقدموا الى الأمام خطوة أكثر جـرأة مما قرروه من قبل ، وهى المنـاداة بخلع خورشيد وتولية محمـد على مكانه ، ففى صبيحة (١٣ صفر) توجهوا الى ساحة المحكمة الـكبرى ببيت القاضى ليعلنوا بساحتها قرارهم بعزله ، واحتشدت الجماهير كعادتهم يؤيدون زعماءهم ، وهنـاك اتفقت كلمة العلماء ، وأجمعوا رأيهم على خلعـه وتعيين محمد على .

وانتقل العلماء من بيت القاضى وتوجهوا الى دار (محمد على) بالأزبكية ، وأبلغوه قرارهم الذى اتفقوا عليه وقالوا له : « انا لانريد هذا البـاشا حاكما علينـا ولابد من عزله من الولاية » فسألهم عمن يريدونه على الولاية بدلا منه قالوا له : « لا نرضى الا بك ، وتـكون واليا علينا بشروطنا لمـا نتوسمه فيك من العـدالة والخـير » فأظهر الامتناع أولا ثم رضى « وأحضروا له كركا (١٣) عليه قفطان ، وقام اليه

---

(١٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٠ .

(١٣) الـكرك — جبـة عليها فرو ، وكان الـكرك والقفطـان من شارات الحكم فى ذلك الوقت .

السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له وذلك وقت العصر » (١٤) . ونادوا بذلك فى جميع أنحاء المدينة .

ويذكر قنصل انجلترا المستر مسيت Missett فى رسالة الى حكومته مؤرخة فى ١٨ من يونية « أن المشايخ وأعيان القاهرة صمموا قبل رفع محمد على الى منصب الولاية على التصريح الذى يتضمن الشروط التى سبق ذكرها » (١٥) .

وهى الشروط التى رفضها خورشيد ، وكان محمد على متأكدا من أن خورشيد لن يقبلها لاستحالة تنفيذها ، لعدم وجود المال الذى يساعده على دفع مرتبات الجند ، وبالتالى امتثالهم بترك القاهرة .

والحق أن هذا اليوم كان يوما مشهودا فى تاريخ مصر ، ولعل خير تعليق على هذا الانقلاب ماكتبه الأستاذ (عبد الرحمن الرافعى) حيث قال فى وصف هذا اليوم : « وهو من الأيام التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركة القومية ، ففيه تم انقلاب عظيم فى نظام الحكم ، فيه وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها فيه أعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها ، فيه تجلت سلطة الأمة ممثلة فى أشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها ... وتلك أول مرة فى تاريخ مصر الحديث يعزل الوالى ويختار بدله بقوة الشعب وارادته ، لقد كان الولاة يعزلون بقوة الجند ، وارادة رؤسائهم من المماليك ، لكن هذه المرة كان الانقلاب شعبيا » (١٦) .

وانتصرت ارادة الفلاحين — كما كان يسميهم الأتراك — وحققوا ماكان يجيش فى صدورهم طوال سنوات الاضطراب السياسى التى أعقبت

---

(١٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٠ .

(١٥) د. محمد فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن التاسع عشر — ج ١ ص ٣١٥ .

(١٦) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٣٣٧ .

خروج الفرنسيين فكم تمنوا زوال الحاكم العثمانى الظالم ، لأن نفوسهم قد امتلأت حقدا عليه بسبب جهله واستبداده وجشعه على الرغم من حياة الضنك التى عاناها الشعب طوال تلك السنين العجاف .

وكانت هذه الحركة ذات أثر بالغ فى تاريخ مصر الحديث ، فقد أخذت جذور محمد على تضرب فى أرض مصر هو وخلفاؤه من بعده ، فحكم مصر حكما وراثيا ، وانتهى بذلك النظام الذى وضعه سليم الأول لحكم البلاد عقب فتحه لها .

كما كانت تلك الحركة مقرونة باشتراط الشعب على الحاكم الجديد بأن يرجع اليهم فى شئون الدولة ، فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الدستورى فى البلاد [١٧] ، غير أنهم لم يقيدوها بقيود وضوابط تؤمن لهم طريق المستقبل ، مما جعل محمد على يستبد بالأمر فيما بعد .

العدل مطلب أساسى للمصريين :

يلاحظ على هذه الثورة ، وغيرها من الحركات التى تمت فى مصر ابان العصر العثمانى ، أن مطالب الزعماء كانت تتلخص فى مطالبة الحاكم أن يسير فيهم بالعدل . وفى ذلك يقول الجبرتى : « تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل واقامة الأحكام والشرائع والاقلاع عن الظلم ، وفى المحضر الذى تولى تحريره الشيخ المهدى ينص على أن : « للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ، ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ، ولهم أن يعزلوهم اذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة » [١٨] .

---

(١٧) نفس المرجع السابق .

(١٨) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٣٨ نقلا عن فولابل .

فالعدل مطلب ملح دائما للشعب المصرى من حكامه ، وليس لهم مطلب يفوقه ، فهم لا يطمحون الى طلب الحرية مثلا على غرار ماتفعل الشعوب الأوربيـــة فى ثوراتهـــا ، كما حدث فى انجلترا عقب الثورة التى قام بهـــا الانجليز فى سنة ١٦٨٨ م (١١٠٠ هـ) ، وكما حـــدث فى الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) ، حيث كانت الحرية مطلبـــا أساسيا لـــكلا الشعبين • ويبدو أن ذلك يرجع الى طبيعة البيئة المصرية الزراعية المستقرة التى ترى أن العدل بين أفرادها يكفى لسعادتهـــا ، بينما طبيعـــة البيئـــة الأوروبية رعوية متحررة تبغى الحرية فى تنقلها فالحرية مطلب أساسى فى حياتها •

ومن ناحية أهم ، فقد كان زعماء الثورة من ذوى الثقافة الاسلامية الأصيلة ، فهم حملة الشريعة وعلماء الدين ، والعدالة عند فقهاء المسلمين شرط أساسى لاستحقاق الامامة فى أية صـــورة من صورها ، واعتبرها الماوردى من الشروط الأساسية فى الامامة (١٩) وقـــد أفاض الجبرتى فى مقدمة كتابه عجائب الآثار فى شرح نظريته فى الحاكم العادل وقال فى هـــذا الصدد ، ان الله « ركز فى نفوسهم (أى فى نفوس البشر) الظلم والعـــدل ثم مست الحاجة بينهم الى ســـائس عادل وملك عالم يضع بينهم ميزانا للعدالة » (٢٠) وكان يرى أن العلماء فى باب العدل أرقى منزلة من الملوك وولاة الأمور ، وقـــد قدمهم عليهم عنـــدما قسم أصناف العدل عند الخلائق الى خمسة أصـــناف ، فعد العلماء فى ثانى درجة بعد الأنبيـــاء ، لأنهم ورثة الأنبيـــاء ، ولعل فى هـــذا التقسيم مايفسر لنـــا زهد عمر مكرم والعلماء فى ولاية مصر ، عندما هيمنوا على الأمور فى مصر ، ثم اختاروا محمد على لها •

وقـــد غضب الجبرتى على المتصـــدرين من مشايخ الأزهر الذين نعتهم « بمشايخ الوقت » لأنهم اختاروا محمد على واليا على مصر لأن

---

(١٩) الماوردى — الأحكام السلطانية ، ص ٤ .
(٢٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ١ ص ٧ .

محمد على لم يكن مستوفيا فى نظره شروط الحاكم العادل ، التى كان فى مقدمتها العلم والعدل ، ومحمد على لم يكن عالما ولا عادلا فى نظره •

وقال فى العدل : « ان الله تعالى ما خلق شيئا أحلى مذاقا من العدل ولا أروح الى القلوب من الانصاف ، ولا أمر من الجور ، ولا أشنع من الظلم »[(٢١)] •

وثمة ملاحظة أخرى على هذه الثورة ، وهى أن زعماء الشعب لم يطلبوا فى ثورتهم هذه الاستقلال عن دولة الخلافة العثمانية ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن جيل الثورة ينتمى بفكره الى الفكر الاسلامى الصحيح الذى يؤمن بالمجتمع الاسلامى الموحد الذى يحكمه حاكم اسلامى واحد هو الخليفة أو أمير المؤمنين ، وأما فكرة الاستقلال عن الجماعة الاسلامية بسبب اللغة أو الجنس فهى حركة انفصالية يمقتها الفكر الاسلامى ويصمها بالشعوبية ، وما زال هذا الفكر بأصالته الاسلامية يعيش فى الأزهر الى الآن ، وظهر واضحا فى بداية القرن العشرين فى حركة الجامعة الاسلامية ، وكثر أنصاره فى مصر لوجود الأزهر بها •

مقارنة بين عريضة العلماء ووثيقة قانون الحقوق :

امتدح كثير من المؤرخين عريضة العلماء التى تضمنت شروطهم ووصفها بعضهم بأنها وثيقة الحقوق Bill des droits وأنها تشبه وثيقة قانون الحقوق ، Bill of Rights الذى أقره البرلمان الانجليزى سنة ١٦٨٩ م (١١٠١ هـ) عقب الثورة التى قام بها الشعب الانجليزى سنة ١٦٨٨ م (١١٠٠ هـ) ، وأسفرت عن انهاء حكم أسرة ستيوارت فى انجلترا ، وتعتبر هذه الوثيقة من القواعد التى قامت

---

(٢١) المصدر السابق جـ ١ ص ٩ .

عليها حرية الشـــعب الانجليزى وأعلن فيهـــا أن حق الملك فى العرش مستمد من ارادة الشعب الممثل فى البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التـــاج وفقا لمصلحة البــلاد ، وأنه لايجوز للملك أن يفرض الضرائب بدون موافقة البرلمان (٢٢) .

والوثيقة التى كانت تحمل توقيع العلمـــاء ، وقدموها لخورشـــيد فرفضها ثم لمحمد على فقبلها تشبه قانون الحقوق فهى قـــد أنهت حكم أحمد خورشيد باشا وكان آخر وال عثمانى يحكم مصر وفق النظام الذى أرسى قواعده السلطان سليم الأول عقب الغزو العسكرى العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) ، وأتت بمحمد على واليا على مصر ، والذى استطاع أن ينشىء فيها حكما وراثيا يتوارثه بنوه وحفدته ، كما أنهـــا تتضمن نصا بعدم فرض أية ضريبـــة دون الرجوع الى ممثلى الشعب وهم العلماء والأعيان .

ويذكر الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الشناوى أن « الفارق بين هاتين الوثيقتين محصور فى مجال التطبيق العملى ، فملوك انجلترا احترموا وثيقة قانون الحقوق والتزموا بها منهاجا ومسلكا فى تصرفاتهم ، بينما رفضها خورشيد ثم قبلها محمد على ولـــكنه لم يعمل بها أكثر من سنتين ثم عبث بها » (٢٣) .

خورشيد يتحدى سلطان الشعب :

عندما ألبس العلماء محمد على خلعة الولاية ، أبلغ العلماء قراراتهم الى خورشيد بالقلعة ، ولـــكنه أعلن تصميمه على التمسك بمنصبه قائلا: « انى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ، ولا أنزل من

---

(٢٢) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — مرجع سبق ذكره . ص ١٠٩ .

(٢٣) المرجع السابق ، ص ص ١٠٩ — ١١٠ .

القلعة الا بأمر من السلطنة » [٢٤] وصح عزم خورشيد على المقاومة معتمدا على مالديه من قوات بالقلعة ، ورفض مطالب زعماء الشعب ، وأعلن ازدراءه لهم عندما ذكر بأنه لايعزل بأمر الفلاحين .

وازاء هذا التحدى السافر لارادة الشعب استنهض العلماء همم الأهالى وجندوهم لطرد خورشيد من القلعة بالقوة ، وتم حصار القلعة واستمر النضال شهرين وكان زعيم هذا النضال هو السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، فقد نظم كفاح الشعب فى هذه الفترة الحرجة من تاريخه . فأقيمت المتاريس عند منافذ الطرق الكبرى المؤدية الى القاهرة ، ونظم الزعماء عملية السهر فى الأذقة والدروب لحماية المدينة بالمناوبة وحمل الشعب شتى أنواع الأسلحة كالهراوى الغليظة (النبابيت) والبنادق والسيوف والخناجر ، ووقف الشعب أثناء ذلك فى صفوف على هيئة الجنود ، ونظم الزعماء تسلسلا للقيادة فكان هناك النقباء والعرفاء الذين يأتمرون بأمر رؤسائهم ويطيعونهم وينفذون ما يلقى اليهم من أوامر القيادة العليا — وكان على رأس هؤلاء صغار المشايخ المتحمسين للثورة ، كما كان طلبة الأزهر من بين هؤلاء المجندين وانخرط فى هذا الجمع التجار والصناع والمحترفون وتشجع الأهالى كلهم للثورة يدفعهم أمل يضطرم فى نفوسهم فى رفع الظلم الذى أثقل به كاهلهم الحاكم العثمانى الغشوم ، وهفت نفوسهم للعدالة التى قدسوها فى الحاكم من قديم الزمان وحرمهم العثمانيون منها ، ولاعجب فقد بلغ من تحمسهم للثورة « أن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا » [٢٥] وبلغ عدد هؤلاء

---

(٢٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٠ ، وانظر أيضا ادوار جوان — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٥ .

(٢٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٢ .

الثوار أربعين ألفا حاملين الأسلحة والعصى كما ذكر الجبرتى وغيره من المراقبين الأجانب [٢٦] .

أما دور محمد على وجنوده فى هــذه الحركة فكان فى حصــار القلعــة من ناحيــة الصحراء (شرقى القلعة) والرميــلة والحطــابة وغيرها من الطرق النــافذة الى الصحراء ، وانضم الى محمد على فى هذا الحصار بعض جنود الجيش العثمانى وبعض قبائل العرب ، وقد كان جنود محمد على مصدر شر للشعب نظرا لتقلبهم لأنه ماكاد يمضى على ذلك الحصار أسبوعان حتى عاد جنود محمد على الى عهدهم السابق من التذمر والتقلب ، فطالبوه بمرتباتهم ، وثاروا وخرجوا عن الطاعة ، وأخذوا يهاجمون الثوار المصريين المرابطين على المتاريس ، لــكن السيد عمر مكرم لم يتردد فى اصــدار الأوامــر الى الثوار أن يدافعــوا عن أنفسهم اذا هاجمهم أحد من العسكر ومر السيد عمر مكرم « وأمامه المنادى يقول : حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم واذا تعرض لهم عسكرى بأذية قابلوه بمثلها » [٢٧] .

وأصبحت القلعــة منذ اليوم الســادس من ربيع الأول ١٢٢٠ هـ (٤ من يونية ١٨٠٥ م) وكل من حولهــا من المحــاصرين من الثوار المصريين ، واستمر الحصار بعد ذلك على أيدى المصريين وحدهم .

ويظهر أن ماحدث كان تواطؤا من جنود محمــد على مع زملائهم بالقلعــة لأن الجبرتى يذكر أنه عندما تم حصــار القلعــة لأول مرة وقف جنود خورشيد فى مواجهة جنود محمد على « على الأسوار يبكت بعضهم بعضا بالكلام » يعنى كانوا يلومونهم على موقفهم مع المصريين ومن ثم كان الأرناءود أتبــاع محمد على غير جادين فى حصار القلعة،

---

(٢٦) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٣٣٩
(٢٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٢٥٣ .

فعندما أراد من بالقلعة فك الحصار ليلة الجمعة (٢٤ من صفر ١٢٢٠هـ) و « نزل بين المغرب والعشاء عدة من العسكر كبيرة وفتحوا باب القلعة بالرميلة وأرادوا الهجوم على المتاريس » ردهم الأهالى بالرمى عليهم وقام الثوار بهجوم مضاد رد المهاجمين على أعقـابهم الى القلعـة مرة أخرى • فى هـذا الهجوم ظهر طواطؤ جنود محمد على مع زملائهم وتبين منهم عدم الجـدية فى حصـار القلعـة لذلك يقول الجبرتى بعد صد الهجوم •

« كل ذلك وحسن باشا طاهر ومن معه من الأرناءود يراعون من بالقلعة من أجناسهم لأن غالبهم منهم » (٢٨) •

وبسبب هذه المحاباة نزل أنصـار خورشيد من القلعة يوم الجمعة ٢٤ من صفر وعلى رأسهم (عمر بك) وأشاعوا بين الناس أن الباشـا سوف ينزل غدا (السبت) وأمروا الثوار برفع المتاريس وتسببت هذه الاشاعات فى تفرق الثوار وترك المتاريس ، ونزل عمر بك هـذا يناور العلماء ويحاورهم فى المفاوضات التى سوف نتحدث عنها فيما يلى ، وما كانت فى الحقيقة الا تمويها وخداعا من أجل الحصول على الزاد والماء والذخيرة مدة ثلاثة أيام •

وتسبب هـذا التواطؤ فى أن أمر القتـال اختلط على أهل البلاد « واشتبه أمرها على أهل البلد ، فلا يعرف كلا الفريقين الصاحب من العدو فتـارة يتشابك العسكر مع أهل البلد وكذلك أهـل البلد معهم وتارة يتشابك فرقة منهم مع الـكائنين بالقلعـة وتارة الفريقان (جنود خورشيد وجنود محمد على) يساعد بعضهم بعضا ••• ومنهم من يغرى العسكر على أولاد البلد ويقـولون لهم بلسـانهم وبالعـربى اضربوا الفلاحين ونحو ذلك » (٢٩) •

---

(٢٨) المصدر السابق — ج ٣ ص ٣٥١ .
(٢٩) المصدر السابق — ج ٣ صص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

وبالجملة فقد كان جنود محمد على مصدر شر للأهالى وعامل بلبلة ويودون أن تفشل ثورة الأهالى ، وكان يرهبهم موقف الأهالى بالأسلحة، ومن ثم بدأ محمد على نفسه « يميل بعد المناداة به واليا الى أخذ خورشيد بالحسنى .. لأنه رأى فى ذلك مصدر قلق على سلطته الجديدة ، ورغب العلماء فى مفاوضة خورشيد بطريقة سلمية ترضى الفريقين » (٣٠) .

والواقع أن كل هذه الأدلة السابقة التى سقناها للدلالة على التواطؤ بين جنود محمد على وجنود خورشيد ، تقف دليلا على أن هذه الثورة الشعبية التى قادها العلماء كانت عملا وطنيا فى لحمته وسداه، ولم يكن هناك من توجيه أجنبى أو ضغط على العلماء بالقيام بها . بل على العكس ان أكبر أعوان خورشيد باشا وأخص مستشاريه وهما عمر بك وصالح قوشى كانا من الرؤساء الأرناءود يعملان بكل الوسائل لمناصرته وضم الأرناءود الى جانبه .

والذى جعل هذه الخطط تفشل هو يقظة زعماء الشعب وعلى الأخص السيد عمر مكرم ، فلقد كان سريع الخاطر يتصرف بسرعة فائقة ، واليه يرجع الفضل فى كثير من المواقف التى كانت سببا فى نجاح الثورة ، فهو الذى أشار الى الاجتماع فى دار المحكمة الكبرى لاعلان خلع خورشيد باشا واختيار محمد على باشا بدله ، وهو الذى أشار الى محاصرة القلعة بعد أن أبى ، خورشيد النزول منها ، وعندما جاء وجد أن الجنود الأرناءود أتباع محمد على يريدون ارهاب الشعب وتفريقه وصرفه عن الحصار لم يتردد فى أن يعلن للشعب أن يأخذ حذره منهم واذا تعرض لهم أحد منهم بالقتال قابلوه بمثله ، وعندما وجد أنصار خورشيد يلجأون الى طريقة المراوغة من أجل تخفيف الحصار عليه بالقلعة أصدر أوامره بمنع الصعود الى القلعة والنزول منها ،

---

(٣٠) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٣٣٩ .

وعندما طلب منه محمد على أن يفاوض أنصار خورشيد قبل مبدأ المفاوضة ولكن فى يقظة واعية •

المفاوضات مع خورشيد :

رفض خورشيد النزول على ارادة الشعب واعتصم بالقلعة ولجأ فى نفس الوقت الى أسلوب الخديعة وطلب مفاوضة العلماء ريثما تتهيأ له فرصة فك الحصار عن القلعة ، خاصة وأنه أرسل يستدعى جنود الدلاة وقد وقعت هذه الرسالة فى يد السيد عمر مكرم وفيها يطلب منهم « أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة واقامة لناموسها وناموس الدين » ويذكر لهم فيها حرج موقفه لأن « الفلاحين محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشراب » [٣١] وكان الدلاة قد ذهبوا الى نواحى القليوبية ينهبون القرى ويفرضون عليها الكلف ويقتلون الأبرياء من الفلاحين • كما أرسل خورشيد يستدعى سلحداره من الصعيد بجيشه لنجدته •

والواقع أن محمد على نصح العلماء بمفاوضة خورشيد وأخذه بالحسنى لأن محمد على انتابه القلق عندما سمع أن المماليك فى هذه الفترة الحرجة قد اقتربوا من القاهرة وخشى تدخلهم فى النزاع ، لأنهم لو فطنوا الى ذلك ودخلوا القاهرة لقضوا على أطماع محمد على ونسفوا مخططه لأنه لن يتمكن من خداعهم هذه المرة ، ولذلك عندما ظهر محمد بك الألفى من الاختفاء وجمع أتباعه بالجيزة وأرسل رسالة الى المشايخ ومحمد على يطلب له جهة يستقر فيها هو وأتباعه ، « فكتبوا له بأن يختار له جهة يرتاح فيها حتى تسكن الفتنة القائمة بمصر » كان هذا هو السبب الذى من أجله أشار (محمد على) على العلماء أن يقبلوا مبدأ المفاوضة •

---

(٣١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٣ •

وثمة سبب آخر يرجع الى أن محمد على لم ينظر الى هذه الثورة بعين الارتيـــاح ، وقـــد أقلقه كثيرا أن يرى حماسة الشعب تزداد لهيبا والثورة تزداد اشتعالا يوما بعد يوم ، وكان فى هـــذا بطبيعـــة الحال مصدر خطر على سلطته الجديدة .

كان العلماء قـــد حرروا محضرا يوم ١٣ من صفر ١٢٢٠ هـ (١٣ من مايو ١٨٠٥ م) حينما اجتمعوا بدار الحكمة الـــكبرى بين القصرين وأرسلوا الى خورشـــيد ولم يشر الى هذا المحضر الجبرتى بينما ذكره فولابل ، ويقول ان الذى تولى صـــياغته هو الشـــيخ محمد المهـــدى واقتبس منه العبـــارة الآتية وقال عنها انهـــا جـــديرة بالتفات النظر اليها وهى : « ان للشعوب طبقا لمـــا جرى به العرف قديما ولمـــا تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم اذا انحرفوا عن سنن العـــدل وســـاروا بالظلم لأن الحكام الظـــالمين خارجون على الشريعة » (٣٢) وعلى الرغم من ارسال هذا السند الشرعى الذى أرسله العلماء الى خورشيد فقد أرسل خورشيد مع عمر بك وصالح قوش (٣٣) يطلب سندا شرعيا آخر لعزله ، فاجتمع الزعماء يوم الخميس ١٦ من صفر (١٦ من مايو) ببيت القاضى وحرروا محضرا آخر على شكل سؤال وجواب على نحو الفتاوى التى كانت تصدر بخلع السلاطين فى الآستانة « وكتب عليـــه المفتون وأرســـلوه اليهم فلم يتعقلوا ذلك واستمروا على خلافهم وعنادهم » ويذكر الجبرتى أن هذه الاعلانات الشرعية كان لها أثر كبير فى تفريق بعض الجنود عنه وخاصة من طائفة الانكشارية ولم يبق معـــه الا طوائف الأرناءود المغرضـــين لصـــالح أغاقوش وعمر أغا .

---

(٣٢) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — جـ ٢ ص ٣٣٨ نقلا عن فولابل .

(٣٣) هما من خاصة مستشارى خورشيد وكانا من ضباط الأرناءود .

ولم يغب عن ذهن العلماء أن يرسلوا رسولا الى الآستانة لتأييـــد قضـــيتهم ضـــد خورشيد باشـــا ، وتبرير عزله وتوليـــة محمـــد على مكانه (٣٤) .

ولجأ خورشيد الى القاضى يطلب منه مرتبـــات الجنود المتأخرة ويطلب مصاريف له الى حين وصول « جواب من الدولتين وقال : ليس فى اقامتنا بالقلعـــة ضر أو خراب على الرعية » فأجابه القاضى بأن هذه المرتبات « لازمة عليكم من ايراد المـــدة التى قبضـــتموها فى المـــدة السابقة » وأن « اقامتكم بالقلعـــة عين الضرر فانه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة وطالبون نزولـــكم أو محاربتكم فلا يمكننا دفع قيـــام هذا الجمهور وهذا آخر المراســـلات بيننـــا وبينكم والسلام » (٣٥) .

وكان واضحا من رسالة القاضى الى خورشيد أن العلماء يصرون على محاسبته على ماقبضه من ضرائب المـــدة السابقة بينما يصر هو على عـــدم محاسبته فى ذلك . وتبلورت مطالب خورشيد فى النهاية كمـــا يقول فولابل « بأنه لا يسلم القلعـــة كما صرح بذلك من قبـــل الا اذا جاءه أمر من السلطان ، على أنه مع ذلك يكف عن ضرب المدينة اذا تعهد له الشيوخ بأنهم لا يتمسكون بمحاسبته على الأموال التى دخلت خزانته وأن يمكنوه من تزويد القلعـــة بالمؤونة اللازمة لجنود الحامية » ويقول فولابل « ان الشيوخ قبلوا الشرط الثانى أما الشرط الأول فكان محمد على ميالا الى قبوله ، لـــكن زعماء الثورة رفضـــوه بتاتا وأصروا على محاسبة خورشيد على الضرائب التى جباها » (٣٦) .

---

(٣٤) د. محمـــد فؤاد شـــكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ — جـ ١ ص ٣١٧ .

(٣٥) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ صص ٣٥٠ — ٣٥١ .

(٣٦) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — جـ٢ صص ٣٣٩—٣٤٠ .

وبذلك يظهر لنــا أن محمد على خلال هذه المفاوضات كان لايرضى بمبدأ المحاسبة المالية الذى قبل الولاية على شريطتها ولو فطن الزعماء الى ذلك وتعرفوا على شخصية محمد على وسـبروا غورها منـذ فجر تاريخها بالسلطة لأمكنهم حرمانه من الولاية قبل أن يستبد بها كما حدث فيما بعد .

ولعل أهم جولة فى المفاوضـات هى تلك الجولة التى قادها عمر مكرم فى مقابلتـه مع عمر بك الأرناءودى مستشار خورشيد يوم ٢٥ من صفر (٢٥ من مايو) نظرا لمـا تقرر أثناءها من مبادىء على جانب كبير من الأهمية فى تاريخ الفكر السـياسى فى مصر ، من حيث أنهـا أفرغت النتـائج الواقعية لحادث خلع خورشيد والمنـاداة بمحمد على فى « نظرية سياسية » محدودة المعالم هى حق الشعب فى عزل حكامه اذا أساءوا الحكم أو بعبـارة أخرى ، الأخذ بمبدأ استقرار السيادة العليا فى الشعب نفسه .

وتفصيل هذه المقابلة الهامة أن خورشيد أرسل مستشاره عمر بك (الألبانى) لمفاوضـة العلماء واختار لمـكان المفاوضة منزلا محايدا هو منزل حسن باشا الأرناءودى (٣٧) وهو زميل محمد على ولـكنه ادعى الحيـاد فى هذا النزاع القـائم بين زعماء الشعب وخورشيد . وكانت هنـاك بعض الشائعات عن وجود تفاهم سرى بينه وبين خورشيد .

وتوجه السيد عمر مكرم الى منزل حسن باشا هذا وهنـاك دار بينه وبين عمر بك مندوب خورشيد النقاش كما لخصه الجبرتى :

عمر بك الألبانى :

كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقـد قال الله تعـالى :

---

(٣٧) حسن باشا اخو طاهر باشـا الأرناءودى الذى تزعم الأرناءود وطرد خسرو باشا ونصب نفسه واليـا وقتله الانكشارية بعد يوم وليـلة من اغتصابه للحكم .

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولوا الأمر منكم » .

عمر مكرم :

أولوا الأمر هم العلماء حملة الشريعة والسلطان العادل ، وهـذا رجل ظالم ، وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة وهـذا شيء من زمان حتى الخليفـة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه .

عمر بك الألبانى :

وكيف تحصرونا ، وتمنعون عنا المـاء والمأكل ، وتقاتلونا ؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟

عمر مكرم :

نعم ، قـد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالـكم ومحاربتـكم لأنكم عصاة .

عمر الألبانى : ان القاضى هذا كافر .

عمر مكرم : اذا كان قاضيكم كافر فكيف بكم ؟ وحاشـاه الله من ذلك ، انه رجل شرعى ولا يميل عن الحق [٣٨] .

ولقد حاول الشيخ أبو الأنوار السادات اقناع مندوب خورشيد بعد أن « خاطبه بمثل ذلك فلم يتحول عن الخـلاف والعنـاد » [٣٩] وانفض المجلس على ذلك .

ويلاحظ على هذا الحوار أن مندوب خورشيد (عمر بك) حاول اقناع عمر مكرم بأن الزعماء مخطئون فى محاولة عزل من عينه السلطان لأن مسألة عزله أمر يتعلق بالسلطان ولا دخل للرعية فيه ، وأن هـذه المحاولة من شأنها الغـاء قانون الدولة الأساسى الذى قامت عليه الدولة

---

(٣٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٢ .

العثمانية ، كما أنها تتعارض مع مبادىء الشرع التى تقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٤٠) ولـكن السيد عمر مكرم المثقف بالثقافة الاسلامية صحح له هـذا الفهم الخطأ للآية الـكريمة، وقال له : ان المقصود بأولى الأمر فى الآية الـكريمة هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، ومن ثم فمن حق الشعب أن يعزله كما جرت بذلك العادة .

وتجلت شجاعة عمر مكرم حين قرر بصريح العبـارة وجوب عزل السلطان ذاته اذا حاد عن العدل ، وبذلك بدأت تبرز قضية حق الشعب الى الوجود لأول مرة .

ويذكر بعض الباحثين أن هذه الأفـكار التى نطق بها عمر مكرم انما هى من تأثير الفرنسيين وأن عمر مكرم « قبس الـكثير من آراء الفرنسيين ، وأفاد منها ، فليس فى موروث الحكمة الاسلامية السياسية مايؤيد السيد عمر فى موقفه ، ولم يحدث أبدا فى أية دولة اسلامية أن خوطب الحكام بهـذه اللهجة الصـادقة الواضـحة الجديرة بالاعجاب والنظر ، ولم يوجد بين المسلمين من يصـارح الخليفة بحق الرعية فى عزله اذا استبد أو أساء . لم يفعل ذلك أحـد فى ظل أعتى الحكام ، وفى وجود أعظم العلماء ، فعمر (مكرم) يعبر هنـا عن شعور جديد ورأى جديد » (٤١) .

أما أن هذا الموقف يستحق الاعجاب والنظر فهذا أمر لا مفر منه، وأما كونه يرجع الى تأثير فرنسى فذلك ما لا يقبل ، لأن تاريخ الأمة الاسلامية ملىء بالمواقف الجريئـة لعلماء وقفوا فى وجه الطغيـان ،

---

(٣٩) المرجع السابق — نفس الصفحة .

(٤٠) سورة البقرة — الآية ١٢٤ .

(٤١) حسين مؤنس — الشرق الاسلامى فى العصر الحديث — الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٣٨ — ص ١٣٨ .

أمثال العز بن عبد السلام سلطان العلماء فى العصور الوسطى والشيخ شهاب الدين بن عبد الحق فى مطلع العصور الحديثة .

فقد أبى العز بن عبد السلام أن يبايع الظاهر بيبرس بعد مقتل الملك المظفر قطز ، وقال له : « أنا أعرف أنك مملوك البندقدارى ولم يثبت لدى عتقك للآن فكيف أبايعك ؟ »و امتنع العز عن مبايعة الظاهر بيبرس وامتنع الناس معه عن البيعة فاستحضر الظاهر شهودا يعترفون بخروجه عن ملك سيده ، واسترداد حريته ، وبعد أن ثبت ذلك لدى العز بن عبد السلام بايع الظاهر . وبايع خلفه الناس (٤٢) .

وقد وقف الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق فى وجه داود باشا والى مصر (٩٤٥ — ٩٥٦ هـ) وقال له أنت لا تصلح للحكم لأنك تحت الرق ومادمت تحت الرق فالأحكام باطلة ، فهم داود باشا باعدامه فمنعه الجند ، وأبلغ الأمر للسلطنة فأرسلت ورقة عتقه له مع الشكر لشيخ الاسلام الذى لم يكن له مرتبات فى دفاتر الحكومة يومئذ ، مع التنبيه على الوالى بحسن السير مع الرعية والاستعانة بالعلماء فى الحكم حسب الشريعة الاسلامية (٤٣) .

وكذلك موقف الشيخ سليمان المنصورى فى الديوان العثمانى سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) عندما اعترض على مرسوم سلطانى بابطال بعض المرتبات فى مصر وقال هذا مخالف للشريعة « ولا يسلم للامام فى فعل مايخالف الشرع ، وهذا ماذكرناه فى الفصل الأول ، ولم تكن أوامر السلطان ترهب علماء الأزهر ، ولم تمنعهم من الاحتجاج والاعتراض (٤٤) .

---

(٤٢) محمد رجب البيومى — علماء فى وجه الطغيان — الدار القومية — القاهرة — لم تذكر سنة الطبع ص ص ٦٧ — ٦٨ .

(٤٣) امين سامى باشا — تقويم النيل — مرجع سبق ذكره — ص١٩ .

(٤٤) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ص ١٥٣ .

ويعلق الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوى على أقوال عمر مكرم التى واجه بهـا مناقشة عمر بك فيقول : « ولا شك أن الزعيم وهو يدلى بهـذا التصريح الخطير ، كان يستند الى ركن ركين هو الحكم الالهى الأزلى الذى ورد فى القرآن الكريم الكتاب الخالد » (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن • قال : انى جاعلك للناس اماما • قال ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين) ، فالامامة والقيادة والرياسة ممنوعة على الظالمين الذين يتجاوزون حدود الله وينحرفون عن تعاليمه ويضيف قائلا : « وما كان لمثل عمر مكرم وهو من تعرف على حظ موفور من الثقافة الدينيـة العميقة تلقاها فى رحاب الأزهر أن يغيب عن ذهنه المتفتح ما استقر عليه رأى فقهاء المسلمين فى شروط الامامة » (٤٥) •

والجبرتى وهو الذى يعبر عن أفـكار عصره جعل العدالة شرطا أساسيا فى الحاكم ، ثم استدل بأقوال الأحنف بن قيس على أن الرعية لا يصلحها الا العدل فمن جار على الرعية بطلت رياسته (٤٦) •

انتهت هذه الجولة من المفاوضـات ، وزاد يقين الشـعب وزادت حماستهم للقتـال والدفاع عن حقوقهم ، وعاد (عمر بك الألبانى) الى القلعة بعد جولته فى مفاوضات الزعماء ، واستأنف المصريون المقـاومة والحصار ، وكان عمر مكرم هو القائم على تنظيم حركة المقاومة ،ويتولى تنظيم الفرق والجماعات ، وشدد الحصـار بالقلعة بعد أن كان قد غتر فى مدة المفاوضات •

ويذكر الجبرتى أن أنصار خورشيد قـد قاموا بهذه المفاوضـات من باب الخديعـة لـكى يتم لهم تزويد القلعـة بالزاد والماء وغير ذلك من حاجات الجند ، ولـكن عمر مكرم أخذ فى أسباب الاحاطة بالقلعة « وجمع الفعلة والعربجية وشرعوا فى طلوع طائفة من العسكر والعرب

---

(٤٥) عمر مكرم — مرجع سبق ذكره — ص ١١٨ •

(٤٦) عجائب الآثار — ج ١ ص ٧ ، ص ١١ •

وغيرهم الى الجبل وأصعدوا مدافعهم ورتبوا عدة جمال لنقل احتياجاتهم من الخبز والماء ، وأخذت هذه الجمال تطلع وتنزل فى كل يوم مرتين ، وطلع اليهم الكثير من باعة الخبز والكعك والقهاوى وغير ذلك » (٤٧) .

وهكذا استمر الثوار فى حصارهم وداوموا على السهر والطواف بالليل مسلحين بالبنـــادق والنبابيت ، والف الناس بذلك حياة النضال والثورة ، وأصبحت عادية لديهم .

وفقد خورشيد أمله فى معاونة الجنود الدلاة له ، عنـــدما حضر كبارهم الى القاهرة وقدموا ولاءهم لمحمد على الذى رحب بهم « وخلع عليهم خلعا وكســاوى » (٤٨) فى ١١ من ربيع الأول (٩ من يونيـــة) ووجههم الى محاربة الألفى وأتباعه .

تدعيم الحصـــار :

عندما وجد خورشيد أن حصار القلعـــة أمر لا خطورة منه مادامت القلعة تزود فى كل وقت وحين باحتياجاتها بواسطة أنصـــاره من كبار عساكر الأرناءود ، وفى ضـــوء هذا الشعور بعدم خطورة الحصـــار ، تمادى خورشيد فى العنـــاد ورفض مطالب الشعب ريثما تتهيأ الفرصة للانتصـــار .

أدرك عمر مكرم خطورة هذا الأمر وخشى أن يطول حصار القلعة بدون جدوى ولا فائدة ، الأمر الذى سوف ينتج عنه انصراف الناس عنه الى أعمالهم ، وخاصـــة أن الأزهر كان مغلقا الى هـــذا التـــاريخ ١٤ من ربيع الأول (١٢ من يونية ١٨٠٥ م) ، وكان علماء الأزهر حرصا منهم على استمرار رسالتهم الأصلية ، وهى متابعة القاء دروس العلم

---

(٤٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٢ .

(٤٨) المصـــدر السابق — ج ٣ ص ٣٥٤ .

بالأزهر — قــد بدأوا يشعرون بالحاجة الى استئناف دروسهم بالأزهر لأنها لم تتوقف بهذا الشكل الا فى حالة الضرورة القصوى .

كل هذه العوامل دعت عمر مكرم الى دعوة العلمـاء الى اجتماع عام فى بيته ليلة الأربعاء ١٠ من ربيع الأول ١٢٢٠ هـ (١٢ من يونيــة ١٨٠٥ م) وحضر وكيل محمد على وجرجس الجواهرجى كبير المباشرين الأقبـاط ، وتشاور المجتمعون « على أمر رآه محمد على باشا » ولم يذكر الجبرتى ذلك الرأى الذى كان موضوع الاجتماع والتشاور ولعله كان سرا لم يبح به المجتمعون فلم يصـل الى علم الجبرتى ، على أن (المسيو فلكس مانجان) قــد ذكره فى كتابه [٤٩] فقال : « انهم اتفقوا فى هذا الاجتماع على مضاعفة الجهد لاجبار خورشيد باشا على تسليم القلعــة فمن ذلك أنهم قرروا زيادة عــدد المخـافر فى الاستحكامات والمتاريس وعهدوا الى السيد عمر ارسال المؤونة والمـاء كل يوم الى المقاتلين المرابطين بالمقطم » [٥٠] .

ولقد جاءت هذه الخطة الحربية الجديدة فى وقتها نظرا لوصـول سلحدار خورشيد وهو (على باشا) من الصعيد ، واستقراره بالفسطاط ، وأخذ يدبر الخطط لفك حصار القلعة ، وأخذ يستميل بعضا من طوائف العسكر ، وانضم اليه كثير منهم ووعدهم بمرتباتهم ، وصـار يراسل (أحمد خورشيد باشا) سرا ويرسل اليه الخبز واللحم والسكر والذخيرة على الجمال من باب صغير فتحه من ناحية عرب اليسار [٥١] .

مكيدة على باشا السلحدار :

حاول خورشيد تدبير مكيدة مع على باشا السلحدار لفك الحصار عن القلعة ، والقضاء على مقاومة الأهالى ، وانتزاع المتاريس من أيدى

---

(٤٩) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — جـ ٢ — ص ٣٤٤ .
(٥٠) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٣٤٤ .
(٥١) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٣٥٤ .

القاهريين ، فتم الاتفاق بينهما سرا على أن يقوم كل منهمـــا فى وقت واحد بهجوم مفاجىء على مواقع الثوار فتنهار بذلك المقـــاومة ويفـــك الحصار .

وأراد السلحدار أن يحكم تدبيره بالمـــكر والخديعة ، فأوعز الى بعض رجاله ، وهم (رجب أغا) و (سليمان أغا) وهما من كبار ضباطه أن يكتبا « تذكرة من عندهما خطابا للسيد عمر أفنـــدى النقيب وباقى المشايخ مضمونها أنهما يريدان الحضور الى جهة القلعة ويسعيان فى أمر يكون فيه الراحة للفريقين » وأنهما يطلبـــان اصدار الأوامر الى الثوار باخلاء الطريق لهما .

ولـــكن العلماء كان لهم جواسيس قد بثوهم فى كل مكان ليأتوهم بالأخبار عن خطط أعدائهم ، فيـــذكر الجبرتى بأن واحـــدا من هؤلاء الجواسيس « حضر الى السيد عمر أفندى النقيب ، وأخبره بـــذلك الاتفاق بعد الفجر ، قبل حضور التذكرة ، فأرسل (عمر مكرم) الى من بالنواحى والجهـــات ، وأيقظهم وحـــذرهم فاســـتعدوا وانتظروا وراقبوا النواحى » (٥٢) .

وقف الثوار على أهبة الاستعداد ، وكان على رأســـهم بطل حى الرميلة (حجاج الخضرى) (٥٣) ومن معه من أهل الرميلة « فنظروا الى

---

(٥٢) المصـــدر السابق — نفس المـــكان .

(٥٣) حجاج الخضرى : هو شيخ الخضرية فى ذلك العصر ، واليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجـــاج ، وتسمى أيضا بوابة الخـــلاء قبلى مسجد السيدة عائشة بشارع باب القرافة قال عنه الجبرتى « وكان مشهورا بالاقدام والشجاعة طويل القامة عظيم الهمة .. صاحب صولة وكلمة بتلك النواحى ومكارم أخلاق » وعندما استقرت الأمور لمحمد على فى البلاد توجس من حجاج خيفة فأمر بشنقه بغير جرم فعله يوجب شـــنقه بل قتل مظلوما (الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ص ٢٩٨ — ٢٩٩ فى حوادث رمضان سنة ١٢٣٢ هـ) .

ناحية القرافة فرأوا الجمـال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا الى القلعة ، ومعها أنفار من الخدم والعسكر وعدتهم ستون جملا فخرج عليهم (حجاج الخضرى) ومن معـه من أهالى الرميـلة ، فضربوهم وحاربوهم ، وأخذوا منهم تلك الجمال ، وقتلوا شخصين من العسـكر وقبضـوا على ثلاثة ، وحضروا بهم ورؤوس المقتولين الى بيت السيد عمر » (٥٤) فأرسلهم بدوره الى محمد على باشا ، فأمر بقتل الأسرى .

ولمـا فشلت هذه المـكيدة أخذت قوات خورشيد بالقلعة تقـذف القاهرة بقنـابل مدافعها وترميها بأدوات حارقة ، وكان الضرب مركزا على نواحى منازل محمد على و حسن باشا ، وجهة حى الأزهـر مركز قيـادة الثوار حيث يوجد منزل عمر مكرم « ولم ينزعج أهل البلد من ذلك لمـا ألفوه من أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة » (٥٥) .

واستمر القتال بين الثوار والوالى حتى أوائل شهر ربيع الثـانى (يولية ١٨٠٥ م) ولـكن الحقيقة أن القلعة كانت تزود بالمـاء والمؤن والذخائر من حين الى آخر بسبب موقف رؤساء جند (محمـد على) المالىء لأشياعهم من جنود خورشيد ، وبسبب كثرة اعتـداءات جنود (محمد على) على الأهالى ، الأمر الذى جعل حصـار القلعة ضعيفا ، وعلى الرغم من أن محمد على أعلن فى جنوده « ان كل جندى يقبض عليه معتديا على أحد من الأهلين تضرب عنقه فورا » (٥٦) فانهم استمروا فى الاعتداء على الأهالى .

انتصار الثوار وترحيل خورشيد :

فى أوائل شهر ربيع الثانى ٢٩ من يونيـة ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) وصل الخبر الى القاهرة بوصول قابجى (٥٧) موفد من قبل السلطـان

---

(٥٤) المصـدر السابق ج ٣ ص ٣٥٤ .
(٥٥) المصـدر السابق — نفس المـكان .
(٥٦) د. محمد فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ ج ١ ص٣٢٢

العثمانى ، وانتظر بالاسكندرية ريثما يتبين الوضع السياسى بالبلاد . حتى يمكنه أن يتلاءم مع الظروف التى يجدها بالقاهرة ، نظرا لأنه كان يحمل مرسومين متناقضين ، كان المرسوم الأول : يقضى بتثبيت (خورشيد) فى منصبه ، واخراج محمد على من مصر ، وكان المرسوم الثانى : ينص على تعيين (محمد على) واليا على مصر ، ونقل خورشيد منها الى منصب آخر يحدد فيما بعد • وترك الباب العالى للمندوب السلطانى الحرية فى ابراز أحد المرسومين على ضوء تقديره للموقف فى مصر يقول مسيت (Missett) قنصل بريطانيا العام : « ان صالح أغا قد تسرع فى السفر الى القاهرة ، وبذلك وضع نفسه تحت نفوذ محمد على والأهالى الذين كان خمسة عشر ألفا منهم مسلحين بالبنادق وثلاثون ألفا مسلحون بالنبابيت » (٥٨) •

وفى أول يوليو أرسل (محمد على) فرقة من الجنود لحراسة مندوب السلطان حتى لايتعرض لخطر جنود المماليك أو الدلاة المنتشرين بالدلتا ، وأرسل العلماء وفدا منهم لمقابلته والحفاوة به مكونا من المشايخ « محمد الدواخلى وابن الشيخ الأمير والشيخ بدوى الهيثمى وابن الشيخ العروسى » (٥٩) •

وأعد العلماء ترتيبا حافلا لاستقبال مندوب السلطان استقبالا شعبيا ليقف بنفسه على مدى سلطان الثورة وقوتها ويرضخ بالأمر الواقع لمطالب الشعب فى تعيين محمد على واليا على مصر •

خرجت طوائف الناس « بالأسلحة والعدد والطبول الى خارج باب النصر ووقفوا بالشوارع والسقائف » وكذلك خرج النساء

---

(٥٧) القابجى : ضابط موفد فى مهمة رسمية من قبل رئيس الدولة ويأتى عن طريق البحر أما اذا حضر عن طريق البر مارا ببلاد الشام فيطلق عليه ططرى (د. الشناوى — عمر مكرم — ص ١٢٨) .

(٥٨) المرجع السابق ص ١٣١ .

(٥٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٦ .

والصـــبيان حتى ازدحمت الطرقات ازدحاما زائـــدا ، ونزل منـــدوب السلطان ، ومعه سلحدار الوزير الى زاوية الدمرداش حيث أعد لهما اسماعيل الطبجى الفطور فأكلاه وشربا القهوة وركبا وسط هذه الجموع يتقدمهم وكيل محمد على وكبار الضباط « وكثير من الفقهاء العـــاملين رؤوس العصب » (٦٠) وأهالى بولاق ومصر القديمة وغيرها من النواحى والجهات مثل باب الشـــعرية والحســـينية والعطوف وخط الخليفـــة ، والقرافتين والرميلة والحطابة ، وكان يتقـــدم هـــذه الجموع الشعبية الغفيرة البطل الشعبى حجاج الخضرى وبيده سيف مسلول ، وبجانبـــه ابن شمعة شيخ الجزارين •

استمر مرور هذا الموكب نحو ثلاث ساعات ، واستمرت المســـيرة الى أن وصلوا الى الأزبكية ، ونزل المندوب فى دار (محمد على) وبعد الاستراحة قرىء المرســـوم بحضرة العلماء « ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى جده سابقا • ووالى مصر حالا من ابتـــداء عشرين من ربيع أول حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وان أحمد باشا (خورشيد) معزول عن مصر ، وأن يتوجه الى اسكنـــدرية بالاعزاز والاكرام حتى يأتيه الأمر بالتوجه الى بعض الولايات » (٦١) •

وأرسلت صورة من المرسوم الذى أحضره المندوب السلطانى الى خورشيد يوم الأربعاء ١٣ من ربيع الثانى (١١ من يوليـــة ١٨٠٥ م) ورفض خورشيد النزول بدعوى أنه تقـــلد منصـــبه بمقتضى « خطوط شريفة وأوامر منيفة » ولا يعزل « بورقـــة مثل هـــذه » (٦٢) وطلب الاجتماع بالمنـــدوب السلطانى والسلحدار لمبـــاحثتهما ولـــكن المشايخ ومحمد على رفضوا طلبه ، والواقع أن خورشيد اســـتهدف من هـــذا

---

(٦٠) أى رؤساء الفرق العسكرية من علماء الأزهر والتى تـــكونت لمحاصرة خورشيد بالقلعة •

(٦١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٧ •

(٦٢) د• عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم ، ص ١٣٢ •

الرفض كسب الوقت ريثما يتسنى له الوصـــول الى اتفاق مع الأمراء المماليك على القيام بهجوم مشترك متعدد الجبهات على القاهرة لاخماد الحركة الشعبية وطرد محمـــد على نهـــائيا من القـــاهرة • ولمـــا كان خورشيد معتصما بالقلعـــة وكان يتعذر عليه الاتصال برؤساء المماليك فقد عهد بهذه المهمة الى (على باشا السلحدار) وكان مرابطا بجيشـــه بالجيزة (٦٣) •

وخفف (محمد على) والمشايخ من جانبهم شيئا من صرامة الحصار المضروب على القلعة حتى قام بين الفريقين نوع من الهدنة • كان سببها من ناحية خورشيد أنه عول على انتظار ماتسفر عنه مساعى سلحداره لدى البكوات ، وكان سببها من ناحية المشايخ أن هؤلاء مالبثوا أن ضجوا من انتشار الفوضى والفتن بالقاهرة بسبب تعود الأهالى المرابطـــة فى ميادين المدينة وشوارعها ، فرغبوا فى انهاء هذا الوضع بيد أن هـــذه الرغبة كانت مثار خلاف بين العلماء •

الخلاف بين العلماء على استمرار حمل السلاح :

وقع خلاف بين زعمـــاء الشعب على انهـــاء حالة الحصـــار وترك الأمور لمحمد على • فلقد رأى كبار المشايخ وهم الأغلبية العظمى أن الفوضى والفتن انتشرت بسبب تعود الأهالى ملازمة الشوارع والميادين وتركهم لأعمـــالهم وحرفهم وكثر بذلك الاشتباك بينهم وبين العسكر . ولانهاء هـــذه الحالة يجب على الشعب أن يلقى سلاحه وينصرف الى أعماله فتفتح الحوانيت ويفتح الأزهر وتعود الدراسة به سيرتها الأولى ويتولى (محمد على) أمر انزال (خورشيد) من القلعـــة • وكان على رأس هذا الفريق عبد الله الشرقاوى والشيخ الأمير وغالبيـــة علمـــاء الأزهر •

---

(٦٣) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم ، ص ١٣٢ .

وكان للسيد (عمر مكرم) رأى آخر على النقيض من ذلك تماما، كان يرى أنه لابد من استمرار النضـــال نظرا لأن (خورشيد) مازال معتصما بالقلعـــة ويوالى اتصاله بالمماليك (وعلى باشا) سلحداره . واذا نجح فى استمالة المماليك الى صفه ففى امكانهم اقتحام القـــاهرة وسحق الثورة الشعبية ، ومن ثم رأى عمر مكرم أن يستمر الثوار فى حمل السلاح حتى يرضخ خورشيد لمطاب الشعب ويفك الحصـــار عن القاهرة التى كانت محاطة بجنود المماليك وسلحدار خورشيد باشا .

وفى يوم الخميس ١٤ من ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ (١٢ من يوليـــة ١٨٠٥ م) اجتمع الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد الأمير وغالب المتعممين « وقالوا ايش هذا الحال وما تداخلنا فى هذا الأمر والفتن ، واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة وينـــادون بالأمان وأن النـــاس يفتحون حوانيتهم ويجلسون بهـــا وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ويتقيدون بقراءة الدروس وحضور الطلبـــة » وقام المجتمعون وذهبوا الى محمد على « وقالوا له أنت صرت حاكم البلدة، والرعية ليس لهم مقارشة فى عزل البـــاشا ونزوله من القلعة ، وقـــد أتاك الأمر فنفـــذه كيف شئت » (٦٤) واستجاب محمـــد على لرغبتهم لأنها صـــادفت هوى فى نفسه « وركب الأغا — محافظ القـــاهرة — وصحبته بعض المتعممين ونادوا فى المـــدينة بالأمن والأمان والبيـــع والشراء وأن النـــاس يتركون حمل الأسلحة بالنهـــار ، واذا وقع من بعض العسكر اعتداء رفعوا أمره الى (محمد على) وان كان من الرعية رفعوه الى بيت السيد (عمر النقيب) واذا دخل الليل حملوا الأسلحة وسهروا فى أخطاطهم على العادة وتحفظوا على أماكنهم » .

ولمـــا سمع الثوار بذلك استنكروه ورموا المشـــايخ بالجبن وقصر النظر وقالوا « اننـــا حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار وغفراء بالليل

---

(٦٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥٨ .

والله لانترك حمل أسلحتنا ولا نمتثل لهذا الكلام ولا هذه المناداة »(٦٥).

ولقد دل هذا الموقف على روح الشعب الوثابة ورغبته فى الدفاع عن حقوقه وتشوقه لحمل السلاح فلقد رأى فى ذلك أمانا طوال هـذه المدة من هجوم العساكر عليه وسلب أمواله ، وكان يقابل اعتـداءات العساكر بمثلها كما رسم بذلك زعيمه (عمـر مكرم) الذى كان يرغب ويتطلع الى استمرار حمل السلاح من أجل الدفاع عن حقوق الشعب .

ولو تم ذلك وتكونت كتائب شـعبية لحراسـة الأهالى لتمكن من احاطة نفسه بالأمان والوقوف فى وجه أطمـاع الطـامعين حوله من جنود محمد على والمماليك وغيرهم .

وسرعان ما لبى محمد على هذه الرغبة للعلماء الذين نادوا بتجريد الشعب من سلاحه ، لأنه كان حريصا على نزع السلاح من الثوار حتى لا تتأصل روح القتـال فى نفوس الشعب ، « لأن حركات الـكفاح الشعبى تلهب الشعور الوطنى وتشكل دعامة قوية من دعائم الحيـاة القومية فى مصر ، ومحمد على لا يريد لهـذه الحيـاة استمرارا ولا وجودا لأنه كان ينظر الى المـدى البعيد حين يخلو له حكم مصر فيمضى فى حكم الشعب حكما استبداديا مطلقـا ومطمئنا الى أنه لا يقابل بمثل هذه الروح » (٦٦) .

ولهذا أصـدر (محمد على) الأوامر الى رجاله بجمع السـلاح من الأهالى ، « ومر الأغا ببعض العامة المتسلحين فقبض عليهم وأخـذ سلاحهم فازدادوا قهرا وباتوا على ذلك » (٦٧) واجتمع الثوار فى منزل السيد عمر مكرم وراجعوه فى ذلك الأمر فاعتـذر لهم قائـلا : « بأن

---

(٦٥) المصـدر السابق — نفس الصفحة .

(٦٦) د. الشناوى — عمر مكرم — صص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٦٧) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٣٥٨ .

هـذا الأمر على خلاف مراده » وألقى التبعة على الشيخ الشرقاوى وأتباعه من بقية العلماء •

وبدأ الناس يوم السبت ١٦ من ربيع الثانى (١٤ من يوليو) فى فتح بعض الحوانيت وفتح المشايخ الجامع الأزهر « وقرءوا بعض الدروس ففترت هممم الناس ورموا الأسلحة وأخذوا يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيلهم اياهم » (٦٨) •

وأثبتت الحوادث على أن عمر مكرم كان على حق فى رأيه شأن العسكر من الدلاة خصوصا انتهزوا هذه الفرصة فعادوا الى أذية القاهريين « وتعرضوا لقتلهم واضرارهم » ثم ساد الذعر عندما اقترب المماليك من العاصمة ، وضج الناس بالشكوى وأغلقوا حوانيتهم وكثرت شكاواهم للسيد عمر مكرم الذى حمل الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير مسئولية نزع السلاح من الأهالى وعندما اشتد الهياج بسبب كثرة الاعتداء على الأهالى « نادوا فى النـاس بالعـودة الى حمل السلاح والتحذر » من جديد •

البت فى مسألة خورشيد :

أصبحت القاهرة محاطة بالمماليك ،لأن بكوات الصعيد قد وصلوا قرب الجيزة ، وعبر جماعة منهم النيل الى البر الشرقى فى جهة الفسطاط والبساتين ، واستولى البرديسى وابراهيم بك وعثمان حسن على طره وهدموا قلاعها • وأصبحت القاهرة مهددة بالهجم عليها ؛ ولا شك أن وصولهم أفقد التوازن بين قوات محمد على والقاهريين من جانب وبين قوات خورشيد بالقلعة وسلحداره بالجيزة منجانب آخر، ونتج عن ذلك أن البكوات قطعوا كل المواصلات مع القاهرة وفرضوا عليها نوعا من الحصار فامتنع وصول المؤن اليها ، وبدأت المجاعة

---

(٦٨) المصدر السابق — ج ٣ ص ٣٥٩ .

تطل برأسها ، وبدأ هيــاج القاهريين و زاد صخبهم ، وعاد الأرناءود الى التمرد والعصيان وايذاء الأهالى والاعتداء عليهم •

لذلك اتخذت التــدابير لانهاء مسألة خورشيد بكل حزم وسرعــة بعد أن فشلت المحاولات لاقنــاعه بالتسليم • ولذلك دعا عمر مكرم الى عقد اجتماع موسع يوم ١٥ من ربيع الثانى (١٣ من يوليــة) حضره وكيل محمد على وبعض كبار الضــباط واتفق رأيهم على أن خورشيد هو الذى راسل أمراء المماليك وطلب حضـــورهم الى القاهرة « فلزم الاجتهاد فى انزاله من القلعــة ثم يتفرغوا لمحاربة القادمين ويخرجوا اليهم بالعساكر » كما اتفق رأيهم على ارسال رسالة أخيرة الى خورشيد بالقلعــة يطلبون فيهــا نزوله فان أبى فانهم سوف يهجمون على القلعة لاقتحام أسوارها والقضاء على خورشيد وأتباعه •

ومع ذلك فقــد اضطر (محمد على) الى الخروج يوم ١٦ يوليو بجنوده لصــد تقــدم المماليك بعد أن بلغوا المعادى وطره ، وأجبرهم على التقهقر الى جهة قبلى وعبر جماعة منهم النيل الى الجيزة •

الباب العالى يضع حدا للأحداث فى مصر :

منذ أن بلغت البــاب العالى أنبــاء انقلاب (١٢ ، ١٣ من مايو) والنزاع الدائر بين خورشــيد ومحمد على ، وانتهاز المماليك الفرصة للزحف على القــاهرة صــار يخشى أن تؤدى هذه الاضطرابات الى فقــد ولاية مصر كلية ، واعتقد أنهــا بتــدبير الانجليز الذين يريدون الاستيلاء على البلاد ، ومن ناحية أخرى فقد رأى البــاب العالى أن الحجاز يكاد يسقط كله فى أيدى الوهابيين الذين تحقق لهم النصر فى كل مكان ، وتأكد له عجز مصر عن ارسال النجــدات اللازمة الى بلاد العرب لانقاذها من أيديهم مادامت فريسة للفوضى •

لـــكل هذه العوامل السابقة قرر الباب العـــالى انهاء هذه الفوضى السائدة فى مصر فقرر منذ أواخر يونيو ارسال القبطان عبد الله رامز باشا الى مصر وخوله سلطات واسعة لانهائها بأى ثمن [٦٩] • ووصلت الأخبار الى القاهرة فى ٢١ من ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ (١٩ من يونيو) بوصول القبطان باشـــا الى الاسكندرية على رأس حملة عثمانية مكونة من (٢٥٠٠ جنـــدى) تحملهم وحدات من الأسطول العثمانى « فاجتمع المشـــايخ واتفقوا على كتـــابة عرضـــحال يرســـلونه اليـــه مع بعض المتعممين » [٧٠] ثم اختلفت آراؤهم فى ذلك ثم صرفوا النظر عن ارسال وفد منهم عندما بلغهم بأن سلحدار القبطان فى طريقه الى القاهرة •

أرسل القبطان باشا سلحداره على عجل الى القاهرة يحمل :

« مكاتبة الى أحمد باشا (خورشيد) المخلوع ومضمونها الأمر بالنزول من القلعـــة ساعة وصول الجواب اليه من غير تأخير وحضوره الى الاسكندرية » كما كان السلحدار يحمل معه أيضـــا أمرا آخر الى محمد على « بابقائه فى القائمقامية حيث ارتضـــاه الـــكافة والعلمـــاء والوصـــية بالسلوك والرفق بالرعيـــة » [٧١] وعندما بلغ خورشيد نبأ وصـــول السلحدار الى القاهرة أظهر امتثـــاله لأوامر السلطان وقال : « أنا لست بعاص ولا مخالف للأوامر » وانمـــا أنا مدين لصـــالح أغا وعمر أغا بخمسمائة كيس باقيـــة بسبب دفع مرتبـــات الجند ، وادعى أنه ليس لديه الا ما على جسمه من الثيـــاب بسبب أن العساكر أخـــذوا ماعنده من الموجودات ، وأعلن بأنه على استعداد للنزول فى الحال اذا أعطوا هذا المبلغ لصالح أغا وعمر أغا •

---

(٦٩) د. محمـــد فؤاد شـــكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ ص ص ٣٢٧ — ٣٢٨ •

(٧٠) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ٣٥٩ •

(٧١) المصدر السابق — جـ ٣ ص‌ص ٣٦١— ٣٦٢ •

ولــكن خورشيد عنــدما وصله نبأ عزم حلفــائه من المماليك على الهجوم على القاهرة بدأ يراوغ فى النزول من القلعة أملا فى الانتصار المنتظر ، وأحبط (محمد على) مؤامرة فى الهجوم على القاهرة من هذا النوع ، ومع ذلك استمرت محاولات سلحدار القبطــان وصــالح أغا القابجى فى اقناع خورشيد بالنزول وعندما يئس خورشيد من أى أمل فى معونة المماليك نظرا لانقسامهم من جهة واصرار القاهريين على عزله من جهة أخرى وافق على النزول من القلعة .

ونزل من القلعــة يوم الأحد ٨ من جمادى الأولى ١٢٢٠ هـ (٥ من أغسطس) بعد أن أحضر له محمد على الخمسمائة كيس التى طلبها وسلم القلعة لرجال محمد على يوم الاثنين ٩ من جمــادى الأولى (٦ من أغسطس ١٨٠٥ م) .

وأحضر السيد عمر مكرم لخورشيد وأتباعه « مائتى جمل فنقلوا عليها متاعهم وفرشهم ونزل كثير من عساكرهم وخــدمهم وهم متغيرو الصــور وذهب أكثرهم بعزالهم الى بولاق .. وسكن ببيت السيد عمر .. واطمأن النــاس بعض الاطمئنان مع بقــاء التحرز وأرسل السيد عمر فنادى تلك الليلة باستمرار النــاس على التحرز والسهر وضــبط الجهات فان القوم لا أمان لهم » .

ولــكن خورشيد مالبث أن غادر بولاق فى ١٥ من جمادى الأولى (١١ من أغسطس) « وتخلف عنه كتخــداه وعمر بك وصــالح قوش والدفتردار وكثير مى أتباعه ولم يسهل بهم مفارقة أرض مصر وغنائمها مع أنهم مجتهدون فى خرابها » [٧٢] .

وهكذا توج الشعب المصرى كفاحه وأملى ارادته بفضل زعامتــه الرشيدة التى تمثلت فى علماء الأزهر .

---

(٧٢) المصــدر السابق — جـ ٣ صص ٣٦١ — ٣٦٢ .

نتائج هذه الحركة :

يكفى هذه الحركة فضلا أنها أبرزت لأول مرة قضية حق الشعب فى شئون الحكم فى مصر • صحيح أن الزعماء لم يأخذوا على الحاكم الجديد الضمانات الكافية التى تؤمن مستقبلهم من استبداده بالحكم ، وعصفه بحقوقهم ، ولكن يكفيها أنها كانت بداية ، ونحن لا نطلب من الرواد الأوائل فى مجال الفكر السياسى ، والتحرر السياسى أن يقوموا بأعمال كاملة مبرأة من كل عيب ، وتاريخ الأمم ملىء بمثل هذه المواقف التى تنحصر فى اخلال الحكومات بالاتفاقيات أو الدساتير التى تجبر على اصدارها تحت الضغط •

كما أن هذه الحركة حكمت على مصير هذا الجزء من أملاك الدولة العثمانية فقد كان مصيره الاستقلال عنها ان عاجلا أو آجلا ، وكان خورشيد آخر الولاة الذين يتلقون الأوامر من الآستانة رأسا ، وكان القبطان باشا صادق النظر حين قال عقب عودته من استانبول : « لقد تركت فى هذه البلاد (أى مصر) رجلا سوف تجد فيه الامبراطورية ولا شك يوما من الأيام ثائرا من أخطر الثوار على سلطانها ، فلم يحدث بتاتا أن كان لسلاطينها وال أكثر حنكة سياسية ، وأعظم نشاطا وأعمق دهاء من هذا الباشا » (٧٣) أى محمد على •

كما كان من نتائج هذه الحركة أن محمد على وقف على مقدرة المصريين على الكفاح والنضال تحت راية زعمائهم ، وأدرك أن عمر مكرم أقرب منه الى قلوب الأهالى وأقدر على قيادتهم منه • ومن هنا بدأ يفكر فى أمر تنحية هذه الزعامة الشعبية ، بيد أن أمامه وقت غير قصير هو فى حاجة الى هذه الزعامة فى كثير من مشاكله المقبلة ، فأمراء المماليك مازالوا يتربصون به ، والباب العالى غير راض بالطريقة

---

(٧٣) د. محمد فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ — ج ١ ص ٣٣٥ .

التى اعتلى بهـــا الحكم ، كما كان الانجليز يفكرون من ناحية أخرى فى غزو البلاد فأرجأ محمد على موضوع تنحية الزعامة الشعبية حتى ينتهى من المشاكل التى تواجهه .

لماذا لم ينصب العلماء واليا من المصريين ؟

لم يفكر العلماء فى تعيين مصرى واليا على البلاد ، لأن السلطان العثمانى لم يكن ليقر مثل هذا التعيين ، ولم تكن حركة العلماء موجهة الى السلطان ، أو السلطة العثمانية فى مصر ، وانما كانت موجهة الى الوالى الظالم ، كما أنهم كانوا يعتبرون السلطـــان العثمانى خليفـــة المسلمين ، ودولتـــه هى دولة الاســـلام الـــكبرى تظل المسلمين بظلها الظليل ، وكان العلماء متشـــبعين بفكرة الوطـــن الاســـلامى الـــكبير والجامعة الاسلامية أكثر من تشبعهم بفكرة الوطن القومى ، وكان مفهوم الوطنية ملحقا بمفهوم الدين ، كمـــا كانت العاطفـــة القوميـــة ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث كان يصعب الفصل بينهما .

ومن ناحية أخرى فان النظام المملوكى الـــذى كان قائمـــا لم يتم القضاء عليه بواسطة العلماء ، وانما بواسطة قوى أجنبية أجهزت عليه وهى الحملة الفرنسية ، كما أنه لم تتوافر الظروف والعوامل الملائمـــة اجتماعيا واقتصاديا لـــكى تصل هذه القوى الوطنية الى السلطة .

الفصل السابع

دور زعماء الشعب فى تدعيم سلطة محمد على

دور زعماء الشعب فى تدعيم سلطة محمد على :

أولا — دور الزعماء فى تدبير الأموال :

كانت لدى محمد على مشاكل لا حصر لها عقب توليه كرسى الولاية فكانت هنـــاك خزينة الدولة خاوية وهو فى حاجة ماســـة الى الأموال ليـــدفع بهـــا رواتب الجند الذين هددوه ، وكانت يده مكبلة بالشروط التى أخذها الزعماء عليه برفع المظالم والمغارم عن الأهالى ، وعدم فرض ضريبـــة جديدة الا بمشـــورتهم ، ولم يكن فى وسع محمـــد على أن يتناسى بسرعة هذا القيد على حريته فى جمع الضرائب .

وكان هناك المماليك الذين سيطروا على الصعيد بزعامة البرديسى، ثم على أقاليم واسعة فى الوجـــه البحرى بزعامة الألفى ، ومنعوا عن القاهرة المؤن والأغذية ، وحرموا خزانة البـــاشا من الميرى وســـائر الالتزامات المفروضـــة للدولة على ما بأيديهم من اقطاعيات ، وهددوا القاهرة بهجوم يعيد لهم السيادة من محمد على .

وكانت هنـــاك حكومة البـــاب العالى التى ساءتها كثيرا الطريقة التى استولى بها (محمد على) على الحكم ، وكانت لا تفتأ تتحين الفرص لعزله عن ولاية مصر ، كما كانت مصر مسرحا للتنازع على النفوذ بين كل من انجلترا وفرنسا لتفوز كل منهما بالنصيب الأوفر فى البلاد .

وكانت هذه العقبـــات فى مجموعها هى مبعث الصـــعوبات التى اعترضت الحكومات السابقة ، وزلزلت كيانها ، والتى صـــادفت حكومة محمد على عند تأسيسها ، ويجملها أحـــد المؤرخين بقوله : « افتقـــار الخزانة والحالة الملحة للمـــال والتنـــازع على السلطـــة بين الولاة أو الباشوات وبين البكوات المماليـــك من ناحيـــة ثم بينهم وبين رؤســـاء

الجند من ناحية أخرى ، وضعف البـاب العالى وعجزه عن فرض نفوذه وسلطانه على هذه الطوائف والأحزاب المتنـازعة وبسط سيادته الفعلية على البلاد ، ثم تنـازع النفوذ بين بريطانيـا وفرنسا للظفر بالتفوق السياسى فى مصر » [١] .

ولقد هددت تلك المشاكل محمد على تهديدا بليغـا ومبـاشرا فى السنتين الأوليين ونصف السنة الثالثة أى من حين المنـاداة بولايتـه فى مايو ١٨٠٥ م (١٢٢٠ م) الى حين جلاء الانجليز من الاسكندرية فى سبتمبر سنة ١٨٠٧ م (١٢٢٣ هـ) بعـد فشل حملتهم التى جاءت الى مصر بقيـادة الجـنرال (فريزر) لتأييـد المماليـك فى شـهر مارس ١٨٠٧ م .

ووضع محمد على خطتـه على الاستعانة بالقوة الوطنيـة فى تحقيق النصر الذى يراوده على أعدائه ، فتمكن من السيطرة الأدبيـة على شخصـية عمر مكرم زعيم العلمـاء والأهالى وبالغ فى تقـديره واحترامه وأوهمه بأنه يريد أن يعينه (قائمقام) [٢] .

أى نائبا له مدة غيابه فى حـرب الألفى على الرغم من أن هـذا العرض من (محمد على) على عمر مكرم كان من قبيل الايهامات التى لا أصل لها كما يقول الجبرتى [٣] ، ولـكن السيد عمر مكرم مع ذلك لم

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى مصر فى مطلع القرن ١٩ — ج ٢ ص٣٣٨ .

(٢) قائمقام : لقب شيخ البلد وهو الاستعمال الاصطلاحى، وتستعمل قائمقام أيضـا فى معنـاها الأصلى لـكل من يقوم مقام أحد كقائمقام الباشا مثلا لمن يقوم مقـام البـاشا عندما تـكون الباشوية خالية أو عند غيابه ، وتستعمل قائمقام لمن يقوم مكان القاضى الى حين حضوره من الآستانة .

انظر : شفيق غربال — مجلة كلية الآداب — مرجع سـبق ذكره . ص ٤١ .

(٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٦ حوادث صفر ١٢٢١هـ .

يقبل هذا العرض وامتنع ، وأثبت عمر مكرم له ولمواطنيه أنه يسعى للصالح العام ، ورفع الظلم عن الرعبية ولا مأرب له فى منصب أو جاه ، وأن كل غرضه هو اقامة الحاكم العادل الذى يرعى مصالح الأهالى •

ولكن محمد على حقق فى الواقع غرضه بهذا العرض فى زيادة التقارب الى هذه الشخصية الشعبية الجذابة ليعتمد عليها فى حل مشاكله المقبلة التى أسلفنا ذكرها • وكانت شخصية عمر مكرم قد أصبحت طاغية ينقاد الشعب لها ويثق فى رأيها •

والواقع أن مجتمع العلماء بعد نجاح انقلاب مايو ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) كان قد انصرف الى الحياة الأزهرية العلمية جريا على عادته ورضى من الغنيمة بالاياب كما يقولون واعتبر تولية محمد على نهاية لعهد الاضطراب والفوضى ، ثم أنه من ناحية أخرى يبدو أنه فوض عمر مكرم فى الشئون السياسية والاتصال بالوالى ومراقبته مراقبة تحقق تنفيذ شروطهم التى سبق أن أخذوها عليه فى حركة الانقلاب السالفة ومن ثم نجد عمر مكرم هو الذى يتصدر مسألة العلاقات بين الشعب ومحمد على كما أنه هو الذى يقوم بعملية التوسط بين البكوات المماليك وبين محمد على •

ولكن محمد على وهو السياسى المحنك يتمكن من استغلال عمر مكرم الى أبعد الحدود لدرجة جعلت عمر مكرم يبدو أمام مواطنيه وكأنه مطية للوالى الجديد يحقق عليها مآربه فى السيطرة على البلاد ، حتى ساءت به الظنون وهو الوطنى الغيور على مصالح الشعب •

وعاون السيد عمر مكرم الباشا فى تحصيل الضرائب الجديدة ، وابتدع محمد على من الوسائل ماجعل عمر مكرم فى كثير من الأحيان ملزما هو وجمهرة العلماء بمعاونته ويسر له الزعماء جمع هذه الأتاوات والمغارم من الشعب دون أن يلقى أدنى مقاومة .

أول ضريبة لمحمد على :

فى أواخر شهر جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) احتاج محمد على الى المال لدفع رواتب الجنود وقد وفى بما قطعه عليه الشيوخ من أنه لا يقرر ضريبة جديدة الا اذا عرضها عليهم وكانت بموافقتهم . وقد عرض الأمر عليهم فعلاً وأخبرهم : « بأن العسكر باق لهم ثلاثة آلاف كيس لا نعرف لتحصيلها طريقة فانظروا رأيكم .. ولم يبق الا هذه النوبة » وأقنع المشايخ بأن العسكر اذا قبضوا باقى مرتباتهم سافروا الى بلادهم « ولن يبقى منهم الا المحتاج اليه وأرباب المناصب ولا يأخذون بعد ذلك علائف » ولكن العلماء ترددوا فى فحص هذا الطلب بينما تكلم الناس بأن محمد على يطلب « فردة » جديدة واستقر رأى العلماء بعد ذلك « على قبض ثلث الفائظ من الحصص والالتزام » فضج الناس بالشكوى وقالوا : « هذه تصير عادة ولم يبق للناس معاش » فقال محمد على « نكتب فرمانا ونلتزم بعدم عودة ذلك ثانيا ونرقم فيه : لعن الله من يفعلها مرة أخرى » ولم يكن محمد على صادقا فى تعهده هذا وانما كان هذا التعهد كما يقول الجبرتى : « من التمويهات الكاذبة » يقصد بها محمد على اقناع الأهالى « الى أن رضى الناس واستقر أمرها وشرعوا فى تحريرها وطلبها » (٤) .

---

(٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

وظن محمد على أنه يمكن أن يطلق يده خارج القاهرة فى أقاليم مصر بدون حاجة الى الرجوع الى هيئــة كبار العلماء ، فأرسل يطلب من تجار رشــيد أربعين ألف ريال فرانســه على ثلاثة عشر نفرا من التجار ، ولــكن المشايخ بزعامة عمر مكرم ذهبوا الى محمد على فى ٢٥ من رجب ١٢٢٠ هـ « وترجوا عنده فى أهل رشيد فاستقرت غرامتهم على عشرين ألف فرانسه وسافروا على ذلك وأخذوا فى تحصيلها » (٥).

وفى شهر رمضان سنة ١٢٢٠ هـ طلب محمد على ضريبة الميرى من الملتزمين عن سنة واحدة وعشرين بالــكامل قبل أوانها بسنة وخصوصا فى شهر رمضان « مع ما النــاس فيه من ضيق المعاش وغلو الأسعار فى كل شىء بل وعدم وجود الأقوات ووقوف العســكر خارج المــدينة يخطفون ما يأتى به الفلاحون من السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك » (٦) .

واستهلت سنة احدى وعشرين ومائتين والف « والطلب والتوزيع بالأكياس مستمر ولاينقطع عن أعيان النــاس والتجار والأفندية الكتبة وجمعاة الضريبخانة والملتزمين بالجمارك ، وكل من كان له أدنى علاقــة أو خدمة أو تجارة أو صنعة ظــاهرة أو فائظ أو له شهرة قــديمة أو من مساتير الناس » .

وكان السيد عمر مكرم فى غالب الأحيان هو المحصل لهذه الضرائب على الرغم مما كان معروفا عنه فى المناسبات الماضية من التوسط لدى السلطات ، فانقلب الحال وأصبح محمد على يتحــايل عليــه فى غرض

---

(٥) المصــدر السابق — ج ٣ ص ٣٦٧ .

(٦) المصــدر السابق ج ٣ ص ٣٦٩ .

الضرائب على الشعب ، لدرجة أن الأهالى ظنوا به الظنون وعلق على ذلك الجبرتى معبرا عن شعور الشعب قائلا : « وقد حكمت الصورة التى ظهر فيها وانعكس الحال والوضع حتى ساءت الظنون ، والأمر لله وحده » (٧) .

وطلب الباشا سلفة فى ربيع الأول من الملتزمين والتجار وغيرهم واعتمد فى توزيعها على نظام كان أعد أيام خورشيد باشا ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) لتوزيع سلفة حصلها خورشيد وقتذاك ، واشتط عملاء الباشا فى تحصيل هذه السلفة فلم يمهلوا أحدا « ومن لم يجدوه بأن كان غائبا أو متغيبا دخلوا داره وطالبوا أهله أو جاره أو شريكه » .

وضج الناس بالشكوى الى الزعيم عمر مكرم هذه المرة لأنه قابل شكاية الشعب بالتضجر « ويتأسف ويتقلق ، ويهون عليهم الأمر ، وربما سعى فى التخفيف عن البعض بقدر الامكان وقد تورط فى الدعوة » (٨) .

ولقد تسببت كثرة مطالبة الأهالى بالمال فى تذمرهم من الأتاوات والمغارم التى فرضت عليهم ، ولكن الباشا استطاع الاعتماد على مؤازرة العلماء له ولا سيما السيد عمر مكرم .

ويبدو أن فريقا من العلماء اعتزم التصدى بالقوة لاجراءات محمد على الضريبية ، وبدأ هذا الفريق فى تحريض الشعب على الثورة والعصيان ، ويبدو أيضا أن هذه الحركة . كانت بغير علم السيد عمر مكرم لأنه أطلع الباشا على أسماء المدبرين لها .

---

(٧) المصدر السابق ج ٤ ص ٧ .

(٨) المصدر السابق ج ٤ ص ٩ .

تحديد اقامة شيخ الأزهر :

ويبدو أن هـــذا الفريق قام ببعض الاتصـــالات المريبة وخاصـــة بالألفى ويبدو أيضا أن الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر كان على رأس هذا الفريق ، لأنه حددت اقامته فى ٧ من رجب ١٢٢١ هـ ، وكان سببها الظاهر الخلاف على أوقاف الأزهر .

غير أن محمد على لم يتجاسر على التنكيل بالشيخ الشرقاوى نظرا لمركزه ، أو أنه رأى من السياسة عدم التنكيل به ، ولم يكن بالأمر الهين أن يقدم على نفى شيخ الأزهر ، فيغضب بذلك رجال الأزهر وهو بحاجة اليهم متماسكين فى هذه المرحلة .

ويظهر أن هذا الفريق كان يضم الجبرتى الذى كان غير راض عن الطريقة التى اعتلى بها محمد على الحكم فى البلاد . ويظهر أنهم قاموا بالاتصال بصـــالح باشا القبطان مبعوث البـــاب العالى الذى كان يحمل أوامر بنقل محمد على الى « سالونيك » .

وطبيعى أن ينضم الشرقاوى للألفى وأنصاره نظرا لأن عمر مكرم كان قد ناصر الشيخ الأمير عليه فى تولى نظارة أوقاف الأزهر ، وقـــد كان ذلك بموافقة محمد على (٩) .

فيذكر الوكلاء الفرنسيون فى (نشرتهم الاخبـــارية) عن المـــدة بين أول وعشرين أكتوبر ١٨٠٦ م (١٢٢١ هـ) ان عمر مكرم قد كشف للبـــاشا عن « مكايد » شيخين كانا يحرضان القاهريين على الثورة ، وقـــد تأثر هذان الشيخان بمساعى الوكلاء الانجليز والقبطان باشـــا وألقى القبض عليهمـــا فى ٥ أكتوبر وأظهر عمر مكرم « ولاء عظيما » للبـــاشا وعاونه معاونة صـــادقة على اســـتتباب الأمن والنظـــام فى القاهرة . وبعد حوالى عشرة أيام أطلق الباشا سراح الشيخين بنـــاء

---

(٩) سيأتى تفصيل ذلك فى الفصل التالى .

على توسط الشيخ سليمان الفيومى فى أمرهما على شريطة مغادرتهما القاهرة الى الريف ولم يذكر الوكلام الفرنسيون من هما هذان الشيخان [١٠] •

دور زعماء الشعب فى مقاومة محاولات الباب العالى لنقل محمد على من مصر :

كان الباب العالى غير راض عن الطريقة التى اعتلى بها محمد على الحكم فى مصر رغم ارادته ولكن الظروف السياسية بالقسطنطينية لم تكن مواتية له لاحداث تغيير فى سياسته تجاه محمد على فى مبدأ الأمر ، وذلك بسبب انشغال الباب العالى بالصراع الدائر فى الآستانة لتنازع النفوذ بين فرنسا من جانب وبين بريطانيا وروسيا من جانب آخر • ومن ثم عجز الباب العالى عن معالجة الوضع فى مصر وعجز عن بسط سيطرته وسلطانه الفعلى عليها • كما كان هذا الانشغال من العوامل التى جعلته يرضخ للأمر الواقع فيقبل النزول على اجماع القاهريين وتقليد محمد على منصب الولاية على كره منه [١١] •

وأرسل محمد بك الألفى مندوبه الى الآستانة يحمل الرشا والهدايا الى أعضاء الديوان العثمانى وغيرهم من المسئولين بالباب العالى لمساعدته على ارجاع سلطة المماليك القديمة بمصر •

وبدأ الانجليز يسعون سعيا حثيثا فى تحقيق سياستهم التى ترمى الى اقصاء محمد على عن مصر واحلال المماليك مكانه ، وساعدهم على ذلك رجحان كفتهم السياسية فى صراعهم مع فرنسا حين انتصارهم عليها فى معركة (الطرف الأغر) البحرية ، ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) وبدأت بريطانيا تملى سياستها على الباب العالى ، وكان

(١٠) د• فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ — ج ٢ ص ٥٧٨ •

(١١) د• فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ — ج ٢ ص ٣٥٣ •

أول ما قصـــدت اليه أن تبسط نفوذها فى وادى النيل وتحقق مطامعها التى عجزت عن تحقيقها فى الماضى (أثنـــاء الحملة الفرنسية وبعدها) فطلبت من البـــاب العالى عزل محمد على عن ولاية مصر ونقل الحكم فيها الى محمد بك الألفى ، وأن تعين الحكومة التركية واليا جديدا بدل محمد على يكون من طراز الولاة الأتراك السابقين الذين كانوا يتركون سلطة الحكم للأمراء المماليك ، وأبلغتها أن الألفى يتعهـد بأداء حقوق الباب العالى ، وأن بريطانيـــا تضمنه فى ذلك (١٢) .

وانصاعت الآستانة لضغط انجلترا فى هـــذا الشأن ، وأصـــدر السلطان عدة فرمانات فى يونيو ١٨٠٦م بنقل محمد على الى (سالونيك) ونقل موسى باشا والى سالونيك الى مصر والعفو عن الأمراء المماليـــك كما أرسل البـــاب العالى أسطولا بقيـــادة (صـــالح باشا) قبودان الذى بلغ الاسكندرية فى ٢٧ من يونيو ١٨٠٦ م (١٢٢١ هـ) للاشراف على تنفيذ أوامر الباب العالى الجديدة فى مصر .

ولم يكد يستقر صـــالح باشا فى الاسكندرية حتى أرسل على وجه السرعة رسالة الى محمد على يبلغه فيهـــا فرمان النقل ويأمره بالذهاب الى سالونيك مقر ولايته الجـــديدة ، ولـــكن محمد على تظاهر بالموافقة واستعد للمعارضـــة غير المباشرة وأجاب على رسالة صالح باشـــا بأنه مستعد للرحيل الى سالونيك غير أن الجند يعارضـــون فى ذلك قبل أن تؤدى اليهم مرتبـــاتهم المتأخرة وقدرها عشرون الف كيس ، واتخذ من هذه الحيلة وسيلة للمعارضة غير المباشرة .

وتصرف محمد على بسرعة فائقة وأخـــذ يعد عـــدته فى جبهتين : الجبهة الشعبية : وهى القاعدة التى ثبت نجاح الاعتماد عليها وسبيله الى ذلك علماء الأزهر ، حتى يتخذ من مناصرتهم له حجة يستند عليهـــا فى تبرير مقاومته لأوامر الباب العالى .

---

(١٢) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على ص‌ص ٢٧ — ٢٨ .

والجبهة العسكرية : والسبيل الى السيطرة عليها هم قادة الجند الذين أرهقوه بمطالبهم • أما بالنسبة للجبهة العسكرية وهم قادة الجند فقد تمكن محمد على من السيطرة عليهم حين القى فى روعهم أن الموضوع مسألة حياة أو موت بالنسبة اليهم ، وأن المماليك قد رشوا رجال البلاط العثمانى وأن زمام الأمور على وشك أن يفلت من أيديهم ففى الحال تجمع حوله رؤساء الجند وبذلوا المال عن طيب خاطر •

والذى يهمنا فى هذا المجال هو نشاط محمد على مع العلماء وكيف استعان بهم فى درء هذا الخطر الذى يعتبر أكبر خطر واجهه منذ أن عين واليا على مصر •

استدعى محمد على السيد عمر مكرم • وتشاور معه على انفراد فى الأمر بعد أن أفضى اليه بالمؤامرة التركية ، وطلب اليه المعونة ، وفى هذا الاجتماع تم الاتفاق على الخطوط الرئيسية للخطة ، ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره هيئة كبار العلماء « وعرفهم — محمد على — بصورة الأمر الوارد بعزله وولاية موسى باشا » وأعلمهم ان ماتم بسعى الانجليز والمماليك لدى السلطان ووجه محمد على الى العلماء الخطاب قائلا : « فأعملوا فكركم ورأيكم فى ذلك » •

ولم يكن الأمر يستدعى اعمال فكر من المشايخ فقد اتفق محمد على فى اجتماعه المنفرد مع عمر مكرم على الخطة التى ارتضاها هو للخروج من المأزق وكانت تتلخص فى كتابة مذكرة (عرضحال) الى السلطان عن لسان المشايخ ، ووضع محمد على خطوطها الرئيسية بنفسه وأرسلها مع (ديوان أفندى وعبد الله بكتاش الترجمان) الى الشيخ عبدالله الشرقاوى « وأمروا المشايخ بتنظيم العرضحال وترصيعه ووضع أسمائهم وختومهم عليه ليرسله الباشا الى الدولة فلم تسعهم المخالفة ونظموا صورته ثم بيضوه فى كاغد كبير » (١٣) وظاهر من عبارة الجبرتى

(١٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٢ •

أن المشايخ لم يكن لهم دخل فى « العرضحال » سوى الترصيع والتنميق والتنظيم والتبييض ووضع أسمائهم عليه • وعلى كل فقد تضمن هـذا « العرضحال » الحجج والدعاوى التى رآها الباشا نفسه مؤيدة له من الناحيـة الشعبية ، وأهمها اظهار استياء الأهالى من رجوع المماليك بسبب فسـادهم السـابق وجرائمهم التى ارتـكبوها فى حق الشعب وتعطيلهم لمهمات الحرمين ، ولمـا كان الوضع الجديد باعادة المماليك الى الحكم سوف يستند الى كفالة المشايخ فقد عول محمد على أن يتضمن العرضحال التماسهم بالعفو عن تعهدهم وكفالتهم المنتظرة للماليـك • « فان شرط الـكفيل قـدرته على المـكفول ونحن لا قـدرة لنـا على ذلك » بسبب أعمال المماليك الشهيرة فى سفك الدماء ، ثم اعتذروا عن محمد على فى شأن الأموال التى أخذها من الشعب بأنه اضطر اليهـا لأجل « اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الأشقياء والمفسدين والطغاة المتمردين امتثالا لأوامر الدولة العلية » (١٤) •

ولقد كتبوا من تلك المـذكرة نسختين : احداهمـا : أرسلت الى القبطان باشا والأخرى : الى السلطان • وهكذا نجح محمـد على فى الاستعانة بالمشايخ فى تحقيق أغراضه وتنفيذ خطته باحكام •

ولقـد كان الطريق الى جـذب المشـايخ الى صف محمـد على واشراكهم معه فى موقف المعارضـة سهلا ميسرا ، لأن محمد على منذ تسلم مقاليد الحكم عمد الى مكافأة المشايخ بأن وزع القرى التى كانت بأيدى المماليك ودخلت فى حوزة الحكومة على كبار العلماء فصارت لهم حصص التزام كبيرة ينتفعون بايرادها بعد دفع مال الميرى عنهـا ، ثم ساعدهم على الاستكثار من هذه الحصص ، فنشأت بسبب ذلك طبقـة من أصحاب الأملاك الذين صـار يقتضيهم نفعهم الخـاص مناصـبة المماليك العـداء ولم يعد من صالحهم أن يسترجع هؤلاء سلطانهم فى

(١٤) راجع النص الـكامل لهذا العرضحال بقسم الوثائق .

الحكم ، وأن تعود الأمور سيرتها الأولى حسب أوامر البـــاب العالى ، كما ارتبطت مصلحة العلمـــاء بمصلحة البـــاشا منذ حادث انقلاب مايو سنة ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) الذى ترتب عليه رفعة شـــأنهم بين ســـواد الشعب بسبب ماوجده البـــاشا نفســـه من فائـــدة الاســـتمرار فى مشاورتهم • وقـــد خيل الى العلماء ان وضعهم سوف يستمر على تلك المشاركة مع الباشا فى تصريف شئون البلاد ، وكان معنى نقـــله الى (سالونيك) ورجوع البكوات حرمانهم من تلك المزايا السالفة [١٥] وتلك الأسباب التى تفسر لنـــا انقياد المشايخ لخطة محمد على فى مقـــاومة أوامر السلطان وامتثالهم لتعليماته من أولها الى آخرها • وهذا مادعا (دروفتى) قنصل فرنسا فى مصر الى القول بأن « السيد عمر مكرم صاحب النفوذ الـــكبير على سكان القـــاهرة قـــد (اشتراه) محمـــد على » وقال (مسيت) قنصل بريطانيـــا ، عن الوسائل التى لجأ اليهـــا محمد على لاجتيـــاز أزمة العزل والنقل الى سالونيك « أنه ورط فى مكر وبمهارة فى نزاعه (مع البـــاب العالى) جمـــاعة من المتصدرين فى القـــاهرة ، بأن جعلهم يظفرون بنصيب كبير من أملاك المماليك المسلوبة فصـــار من صـــالح هؤلاء اذا عدم عودة البكوات لممارسة السلطة مرة أخرى » [١٦] •

ولقـــد وصلت عريضة العلماء الى قبطان باشا ولـــكنه لم يكترث بهـــا وأرسل على الفور ثلاث رسائل صحبة سلحداره « احداها خطابا للمشايخ وأخرى الى الشيخ السادات وثالثة الى السيد عمر النقيب •• ومضمون الـــكل الاخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته (سالونيك) وولاية السيد موسى باشا المنفصل عنهـــا مصر وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للأوامر والاجتهاد فى المعاونة وتسهيل

---

(١٥) د. محمـــد فؤاد شـــكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ — ج ٢ ص ٤٢٧ •

(١٦) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٢٨ •

محمد على باشـــا فيما يحتاج اليه من الســـفن ولوازم السفر •• من غير تأخير حسب الأوامر السلطانية » (١٧) •

ولم يكن فى وسع هيئـــة كبار العلماء أن يتصرفوا منفردين عندما وصلتهم رســـائل القبطان باشـــا فتوجهوا الى محمـــد على بعـــد أن اجتمعوا فى منزل عمر مكرم اجتماعا قصـــيرا ويظهر أنهم لم يناقشوا فيه الموضوع • بدليل ماحدث بعد ذلك فى مجلس محمد على وأعنى به تركهم الموضـــوع له برمتـــه يتصرف فيـــه كما يشـــاء وأنهم مطيعون لأوامره ولربما ناقشوه ولكن استقر رأيهم على ترك الأمر لمحمد على •

اجتمع العلماء بمحمد على فى مساء ٢٤ ربيع الثانى ١٢٢١ هـ (١٤ يوليو ١٨٠٦ م) وسألهم البـــاشا قائلا لهم : « وصلت اليكم المراسلات الواردة صحبة السلحدار » ؟ قالوا : نعم فسألهم محمد على « مارأيكم فى ذلك ؟ قال الشيخ الشرقاوى ليس لنـــا رأى والرأى ماتراه ونحن الجميع على رأيك فقال لهم : فى غـــد أبعث اليكم صـــورة تكتبونها فى رد الجواب » •

وهذا يدل بوضوح على أن العلماء قـــد أصبحوا آلة فى يد محمد على • ومن ثم اطمأن الى احكام خطتـــه فى العصيان ، وأرسل اليهم فى اليوم التالى لهذا الاجتماع ٢٥ من ربيع الآخر (١٥ يوليو) « صورة مضمونها أن الأوامر الشريفة وصلت الينـــا وتلقيناها بالطاعة والامتثال الا أن أهل مصر ورعيتهـــا قوم ضـــعاف وربمـــا عصت العســـاكر عن الخروج ، فيحصل لأهل البلد الضرر وخراب الدور وهتـــك الحرمات ، وأنتم أهل الشفقة والرحمة والتلطف » (١٨) •

وكانت هذه هى العريضة الثانية من العلماء الى القبطان وأرسلها محمد على الى القبطان وأرسل اليه كثيرا من الهدايا ، وقبل القبطـــان

---

(١٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ صص ١٣ — ١٤ •
(١٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٤ •

الهدايا ورفض الأخذ بما جاء فى عريضـــة العلماء الثانية وأرسل ردا عليها يقول : « ان القبودان لم يقبل هــذه الأعــذار ولا مانمقوه من التمويهات التى لا أصل لها ، ولابد من تنفيــذ الأوامر وسفر البـــاشا ونزوله هو وحسن باشا وعساكرهما وخروجهم من مصر وذهابهم الى ناحيـــة دميـــاط وسفرهم الى الجهة المأمورين بالذهاب اليها ولا شيء غير ذلك أبدا » (١٩) •

دور الزعماء فى مقاومة المماليك :

يبدو أن الجبرتى كان يتزعم الفريق المناصر لمحمد بك الألفى وهذا مانأخذه من حديثـــه عنه عنـــدما ترجم له عند وفاته ، بيد أن جبهتـــه كانت جبهة ضعيفة ولم يكن يتجمع حوله قليل يذكر من العلمـــاء نظرا لانتهاء دولتهم بالقـــاهرة ، واستيلاء (محمد على) على العاصمة جعله يصـــانع رجال الأزهر فالتف حوله المتصـــدرون منهم وفى مقـــدمتهم عمر مكرم صاحب النفوذ الشعبى الجارف والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وهو بحكم منصـــبه الدينى يرأس هيئـــة كبـــار العلماء • ومن ثم نرى أن الألفى عنـــدما وصلتـــه أنبـــــاء الفرمانات الجديدة التى تأمر بنقل محمد على وعودة المماليك بعد العفو عنهم امتلأ فرحا وأرسل خطابات الى العلماء يطلب منهم أن يضبطوا أمر الرعيـــة ويذعنوا بالطاعة والولاء لأوامر السلطان • ولـــكن محمـــد على قبض على هؤلاء الرسل ولم يتجاسر أحـــد من أنصـــار المماليك أمثال الشيخ عبد الرحمن الجبرتى على رفع صوته •

وتقـــدم الألفى الى دمنهور ليتخذها قاعـــدة لقواته ، وكان يظن أن أهلها لا يخالفون له أمرا بعد وصول الفرامانات الجـــديدة ، فطلب اليهم تسليم المدينة واذعانهم لحكمه ، لـــكن الأهالى رفضوا التسليم ،

---

(١٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٥ •

واستعدوا للمقـــاومة وأرسلوا الى السيد عمر مكرم فقد كانت دمنهور داخلة فى دائرة التزامه فأرسل اليهم عمر مكرم يطلب منهم عدم تسليم المـــدينة للألفى ، وأنه سوف يمدهم بالأسلحة فصمدوا صمودا شديدا دام ثلاثة أشهر بسبب تشـــجيع عمر مكرم لهم وامدادهم بالأسلحـــة والذخائر والمؤنة . وانتصر المماليك على جنود محمد على فى معـــركة (النجيلة) على الشاطىء الغربى لفرع رشيد جنوبى الرحمانية يوم ١٣ أغسطس ١٨٠٦ م (١٢٢١ هـ) ، وقتل من الدلاة وغيرهم أناس كثيرون، والقى جنود محمد على بأنفسهم فى النيل « وامتلأ البحر (النيـــل) من طراطير الدلاتية » [٢٠] ووصل خبر انتصـــار المماليك الى القـــاهرة وتحدث النـــاس به وانزعج محمد على وجنوده بسبب هذه الأنبـــاء المؤسفة . وتشـــجع الألفى وعاد الى حصـــار دمنهور ولـــكنها قاومت الحصار بقوة وشجاعة ، بفضـــل معونة السيد عمر مكرم لهم بالسلاح والمؤنة ، وبفضل ما اتصف به أهل دمنهور من الشجاعة « وان أهالى دمنهور قـــد أظهروا مثل هذه الشجاعة والمثـــابرة أثنـــاء الحمـــلة الفرنسية فى ظروف تختلف عن الظروف التى قاوموا فيها قوات الألفى مما يدل على مافطروا عليه من الشجاعة » [٢١] .

ولقد ظل المماليك فى هـــذه الفترة على انقســـامهم لأن البرديسى وأنصـــاره ظلوا فى الصعيد ولم يتحـــدوا وكان هـــذا عاملا كبيرا فى هزيمتهم ، وقـــد عرف محمد على أن يزيد من هـــذا الخـــلاف فأرسل اليهم يتفـــاوض معهم لـــكى يصرفهم عن مناصرة الألفى ، ومن ناحية أخرى فقـــد أغدق محمد على كثيرا من الهـــدايا على (صـــالح باشا) القبطان وحاشيته وكان يقول فى هذا الصـــدد « انى أعـــرف الأتراك

---

(٢٠) كان من عادة جنود الولاة أن يضع كل منهم فوق رأسه طرطورا فعند نزولهم فى النيل غرقى وقتلى امتلأ النيل بهذه الطراطير كما ذكر الجبرتى جـ ٤ ص ١٥ .

(٢١) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على — ص ٣٨ .

وأعرف الوسيلة التى تتبع معهم ، فالرشـــوة أداة فعالة مع أناس من طرازهم ، وكانت القاهرة لذلك فى نظره سلعـــة فى سوق الدلالة يفوز بها من يدفع أكثر ويسبق منافسه وغريمه .

وعلى ذلك فقد ظل صـــالح باشا بالاسكنـــدرية يرقب الحوادث وينتظر الفريق الفـــائز فى الصراع الدائر ، وفى أثنـــاء ذلك أصـــدر البـــاب العالى تعليماته الى القبطان باشـــا يترك له مطلق حرية فى أن يتصرف بما يراه صـــالحا ، وبدأ يفاوض محمـــد على واشترط عليـــه « مؤقتـــا » وحتى يأتيـــه قرار التثبيت من الســـلطان ثلاثة شروط : أولهما : أن يكتب المشـــايخ (عريضـــة) جـــديدة يؤيدون فيها مطلبهم الذى ذكروه فى عريضيتهم السابقتين فى (١١ ، ١٤ يوليو ١٨٠٦ م) وهو بقـــاء محمد على فى الحكم حتى يبعث بهـــا الى الديوان العثمانى والشرط الثانى : أن يدفع محمـــد على أربعـــة آلاف كيس نظير تثبيت السلطان له فى الولاية ، والثالث : أن يبقى ولده ابراهيم رهينـــة فى الآستانة حتى يتم دفع المبلغ (٢٢) .

واستكتب محمد على المشايخ للمرة الثالثة (عريضة) جـــديدة . الى القبطان باشا وأرسلها مع ولده ابراهيم بك ومعه كثير من الهـــدايا كالخيول والأقمشة الهنـــدية وغير ذلك ، ومضمون هذه (العريضـــة) « أن محمد على باشـــا كافل الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقامع المعتدين ، وان الـــكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايتـــه وأحكامه وعـــدله ، والشريعـــة مقامه فى أيامه ولا يرتضون خلافه لمـــا رأوا فيـــه من عدم الظلم والرفق بالضـــعفاء وأهل القرى والأرياف ومحبته للعلماء وأهل الفضائل والاذعان لقولهم ونصحهم » (٢٣) .

---

(٢٢) د. محمـــد فؤاد شـــكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ — ج ٢ ص ٤٥٩ .

(٢٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ صص ١٧ — ١٨ .

أسلوب الاجبار فى التوقيع :

ويظهر أن جمهور العلماء والأغلبيـــة العظمى منهم لم تكن راضية عمـــا كتب من عرايض وما حـــدث كان تضـــامنا من عمر مكرم وبعض العلمـــاء مع محمـــد على بدليل أن الجبرتى قال معلقـــا على العرضحال الأخير بقوله : « ولمـــا كتبوا ذلك لم يطلع عليه الا بعض المتصـــدرين ويكتب كاتبـــه جميع الأسماء تحتـــه بخطه ، ولا يمكنون البواقى الذين يضعون امضاءهم وأسماءهم من قراءته بل يطلب منهم الخاتم فيختمون به تحت اسمه اذ لا يمكنه الشـــذوذ والمخالفة لحرصه على دوام ناموسه وقبوله عنـــد سلطانه ودائرة أهل دولته ، وان كان متورعا وليس له كبير صـــورة فيهم ولا صـــدارة مثلهم وأبى أن يسلم خاتمه ليفعل به ذلك كغيره ختموه بخاتم موافق لاسمه تحت امضائه » (٢٤) .

وانتهت المشكلة بورود مرســـوم الى محمد على « مضمونه ابقاء محمد على باشا واستمراره على ولاية مصر حيث أن الخاصـــة والعامة راضـــية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس وقبلنا رجاءهم وشهادتهم وانه يقوم بالشروط التى منها : طلوع الحج ولوازم الحرمين، وايصـــال العلائف والغـــلال لأربابها على النسق القـــديم ، ليس له تعلق بثغور رشيد ولا دمياط ولا اسكندرية ... ومن الشروط أيضا أن يرضى خواطر الأمراء المصريين ويمتنع عن محاربتهم ويعطيهم جهـــات يتعيشون منها » وكان الشرط الأخير مجرد مجاملة للماليك قال عنهـــا الجبرتى أنها « من قبيل تحلية البضاعة » (٢٥) .

ولقـــد أقام محمد على استقبالا فخما لنـــائب القبطـــان وعقـــد الديوان بالقلعـــة لقراءة المرســـوم ، وحضر هـــذا الاجتمـــاع كبـــار

(٢٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٨ .
(٢٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص‌ص ١٩ — ٢٠ .

المشايخ والقاضى ماعدا الشيخ الشرقاوى الذى كان قد حدد محمد على اقامته فى منزله هو ومن يلوذ به من المشايخ « فسأل عليه القاضى وعلى من تأخر فقيل له الآن يحضر ولعل الذى أخره ضعفه ومرضه » وكان السبب فى تأخر الشيخ الشرقاوى وأنصاره : انقسام العلماء بسبب نزاع الشيخ الشرقاوى مع الشيخ الأمير على نظارة أوقاف الأزهر وانحياز عمر مكرم الى جبهة الشيخ الأمير ، فأغرى به محمد على فحدد اقامته فى منزله وسوف نتحدث عن هذا الخلاف بالتفصيل فى الفصل القادم ان شاء الله • ولقد نبه المنادون على الناس باقامة الزينات ابتهاجا بهذا المرسوم فزينت القاهرة ثلاثة أيام بلياليها •

وهكذا انتهت تلك الأزمة وخرج منها محمد على منتصرا بفضل معونة العلماء له فهم الذين جعلوا الشعب يلتف حوله وسهلوا له جمع المال من أجل تشهيل الجنود لمحاربة الألفى ، وتقديم الرشا والهدايا للقبطان وحاشيته وكثيرا ماكانت تفرض الضرائب « على البلاد والقرى والتجار ونصارى الأروام والأقباط والشوام ، ومساتير الناس ، ونساء الأعيان والملتزمين وغيرهم » كان الذى يقوم بجمع هذه الضرائب هم جماعة كبار العلماء ، وكانت الحجة فى ذلك دفع الخطر الخارجى من أجل مصلحة محمد على •

ولقد قدم الزعماء لمحمد على فى هذه الفترة الحرجة خدمات جليلة حيث أنهم قد قطعوا علاقتهم بالمماليك وخاصة بالألفى الذى حاول مرارا استمالتهم الى جانبه فلم يظفر بذلك •

الألفى يطلب من العلماء مساعدته :

فى شهر محرم سنة ١٢٢١ هـ حاول الألفى أن يستميل العلماء والسيد عمر مكرم الى جانبه فأرسل لهم عدة خطابات وهو بالجيزة مجملها أنه يطلب قوته ومعاش المماليك الذين معه لأن الجهة التى كان

بها لم يبق فيها شىء يكفيه ويكفى من معه من الأجناد ثم قال « ونرجو من مراحم أفندينـــا بشفاعتكم أن ينعم علينـــا بما نتعيش به » ، وعند ذلك ذهب عمر مكرم الى محمد على وأخبره بمطالب الألفى ولكن محمد على لجأ الى المراوغة كعادته فى المنـــاورة ولم يلجأ الى الرفض المبدئى بل قال لعمر مكرم « اكتب له بالحضور حتى نتروى معه مشافهة » (٢٦)

ولـــكن الألفى لم يقبـــل ذلك لعلمـــه بغـــدر الأتراك وأن الأمر لايعدوا الا أن يكون مكيدة من مكايدهم ، فأرســـل اليه عمر مكرم بأنه « يتعدى على القرى ويطلب منهم المغـــارم ويرعى زرعهم وينهب مواشيهم » ، فـــكتب اليه الألفى بأن سبب ماحـــدث « ضيق الحال » والضرورة التى تلجئـــه الى ذلك بسبب « الجمعيـــة التى يصحبها من العربان وغيرهم « فان الذى اضطره الى جمع هذه الجموع معـــه أن البـــاشا يرسل فرق الجنود لمحاربتـــه فلزمه أن يجمع اليه من يساعده فى الدفاع عن نفســـه كما يفعل البـــاشا نفسه حين يجمع أصـــناف العساكر من الأقطار الرومية والمصرية لمحاربتنا وقتالنا » .

وأما بالنسبة للنهب والسلب فان جنود البـــاشا « ينهبون البـــلاد والعبـــاد للانفـــاق » على جيوشهم « ونحن كـــذلك نجمع الينـــا من يساعدنا فى المنع ونفعل كفعلهم لننفق على من حولنـــا من المساعدين لنا وكل ذلك يؤدى الى الخراب والدمار وظلم الفقراء » .

ثم وجه الألفى طلبـــه الى العلماء بقوله : « والقصـــد منكم بل الواجب عليكم السعى فى راحة الفريقين » وكرر طلبـــه فى مطالبـــة المشايخ بالتوسط لدى البـــاشا ليقطعه هو وجمـــاعته اقليما من الأرض واســـعا .

ويكون هنـــاك عهد بيننـــا بكفالة « بعض من نعتمـــد عليـــه من

---

(٢٦) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٣ .

عندنا وعندهم ويكتب بذلك محضر لصاحب الدولة وننتظر رجوع الجواب وعند وصوله يكون العمل بمقتضاه » [٢٧] .

رأى محمد على أن يقطعه اقليم الجيزة وأرسل له خطابا بذلك من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب الألفى آنفا ، وذلك خداعا للألفى . غير أن الألفى لم يأمن لخداع محمد على وظل على موقفه [٢٨] .

وعندما وصلت الألفى أنباء الفرمانات التى كان يحملها صالح باشا القبطان أرسل على الفور الى العلماء يطلب منهم أن يضبطوا أمر الرعية ويذعنوا بالطاعة والولاء لأوامر السلطان ، فلم يجبه أحد من المشايخ وظلوا متضامنين مع محمد على .

وعندما حاصر الألفى دمنهور كانت خطابات السيد عمر مكرم لأهل دمنهور ذات أثر بالغ حيث أمرهم بعدم تسليم المدينة للألفى والدفاع عنها ولم ينفع الألفى وساطته لدى انجلترا والباب العالى وانتصر محمد على « وتلفت طبخة الألفى والتدابير ولم تسعفه المقادير » كما يقول الجبرتى . كما ساعد عمر مكرم محمد على عندما نشب الخلاف بين عرب الحويطات والعبابدة واحتشد الفريقان حول القاهرة ومنعوا المواصلات خارج القاهرة ، « وانقطعت السبل » بسبب ذلك ، ولكن السيد عمر مكرم تمكن من استدعاء كبرائهم عنده وأصلح بينهم، وبذلك أنهى مشكلة هددت القاهرة بمجاعة وخاصة فى وقت كان المماليك يسيطرون على داخل البلاد [٢٩] .

وعقب اخفاق الألفى فى محاولته ، لم يعش طويلا وعاجلته منيته ومات بالقرب من دهشور فى ليلة ١٩ من ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ (٢٨ يناير سنة ١٨٠٧ م) وخلا الجو لمحمد على .

---

(٢٧) المصدر السابق — ج ٤ صص ٣ — ٤ .
(٢٨) المصدر السابق — ج ٤ ص ٤ .
(٢٩) المصدر السابق — ج ٤ ص ١٨ .

دور الأزهر فى مقاومة الحملة الانجليزية على مصر ١٨٠٧ :

الموقف فى القاهرة قبل مجىء الحملة :

انتهت أزمة نقل محمد على الى (سالونيك) وخرج منتصرا بفضل زعماء الشعب من رجال الأزهر ، وما كاد ينتهى منها حتى قابل عدة صعوبات كان فى مقدمتها حاجته الى المال ، وتمرد الجنود الذين يطالبونه فى عناد مستمر بدفع مرتباتهم المتأخرة ، ثم ماكان يخشاه من اتحاد المماليك ضده ، ولكن المقادير ساعدته بوفاة كل من البرديسى والألفى فى سنة واحدة [٣٠] .

وبذلك « خلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه » كما قال الألفى عندما عالجته المنية ، وقال محمد على عندما وصله نبأ وفاة الألفى « الآن طابت لى مصر وما عدت أحسب لغيره حسابا » وكان محمد على باشا يقول قبل وفاة الألفى « مادام هذا الألفى موجودا لا يهنأ لى عيش ومثالى أنا وهو مثال بهلوانين يلعبان على الحبل لكن هو فى رجليه قبقاب » (اشارة الى عدم تمكنه من المماليك) فلما أتاه المبشر بموته قال قولته السالفة [٣١] .

وكان مبعث خوف محمد على من الألفى ماكان يدركه فيه من ذكاء وبعد نظر وقوة شخصية وسلامة تقدير هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن الألفى كان يعتمد على دولة كبرى فى مناصرته وهو أول من جد فى هذا الصدد وسافر من أجله الى انجلترا . ومن ثم يقول الجبرتى عن (الألفى) وهو آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة ونظرا فى عواقب الأمور ، وكان وحيدا فى نفسه فريدا فى

---

(٣٠) توفى الألفى ١٩ ذو القعدة سنة ١٢٢١ هـ (٢٨ يناير ١٨٠٧م) والبرديسى ٨ رمضان ١٢٢١ هـ (١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦ م) .

(٣١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٤٠ .

أبنـــاء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم، وزاد تفرقهم ، وما زالوا فى نقص وادبار وذله وهوان وصغار ولم تقم لهم بعـــده راية انقرضـــوا وطردوا الى أقصى البـــلاد فى النهـــاية (٣٢) •

وما كاد يموت الألفى حتى انتعشت نفســـية محمد على وتشجع للخروج لحرب المماليك وهو الذى كان يخشى ملاقاتهم وجهـــا لوجـــه وكان يستعمل الدهاء والمـــكر والخديعة فى الأيقاع بهم دون مجابهتهم كما سبق أن شرحنـــا •

محمد على يعتمد على المشايخ فى خداع المماليك :

وعلى الرغم من تفرق المماليك عقب وفاة البرديسى والألفى الا أن محمد على اعتزم أن يستعمل سلاح المخادعة فى القضاء على المماليـــك فأرسل لهـــذا الغرض (سكرتيره) الى القاهرة فى (٢٠ ذى الحجة ١٢٢١ هـ) بعد خروجه متجها الى الصعيد •

وفى القاهرة قام سكرتير محمد على باعداد وفـــد من العلمـــاء لمفاوضـــة المماليك لاجراء الصـــلح بينهم وبين البـــاشا وفى (٢٦ ذى الحجة) « وقع الاتفـــاق على ثلاثة أشخاص هم : ابن الشيخ الأمير وابن الشيخ العروسى ، والسيد محمد الدواخلى » (٣٣) فسافر وفـــد المشايخ الى الصعيد ، والتقى بمحمد على بنـــاحية ملوى ، واســـتأذنه المشايخ فى الذهاب فيما أتوا بسببه من السعى فى الصـــلح ، ولـــكن محمد على استمهلهم نظرا لأنه كان يطمع فى أن ينتصر عليهم أولا حتى

(٣٢) كان الجبرتى يحب الألفى لشهامته ومهابته الشخصية ويقـــدره تقديرا عظيما ، وقـــد اختصه دون بنى جنسه برثاء طويل حزين وقد كانت له به مقابلات شخصية لحبـــه للعلم كما ذكر ذلك عنه فى ترجمتـــه (ج ٤ صص ٢٧ — ٤٤) •

(٣٣) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٤ ص ٢٤ •

يملى عليهم شروطه ، ثم عاد فأرسل المشايخ الى المماليك عنـــدما راوغه الآخرون •

وعندما وصل وفد المشـــايخ الى المماليك بناحية ملوى وتفاوضوا معهم بشأن الصلح مع محمد على وكف الحروب ، رد عليهم المماليـــك بقولهم « كم من مرة يراسلنا فى الصلح ثم يغـــدر بنـــا ويحاربنـــا » ولـــكن وفـــد المشايخ احتج على المماليك بأنهم كانوا يخالفون الشروط فيما مضى •

وفى أثنـــاء هذه المفاوضات ورد الى البـــاشا وهو فى الصعيد خبر قدوم الحملة الانجليزية واستيلائها على الاسكندرية وأن الانجليز أرسلوا رسلهم الى الأمراء بالصـــعيد ، فارتبك محمد على فى أمـــره « وأرسل الى المشايخ يستعجلهم فى اجراء الصلح وقبول كل ماشترطوه على الباشا ولا يخالفهم فى شىء يطلبوه أبدا » [٣٤] وكانت هذه ضرورة سياسة تقتضى مهادنتهم حتى يدفع خطر الحملة الانجليزية •

بيد أن المماليك عنـــدما وصلتهم رسل الانجليز ترددوا فى عقـــد الصـــلح ولـــكن المشـــايخ « وعظوهم وذكروا لهم الآيات القرآنيـــة والأحاديث النبوية وأن الله هداهم فى طفولتهم وأخرجهم من الظلمات الى النور وقد نشأوا فى كفالة أسيادهم وتربوا فى حجور الفقهاء وبين أظهر العلماء ، وقرءوا القرآن وتعلموا الشرائع ، وقطعوا مامضى من أعمارهم فى دين الاســـلام واقامة الصـــلوات والحج والجهـــاد ثم يفسدون أعمالهم آخر الأمر ويوادون من حاد الله ورسوله (الانجليز) ويستعينون على اخوانهم المسلمين ويملكونهم بلاد الاســـلام يتحكمون فى أهلها والعياذ بالله من ذلك » [٣٥] •

وتأثر المماليك من وعظ المشايخ وخافوا أن يفتى علماء الشريعـــة

(٣٤) المصـــدر السابق — ج ٤ ص ٥١ .
(٣٥) المصـــدر السابق — ج ٤ ص ٥٢ .

بمروقهم عن الدين فامتثلوا للصلح ، ووعــدهم المشايخ بأن يأخــذوا كل مطالبهم من البــاشا ، وانخدع المماليك بذلك ، وحضر المشايخ الى القاهرة بعد أن نجحوا فى ســفارتهم الى المماليك التى تم بها خداعهم وبذلك زال خطرهم عن محمــد على وتفرغ لمقاومة الحملة الانجليزية ولقد قام رجال الأزهر بمهمة أخرى ابان حملة محمد على ضد المماليك فى الصعيد وكان لها فضل كبير فى تهدئة الجبهة الداخلية ، وأعنى بهــا وقوفهم فى وجه أطمــاع (ياسين بك الألبانى) المغامر الذى عول على امتلاك القاهرة منتهزا فرصــة وجود محمد على بالصــعيد وفى غمرة الحملة الانجليزية وكان يحقد على محمد على وصوله الى الحكم . فلقد أرسل ياسين هــذا رسالة الى عمر مكرم والمشايخ والقاضى يذكر فيها « أنه لمــا بلغه وصــول الانجليز أخذته الحميــة الاســلامية وحضر وصحبته ستة آلاف من العسكر ليرابط بهم بالجيزة أو بقليوب ويجاهد فى سبيل الله فــكتبوا له أجوبة مضمونها ان كان حضوره بقصد الجهاد فينبغى أن يتقــدم بمن معه الى الاسكندرية واذا حصل له النصر تكون له اليد البيضــاء والمنقبــة والذكر والشهرة الباقيــة فانه لافائدة من اقامته فى الجيزة أو قليوب وخصوصا ان قليوب بالبر الشرقى » (٣٦) وكان هذا الجواب سببا فى تراجع ياسين بك عن الهجوم على القاهرة .

قــدوم الحمــلة :

ظهرت تجاه مدينة الاسكندرية فى ١٦ مارس ١٨٠٧ م (١٢٢٢هـ) السفن الانجليزية المقلة للحملة وأنزلت جنودها (٣٧) فى اليوم التــالى

---

(٣٦) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ٥٢ .

(٣٧) ذكر الجبرتى أن هذه الحملة كانت مكونة من ستة آلاف جندى، وهذا العدد غير بعيد عن تقــديرات المراجع الحديثــة حيث يذكر الرافعى أنها كانت مكونة من نيف وستة آلاف جنــدى نقــلا عن الوثائق الانجليزية التى نشرتها الجمعية الجغرافية فى كتــاب (مصر وانجلترا — حملة ســنة ١٨٠٧ م) للمسيو دوان .

أنظر : الرافعى — عصر محمد على — ص ٥٣ .

بدون مقـــاومة تذكر من حاكم المـدينة التركى الذى كان خاضـعا مباشرة للبـاب العالى فقد استطاع قنصل بريطانيا العام رشوته فسلم الاسكندرية ودخلتها جنود الحملة فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧ م .

ولم يكن الغرض من هذه الحملة احتلال مصر ولـكن احتـلال الاسكندرية فحسب لعدة أغراض : منها منع نزول حملة فرنسية فى هذه البلاد ، اذ سيطرت على عقول رجال السياسة والحرب فى بريطانيا أن فرنسا ستحاول انفاذ حمـلة الى مصر ، كمـا أن ميست Misset القنصـل البريطانى العـام فى مصر أخذ يردد فى رسائله العـديدة لحكومته ان مصر فى حالة فوضى سياسية ، وأن العثمانيين عاجزون عن دعم نفوذهم فيها ، وأن الفرنسيين يحاولون تدعيم نفوذهم على أنقاض النفوذ التركى ، وكان من أغراض الحملة أيضـا : تأييد محمد بك الألفى الزعيم المملوكى لتكوين حكومة مملوكية موالية لبريطانيـا ، وتعمل على اقصاء النفوذ الفرنسى من البـلاد وبسط النفوذ البريطانى مكانه فى سائر البـلاد ، كما استهدفت بريطانيا أخيرا من هـذه الحملة الضغط على البـاب العالى لارغامه على ترك صـداقة فرنسا ، والوقوف الى جانب بريطانيا وروسيا (٣٨) .

علم الانجليز بوفاة الألفى قبل نزولهم الاسكندرية فأرسلوا الى المماليك بالصعيد لاستدعائهم الى الوجه البحرى ، ووصلخبر حضورهم الى القـاهرة ، وكان محمد على غائبا عنهـا يقاتل المماليك فى الصعيد وعندما تأكد خبر استيلائهم على الاسكندرية اضطربت الأحوال بالقاهرة بين الجنود والأهالى ، فقـد عزم أكثر الجنود على الفرار الى جهـة الشام ، وشرعوا فى تهيئـة أمورهم لهـذا الغـرض ، واسـتخلاص أموالهم من أيدى المضاربين والمستقرضين بالربا ، كما أخذوا فى ابدال مامعهم من الدراهم والقـروش وغـيرها من النقود التى يثقل حملها

(٣٨) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — صص ١٧٩—١٨٠ .

بالذهب لخفـــة حمله ، وأخذوا فى شراء دواب الارتحال وغـــيرها من الأمور اللازمة لسفر البر ، وفارق الــكثير منهم النساء وباعوا ماعندهم من الفراش والأمتعة ، ووصل الخبر الى محمد على بالصعيد ، فانحلت عزيمته وطلب من المماليك الصلح ، ورضخ لمــا يطلبونه من شروط [٣٩].

أيقن محمد على أن الانجليز سوف يتممون استيلاءهم على الديار المصرية وصحت عزيمته على العودة ، ولــكنه تباطأ وتلكأ فى السير الى القاهرة مخافة وصـــولهم الى المــدينة ، فعند ذلك يسير هو شرقا عن طريق الشام ، ويكون له العـــذر بأن ذلك حدث فى غيبته عن القاهرة •

دور الأزهر فى مقاومة الحملة :

هـــذا هو وضع الجنود العثمـــانيين الذين كانوا لا ينظرون الى مصلحة البـــلاد ، وانما ينظرون الى مصلحتهم الشخصية ، فلم يعـــد هنـــاك مفر من تجنيد الأهالى للدفاع عن البـــلاد ، فى هـــذه اللحظة الحرجة وقع عبء المقـــاومة على الأهالى ، وتزعم رجال الأزهر قيادة الدعوة الى النفير العام وجهاد الانجليز أعداء الدين •

وكان أهالى دمنهور الشجعان قـــد أرسلوا خطابا الى عمر مكرم فى ٢٣ محرم ١٢٢٢ هـ مضمونه أن الجنود الموجودين بالاسكندرية قـــد فروا هربا من وجه الانجليز وحضروا الى دمنهور ، وعزم كاشف دمنهور على الهروب هو الآخر ، وعلى الرغم من نصيحة الأهالى لهم بالثبـــات الا أنهم فروا هاربين من الانجليز وتركوا الأهالى يلاقون مصيرهم عزلا من السلاح كما وصل خبر آخر من ثغر رشيد فى ٢٤ محرم يخبر السيد عمر مكرم بانهزام الانجليز على أيدى الأهالى ، ووصلت جموع الأسرى الانجليز ورؤوس القتلى الى القاهرة فى ٢٦ محرم ودخلوا بهم من باب النصر وســـاروا بهم وسط المــدينة يتقدمهم اثنان من قواد الانجليز

(٣٩) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ٥٧ •

الطاعنين فى السن وهمـا راكبان على حمارين والبقية مشاة فى وسـط العسكر ورؤوس القتلى معهم على نبابيت « وكان عدد الرؤوس كمـا ذكر الجبرتى » أربعة عشر رأسا والأحيـاء خمسة وعشرون ولم يزالوا سـائرين بهم حتى وصلوا بهم الى حى الأزبكية ، وضربوا المـدافع ابتهاجا بهذا النصر المبين . كما أخذوا الأسرى الى سجن القلعة (٤٠) .

وفى هـذا اليوم نادى السيد عمر مكرم بالجهـاد الدينى وحض سكان القـاهرة على حمل السلاح ومقاومة الانجليز ، وذهب الى طلاب الأزهر وهم عـدته فى كل حركة وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك القاء الدروس ، وخـرج الأزهر شـيوخا وطلابا الى المـدينة لتعبئـة الرأى العـام وأشعلوا الحماس فى قلوب القاهريين بما كانوا يلقونه من خطب على المنـابر ومن المنـاداة فوق المآذن بضرورة الجهاد فى سبيل الله ، والقرع على الطبول لتنبيه الغافلين من النـاس .

ثم عقد السيد عمر مكرم اجتماعا ببيت القـاضى حضره الشـيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجـامع الأزهر والشيخ محمـد الأمير مفتى المالـكية وباقى المشايخ وعدد من كبار الضباط بالقاهرة « وتكلموا فى شأن حادثة الانجليز والاستعداد لحربهم وقتـالهم وطـردهم فانهم أعداء الدين والملة » وطالبوا بضرورة اتحاد الجبهة الداخلية وأن « يكون النـاس والعسكر على حال من الألفة والشفقة والاتحـاد وأن تمتنع العساكر عن التعرض للنـاس بالايذاء كما هو شـأنهم » حتى يتمكن الجميع من طرد الانجليز ، ثم اتفـق رأيهم على حفر خنـادق حول القـاهرة لتحصينها واعادة حفر الخنـادق التى كان الفرنسيون قـد حفروها أيام حملة بونابرت .

أشرف عمر مكرم بنفسه وبقيـة كبار العلماء والقاضى على عملية

---

(٤٠) المصـدر السابق — ج ٤ ص‌ص ٤٩ — ٥٠ .

حفر الخنـــادق ناحيـــة بولاق كما تجمع حولهم الجمـــع الـــكثير من النـــاس بأسلحتهم وكان فى صحبتهم القنصـــل الفـــرنسى [٤١] وهو الذى أشـــار عليهم بحفر الخنـــدق فى البـــداية « ووزعوا حفره على مياسير النـــاس » كما يقول الجبرتى •

وقاموا باعداد أدوات الحفر « واشتروا المقاطف والغلقان والفؤس والقزم وآلات الحفر وشرعوا فى بنـــاء حائط مستدير أسفل تل قلعة السبتية [٤٢] وأخذ المتطوعون يذهبون فى صبيحة كل يوم الى أطراف المـــدينة يعملون فى حفـــر الخنـــادق واقامة الاستحكامات شـــمالى القاهرة لصد الانجليز اذا جاءوا بطريق شبرا وبادروا الى العمل فى ذلك وسارعوا الى الاستعداد للقتـــال وعلى رأسهم عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون متطوعين نصـــف النهـــار ثم يعودون الى أعمـــالهم فى الظهر •

وظهرت العاصـــمة بتلك الروح التى تجلت فيهـــا قبيـــل معركة الأهرام سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) وفى خلال ثورة الشعب على خورشيد باشا سنة ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) وقال المسيو مانجان فى هـــذا الصـــدد يصف تحفز الجماهير ونشاطهم •

« كان السيد عمر مكرم يذهب فى صبيحة كل يوم تتبعه الجماهير الى حيث يشتغل العمال فى اقامة الاستحكامات ، وكثيرا مايبقى هناك النهار كله فى خيمة أعدت له ، وكان حضـــوره يثير الحماسة والشجاعة

---

(٤١) قنصل فرنسا الذى أشار اليه الجبرتى كان فى هذه الأثناء هو مغادر الثغر مخافة أن يقع اســـيرا فى أيدى الانجليز ، ورحل الى القـــاهرة المسيو دروفتى Drovette وكان بالاسكندرية عندما جاءت الحملة الانجليزية حيث أشـــار على زعمـــاء الشعب بحفر الخنـــدق كما ذكرنا (عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على ص ٦٢) •

(٤٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ صص ٥١ — ٥٢ •

فى نفوس النـــاس جميعا وقـــد بذل كل انســـان مافى وسعه لاقامة الاستحكامات (٤٣) •

نجدة أهل رشـــيد :

وبينما كان السيد عمر مكرم ومعـــه العلماء والمجـــاورون بالأزهر ينشطون فى حفر الخنـــدق حول القـــاهرة ، وصلتهم رسالة من السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد وزعيم حركة المقاومة بها يناشدون فيها زعمـــاء القاهرة بسرعة الاسعاف والامداد بالرجال والسلاح وعدم الاهمال لصد الانجليز الذين تجمعوا لاقتحام رشيد مرة أخرى •

قرأ السيد عمر مكرم تلك الرسالة على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد ، فامتثل الأهالى الى ندائه ، وخرجوا بأعداد كبيرة ، وكانوا على شـــكل طوائف فمنهم المغـــاربة والأتراك ، والعـــدوية والأسيوطية ، وأولاد البلد ، ولمـــا تكامل جمعهم توجـــه السيد عمر مكرم بهم الى وكيل محمـــد على واســـتأذنه فى الذهاب الى حـــرب الانجليز بهذا الجيش الشعبى الذى تم اعداده ، ولـــكن وكيل الباشا لم يوافق على خروجهم حتى يأذن لهم محمد على •

بيد أن حمـــاس الجماهير للجهـــاد دفع جماعة منهم للسفر الى رشيد وأسرعوا لنجـــدة أهل رشيد ولم يعبأوا بهذه الأوامر ، بينما بقى جزء منهم فى انتظار أوامر البـــاشا الذى كان مازال يتلـــكأ فى طريقه الى القاهرة قادما من الصعيد خائفا يترقب خشية من عواقب الأمور المنتظرة •

هذا ماذكره الجبرتى عن جهود العلمـــاء ودورهم فى تعبئـــة الجماهير للدفاع عن البلاد فى غيبة محمد على بالصعيد •

---

(٤٣) الرافعى — عصر محمد على — ص ٦٠ •

ولـكن القنصل الفرنسى (المسيو دروفتى) يذكر فى تقـاريره التى أرسلها الى حكومته أن العلمـاء قـد ابتهجوا بقدوم الانجليز . وأن عمر مكرم قد انحاز الى الانجليز ، فقـد كتب (المسيو دروفتى) الى القنصـل الفرنسى بالآستانة (سباستيانى) فى ٢٦ مارس يقول « والسيد عمر مكرم المتورط بدرجة خطيرة مع البكوات (ومن المتوقع لذلك أن يسىء هؤلاء معاملتـه اذا دخلوا القاهرة) لاينشـط — كما يبدو لى — ذلك النشـاط الذى تتطلبه الظروف الراهنة ، ولعل السبب فى ذلك نجـاح الوكلاء الانجليز فى كسبه الى جانبهم ، فقـد أعطاه هؤلاء كل الضمانات التى يطلبهـا منهم لحماية شخصه وأمواله »(٤٤)

وقـد شكا دروفتى بعـد ذلك من مسلك عمر مكرم الذى بلغـه عنه أنه أخفى عنده الترجمـان الانجليزى (يوسف عزيز) الذى يقوم بأعمال القنصلية العـامة فى القـاهرة بعد أن كان قـد طلب جواز مرور للذهاب الى رشـيد وحصل عليه — ثم علق على هـذا الحادث بقوله : « فاذا كان هذا صحيحا فلا مجال للشك عنـدئذ فى أن هـذا المهيج الشعبى المقتـدر قـد انحـاز الى الانجليز وكسبه هؤلاء الى جانبهم ، وانه أراد العثور على وسيلة يأمن بهـا على سلامة نفسه . الأمر الذى يفسر مسلـكه فى هـذه اللحظة وهـو مسلك يكاد يكون طابعه عدم الاهتمام التام » (٤٥) .

ويتضح هذا المسلك الذى أشـار اليه دروفتى أيضا من الأقوال التى أدلى بهـا (يوسف عزيز) الترجمان الأول للبعثـة الانجليزية فى مصر ، عندما دار البحث والتحقيق فى صقلية فى أسباب هزيمـة حملة فريزر بعـد فشلها نهائيا ، وكان يوسف عزيز من بين الأسرى

---

(٤٤) د. محمد فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن التاسع عشر — مرجع سبق ذكره ج ٢ صص ٦١٨ — ٦١٩ .

(٤٥) المرجع السابق — ج ٢ ص ٦١٩ .

الانجليز الذين غادروا القـــاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧ م ، فقال لدى استجوابه : « ان رؤســـاء الشريعـــة أنفسهم كانوا متفقين فيما بينهم على عدم السماح للجنود العثمانيين بدخول القـــاهرة اذا عاد هؤلاء منهزمين على يد الانجليز » وأكـــد يوسف عزيز أيضـــا « أن حكومة القـــاهرة قـــد صادرت بعد قليل من وصول الانجليز الى الاسكندرية خطابا (بالشفرة) كان قنصل النمسا وروســـيا العـــام يحاول ارساله الى الانجليز ، وقـــد كتبه بنـــاء على رجاء عمـــر مكرم له وجمـــاعة آخرين من رؤســـاء المشـــايخ والعلمـــاء ، وذلك ليؤكدوا (لمسيت) و (فريزر) صدق نواياهم الطيبة نحو الانجليز » (٤٦) •

ويعتقد الدكتور محمد فؤاد شكرى مؤرخ هذه الفترة بأن هزيمة الانجليز فى رشيد قـــد غيرت من مسلك السيد عمر مكرم والمشـــايخ عموما ، وأحيت معنوية القاهريين ، وأزالت الوهم الذى كان مستوليا عليهم ، وأثارت حميتهم وجعلتهم يهتمون بالدفاع عن مدينتهم ، وذلك لأن أحـــدا من النـــاس ماكان يعتقد أنه يسهل الانتصـــار على جيش أوربى مزود بأكمل الأســـلحة وأحدثهـــا ، ولـــكن مشاهـــدة الأسرى بالقاهرة قـــد نهض دليـــلا على أن هزيمة الانجليز أمر يسهل احرازه، ولا ينبغى لذلك أن يخشى الناس بأسهم » (٤٧) •

ويبـــدو أن الشعب بالقـــاهرة قـــد ابتهج فى بداية الأمر بقدوم الانجليز وتمنى استيلاءهم على البـــلاد ، وذلك بسبب أعمال النهب التى قام بهـــا جنود محمد على ، وتأخر العلماء فى الخروج الى رشيد حتى لاينفرد الجنود بالأهالى ، وعندما وصلت الأخبار بانتصـــار أهل رشيد تحمس العلماء للخروج الى الجهـــاد بدرجة أكبر ، ولو صـــحت أقوال دروفتى عن مسلك عمر مكرم والعلماء ، فيحتمل أن هؤلاء قـــد

---

(٤٦) المرجع السابق — ج ٢ ص ص ٦١٩ — ٦٢٠ •

(٤٧) المرجع السابق — ج ٢ ٦٤٩ •

احتاطوا لأنفسهم بما أرسلوه الى الانجليز من رسائل فى بادىء الأمر خوفا من دخول الانجليز وأصدقائهم من المماليك الى القاهرة .

والجبرتى وان كان لايذكر أن شيئا من هذا القبيل قد حدث من عمر مكرم والعلماء ، الا أنه يذكر فيما بعد ، (عندما تحدث عن اهانة بعض رؤساء جنود محمد على لبعض العلماء) مايدل على أن العلماء كانوا قد ابتهجوا بقدوم الحملة وتمنوا أن يحتل الانجليز مصر ويطردوا منها جنود الأرنؤد فذكر أن طائفة من عسكر محمد على يتزعمهم رئيسهم دخلوا منزل أحد الشيوخ المعتبرين واحتلوه ، عقب خروج الانجليز ، وعندما قال له المشايخ ، انها دار العالم الكبير وهذا لايناسب وأن النصارى واليهود يكرمون قسسهم ورهبانهم وأنتم أولى بذلك لأنكم مسلمون ، رد عليهم ذلك الضابط قائلا : « أنتم لستم بمسلمين لأنكم كنتم تتمنون تملك النصارى لبلادكم وتقولون انهم خير منا ونحن مسلمون ومجاهدون طردنا النصارى وأخرجناهم من البلاد فنحن أحق بالدور منكم » (٤٨) .

ففى هذا القول مايدل على أن بعض العلماء كانوا قد ابتهجوا بقدوم الانجليز وتمنوا استيلاءهم على البلاد ، بسبب كراهيتهم للعساكر العثمانيين الذين أرهقوا أهل البلاد .

موقف محمد على من تسليح الشعب :

علم محمد على بانتصار الشعب على الانجليز فى رشيد وهو مايزال فى طريقه الى القاهرة على مهل ، فاطمأنت نفسه مما كان يتوهمه من خطر الانجليز على اطماعه ، وجد فى السير الى القاهرة فبلغها فى ليلة ٢ صفر ١٢٢٢ هـ (١٢ أبريل ١٨٠٧ م) وذهب العلماء للترحيب به ، ودار بينهم الحديث فى شأن الانجليز ، فأظهر الاهتمام

---

(٤٨) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ٧٢ .

وأشار عليهم بأن يخرجوا جميعا — الأهالى والجنود — للجهاد ، وكان الناس قد تحمسوا للخروج ، ولكن جاء رد محمد على مخيبا لآمال الشعب ، دليلا واضحا على سوء نيته نحو الشعب ، فقال للعلماء : « ليس على رعية البلد خروج وانما عليهم المساعدة بالمال لعلائف (مرتبات) العسكر » (٤٩) .

منى الزعماء والمجاهدون بصدمة فى شعورهم عند سماع هذا القول ، وانفض المجلس وانصرف العلماء الى بيوتهم ، ودل ذلك الموقف على أن محمد على ينظر دائمابعين الارتياب الى مسألة تسليح الشعب ويخشى من تعودهم على حمل السلاح خشية عظيمة مخافة أن تتأصل فى نفوسهم روح الدفاع عن بلادهم ضد المعتدين فتتوجه اليه هذه القوة فى النهاية وتقضى على أطماعه فى البلاد ، وخاصة أن الشعب كان فى هذه الأثناء ، قد تبلورت زعامته فى عمر مكرم الذى أصبح مسموع الكلمة بين الأهالى بالقاهرة والأقاليم ، وأصبحت الرسائل ترد باسمه واسم العلماء من جميع النواحى تطلب منه العون والتدخل فى جميع الشئون ، سواء فى ذلك الأمور الضريبية أو الحربية ، وكانت الخطابات تأتى من دمنهور والاسكندرية ورشيد وغيرها باسم السيد عمر مكرم والعلماء ، ابان الحملة الانجليزية ، وأصبحت شخصية عمر مكرم فى ارتفاع مستمر ، ولو تم الشعب اتمام طرد الحملة ونسب الى عمر مكرم هذا النصر فان من شأن هذا أن يرفع من أسهم عمر مكرم والعلماء الذين يقفون خلف زعيمهم .

ومن ناحية أخرى فقد كان محمد على فى حاجة الى المال لسد العجز الموجود فى ماليته وتجهيز الاستعدادا تالعسكرية ، وهكذا أراد محمد على أن يدخل فى روع الأهالى بأنهم اذا كانوا جادين حقا فى الرغبة فى الاسهام فى مقاومة الانجليز فان هذا الاسهام يكفى

---

(٤٩) المصدر السابق — ج ٤ ص ٥٣ .

بتقــديم الأموال ، وبذلك كان على الزعامة الشــعبية أن تتدبر بسرعة في جمع المــال .

قام السيد عمر مكرم والعلماء بجمع مايستطاع تدبيره من المــال فجمعوا تسعمائة كيس من سكان القــاهرة وسلمها لمحمــد على الذي خصصها لاعداد جنوده لمحاربة الانجليز .

وخرج البــاشا من القــاهرة وظل معسكرا في بر امبــابة من ٧ أغسطس الى ١٩ أغسطس ١٨٠٧ م ، واستمر هذه المــدة بامبابة من أجل الدعاية لنفسه لدى البــاب العالي وابتزاز الأموال من القــاهرة وغيرها من الأقاليم .

وفي غضــون ذلك وصــلت مكاتبة الى عمر مكرم والمشــايخ من رشيد بامضــاء السيد حسن كريت نقيب الأشراف بهــا يخبره فيهــا بخطورة الموقف الحربي بالثغر نظرا لأن الانجليز قــد شددوا الحصار على رشــيد ، وضربوها بالمدافع فهدمت كثيرا من الدور والأبنية ومات كثير من النــاس « وقــد أرسلنــا لــكم قبل تاريخــه نطلب الاغاثة والنجدة .. فالله الله في الاسعاف فقــد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المــكروه » [٥٠] .

وكان في استغاثة أهل رشــيد ما أشعل نار الحمــاسة في الأهالي فقويت همتهم وتأهبوا للبروز والمحــاربة « واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد،وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما وجمعوا من بعضــهم دراهم ، وصرفوا على من انضــم اليهم من الفقــراء ، وخرجوا في مواكب وطبول وزمور » [٥١] .

---

(٥٠) المصــدر السابق — ج ٤ ص ٥٤ .

(٥١) المصــدر السابق — ج ٤ ص ٥٨ .

توجه هؤلاء المتطوعون فى طريقهم الى رشـــيد بينما تباطأ جنود محمد على فى الخروج الى القتـــال وأخذ هؤلاء الجنود ينهبون القرى التى فى طريقهم وخاصـــة ماحدث منهم لأهل بولاق وجزيرة بـــدران ومنية السيرج وشـــبرا والزاوية الحمـــراء والمطرية والأميرية ، فأكلوا مزروعاتهم وخطفوا مواشيهم « وفجروا بالنســـاء وافتضـــوا الابكار ولاطوا بالغلمان وأخـــذوهم وباعوهم فيما بينهم » ويعلق الجبرتى على هذه الأعمـــال بقوله متألما فى سخرية لاذعة « وهكذا يفعل المجاهدون » ولشدة قهر الأهالى وقبح أفعـــال جنود محمد على تمنوا زوالهم ومجىء الافرنج من أى جنس كان ، وكانوا يصرخـــون بذلك على مسمع منهم فيقول الجنود للأهالى : أهل هـــذه البلاد ليسوا مسلمين لأنهم يكرهوننا ويحبون النصارى « كان هـــذا هو موقف محمد على وجنوده الـــذين لاهم لهم الا ابتزاز أموال الشعب ونهب أقواتهم بلا رحمة سواء فى ذلك وقت السلم والحرب » •

شجاعة المتطوعين من الأهالى :

أراد الجنرال فريزر محو آثار الهزيمـــة التى منى بهـــا الجيش الانجليزى فى رشـــيد ، فاعتزم تجريد جيش آخر يستأنف الزحف على رشيد ، وتقـــابل هـــذا الجيش بالجيش الشعبى الذى عبأه علمـــاء الأزهر مع جيش محمـــد على الذى أرسله بقيـــادة نائبـــه فى معركة الحمـــاد •

وكانت روح الطوائف الشعبية المعبأة عالية جـــدا فأظهروا كثيرا من صـــنوف الشجاعة عند لقائهم بالانجليز فى معركة الحماد ، فقـــد هجموا على الانجليز من كل ناحيـــة على غير قوانين الحرب ، وصدقوا فى الحملة عليهم ، والقوا أنفســـهم فى النـــيران ، ولم يبـــالوا برمى مدفعيتهم وهجموا عليهم صائحين بالتكبير والهتـــاف فارتبك الانجليز ، وأصـــابهم ذهول من شجاعة الأهالى ، فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الأمان ولـــكن الأهالى لم يؤمنوهم بل قبضـــوا عليهم وقتـــلوا كثيرا منهم ،

وحضروا بالأسرى ورؤوس القتلى الى القاهرة ، وانحاز بقية الانجليز الى الاسكندرية .

نكران الجميل :

ومما يؤسف له أن هذه المجهودات التى قام بها السيد عمر مكرم والعلماء فى تعبئة المقاومة الشعبية للذود عن البلاد نسيها محمد على أو تناساها حين عصف استبداده بالزعيم الوطنى ونفاه من القاهرة الى دمياط ، ونسب الفضل الى الباشا فى ذلك كما تنبأ الجبرتى الذى علق على الجهود الشعبية بقوله : وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب اليهم فضل بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره ، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك » (٥٢) .

بل وجاء بعد ذلك مؤرخ مثل الأستاذ عبد الرحمن الرافعى يعرض لنا ما قام به محمد على فى صدد الدفاع عن البلاد ضد الحملة الانجليزية ، ويظهر اجتهاده فى ذلك ، وغض الرافعى الطرف عما حدث من محمد على حين تباطأ فى حضوره من الصعيد ثم بقاؤه فى امبابه لابتزاز أموال الشعب ويذكر الأستاذ الرافعى ان خروج الباشا الى بر امبابه « كان من أجل اعداد العدة للزحف على الاسكندرية واجلاء الانجليز عنها » (٥٣) .

ويأتى برواية الجبرتى بعد هذا العرض ، ويخفى المجهودات الشعبية ، ويعرضها تحت عنوان : « رواية الجبرتى عن معركة الحمادى ص ٧٠ بحيث جعلها رواية ثانوية لايعتد بها .

ولكن الأستاذ عبد العزيز الشناوى يرجع الغرض من خروج

---

(٥٢) المصدر السابق — ج ٤ ص ٥٨ .

(٥٣) عصر محمد على — مرجع سبق ذكره — ص ٧٢ — ٧٣ .

محمد على الى بر امبابه ثم رحيـــله الى دمنهور بعد ذلك ومنهـــا الى الاسكندرية الى ثلاث حقائق لا مراء فيها نلخصها فيما يلى :

أولا : كان الهدف الأول من هذه الاقامة استئناف المفاوضات بينه وبين مندوبى قيـــادة الحمـــلة البريطانيـــة فى جو هادىء بعيـــدا عن صخب القاهرة وبعيدا عن تجسس الفرنسيين على مراحل المفاوضـــات التى بدأت فى شهر مايو ١٨٠٧ م (١٢٢٢ هـ) .

ثانيا : ان سفر محمد على من امبابه فى ١٩ أغسطس الى دمنهور كان الغرض منه التوقيع على اتفاقية الجلاء التى تم التوقيع عليها بعد ذلك فى ١٤ سبتمبر ، ولم يشرع محمد على فى السفر من امبامه الا بعد أن اطمأن الى زوال الخطر .

ثالثا : ان انتقـــاله من دمنهور الى الاسكندرية كان لتسلم المدينة بعد جلاء البريطانيين عنها ، ففى ٢٥ سبتمبر ١٨٠٧ م كانت آخر ناقلة جنود تغـــادر خليج أبى قير عائدة الى مسينا فى جزيرة صقلية (٥٤) .

وعلى الرغم من هـــذه الحقـــائق الواضحة الا أن محمد على نجح فى اظهـــار نفسه بأنه صـــاحب الفضل فى ايقـــاع الهزيمة بالانجليز أمام البـــاب العالى ، فعهد الى الشيخ اسماعيل الخشاب بوضع تقرير مبالغ فيه عن دوره فى « الانتصار الرائع على الانجليز » (٥٥) .

وكان من مظاهر نكران الجميل ماارتكبه جنود محمد على من فظائع ونهب وسلب لسكان رشـــيد والحمـــاد بعد جلاء الانجليز عنها فيذكر الجبرتى أنه « لمـــا انقضى أمر الحرب من ناحية رشيد وانحلت الانجليز عنها ورجعوا الى الاسكندرية ، نزل الأتراك على الحمـــاد وما جاورها

---

(٥٤) عمر مكرم — مرجع سبق ذكره — صص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

(٥٥) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ٥٩ .

واستباحوا أهلها ، ونساءها ومواشيها زاعمين أنها صـارت دار حـرب بنزول الانجليز عليها وتملكها » حتى أن الأهالى طلبوا فتوى من المفتى بمنع تعـدى الجنود وعـدم جواز النهب ، ولـكن الأمر أهمل كمـا ذكر الجبرتى « وحتى يأتى الترياق من العراق يموت الملسوع » وتمنى أهل تلك النواحى الخروج من بلادهم نجـاة بأنفسـهم وذويهم وترك بلادهم للأتراك يفعلون بها ما شاءوا (٥٦) .

ومما هو جـدير بالذكر أن الزعامة الشـعبية قـد برزت بروزا واضحا خلال أحداث الحملة الانجليزية ، وظهر جليا أنها قادرة بقيادة عمر مكرم على تعبئـة الرأى العـام فى مصر ، وتجنيد الأهالى للدفاع عن البـلاد ، ولعل هـذا النشاط الملموس لجهود الزعامة الشعبية هو الذى جعل محمد على يخشى من هذا التيار الشعبى الجارف .

من ثم عمل محمد على جاهدا على ايقاف هذا التيار ، فكان أن أعلن على المشايخ عقب عودته من الصعيد بعد أن علم بالنصر الذى حققـه الشعب فقال : « ليس على رعية البلد خروج (للقتال) وانمـا عليهم المساعدة بالمـال لعـلائف العسـكر » وهـذا القول يتمشى مع نظرية الأتراك التى ترى أن الشعب مجرد رعيـة للسلطان والجيش العثمانى مثل كلب الحراسة الذى يحرس الرعية، وعلى الرعية أن تقدم له الوجبات الشهية من عرقها ودمها بالرضى أحيانا وبالغضب فى غالب الأحيان (٥٧) .

---

(٥٦) المصـدر السابق ج ٤ ص ص ٥٨ — ٥٩ .

(٥٧) يرى المؤرخ الانجليـزى أرنولد توينبى فى كتـابه TurKey ان العثمانيين استمدوا نظريتهم فى الحكم من بيئتهم الأصليـة ، وهى بيئـة البرارى فى أواسط آسيا ، فالسلطان العثمانى فى نظر هذا المؤلف كان يحكم الشعوب التى دانت لحكم العثمانيين كما كان العثمانى يمارس رعى ماشيته فى منطقة البرارى ، وهى ممارسة تتكون من ثلاثة عناصر : الراعى والماشية وكلب الحراسـة .. فالراعى هو السلطان والمـاشية هى الشعب وكلب الحراسة هى الجيش العثمانى أو الانـكشارية . أنظر : د. عبـد العزيز الشناوى . (الوحدة العربية فى التاريخ الحديث والمعاصر — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٣ — ص ١٦) .

وعندما رأى محمد على أن الرعية سـوف تنقلب الى حارس على مصالحها ، كان معنى ذلك فى نظره أنهم لن يصـبحوا فى حاجـة الى خدمات كلب الحراسـة العثمانى ، وان عليـه ان عاجلا أو آجـلا أن يرحل عن بلادهم •

ولقد كان لنمو هـذه الزعامة نتـائج خطيرة ، فقـد اصطدمت بمصالح محمد على الذى استمرأ استغلال البـلاد ونهبها وسلبها دون أدنى شفقة بأهلها أو مراعاة لأى قواعد اسلامية أو حتى انسانية عامة، رأى محمد على عمر مكرم يقف فى وجهه عندما أسرف فى طلب المـال من القاهريين ابان اقامته فى امبابه ، ففى أوائل شهر جمـادى الآخرة ١٢٢٣ هـ طلب البـاشا ضريبـة من طائفـة القبانيـة والحطابة وباعة السمك القديد المعروف بالفسـيخ ، فأغلقوا حوانيتهم والتجـأوا الى الجامع الأزهر وقـدموا شكواهم للعلماء ، واسـتجاب عمـر مكرم لصرخات الشعب وذهب منفوره الى محمدعلى وطلب منه رفع الغرامات التى فرضها على شتى الطوائف ، وأن يكتب لهم أمانا بذلك ، فتنـازل محمد على عن مطالبه وقبل وسـاطة عمـر مكرم على مضض ، وكتب أمانا بذلك الشعب ، وأسرها محمـد على فى نفسه ، ولم يبـدها لعمر مكرم .و عقد العزم على التخلص من مراقبته •

وكان من نتـائج الحملة الانجليزية نتيجة أخرى تتعلق بالعلاقات الدولية ، وهى توثق العـلاقات بين محمد على والفرنسيين ، فقد رأينا كيف أن القنصل الفرنسى دروفتى عاون محمد على فى تحصين القاهرة ضد الغزو الانجليزى المتوقع على العاصمة وأشار بحفر الخنادق حول القاهرة من ناحية بولاق ، ولاحظ الجبرتى أن القنصـل الفرنسى كان ملازما لمحمد على فى غدوه ورواحه ابان هـذه المحنة ، ويبذل له النصح والمشورة (٥٨) • وترتب على ذلك أن انحاز محمد على فى نهاية أحداث

(٥٨) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ٥٥ •

الحملة الى الفرنسيين نهائيـــا ، واعتبر الانجليزى ألد أعــدائه بسبب وضوح سعيهم المستمر لمساندة المماليك فى العودة الى الحكم .

كما أصبحت بريطانيا تنظر بعين البغض الى محمـــد على وتتحين الفرص للايقاع به ، وقد قصمت ظهره عندما قوى نفوذه وكثرت أطماعه وأغرت به التحالف الدولى الأوربى فقضى على قوته البحرية فى ميناء نافارين بشواطىء اليونان سنة ١٨٢٧ (١٢٤٣ هـ) ثم قضت عليه نهائيا ابان الحرب التركية المصرية وكبلته بقيود قاسية فى معاهــدة لنــدن سنة ١٨٤٠ (١٢٥٦ هـ) .

وبدأت أولى نوايا محمد على فى الاستبداد بالسلطة تظهر عقب عودته الى القــاهرة بعــد جلاء الانجليز ، فقد أباح القاهرة لجنوده فشاركوا الأهالى فى بيوتهم ونهبوها علنا ، ولم ينج منهم أحد حتى كبار المشايخ ، وحاول عمر مكرم عبثــا التوسط لديه ، وكتب العلماء عريضة الى وكيل محمد على ولــكنه قال لهم : « أناس قاتلوا وجاهدوا أشهرا وأياما وقاسوا ماقاسوه فى الحر والبرد والظل حتى طردوا عنكم الكفار وأجلوهم عن بلادكم أفلا تسعونهم فى السكنى » [٥٩] وصمم (محمد على) على الحد من نفوذ العلماء ، وتكشفت الأيام المقبلة عن مخططه لعزل الزعامة الشعبية وضربها ، وكانت عملية اهانة الأهالى مقدمة لهذا التحدى .

---

(٥٩) المصــدر السابق ـــ ج ٤ ص ٧٢ .

الفصل الثامن

تصــفية الزعامة الشــعبية

تصـــفية الزعامة الشعبية :

لاشك أن محمد على بدأت خطته لتصفية الزعامة الشعبية بالبحث أولا عن منابع هذه القوة فوجـــدها تنبع من الروافد الآتية :

أولا : حب الشعب لهم وانقياده لأوامرهم واتجاهه اليهم عنـــد النوائب والنوازل يشكو اليهم سوء حالته وذلك نابع من ثقتـــه بهم ثقة كبيرة لـــكونهم أبناء الشعب وحملة الشريعة المتصفين بالورع والتقوى.

ثانيا : اتحاد جبهة العلماء وتماسكهم وظهر هذا جليا لمحمد على ابان الثورة على خورشيد .

ثالثا : موارد العلماء المالية واستقلال الأزهر الاقتصـــادى وكان لهذا أثره البالغ فى استقلاله الفكرى والسياسى .

فبدأ بالعمل على سلب الأزهر هذه المميزات التى كونت من رجاله هـــذه القوة العظيمة ، فزرع الـــكراهية فى نفسية الشعب لعلمائه ، كما بذر بين العلماء بذور الخـــلاف والشقاق واســـتولى على مواردهم المالية ، كما أنشأ المـــدارس الحديثـــة وربى فيهـــا طائفة من المتعلمين تدين بالولاء له وضيق الخناق على الأزهريين .

بداية النهـــاية :

لقد طرأ على العلمـــاء فى بداية عصر محمـــد على تغير خطير بدل زعماءهم وجرد سوادهم منصفات الورع والتقوى والزهد فى الدنيا ، والاشتغال بأمور الدين الحنيف ، وهى الصفات التى أوجدت نفوذهم فى الفترة السالفـــة ، وأصبح زعمـــاؤهم يؤثرون الدنيـــا على الآخرة، ويتنافسون على نظارة أوقاف المساجـــد ، للتمتع بطيبـــات الحيـــاة ،

ولبلوغ الجاه والثروة والسلطان بين أقوامهم • ولقد عمل محمد على منذ طرد المماليك من القاهرة (بمعونة العلماء) على توزيع القرى التى كانت بأيدى المماليك ودخلت فى حوزة الحكومة على المشايخ وكبار العلماء ، فأصبح لديهم عدد غير قليل من حصص الالتزام التى تدر عليهم كثيرا من الايراد والأموال ، كما أطلق يدهم فى كثير من الأوقاف الخاصة بالمساجد والمدارس والأضرحة والتكايا والخانقاوات وغيرها من الأماكن التى رصدت عليها العقارات الموقوفة من أهل البر • فتعين كثير منهم نظارا لهذه الأوقاف •

وان نظرة مقارنة فى سجلات تقارير النظار (١) تجعلنا ندرك مدى ماحصلوا عليه فى هذه الفترة من مكاسب مؤقتة كان الغرض منها خبيثا من ناحية محمد على وهو ازالة ما اتصفوا به من ورع وتقوى واظهارهم بمظهر الطامعين فى عرض الدنيا وعدم الزهد فيها ، وبذلك تسقط الهيبة التى لهم فى قلوب مواطنيهم •

وقد أحدث هذا الغرض الخبيث فعله الأول فى جماعة العلماء فبذر بذور الفرقة والخلاف فيما بينهم وبدأوا يتطاحنون ويتشاجرون على نيل هذه النظارات •

العلماء يتنافسون على أمور دنيوية :

حدث خلاف بين العلماء بعد انقضاء حوادث الثورة على خورشيد فى رمضان ١٢٢٠ ﻫ وكان سبب هذا الخلاف كما يقول الجبرتى : « أمور وأغراض نفسانية يطول شرحها » وهذه الأغراض النفسانية التى أشار اليها الجبرتى كانت عبارة عن المنافسة على النظارة على أوقاف الجامع الأزهر ، وكان النزاع بين الشيخ عبد الله الشرقاوى

---

(١) سجلات تقارير النظار : هى سجلات كانت تابعة لمحكمة الباب العالى وكان يسجل بها القرارات التى يصدرها قاضى القضاة بتعيين نظار على الأوقاف وغير ذلك من الوظائف بمصر •

شيخ الجامع الأزهر وبين الشيخ محمــد الأمير مفتى السادة المالــكية وكلاهما يتنافس على الظفر بنظارة أوقاف الجامع الأزهر وادارة شئونه المالية والادارية والصرف عليــه وذلك لمـــا وراءها من ربح وفير يعود على ناظرها .

وتحزب العلماء حزبين حزب مع الشيخ عبــد الله الشرقاوى وهم الأقلية وحـــزب مع الشيخ محمــد الأمير وهم الأكثرية وانتهى الأمر بتنصيب الشيخ الأمير ناظرا على أوقاف الأزهر « وكتبوا له تقـــريرا بذلك من القاضى (٢) وختم عليه المشايخ وفى مقدمتهم الشيخ السادات شـــيخ السجادة الوفائيـــة والســـيد عمر مكرم نقيب الأشراف » (٣) فغضب لذلك الشيخ الشرقاوى .

ولقد لفت هذا الخلاف نظر المراقبين الأجانب الذين تابعوا حوادث مصر فى ذلك العهد فقد ذكره المسيو مانجان فى كتابه بقوله :

« ان العلماء اختلفوا فيما بينهم على من يتولى النظر على أوقاف الأزهر وانقسموا فريقين : فريق أراد أن يكون ذلك للشيخ محمد الأمير، وفريق تحزب للشيخ الشرقاوى وطلب أن يكون النظر اليه وقـــد فاز الأمير وحزبه فتقرر له النظر » (٤) .

وكانت نظارة الأزهر شـــاغرة من أيام الفرنســـيين وكان يتقلدها أحد الأمراء المماليك فلما خرج الأمراء من مصر صـــارت تابعة لمشيخة الأزهر .وسبب ترك الأوقاف لمشيخة الأزهر فى هذه الأيام تتصرف فيها

---

(٢) بالرجوع الى سجلات تقارير النظر (مسلسلة ٢١ مادة ١ صحيفة ٢) وجـــدنا هذا التقرير صـــدر من القـــاضى باسم الشيخ محمـــد الأمير باشمفتى الســـادة المالـــكية فى ١٣ رمضـــان سنة ١٢٢٠ هـ تقرر فى وظيفة النظر على الجامع الازهر وعلى ماهو موقوف عليه .

(٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على — ص ٨٢ نقـــلا عن المسيو مانجان فى كتابه مصر فى حكم محمد على .

كان واضحا ، لأن الأزهر بعد بروزه فى ميدان الحيـــاة العـــامة وقيادته الثورة التى أطاحت بخورشيد وأجلست محمد على بارادة المشايخ على كرسى الولاية كان من شأن هذه الحوادث وما سبقها من تطورات ابان عصر الاضطراب السياسى أن ترفع من مركز العلماء فترك لهم محمدعلى أوقاف الأزهر يولون عليها من شاءوا باختيارهم ٠

الاعتناء بنظافة الأزهر فى عهد نظارة الشيخ الأمير :

والحق أن الأزهر فى فترة نظـــارة الشيخ محمد الأمير اعتنى به عناية فائقـــة تليق به وبمكانته ، فلقد كان الأزهر ابان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر مهملا نظرا لمـــا حل بالبـــلاد وبالأزهر من نكبات متلاحقة جرت عليه الخراب والهـــدم والتـــدمير ، فكان مملوءا بالقاذورات وأهمله القـــائمون عليه وكان الأغراب من العامة يبيتون به « يلتفون بالحصر ويلوثونها ببولهم وغائطهم ونحو ذلك » (٥) ٠

ولـــكن الشيخ محمد الأمير تولى أمر نظافتـــه بنفســـه كما يقول الجبرتى وعاونه فى ذلك ابنـــه الشيخ محمد الأمير الصغير واجتهـــد أعوانه فى خدمة الجامع « وكنسوه وغسلوا صحنه ومسحوه وفرشوا المقصورة بالحصر الجـــدد وعلقوا قناديل البوائك » وصـــار الشـــيخ محمد الأمير « كل يوم يقف على الخـــدمة ويأمرهم بالتنظيف وغســـل الميضأة والمراحيض وأمر بغلق الأبواب من بعد صـــلاة العشاء ماعدا الباب الـــكبير ورتبوا له بوابا وطردوا من يبيت به من الأغراب » (٦)٠

الخلاف على المشيخة والأوقاف مرة ثانية :

دب الخلاف بين العلماء مرة أخرى واستفحل وتطرق الى المنافسة على مشيخة الأزهر والنظارة على أوقافه الشاسعة وأوقاف عبد الرحمن

---

(٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٧٠ ٠
(٦) المصـــدر السابق — ج ٣ ص ٣٧٠ ٠

كتخدا التى أوقفها على الجامع الأزهر وعلى غيره من المرافق . ولكن شيخا جليلا من بيت علم عريق هو الشيخ عبد الرحمن السجينى (٧) حز فى نفسه ماوقع بين العلماء من « منافسات ومنافرات ومحاسدات ... وتعصبات بسبب مشيخة الجامع — الأزهر — ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتخدا » وعمل الشيخ السجينى على رأب الصدع الذى حدث فى جبهة العلماء بسبب الأمور الدنيوية السابقة ، فدعاهم الى داره (بمناسبة وليمة اتفق أنه أقامها فى ١٩ من صفر سنة ١٢٢١ هـ) « فاجتمعوا فى ذلك اليوم وتصالحوا » .

ولكن هذا الصلح كان « فى الظاهر » كما يقول الجبرتى وظلت النفوس على مابها من « منافسات ومنافرات ومحاسدات وتعصبات » (٨) .

ولم تكد تمضى بضعة أشهر على هذا الصلح الذى كان فى الظاهر حتى دب الخلاف بين العلماء مرة ثالثة ، واقتضى الخلاف الى تحديد اقامة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر بأمر من محمد على باشا وذلك فى ٧ من رجب ١٢٢١ هـ « وسبب ذلك أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين اخوانه كالسيد محمد الدواخلى والسيد سعيد الشامى وكذلك السيد عمر مكرم فأغروا به الباشا ففعل به ماذكر فامتثل للأمر ولم يجد ناصرا وأهمل أمره » (٩) .

---

(٧) ينسب الشيخ عبد الرحمن السجينى الى قرية سجين احدى قرى محافظة الغربية ونشأ فى بيت علم وفضل فقد كان أبوه شيخا للأزهر فى سنتى ١١٨١ — ١١٨٢ هـ (١٧٦٧ — ١٧٦٨ م) وكان عم أبيه الشيخ شمس الدين السجينى من علماء الأزهر البارزين وعليه تتلمذ والداه الشيخ عبد الرؤوف السجينى (الأزهر فى ١٢ عاما ص ٣٧ وهو سجل بأسماء علماء الأزهر — أشرف على اعداده لجنة مشكلة سنة ١٩٦٤ برئاسة وكيل الأزهر وعضوية آخرين من العلماء) .

(٨) الجبرتى ، عجائب الآثار ، جـ ٤ ص ٧ .

(٩) المصدر السابق — جـ ٤ ص ١٨ .

وبدأ يتخلف عن التصـــدر فى الأمور الهامة من ذلك أنه تخلف عن الاجتماع الذى عقـــده ديوان البـــاشا لاستقبال نائب القبطان عندما حضر الى القاهرة يحمل مرســـوما من القبطان وقرىء المرسوم بحضرة المشايخ والقاضى وتخلف « الشيخ عبد الله الشرقاوى ومن يلوذ به » على غير العادة « فسأل عليه القاضى وعلى من تأخر فقيل له الآن يحضر، ولعل الذى أخره ضعفه ومرضه » [١٠] ويظهر من عبارة الجبرتى « ومن يلوذ به أن العلماء كان قـــد تم انقسامهم الى طائفتين : طائفة تنـــاصر الشيخ الشرقاوى وهم أقليـــة ويظهر أن الجبرتى كان منهم لأنه كان غير راض عن أعمـــال عمر مكرم فى منـــاصرته لمحمـــد على فى كتابة العرائض على لسان المشايخ للقبطـــان صـــالح باشا وللسلطان وقال عنها أنها أمور « عنها يسئلون ولا يؤذون لهم فيعتذرون » [١١] .

ولعل الفريق الآخر قـــد استغل الموقف السياسى بحضور القبطان صـــالح باشا ووشوا بشيخهم الشرقاوى لدى محمد على بأنه منـــاصر للألفى فعمد الى تحديد اقامته لأن محمد على لم يكن يقدم على تحديد اقامة شيخ الأزهر لسبب كالسبب الذى ذكره الجبرتى (وهو الخلاف على نظارة أوقاف الأزهر) وانما بسبب يتصـــل بمحمـــد على وصراعه على الحكم .

ولعل مما يساعدنا على هذا الاستنتاج ، ماذكره الوكلاء الفرنسيون فى نشرتهم الاخبـــارية عن المـــدة بين الأول من أكتوبر وعشرين منه سنة ١٨٠٦ م (١٢٢١ هـ) ، فقد ذكروا أن عمر مكرم قـــد كشف للباشا عن « مكايد » شيخين كانا يحرضان القاهريين على الثورة ، فألقى محمد على القبض عليهما فى ٥أكتوبر ، وبعد حوالى عشرة أيام أطلق سراحهما بنـــاء على توسط الشيخ سليمـــان الفيومى فى أمرهمـــا على شريطة مغادرتهما القاهرة الى الريف [١٢] .

---

(١٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٩ .
(١١) المصـــدر السابق — ج ٤ ص ١٨ .
(١٢) د. محمد فؤاد شـــكرى — مصر فى مطلع القـــرن ١٩ — ج ٢ ص ٥٧٨ .

فيحتمل أن يكون الشيخ الشرقاوى قد زج به فى قائمة المحرضين على الثورة غير أن محمد على لم يتجاسر على التنكيل به فى هذه الظروف الحرجة بالقاهرة ، ولم يكن بالأمر الهين أن يقدم فى هذه الظروف على نفى شيخ الأزهر فيغضب بذلك رجال الأزهر • وهو فى حاجة اليهم متماسكين لكى يستعين بهم فى مخططاته المقبلة •

ولقد تغاضى بونابرت من قبل عن موقف الشيخ الـ ...ـدات المعادى للفرنسيين ، وتركه دون أن يعاقبه بعد ثورة القاهرة الأولى ، كما تغاضى الجنرال مينو عن موقف الشيخ عبد الله الشرقاوى ولم يحاكمه بعد مقتل الجنرال كليبر ، على الرغم من أنه كان يعتقد صلته بالحادث لتردد الجانى على بيته قبل ارتكاب الحادث •

وعلى هذا يكون محمد على قد ترك الشيخ الشرقاوى بدون عقاب من قبيل السياسة ، غير أنه أمر بأن تحدد اقامته وتوضع عليه حراسة لعدم اتصال أحد به خوفا من هواجسه فى أن يقوم الشرقاوى بتحريض المشايخ على الثورة •

غير أن محمد على نفى فيما بعد أن يكون له دخل فيما حدث للشيخ الشرقاوى وذلك عندما كلمه القاضى بشأنه فى أول شهر شعبان ١٢٢١ هـ ، فقد طلب القاضى من الباشا « الافراج عنه ويأذن له فى الركوب والخروج من داره حيث يريد » فرد (محمد على) على القاضى بقوله : « أنا لا ذنب لى فى التحجير عليه وانما ذلك من تفاقمهم مع بعضهم » •

وطلب القاضى من الباشا أن يأذن له فى التوفيق بين العلماء وأن يقوم بمصالحتهم « فأذن له فى ذلك فعمل القاضى لهم وليمة ودعاهم وتغدوا عنده وصالحهم وقرءوا بينهم الفاتحة وذهبوا الى دورهم ويبدوا أن هذا الصلح كان ظاهريا هو الآخر بدليل قول الجبرتى :

« وذهبوا الى دورهم والذى فى القلب مستقر فيه » (١٣) • ولا يفوتنا أن نذكر ان هــذا كان بسبب فعل محمــد على الذى اســتعمل فيهم سياسة فرق تسد •

ولقد عاد الشيخ الشرقاوى الى تصــدره فى الاجتماعات العــامة التى تعقد بحضوره وحضور عمر مكرم والقاضى وغيرهم من المشايخ ، فيذكر الجبرتى أنه فى يوم الثــلاثاء ٢٨ من محرم ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧م) عندما وصلت الأخبــار الى القــاهرة بقــدوم الحملة الانجليزية بقيادة (فريزر) الى الاسكندرية ، لمعــاونة المماليك ، « حصلت جمعية ببيت القاضى وحضر حسن باشــا وعمر بك والدفتردار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وباقى المشايخ ، فتكلموا فى شأن حادثة الانجليز والاستعداد لحربهم وقتــالهم وطردهم فانهم أعداء الدين والملة » (١٤) •

محمد على يعمد الى تمييز العلماء على طبقات الشعب :

عمد محمد على (بجــانب ماسبق أن أغــدقه على العلماء) الى تمييزهم على غيرهم من طبقــات الشعب ، فعندما « ابتدع المغــارم والشهريات والفرض (الفرد) التى فرضها على القرى ومظالم الكشوفية، جعــل ذلك عاما على جميــع الالتزامات والحصص التى بأيدى جميع النــاس حتى أكابر العسكر وأصاغرهم ماعدا البــلاد والحصص التى للمشايخ خارجــة عن ذلك ولا يؤخذ منها نصف الفائظ (١٥) ولا ثلثــه

(١٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٢٠ .

(١٤) المصــدر السابق — ج ٤ ص ٥٠ .

(١٥) **الفائظ** : معناها (الفائض) قلبت فيهــا الضاد العربيــة الى ظاء جريا على عادة اللغة التركية **والفائض** : هو الفرق بين حصيلة الضرائب التى يجمعها الملتزم من الفلاحين وبين المبلغ الذى يورده لخــزانة الحكومة ويذهب هذا الفائض الى جيب الملتزم .

ولا ربعه وكذلك من ينتسب لهم أو يحتمى فيهم » وقد سمى هذا الاعفاء باسم مسموح المشايخ •

وقد تسبب هذا التمييز الواضح للمشايخ فى اضعاف مكانة العلماء وازالة هيبتهم من قلوب الأهالى ، وبدأت الجماهير تغير رأيها فيهم ، نظرا لأن العلماء فى غمرة هذه المكاسب الجديدة نسوا مهمتهم الأصلية وهى خدمة العلم والفقراء (١٦) وانقلب حالهم كما يقول الجبرتى « فاتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعزيز والضرب بالفلقة والكرابيج ، واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم فى الارساليات للبلاد ، وقرروا حق طرق لأتباعهم وصارت لهم استعجالات ، وتحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين » (١٧) •

ولا شك أن هذا التغيير الجديد فى وضع العلماء لدى الجماهير كان من فعل محمد على وخبثه ودهائه ، فهو من ناحية : يريد أن يسيطر عليهم بهذه الامتيازات من قبيل ذر الرماد فى العيون ، ويلوح لهم من حين لآخر بتهديدهم بقطعها وحرمانهم من هذه المكاسب فيظلوا بذلك عبيد احسانه • ومن ناحية أخرى : أراد أن يشوه سمعتهم لدى الأهالى ويحط من قدرهم نظرا لوضعهم فى مكان حرج يجبون الضرائب من الشعب كما كان يفعل أمراء المماليك ، وبذلك ينقلب وضعهم من علماء يعطفون على الشعب ويثورون من أجل تخفيف الضرائب عنه الى جباة للضرائب يتفننون فى جمعها وحسابها • وهكذا يفعل المال دائما بالانسان أيا كان وضعه فهو فتنة واختبار لا ينجح فيه الا القليل من الناس • ولم يقدر للعلماء أن ينجحوا

---

(١٦) كان من عادة شيوخ الأزهر عند توقيعهم على الأوراق الرسمية أن يوقعوا تحت أسمائهم (فلان الفلانى خادم العلم والفقراء) .

(١٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ صص ٧٢ — ٧٣ .

فى هذا الاختبـــار الذى وضعهم فيـــه محمـــد على ، ذلك لأن أدوات هـــذا النظـــام ، وأعنى به نظـــام الالتزام كانت ماتزال قائمـــة وهم « المقدمون والأعوان وكتبة الأقبـــاط وقطـــاع الجـــرائم الذين كانوا يستعملونهم فى الارساليات للبلاد ، وقـــد اســـتعمل العلمـــاء هؤلاء الموظفين كما استعملهم المماليك من قبل فوقع الظلم والارهاق بالفلاحين كما كان يقع أيام المماليك وربما أكثر نظرا لأن محمد على أسرف فى طلب الأموال والضرائب والأتاوات [١٨] منهم لأن خزينته كانت خاوية بسبب توالى المحن على البلاد ، وكانت كل هذه المظالم يقع غالبها على الفلاحين الأبرياء » .

وقـــد حاول محمد على أن يستغل هـــذا الوضع الجـــديد للعلماء فأسرف فى طلب المـــال من الأهالى عن طريق العلماء ، واســـتغل عمر مكرم فى هـــذا الصدد الى أبعد الحدود لدرجة جعلت عمر مكرم يبدوا أما مواطنيـــه وكأنه مطيـــة للوالى الجـــديد يحقق عليهـــا مآربه فى السيطرة على البـــلاد ، حتى ساءت به الظنون وهو الوطنى الغيور على مصالح الشعب وقـــد علق على ذلك الجبرتى معبرا عن شعور الشعب : « وقد حكمت الصورة التى ظهر فيها (عمر مكرم) وانعكس الحال حتى ساءت الظنون [١٩] وتورط العلمـــاء فعـــلا فى هذا الوضع الجـــديد كما أشـــار الجبرتى فى موضع آخر [٢٠] وفقدوا زعامتهم بين الأهالى ولم يعد هناك من مسوغ لنفوذهم القـــديم حيث تجردوا « من صفات الورع والتقوى والزهد فى الدنيـــا والاشتغال بأمور الدين الحنيف . وهى الصفات التى أوجدت نفوذهم فى الزمن السابق » [٢١] .

---

(١٨) الاتاوات جمع اتاوة وهى الرشوة — المصباح المنير (مادة أتى) .

(١٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٧ .

(٢٠) المصدر السابق — ج ٤ ص ٩ .

(٢١) د. محمد فؤاد شـــكرى — مصر فى مطلع القـــرن ١٩ — ج ٢ ص ١١٢٧ .

وضع محمد على من ١٨٠٥ ــ ١٨٠٧ :

لم يبد من جانب محمد على مايجعل العلماء يشعرون فى العامين الأولين من حكمه (١٨٠٥ ــ ١٨٠٧ م) أنه لايريد مشاورتهم بل على النقيض من ذلك فقد كان فى حاجة اليهم لمساعدته فى جمع الضرائب وعقد السلف والقروض لسد حاجته الملحة الى المال وللاعتماد عليهم فى اقنـــاع البـــاب العالى بضرورة بقائه فى الولاية ، ثم الاعتماد عليهم فى خداع المماليك وطردهم من القاهرة •

الغـــاء امتيازات العلماء :

وضع محمد على لذلك خطة قوامها :

أولا : الغاء امتيازات العلماء التى كانت تسمى حينئـــذ بمسموح المشايخ وعزم على تسويتهم بغيرهم من الملتزمين ، وبذلك يكون قد قلم أظافرهم لـــكى يسهل عليه أن يقضى عليهم بعد ذلك •

ثانيا : مساواة أراضى الأوقاف بغيرها من الأراضى فى دفع ضريبة الميرى وهى الأراضى التى كانت تعرف بالرزق الاحباسية أى المرصدة على المساجد والمـــدارس والسبل والخيرات وهذه الأطيان كانت كلهـــا معفاة من الضرائب •

وكان كلا القطاعين : أراضى الالتزام بما فيها المسموح ، وأراضى الأوقاف التى تنظر عليهـــا العلماء ، تـــكون المصـــدر الرئيسى لدخلهم كما سبق أن بينـــا وتدر عليهم أرباحا وفيرة أعلت من مركزهم وجعلتهم طبقة متوسطة جديدة •

وقبل أن نستفيض فى شرح ماقام به محمد على من اجراءات فى هذا الصـــدد ، يجدر بنـــا أن نبين الأسباب التى دفعته الى تصـــفية هذه الامتيازات •

كانت هنـــاك أســـباب مباشرة لالغـــاء امتيازات العلماء وأخرى حقيقيـــة •

أما الأسباب المبـــاشرة : فـــكانت تتمثل فيما شـــاع عن موقف العلماء لدى سماعهم لأول مرة عن مجيء الحمـــلة الانجليزية بقيـــادة فريزر واحتلالها للاسكندرية ، فالقنصـــل الفرنسى (دروفتى) يذكر فى تقاريره التى سبقت الاشـــارة اليها أن العلماء قـــد ابتهجوا بقدوم الانجليز ، وان عمر مكرم ذاته قـــد انحاز اليهم وأنه أخفى فى داره الترجمان الانجليزى (يوسف عزيز) ووكيل القنصل الانجليزى (مسيت) كما اعترف (يوسف عزيز) نفسه بعـــد ذلك عندما دار البحث والتحقيق فى صقلية بعـــد فشل حملة (فريزر) بأن حكومة القاهرة قـــد صادرت خطابا بالشفرة كان قنصـــل النمسا وروســـيا العـــام يحاول ارســـاله الى الانجليز ، وقـــد كتبه بنـــاء على رجاء السيد عمر مكرم وجمـــاعة آخرين من رؤساء المشايخ والعلماء ، وذلك ليؤكدوا للقنصل الانجليزى (مسيت) و (فريزر) صدق نواياهم الطيبة نحو الانجليز (٢٢) •

ولا شك أن كل هذه المعلومات وصلت الى علم محمـــد على عقب عودته الى القـــاهرة من الصعيد ، فلابد أن قنصـــل فرنسا وهو الذى أكد هـــذه المعلومات فى تقـــاريره الى حكومته ، قـــد أسر بهـــا الى محمد على وهو الذى لازمه ملازمة ظله ابان الحمـــلة وكان له بمثـــابة مستشاره • ومن المؤكد أن الخطاب الذى أرسل عن لسان المشايخ الى الانجليز بالاسكندرية وصـــادره وكلاء محمـــد على بالقاهرة قـــد سلم الى محمد على أيضـــا •

ولـــكن محمد على رأى بحصافته أن يهادن العلماء مؤقتا لأنه فى حاجة اليهم لجمع الضرائب والأتاوات من الأهالى ريثما ينجلى الموقف، وأسرها فى نفسه ولم يبدها لهم •

(٢٢) د. محمد فؤاد شكرى — مصر فى مطلع القرن ١٩ — مرجع سبق ذكره — ج ٢ ص ص ٦١٩ — ٦٢٠ •

وأما الأسباب الحقيقية : فكانت تتمثل فى ضرورة اقصاء الزعامة الشعبية والانفراد بالحكم فمحمد على قد ضاق ذرعا بمراقبة المشايخ له خلال السنتين الماضيتين ١٨٠٥ — ١٨٠٧ م (١٢٢٠ — ١٢٢٢ هـ) ٠

وعندما وجد محمد على أن العلماء يتشبثون بمبدأ الشورى فى الحكم وشعر أنه لم يعد بحاجة اليهم وأن مراقبتهم أصبحت عبئا عليه ، وجد من الصعب عليه أن يسايرهم فى ذلك لأن مراد العلماء من الشورى وقف اجراءاته المالية ، وهو فى حاجة ملحة الى المال : لدعم سلطانه الداخلى الذى يتمثل فى دفع مرتبات الجند وتحصين القاهرة والثغور لصد الغزو الأجنبى ، وردع أى حملة قد يجردها الباب العالى ضده لاقصائه عن الحكم ، ثم لتجهيز الحملات المرسلة للقضاء على الجيوب المملوكية بالصعيد ، وكل هذه الأغراض تدخل فى مجال دعم سلطانه الداخلى وتثبيت مركزه وتقوية أركان حكمه ٠

وكان التخلص من الزعامة الشعبية ضرورة سياسية لا مناص منها فى نظر (محمد على) لتنفيذ المخطط السياسى الذى وضعه لنفسه ولأسرته (٢٣) ، فقد كان ينوى أن يقيم حكما وراثيا لأسرته فى مصر داخل نطاق الدولة العثمانية فيستقل فى شئون الحكم الداخلى ويثبت وراثيا فى ولايته فى مقابل دفع الجزية السنوية للسلطان اعترافا منه بالسيادة العثمانية على مصر ، وذلك كما كان الوضع فى طرابلس الغرب حيث كانت تحكمها وراثيا أسرة القرمانلى ، وفى تونس حيث كانت تحكمها الأسرة الحسينية بطريق الوراثة أيضا ، ولا يتدخل سلطان الدولة العثمانية فى الشئون الداخلية لهاتين الولايتين ، ولا فى شئون الجزائر حيث كان يحكمها الدايات ، وعلى ذلك فان محمد على قد صحت عزيمته على البقاء فى مصر والتمسك بها وهذا هو الطابع الذى طبع تصرفات محمد على سواء فى سياسته الداخلية أو فى سياسته الخارجية ٠

---

(٢٣) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم ... ص ٢١٣ ٠

وقد تطلب هـذا المخطط السياسى من محمد على أن يقضى على القوى والأنظمة التى تعوق أو تمنع تنفيـذه • وكان فى مقـدمة تلك القوى وهذه الأنظمة : الزعامة الشعبية ، والمماليك وما يملكونه من قوة عسكرية ضاربة تؤثر فى مصائر البلاد ونظام الالتزام (٣٤) •

الغاء مسموح المشايخ :

ذكر الجبرتى أن أول مابـدأ به محمـد على كان الغـاء نظـام امتيازات العلمـاء التى عرفت حينئذ باسم (مسموح المشايخ) والذى سبقت الاشارة اليه •

فقال الجبرتى : « ولمـا انقضى هـذا الأمر (٣٥) واطمأن خاطره وخلص له الاقليم المصرى ••• فأول مابدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافى البلاد التى التزموا بها » (٣٦) •

وكانت أول ضريبـة تساوى فيها المشايخ بالشعب هى الضريبـة التى قررها محمد على فى ٤ رمضان ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) والتى طلب فيهـا (الفا كيس) (٣٧) وكان جانب من هذه الضريبة « على المشايخ الملتزمين نظير مسموحهم فى فرض حصصهم التى أكلوها •• واستـقر ديوان الطلب ببيت ابن الصـاوى بما يتعلق بالفقهـاء •• والمرجع فى الطلب والدفع والرفع الى السيد عمر النقيب » •

---

(٣٤) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣٥) يقصد به عقب جلاء حملة فريزر (١٨٠٧) عن مصر .

(٣٦) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٧٢ .

(٣٧) الـكيس به ٥٠٠ قرش عثمانى والقرش عملة فضـية تساوى ٤٠ نصـف فضـة (بارة) أى مايقرب من ثلاثين قرشـا حاليـا ، وكانت البـارة والقرش همـا أسـاس التعـامل فى عصر الجبرتى والـكيس به (٢٠٠٠٠) نصف فضة (أمين سامى باشا — تقويم النيل ج ٢ ص٢١٤) .

ولقد حاول النـــاس التشكى لعلماء الأزهر لرفع هذه الضريبـــة دون جدوى « واجتمع الـــكثير من أهل الحرف كالصرماتيـــة وأمثالهم والتجأوا الى الجـــامع الأزهر ، وأقاموا به ليـــالى وأياما فلم ينفعهم ذلك » (٢٨) •

الخلاف بين العلماء ومحمد على :

تقبل العلماء كل هـــذه الاجـــراءات على مضض ولـــكن البـــاشا تمادى فى فرض الضرائب على الأطيـــان والمتـــاجر وغير ذلك ، وساءت الحـــالة الاقتصـــادية بالبلاد وزاد من سوء الأحوال انخفاض النيل فى تلك السنة ١٢٢٣ هـ (أغسطس ١٨٠٨ م) حيث « نقص النيل نحو خمسة أصـــابع وانكشف الحجر الراقد الذى عنـــد فم الخليج تحت الحجر القـــائم ، فضج الناس ورفعوا الغلال من الرقع والعرصات والسواحل وانزعجت الخلائق بسبب شحة النيل » (٢٩) •

ولجأ الأهالى الى العلماء لـــكى يتوسطوا لدى الباشا ليخفف عنهم عبء الضرائب ، فذهب العلماء الى البـــاشا فى ٢٧ جمـــادى الثانيـــة ١٢٢٣ هـ (٢٠ أغسطس ١٨٠٨ م) وتحدثوا عنده فى سوء حالة البـــلاد لـــكثرة الضرائب ونقص النيل ، فأشـــار عليهم محمد على بأن يخرجوا لصـــلاة الاستسقاء ويأخـــذوا معهم الفقراء والضعفاء والأطفـــال الى الصحراء ، ويدعون الله بأن يرسل عليهم غيثا من عنده •

ما أشبه الليلة بالبارحة عندماذهب العلمـــاء الى ابراهيم بك سنة ١٨٠٤ م بأن يكف المماليـــك عن ظلم الأهالى لأن البـــلاد قـــد تخربت وشـــحت الأقوات فأشـــار عليهم ابراهيم بك بأن يخرجـــوا لصـــلاة الاستسقاء ، ولـــكن العلماء طالبوه حينئذ برفع الظلم أولا لكى تتحقق شروط صلاة الاستسقاء •

---

(٢٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٧٥ •
(٢٩) المصـــدر السابق — ج ٤ ص ٨٥ •

وكانت قصـــة ذلك الاجتمـــاع (بابراهيم بك) مازالت ماثلة فى ذاكرة شيخ العلماء الشيخ عبد الله الشرقاوى فرد على محمد على قائلا: « ينبغى أن ترفقوا بالنـــاس وترفعوا الظلم » ولـــكن محمد على كان قـــد ورط العلماء معه فى هـــذا الظلم وأصبحوا فى نظره شركاء معه فى ظلم النـــاس بل أنه اعتبرهم أظلم منـــه عنـــدما رد على الشـــيخ الشرقاوى بقوله : « أنا لست بظالم وحـــدى وأنتم أظلم منى ، فانى رفعت عن حصتكم الفرض (الفرد) والمغـــــارم اكراما لـــكم وأنتم تأخذونها من الفـــلاحين ، وعندى دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفى كيس ، ولابد أنى أفحص عن ذلك ، وكل من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحيه أرفع الحصـــة عنه . فقـــالوا له لك ذلك » (٣٠) .

وهكذا أعد محمد على لهم الجواب وكان قاسيا فى رده عليهم ، عندما اعتبرهم شركاء معه فى هـــذا الظلم الذى يصمونه به ، ومن ثم لم يتمكنوا من الاصرار على مطـــالبهم برفع الضرائب ، ولم يكن فى امكانهم أن يثوروا عليه كما ثاروا على المماليك من قبل وأخرجوهم من القـــاهرة ، لأن الزمان قـــد تغير وأصبحت قـــدم محمد على راســـخة « واستقر واطمأن خاطره وخلص له الاقليم المصرى » هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لم يكن فى اســـتطاعة العلماء أن يجنـــدوا الشعب للمطالبة برفع ظلم هم شركاء فى انزاله بالأهالى ، من ثم كانت قضيتهم خاسرة أمام محمد على الحريص الذى ورطهم بخبث ودهاء ، ثم لوح لهم فى النهاية بالتهديد بحرمانهم من حصصهم فى الالتزام .

ولم يملك العلماء سوى الانسحاب أمام محمد على « وخرجوا من عنده متخاذلين ، وقـــد ازدادوا وهنـــا على وهن » (٣١)و اتفقوا على

---

(٣٠) المصـــدر السابق — ج ٤ ص ٨٥ .

(٣١) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم ... ص ٢٢١ .

الخروج لصلاة الاستسقاء الى جامع عمرو بن العاص فى صبيحة ٢٨ جمادى الآخر « يدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون اليه فى زيادة النيل » فلما كان الصباح خرج السيد عمر مكرم والمشايخ وأهل الأزهر والأطفال فى جمع كبير وذهبوا الى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط (٣٢) ولما تكامل جمعهم أدوا صلاة الاستسقاء وصعد الشيخ (جاد المولى) على المنبر ودعا الله وأمن الناس على دعائه « وحول رداءه ورجع الناس بعد صلاة الظهر وبات السيد عمر هناك » وفى تلك الليلة زاد الماء « واستتر الحجر الراقد بالماء » وفى اليوم التالى أشار بعض الناس بحضور النصارى أيضا فحضروا وجلسوا فى ناحية من المسجد يشربون الدخان وزاد الماء فى تلك الليلة « ونودى بوفاء النيل وفرح الناس وطفق النصارى يقولون ان الزيادة لم تحصل الا بخروجنا » (٣٣) .

وعلى كل حال فقد تكشف الموقف عن عداء سافر من محمد على للعلماء وأحس العلماء بأن محمد على قد أهانهم لأول مرة واتهمهم بظلم الأهالى وهم الذين يقولون بالدفاع عنهم وعن مصالحهم ، بل وتقوم مهمتهم فى الوساطة لدى الحاكم ونصحه من أجلهم .

غير أن هذا الموقف العدائى من محمد على لم يسفر عن وحدة العلماء تجاه مطامع الباشا ، وانما ظلوا منقسمين على أنفسهم ،وكان أحرى بهم أن تجمعهم هذه الأزمة ، وأغلب الظن أن محمد على كان قد درسهم دراسة مستفيضة وعرف اتجاهاتهم وعرف أن طائفة منهم تحقد على السيد عمر مكرم زعامته ، ولا شك أنه كان يعمق هذا الانقسام بأساليبه الماكرة ليستفيد هو فى النهاية .

---

(٣٢) يرجع اختيارهم لهذا المسجد كما يقول الجبرتى لكونه محل الصحابة والسلف الصالح .

(٣٣) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ٨٥ .

وعلى الرغم من جريان النيل فان حالة البــلاد الاقتصادية مازالت سيئة ، واستولى الخراب على كثير من البلاد ، فهجرهــا الفــلاحون لخرابها •

تقرير الضريبـــة على الأوقاف :

أقدم محمد على بعد ذلك على خطوة أخرى أشد ضررا لجمــاعة العلماء ، فقد عمد الى مساواة أراضى الأوقاف بغيرها من الأراضى فى دفع ضريبة الميرى ، وأراضى الأوقاف كانت تعرف بالرزق الاحباســية أى المرصــدة على المساجد والمــدارس والســبل وغير ذلك من طرق البر والخيرات ، وكانت كلها معفاة من الضرائب ، وكان المشايخ يقومون بتولى شــئونها عن طريق تعيينهم نظــارا عليهــا ، وكانت تدر عليهم أرباحا وفيرة •

ولقد استتبع تقــرير الضريبــة على أراضى الوقف فحص حجج الأوقاف فقــد طلب محمــد على هــذه الحجج ممن يتولون النظر على الأوقاف وطلب منهم تجديدها ، وأرسلوا الى حكام الأقاليم من الكشاف بالاستيلاء على تلك الأطيــان اذا لم يقدم أصحابها الى الديوان حجج انشاء الوقف فى ظرف أربعين يوما ، وكان معنى ذلك التمهيد للاستيلاء على معظم هذه الأراضى لأن الغالبيــة العظمى من حججها كانت قــد بليت أو فقــدت وحتى الموجود منها أصبح لاينطبق على الوقف لتغير معالم الأرض للنزاع فى استحقاق الوقف •

وقررت الحكومة كذلك أخذ ضريبة الميرى على أطيان الأوسية التى كانت ملــكا خاصا للملتزمين ، وهذه الأطيــــان كانت كلها معفــاة من الضرائب •

كما عمد البــاشا بعد ذلك الى مشاركة الملتزمين فى فائضــهم ، فألزمت الحكومة جميع الملتزمين بأن يؤدوا اليها نصف الفــائض ، أى

نصف الصافى من ايرادهم ، ســـواء فى ذلك ملتزمى الأراضى وملتزمى السلع من البـــاعة .

وكان محمد على قـــد ابتدع أخذ ثلث الفـــائض من الملتزمين فى سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) عقب توليه الحكم ولـمـا ضج الناس بالشكوى وقالوا هـــذه تصير عادة فقال لهم محمد على نكتب بذلك فرمانا ونرقم عليه لعن الله من يفعلها مرة أخرى ، وبذلك أثبت محمد على أنه لم يكن صادقا فى تعهده هذا (٣٤) .

وكان الأمر بتحرير تلك الاجراءات الضريبية الجديدة كلها فى يوم واحد هو يوم ١٥ جمادى الأولى ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) فشرعت الحكومة « فى تحرير دفتر بنصف فائض الملتزمين ، ودفتر آخر بفرض مال على الرزق الاحباسية المرصـــدة على المساجد والأسبلة والخيرات وجهـــات البر والصـــدقات ، وكذلك أطيـــان الأوسية المختصة أيضا بالملتزمين ، وكتبوا بذلك مراسيم الى القرى والبلاد » (٣٥) .

آلمت تلك الاجراءات الضريبيـــة الجديدة قطاعا كبيرا من الشعب ، فبجانب العلماء الذين تبرموا منهـــا لأنهم كانوا نظارا على كثير من هذه الأوقاف كان هنـــاك المستحقون لهذه الأوقاف ، فكان منهم المحتاجون الذين لايأكلون الا من دخل هذه الأوقاف المحبوسة عليهم من أسلافهم ، كما هددت أصحاب الأوسية والملتزمين ، وعامة النـــاس من البـــاعة والمتسببين .

وضج هؤلاء المتضررين بالشكوى ، وازدحمت أحيـــاء القـــاهرة بالساخطين ، من بينهم النساء اللائى خرجن بأطفالهن والذين صـــاروا مهددين بالحرمان من استحقاقاتهم من هـــذه الأوقاف ، وقصدوا ساحة

---

(٣٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ صص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٣٥) المصـــدر السابق — ج ٤ ص ٩٩ .

الجامع الأزهر وتجمعوا بهـا وشكوا الى علمائه فداحة اجراءات محمد على المـالية الجديدة ، فوعدهم شيوخ الأزهر بالتوسط لدى البـاشا بعد أن يتثبتوا من صحة هـذه الأخبـار ، ووجـد العلماء فى استياء الأهالى فرصتهم الذهبية فعملوا على استغلالها •

كانت هـذه الاجراءات السالفة الذكر اذا سـببا حقيقيـا جعل العلماء ينهضون لمواجهة محمد على الذى ابان لهم بما لايدع مجالا للشك أنه يريد باجراءاته هـذه الانتقـاص من حقوقهم بل وتعمد اخراجهم واهانتهم كما سبق •

وحـدثت من قبيل المصـادفات حادثة أهاجت جميع الأزهريين وأثارت ثائرتهم حيث قبض رجا لالشرطة على أحد الطلبة المجاورين بالأزهر من أقارب (السيد حسن البقلى) أحد كبار العلماء وحبسوه بالقلعـة ، وحاول العلمـاء التـدخل لدى محمد على لاطلاق سراحـه دون جدوى •

وفى ١٧ من جمـادى الأولى (٣٠ من يونيـة ١٨٠٩ م) حضر الـكثير من النساء والعـامة وأهل المسجون وهم يصرخون ويستغيثون وابطلوا الدرس بالأزهر ، فكانت هـذه الحادثة سببا مباشرا فى تحرك العلماء فاجتمعوا اجتماعا تمهيـديا فى ذلك اليوم بقبلة الجامع الأزهر وأرسـلوا الى السـيد عمر مكرم فحضر اليهم واجتمع معهم ، غير أن اجتماعهم فى هذا اليوم لم يسفر على شىء وانفض الاجتماع وذهبوا الى بيوتهم •

وفى اليوم التالى (١٨ من جمادى الأولى) اجتمع العلماء اجتماعا مغلقـا و « وجلسوا مجلسا خاصا » وكان هذا الاجتماع لتوحيد الصف ونبذ الفرقة « وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة » (٣٦) •

---

(٣٦) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠١ •

وذكر المسيو مانجان (صديق محمد على) فى كتابه أن عمر مكرم صرح أمام مبعوث البـــاشا فى هذا الاجتماع قائلا : « اذا أصر الباشا على مظالمه فاننـــا نكتب الى البا بالعالى ونثير عليه الشعب ، وأنزله عن كرسيه كما أجلسته عليه » (٣٧) .

وكانت بداية طيبـــة ظهر العلماء فيهـــا بمظهر مشرف للتضـــامن والتماسك فيما بينهم تجاه أطمـــاع البـــاشا ، وبدا كأن العلماء نسوا أحقادهم القديمة . بيد أن هـــذا العهد لم يكن صادرا عن نية صادقة ، فقد أسفرت الحوادث التى سنبينها فيما بعد عن أن طائفة من العلمـــاء قـــد ضيعوا هذا العهد ونكثوا ايمانهم من بعد عهـــدهم وتخلفوا عن نصرة زعيمهم عمر مكرم عندما جد الجد .

وتلا ذلك الاجتماع التمهيدى اجتماع آخر فى نفس اليوم كتبوا فيـــه : « عرضحالا الى البـــاشا يذكرون فيـــه المحدثات من المظـــالم والبدع وختم الأمتعة وطلب مال الأوسية والرزق والمقاسمة فى الفائظ، وكذلك أخـــذ قريب البقلى وحبســـه بلا ذنب » (٣٨) وطـــالبوا برفع هذه المظالم .

وهكذا انتهز عمر مكرم الفرصـــة التى كان ينتظرهـــا لمعارضـــة البـــاشا ومقاومته حيث يقول المراقبون الفرنسيون الذين عاصروا عمر مكرم « أن السيد عمر كان يعيش منذ مدة طويلة فى عزلة عميقة . لأنه منذ أن تأيد حكم محمد على عمل هـــذا على اقصـــائه بصورة متزايدة عن الاسهام فى أى عمل من الأعمـــال العـــامة . ولـــكن لم تغير هذه العزلة شـــيئا من أخلاق ومبـــادىء ذلك الشيخ . فـــكان يرى وهـــو بداخل صومعته اضطراد زيادة النفوذ المطلق الذى انفرد به الحـــاكم الذى كان هو أول من ألبسه الفرو لتقليـــده حكم مصر . فسنحت له

(٣٧) الرافعى — عصر محمد على — ص ٩١ .
(٣٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠١ .

الفرصـــة الآن لينزل الى معترك السياسة متصـــديا للدفاع عن صالح الدين وحقوق الشعب وقبض عليها بكلتا يديه » (٣٩) •

علم محمد على باجتماع العلماء فخشى من عواقب هــذا التجمهر فأرسل اليهم سكرتيره الخـــاص المسمى (ديوان أفنـــدى) على وجه السرعة لـــكى يقف على حقيقة الأمر ويتعرف على اتجاهات المشايخ ، وعند حضـــوره قال للمشـــايخ : « البـــاشا يسلم عليكم ويســـأل عن مطلوباتكم ، فعرفوه بما سطروه اجمـــالا وبينوه له تفصيلا » • وعندما سمع سكرتير محمـــد على الى تفاصيل عريضـــة العلماء حاول انهـــاء الأزمة فى بدايتهـــا ، ونصح العلماء بالذهاب الى محمد على ومخاطبته مشافهة بما يريدون « وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم » ثم نصحهم أيضـــا بأن « يلاطفوه فى الخطاب لأنه شـــاب مغرور جاهل وظـــالم غشوم ولا تقبل نفسه التحكم وربما حمله غروره على حصول الضرر بكم وعـــدم انفاذ الغرض » ويظهر من نصـــائح ديوان أفندى السالفة : أن محمد على كان يخشى من اجتماع العلماء بالأزهر وعـــدم ذهابهم اليه جريا على عادتهم معه لأن ذلك يزيد فى الجفاء بينه وبينهم وربما وصلت بهم الأمور الى حصـــاره بالقلعة كما حدث مع خورشيد باشا سابقا • ومن ثم نصحهم بالذهاب اليه ومخاطبته مشافهة •

كما يلاحظ أن ديوان أفندى لوح لهم بأسلوب القوة الذى يتعامل به محمد على مع مخالفيه والخارجين عليه وهذا من قبيل التهديد •

وعندما وصل ديوان أفندى فى حديثـــه الى هـــذا الأسلوب من التهديد قالوا له « بلسان واحـــد لا نذهب اليه أبدا مادام يفعل هـــذه الفعال فان رجع عنهـــا وامتنع عن احداث البـــدع والمظالم عن خلق الله رجعنـــا اليه وترددنا عليه كما كنا فى السابق فاننـــا بايعناه على

---

(٣٩) د. عبـــد العزيز الشـــناوى — عمر مكرم . نقـــلا عن فولابل ص ٢٢٦ •

العـــدل لا على الظلم والجور » وعبثا حاول ديوان أفندى أن يثنيهم عن عزمهم طالبا أن يخاطبوا الباشا « مشافهة ويحصل انفاذ الغرض » فقالوا « لا نجتمع عليه أبدا ولا نثير فتنـــة بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنـــا ونصبر على تقـــدير الله بنا وبغيرنا » [٤٠] .

وبذلك أظهر العلمـــاء فى بادىء أمرهم تماســـكهم واتحـــادهم واصرارهم على مطـــالبهم ورفضهم الاجتماع بمحمـــد على الا بعـــد الغـــاء الضرائب واطلاق سراح الطالب المعتقل . فأخذ مبعوث محمـــد على العرضحال ووعـــدهم برد الجواب ولـــكن الموقف فى جملتـــه كان موقفا سلبيا .

وان كان فى هذا الموقف خطورة شديدة على مركز محمد على « لأن الاعتكاف أمر واعلان صريح بأن محمـــد على قـــد خان أمانة الحكم ونقض الميثاق الذى أخذوه عليه عند اختياره حاكما » [٤١] .

التآمر بعمر مكرم :

رجع ديوان أفنـــدى الى محمد على وأخبره بمـــا كان من موقف العلماء من الترابط والاتحاد والاصرار على مطالبهم ورفضهم الاجتماع به الا بعـــد استجابة مطالبهم التى سطروها فى عريضتهم ، ولـــكن محمـــد على لم يستجب الى هـــذه المطـــالب وفـــكر فى التآمر بهم « وتفريق جمعهم » « وخذلان السيد عمر مكرم لمـــا فى نفسه منه من عـــدم انفاذ أغراضـــه ومعارضـــته له فى غالب الأمور ويخشى صولته ويعلم أن الرعية والعـــامة تحت أمره ان شـــاء جمعهم وان شاء فرقهم ، وهو الذى قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الاقليم ويرى أنه ان شاء فعل بنقيض ذلك » [٤٢] .

---

(٤٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠١ .
(٤١) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم ص ٢٢٨ .
(٤٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٢ .

ظل محمد على يفكر مليا فى تفريق جمع العلماء خلال أربعة أيام بعد عودة سكرتيره اليه بعريضتهم وكان قــد أفرج عن الطالب الأزهرى المعتقل بالقلعة ، وفى اليوم الخامس بدأت خيوط المؤامرة تتضح عندما « اجتمع الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى عند محمد أفنــدى طبل ناظر المهمات وثلاثتهم فى نفوسهم للسيد عمر ما فيهـا وتنــاجوا مع بعضهم » (٤٣) .

ولقد وقع اختيـــار البـــاشا على هذين الشيخين لأنهما من ضعاف النفوس فيقول الجبرتى فى أحدهما وهو المهدى أنه « تولى كبر السعى سرا هو وباقى الجمــاعة حســدا وطمعـــا ليخلص لهم الأمر دونه حتى أوقعوا به » (٤٤) .

ويقول فى شأن الدواخلى « ولمـا انفرد عمر أفندى فى الرياسة ازداد به الحسد فكان هو من أكبر الساعين عليه سرا مع المهدى » (٤٥) .

تآمر هؤلاء الثلاثة واتفقوا على خطة سرية للايقاع بعمر مكرم ثم تفرقوا بعــد حبك خيوط المؤامرة ، وذهب الشيخ المهــدى والشيخ الدواخلى وأخبرا عمر مكرم أن محمد أفندى طبل ذكر لهم أن محمــد على مفترى عليه حيث أنه لم يطلب مال الأوسية وقــد كذب من نقل لنــا ذلك كما ذكر أن البـــاشا يقول : انى لا أخاف أوامر المشايخ وعند اجتماعهم عليه ومواجهته تحصل تصفية هذه المشاكل .

ومما لاشك فيــه أن عمر مكرم تبين له من أقوال الشيخين أنهما قــد خرجا عن الجمــاعة وأنهما يحبذان الذهاب الى محمد على وذلك على الرغم من العهد الذى أخــذه جميع العلماء على الوحدة تجاه أطماع محمد على ، كما كان فى أسلوبهما دفاع ظاهر عن محمد على حين تالا

---

(٤٣) ، (٤٤) الجبرتى ـــ عجائب الآثار ـــ جـ ٤ ص ١٠٢ .

(٤٥) المصــــدر السابق جـ ٤ ص ٣١٦ .

« بأن محمد أفندى ذكر لهما أن محمـد على لم يطلب مال الأوسية ولا الرزق » .

فقال لهما السيد عمر : « أما انكاره طلب مال الرزق والأوسية فها هى أوراق من أوراق المباشرين عندى لبعض الملتزمين مشتملة على الفرضة ونصف الفائظ ومال الأوسية والرزق » ثم أراد أن يعرفهما أنهما باقتراحهما الذهاب اليه فقد نقضوا ايمانهم فقال لهما : « وأما الذهاب اليه فـلا أذهب اليه أبدا ، وان كنتم تنقضون الايمان والعهد الذى وقع بيننا فالرأى لكم » .

ولا شك أن حديث عمر مكرم وصل الى أسماع الباشا وعرف منه أنه لم يزل على موقفه المتشدد ، فعمد الى اشاعة الفرقة بين جماعة العلماء لكى يسهل عليه القضاء على عمر مكرم فأخذ يدعوا اليه أفرادا منهم من ضعاف النفوس وطلاب المناصب ويعدهم ويمنيهم ، واستمر الباشا فى خطته وأخذ « يجمع اليه بعض أفراد من أصحاب المظاهر ويختلى معه ويضحك اليه ، فيغتر بذلك ويرى أنه صار من المقربين وسيكون له شأن ان وافق ونصح فيفرغ له جراب حقده ويرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة » .

ولقد أعاد الباشا الكرة على عمر مكرم وأرسل اليه فى نفس الليلة ٢٢ من جمادى الآخر ١٢٢٤ هـ (٥ من يوليو ١٨٠٩ م) ديوان أفندى وعبد الله بكتاش الترجمان ومعهما المهدى والدواخلى وحاول الجميع اقناع عمر مكرم بالعدول عن مقاطعة الباشا « وطال بينهم الكلام والمعالجة فى طلوعهم ومقابلتهم الباشا ، ورقرق لذلك كل من المهدى والدواخلى » أى أظهر كل منهما الميل فى الذهاب الى الباشا ، وأما عمر مكرم فانه أصر على موقفه وصمم على الامتناع عن مقابلة محمد على ، وطلب المهدى والدواخلى الشيخ الأمير معهما للذهاب الى الباشا ، ولكن الشيخ الأمير وقف موقفا سلبيا واعتذر

« بأنه متوعك » وكان ذهاب الدواخلى بالأصالة عن نفسه ونيـابة عن الشيخ الشرقاوى .

ذهب المهـدى والدواخلى الى محمـد على ورحب بهما وذكر لهما أنه لا يرد شـفاعة المشايخ ولا يقطع رجاءهم ثم قال : « والواجب عليكم اذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحونى وترشدونى ثم أخـذ ينوم عمر مكرم لأنه تخلف وتعنت عليه ويثنى على البواقى » وقال عن النقيب أنه « فى كل وقت يعاندنى ويبطل أحكامى ويخوفنى بقيام الجمهور » وكان محمد على يذكر أمامهما لـكى يستمع الى رأيهمـا فى زعيمهما فجاء جوابهما مؤكدا فراسة الوالى فيهما حيث رد عليه الشيخ المهـدى بقوله : « هو ليس الا بنـا واذا خلأ عنا فلا يسوى بشىء ان هو الا صـاحب حرفة أو جابى وقف يجمع الايراد ويصرفه على المستحقين » وكان معنى ذلك أن المهدى يهون من قيمة عمر مكرم للباشا وأنهم أى المشايخ اذا تركوه « فلا يسوى بشىء » وفى ذلك تشجيع لمحمد على أن يظل سادرا فى خطتـه ولا يعبأ بمخالفـة عمر مكرم وأن يعتمـد عليهما فى ذلك ، وكان مبعث ذلك كله الحقد « ووافق ذلك مافى نفسيهما من الحقد للسيد عمر » وبذلك تأكـد للباشـا أن الشيخين عازمان على خذلان عمر مكرم .

ثم ذكر لهم محمد على أنه لا يقبل ما يفعله المشايخ من التشنيع عليه والاجتماع بالأزهر وتحريض الأهالى على الثورة عليه « وتهييج الشرور » كما كان يفعله المشـايخ أيام المماليك ، لأنه لا يفزع من ذلك، ثم لجأ محمد على الى أسلوب التهـديد قائـلا بأنه اذا « حصـل من الرعية أمر ما فليس لهم عندى الا السيف والانتقام » [٤٦] .

وبذلك يكون محمد على قـد تذأب للشعب بعد أن نفذ أغراضه ،

---

(٤٦) المصـدر السابق ج ٤ ص ١٠٣ .

وأعلن بذلك أن زمان التودد اليهم قد انتهى عهده ، وأن من يخالفه الآن فلن يرد على ذلك الا بالسيف والانتقام .

ورد الشيخان على تهديدات الباشا بأن شيئا من ذلك لم يحدث « ونحن لانحب ثوران الفتن وانما اجتماعنا لأجل قراءة البخارى وندعوا الله برفع الكرب [٤٧] وذلك بدلا من أن يقولا له بأن الاجتماع كان من أجل طلب التخفيف عن الأهالى ، وانصرف الشيخان من هذه المقابلة وهما : « مذبذبان ومظهران خلاف ما هو كامن فى نفسيهما من الحقد وحظوظ النفس غير مفكرين فى العواقب » [٤٨] وتمت تلك السعاية من المهدى والدواخلى لهدم عمر مكرم والوقيعة به لدى الباشا ونقضوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى زعيمهم . بيد أنهما كانا يهدمان نفسيهما وزملاءهما من زعماء الأزهر أيضا ، الأمر الذى ساعد محمد على فى النهاية على القضاء على الزعامة الشعبية واقصائهما عن الحياة السياسية فى مصر وانتهى بها الأمر الى أن أصبحت فى خبر كان [٤٩] .

ولا شك أن سعاية هذين الشيخين كانت بمثابة ضربة بمعول فى صرح العلماء انفتح بعدها كما يقول الجبرتى « باب النفاق واستمر القيل والقال وكل حريص على حظ نفسه وزيادة شهرته وسمعته ومظهر خلاف مافى ضميره » [٥٠] بيد أن الشيخ عمر مكرم ظل وفيا لعهده الذى أخذه على نفسه أمام العلماء .

قصد الشيخان بعد عودتهما من هذه المقابلة الى عمر مكرم « وهو ممتلىء بالغيظ مما حصل من الشذوذ ونقض العهد [٥١] وأخبراه بما دار

---

(٤٧) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٣ .
(٤٨) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٣ .
(٤٩) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٢ .
(٥٠) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم . ص ٢٣٤ .
(٥١) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ١٠٣ .

فى مقابلتهما مع البـــاشا على نحو ماسبق ، وأن الباشا لم يحصل منه خلاف لأنه ذكر لنـــا أنه لايرد شفاعتنا ، ولـــكنه يقول بأن نفسه لاتقبل التحكم بيد أنه يقبل النصيحة والشفاعة من المشايخ ، وأنه عندما طلب منا أن نخبره « عمن انتبـــذ لهـــذا الأمر » أى المحـــرض على هـــذه الاجتماعات ، غالطناه ، ثم ذكرا له أنه وعد بالغـــاء الدمغة وتخفيف الفائض من النصف الى الربع ، وأنـــكر الطلب بالأوســـية والرزق ، ولم يطلعا عمر مكرم بطبيعة الحال على باقى التفاصيل التى دارت بينهما وبين الباشا حول عمر مكرم •

ولقد أدرك عمر مكرم دور الشيخين المهـــدى والدواخلى وفطن الى أنهما يدافعان عن البـــاشا ، وأنهما سمعا تهديد البـــاشا لجماعتهم وتقبلا ذلك التهديد بنفس ملؤها الصغار تنـــدفع فى سعيها لدى الباشا بعاملى الرغبة والرهبـــة فاحتقرهما وظل وفيا لعهده • ولم يتأثر بعاملى الرغبة والرهبة كما تأثر غيره •

استأنف البـــاشا السعى ليستميل السيد عمر مكرم ويثنيـــه عن عزمه وأرسل الى ديوان أفندى وعبد الله بكتاش الترجمان فى أول شهر جمادى الآخر سنة ١٢٢٤ هـ (١٤ من يوليو ١٨٠٩ م) واجتمعا بالسيد عمر فى بيتـــه وكان الشيوخ يحضرون هـــذا الاجتماع وتكلموا فى شأن طلوعه الى البـــاشا وحاولوا اقناع السيد النقيب بمقابلته ، ولكنه أصر على موقفـــه « وحلف أنه لا يطلع اليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجها الا اذا أبطل هذه الأحدوثات » وذكر عمر مكرم للمجتمعين لديه أن النـــاس يتهمونه مع البـــاشا ويزعمون أنه لا يتجـــرأ على هـــذه الأشياء التى يقوم بها من فرض الضرائب الا باتفاقى معـــه ، ويكفى ما مضى ، وذكر لهم أن محمد على كلما تقـــادم به العهـــد يتزايد فى الظلم والجور ، ويذكر الجبرتى أن عمر مكرم « تكلم كلاما كثيرا » غير ماسبق بيـــد أنه لم يذكر فى كتابه ولـــكن ذكره المعـــاصرون اذ قرر (المسيو مانجان) أن عمر مكرم أضـــاف الى هـــذا الـــكلام الثورى

تهديده باحالة موضـــوع الخـــلاف الى البـــاب العالى اذا أصر الباشا على المضى فى سياسة الظلم ، كما توعد بتحريك الشعب للثورة عليـــه وخلعه من الولاية كما فعل مع خورشيد من قبل وقال عمر مكرم « وكما أصعدته الى الحكم فانى قـــدير على انزاله منه » كما ســـجل المؤرخ جوا العبـــارة الأخيرة (٥٢) ولمـــا تبين للمشايخ اصرار السيد عمر على الامتناع استقر رأيهم على مقابلة البـــاشا ، واتفقوا على ذهاب المشايخ عبد الله الشرقاوى ومحمد المهدى ومحمد الدواخلى وسليمان الفيومى ، وقـــد طلبوا الشيخ محمد الأمير ولـــكنه « اعتذر بأنه متوعك الجسم ولا يقدر على الحركة ولا الركوب » (٥٣) • وكان ذهاب هـــذا الوفـــد الأخير « على خلاف غرض السيد عمر ، وقد ظن أنهم يمتنعون لامتناعه للعهد السابق والايمـــان » وذهب وفد المشايخ الى البـــاشا وتكلموا معه « وقـــد فهم كل منهم لغـــة الآخر الباطنيـــة » وعنـــدما تحدثوا معه بشأن الضرائب الجديدة التى فرضها ، أخبرهم أنه سوف « يرفع بدعة الدمغة » وأنه سوف يرفع كذلك « الطلب على الأطيان والأوسية » كما أنه وعد بتقرير « رفع الفائظ » بدلا من النصف ، وقام العلمـــاء وانصرفوا من عنده وذهبوا الى عمر مكرم •

أخبر العلماء السيد النقيب بما وعـــد به الباشا فلما سمع مقالتهم بهذه الوعود ، قال لهم وهل أعجبكم ذلك ؟ ولم ينتظر اجابتهم بل بادرهم بما يسفه أحلامهم ، ويذكرهم بوعود محمد على الـــكاذبة حيث قال : « انه أرسل يخبرنى بتقرير ربع المـــال الفـــائظ فلم أرض وأبيت الا رفع ذلك بالـــكلية » ومعنى ذلك أنه لم يخبركم بشىء جديد • وعرفهم

---

(٥٢) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — ص ٢٣٦ .

(٥٣) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ١٠٣ ويلاحظ أن الشيخ محمد الأمير على الرغم من امتناعه الا أنه كان سادرا مع المشايخ فى خطتهم فى الايقاع بعمر مكرم ، وربما يرجع ذلك الى أنه كان متحرجا من عمر مكرم نظرا لموقفـــه السابق معه فى خلافه مع الشيخ عبد الله الشرقاوى ونصرته له فى الفوز بنظارة أوقاف الجامع الأزهر .

أن سبب رفضــه ذلك أن محمد على « فى العام الســابق لما طلب احداث الربع [٥٤] قلت له هــذه تصير سنة متبعة فحلف أنها لا تــكون بعد هذا العــام وذلك لضرورة النفقــة وان طلبها فى المستقبل يكون ملعونا ومطرودا من رحمــة الله وعاهدنى على ذلك » وكان ذلك بحضور المشايخ وعلمهم ولذلك قالوا لعمر مكرم نعم حدث ذلك . واستمر السيد النقيب فى تفنيد وعود محمد على الــكاذبة فقــال : « وأما قوله انه رفع الطلب عن الأوسية والرزق فلا أصل لذلك وها هى أوراق البحيرة وجهوا بهــا الطلب » وأخرج لهم الأوراق التى بها أوامره لطلب المال من الأوسية والرزق ، فقالوا لعمر مكرم اننا ذكرنا له ذلك ، « وحاججناه بأوراق الطلب هذه » ولــكنه ذكر لنا سبب فرضها على أهل البحيرة كان بسبب الغش الذى حدث منهم حيث أنهم ادعوا أن غالبية أراضيهم من الرزق والأوســية لاعفــائها من الضرائب والواقع غــير ذلك . فقرر ذلك عليهم عقوبة لهم فى نظير تدليسهم وخيــانتهم ، فقال السيد عمر « وهل ذلك أمر واجب فعله اليس هو مجرد جور وظلم أحــدثه فى العــام الماضى وهى فرضــة الأطيــان التى ادعى لزومها لاتمــام العلوفه وحلف أنه لا يعود لمثلها وقد عاد وزاد » .

وأراد السيد عمر مكرم فى نهــاية حديثــه أن يكشــف مخطط محمد على والمشايخ ويذكرهم بأنه لا يخفى عليه قصدهم وقصد الباشا فقال : « وأنتم توافقونه وتسايرونه ولا تصــدونه بكلمة ، وأنا الذى صرت وحدى مخالفا وشــاذا ، ووجه عليهم اللوم فى نقضهم العهــد والايمان » وانفض المجلس دون الوصول الى نتيجة ، وكانت النتيجة المؤسفة التى أسفرت عنها مواقف العلماء والتى أشــار اليها الجبرتى

---

(٥٤) المراد بالعــام السابق الذى يذكره الجبرتى فى حديث عمر مكرم هو عام ١٢٢٠ هـ عقب تولى محمد على الحكم ، وكان محمد على قد أحدث ثلث الفائظ وليس الربع كما ذكر الجبرتى هنــا ولعل ذلك وقع سهوا من الجبرتى . وقــد ذكر الجبرتى ذلك فى حوادث أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٢٠ هـ ج ٣ ص ٣٦٧ .

هى أن الآراء قد تفرقت وراج سوق النفاق وتحركت حفائظ الحقد والحسد [٥٥] وكثر سعى المشايخ الحاقدين على عمر مكرم وتناجيهم بالليل والنهار » •

محمد على يحاول اغراء عمر مكرم بالمال :

استعمل محمد على كل الطرق الممكنة لاستمالة عمر مكرم الى جانبه ، وارجاعه عن تصميمه فى معارضته له ، وطلب للحضور اليه والاجتماع به ، ووعده بانجاز مايشير عليه به ، ولكن عمر مكرم لاتلين له قناة ، فعند ذلك ظن محمد على أنه ربما يكسبه بالمال فحاول أن يجرب معه الاغراء المالى ، فبعث اليه كتخداه (وكيله) محمد أغا « ليترفق به » كما يقول الجبرتى •

وذهب وكيل الباشا الى عمر مكرم وذكر له أن الباشا يعده أن يرتب له كيسا فى كل يوم ويعطيه فى هذا الحين ثلثمائة كيس خلاف ذلك « ولكن السيد عمر مكرم كان ذا خلق كريم وعفة ونزاهة ولم يؤثر فيه الاغراء المالى ورفض بعزة وشموخ أن يكون عميلا يقبض مبلغا من المال نظير سكوته واغضائه عن أفعال محمد على • ومضى يناصب محمد على الخلاف على الرغم من أنه كان يعلم العواقب المترتبة على هذا الخلاف نظرا لأن محمد على أفرده وحده وأظهره فى صورة المتمرد وحده والمخالف وحده وذلك بحيله ودسائسه لدى المشايخ •

محمد على يلجأ الى أسلوب الدس :

يئس محمد على من استمالة عمر مكرم نهائيا فلجأ كعادته الى الدس والخداع والمكيدة ، فأحاط بيته بالجواسيس لمراقبته « ولم يزل الباشا متعلق الخاطر بسببه ويتجسس ويتفحص عن أحواله وعلى من يتردد عليه من كبار العساكر » وربما أغرى به بعض الكبار

---

(٥٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٣ — ١٠٤ •

فراسلوه سرا وأظهروا له كراهيتهم للبـاشا وأنه « ان انتبذ لمقاومته ساعدوه وقاموا بنصرته عليه » ولـكن السيد عمر مكرم كان حذرا ولم تخف عليه تلك الحيل والألاعيب التى عرفهـا عن محمد على فكـانت أقواله لهؤلاء الجواسيس لا تختلف عن أقواله السابقـة لمن توسطوا لديه لانهاء الأزمة وظل « مصمما وممتنعـا عن الاجتماع والامتثـال اليه » (٥٦) وربما حرفوه بحسب الأهواء والأغراض .

وفى غضون ذلك أرسل البـاب العالى الى البـاشا يطالبه بمبلغ أربعة آلاف كيس كانت متبقيـة له على مصر من المبلغ الذى خصصه الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا (٥٧) ، حين كان بمصر ، وعزم (محمد على) على التنصل من دفع هـذا المبلغ وأعد لذلك رسالة الى البـاب العالى يعتذر فيهـا عن عجزه فى دفع المال المطلوب ، وبين فى هـذه الرسالة الوجوه التى أنفق فيهـا أموالا طائلة تختص بشئون البلاد وأنها كانت سببا فى عـدم قدرته على دفع المطلوب للبـاب العالى . وراح يعدد فى رسالته هـذه الوجوه وقال : « منها ماصرف فى سد ترعة الفرعونية ومبلغه ثمانمائة كيس ، وعلى تجاريد العساكر لمحاربة الأمراء المصرية حتى دخلوا فى الطاعة ، كذلك مبلغا عظيما ، وما صرف على عمارة القلعة والمجراة التى تنقل الميـاه اليها مبلغا أيضا وكذلك فى حفر الخلجان والترع ونقص المال الميرى بسبب شراقى البـلاد ونحو ذلك » .

وأرسل محمد على البيـان السابق الى السيد عمر مكرم لاقراره والتوقيع عليه ولـكن السيد عمر امتنع وأظهر الشـك فى محتوياته ، وأخذ يفند ذلك كله بابا بابا وقال للرسول الذى حمله اليه : « أما صرفه على سد الترعة فان الذى جمعـه وجباه من البـلاد يزيد على ماصرفه

---

(٥٦) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٤ .

(٥٧) د. محمـد فؤاد شـكرى — مصر فى مطلع القـرن ١٩ ج ٣ ص ١٢٣٨ .

أضـــعافا كثيرة ، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصـــل له وان وجـــد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لمـــا وسعته الدفاتر » وكان فى هـــذا الجواب من الغلظة على محمد على مايجعله ينظر فى مسألة عمر مكرم التى طال شرحهـــا على وجه السرعة ، ومن ثم فانه عندما عاد الرسول اليه وأخبره بمقـــالة السيد النقيب « حنق عليه واغتاظ فى نفسه » وأنفذ المـــكتوب الى الدولة دون انتظار توقيع عمر مكرم •

وأراد البـــاشا البت نهائيا فى مسألة عمر مكرم بعد هذه الحادثة فأرسل اليه يطلبـــه للاجتماع به فقـــال عمر مكرم : « ان كان ولابد فأجتمع به فى بيت السادات وأما طلوعى اليه فلا يكون » وبلغ هـــذا الجواب الى محمد على فازداد غضبه وقال : « انه بلغ به أن يزدرينى ويرذلنى ويأمرنى بالنزول من محل حكمى الى بيوت الناس » (٥٨) •

موقف الشيخ السادات :

ويذكر بعض الـــكتاب رواية عن الســـيد أبو الأنوار الســـادات مجملها أنه أراد التوسط فى الأمر بدوره لانهاء الخـــلاف بين عمر مكرم ومحمد على وطلب من محمد على بأن يتوجه الى عمر مكرم لتقبيل يده وترضيته بيد أن محمد على استمال الشيخ السادات الى جانبه بمكره ودهائه ولوح له بمركز نقابة الأشراف فيذكر : « ان الشيخ السادات أراد اطفاء نار الفتنة ، فحضر الى القلعة وخاطب محمد على بقوله :

هيا بنا •• قم معى الى السيد عمر لتقبل يده فيعفو عنك وتظل متمتعا بمركزك وأومأ اليه من طرف خفى بأن يفعل ما يشاء بعد أن يستتب لـــه الأمر ويتنفس ، ولكن محمد على أهاب بالشيخ وقبض على يده يلثمها قائلا له : لقد عينتك نقيبا للأشراف ! •

---

(٥٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٤ •

وكان عمله هذا ايماء الى أن اليد الواجب لثمها هى يده وحده بيد أن السادات تظاهر بالامتناع عن هذا العرض وأجاب :

كيف يكون هذا وقد أتيت لاصلاح ذات البين فتعرض على منصب الشيخ • وتظاهر محمد على بأنه أخذ على خاطره متدللا ، ثم التفت الى بكتاش أحمد أغا المترجم وخاطبه بقوله :

قل للشيخ أنه تفضل فتبنانى ، وأنا اتخذته أبا ، فهل لا يقبل الآن رجاء ولده ولم ير السادات بدا من قبول رجاء محمد على وقنع بمبلغ عشرة آلاف قرش بصفة عطية بدلا من الفرو لتعذر وجوده آنئذ » (٥٩) •

ويلاحظ أن الجبرتى لم يذكر هذه الرواية ، ونستبعد هذا الموقف من السادات لأنه كان سادرا مع المهدى والدواخلى فى الايقاع بعمر مكرم ولم يسع الى التوفيق ، فضلا عن أنه لو فعل ذلك لما خفى هذا الموقف على الجبرتى •

خلع عمر مكرم من النقابة ونفيه الى دمياط :

نزل الباشا من القلعة يوم الأربعاء ٢٧ من جمادى الآخر ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩م) وذهب الى بيت ابنه ابراهيم بك ، وكان قد صمم على البطش بعمر مكرم • وكان قد أعد الخطة والمسرح الذى يلائم القضاء على هذه الشخصية الكبيرة ، وكانت الأوضاع الشرعية المألوفة فى هذه الأيام • هى الاحتكام الى القضاء ، فأرسل محمد على الى القاضى والمشايخ بالحضور اليه وأرسل الى عمر مكرم « رسولا من طرفه ورسولا من طرف القاضى » يطلبانه لحضور مجلس الشرع « ليتحاقق ويتشارع معه » ولكن السيد عمر مكرم كان يعلم مسبقا أن القضية خاسرة نظرا لأن الباشا كان قد

---

(٥٩) محمد أمين حسونه — كفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر — القاهرة ١٩٥٥ — ص ٨٢ .

أعد لكل شيء عدته ، فالشيوخ قد أغراهم الباشا وأفسد عقولهم وضمنهم الى جانبه وقد سبق أن علم رأيهم وعرف أنهم الذين تولوا كبر هـذا الأمر ونقضوا ايمانهم من بعد عهدهم ، والقاضى كان تركيا من جنس محمد على ، ومن ثم آثر الامتناع واعتذر ، « بأنه شرب دواء ولا يمكنه الحضـور فى هذا اليوم » وبذلك فوت على محمد على اتمام المسرحية الهزلية التى أعدها له .

فما كان من الباشا الا أن أمر بحضرة القاضى والشيوخ بعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف وتعيين السادات بدلا منه (٦٠) وأمر بكتابة فرمان بخروج السيد عمر ونفيه من مصر (٦١) الى دمياط .

وحاول الشيوخ أن يتظاهروا بالعطف على عمر مكرم فتشفعوا له لدى الباشا فى أن يمهله ثلاثة أيام يقضى أشغاله فيها ويستعد للرحيل فأجابهم الى ذلك ثم سألوه أن يأذن له فى الذهاب الى مسقط رأسـه أسيوط ، ولكن محمد على خشى من ذهابه الى أسيوط خوفا من اتصاله هناك بأمراء المماليك الموجودين بالصعيد ، وأن يجمع عصبيته من أهل الصعيد والخارجين على محمد على من المماليك ، وخيره بين الذهاب الى الاسكندرية أو الى دمياط .

---

(٦٠) كان بالقاهرة بيتان من بيوت الأشراف يتطلعـان الى استعادة منصـب نقـابة الأشراف من عمر مكرم وهمـا : بيت السـادة البـكرية (وينتسبون الى أبى بكر الصـديق) وعاهل أسرتهم الشيخ خليل البكرى الذى انتزع نقـابة الاشراف من عمر مكرم ابان الحملة الفرنسية وتوفى سنة ١٢٢٣ هـ ، وبيت السادات الوفائية (وينتسبون الى الامام على) وعاهل أسرتهم الشيخ محمد أبو الأنوار السادات ، وكان البيتان يعتقدان انهما أحق بنقـابة الأشراف من عمر مكرم الأسيوطى الذى لم يكن له من المراقـة الأسرية والعصبية بالقـاهرة مايؤهله فى نظرهمـا الى تولى هذا المنصب الخطير ، وانه فاز به من قبل لاعتماده على تدخله لدى السلطات الحـاكمة أيام مراد بك وابراهيم بك قبل الحملة الفرنسية وبعدها .

(٦١) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ١٠٤ .

وتقبل عمر مكرم الضربة بثبات وقوة ولم يضعف أمام بطش محمد على ولم يطلب منه العفو — وانما قال عندما وصله الخبر : « أما منصب النقابة فانى راغب عنه وزاهد فيه ، وليس فيه الا التعب ، وأما النفى فهو غاية مطلوبى ، وأرتاح من هذه الورطة » ثم طلب أن يكون النفى فى بلد ليست تحت حكم الباشـا فقال : اذا لم يأذن لى فى الذهاب الى بلدى أسيوط فليأذن لى فى الذهاب الى الطور أو درنة بطرابلس الغرب ، ولما عرضوا طلبه على الباشا رفض وأصر على نفيه الى دمياط •

رحيل السيد عمر الى دمياط ووداع الشعب له :

أخذ عمر مكرم يستعد للسفر وأمر الباشجاويش أن يأخذ الجاويشية الواقفين على باب منزله (لحراسته وتنفيذ أوامره بوصفه نقيبا للأشراف) ويذهب بهم الى بيت الشيخ محمد السادات نقيب الأشراف الجديد وأناب عنه وكيلا فى ادارة أملاكه ورعاية أهـل بيته هو السـيد محمد المحروقى (٦٢) كبير التجار بالقاهرة ، وذهب محمد المحروقى الى محمد على يخبره بشأن الوكالة ويستأذنه فى قبولها فأذن له « وأجازه بذلك » ثم تظاهر محمد على بالعطف على السيد مكرم فقال : « هو آمن من كل شيء وأنا لم أزل أراعى خاطره » وكان السيد محمد المحروقى قد اصطحب معه ابن بنت السيد عمر مكرم (٦٣) الى محمد على فأحسن الباشا مقابلته ، وأشيع بين الناس رضاء الباشا عن عمر مكرم وتناقل الناس تلك الشائعة وفرح أهل منزله « وزغرطوا وسروا واستمروا على ذلك حتى رجع الغلام وتبين أنه لا شيء فانقلب الفرح بالترح » •

---

(٦٢) محمد المحروقى هو ابن السيد احمد المحروقى شاه بندر التجار بمصر المتوفى سنة ١٨٠٤ •

(٦٣) هو صالح افندى مكرم ابن حسين محمد مكرم — الشهير بالطويل وحسين هـذا هو ابن أخ عمر مكرم وكان زوج ابنته الوحيدة والتى توفيت فى حيـاة والدها انظر سجلات محكمة البـاب العـالى بدفتر خانة الشهر العقارى بالقاهرة (مسلسلة ٣٧٥ مادة ٢١٤ ص ٦٧) الخاصـة بأوقاف عمر مكرم •

عين محمد على لحراسة عمر مكرم فى سفره محمد كتخدا الألفى وكان سفره فى يوم الأحد غرة رجب سنة ١٢٢٤ هـ ، واجتمع المودعون للسيد النقيب فى هذا اليوم لتحيته عند سفره ، وحضر الضابط المعين لحراسته واصطحبه الى بولاق حيث استقل السفينة منها فى النيل الى دمياط . وقد شيعه لدى رحيله الكثيرون من أهل الأزهر ومن غيرهم فيقول الجبرتى: « وشيعه كثير من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه ، وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدا للناس ولتعصبه على نصرة الحق فصار الى بولاق ونزل فى المركب وسافر من ليلته بأتباعه وخدمه الذين يحتاج اليهم الى دمياط »(٦٤) .

وهكذا انتهت معارضة عمر مكرم للباشا ، ولم يتحرك الشعب لمناصرته وتأييده وهم الذين هدد النقيب بتأليبهم على محمد على لانزاله عن كرسى الولاية كما سبق أن أجلسه عليه وكان كل ما ظفر به عمر مكرم من الشعب عند سقوطه أن « اغتم الناس على سفره وخروجه » كما يقول الجبرتى .

وبنفى عمر مكرم انتهت الزعامة الشعبية التى تمثلت فى علماء الأزهر بزعامة السيد عمر مكرم ، وانفرد محمد على بالحكم دون منازع وأخذ يبسط نفوذه وسلطانه فى البلاد .

ويلاحظ أن محمد على لم يفكر فى أن يكون عقاب السيد عمر مكرم من جنس ما كان معروفا فى ذلك العصر من القتل أو السجن ، وذلك لأن الباشا كان يأخذ فى اعتباره أحد أمرين : الأول : منزلة عمر مكرم فى نفوس الشعب ، فقد كان للسيد النقيب من النفوذ لدى السواد الأعظم من الشعب ما يجعله رهن اشارته عندما يهدده خطر من قبيل القتل أو السجن ، وقد مر بنا كيف كان الشعب فى القاهرة يلجأ الى عمر مكرم فى كثير من

---

(٦٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٥ .

الأحيان فيقف الزعيم بجانبهم ويرفع عنهم ظلم الظالمين ، كما أصبح الناس فى الأقاليم يراسلونه ويطلبون معونته فى الملمات والنوازل .

الأمر الثانى : أن منزلة عمر مكرم قد ارتفعت لدى الباب العالى بالاستانة فقد جاء تقريره فى نقابة الأشراف عام ١٨٠٢ من السلطان (بعد حادث تجريده منها وتلقيدها يوسف أفندى التركى) وعندما كان يصل الفرمان السلطانى السنوى بتجديد ولاية محمد على واهدائه الخلع الثمينة بهذه المناسبة كانت ترسل خلعة للسيد عمر مكرم ، وبين أيدينا صورة مكاتبة من محمد على الى الباب العالى تتضمن الشكر على الفرمان الذى حمله الى مصر (عبد الكريم أغا) بشأن التقرير لمحمد على باشا على ولاية مصر والانعام عليه بفروة سمور ، وبشأن التبريك له فى نجاحه فى اجلاء الانجليز عن الاسكندرية ، وقد ذكر محمد على عمر مكرم فى هذه المكاتبة بقوله : « وظهرت العنايات السلطانية المتعلقة بالانعام بفروة على داعيكم صاحب الفضيلة السيد عمر مكرم أفندى نقيب الأشراف بمصر » وجاء ذكر عمر مكرم بعد ذكر محمد على مباشرة وقدمه الباشا على كل من (حسن باشا) و (طاهر باشا) الحائزين لرتبة أمير الأمراء ، وعلى كل من ولديه ابراهيم بك وطوسون بك : (٦٥) وذلك لما كان لعمر مكرم من مكانة لدى الباب العالى . ومن ثم لم يكن عمر مكرم بالرجل المجهول أو البسيط الذى يأخذه الباشا على حين غره ويعاقبه بالقتل أو السجن وانما اكتفى بأن عزله من نقابة الأشراف ونفاه الى دمياط واضعا فى ذهنه الاعتبارات السابقة الخاصة بمكانة عمر مكرم السياسية لدى مواطنيه ولدى الباب العالى .

---

(٦٥) دفتر رقم /١ وثيقة رقم /١ ورقة رقم /١ من دفاتر المعية السنية — تركى مترجم الى اللغة العربية ، وهى من وثائق الأوامر والمكاتبات الصادرة من محمد على الى السلطان بالآستانة فى سنة ١٢٢٢ هـ — دار الوثائق القومية بالقلعة — القاهرة . كما ورد فى أواخر المحرم (١٢٢٤ هـ) فرمان آخر بتقرير الولاية مجددا ، وأرسل محمد على باشا وقواده وعمر مكرم وغيرهم (تشكراتهم) على صدور هذا الفرمان الشاهانى — أمين سامى باشا — تقويم النيل جـ ٢ ص ٢١٥ .

وهكذا نفذ محمد على الدرس القائل بأن على الحاكم تحطيم أولئك الذين رفعوه الى الحكم كما يقول المؤرخ الأمريكى البرت حورانى — ويضيف « غير أنه كان من الدروس التى تعلمها بدون قراءة ميكافللى »[٦٦].

العوامل التى ساعدت على زوال مكانة العلماء :

ان ما حدث لعمر مكرم ليدل على أنه لم تعد للعلماء المكانة التى كانت لهم من قبل فى نفوس الحكام ويرجع هذا التغيير الى عدة عوامل تتلخص فى عاملين أساسيين :

أولهما : انقسام جبهة العلماء وحقدهم على زعيمهم عمر مكرم كما سبق بيان ذلك ، ولقد تناول محمد على هذا الانقسام وعمقه فحال ذلك دون تجمع العلماء فى جبهة واحدة ، وثانيهما : أن الشعب لم يعد يثق فى زعامة العلماء لتبدل حالهم عن ذى قبل وانصرافهم الى أمور الدنيا ، لدرجة أنهم ظهروا فى نظر الشعب وكأنهم مشتركون مع محمد على فى استغلاله وأصبح الناس يتهمون عمر مكرم بالتعاون مع الباشا وهـذا ما أشار اليه النقيب نفسه واعتبره تورطا حين بلغه قرار محمد عـلى بنفيه فقال : « وأما النفى فهو غاية مطلوبى وأرتاح من هذه الورطة » [٦٧] وقال « أن جميع الناس يتهمونى معه ويزعمون أنه لا يتجارأ على شىء يفعله الا باتفاقى معه » [٦٨] .

وكان هذان العاملان انقسام العلماء ، وانصراف الشعب عنهم بفعل محمد على ودسائسة الشيطانية ، أضف الى ذلك أن العاملين السالفين عاقا كل أمل فى تجمع الشعب ووحدته تجاه أطماع الباشا ومخططاته ، وانصرف الجمعان : العلماء الحاقدون على زعيمهم ، والشعب الذى قلت

---

(٦٦) الفكر العربى فى عصر النهضة — ترجمة كريم عزقول ص ٧٣ .
(٦٧) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٦٨) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

ثقته بعلمائه انصرفوا جميعا عن تأييد عمر مكرم حينما أراد الوقوف فى وجه محمد على والحد من أطماعه ، واستحال اتحادهم ، وغاية ما فعله الشعب من أجل عمر مكرم وقت رحيله أن « اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر » (٦٩) ولقد حزم محمد على أمره وناصب المشايخ العداء معتمدا على هذين العاملين السابقين انقسام المشايخ وانصراف الشعب عنهم ويلاحظ أيضا أنه لم يكن لدى الشعب الوعى الكافى والجرأة الكافية لمناصرة عمر مكرم وتحدى محمد على الذى كان من حين لآخر يظهر قوته على البطش بأعدائه .

تشويه سمعة عمر مكرم لدى الباب العالى :

بعد خلع عمر مكرم ونفيه الى دمياط لجأ محمد على الى أسلوب تشويه سمعة السيد النقيب لدى الباب العالى فقد عنى بكتابة عرضحال موقع عليه من المشايخ وادعى فيه جملة من الأسباب دعته الى خلع عمر مكرم من نقابة الأشراف ولقد وجد الباشا مجموعة المتصدرين من المشايخ طوع بنانه لتنفيذ مؤامرته وكان فى مقدمة هؤلاء المشايخ السيد (محمد أبو الأنوار السادات) الذى تربع على كرسى النقابة بعد عمر مكرم واكبر الحاقدين عليه فى الباطن والذى أظهر الكامن فى نفسه ابان هذه المحنة ، وتعاون مع الشيخ (الدواخلى) والشيخ (محمد المهدى) فى كتابة العرضحال بالصورة التى أرادها محمد على « وعدوا له مثالب ومعايب وذنوبا (ونسبوا) اليه فيه أنواعا من الموبقات » وكان فى مقدمة هذه الاتهامات : أنه أدخلو فى دفتر الأشراف أسماء أشخاص ممن أسلموا من القبط واليهود وقطع مرتبات الأشراف المستحقين وصرفها للأقباط المدخلين ومن هذه الاتهامات أن عمر مكرم أخذ رشوة من الألفى أيام فتنة أحمد باشا خورشيد ليملكه مصر (القاهرة) ، ومنها أنه كاتب الأمراء المصريين (بكوات المماليك) أيام فتنة خورشيد ليدخلوا القاهرة

---

(٦٩) المصـــدر السابق — ص ١٠٥ .

على حين غفله يوم الاحتفال بوفاء النيل (٧٠) ثم ذكروا بأنه يريد ايقاع الفتن بين العساكر يريد بذلك عزل الباشا ويولى خلافه مستعينا فى ذلك بطوائف المغاربة والصعايدة واخلاط العوام (٧١) وهذا الاتهام يثير الباب العالى على عمر مكرم لأنه يظهره فى صـورة السياسى المحترف الذى أصـبح خبيرا فى تدبير الانقلابات لاسـقاط الولاة وتعيين غيرهم دون استئذان السلطان بصفته صاحب السيادة الشرعية (٧٢) أى أن محمد على صار يستخدم مسعى عمر مكرم لاثارة السلطان ، ونسبوا اليه أنه هو الذى أغرى المماليك بقتل على باشا الطرابلسى حين قدم واليا على مصر ، كما نسبوا اليه أيضا بأنه عميل للانجليز « كاتبهم وطمعهم فى البلاد مع الألفى حين حضروا الى الاسكندرية وملكوها ونصر الله عليهم العساكر الاسلامية » (٧٣) .

ومن الواضح أن محمد على هو الذى وضع خطة هذه العريضـة وأشار بهذه الاتهامات الخطيرة التى تقضى على سمعة عمر مكرم وقد جمعت بين اتهامات دينية وأخرى سياسية وصفها الجبرتى بأنها كانت « عكس القضية » وأنها من « تنميق الأغراض النفسانية » وقد حاول محمد على أن يصور عمر مكرم للسلطان فى هذه العريضة وما الحق بها من بيان سوف نتحدث عنه فيما يلى ، بأن عمر مكرم يكون مركزا من مراكز القوى بمصر يجب القضاء عليه قبل أن يستفحل أمره . وكتبت أسماء المشايخ على العرضحال ، وطافوا به على المشايخ ليوقعوا عليه فامتنع كثير منهم عن التوقيع ، وكان فى مقدمة المشايخ الممتنعين الشيخ أحمد الطحطاوى مفتى السادة الحنفية وذكروا لهم أن ما نسب الى السيد النقيب « كلام لا أصل له » ووقع بين الممتنعين والمشـايعين لمحمد على خلاف . فلام المشايعون الممتنعين على امتناعهم عن التوقيع قائلين لهم :

---

(٧٠) اشارة الى حادث ١٦ من اغسطس ١٨٠٥ م .
(٧١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٦ .
(٧٢) د. عبد العزيز محمد الشناوى ، عمر مكرم ... ص ٢٦٢ .
(٧٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٢٠٧ .

« أنتم لستم بأورع منا » وأثبتوا لأنفسهم ورعا « وحصل بينهم منافســات ومخالفات ومقابحات » (٧٤) واضــطروا الى تغيير صــورة العرضحال وخففوا فيه من التحامل السابق على السيد النقيب ليحملوا زملاءهم على توقيعه فامتنع مع ذلك بعضهم ، وكان أشدهم اصرارا على استنكاره والامتناع عن التوقيع الشــيخ أحمد الطحطاوى الذى تزعم المعارضين فى بداية الأمر ، ولما بلغ الأمر محمد على قال لمترجمه : « هل هذا شىء عويص ؟ اصنعوا خاتما فى الضربخانة باســم الشــيخ أحمد الطحطاوى وامهروا العرض » (٧٥) •

ولم يكن الشيخ الطحطاوى هو الوحيد الذى قلد خاتمه بطبيعة الحال مادام محمد على قد أشار بهذا التزوير •

وسخط الشيوخ على الشيخ أحمد الطحطاوى بسبب موقفه الجرئ واضطهدوه وعملوا على عزله من مشيخة الحنفية فلم يعبأ بذلك ، وكــان أكثر المتحاملين عليه الشيخ السادات والشيخ الأمير ، وانتهى بهم الأمر الى التآمر عليه لدى محمد على وعزلوه من المشيخة بعد حوالى أسبوعين من كتابة العريضة ، وعينوا بدله (الشيخ حسين المنصورى) وخلعوا عليه والبســوه خلعه لدى الباشا بالقلعة فلما بلغ الخبر الشــيخ أحمد الطحطاوى « طوى الخلع التى كانوا البسوها له عندما تقلد الافتاء •• وأرسلها لهم » وكان الشيخ السادات البسه حين ذاك فروة فلما ردها اليه احتد واغتاظ وأخذ يسبه فى المجالس ويقول لزملائه « انظروا الى هذا الخبيث كأنه يجعلنى مثل الكلب الذى يعود فى قيئه » وما كان الشيخ الطحطاوى بالخبيث ولا بالمنافق ولكنه احتفظ لطائفة العلماء بقبس من جلالها وروعتها وسط دياجير الظلام (٧٦) ويذكر الجبرتى أن الشــيخ الطحطاوى قد تجنب جماعة المتصدرين واعتكف فى داره لا يخرج منها

---

(٧٤) المصــدر السابق — ص ١٠٦ •
(٧٥) محمد أمين حسونه — كفاح الشعب •• ج ١ ص ٨٣ •
(٧٦) د• عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم • ص ٢٦٤ •

الا الى مسجد الشيخونية بجوار داره ، ولقد اتفق أن دعى الى وليمة عند الشيخ الشنوانى شيخ الجامع الأزهر ، فقابل كبار المشايخ المتصدرين خارجين من الحفلة فتجاهلهم وترفع عن تقبيل أيديهم فتطاول عليه ابن الشيخ الأمير ورفع صوته بتوبيخه وشتمه لكونه لم يقبل يد والده وقال : « أليس هو الا قليل الأدب والحياء ثالث طبقة للشيخ الوالد » (٧٧) وهكذا أخذوا يبالغون فى ذمه والحط منه لكونه لم يوافقهم فى شهادة الزور » (٧٨) .

بيد أن محمد على لم يكتف بما سطره مشايخ الوقت المتصدرين فى عريضتهم من افتراءات وأباطيل ، وانما ألحق بها بيانا آخر عندما أرسلها الى الاستانة فى ١٥ شعبان ١٢٢٤ (٧٩) ، ذكــر فيه زيادة على ما سبق فى عريضة العلماء ، أن السيد عمر مكرم اعتاد أن يتدخل من غير مناسبة الى ما هو خارج عن وظيفته ، وأنه امتهن وآذى بقاسى الكلام « من هو

---

(٧٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٦ .

(٧٨) يذكر الجبرتى ان أحمد الطحاوى من أصـــل تركى تولى والده القضــاء بطهطا وحضر الى الأزهر بعد وفاة والده وتلقى العلم على شيوخ العصر ومنهم الشيخ حسن الجبرتى والد عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، وذكر الجبرتى أنه زامل المترجم وصـــاحبه فى تلقى العلم وكان جيد الحفظ شريف النفس متباعدا عمـــا يخل بالمروءة فأحبه النـــاس وتقلد مشيخة الحنفيـــة وكان زاهـــدا فيها ، وعنـــدما نفى عمـــر مكرم وحـــدث ماذكرنا عزل من المشيخة ثم أعيد فيهـــا فى غرة صفر ١٢٣٠ هـ (١٣ يناير ١٨١٥ م) ولبس الخلع من الشيخ الشنوانى شيخ الجـــامع الأزهر ، ومن البـــاشا وباقى المشايخ أرباب الظاهر « ولم يختلف فيه اثنان » .

انظر : الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ صص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٧٩) ورقة رقم /٣٢ دفتر رقم /١ من دفاتر المعيـــة السنية — دار الوثائق القومية — وهـــذه الوثيقة ضمن الوثائق المحررات العلية التركية الصـــادرة الى الآستانة العليـــة من سنة ١٢٢٢ هـ الى ســـنة ١٢٢٨ هـ المقيدة بالدفتر رقم /١ والتى كانت محفوظة بدار المحفوظات العموميـــة ثم ترجمت الى اللغـــة العربية فى ١٩٣١/١/١٢ م على يد المترجم محمد زاهد الـــكوثرى .

علامة عصره وفريد دهره مثل الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى من فحول العلماء ترويجا لمصـــلحته وحملا لهم على الاعتراف أنه أعظم الجميع » ونسب اليه أنه دبر أبعاد الشيخين السابقين ونفيهما بيد أنه (محمد على) لم يوافق على ذلك وقال بأن عمر مكرم يداوم على فصل الدعاوى الجسيمة الشرعية فى داره خفية من غير تفويضها الى المحكمة الشرعية ويتقاضى على ذلك الرسوم المتعلقة بالسادة القضاة وأنه أدخل فى دفتر الشرفاء مايتراوح بين « ستة آلاف شخص من طائفة الأقباط والفلاحين المصريين واعطاهم وثائق الشرافة طمعا منه فى نحو ثلاثة ريالات أو خمسة ريالات يتقاضاها من كل منهم رشوة » وأن جميع الأشراف شهدوا عليه بذلك « لدى استماعنا » وذكر أن جميع الأشراف طلبوا عزله مرارا ولكنه (محمد على) لم يوافق على ذلك وانما قـــام بالدفاع عن عمر مكرم ، ولكنهم كرروا طلب عزله قائلين : « انه وجب عزله » « ولما لم يبق امكان اصلاح ما بينهم مرة أخرى على الصورة المشروحة استفتى عن ذلك من جانب الشرع الأغر فأفتى بأنه لا يجوز شرعا ولا يليق ادخال من لم يكن من أولاد البتول الكرام من الأقباط والأشرار فى سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم » ثم ذكر محمد على بأن التجرؤ على هذه التهمة وحدها موجب لعزل السيد عمر مكرم .

ثم ذكر محمد على بأن الأشراف التمسوا تعيين الشيخ الســـادات الحالى السيد محمد أفندى أبو الأنوار من السادات الوفائية مع اكسائه (تشريفة وكالة النقابة) مستندين على أن وكالة نقابة الأشراف بمصر منحصرة فى سلالة السادات الوفائية بموجب الخط الهمايونى ، ثم أثنى على الشيخ السادات بقوله : « مع كون الشيخ المومى اليه نير الضـــمير وحاميا للفقراء والشرفاء ومادا ليد المساعدة اليهم من قديم الدهر حسبة لله تعالى » ثم انهى مكاتبته الى الاستانة بأنه عزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف بعد صدور فتوى شرعية بوجوب عزله للمخالفات السالفة (٨٠)

ويبدو أن محمد على قد أدرج فى هذا البيان الذى الحقه بعريضة

---

(٨٠) المصدر السابق ورقة رقم /٣٢ دفتر رقم /١ معينة سنية .

العلماء ما أصر بعض العلماء على حذفه من العريضة فى بداية عرضها عليهم لكى يوقعوا عليها ، وذلك لكى يتحقق له غرضه من تشويه سمعة عمر مكرم لدى سلطات الاستانة حيث صور لهم بأنه بجانب أنه مركز من مراكز القوى بمصر يجب القضاء عليه • فانه يرتكب بعض المخالفات الخارجة عن الدين •

خاتمة المطاف بعمر مكرم :

ولعل واجب الوفاء لعمر مكرم يقتضينا أن نذكر ما كان من أمر هذا الزعيم الأزهرى بقية حياته ، وان بحثنا لن يضيق بهذا الوفاء ، لكى يعلم ناشئة البلاد تاريخ اسلافهم المجاهدين الذين حملوا لواء المعارضة فى فجر نهضتنا الحديثة •

عاش السيد عمر مكرم فى منفاه فى دمياط تحت المراقبة يلازمه الحراس فى كل مكان وكان لا يباح له الاختلاط بالناس فضاقت نفسه من هذه الحياة التى كانت أشبه بالسجن ، وهو الانسان الذى تعود أن يشارك فى الحياة العامة ، وقضى بدمياط نحو ثلاث سنوات من رجب سنة ١٢٢٤ هـ حتى ربيع الأول سنة ١٢٢٧ هـ (أغسطس ١٨٠٩ — ابريل ١٨١٢) حيث تشفع له فى نهاية هذه المدة قاضى قضاة مصر (صديق أفندى) لدى محمد على باشا فأذن له فى الانتقال الى طنطا ، وبقى بطنطا حتى ربيع الأول سنة ١٢٣٤هـ (ديسمبر ١٨١٨) وفى غضون ذلك كان محمد على يعيش فى غمرة انتصاره فى شبه الجزيرة العربية حيث استولى ابنه ابراهيم على الدرعية عاصمة الوهابيين فى اقليم نجد ، وأرسل عمر مكرم رسالة الى محمد على يهنئه بانتصاره على الوهابيين وأرسلها مع حفيده السيد صالح الى الاسكندرية فتلقاه محمد على بالترحاب وسأله عن جده فقال له الحفيد هو بخير ويدعو لكم ؛ وعلم محمد على أن عمر مكرم يريد الذهاب لتأدية فريضة الحج ، فأذن له بالذهاب الى القاهرة للاقامة بها حتى يأتى موسم الحج قائلا : « أنا لا أتركه فى الغربة هذه المدة الا خوفا

من الفتنة والآن لم يبق شيء من ذلك فأنه أبى وبينى وبينه ما لا أنساء من المحبة والمعروف (٨١) وكتب له جوابا يحتوى على أرق عبارات الاحترام والتبجيل لشخص السيد عمر مكرم قال فيه :

« مظهر الشمائل سنيها ، حميد الشئون وسميها سلالة بيت المجد الأكرم والدنا السيد عمر مكرم دام شأنه . أما بعد .. فقد ورد الكتاب اللطيف من الجناب الشريف تهنئة بما أنعم الله علينا وفرحا بمواهب تأييده لدينا فكان ذلك مزيدا فى السرور ومستديما لحمد الشكور ومجلبة لثناكم واعلانا جزيتم حسن الثناء مع كمال الوقار ، ونيل المنى ، هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الاذن فى الحج الى البيت الحرام ، وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام للرغبة فى ذلك والترجى لما هنالك وقد أذناكم فى هذا المرام ، تقربا لذى الجلال والاكرام ، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام ، فلا تدعو الابتهال ولا الدعاء لنا بالقال والحال كما هو الظن فى الطاهرين ، والمأمول من الأصفياء المقبولين والواصل لكم جواب منا خطابا الى كتخدائنا ، ولكم الاجلال والاحترام مع جزيل الثناء والسلام » (٨٢) .

وأرسل اليه هذا الجواب مع حفيده السيد صالح كما سلم له صورة خطاب آخر بعث به محمد على الى كتخداه (وكيله) بالقاهرة ، وقد عثرنا على صورة هذا الخطاب الموجه الى الكتخدا بدفاتر المعية السنية وهو مؤرخ فى ٢٨ من صفر ١٢٣٤ وتوجه محمد على الى كتخدا بك لتنفيذ هذا الأمر « حيث أن السيد عمر المكرم نقيب الأشراف سابقا بمصر قد استأذن لأجل فريضة الحج فى هذه السنة المباركة ، فقد أذن له بذلك

---

(٨١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٣٢١ .

(٨٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص‌ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

فلتعاونوه وتظاهروه على الوجه المقتضى فى أمور مخصوصاته المتعلقـــة بطرفكم » (٨٣) •

وقد وصلت رسالة الكتخدا الى القاهرة قبل وصول النبأ على يد السيد صالح حفيد عمر مكرم فأرسل الكتخدا رسالة الى بيت السيد عمر مكرم بالتهنئة •

«واشيع خبر مقدمه » بالقاهرة ، « فكان الناس بين مصدق ومكذب» ووصل السيد عمر مكرم من منفاه الى بولاق يوم السبت ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ (٩ من يناير ١٨١٩) فركب من هناك وتوجه لزيارة الامام الشافعى ، ثم ذهب الى القلعة وقابل الكتخدا وسلم عليه وكان محمد على باشا ما يزال بالاسكندرية ، وهنأه الناس بسلامة العودة ، كما هنـــأه الشعراء بقصائدهم وأعطاهم الجوائز ، واســـتمر ازدحام الناس عليه أياما ، ثم رأى أن من الخير الامتناع عن الجلوس فى المجلس العـــام نهارا ، واعتكف بحجرته الخاصة ، ولا يدخل عليه بها الا بعض من يريدهم من أصفيائه ولم يحج الى بيت الله الحرام لضعفه •

ويتبين لنا مما رواه الجبرتى عن احتفاء أهالى القاهرة بالسيد عمر مكرم لدى عودته من منفاه بعد طول غيبته ، أن الناس لم ينسوا زعيمهم بل غمروه بمحبتهم ، غير أن عيون محمد على كانت له بالمرصـــاد حيث شهدوا اجتماع الناس به ، ولابد أن محمد على قد أنهى الى السيد عمر مكرم تكدره من هذه المظاهرات التى كانت تغدو وتروح الى بيته المنعزل فى الفسطاط بساحل أثر النبى ، ومن ثم آثر الاعتكاف والامتناع عن مقابلة الناس •

---

(٨٣) ترجمة الأمر رقم ١٥٧ من دفتر رقم /٣ من دفاتر المعية السنية العربية المترجمة عن اللغة التركية — من الوثائق المحفوظـــة بدار الوثائق القومية بالقاهرة .

غير أن الحوادث لم تترك عمر مكرم لكى يعيش بقية حيـــاته آمنا بالقاهرة فلم يلبث أن حدثت بعد عامين تقريبا من عودته فتنة القاهرة على أثر فرض ضريبة جديدة عـــلى المنازل فى مارس ١٨٢٢ (١٢٣٨ هـ) ، واشتدت الفتنة ، وكادت تقع مصادمات لولا أن عالج محمد على الأمور بالحزم واتخذ التدابير لحفظ الأمن ، وظن محمد على بعدها أن للسيد عمر مكرم يدا فيها ، وأوجس فى نفسه خيفة منه ، فأوفد فى (٥ من ابريل ١٨٢٢) أحد الضـــباط الى منزل عمر مكرم لاقتياده الى منفاه ، وأخبره الضـــباط أن مولاه محمد عـــلى يريد منه أن يرحل الى طنطا . فأجابه عمر مكرم بأنه مستعد للرحيل فى أى وقت يشاء محمد عـــلى ، وأنه سيعد سفينة يرحل عليها ، فأخبره الرسول بأن المركب معد لهذا الغرض فى ساحل مصر القديمة ، فأدرك عمر مكرم أن المقصود أن يغادر المدينة فورا (٨٤) .

ولم تطل مدة نفى عمر مكرم هذه المرة فقد توفى فى العام نفسه ١٢٣٨ (١٨٢٢) بعد أن سطر للأجيال القادمة من ناشئة مصر صـــفحة وضيئة من الجهاد والكفاح ضد الظلم والاستبداد (٨٥) .

---

(٨٤) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — صص ٢٨٦—٢٨٨ .

(٨٥) وقـــد عثرت على وثيقـــة مخلفات عمر مكرم بسجلات القسمة العسكرية بدفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة مؤرخـــة فى ٢٨ جمـــاد أول ١٢٣٨ هـ وتتضمن تقويم مخلفـــات عمر مكرم أى متروكاته من أثاث المنزل وغيره من الملابس الموجودة بمحل سكنه بحارة الشنوانى بالجوهرية بجوار الجامع الأزهر ، لدى زوجته المصونة زعفران خاتون وكانت قيمتها ٢٥٧٠٠ قرشا وزعت على الورثة الشرعيين وهم ولدى ولد العم سليمان وأخيه خليل حسين محمد مكرم ، وزوجته المذكورة ، (مسلسلة ٢٧٧ مادة ٢٠٩ صحيفة ١٢٦ من سجلات القسمة العسكرية بدفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة) وبذلك يتبين لنـــا أن السيد عمر مكرم لم يعقب ولدا وكانت له ابنة وحيدة تزوجت ابن أخيـــه حسين مكرم وماتت فى حيـــاة والدها واعقبت ولدا هو السيد صـــالح بن حسين مكرم وقـــد عينه عمر مكرم وكيلا له حال حياته، =

المتآمرون يقبضون ثمن تآمرهم :

بعد نفى السيد عمر مكرم على النحو السابق خلا الجو للمشايخ المتآمرين الذين نعتهم الجبرتى بمشايخ الوقت ، وبادر كل منهم بتحقيق مآربه النفسية وكان أسبقهم فى هذا المجال الشيخ (محمد المهدى) الذى سعى الى نيل مكافأته على سعيه ضد عمر مكرم فى نفس اليوم الذى غادر فيه النقيب القاهرة ، حيث ذهب فى صبيحة ذلك اليوم الى محمد على وطلب منه وظائف السيد عمر مكرم فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الامام الشافعى ونظر وقف سنان باشا ومسجده ببولاق وكان هذان الوقفان تحت نظر السيد عمر مكرم [٨٦] كما طلب كذلك ما كان متأخرا له من راتبه من الغلال مدة أربع سنوات ، فأمر محمد على بدفعها له نقدا من خزينة الدولة وقدرها خمسة وعشرون كيسا « وذلك فى نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر » [٨٧] .

أما الشيخ (محمد السادات) فقد تولى منصب نقابة الأشراف كما سبق أن ذكرنا فى ٩ من أغسطس سنة ١٨٠٩ وكان متشوقا اليها

=

ثم عينه ناظرا على أوقافه بعد وفاته وذلك بموجب وقفية مسجلة بمحكمة الباب العالى بالقاهرة ومؤرخة فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٢٣٩ هـ وجعل جزاء من ريع أوقافه وقفا على المجاورين برواقى الصعايدة والفشنية بالأزهر . (مسلسلة ٣٧٥ مادة ٢١٤ صحيفة ٦٧) من سجلات محكمة الباب العالى وهى من سجلات دفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة .

(٨٦) كان عمر مكرم قد تنظر على وقف سنان باشا ومسجده منذ ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢١٨ هـ كما ورد فى سجلات تقارير النظار (مسلسلة ٢٣ مادة ٢٧٩ صحيفة ٤٢) كما كان قد تولى النظارة على وقف الامام الشافعى فى ربيع الآخر سنة ١٢٢١ هـ كما ورد فى نفس السجلات السابقة (مسلسلة ٢٤ مادة ١٣١ صحيفة ٣١) من سجلات دفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة .

(٨٧) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٥ .

وكان كثيرا ما « يصرح بقوله أنها من وظائفنا القديمة » [٨٨] وبذلك قد (بلغ مأموله) كما يقول الجبرتى « وأظهر الكامن فى نفسه وصرح بالمكروه فى حق السيد عمر ومن ينتمى اليه أو يواليه » [٨٩] وبالغ الناس فى تعظيمه ، وهو يزداد كبرا وتيها ، حتى بلغ منه أنه كان لا يقوم لاكثرهم اذا دخلوا عليه ويقبلون يده أو طرف ثيابه ، ولا يجيب فى رد التحية الا بقول « خير خير » وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء وبعدا عن التشبه بالمتعممين والفقهاء والمقرئين ، « وقذ بالموضوع وغير الرسم المطبوع بعد أن كان منزلهم محل سلوك ورشاد وولاية واعتقاد فصار كبيت حاكم الشرطة يخافه من غلط أدنى غلطة » ويذكر الجبرتى أن خطيب المشهد الحسينى كان يزيد من الاطراء على الشيخ السادات ويتوسل به فى كشف المهمات وتفريج الكروب حتى أن بعض الحاضرين قال مرة عندما سمع كلام الخطيب : « لم يبق على الخطيب الا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات » [٩٠] غير أنه لم يلبث أن توفى سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣م) •

وأما الشيخ (محمد الدواخلى) فقد كان عنده ميل للتقدم والرياسة ولا يقنع بالكثير كما يقول عنه الجبرتى ، وعندما توفى الشيخ السادات سنة ١٢٢٨ • صفا له الجو وتقلد نقابة الأشراف « وركب الخيول ولبس التاج ، ومشت أمامه الجاويشية والمقدمون وأرباب الخدم ، وازدحم بيته بأرباب الدعاوى والشكاوى وعمر دار سكنهم القديمة بكفر الطماعين وأدخل فيها دورا ، وأنشأ تجاهها مسجدا لطيفا وجعل فيه منبرا ، وخطبة ، وعمر دارا ببركة جناق وأسكنها احدى زوجاته وداخله الغرور وظن أن الوقت قد صفا له •• (وأصبح) من أعياء الرءوس يطلع وينزل فى كل

(٨٨) المصـــدر السابق جـ ٤ ص ٢٠٦ •

(٨٩) المصـــدر السابق جـ ٤ ص ٢٠٧ •

(٩٠) المصـــدر السابق جـ ٤ صص ١٩٨ — ٢٠٩ •

ليلة الى القلعة ، ويشار اليه ويحل ويعقد فى قضايا الناس ، ويسترسل معه الباشا — وداخله الغرور الزائد » (٩١) .

وبذلك ظن المتآمرون أن الجو قد صفا لهم ، ولكنهم فى الواقع قد جنوا على أنفسهم ، وعلى مكانتهم ونفوذهم ، وسوف يظهر هذا جليا فى ما نذكره من حوادثهم التالية ، لأن محمد على بعد أن حقق أغراضه منهم أصبح لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت الى رأيهم ، ولا يصغى لشفاعتهم لتفكك جماعتهم ونفى زعيمهم ، وأخذ محمد على يحتقرهم بعد أن عجم عودهم واشترى ذممهم بثمن بخس .

وبنفى عمر مكرم تضاءلت منزلة العلماء وضاعت كرامتهم لدى الحكام لأن السيد عمر مكرم « كان ظلا ظليلا عليهم وعلى أهل البلد يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم لهم بعد خروجه راية ، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض » (٩٢) .

---

(٩١) المصدر السابق ج ٤ ص ٣١٦ .
(٩٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٠٧ .

الفصل التاسع

انتهاء الزعامة الشعبية

موقف العلماء بعد نفى عمر مكرم :

وصـــل محمد على الى أهدافه رويدا رويدا بحيث انه لم يتجاهل العلماء مرة واحدة ، وانما استطاع بدهائه أن يستعين بهم فى تثبيت ملكه ، الى درجة أنه ورطهم فى ابتزاز أموال الشعب بكثرة ما فرضه من ضرائب وجمعها بمعونتهم وعندما أحس عمر مكرم بأنه قد تورط فى ذلك وقف لمحمد على وتصدى لاجراءاته المالية فى البلاد ، بيد أن محمد على نجح فى تفريق جماعة العلماء وأعمل فيهم سلاح فرق تسد ، واستغل حقد بعض العلماء على الزعيم عمر مكرم ، وعصف به بمعونتهم ونفاه الى دمياط ، وبذلك صفا له الجو .

بعد نفى عمر مكرم لم يجد الشعب فى علماء الأزهر الزعيم الذى يسد فراغه ، ويقوم مقامه فى مثل مواقفه السابقة ، ويتصدى لأطماع محمد على كما تصدى لها عمر مكرم من قبله ، وحدثت عدة مواقف افتقد فيها الشعب زعامة السيد عمر مكرم وسوف نورد بعض هذه المواقف فيما يلى :

شرع محمد على فى الاســتيلاء على جميع أراضى القطر المصرى « لأنه يرى أن حكومته ليست بالحكومة الضعيفة التى تنتظر من الملتزمين جباية الأموال » (1) وبذلك يتلاشى ســلطان العلماء والمماليك وتتصــل حكومته بالشعب مباشرة ودون وساطة (هؤلاء) وبذلك يرتسم الطريق الصحيح الى الحكم المطلق (2) .

---

(1) ، (2) د. أمين مصطفى عفيفى عبد الله — تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث — الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة ١٩٥٣ ص ٤٢ .

اجتماع الباشا بالعلماء :

مهد محمد على لمخططه السالف باجتماع عقده للديوان فى شـــوال ١٢٢٥ هـ (١٨١٠) فى بيت ابنه ابراهيم بالأزبكية ، وحضر هذا الاجتماع هيئة كبار العلماء المتصدرين وكبار الضباط وغيرهم . وكان الهدف من هذا الاجتماع جس نبض العلماء بعد تنحية عمر مكرم .

وفى بداية هذا الاجتماع تكلم الباشا موجها الحديث الى العلماء . وأعرب عن حاجته الى المال الكثير لنفقا تالعســاكر ، وغير ذلك من المصاريف ، ثم قال : « والايراد لا يكفى ذلك فلزم الحال لتقرير الفرض (الضرائب) على البلاد والأطيان وقد أجحف ذلك بأهلها حتى جلت وخربت القرى وتعطلت المزارع وبارت الأطيان ولا يمكننى رفــع ذلك بالكلية ، والقصد أن تدبروا لنا تدبيرا وطريقا لتحصـــيل المال من غير ضرر ولا أجحــاف على أهل القرى وتعود مصـــلحة التدبير عليهم وعلينا ، فقال الجميع : الرأى لك » (٣) .

ولم يكن محمد على يريد منهم أن يدبروا له تدبيرا أو يختاروا له طريقا لتحصيل المال من غير ضرر كما زعم ، لأنه كان قد أعد خطته من قبل فقال : « انى دبرت رأيا لا تدخله التهمة ، وهو أن من المعلوم أن جميع الحصص لها سندات ومعين بها مقدار الميرى والفائظ فتقرر على كل حصة قدر ميريها وفائظها أما سنة أو سنتين فلا يضر ذلك بالملتزمين ولا بالفلاحين » .

ثم أراد محمد على أن يجعل هذه الأموال على جميع الأطيان سواء فى ذلك أوســية الملتزمين وأراضى الرزق ومسموح المشايخ ، غير أن العلماء عارضوه معارضة واهية بقولهم « أن الأوسية معايش الملتزمين والرزق (بأنواعها المختلفة) من الارصادات على الخيرات وعلى جهات

---

(٣) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٤ ص ١٣١ .

البر والصدقة ، والمساجد والأسبلة والمكاتب والأحواض لسقى الدواب وغير ذلك فيلزم منه ابطال هذه الخيرات وتعطيلها » فقال الباشا : « أن المساجد غالبها متخرب ومتهدم » .

فرد عليه العلماء : « عليك بالفحص والتفتيش والزام المتولى على المسجد بعمارته اذا كان ايراده رائجا [٤] ويبدو أن محمد على أوحى الى أحد رجال حاشيته وهو (أيوب كتخدا الفلاح) وهو كبير الاختيارية بالحديث عن مســاواة المشايخ بغيرهم فى هذه الأموال التى اقترحها الباشا . فانتبذ أيوب هذا قائلا : « لكن يا أفندينا الى مساواة الناس فان حصص كثير من المشايخ مرفوع ما عليها من المغارم » فما كاد أيوب هذا ينهى حديثه حتى « حنق من كلامه » العلماء وخاصة الشيخ الشرقاوى الذى قال له : « أنت رجل سوء » وثار عليه « بقية المشايخ الحاضرين وزاد فيهم الصياح » واضطر الباشا الى القيام من مجلس الديوان وترك الاجتماع وذهب بعيدا عنهم ، وتركهم يتشاجرون ، وأرســل الباشــا ترجمانه ، فقال لهم الترجمان « انكم شوشتم على الباشا وتكدر خاطره من صياحكم » فلم يجادلوه بشىء ولم يملكوا كما يقول الجبرتى الا أن « سكتوا وقاموا من المجلس وذهبوا الى دورهم وهم منفعلون » [٥] .

ويذكر الجبرتى بأن كلام أيوب كتخدا وافق غرض الباشا ، أو هو باغرائه ، ثم شرعوا فى تحرير الدفاتر كما أشار الباشا . ومضى الباشا ينفذ اجراءاته المالية ولكنه كما رأينا كان يتجنب العاصفة حتى تمر بسلام ، ثم ينفذ مرامه ولعل أبلغ وصف لوضع العلماء بعد نفى عمر مكرم ما قاله الأستاذ محمد فريد أبو حديد :

« أن الباشا كان الى قبيل نفى الســيد عمر لا يزال يؤثر الحذر والحيطة فى الاقدام على خططه واصلاحه ، خشية أن يثور الشعب على

---

(٤) المصدر السابق — ج ٤ ص ١٣٢ .

(٥) المصدر السابق — ج ٤ ص ١٣١ .

ما لم يعتده من النظم ، وتجملا مع الزعماء الذين كان يرعى لهم مكانتهم من الشعب • وكان صوت هؤلاء الزعماء عاليا مسموعا فى ديوان الحكم يحله الباشا محله من التقدير والعناية » •

« ولكن نفى السيد عمر أزال من طريق الباشا الرجل الوحيد الذى كان يعارضه عن مبدأ وعقيدة ، وخلف له قوما اذا عارضـــوه فانما كانوا يعارضون من أجل مصالحهم وأموالهم » (٦) •

وعلى كل حال فقد كان هـــذا الاجتماع الأخير مظهرا من مظاهر ضعف العلماء لم يستطيعوا فيه أن يقفوا فى وجه أطماع محمد على ، وقـــد كان من ناحية أخرى محكا لمعرفة مدى صلابتهم فى المدافعة عن حقوقهم • وبعد ذلك عمد محمد على الى اجراء مخططاته بعد أن أرهبهم بما قام به فى مذبحة القلعة التى قضى فيها على قوة المماليك ، وهـــو مطمئن تمام الاطمئنان الى عدم معارضتهم نظرا لضعفهم وتخاذلهم •

موقف العلماء من مذبحة القلعة سنة ١٨١١ :

عندما تولى محمد على السلطة فى البلاد سنة ١٨٠٥ خطط تخطيطا بارعا للاستئثار بالسلطة ، ووجد فى طريقه الى السلطة عقبتين : رأى من اللازم ازالتها كى يستبد بالأمر فى البلاد ، وكانت أولى هاتين العقبتين : هى سلطة زعماء الشعب الذين تتطلع نفوسهم الى مراقبته ومحاسبته ، ولم يكن على استعداد لهذه المراقبة فعمل جاهدا للقضاء على سلطتهم ، وكان سبيله الى ذلك « سياسة فرق تسد » فأوقع الخلاف بين زعمائهم ، فانفرط بذلك عقدهم وتفرقت كلمتهم ، وتمكن من الاطاحة بزعيمهم عمر مكرم باقصائه عن المشاركة فى الحياة السياسية ، ونفاه الى دمياط — وبذلك ضمن عدم تهييج الخواطر واثارة طوائف الشعب وحشدهم فى مظاهرات شعبية ضده ، فقد كان عمر مكرم هو صاحب القدح المعلى

(٦) محمد فريد أبو حديد — زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم صص ٢١٣ — ٢١٤ •

فى تنظيم هذه المظاهرات والاضرابات وكان ولاة الأمر يذعنون لمطالبه ، وكانت هذه الزعامة قد تكونت قبل الحملة الفرنسية ولها جهاز دعاية خطير قوامه الخطباء والمؤذنون وطلبة الأزهر • وعندما تخلص من هذه الزعامة عمد الى العقبة الأخرى : والتى كانت تتمثل فى قوة فرسان المماليك - فقد كانوا يشكلون عنصرا هاما له أثره البالغ فى الحياة السياسية فى البلاد ، وكانوا يعتبرون أنفسهم مصريين ودانت لقوتهم البلاد من زمن طويل ، غير أنهم منذ توفى زعيمهم (محمد بك الألفى) وهم فى انحطاط مستمر ، ولكن محمد على عمل على التخلص منهم نهائيا ، لأنه أوجس فى نفسه خيفة من بقائهم ، وخاصة أنه اعتزم تجريد الحملة على الحجاز لمحاربة الوهابيين تلبية لأوامر الباب العالى • واستطاع أن يخدع غالبيتهم للحضور الى القاهرة والاقامة بها وأجرى عليهم رواتب مغرية تمهيدا للفتك بهم أو « صيدهم » كما يقول الجبرتى وانزال ضربة قاصمة بهم لا يقومون بعدها أبدا •

بادر محمد على بعد تجميع غالبية المماليك بالقاهرة الى تنفيذ هدفه حيث دبر لهم مؤامرة محكمة لاغتيالهم اغتيالا جماعيا ، واتخذ محمد على الاحتفال بتقليد ابنه طوسون قيادة حملة الحجاز ذريعة لدعوة البكوات واتباعهم الى القلعة للاشتراك فى الموكب الذى رتبه لخروج ابنه من القلعة من باب العزب الى ميدان الرميلة (٧) ووزع عليهم تذاكر الدعوة ، وفى يوم الجمعة الموافق ٦ صفر سنة ١٢٢٦ (٢ مارس ١٨١١) ركب المماليك وطلعوا الى القلعة بأتباعهم وتمكن محمد على من حصرهم جميعا ونهبوا بيوتهم بالقاهرة ، ولم يرحموا أحدا • وتعقب جنود محمد على

---

(٧) عرف هذا الميدان بأسماء متنوعة ، ميدان القلعة ، والميدان الأسود أو قره ميدان ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين (الممتد بين باب العزب وهو باب القلعة الغربى وبين جامعى السلطان حسن والرفاعى) ويقابله المنشية — د. عبد الرحمن زكى — القاهرة وتاريخها وآثارها من جوهر القائد الى الجبرتى ص ١١٢ ، وخطط المقريزى ج ٢ ص ٢٢٨ .

المماليك يقتلونهم فى كل مكان واستمرت عمليات نهب بيوت المماليك وامتدت الى بيوت الأهالى الذين كانوا يدخلونها بحجة التفتيش عن المماليك فكانوا يلجون البيوت ويقولون « عندكم مملوك أو سمعنا أن عندكم وديعة لمملوك ... ونهب فى هذه الحادثة دور كثيرة من دور الأعيان الذين ليسوا من الأمراء المقصودين » (٨) ويذكر الجبرتى أنه لولا نزول الباشا وابنه طوسون فى صبح اليوم التالى (السبت ٧ صفر) لنهب العسكر بقية المدينة ، ويقرر الجبرتى عدد من قتل من المماليك من أمراء وأجناد وكشاف ومماليك بأكثر من ألف شخص فى القاهرة والأقاليم .

وقطع رءوس القتلى واستحضر الجزارين وأمرهم بسلخ الرءوس وأمر أعوانه بملء هذه الفراوى تبنا ووضعها فى صوان وأن يدوروا بها فى أحياء القاهرة ليتفرج عليها الشعب ، وبالطبع كان الهدف من هذا هو ارهاب الشعب المصرى عندما يرى هؤلاء المماليك الذين كانوا زينة القاهرة يرفلون فى حلل القوة والفخر والعز ، واذا بجبروتهم يقهر على هذه الصورة من الصغار ، والنتيجة أن الشعب يعمل للحاكم الجديد الف حساب ، فقد ظهرت قوته وجبروته على الظفر بأعدائه بادية للعيان .

كان القضاء على المماليك بهذه الصورة البشعة من شأنه أن يرهب الشعب المصرى وخاصة زعماءه من علماء الأزهر ، فقد أدخلت هذه المذبحة الرعب فى قلوبهم ، ولم يحركوا ساكنا أو يستنكروا هذه المذابح ، بل على العكس من ذلك عقدوا اجتماعا وقرروا فيه الذهاب الى محمد على « لملاقاته والسلام عليه والتهنئة بالظفر » وكان مسلكهم بمثابة تأييد

---

(٨) انظر التفصيل الضافى الذى أورده الجبرتى عن مذبحة القلعة فى كتابه عجائب الآثار ج ٤ صص ١٣٥ — ١٤٠ .

سافر لمذبحة المماليك ولا شــك أنه كان من الخير للعلماء ولسمعتهم أن يلتزموا جانب الحيدة ازاء هذا الحادث [٩] .

علم محمد على بموقف العلماء ، وانهم اجتمعوا وفى نيتهم الذهاب اليه وتهنئته ، وكان يتجول وقتئذ بحى الكمكيين بالقاهرة لمنع اعتداءات الجنود على الأهالى ، فسر لذلك وقال : « أنا أذهب اليهم » ولم يزل فى مســيره حتى دخل الى بيت الشــيخ عبد الله الشرقاوى ، وجلس عنده (ساعة لطيفة) كما وصفها الجبرتى .

محمد على يعبث بكرامة الشيخ الشرقاوى :

كان قد التجأ الى منزل الشــيخ عبد الله الشرقاوى شخصان من كشاف المماليك وطلبا من شيخ الأزهر أن يجيرهما ويتشفع لهما لدى الباشا للعفو عنهما ، وانتهز الشيخ الشرقاوى فرصة وجود الباشا فى منزله فكلمه فى ذلك وتشفع فى اعتاقهما من القتل ، وأن يعطيهما الأمان وقال له : « لا تفضح شيبتى يا ولدى واقبل شفاعتى واعطهما محرمة الأمان » فتظاهر محمد على بقبول شفاعة الشيخ وقال له « شفاعتك مقبولة ولكن نحن لا نعطى محارم وأنا أمانى بالقول أو نكتب ورقة ونرســلها اليك بالأمان » واطمأن الشيخ الشرقاوى لوعد محمد على ، ثم قام الباشا وطلع الى القلعة وأرسل على الفور ورقة الى الشيخ يطلبهما اليه ، فقال لهما الشيخ الشرقاوى : ان الباشا أرسل هذه الورقة يؤمنكما ويطلبكما اليه ، ولكنهما اشتما رائحة الغدر من هذا الخطاب وقالا للشيخ الشرقاوى « وما يفعل بذهابنا اليه ، فلا شك فى أنه يقتلنا » فقال الشيخ : « لا يصح ذلك ولا يكون كيف أنه يأخذكم من بيتى ويقتلكم بعد أن قبل شفاعتى ؟ » فذهبا مع الرسول الى القلعة وقبض عليهما الجنود وتم قتلهما [١٠] .

---

(٩) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — ص ٢٦٧ .
(١٠) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٤ ص ١٣٨ .

ولم يكن هذا بغريب من محمد على فنكث العهد من طباعه المعروفة عنه ولكن المهم هو أن محمد على بدأ يستهين بكرامة العلماء ولا يقدرهم بعد أن كان يخشى صولتهم أيام عمر مكرم ، وشرع بعد هذ االحادث يستعمل أسلوب القوة فى تنفيذ أوامره ولا يجد له ممانعا ولا معارضا •

ولا شك أن الفتك بالمماليك فى مذبحة القلعة بهذه الصورة البشعة كان له أثره العميق فى حالة الشعب النفسية ، فقد أدخلت هذه الحادثة الرعب فى قلوب المصريين ، وكان من نتائجها كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى : « أن استولت الرهبة على القلوب ، فلم يعد ممكنا الى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة الى نفوس الناس » (١١) وكانت هذه النتيجة لها أثرها فى أضعاف قوة الزعماء الخلقية والمعنوية ، فقد قضت على حرية ابداء الرأى التى كان يتمتع بهاالعلماء ، ولم يعد أحد منهم يتجاسر على الاعتراض على أفعال محمد على بالصـــورة الجريئة التى كانت تحدث من قبل •

موقف العلماء بعد مذبحة القلعة :

فى الشهر التالى لمذبحة القلعة (ربيع أول ١٢٢٦) (ابريل ١٨١١)، لجأ محمد على الى جمع مال الميرى والمضاف والفائظ على جميع الأراضى بما فيها الرزق الاحباسية التى اعترض عليها العلماء فى العام السابق ، وبعد أن كان قد اتفق على جمع ايراد سنتين ، جمعوا ايراد أربع سنوات ، واستعملوا فى جمعها أشد أنواع القســـوة وطلبوا المال من أربابه بلا « مسامحة فى شىء منه ومن تكفل بما تقرر على حصته والزم نفســـه بدفعه وكتب على نفسه وثيقة لأجل طولب به حتى قبل حلول الأجل •• فينزلون بداره ويلازمونها ويضيقون أنفاسه ويكلفونه ما لا يطيق فلا يجد ملجأ ولا خلاصا الا بأحد الشيئين اما الدفع بأى وجه كان وأما ينزل عن حصته بالفراغ للديوان ولا يبقى بيده ما يتقوت به وعياله » (١٢) ولم

(١١) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على ص ١٢٠ .
(١٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٤٢ .

يحرك العلماء ساكنا ولم يعترضوا على ذلك ، حتى الشعب نفســـه لم يتحرك لذلك ، فكان لمذبحة القلعة بلا شك أثرها العميق فى ارهاب الشعب وتخويفه وارهاب زعمائه • وأطلق محمد على بعدها يده فى فرض ما يشاء من الضرائب والاتاوات كلما احتاج الى المال ، ولم يعد يستشير العلماء فيما يفرضه من الضرائب •

ومن ثم يمكن القول بأن مذبحة القلعة كان لها تأثير مزدوج ، فبجانب أنها قضت على قوة المماليك ، فهى من ناحية أخرى ألقت الرعب فى قلوب العلماء وأرهبتهم وجعلتهم يعملون لمحمد على ألف حساب ولا يتجاسرون على معارضته وهذا ما سوف نلاحظه على مواقفهم المقبلة تجاه أعماله •

وعظمت حاجة محمد على الى الأموال بمناسبة الحملة على الوهابيين لأنها اقتضت نفقات طائلة ، ولما اخفقت الحملة الأولى جهز حملات أخرى واحتاج الى أموال جديدة ، وتطلع لما فى أيدى الناس والى أرزاقهم فانه كما قال فيه الجبرتى كان « ••• من طبعه داء الحسد والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم » [١٣] •

موقف العلماء من الاستيلاء على أراضى الأوقاف :

بعد عام تقريبا من مذبحة القلعة أى فى ربيع الأول سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢م) عمد محمد على الى الاستيلاء على أراضى الأوقاف الخيرية ، وهى الأراضى المرصدة على المساجد والمدارس والأسبلة وأعمال الخير والبر ، أو التى منحت «رزقه» لبعض الأفراد وهم العلماء فى الغالب [١٤]، وأصدر محمد على أمره باحصـــاء جميع هذه الأراضى بالبلاد ، فبلغ

---

(١٣) المصدر السابق — ج ٤ ص ١٥٠ .

(١٤) د. أمين مصطفى عفيفى عبد الله — تاريخ مصر الاقتصـــادى والمالى فى العصر الحديث ص ٨٥ .

احصاؤها (٦٠٠٫٠٠٠ فدان) [١٥] كما يقول الجبرتى ، فضج أصحاب هذه الأراضى بالشكوى وحضر الكثير منهم يستغيثون بالمشايخ ، فذهب المشايخ الى الباشا « وتكلموا معه فى شأن ذلك وقالوا له : هذا يترتب عليه خراب المساجد . فقال لهم محمد على : وأين المساجد العامرة ؟ .

ثم أراد أن يعرف المعارض منهم فقال لهم بأسلوب الارهاب والتهديد : « الذى لم يرض ذلك يرفع يده » فلم يتجاسر أحد منهم على رفع يده وابداء المعارضة ، ثم قال لهم : « أنا أعمر المساجد المتخربة وأرتب لها ما يكفيها » [١٦] .

ونزل العلماء من القلعة الى بيوتهم والحسرة تملأ قلوبهم لأن غالبهم كان يتولى النظارة على هذه الأراضى وتدر عليهم أرباحا طائلة . كانت مصدر عزهم وصولتهم كما كانت مصدر قوة للجامع الأزهر تحقق له استقلالا ذاتيا عن الحكومة ، أما اليوم فقد أضحى هذا الاستقلال فى خطر لأن الحكومة هى التى ستتولى الانفاق عليهم وعلى جميع المساجد بما فيها الأزهر [١٧] . ورتب محمد على للشيوخ الذين كانوا يتولون ادارة هذه الأراضى الموقوفة معاشات سنوية ضئيلة ، ولا شك أن هذه المعاشات كان لا ينالها الا من كان مواليا لسياسة محمد على . وبذلك أخذت صفة المنح لا الحقوق ، وتكون عرضة لأهواء الحكام وتحكمهم .

وبذلك انتقل محمد على من أسلوب تقليم أظافر العلماء الى أسلوب قصم الظهر مرة واحدة ، فبعد أن ألغى امتيازاتهم وساواهم بغيرهم فى دفع الضرائب عمد الى الاستيلاء نهائيا على املاك الأوقاف ، فلا شك

---

(١٥) اى أنها كانت تزيد على خمس جميع الأراضى المصرية ، لأن احصاء جميع الأراضى سنة ١٨١٣ كانت فيه أرض مصر (٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان) .

(١٦) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٤ ص ١٥١ .

(١٧) يلاحظ أن محمد على لم يتعرض لمبدأ الوقف فى ذاته وانما أراد أن يسيطر على ادارة الأوقاف .

أن هذا الاجراء كان بمثابة قاصمة الظهر للعلماء لأنه يتعلق بمعايشتهم أنفسهم وكيان هيئتهم ، فقد كانت هذه الأراضى تدر عليهم أرباحا وغيره تكون موردا ماليا ضخما للعلماء والأزهر لا ينضب معينه ، وهو بعيد كل البعد عن تسلط الحكام بما وضعه الواقفون من شروط محكمة تضمن بقاء وقفهم مرصدا على مساجدهم ومدارسهم .

ولا شك أن محمد على أراد بذلك أن يتحكم فى أرازقهم غيضمن ولاءهم له وخضوعهم لسلطانه ، فلا يعودون بعد ذلك لمثل ما كانوا يقومون به من معارضة واثارة لطوائف الشعب وحشدهم فى مظاهرات تعطل تنفيذ اجراءاته المالية ، فجاء هذا العمل ضربة معول فى أساسات مركز هؤلاء العلماء السياسى (١٨) .

موقف العلماء من الاستيلاء على جميع الأراضى المصرية :

لم يقنع محمد على بالاستيلاء على أراضى الأوقاف وانما طمحت نفسه الى الاستيلاء على جميع أراضى القطر المصرى ، وقد وجد أمامه عقبة تتمثل فى الملتزمين فقد كانت جميع الأراضى تحت أيديهم ، فعمد الى التشهير بهم ومحاسبتهم وابتدع لذلك ديوانا سماه الناس « ديوان الفتنة » (١٩) ومهمته الفصل فى تظلمات الفلاحين من الملتزمين والحد من ظلم الملتزمين للفلاحين ، غير أن القصد لم يكن انصاف الفلاحين ، وانما كان التشهير بالملتزمين واظهار مساوىء نظام الالتزام تمهيدا لالغائه « والاستيلاء والاستحواذ الكلى والجزئى وقطع منفعة الغير ولو قليلا » (٢٠) ولا شك أن هذا الديوان أحدث الهدف الذى قصده محمد على ، لأن الفلاحين عندما سمعوا به أتى الكثير منهم الى القاهرة وكتبوا

---

(١٨) البرت حورانى — الفكر العربى فى عصر النهضة — مرجع سبق ذكره — ص ص ٧٣ — ٧٤ .

(١٩) كان مقر هذا الديوان فى بيت البكرى القديم بالأزبكية (الجبرتى جـ ٤ ص ١٤٧) وكان احداث هذا الديوان فى سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١م) .

(٢٠) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ص ١٤٧ — ١٤٨ .

« عرضحالات » الى الباشـــا يتظلمون فيها من الملتزمين ويذكرون أنهم يزيدون عليهم فى قوائم الضرائب ويشددون عليهم « فى طلب الفرض »، فيحولهم الباشا الى ذلك الديوان ، وتصحبهم عساكر الأتراك « ويأتى بالملتزم والشاهد والصراف وقوائم المصروف » لأجل التحقيق « فكان أمرا مهولا وغاية فى الزحام والعياط والشباط [٢١] ومن ثم أطلق الناس على هذا الديوان ديوان الفتنة لما أحدثه من فتنة بين الناس أدت غرضها فى اظهار مساوىء نظام الالتزام تمهيدا لالغائه •

وبعد أن تمكن محمد على من القضاء على المماليك فى مذبحة القلعة (١٨١١) (١٢٢٦ هـ) عمد الى جميع الأراضى المصرية التى كانت تحت أيديهم وأيدى العلماء ومسحها وضبطها وقيدها فى الســـجلات سنة ١٨١٣ [٢٢] ، ثم أصدر أمره — بنزعها من الملتزمين واعتبرها ملكا للحكومة أو بمعنى أصح ملكا له فى سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٤) ثم خول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة أفدنة أو أربعة أو خمسة وبذلك آلت له حقوق الملتزمين وسلطتهم ، وصارت علاقة الفلاحين بالحكومة مباشرة بعد أن كانت علاقتهم بالملتزمين •

وقد أحدثت هذه الخطوة استياء شديدا بين الملتزمين « وضج الناس وكثر فيهم اللغط واجتمعوا على المشايخ « وذهبوا الى القلعة وكان محمد على وقتئذ قد سافر الى الحجاز ليقود بنفسه الحرب ضـــد الوهابيين فقابلهم كتخدا بك (وكيل الباشا) وسألوه عن صحة هذا القرار • فقال لهم : « نعم ورد من أفندينا أمر بذلك ولا يمكننى مخالفته » •

فقال العلماء لوكيل الباشا : كيف تقطعون معايش الناس وأرزاقهم ؟ وفيهم أرامل وعواجز وللواحدة قيراط أو نصف قيراط يتعيش من ايراده

---

(٢١) المصدر السابق — نفس المكان •

(٢٢) د. أمين مصطفى عفيفى عبد الله — تاريخ مصر الاقتصـــادى والمالى فى العصر الحديث ص ٨٩ •

فينقطع عنهن » فرد عليهم الكتخدا بقوله : « يأخذن الفائظ من الخزينة العامرة » (٢٣) .

وعبثا حاول العلماء مناقشة وكيل الباشا ، وهو يهون عليهم ما حدث ثم كتبوا عرضحالا لاستعطاف الأعتاب الشاهانية ، فأجابهم الى ذلك « من باب المسايرة وفك المجلس » كما يقول الجبرتى .

وشرع الشيخ محمد المهدى (٢٤) « فى ترصيف العرضحال » وبعد كتابة العرضحال طلبوا من المشايخ التوقيع عليه بأختامهم فامتنع بعضهم ممن ليس له التزام ، وكثر بسبب ذلك اللغط ، وكان هذا أسوأ مظهر ظهر فيه العلماء وتخاذلوا واختلفوا تبعا لاهوائهم وأغراضهم ومنافعهم .

غير أن الجموع من النساء الملتزمات حضرن فى اليوم التالى(٥ ربيع الأول ١٢٢٩) الى الجامع الأزهر ومعهن كثير من العامة وصرخوا فى وجوه العلماء وتسبب هذا الصراخ فى ابطال دروس العلماء وتبديد محافظهم وأوراقهم ، وتفرق العلماء وذهبوا الى بيوتهم ، واستمر المتظاهرون بالأزهر الى ما بعد العصر ، ولم ينصرفوا الا بعد أن حضر اليهم من أسكن غضبهم وطمأنهم فانفض الجمع وفى نيتهم أن يحضروا كل يوم على هذا المنوال آملين أن يفرج لهم عن حصصهم ، وكان هذا فى الواقع من حسن الظن الذى يدل على غفلة الشعب وجهله بتطور الحوادث ، ولقد أشار الى ذلك الجبرتى بقوله :

« وفى ظن الناس وغفلتهم أن فى الاناء بقية أو أنهم يدفعون الرزية وما علموا أن البساط قد انطوى وكل قد ضل وأضل وغوى ومال عن

---

(٢٣) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٢١٧ .

(٢٤) كان الشيخ محمد المهدى بارعا فى صياغة العرضحالات وتنشيها وهو الذى كان يصوغ منشورات بونابرت وغيره من قواد الحملة الفرنسية أيام وجودهم بمصر .

الصراط واتبع الهوى - وكلب الجور قد كشر أنيابه وعوى ولم يجد له طاردا ولا معارضا ولا معاندا » (٢٥) .

ولقد عبر الجبرتى بحق فى هـذا القول الموجز البليغ عن الموقف وأحوال الباشا والعلماء فى نظره : فمحمد على قد طوى البساط من تحت أرجل الجميع وكشر أنيابه للناس وعوى ولم يجد له طاردا ولا معارضا ، والعلماء قد ضـلوا وأضـلوا وغلب عليهم دافع الهوى والغرض ومال بهم عن الصراط المستقيم ، وأصبحوا فى حالة يرثى لها لا تقارن بما كان لسلفهم الصالح الذين كانوا يصدعون بالحق لا يخافون فيه لومة لائم ، ولا تؤثر فيهم عوامل الرغبة والرهبة .

تهديد رجال الأزهر :

وصل خبر مظاهرة النسـاء بالجامع الأزهر الى كتخدا الباشا ، فارتاب فى أمرها ، وظن أنها بايعاذ من علماء الأزهر ، فأرسل الى الجامع الأزهر وطلب بعض المشايخ واستفسر منه عن سبب هذه المظاهرة قائلا : « ما خبر هذه الجمعية بالأزهر ؟ » فقال له الشيخ : « بسبب ما بلغهم من قطع معاشـهم » فقال الكتخدا : « ومن قطع معاشـهم ؟ وانما أنتم تسلطونهم على هـذه الفعال لأغراضكم ، ولابد أنى اسـتخبر على من أغراهم ، وأخرج من حقه» أى أنه يقطع حقه فى مرتبه . ثم طالب على أغا رئيس الشرطة وقال له : « أخبرنى عن هؤلاء النساء من أى البيوت فقال له رئيس الشرطة : وما علمى ومن يميزهن وغالبهن وأكثرهن نساءا لعساكر ولا قدرة لى على منعهن » (٢٦) ثم فترت همة المتظاهرين بعدها وانكمشوا .

وانتهى الأمر الى تنفيذ أوامر الباشا بلا ممانع ولا معارض ، وحدد محمد على علاقته مع الفلاحين بأن يزرعوا الأرض ويوردوا للحكـومة

---

(٢٥) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٤ صص ٢١٧ —٢١٨ .
(٢٦) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٤ ص ٢١٨ .

غلاتها فى الشئون المعدة لذلك ، والغى « ديوان الرزنامة » وأحال اختصاصه — وهو ضبط ايرادات الحكومة ومصروفاتها — الى ديوان الخزينة المصرية » (٢٧) وهو بمثابة وزارة المالية الآن ، وقرر محمد على للملتزمين معاشات سنوية ضئيلة لا توازى ما كانوا يحصلون عليه من أرباح الالتزام (٢٨) ، وقيدت أسماء الملتزمين فى دفاتر الحكومة ، وتدفع لهم هذه المبالغ ما داموا أحياء وتسقط بموتهم .

ولقد كان لالغاء نظام الالتزام أثره البالغ فى حياة العلماء الاقتصادية فالغالبية العظمى منهم كانت لهم حصص يلتزمون فيها وتدر عليهم أرباحا وفيرة ، فلا شك أن الغاء نظام الالتزام كانت ضربة أخرى شديدة أصابت العلماء من ضررها الشىء الكثير .

ولم يتصد العلماء لهذا الاجراء على نحو ما رأينا لأنهم كانوا أضعف من أن يواجهوا محمد على لتفرق كلمتهم واختلافهم وضعفهم بعد نفى السيد عمر مكرم الذى يتولى قيادتهم وتنظيم كفاحهم وصمودهم أمام الباشا ، كما أن سياسة تقليم الأظافر السابقة التى اتبعها محمد على معهم قد قللت من نفوذهم وأضعفت شوكتهم ، كما كانت مذبحة القلعة وما جرى فيها من غدر للماليك ذات أثر بالغ فى ارهاب العلماء والقضاء على البقية الباقية من روحهم المعنوية . ولقد ظهر هذا واضحا عندما استولى الباشا على أراضى الأوقاف وذهب العلماء اليه يعلنون استياءهم فأراد أن يعرف

---

(٢٧) د. أمين مصطفى عفيفى عبد الله — تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ص ٢٩٠ .

(٢٨) كانت هذه المعاشات تسمى بالفائض لأن محمد على قبل أن يعلن عن نيته فى الغاء الالتزام طلب من الملتزمين أن يقدموا له كشوفا بأرباحهم من التزامهم ، وهى التى تسمى بالفائض أى فائض الالتزام ، فظنوا أن الغرض من هذا الطلب عزم الحكومة على زيادة الضريبة التى يلتزمون بدفعها للحكومة ، فأنقصوا قيمة هذه الأرباح جهد ما استطاعوا ، فاعتمد الباشا على هذا الحساب ، وحدد لهم رواتب مساوية لها (عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على — ص ٦٢٢) .

المعارض منهم فســألهم مهددا « الذى لم يرض بذلك يرفع يده » فلم يتجاسر أحد منهم على رفع يده واعلان معارضته الشخصية فى أمر يعتبر من أخص مخصصــاتهم فلم يكن ينتظر منهم عند الغــاء الالتزام أن يعترضوا عليه ، لأنه ليس أقسى عليهم من الاستيلاء على أراضى الأوقاف والتى كانت شريانا رئيسيا فى حياتهم الاقتصادية ، أما نظام الالتزام فقد كانت مصيبتهم فيه أقل من غيرهم •

نهاية المتآمرين من المشايخ :

استفاد محمد على من حقد جماعة المتصدرين على زعيمهم (عمر مكرم) ونفذ لهم ما أرادوا عقب الايقاع به وأعطاهم ما طلبوا من امتيازات لأنفسهم ، واطمأن أنه أزال من طريقه الرجل الوحيد الذى كان يعارضه عن مبدأ وعقيدة واستطاع الباشا فى مبدأ الأمر أن يتحاشى التعرض لمصالحهم بل لقد استطاع أن يغمرهم باحسانه وفضله ، حتى صاروا من أطوع أتباعه ، غير أنه كان لا يحمل لهم فى قرارة نفسه تبجيلا ولا تقديرا ، ومن ثم كان سلوكه تجاه هؤلاء المتآمرين من المشايخ (المهدى والسادات والدواخلى) بعد ذلك يدل على ازدرائه بهم •

موقفه من المهدى :

توفى الشيخ عبد الله الشرقاوى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢م) ، فشغر بذلك منصب مشيخة الأزهر ، وسلطت الأضواء على أربعة مشايخ من علماء الأزهر وهم : الشيخ محمد المهدى ، والشيخ محمد الشنوانى [٢٩]،

(٢٩) الشيخ محمد الشنوانى : من فقهاء الشافعية ، ولد بقرية شنوان ، احدى قرى محافظة المنوفية ودرس بالجامع الأزهر ، وتولى التدريس فيه ، وعلى الرغم من أنه كان أحق المرشحين لمنصب مشــيخة الأزهر بعد وفاة الشرقاوى ، الا أنه كان فيه من الزاهدين ، واشتهر بالورع والصلاح ، وانعزل عن شيوخ الأزهر عندما عاين تكالبهم على الدنيا ، واختار لنفســه جامع الفاكهانى بحى العقادين يؤدى فيه رسالته العلمية ، فكان يلقى به دروسه ويفيد طلبته ، وعند فراغه من الدروس يغير ثيابه ويكنس المسجد ويغســل القناديل ويعمرها بالزيت والفتائل ، وينظف المراحيض .

والشيخ محمد العروسى (٣٠) والشيخ محمد الأمير ، أما الشيخ الشنوانى فانه تورع عن تقلد المشيخة وهرب واختفى بالفسطاط ، وامتنع كذلك الشيخ محمد العروسى والشيخ محمد الأمير . وأما الشيخ المهدى فانه تطلع الى هذا المنصب وتحمس له لفيف من العلماء اجتذبهم اليه بوسائله الخاصة ، فأخذوا يبثون له دعاية عريضة بين مجتمع الأزهريين ، ومن ناحية أخرى فقد رغب المهدى من الباشا أن يؤيده فى نيل مراده .

اجتمع العلماء للنظر فى شأن مشيخة الأزهر ، وتوجهوا الى محمد على لاستطلاع رأيه فيمن يخلف الشيخ الشرقاوى ، ولكن محمد على ترك لهم حرية اختيار الشيخ الجديد ، وشرط عليهم أن يكون الشيخ الجديد خاليا من الأغراض ثم طلب من قاضى القضاة بمصر أن يدعو هيئة كبار العلماء للاجتماع ببيت القاضى لاختيار المرشح الجديد وفق الشرط الذى وضعه لذلك .

اجتمع العلماء لدى القاضى ، فانقسموا حيال هذه القضـــية الى فريقين : فريق يناصر الشيخ محمد الشنوانى الذى غاب عن حضـــور مجلسهم وأرسل ورقة يتنازل فيها عن مشيخة الأزهر لشيخ جليل يدعى الشيخ بدوى الهيتمى ، أما الفريق الآخر فهم أنصار الشيخ محمد المهدى وأكثرهم من رواق الشوام ، وكانوا أكثر عددا ، وأحدثوا ضجة كبيرة عندما سمعوا محتوى الورقة التى تنازل فيها الشيخ الشنوانى للشيخ الهيتمى وقال بعضهم : « هو لم تثبت له مشيخة حتى أنه ينزل عنها لغيره » وقال كبارهم من المدرسين : « لا يكون شيخا الا من يدرس العلوم ويفيد الطلبة » وزاد لغطهم ، وأعلنوا اختيارهم للشيخ المهدى ، وصـــافحوه

---

(٣٠) ولد الشيخ محمد العروسى بالقاهرة من بيت علم وفضل ، فوالده هو الشيخ أحمد العروسى الذى تولى مشيخة الأزهر فى المدة من ١١٩٢ هـ حتى ١٢٠٨ وكان العروسى الابن من كبار علماء الشافعية درس بالأزهر وأخذ العلم عن أبيه وغيره من علماء عصره ا وجلس مكـــان ابيه للتدريس بالأزهر .

بالتهنئة ، وقرأوا الفاتحة له بالتوفيق ، « وانفض الجمع وركب الشيخ المهدى الى بيته فى كبكبة وحوله وخلفه المشايخ وطوائف المجاورين ، وشربوا الشربات ، وأقبلت عليه الناس للتهنئة » (٣١) .

كتب القاضى اعلاما بذلك الى الباشا ، غير أن محمد على لم يرض بهذا الترشيح لأنه ليس باجماع العلماء من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كان يعلم أن الشيخ المهدى ليس أهلا لهذا المنصب لأنه رجل تجارة ومضـــاربة قضى عمره منصرفا الى تدبير الأموال والاقبال على الدنيا . يباشر العمل فى الشركات والمتاجر ولا احترام له بين مجتمع العلماء ، فامتنع الباشا عن الرد على اعلام القاضى ، وانتظر الشـــيخ المهدى « ومضى اليوم الثانى والمدبرون يدبرون شغلهم » كما يقول الجبرتى :

وفى غضون ذلك برز الفريق المعارض لتولى الشيخ المهدى وأخذ يدبر لتنصيب الشيخ الشنوانى فأحضروه عنوة من « المكان الذى كان متغيبا فيه بمصر القديمة » وجمعوا أنصارهم وذهبوا الى الباشا فى صباح اليوم التالى لتولى الشيخ المهدى ، وأعربوا له عن رغبتهم فى ضرورة تولى الشيخ الشنوانى ، فنزل الباشا عند رأيهم ، وخلع على الشيخ الشنوانى فروة سمور بمناسبة تنصيبه شيخا للأزهر ، وبذلك قهر الشيخ المهدى وأنصاره « وحصل لهم كسوف وبطلت مشيخته » (٣٢) .

نزل الشيخ الشنوانى من القلعة يتبعه جمهور غفير من أنصـــاره والمتحمسين له تحف بهم عساكر الباشا فى موكب عظيم ، ولما كان الشيخ الشنوانى ليس من أهل اليسار وداره صغيرة وضيقة لاتسع ذلك الجمع من المهنئين ، فقد هيأ له السيد محمد المحروقى كبير التجار دارا على نفقته بحارة حوشقدم ، وقام له بجميع الاحتياجات ، وأرسل له الطباخين والفراشين ، والأغنام والأرز ، والحطب والسمن والعســل والســكر

---

(٣١) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٧٥ .
(٣٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٧٥ .

والقهوة ، وأوقف عبيده وخدمه لخدمة القادمين للتهنئة ومناولة القهوة والشربات وماء الورد ، وازدحم الناس على الشيخ الشنوانى ، وأتوا أفواجا « وخصوصا للتفرج •• كأنه لم يكن طول دهره بينهم ، ولا يلتفتون اليه » وكان ذلك يوم الثلاثاء ١٤ شوال ١٢٢٧ هـ (٣٣) •

وبذلك نرى أن العقلاء من رجال الأزهر لم يقبلوا تنصيب الشـــيخ المهدى فى مشيخة الأزهر ، لأنهم عرفوا حيله ابان محنة السيد عمر مكرم وتآمره ضده ، فلم يقبلوا أن يتآمر مرة أخرى على تولى مشيخة الأزهر ورأوا أن الشيخ الشنوانى أحق بالمشيخة منه لفضله فقد كان « مهذب النفس مع التواضع والانكسار والبشاشة لكل أحد من الناس » ولعلمه فهو « من أهل الطبقة الثانية ••• حضر الأشـــياخ ••• وأفاد الطلبة بالجامع المعروف بالفكهانى » (٣٤) وأما المهدى فانه فى نظرهم رجل دنيا «أقبلت عليه الدنيا وتداخل فىالأكابر ونال منهم حظا وافرا» وأنه سعى « فى أسباب تحصيل الدنيا وعانى الشركات والمتاجر » (٣٥) « واذا شرع فى الاقراء فلا يتم الكتاب فى الغالب ويحضر الدرس فى الجمعة يوما أو يومين ويهمل كذلك ، ولـــم يصـــنف تأليفا ولا رســـالة فى فن من الفنون » (٣٦) •

والذى جعل محمد على يعزف عن التصديق على تعيين الشيخ المهدى فى مشيخة الأزهر ، أنه لم يكن مستوفيا للشرط الذى اشـــترطه محمد على فيمن يشـــغل هذا المنصب ، وهو أن يكون المرشـــح « خاليا عن الأغراض » وكان الشيخ المهدى فى نظر الباشا رجل تجارة ومضاربة ، والميدان الطبيعى له هو التجـــارة ، واقتناء الثروات ، فرأى أن يتركه يمارس هوايته فى دنيا المال والتجارة ، كما أن مكانه الشيخ المهدى قد

---

(٣٣) المصدر السابق ج ٤ صص ١٧٥ — ١٧٦ .
(٣٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٣١٥ .
(٣٥) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤٩ .
(٣٦) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥٣ .

تهاوت فى نظر الباشا فتخلى عن حليف الأمس بعد أن أدى دوره فى الوقيعة بالزعيم عمر مكرم ، ولم تعد لمحمد على حاجة فيه . ومن ناحية أخرى فقد كان الشيخ محمد الشنوانى من العلماء الزاهدين المنعزلين عن الحياة العامة وليس من هواة التصدر والمشاركة فى الحياة السياسية فلم يكن بالشخصية ذات الأطماع السياسية التى يخشى بأسها أو التى تعارض أساليب الحاكم ، والحاكم المستبد يستريح عادة الى هذا الطراز من الرجال (٣٧) وهكذا تلاقت رغبة العقلاء من المشايخ مع رغبة الباشا ، وتولى الشيخ الشنوانى مشيخة الأزهر ، وانصرف الشيخ المهدى بقية حياته يجمع المال ، ومات سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٤ م) .

نهاية الســادات :

توفى الشيخ محمد السادات فى شهر ربيع الأول ١٢٢٨هـ وكان موقف محمد على من ذكراه ومن أهله دالا كل الدلالة على ما كان يحمله له فى قلبه من قلة التقدير ، فعندما وصله خبر وفاته وكان الباشا فى أحد جولاته بالفيوم ، فأرسل أوامره على عجل بالتحفظ على تركة السادات ومنع أهله من أن يتصرفوا فى أمواله . وبمجرد وصوله الى الجيزة أرسل رجال بيت المال الى منزل المتوفى للختم عليه والتحفظ عـلى خزائنه ، وقبضوا على كاتبه القبطى ويدعى عبد القدوس كما قبضوا على فراشه وحبسوهما .

عندما علم المشايخ بهذه الاجراءات ، ذهب بعضـهم الى الباشا بالقلعة يطلبون منه الافراج عن أموال السادات وقالوا له : « أن بيوت الأشياخ مكرمة ولم تجر العادة بالختم على أماكنهم وخصوصا أن هذا المتوفى كان عظيما فى بابه وانتم أخبر به ، وكان لكم بـه مزيد عناية ومراعاة » فقال الباشا لهم : « نعم انى لا أريد اهانة بيتهم ولا أطمع فى شىء مما يتعلق بمشخيتهم ولا وظائفهم القديمة ولا يخفاكم أن المتوفى

---

(٣٧) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم . ص‌ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

كان طماعا وجماعا للمال وطالت مدته وحاز الالتزامات واقطاعات وكان لا يحب قرابته ولا يخصهم بشيء بل كتب ما حازه لزوجته وهي جارية نهاية ثمنها ألفا قرش أو أقل أو أكثر ، ولم يكتب لأولاد أخيه شيئا ، فلا يصح أن أمة تختص بذلك كله ، والخزينة أولى به لاحتياجات مصاريف العساكر ، ومحاربة الخوارج ، واستخلاص الحرمين ، وخزينة السلطان ، وأنا أرفع الختم رعاية لخواطركم » (٣٨) .

بيد أن محمد على صرف المشايخ بأسلوب حسن وكان مصمما على التعرف على مقدار تركة الشيخ السادات فواصل اجراءاته فى البحث عن مدخرات الشيخ ومكنوزاته فأرسل أعوانه الى منزل المتوفى وطلبوا « سقاء الحريم » وأخذوه معهم ، وأوجعوه ضربا ليدلهم على المخبآت ، كما أحضروا البناء الذى شيد الدار ليكشف لهم عن المخابىء السرية التى يعرفها . ورجع أعوان الباشا الى المنزل وأخذوا فى تفتيشه عدة أيام فوجدوا به كثيرا من الأقمشة القطنية والنحاس والقطن وأوانى الصينى ، وغير ذلك من البن والصابون والشموع فتركوها . وفتحوا بعض خزائنه فوجدوا بها نقودا بلغت ١٢٧ كيسا (٦٣٥ جنيها) فأخذوها ، وهـــدد الباشا أرملة السادات باغراقها فى النيل الم تظهر المال وأمر الكاتب أن يحسب ايراده ومصروفه فى كل سنة ، وجملة ما صرفه على الأبنية لكى يتوصل الى حقيقة تركة المتوفى .

وفى غضون تلك الاجراءات كان السيد محمد المحروقى كبير التجار يبذل مساعيه الحميدة لدى الباشا لمصالحته على مبلغ من المال ، ويترك لأسرة المتوفى تركته تتصرف فيها ، وأخيرا قبل محمد على مصالحة الأسرة على مبلغ ألف وخمسة وخمسين كيسا (٥٢٧٥ جنيها) وأن يترك للأسرة بقية التركة تتصرف فيها (٣٩) .

وكان الشـــيخ السادات قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه ابن أخيه

---

(٣٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٢٠٩ .
(٣٩) المصدر السابق — ج ٤ ص ٢١٠ .

(أحمد يوسف) فى نقابة الأشراف ومشيخة السجادة الوفائية ، ونظارة أوقاف المشهد الحسينى ، غير أن محمد على لم يحترم هذه الوصية وأمر باخراج نقابة الأشراف من بيت السادات ، وقلدها السيد محمد الدواخلى مكافأة على سابق خدمته للباشا وسعيه فى التآمر على الزعيم عمر مكرم . وأعطى نظارة أوقاف المشهد للسيد محمد المحروقى ويلاحظ أن محمد على كان يريد بذلك تحطيم نفوذ الأسر القديمة ذات النفوذ الواسع على الجماهير ، ويخلق أشخاصا آخرين يدينون بالولاء له ويعترفون بنعمته عليهم فيكون هو بحق ولى النعم كما أحب أن يسميه المصريون .

مصير الدواخلى :

ذكر الجبرتى أن الشيخ محمد الدواخلى كان عنده ميل شديد للتقدم والرياسة ولا يقنع بالكثير . فبعد وفاة الشيخ السادات قلده محمد على نقابة الأشراف مكافأة له على سعايته فى الايقاع بعمر مكرم وظن الشيخ الدواخلى بعدها أن الوقت قد صفا له « فركب الخيول ولبس التاج الكبير ومشت أمامه الجاويشية وأرباب الخدم ، وازدحم بيته بأرباب الدعاوى والشكاوى وعمر دار سكنهم القديمة بكفر الطماعين وأدخل فيها دورا مجاورة ، وأنشأ تجاهها مسجدا لطيفا وجعل فيه منبرا وخطبة [٤٠] كما عمر دارا أخرى ببركة جناق وأسكنها احدى زوجاته ، وداخله الغرور الزائد ، وأخذ يطلع وينزل فى كل يوم الى القلعة ويشار اليه ويعقد فى قضايا الناس .

استرسل الباشا مع الدواخلى ومد له فى المسامرة والمسايرة ولين الخطاب ، فلما رأى الدواخلى اقبال الباشا عليه زاد طمعه ، فتوالت مطالبه الشخصية من الباشا ، وكان الباشا يجامله بحسن الجواب حينا وباجابة مطالبه حينا آخر ، بيد أن الدواخلى أوغل فى مطلبه ، فطلب من الباشا اعادة نظام الالتزام ، واعادة الأراضى الموقوفة وأراضى الرزق الى نظارة

---

(٤٠) المصدر السابق — ج ٤ ص ٣١٦ .

القدامى ، فوعده الباشا « مواعيده العرقوبية » فأخذ الدواخلى يذيع بين الناس فى مجلسه ما وعده الباشا به ، وأحدثت هذه الأخبار بلبلة فى أفكار الجماهير ، فضاق الباشا به ذرعا .

ألح الدواخلى فى مطالبه وأخذ يقول للباشا وأعوانه : « أنتم تكذبون علينا ونحن نكذب على الناس » (٤١) وتطاول على الكتبة الأقباط بسبب أمور يطلبها منهم ويكلفهم باتمامها ، وليس فى يدهم تنفيذها ، فكثرت شكايتهم لمحمد على ، وحقدوا عليه ، وأوقعوا به عند الباشا ، كما كثر تعرضه للقاضى فى قضاياه وشكت حاشية الباشا من أفاعيله وتطاوله عليهم بالتوبيخ والقول الخشن فى ملأ من الناس . فأوغرت هذه الأفعال صدر الباشا على الدواخلى ، وعزم على التخلص منه مع أن هذه الأفعال « فى الحقيقة ليست خلافا عند من فيه قابلية للخير » كما يقول الجبرتى (٤٢) .

عزم الباشا على احالة الدواخلى من نقابة الأشراف ، فاستحضر السيد محمد المحروقى كبير التجار ، وعرض عليه منصب نقابة الأشراف ، ولكنه اعتذر قائلا : « أنا متقيد بخدمة أفندينا ومهمات المتاجر والعرب والحجاز » فأعطاه محمد على حق التصرف فى منصب نقابة الأشراف يوليها من شاء ، فاقترح عليه اسناد النقابة الى الشيخ البكرى لأنه أولى من غيره ، ومنصب النقابة كان فى أسرته من قبل ، فاستصوب جماعة العلماء هذا الاختيار .

وفى ١٢ ربيع الأول ١٢٣١ هـ (١٨١٥م) طلب محمد على المشايخ للاجتماع بهم فى القلعة ، ومعهم الشيخ البكرى ، ولم يدع الشيخ الدواخلى الى هذا الاجتماع ، وذكر الباشا للمجتمعين أنه قرر عزل الشيخ الدواخلى من نقابة الأشراف ونفيه من القاهرة ، وتعيين الشيخ البكرى مكانه فى النقابة ، فوافق العلماء على رأيه ، وألبس الباشا خلعة النقابة للشيخ البكرى ، وأصدر محمد على قرارا باخراج الدواخلى من القاهرة

---

(٤١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦١ .

(٤٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

ونفيه الى دسوق ، وأرسل الباشا اليه ترجمانه السيد أحمد الملا ومعه أحد جنود الشرطة فدخلا داره على حين غفلة ، وكان الشيخ الدواخلى مع حريمه فخرج اليهما مذعورا ، فأعطاه الترجمان القرار ، فأحدث صدمة عنيفة فى نفسه يقول الجبرتى : « فلما قرأه غاب عن حواسـه وأجاب بالطاعة وأمره بالركوب ، فركب بغلته وسارا به الى بولاق الى المنزل الذى كان شراه بعد موت ولده ، وأنسل مما كان فيه كانسلال الشعرة من العجين ، وتفرق الجمع الذى كان حوله » (٤٣) .

ورسمت الأقدار لطرد الشيخ الدواخلى من النقابة مسرحا مشابها لما حدث للزعيم عمر مكرم ، فقد أوعز الباشا الى جماعة المتصدرين من مشايخ الوقت بأن ينمقوا عرضحالا عن لسانهم يعددون فيه عدة جنايات وذنوب أوجبت عزله ، وأنهم ترجوا الباشا والتمسوا منه عزله ونفيه .

وكان مما نسبه مشايخ الوقت الى الدواخلى من مآخذه : « أنه تطاول على حسين أفندى شيخ رواق الترك وسبه وحبسه من غير جرم » على الرغم من أنه رجل كبير وضـليع فى علمه ، ويقوم بالتدريس فى الأزهر ، كما أنه شيخ لرواق الأتراك بالأزهر .

كما تطاول على السيد منصور اليافى بسبب فتيا رفعت اليه ، وهى « أن امرأة وقفت وقفا فى مرض موتها ، وأفتى (اليافى) بصحة الوقف على قول ضعيف فسبه فى ملأ من الجميع ، وأراد ضربه ونزع عمامته من على رأسه » ومما نسب اليه أنه يتدخل فيما ليس من اختصاصه فيعارض قاضى القضاة فى أحكامه « ويكتب فى بيته وثائق قضايا صلحا ، ويسب أتباع القاضى ورسل المحكمة » ومنها أنه يعارض شيخ الأزهر فى أموره الخاصة وغير ذلك من الاتهامات ، وبعد كتابة العرضحال أمضاه مشايخ الوقت بأختامهم ، وأرسلوه الى نقيب الأشراف بالأستانة (٤٤) .

---

(٤٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦١ .
(٤٤) المصدر السابق — ج ٤ ص ٢٦٠ .

ولم تكن هذه الاتهامات السالفة هى التى تسببت فيما حدث للدواخلى فى نظر الشيخ الجبرتى الذى اعتبرها نكاتا فارغة ، وأن الأسباب الحقيقية فى نظره : « أشياء وراء ذلك كله ظهر بعضها وخفى عنا باقيها » وقد سبق ذكر هذه الأسباب التى ظهرت للجبرتى ، كما أنه يرى أخيرا أن الذى حوث للدواخلى كان قصاصا فيقول : « وأنا أقول أن الذى وقع لهذا الدواخلى انما هو قصاص وجزاء فعله فى السيد عمر مكرم فانه كان من أكبر الساعين عليه الى أن عزلوه وأخرجوه من مصر ، والجزاء من جنس العمل » (٤٥) .

شماتة المتصدرين بالدواخلى :

ظهر المتصدرون من المشايخ ابان محنة الدواخلى فى حالة سيئة من التدهور والانحطاط الأخلاقى ، فقد بلغ بهم الشقاق والحقد على بعضهم مبلغا كبيرا فيذكر الجبرتى أنه « لما جرى على الدواخلى ما جرى من العزل والنفى أظهر الكثير من نظرائه المتفقهين الشماتة والفرح وعملوا ولائم وعزائم ومضاحكات » وقد كانت هذه المظاهر فى الواقع من شر ما ابتلى الأزهريون به ابان انحطاطهم وشر البلية ما يضحك كما يقولون ، أو كما استشهد الجبرتى بقول القائل :

أمور يضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب (٤٦)

وهكذا « تفرقت الآراء وراج سوق النفاق وتحركت حفائظ الحقد والحسد » وهانت عليهم كرامتهم فهانوا على (محمد على) وتنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم ، وأخذوا يتساقطون فى يده الواحد تلو الآخرى ، ولا عاصم لهم من حيله وجبروته بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يشجعون انباشا تشفيا من زملائهم ، وأصبح الأشياخ المتصدرون « الذين كانوا من قبل ملىء السمع والبصر يعيشون على هامش الحياة الى أن طواهم الموت

---

(٤٥) المصدر السابق — ج ٤ ص ٢٦١ .
(٤٦) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٢ .

الواحد بعد الآخر » [٤٧] فمات سليمان الفيومى (سنة ١٢٢٤ هـ) (١٨٠٩م) ثم عبد الله الشرقاوى (سنة ١٢٢٧ هـ) (١٨١٢م) فمحمد السادات (سنة ١٢٢٨ هـ) (١٨١٣م) فمحمد المهدى (١٢٣٠هـ) فمحمد الأمير (سنة ١٢٣٢ هـ) ثم الدواخلى (سنة ١٢٣٣ هـ) .

ويلخص الجبرتى الموقف بعد نفى عمر مكرم بقوله : « أن السيد عمر كان ظلا ظليلا (على المشايخ) وعلى أهل البلد ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض » [٤٨] .

وقد عبر الشيخ العطار عن هذه المحن فى رثائه لأستاذه الشيخ محمد الدسوقى [٤٩] ملوحا بما حل بجماعة العلماء من نكبات فرقت جمعهم واصابتهم بخطوب الزمان بعد ان كان روض عيشهم يانعا فقال فى هذا المعنى :

أحاديث دهر قد ألم فأوجعا	وحل بنادى جمعنا فتصدعا
لقد صال فينا البين أعظم صولة	فلم يخل من وقع المصيبة موضعا
وجاءت خطوب الدهر تترى فكلما	مضى حادث يعقبه آخر مسرعا

---

(٤٧) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — ص ٢٧٩ .

(٤٨) الجبرتى — عجائب الآثار ج ٤ ص ١٠٧ .

(٤٩) هو الشيخ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى ، توفى يوم الأربعاء الموافق ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٣٠ هـ وكان على طريقة علماء السلف المنقطعين للعلم وأجاد فيه وحقق كثيرا من العلوم العقلية والنقلية ، وتتلمذ على حسن الجبرتى وعلى الصعيدى والدردير والجناحى وغيرهم ، وكان لين الجانب متدينا ذا خلق حسن وتواضع فى غير تصنع أو تكلف « جاريا على سجيته لا يرتكب ما يتكلفه غيره من التعاظم وفخامة الألفاظ » وكان رحمه الله زاهدا فى الدنيا ، ومات فقيرا فقام بتكليف جنازته ودفنه السيد محمد المحروقى كبير التجار بالقاهرة (الجبرتى — عجائب الآثار ج ٤ ص ٢٤٧) .

وحل بنا ما لم نكن فى حسابه ... من الدهر ما أبكى العيون وأفزعا
خطوب زمـــان لو تمادى أقلهـــا ... بشامخ رضوى أو ثبير تضعضعا
لقد كان روض العيش بالأمن يانعا ... فأضحى هشيما ظله منقشعا (٥٠)

* * *

وقد أعطانا الجبرتى صورة مؤسفة لما وصل اليه وضـــع علماء الأزهر عقب محنة الدواخلى (ربيع الأول ١٢٣١ هـ — فبراير ١٨١٦) فقال : « وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس وانهمكوا فى الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ومشـــاركة الجهال فى المآتم والمســـارعة الى الولائم فى الأفراح والمآتم يتكالبون على الأسمطة كالبهائم ، فتراهم فى كل دعوة ذاهبين وعلى الخوانات راكعين وللكبـــاب والمحمـــرات خاطفين ، وعـــلى ما وجب عليهم من النصـــح تاركين » (٥١) .

على هذه الصورة انتهت حياة المتصدرين من المشايخ ، وخلف من بعدهم خلف كان محمد على لايهابهم ، ولا يخضع لهم ، ولا يحس نحوهم بجميل كما كان يحس بذلك أيام عمر مكرم ، فقد كان يستحى منهم بعض الشىء لأياديهم السابقة عليه ، أما علماء الصف الثانى فقد عاشوا على هامش الحياة ، لا يذهبون الى محمد على الا اذا استدعاهم فينفذون له مطالبه ، وليس فى استطاعتهم أن يعارضوه فى شىء مما يفعله .

ابراهيم يمتهن كرامة العلماء :

بعد عودة ابراهيم باشـــا بن محمد على من الأراضى الحجازية منتصرا فى شهر صفر ١٢٣٥ هـ (ديسمبر ١٨١٩) أقيمت الزينات فى

(٥٠) المصدر السابق — ج ٤ ص ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .
(٥١) المصدر السابق — ج ٤ ص ٢٦٢ .

جميع أنحاء القاهرة ، وذهب المشايخ لتهنئته بالانتصار وسلامة العودة فيذكر الجبرتى أنهم « لما أقبلوا عليه وهو جالس فى ديوانه لم يقم لهم ولم يرد عليهم الســلام فجلسوا وجعلوا يهنئونه بالسلامة فلم يجبهم ولا بالاشارة بل جعل يحادث شخصا سخرية عنده وقاموا على مثل ذلك منصرفين ومنكسفين ومنكسرى الخاطر » (٥٢) .

ومن قبيل ذلك ما حدث لهم ابان الحفل الذى أقيم بمناسبة ختان عباس باشا حفيد محمد على فى شوال سنة ١٢٣٥ هـ ، فقد دعى المشايخ الى هذا الحفل ، فلما حضر العلماء ، وكان ابراهيم باشا بن محمد على حاضرا « صـــار كل من دخل منهم يجلســـونه من ســـكوت . ولم يقم (ابراهيم) لواحد منهم ولم يرد على من يسلم منهم السلام ولا بالاشارة. ولم يكلمهم بكلمة يؤانسهم بها ، وحضرت المائدة ، فتعاطوا الذى تعاطوه حتى انقضى المجلس ، وقاموا وانصرفوا من سكوت » (٥٣) .

عودة المظاهرات الى القاهرة : بعودة عمر مكرم :

سبق أن ذكرنا أن عمر مكرم عاد الى القاهرة فى ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ (يناير ١٨١٩) (وكان محمد على قد بلغ قمة مجده حيث انتصر على الوهابيين) ، وهنأ الناس عمر مكرم بسلامة العودة كما هنأه الشعراء واســـتمر ازدحام الناس عليه أياما غير أنه رأى من الخير الامتناع عن مجالسة الناس ، واعتكف فى منزله بعيدا عن الناس .

ويبدو أن حضور السيد عمر مكرم الى القاهرة قد أثار فى القاهريين كوامن أمجاده السالفة فى المدافعة عنهم ، فلم يأمن محمد على من عودة نفوذ عمر مكرم ولم يطمئن لبقائه طويلاً بالقاهرة ، على الرغم من كبر سنه واعتكافه فى بيته بمصر القديمة .

---

(٥٢) المصدر السابق — ج ٤ ص ٣٢٧ .
(٥٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٣١ .

وحدث أن قامت فى القاهرة فى ٢١ مارس ١٨٢٢ انتفاضة عـلى حكم محمد على أعلن فيها الشعب استياءه من سياسته الضريبية الظالمة ، فقد قرر فرض ضريبة جديدة على منازل العاصمة بعد فرضها على منازل البنادر فى الأقاليم ، وأخذ الموظفون يطوفون بالمنازل لتقدير الضريبـة عليها ، فوقعت مصـادمات بين أهالى حى باب الشعرية وبعض الموظفين الموكول اليهم تقدير الضريبة ، وكانت نفوس السكان مهيأة من قبل للثورة ، وقد أدت هذه المصـادمات الى اغلاق جميع المحلات القائمة فى هـذا الحى ، وهاج السكان وتجمعوا واتجهوا الى منزل الشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر ، وكان يقع منزله على مقربة من باب الشعرية ، ووجـه اليه زعماء الحركة كلاما جارحا واتهموه بالتقاعس فى الدفاع عن مصالح الشعب ، وطلب منه الثائرون أن يذهب معهم الى الجامع الأزهر لعقـد اجتماع عام على غرار الاجتماعات التى كان يشهدها الأزهر كلما اشتدت المظالم بالأهالى .

نزل الشيخ العروسى على رغبة الثوار ومشى معهم فى موكب حاشد ممتلىء بالرجال والنساء والأطفال وكان يتقدمهم الشيخ العروسى راكبا بغلته وأخذ بعض المتظاهرين يوجهون اليه الشتائم ويقذفونه بالطـوب وكان يتعرض لاصابة بالغة لولا أن تدخل الجنود فى الوقت المناسـب وأحاطوا بالشـيخ العروسى ومنعوا اعتداء الشعب عنه ، وأدخلوه الى الجامع الأزهر وأغلقوا جميع أبوابه حتى يمنعوا دخول الشعب اليه .

وسرعان ما عالجت الحكومة هذه الثورة بالحزم واتخاذ التدابير الكفيلة بحفظ الأمن فأرسلت بعض قواتها المسلحة الى منطقة الأزهـر واستطاعت أن تسيطر على الموقف فى عصر ذلك اليوم وفرقت الحشـود المتجمعة بحى الأزهر .

وساورت الشكوك محمد على فى أمره هذه الانتفاضة وارتاب فى أن يكون للسيد عمر مكرم دخل فيها ، والواقع أنه كان بعيدا عنها بيد

أنه صمم على نفيه مرة ثانية من البلاد فأرسل اليه رسولا فى داره أنهى اليه أن محمد على يأمره بمغادرة القاهرة والاقامة فى طنطا .

ومن هنا نرى أن روح الكفاح والنضـــال عادت الى القاهرة بعودة السيد عمر مكرم اليها ، غير أن محمد على فكر سريعا فى ابعاد الســـيد عمر مكرم عن القاهرة أولا لأنه ظن على أقل تقدير أن روحه هى التى أشعلت هذه الفوضى ويعلق المؤرخ الفرنسى ما نجا على نفى السيد عمر مكرم بقوله أن محمد على « خشى نتائج نفوذ رجل اعتكف اعتكافا تاما عن الناس » فخشى من تجدد قيام حركات مشابهة لهذه الانتفاضة ويقول « أراد الوالى اقصاء هذا الشيخ الطاعن فى السن لأنه اعتقد أنه هو الذى حرك الثورة الشعبية التى اندلعت فى ٢٩ من مارس ١٨٢٢ أن هذا الرجل — وهو على حافة القبر — قد اختار له مسكنا فى الضاحية فى هدوء بعيداً عن الجماهير وصخب المسائل العامة ولم يكن يغادر منزله »(٥٤) .

وهكذا أصبح العلماء على هامش الحياة لا يخشى لهم جانب ولا يعتد بهم وبالغ الحكام فى اهانتهم على نحو ما رأينا بعد ان كان الحكام يخشون صولتهم يوم ان كانت لهم فى نفوسهم هيبة وذلك يرجع الى انتهاء جماعة العلماء الذين كانوا « على طوائق الأقدمين فى العفة والانجماع عما يخل بتعظيم العلم وأهله والتباعد عن بنى الدنيا الا بقدر الضرورة » (٥٥) .

الرأى فى تنحية الزعامة الشعبية :

اختلف المؤرخون فى شأن تنحية محمد على للزعامة الشعبية من الميدان السياسى ، والاستبداد بالحكم وحده دون رقابة شعبية فيذكر حسين مؤنس أن محمد على بعد أن تم له الأمر وأحس بأنه أصبح حاكما بدأ يفكر فى العلاقة بينه وبين زعماء الشعب « وكان رجلا زكيا أريبا

---

(٥٤) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — صص ٢٨٧ — ٢٨٨ .
(٥٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٢٠٠ .

يلمس حقائق الأمور بفطنته وذكائه فعرف أنه لن يتفق واياهم اذ بدأ العمل على النظام الذى رسم ، لأن افهامهم مراميه كان يستدعى الصبر الطويل وهو معجل لا يستطيع أن يتئد ، لابد أن يحتج عليه المصريون ويرفضوا المضى واياه الى حيث يطلب من وجوه الاصلاح والتجديد وكان يعرف أنهم لن ينظروا الى الاصلاح بعينه ولن يقدروه قدره فأحب أن ينحيهم عن هذه الرقابة التى يسطوها عليه لأنها تضرهم ولا تنفعهم » (٥٦) .

ولعل حسين مؤنس قد أدرك غلو رأى محمد على فقال فى شأن تنحيته للمصريين « يبدو أنه بالغ فى التحوط حين سلك هذا السبيل ، أن سبيله كانت تكون أيسر وأهون لو لم يخرج المصريين من الميدان جملة ، فانه بات يشكو بعد خروجهم قلة الرجال وندرة الكفايات .. فان بعض أهلها (مصر) كانوا اذ ذاك فى حالة معنوية تمكنهم من مجاراته وفهم مراميه اذا تفاهم معهم عليها » (٥٧) ويذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أن محمد على « كان يميل فى ذات نفسه الى التخلص من الزعامة الشعبية التى أجلسته على قمة المجد لأن هذه الزعامة كانت فى هذه السنوات الأولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصى عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة ، وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم أو تتحيفهم مساوىء الحكام ، ولا نزاع فى أن هذا النوع من الرقابة لم يكن مألوفا

ويضيف الأستاذ الرافعى بأنه وان كان محمد على « مدينا للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته وتذليل العقبات التى اعترضته واحباط الدسائس والمؤامرات التى تدبر له ، فان السلطة فى ذاتها من شأنها

---

(٥٦) حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ص ١٣٩ .

(٥٧) المرجع السابق — ص ١٤٤ .

أن تطغى صاحبها وتنزع به الى الاستبداد بالأمر لأنه بعد أن استقر له الأمر بدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء ، وأهل الرأى فى شـئون الحكومة وسعيهم فى رفع المظالم عن الناس فبدأ يعمل على التخلص منهم واقصائهم عن الميدان » وساعده على ذلك ما كانت تحمله هـذه الزعامة فى ذات نفسها من أسباب انحلالها « ذلك أن زعماء الشعب لم يكونوا على وفاق وتضامن واخلاص متبادل فأخذت أسـباب التنافس والتحاسد والمطامع الشخصية تفرق بينهم » (٥٨) .

ويذهب الأستاذ الدكتور الشناوى الى أن الزعامة الشعبية كانت ستلقى حتما مصيرها المحتوم على يد محمد على لأنه ما كان يطيق وجود زعماء مصريين يراقبون أعماله أو يحدون من تصرفاته فى الحكم ، وأن الخديعة التى قام بها محمد على فى غرس بذور الانقسام بين الزعماء والتلويح لهم بالمناصب والمنافع وأن التحاسد والتباغض والتدهور الذى أصاب معظم الزعماء كل ذلك كانت عوامل ساعدت « محمد على » على الاسراع بخطى حثيثة للتخلص منهم (٥٩) .

ومهما يكن من أمر فان الدرس القائل بأن على الحاكم تحطيم أولئك الذين رفعوه الى الحكم كان من الدروس التى نفذها محمد على ، فجاء الغاؤه لنظام الالتزام وتدخله فى شئون الأوقاف المصرية ضربة معول فى أساسات مركز هؤلاء العلماء السياسى ونظام المدارس الاسلامية ، وقد أقام مكان العلماء عددا من المستشارين الأوربيين والأرمن وغيرهم من الملمين بسياسات أوربا وشئونها المالية ، كذلك لم يشجع محمد على الاهتمام الشعبى بالسياسة ، فقد قال له أحد الطلبة يوما أنه درس علوم الادارة المدنية فى باريس فأجابه محمد على بحدة : « أنا الحاكم فاذهب الى القاهرة وترجم المؤلفات العسكرية » (٦٠) .

(٥٨) عصر محمد على ص ٨٠ .

(٥٩) د. عبد العزيز الشناوى — عمر مكرم — ص ٢٨٠ .

(٦٠) البرت حورانى — الفكر العربى فى عصر النهضة صص ٤٣ — ٧٤ من الترجمة العربية لكريم عزقول .

والحق أن بناء الدولة العصرية كان يحتاج الى الاستعانة بطبقة العلماء فنفوذها كان أفضل من نفوذ طبقة القادة العسكريين الذين كانوا أبعد ما يكون عن الشعب فهم غرباء عنه لغة وجنسا وقد كانت سيطرتهم على مصائر الأمور أدعى الى سيطرة الروح العسكرية التى جرت على البلاد الحروب التى قضت عليها تماما فى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ (١٢٥٦ هـ) .

لقد بدا للبعض أن محمد على يستطيع أن يقيم دولة عصرية ، بعيدا عن روح الشعب وجاءت الأيام لكى تقدم الجواب بالنفى .

شق محمد على الطرق ، وبنى المدارس ، واستورد المصانع ، وصنع المدافع والبارود ، وحفر الترع ، وفرض الأمن ، ولكن انهار كل ذلك لعدة أسباب كان فى مقدمتها : أنه لم يؤمن بالشعب المصرى ولا بمشاركة زعمائه فى مسئولية بناء الدولة العصرية ، بل أقام نظاما يعتمد عليه وحده ، فاما انهار هو ، انهار كل شىء .

وليس أدل على ذلك من قول الأستاذ الامام (محمد عبده) عن الفرق بين تلقى الشعب المصرى لصدمة الاحتلال الفرنسى وتلقيه لصدمة الاحتلال البريطانى بعد ثمانين سنة .

ففى المرة الأولى قوبل الاحتلال بمقاومة شعبية شاملة لم تنقطع بل استمرت فى تزايد مستمر وشهدت القاهرة ثورتين عنيفتين فى خلال ثلاث سنوات ، بينما سادت روح الانهزامية واليأس المدمر فى أعقاب الاحتلال البريطانى ، وكيف عجز الفرنسيون عن ايجاد جهاز دولة متعاون ، وواجهوا مقاومة شرسة من شيوخ الأزهر بينما لم يجد كرومر صعوبة فى ادارة مصر بنفس جهاز الدولة الذى أقامته أسرة محمد على

مع زيادة عدد المستشارين الذين كانوا قد دخلوا الجهاز بالفعل قبل الاحتلال بسنوات [٦١] .

وكان السبب فى ذلك أن قيادة الأمة كانت قد انتقلت من أيدى الصفوة المتعلمة ، وأصبحت فى هذه المرة فى الجيش ، فلما سقط الجيش فى معركة التل الكبير سقطت مصر ، ونعم الانجليز بهدوء دام أكثر من ربع قرن لأن الأمة كانت بلا قيادة لأن قيادتها الطبيعية كانت قد نحيت وصفيت ولأن عملية التغريب كانت تمت بنجاح ، وأصبحت البلاد ناضجة لكى يتناولها السيد الغربى » [٦٢] .

وبعد أن قضى (محمد على) على الزعامة الشعبية على النحو السابق أصبحت معارضة الأزهريين صامتة ، وتزعم هذه المعارضة الصامتة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى أخذ يوجه النقد اللاذع الى محمد على وحكومته .

القضاء على معارضة الجبرتى :

ولد الجبرتى بالقاهرة عام ١١٦٧ هـ [٦٣] (١٧٥٦) من أسرة عريقة فى العلم يرجع أصلها الى جبرت من بلاد الحبشة ، واستوطنت أسرة

---

(٦١) الشيخ محمد عبده — مجلة المنار — عدد ٢ يونيو عام ١٩٠٢ (١٣٢٠ هـ) من مقال عن الخسائر التى أصابت مصر فى عهد محمد على — نشره الامام بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس دولة محمد على . وانظر : أيضا هذا المقال فى تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا — الطبعة الأولى مطبعة المنار — القاهرة ١٢٣٤ هـ جـ ٢ صص ٣١٣ — ٤٢٠ .

(٦٢) محمد جلال كشك — ودخلت الخيل الأزهر — مرجع سبق ذكره ص ٩٠ .

(٦٣) ذكر الجبرتى فى ترجمته لرضوان كتخدا الجلفى أنه ولد فى عام ١١٦٧ هـ فيقول : « يقول جامعه انى ادركت بقايا تلك الأيام وذلك أن مولدى كان فى سنة سبع وستين ومائة الف » .
انظر : عجائب الآثار جـ ١ ص ٢٠٨ .

الجبرتى مصر ، واشتهرت بخدمة العلم ، فكان أبوه وأجداده من العلماء ، وتتابع أسلافه على مشيخة رواق الجبرتية بالأزهر نحو ثلاثة قرون .

وكان بيت الجبرتى بالصنادقية ملتقى العلماء والأمراء ، فقد كان والده حسن من كبار العلماء ووجيها من وجهائهم ، كما كانت له منزلة كبيرة عند الأمراء ، وانتفع عبد الرحمن الجبرتى بأحاديث والده مع زملائه العلماء وأصدقائه من الأمراء المماليك ووجوه الدولة وأعيانها ، وتمكن من لقاء عظماء عصره من العلماء والأمراء والتعرف عليهم عن كثب ، فأمكنه من الالمام بسياسة الدولة الماما واسعا ، فأفاده ذلك فى كتابة تاريخه « عجائب الآثار » حيث يذخر مؤلفه العظيم بكثير من تراجم علماء الأزهر وأخبار الجامع الأزهر الذى نشأ فيه وعلى مقربة منه فى شارع الصنادقية ، وكتب عن الحكام المماليك والباشوات العثمانيين كما كتب كثيرا من حوادث عصره وتحدث عن صفات الرجال الذين اشتركوا فى هذه الحوادث .

وكان الجبرتى يحدد موقفه من كل عهد من العهود التى مرت بـــه مسترشـــدا بتلك المبادىء المعينة التى دارت حول ضرورة اقامة ميزان العدل ، فيقول فى مقدمة كتابه بأن حاجة البشر مست الى ضرورة اقامة « سائس عادل وملك عالم يضع بينهم ميزانا للعدالة وقانونا للسياســة توزن به حركاتهم وسكناتهم وترجع اليه طاعتهم ومعاملاتهم فأنزل الله كتابه بالحق وميزانه بالعدل » وعرف الحاكم العادل بأنه : « من عدل بين العباد وتحذر عن الجور والفساد » (٦٤) وعلى ذلك يجب أن يتصــف الحاكم فى نظريته فى الحكم : بالعلم والعدل .

وقد راح الجبرتى على ضوء هذه المبادىء التى جعلها قاعدة لـــه فى أصول الحكم والسياسة يوجه النقد الى الحكام المنحرفين عنها فى سياسة الرعية ، وقد ظل أمينا على رأيه هذا محافظا عليه طوال حياته .

---

(٦٤) المصدر السابق — ج ١ ص ٧ .

وقد عاصر الجبرتى عهودا ثلاثة : عهد استئثار البكوات المماليك بالسلطة فى مصر قبل الحملة الفرنسية ، وعهد الحملة الفرنسية ، وما شهده من حكم محمد على حتى وفاته سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤م) وقد أصـــدر الجبرتى أحكامه على حكام هذه العصور الثلاثة ، وتوخى الصدق قدر استطاعته ، ولم يداهن فيها دولة بنفاق كما قال « أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى أو غرض جسمانى » (٦٥) •

فمدح حكام المماليك الذين اتصـــفوا بالعدل أمثال على بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب ومحمد بك الألفى ، وذم مراد بك لأنه كان ظالما غشوما وقال عنه بأنه « كان من أعظم الأسباب فى خراب الاقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم »(٦٦) كما ذم ابراهيم زميل مراد فى الحكم لأنه يعارضه ورخص له فى أفعاله الظالمة وتغافل عن سيئاته •

معارضته لمحمد عـــلى :

كانت معارضة الجبرتى لمحمد على شديدة ، فقد اعتبره من الحكام الظالمين غير المتصفين بالعدل ، فقد ساءته مظالمه ومظالم أعوانه ونهبهم لأموال الشعب واستيلائهم على كل شىء فى الاقليم المصرى ، ومصادرة الحريات ، وفداحة الضرائب والزج بالأبرياء فى أعماق السجون ، وسفك كثير من الدماء • وقد وصف محمد على بالدهاء والحيلة والمداهنة • وانتقد مسلكه الشاذ فى الحكم الاستبدادى ، وناصبه العداء ، ووقف منه فى كتاباته عن عصره موقف المعارضة ، ولكنها معارضة تختلف عن معارضـــة عمر مكرم ، فكانت صامتة ، وأخذ يدعو للمماليك واعتبرهم مصريين لأنهم اندمجوا فى الشعب ، وربطوا مصيرهم بمصيره ، وأفصح عن أحقيتهم فى الحكم ، واعتبر محمد على وأعوانه دخلاء عليهم •

---

(٦٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٦ •

(٦٦) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٧٩ •

وجه لشخص محمد على النقد اللاذع المر فقال عنه : « من طبعه داء الحسد والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم » وأنه لا غرض له سوى « سلب الناس من الأغنياء والفقراء » (٦٧) وقد حدثنا عن بعض ذلك فذكر عنه أنه حقد على عمال الضربخانة (٦٨) عندما وجدهم فى رغد من العيش ، وتطلعت نفسه لما فى أيديهم وهددهم بالقتل حتى أفتدوا أنفسهم بأموال دفعوها له « ورهنوا وتداينوا بالربا وحولت عليهم الحوالات » (٦٩) .

وفى عام ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) حج محمد على الى بيت الله الحرام ، وأشاع بين سكان الاقليم المصرى « بأنه تاب عن الظلم وعزم على اقامة العدل وأنه نذر على نفسه أنه اذا رجع منصورا ، واستولى على أرض الحجاز أفرج للناس عن حصصهم ورد الأرزاق الاحباسية الى أهلها » وتناقل الناس هذه الاشاعات فى جميع النواحى ولم تنطلى هذه الاشاعات على الجبرتى بطبيعة الحال على الرغم من أن كثيرا من المتفائلين « باتوا يتخيلونها فى أحلامهم » ووصف هؤلاء بأنهم مغفلون فقال : « ففرح أكثر المغفلين بهذا الكلام واعتقدوا صحته » (٧٠) .

وعقب مظاهرات النساء الملتزمات بالجامع الأزهر ، لاسترجاع حصصهن من الالتزام (٥ ربيع الأول ١٢٢٩ هـ) استهزأ الجبرتى من غفلة الناس وظنهم فى امكانية عودة حصصهم اليهم فقال : « وفى ظن الناس وغفلتهم أن فى الاناء بقية أو أنهم يدفعون الرزية ، وما علموا أن البساط قد انطوى وكل قد ضل وأضل وغوى ، ومال عن الصراط واتبع الهوى ، وكلب الجور قد كشر أنيابه عوى ، ولم يجد له طاردا ولا معارضا ولا معاندا » (٧١) .

---

(٦٧) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٠ .
(٦٨) الضربخانة هى دار سك النقود .
(٦٩) عجائب الآثار — الجبرتى جـ ٤ ص ١٥٠ .
(٧٠) عجائب الآثار — الجبرتى جـ ٤ صص ٢٣٥ — ٢٣٦ .
(٧١) عجائب الآثار — الجبرتى جـ ٤ صص ٢١٧ — ٢١٨ .

وهكذا سلط الجبرتى قلمه الناقد على أفعال محمد على الظالمه وأفعال جنوده التى جعلت الناس فى رأيه « فى أمر مريج وخوف وانزعاج وتوقع المكروه » فى كل لحظة من لحظات حياتهم ، لأن عساكر الباشا « يتوعدون الناس بعودهم فى النهب ، وكأنما بينهم وبين أهل البلد عداوة قديمة أو ثارات يخلصونها منهم » واعتبر لذلك أن محمد على ورجاله « نقمة حلت بأهل الاقليم من كل ناحية » (٧٢) .

كما اعتبرهم بعيدين عن الاسلام ، وليس لهم من الاسلام الا اسمه لأن : « غالبهم لم يصم رمضان ، ولم يعرف لهم دين يتدينون به ، ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها اباحية أسهل ما عليهم قتل النفس وأخذ من الغير وعدم الطاعة لكبيرهم وأميرهم ، وهم أخبث منهم ، فقطع الله دابر الجميع » (٧٣) وكانوا يجلسون على الحوانيت والمقاهى جهارا فى نهار رمضان يأكلون ويشربون الدخان « وينفخونه فى وجوه أولاد البلد على كره منهم . على سبيل السخرية والهذيان بالصائم وزادوا فى الغى والتعدى وخطف النساء نهارا » .

« حتى اتفق أن شخصا منهم أدخل امرأة الى جامع الأشرفية وزنى بها فى المسجد بعد صلاة الظهر فى نهار رمضان » (٧٤) .

ونعى الجبرتى على جماعة المتصدرين من العلماء لأنهم هم الذين عاونوا محمد على فى الوصول الى الحكم ، حتى أنه وهو المعجب بموقف السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وشهامته فى الدفاع عن أهل مصر فى أوقات الشدائد يقول عنه يوم أن طرده محمد على من القاهرة منفيا « وأما السيد عمر مكرم فان الذى وقع له بعض ما يستحقه ومن أعان ظالما سلط عليه ولا يظلم ربك أحدا » (٧٥) .

---

(٧٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤٣ .
(٧٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٥ .
(٧٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤٢ .
(٧٥) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٧ .

وقال عن ابراهيم باشا ابن محمد على ، أنه شاب مغرور ، لم يؤدبه مؤدب ، وصور العذاب الذى انصب على أهل الصعيد ، والذل والهـوان اللذان لقياه على يديه . فقال : « ثم سـافر راجعا الى الصعيد يتمم ما بقى عليه لأهله من العذاب الشديد ، فانه فعل بهم فعل التتار عندما جالوا بالأقطار وأذل أعزة أهله وأساء أسوأ السوء معهم فى فعله فيسلب نعمهم وأموالهم ويأخذ أبقارهم وأغنامهم ويحاسبهم على ما كـان فى تصرفهم فاستهلكوه ... ويلزمهم بتحصيله فتعجز أيديهم عن الاتمام فعند ذلك يجرى عليهم أنـواع الآلام من الضرب والتعليق والكى بالنـار والتحريق ... وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل سنه دون العشرين عاما وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه لم يؤدبه مؤدب ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ولا منهيات » [٧٦] .

ولما كثرت مظالم سليمان أغا السلحدار بالقاهرة ، واستولى على كثير من دورها وأوقافها لنفسه قال فيه : « وأما سليمان أغا السلحدار : فهو الداهية العظمى والمصيبة الكبرى فانه تسلط على بقايا المسـاجد والمدارس والتكايا التى بالصحراء ونقل أحجارها الى داخل باب البرقية» وأنشأ منها جهة خان الخليلى وكالة وجعل بها حواصل وطباقا وأسكنها نصارى الأروام والأرمن بأجرة زائدة أضعاف الأجر المعتاد ، وفتح لها بابا يخرج منه الى وكالة الجلابة [٧٧] الشهيرة التى بالخراطين [٧٨] لأنها بظاهرها ، وأجر الحوانيت كذلك بأجرة زائدة ، فأجر الحانوت بثلاثين

---

(٧٦) المصدر السابق ج ٤ ص ١٩٧ .

(٧٧) وكالة الجلابة : بجوار منزل الجبرتى بالصنادقية ، وقد تخصصت هذه الوكالة حتى عصر الجبرتى فى بيع الرقيق المجلوبين من خارج البلاد ، وكان بها كثير من المتسببين فى بيع الرقيق .

(٧٨) خطة الخراطين : هى المعروفة الآن بشارع الصنادقية ، وكانت محل سكن الجبرتى له بها منزلان أحدهما على يمين السالك اليها من ناحية ميدان الأزهر والآخر على يساره ، وهى تبتدىء من ميدان الأزهر وتنتهى عند شارع المعز لدين الله الفاطمى بالعطارين .

قرشا فى الشهر ، وكانت الحانوت تؤجر بثلاثين نصفا فى الشهر ، ثم أخذ مكانا متسعا بناحية باب النصر يسمى « حوش عطى » . كان محطا لعربان الطور ونحوهم اذا وردوا الى القاهرة بقوافلهم التى تحمل الفحم وغيره ، وكذلك أهل شرقية ببلبيس ، فأنشأ فى ذلك المكان أبنية عظيمة تحتوى على خانات متداخلة وقهاوى ومساكن وطباق وأسكن غالبية هذه الأماكن بالأرمن وغيرهم بأجرة زائدة [٧٩] .

ثم استولى على كثير من البيوت جهة الخرنفش فهدمها وعمرها وندر أن يعطى أصحابها ثمنها ، واذا قيل له وقف ولا مسوغ لأخذه لعدم تخربه ، أمر بتخريبه ليلا ، « ثم يأتى بكشاف القاضى فيراه خرابا فيقضى له وكان يثقل عليه لفظ وقف ، ويقول : ايش يعنى وقف » [٨٠] .

كما سخر الناس بأجرة زاهدة فى عمل هذه العمائر ليلا ونهارا ظلما وعدوانا وسلط عليهم أعوانه يسومونهم سوء العذاب .

وعلى ذلك فقد كانت معارضة الجبرتى والتى كانت تنشر فى حينها على مجتمع الأزهر على أقل تقدير ، لها أثرها وخطرها ، لأنها قامت على مبادىء معينة تتصل فى جوهرها بضرورة توفر العدل شرطا أساسيا فى الحاكم لوجوب الطاعة له ، ولما كان محمد على غير متصف بالعدل فى نظره ، فقد وجب على الرعية عدم الطاعة له .

وعلى الرغم من أن محمد على ضبط اقليم مصر وبدأ يعمل همته فى اصلاحه وأدرك الجبرتى بعضها الا أنه ظل على رأيه فيه (فى سنة ١٢٣١ هـ ١٨١٥) وهو أنه غير مستوف لشروط الولاية على مصر لعدم توفر شرط العدالة فيه فقال فى ذكر محاسن أعماله :

« ومنها وهى من محاسن الأفعال أن الباشا أعمل همته فى اعادة

---

(٧٩) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ٣٣٦ .

(٨٠) المصدر السابق جـ ٤ صص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

السد الأعظم الممتد الموصل الى الاسكندرية وقد كان اتسع أمره وتخرب من مدة سنين وزحف منه ماء البحر المالح واتلف أراضى كثيرة وخربت منه قرى ومزارع ، وتعطلت بسببه الطرق والمسالك وعجزت الدول فى أمره ... فاعتنى به حتى تممه وكان له مندوحه لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه (٨١) .

ومن الطبيعى أن هذا الكلام كان لا يروق للوالى ولا أعوانه وخافوا عاقبة نشر مثل تلك المبادىء على الشعب ، فعزموا على الانتقام من الجبرتى ، وتربصوا به وبأهل بيته ، وفى سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢) روعوه بقتل ابنه الوحيد « خليل » (٨٢) فقد قتله جماعة من أعوان (سليمان أغا السلحدار) تشفيا من والده (٨٣) ، لأنه اطلع على صفحات من سفره التاريخى ، وانكر عليه نقده الجارح للنظام الجديد ، وخاصة نقده لأفعاله البشعة فى الاستيلاء على بيوت الأرامل واليتامى وأماكن الأوقاف .

تسببت هذه الحادثة الأليمة فى تألم الجبرتى فانكمش على نفسه وغشيه الحزن حتى أبيضت عيناه من بكائه على وحيده وامتنع عن مواصلة تسجيل يومياته منذ ذلك الحين ، وظل منزويا بداره الى أن وافاه الأجل فمات فى رمضان سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥م) (٨٤) .

---

(٨١) المصدر السابق جـ ٤ صص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٨٢) قتله أعوان السلحدار بينما كان عائدا من قصر محمد على بشبرا ، ثم ربطوه فى رجل حماره .

(٨٣) محمد أمين حسونه — مرجع سبق ذكره — ص ٩٥ .

(٨٤) بالرجوع الى وثائق دفتر خانة الشهر العقارى بالقاهرة عرفنا أن عبد الرحمن الجبرتى توفى فى رمضان من عام ١٢٤٠ هـ وعلى وجه التحديد فيما بين ٢٠ من رمضان سنة ١٢٤٠ هـ و ٢٧ رمضان من نفس السنة ، وقد اعتمدنا فى هذا التحديد على وثيقتين : **الأولى** مسجلة بالديوان العالى تحت رقم (مسلسلة مادة صفحة) وفيها يتنازل عبد الرحمن الجبرتى عن بعض
٦ ٤٥٠ ١١٧

=

وطلب محمد على من الشيخ محمد العروسى شيخ الجامع الأزهر أن يكلف أحد العلماء بتأليف كتاب يعارض به كتاب الجبرتى ، فعهد العروسى بذلك الى الشيخ خليل أحمد الرجبى الشافعى من علماء الأزهر وكان فقيها أديبا فكتب تاريخا سرد فيه أعمال ولى النعم « محمد على » ذاكرا منشآته وتعميراته ، غير أنه التزم فيه السجع الثقيل الممل والمدح الموغل فى التزلف الى محمد على فلم يكتب لتاريخه الذيوع والانتشار (٨٥)

انشـــاء المدارس الحديثة :

لم يكتف محمد على بالقضاء على زعماء الأزهر بل راح يضع التخطيط الذى يمكنه من تقويض الأزهر وتقليل شـــأنه ، ونظر اليه عـــلى أنه مؤسسة مصرية رمقها بعين الريبة والخوف ، فعمل على اضعاف جناحها ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وقامت خطته على العناية بانشـــاء مدارس مستقلة عن الأزهر . فأنشأ مدارس للطب والهندسة والزراعة والبحرية والألسن والصـــيدلة

= المرتبات التى كان يتقاضاها من الحكومة لابنته أمينة وابنه محفوظ وولدى ابنه خليل محمد وفاطمة ، وذلك بتاريخ ٢٠ من رمضان ١٢٤٠ هـ حال حياة الجبرتى.
« **والوثيقة الثانية** : مسجلة بسجلات تقارير النظر وهى عبارة عن قـــرار صادر من قاضى القضاة بتعيين أبناء الجبرتى نظارا على بعض الأوقـــاف التى كان الجبرتى يديرها قبل وفاته ، وقد صدرت هذه الوثيقة بتاريخ ٢٧ من رمضان سنة ١٢٤٠ هـ وبذلك تقطع هاتان الوثيقتان بأن الجبرتى توفى فيما بين ٢٠ ، ٢٧ من رمضان من عام ١٢٤٠ هـ (١٤ مايو ١٨٢٥م) .

ومما هو جدير بالذكر أن الدكتور محمد أنيس حدد وفاة الجبرتى فى المدة فيما بين غرة ربيع الثانى و ٢٧ من رمضـــان ١٢٤٠ هـ مستندا الى وثائق دفترخانة الشهر العقارى .

انظر : د. محمد أنيس . المجلة التاريخية المصرية ، المجلد التاســع والعاشر ٦٠ — ١٩٦٢ . صص ٧٢ — ٧٣ .

(٨٥) خليل بن احمد الرجبى — تاريخ محمد على باشا — مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٣٩٠ — تاريخ تيمور .

والطب البيطرى والفنون والصنايع وغير ذلك من المدارس الحربيـــة والمدنية (٨٦) .

وأغدق الباشا على هذه المدارس كثيرا من الأرزاق ليجتذب اليها الشباب فيجف بذلك المورد البشرى الذى يمد الأزهر بالطلاب كما جف من قبل المورد المالى أو كاد بسبب استيلائه على الأوقاف .

ولم يكن هدف محمد على من انشاء المدارس وبعث البعوث الى أوربا هو تطوير التعليم فى مصر ، وانما كان هدفه الأكبر هو امداد جيشه بما يحتاج اليه من الضباط لمختلف الأسلحة والأطباء والمهندسين وبما تحتاجه دواوينه ومصانعه من موظفين وصـــناع ، ومن ثم عندما انهارت دولة محمد على انهار هذا البناء التعليمى بانهيار غرضـــه .

ولو كان غرض محمد على هو تطوير التعليم فى مصر حقا لبدأ ذلك من الأزهر الذى تضرب جذوره فى مصر منذ أزمان طويلة ، وتاريخـــه هو تاريخ مصر الثقافى ، لأن السياسة التعليمية ليست نظاما يوضع بل هى الروح القوى الذى لا تراه وهذا الروح يستمد أكبر مقوماته من تقاليد الأمة ، كما أن السياسة التعليمية لأمة من الأمم يجب أن تكون نابعة من تراثها وأن تكون مظهرا حيا لما تعتنقه الأمة من المثل العليا ، ومن ماضيها ولا تنفصل عنه (٨٧) .

والذى حدث أن محمد على كما أنشأ المدارس بعيدا عن الأزهر ، أنشأها أيضا بعيدا عن روح الأمة وتقاليدها ، وكان كثير ممن اســـتعان

---

(٨٦) انظر فى انشاء المدارس — خليل احمد الرجبى — تاريخ محمد على باشا مرجع سبق ذكره — صص ٢٠ — ٢٢ .

وانظر أيضا : على مبارك — الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٨ .

(٨٧) أحمد عزت عبد الكريم — تاريخ التعليم فى عصر محمد على — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٣٨ ص ٢٩ .

بهم فى سياسته التعليمية فى مصر من الأفاقين والجهلة الأجانب (٨٨) الذين هبطوا أرض مصر طمعا فى الكسب المادى ، ولهذا انحرفوا بالتعليم فى البلاد عن الهدف الصحيح الذى تنشده البلاد ، وكانوا كثيرا ما يخدمون أهداف دولهم ومصالحها فى مصر ، وعملوا أيضا على تهيئة البلاد والأذهان لتقبل المستعمر الغربى وسيطرته •

ولم يحاول محمد على أن يشرك شعبه فى الاهتمام بتلك التغييرات التعليمية الجديدة ، ومن ثم لم يتحمس لها الشعب المصرى ، وكان الطلاب يهربون منها لما لها من صبغة عسكرية ، وكان الأهالى لا يودون لأبنائهم أن يلتحقوا بها • ما عدا أتباع محمد على من الأتراك والشراكسة وغيرهم من الدخلاء على البيئة المصرية •

كما أنه أراد أن ينشىء طائفة من المتعلمين الجدد الذين يدينون بالولاء له ، ويكونون بحق عبيد احسانه ، وهو ولى نعمتهم ، وخاصة أنه كان قد صفى الزعامة الشعبية وقضى على نفوذها •

وقد يقول قائل أن تطوير التعليم فى الأزهر كان يحتاج الى وقت طويل ومجهود شاق ، بينما كان (محمد على) فى عجلة من أمره فأنشأ ما أنشأ من مؤسسات علمية بسرعة فائقة لتخدم أغراضه ، ولكن العقلاء من الباحثين يرون أن هذه السرعة كانت من عوامل انحلالها (٨٩) •

ولا شك أنه كان لهذه المدارس التى أنشأها محمد على والبعثات التى أرسلها الى أوربا أثر كبير فى بناء مستقبل مصر الثقافى ، ولكن الباحث الأمين يرى دون تحامل أن الهدف منها لم يكن بناء الدولة ثقافيا بقدر ما كان توجيه الثقافة بعيدا عن الأزهر (٩٠) وعندما رأى خلفاء محمد

---

(٨٨) المرجع السابق — ص ٣٢ •

(٨٩) المرجع السابق — ص ٥٥٩ •

(٩٠) د. احمد شلبى وزميله ، مرجع سبق ذكره — صص ٢٢٩ — ٢٣٠ •

على أن هذه المدارس ستخلق فكرا ثقافيا بين طبقات الشعب وتنحرف عن هدفها الأساسى ، أسرعوا فأغلقوا أبوابها ، وأوقفوا نشاطها ، ونفوا زعيمها العلامة رفاعة الطهطاوى ، فقد نفاه عباس الأول الى الخرطوم سنة ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م) لأنه ضمن كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » آراء ومبادىء دستورية عادلة لا يرغب فيها حاكم مستبد غشوم كعباس باشا (٩١) .

وهكذا كان شأن الأزهر فى عهد أسرة محمد على ، فقد اعتبروه كما أسلفنا مؤسسة مصرية وطنية ، ونظروا اليه بعين الريبة والخوف ، وعملوا على اضعاف شأنه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ولقد أدرك زعماء الحركة الفكرية فى مصر بعد ذلك خطأ محمد على ونبهوا الأذهان الى الخطأ الذى ارتكبه فى عدم تطوير الأزهر فقـال رفاعة الطهطاوى : « ولو أنه — أى محمد على — أعلى منار الوطن ورقاه لم يستطيع الى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها ، فى الوطن ليس ينكر ... لا سيما وأن هذه العلوم ... هى علوم اسلامية ... فان من يطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى الذى ولى مشـيخة الأزهر من ١١٨٣ — ١١٩٠ هـ (١٧٦٧ — ١٧٧٦م) يرى أنه قد أحاط من هذه العلوم بكثير ... » (٩٢) .

ومن هنا يتبين لنا أن رفاعة كان صريحا فى لوم محمد على لأنه أهمل التعليم بالأزهر .

---

(٩١) محمد امين حسونة — مرجع سبق ذكره — ص ٢٦١ .

(٩٢) د . أحمد شلبى وزميله — مرجع سبق ذكره — ص ٢٤٣ .
وانظر ايضا : رفاعه الطهطاوى — مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية مطلب أنه ينبغى للعلماء الشرعيين أن يتشبثوا أيضا بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية — ص ٣٧٢ .

وأخيرا اذا كان محمد على نجح فى تكوين جيش حربى جديد فى مصر ، ولم تلبث القوى الحربية القديمة أن أصابها الفناء فان التعليم القديم فى الأزهر لم يصبه الفناء ، بل ظل يحيا جنبا الى جنب بجانب الحديث ، حتى وقتنا هذا ، ومازالا يتنازعان تربية ناشئة البلاد ويقتسمان فيما بينهما الأشراف على شئون التربية والتعليم فى مصر •

وصفوة القول أن محمد على بعد أن استبد بالأمر وتمكن من الحكم عمل جاهدا فى القضاء على الزعامة الشعبية المتمثلة فى علماء الأزهر • كما عمل جاهدا أيضا فى القضاء على مؤسستهم الوطنية وهى الجـامع الأزهر وضيق الخناق على موارده المالية والبشرية •

كما أخذ يعمل فى القضاء على نفوذ الأسر المصرية القديمة ذات السيطرة العريضـة على الجماهير فى مصر ، وخلق أشخاصا آخرين يدينون له بالولاء والطاعة ، فيكون هو بحق ولى نعمتهم كما أحب أن يلقبه بذلك المصريون •

فقضى على نفوذ أسر كثيرة بالقاهرة ، كأسرة (السادات الوفائية) بعد وفاة عميدهم الشيخ محمد أبو الأنوار السادات كما سبق أن أشرنا ، حيث أنه لم يوافق على تعيين ابن أخيه مكانه فى نقابة الأشراف ، وعين بدله الشيخ محمد الدواخلى ، وختم على خزائن السادات ، وأراد الاستيلاء على أمواله •

وقضى على نفوذ البطل الشعبى (حجاج الخضرى) زعيم حى الرميلة الذى أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن الشعب ، والوقوف بجانب الزعيم عمر مكرم أثناء ثورة الشعب على الوالى التركى خورشيد ، فأمر بشنقه بلا جريرة ولا ذنب فى رمضان سنة ١٢٣٢ هـ (٩٣) وقال الجبرتى

---

(٩٣) شنق حجاج الخضرى فى ليلة الخميس ١٧ رمضان ، طلبه محتسب محمد على وقاده أعوانه الى حى الجمالية ، وشنقه على السبيل المجـاور لحارة المبيضة وذلك فى سادس ساعة من الليل وقت السحور ، وتركوه معلقا يوما كاملا ، ثم اذن لأهله فأخذوه ودفنوه عليه رحمة الله .

عنه « ولم يؤخذ فى هذه بجرم فعله يوجب شنقه بل قتل مظلوما لحقد سابق وزجرا لغيره » (٩٤) وذلك بعد أن ظل مضطهدا منذ أن تولى محمد على حكم البلاد (٩٥) .

وخشى من جانب الريف أن يدين أبناؤه لصاحب جاه أو صاحب « عزوة » من أهله ، وبخاصة بعد التحالف بين بعض أبناء الريف وبعض خصومه الذين هجروا العاصمة فرارا من القتل والغيلة ، ولم ينس محمد على أن قبائل الأطراف ربما استقلت بالحكم زمنا وامتنعت عن أداء الخراج لولاة الأمر فى القاهرة ، كلما اتهمتهم بالمروق من سلطان الدولة أو الجور على حقوق الرعيه ، فلم يكفه أن يجرد أصحاب الجاه من قدرتهم على العصيان والانشقاق ، بل حرص على تجريدهم جميعا من كل جاه لا يستمدونه منه ولا يرجعون به اليه (٩٦) .

كما قضى على نفوذ الأسر الكبيرة بالأقاليم ، أمثال أسرة همام الهوارى بالصعيد (٩٧) فقد شردهم ابنه ابراهيم باشا ، وصادر أملاكهم ، كما قضى أيضا على نفوذ أسرة الشواربى بالمنوفية .

وبذلك حل محمد على كل هذه التجمعات الوطنية وأحل محلها قوة دولته . وبذلك حرم نظام الحكم الجديد الأفراد من الحماية التى كانوا يستشعرون بها فى ظل مؤسساتهم وطوائفهم ، وسلب المصريين شيئا ثمينا جدا هو القدرة على التجمع فى ظل هذه المؤسسات والطوائف

---

(٩٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ صص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٩٥) انظر حديث الجبرتى عن اضطهاد محمد على لحجاج الخضرى ج ٣ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٧٣ .

(٩٦) عباس العقاد ، محمد عبده ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١ .

(٩٧) انظر ما ذكره الجبرتى عن مصيرهم ونهايتهم ج ٤ صص ١٩٧ — ١٩٨ من المصدر السابق .

لمقاومة مظالم الحاكمين ، وبذلك أضحى المصريون أمام النظام بالحاكم الا عن طريق مؤسساتهم وطوائفهم (٩٨) .

والذى يقرأ كتاب الجبرتى فى السنوات التى عاشها من حكم محمد على يدرك كيف كان المجتمع القاهرى أشد المجتمعات فى مصر تأثرا بهذا التحول الذى يراه بعض المؤرخين أنه كان أهم عامل فى تعطيل نمو الحياة الدستورية الحقيقية فى مصر فى أصولها الشعبية (٩٩) .

وأصبح الفرد لا حول له ولا قوة ازاء سلطان الدولة الطاغى فلا يجد سبيلا ازاءها الا أن يتهافت عليها ويلوذ بأعتابها أو يدور حولها بمكر بها ، ويسعى لاستغلالها ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وعلى هذا النحو جرت علاقة الدولة بالفرد فى مصر دهرا طويلا ، ولا زالت رواسبها باقية فى مجتمعنا حتى الوقت الحاضر .

ونختتم هذا العرض الموجز عن سياسة محمد على فى قهر الشعب المصرى ، بما قاله الأستاذ الامام محمد عبده عن الخسائر التى أصابت مصر فى عصر محمد على ، يقول الأستاذ الامام :

« ما الذى صنعه محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى ، ولكنه استطاع أن يميت ... كانت معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة ، بمقتضى الفطرة — فأخذ يستعين بالجيش ، وبمن يستميله من الأحزاب على اعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا ، وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ... وهكذا حتى اذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير (أنا) ، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا

---

(٩٨) د. احمد عزت عبد الكريم « حركة التحول فى بناء المجتمع القاهرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر » مجلة المجلة ، عدد مايو ١٩٦٩ .

(٩٩) المرجع السابق .

لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر منه مرارا حتى فسد بأس الأهالى ، وزالت ملكة الشجاعة منهم ، فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه (١٠٠) .

ثم ذكر عنه أنه استعان بالأجانب من الأوربيين فأوسع لهم فى المجاملة ، وزاد لهم فى الامتياز ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك فى بلادنا ، يفعل ما يشاء ولا يسأ عما يفعل !! وصغرت نفوس الأهالى بين أيدى الأجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الأجنبى بحقوق الوطنى التى حرم منها ، وانقلب الوطنى غريبا فى داره فاجتمع على البلاد ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل سامهم الأجنبى اياه .

أخذ ما كان للمساجد من الرزق ، وأبدلها بشىء من النقد يسمى (فائض رزنامة) لا يساوى جزءا من الألف من ايرادها ، وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة ، وقرر له بذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة .

وأخذ يستميل بعض العلماء بالخلع واجلاسهم على موائده ، وينفى من يريد منهم اذا أقتضت الحال ذلك ، أما أفاضل العلماء فقد كانوا عليه فى سخط ماتوا عليه .

ولا أظن أن أحدا يرتاب بعد هذا العرض أن محمد على كان تاجر؟

---

(١٠٠) من مقال للاستاذ الامام فى مجلة المنار عدد ٧ يونيو ١٩٠٢ (١٣٢٠هـ) عن الخسائر التى اصابت الشعب المصرى فى عصر محمد على ، كانت الأسرة الحاكمة وقتها ومن حولها جماعات المنتفعين يقيمون الاحتفالات فى كل مكان بمناسبة مرور مائة عام على قيام أسرة محمد على وحكمها لمصر ، ووسط هذه الاحتفالات صدع الامام بكلمة الحق فى هذا المقال . وانظر ايضا تاريخ الامام ، جـ ٢ ، ص ٣٨٢ — ٣٨٩ .

زارعا ، وجنديا باسلاً ، ومستبدا باهرا ، ولكنه كان لمصر قاهرا ولحياتها الحقيقية معدما [١٠١] .

الا أن الحاكم المستبد قد يستطيع أن يستأصل الغروس النامية ، ولكنه لا يستطيع — مهما بلغ من طغيانه وجرصه — أن يستأصل الجذور الكامنة فى أعماق أرضـها ولا البذور المدفونة فى انتظار ريح يسرى اليهـا ، أو سـحابة تهطل عليها ، وتتركها لما قسـم لها من الحياة فى تربتها [١٠٢] .

---

(١٠١) المرجعين السابقين ، نفس المقال .
(١٠٢) عباس العقاد ، محمد عبده ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١ .

الفصل العاشر

دور الأزهر فى الحياة العلمية

نظام الدراسة بالأزهر وأثره فى الحياة العلمية :

حرية الدراســـة :

اطمأن المصريون الى التعليم الذى يلقى فى رحاب الأزهر وحول أعمدته ، وذلك لما اتسمت به نظم الدراسة من طابع الحرية العلمية التى لا حدود لها ، فالأساتذه يعقدون حلقاتهم العلمية حول أعمدة المســـجد حيث يجلس الأستاذ امام العمود مستقبلا القبلة، والطلبة ويطلق عليهم المجاورون [١] حوله على هيئة حلقة ، فاذا كثر عدد المجاورين جلس على كرسى من خشب أو جريد وهم أمامه بلا تحلق ، ثم يقرأ الدرس عليهم ، ويستفسر المجاورون من أستاذهم عما صعب عليهم فهمه وبعد ختم الدرس يقومون بتقبيل يديه اجلالا حتى ولو كان المجاورون كبارا فى السن •

وليس على الأستاذ أن يلاحظ حال الطالب من اجتهاد أو تكاســـل أو حضور أو غيبة ، بل هو موكول لنفسه ، وليس هناك امتحان شهرى ولا سنوى ، ومن له اجتهاد شخصى من نفسه أو وليه يلتفت الى حفظ المتون أو بعضها فينجح فى دراسته لأن «من حفظ المتون حاز الفنون» [٢] •

وكان كثير من الطلبة يطالعون قبل حضورهم الدرس ما قد يصل الى يدهم أو يقع تحت بصرهم مما يمت الى درسهم بصلة ، وكانت العادة أيضا أن أنجب الطلاب أو المعيد منهم يطالع لباقيهم درس شيخهم حتى يأتوا الى الشيخ وهم مستعدون لما سيلقيه عليهم •

ولم تكن الدراسة طبقا لخطة محدودة أو منهج موضوع ، بل كانت

---

(١) جاءت التسمية من عبارة جاور بالأزهر .
(٢) على مبارك ــ الخطط التوفيقية ــ مرجع سبق ذكره جـ ٤ ص ٢٦

دراسة كتب لمدة دراسية غير محددة ، وكان الاعتماد كله على المدرس لا على المنهج أو طريقة البحث (٣) .

ولقد كان لهذه الحرية المطلقة التى تمتع بها الأزهريون فى دراستهم أثر بالغ فى تكوين علمائهم الأفذاذ ، ولا شك أن هذه الحرية تظهر النفوس القوية والشخصيات الكامنة (٤) .

وكان التعليم بالأزهر حتى عصر محمد على ، على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : يبدأ الطالب فيهـا بحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة وقد يدرس الى جانب ذلك شيئا من حساب المقاييس والموازين فاذا انتهى الناشىء من ذلك انتقل الى مرحلة تالية ، وغالبا ما يتلقى الناشىء هذه الدراسة الأولية فى مسـجد أو كتاب قريته أو حيه ، وقـد تكون بالأزهر .

المرحلة الثانية : وفيها يظل الطالب تحت اشراف أسـتاذه الذى يعطيه دروسا فى القراءة والكتابة ، وموضوعات انشائية سهلة يتدرج فيها من السهولة الى الصعوبة متمشيا فى ذلك مع النمو العقلى للتلميذ ، ويكون التلميذ فى هذه السن على أبواب دور المراهقة ، وقد اسـتفاد من هذه البرامج تحصيله للقرآن الكريم ، فيستغل ما حفظه فى تعمير حياته الروحية ، وتكون قواه العقلية قد نشطت بوجه عام ، ويكون لسانه قد تقوم واكتسب اللهجة العربية الفصحى .

وأظهر مايبـدو فى هذا الأسلوب التعليمى أنه لا يبـدأ بتعليم القواعد والتعـاريف والـكليات فى اللغـة الا بعد أن يكون الطالب قد تذوق هذه اللغة بنفسه ، وتكونت فى عقله ملكة وذوق (٥) .

---

(٣) أحمد عزت عبد الكريم — تاريخ التعليم فى عصر محمد على — مرجع سبق ذكره — ص ١١ .

(٤) المرجع السابق — ص ١٢ .

(٥) محمد عبد المنعم خفاجه — مرجع سبق ذكره — صص ٨٧ — ٨٨ .

المرحلة الثالثة : وفيها يدرس الطالب علوم الدين من فقه وحديث وتفسير وتوحيد وأخلاق وما اليها ، كما يدرس علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وغير ذلك من علوم العربية .

وفى بعض الأحوال كان فريق من الطلاب يدرسون علوم الطبيعة والرياضة والهندسة والطب والفلك ، وكان علم الطب يطالعه الطلاب بالأزهر حتى عصر محمد على [٦] ، وقد كانت لعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ هواية بدراسته ، فقد كتب ملخصا لتذكرة داود الأنطاكى فى الطب مازالت محفوظة فى مكتبة الأزهر حتى الآن [٧] .

ولما كان طابع الدراسة بالأزهر هو الحرية العلمية كما رأينا ، فقد كان لذلك أثره فى الحياة العلمية حيث توفر الطلاب على تحصيل علوم الشريعة الاسلامية وعلوم اللغة العربية ، لأنها تمكنهم من أن يحتلوا مناصب مرموقة فى المجتمع المصرى كمناصب القضاء وأستاذية العلم والتدريس بالأزهر ، ومناصب الافتاء والخطابة والامامة ومأذونية القضاء الشرعى وغير ذلك من المناصب التى كان يتقلدها الأزهريون فى ذلك المجتمع الدينى .

ولم يكن هناك ما يلزم طلبة العلم بالاتجاه الى العلوم الطبيعية والرياضية والطبية وغيرها من العلوم العقلية ، فأهمل الطلاب دراستها

---

(٦) انظر ترجمة الوزير يوسف باشا أمير الشام فى « عجائب الآثار » للجبرتى ، فقد ذكر عنه انه عندما حضر الى مصر قبل وفاته سنة ١٢٣١ هـ كان مريضا بصدره وكان « يطالع فى كتب الطب مع بعض الطلبة المجاورين فلم ينجح فيه علاج » (ج ٤ ص ٢٨٧) .

(٧) تسمى « مختصر تذكرة داود فى الطب » مازالت مخطوطة ، وهى نسخة فى مجلد بقلم معتاد — بخط أحمد السمانودى كتبها سنة ١٢٢٩ هـ فى ٢٢٩ ورقة مسطرتها ٢١ سطرا تحت رقم ١٧٦٤١ طب (انظر أبو الوفا المراغى — المعجم الأصغر لتراجم ومؤلفات علماء الأزهر ج ٢ ص ١٦٦ رقم ٥٤١ — مخطوطة بمكتبة الأزهر) .

الا من وجدت لديه الرغبة الشخصية والدافع الذاتى لدراستها من أمثال الشيخ أحمد الدمنهورى ، والشيخ حســن العطار وغيرهم ممن تاقت نفوسهم الى دراسة هذه العلوم •

العلوم التى كانت تدرس بالأزهر :

كان التدريس بالأزهر ابان العصر الفاطمى يجرى على مذهب الشيعة وأول كتاب درس بالجامع الأزهر هو كتاب « الاقتصار » الذى وضعه أبو حنيفة النعمان ابن محمد القيروانى قاضى المعز لدين الله فى فقه الشيعة ، وكانت تدرس بجانب « الاقتصار » كتب أخرى فى فقه الشيعة للنعمان القيروانى وغيره ، مثل كتاب الوزير يعقوب بن كلس فى الفقه الشيعى يتضمن ما سمعه الوزير من المعز لدين الله والمعروف بالرسالة الوزيرية ، وفى أواخر الدولة الفاطمية كادت تكون الدراسة حرة ، ولكن لم نعرف بالضبط أسماء الكتب التى كانت تدرس وقتذاك •

وبعد قيام الدولة الأيوبية أصبح الأزهر جامعة حرة تدرس فيها المذاهب الأربعة ، والعلوم العقلية الى جانب العلوم الدينية بصـــورة منتظمة ، وأصبحنا نرى بين أساتذة الأزهر فى هذه الفترة أمثال العلامة عبد اللطيف البغدادى الذى درس الطب والفلسفة والمنطق بالأزهر ، وموسى بن ميمون الذى درس الطب والرياضة والفلك فى عهد صلاح الدين (٨) •

غير أن صفة الأزهر الدينية كانت وما زالت تغلب على كل صــفة أخرى ، وأن علوم الدين كانت وما زالت خلال عصوره تحتل المقام الأول وهذه خاصة لم ينفرد بها الأزهر فى العصور الوسطى ، ذلك أن الحركة العقلية كانت خلال هذه العصور ترتبط فى جميع الأمم بالدين أشـــد الارتباط ، وكانت الأديرة فى أوربا مراكز للدراسة والأحبار هم قادة

---

(٨) د . احمد شلبى وزميله — مرجع سبق ذكره ص ص ٢١٦ — ٢١٧ .

الفكر ، وأخذت سيطرة الدين تضعف شيئا فشيئا عندما تسربت النظريات الفلسفية الى تعاليم الكنيسة ، ولم تلبث الجامعات الأوربية أن نشأت منذ القرن الثانى عشر مستقلة عن الكنيسة واشتد ساعدها وحققت نجاحا كبيرا فى مجال العلوم العقلية (٩) .

وفى العهد المملوكى ارتقى الأزهر وأصبح جامعة الاسلام الكبرى وخاصة بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ على يد المغول الذين دمروا حضارتها وبدأ تقهقر المسلمين فى الأندلس ، وأصبحت القاهرة موئل العلماء من الشرق والغرب وأضحى الأزهر محط رحالهم ، وأمده سلاطين المماليك بالتأييد ، فسجل العلماء المصريون والوافدون أزهى عصوره ، وظهرت مجموعة من العلماء الأفذاذ الذين قادوا الفكر فى مختلف فروق المعرفة الانسانية (١٠) .

وفى العصر العثمانى تغير وضع مصر السياسى فأصبحت ولاية عثمانية بعد ان كانت دولة مستقلة تامة السيادة واقتصرت همة علماء الأزهر ابان العصر العثمانى على شرح كتب القدامى وكتابة الحواشى على هذه الشروح . ومن الكتب التى كانت تدرس فى الأزهر ابان العصر العثمانى حتى بداية عصر محمد على كما ذكر الجبرتى :

فى علوم اللغة العربية :

كتاب الأجرومية فى النحو لمحمد بن داود الصنهاجى (٧٢٣ هـ) وأهم الشروح التى وضعت لهذا الكتاب شرح حسن الكفراوى (١٢٠٢هـ)

---

(٩) انظر د. سعيد عبد الفتاح عاشور — الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٩ الطبعة الأولى — الجامعات والكنيسة صص ١٩٤ — ٢٠٦ وانظر محمد خفاجة — مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ١١١ .

(١٠) انظر أسماء ومؤلفات هؤلاء الاعلام فى الفصل الأول من هذه الرسالة .

وحاشية العطار على شرح الشيخ خالد الأزهرى ، وكانت كتب بن هشام (٧٦١هـ) تأخذ شهرة واسعة فى ذلك العصر وهى : « قطر الندى » و « شذور الذهب » و « مغنى اللبيب » مع شروحها ، وكذلك ألفية ابن مالك (٦٧٢هـ) مع شروح بن عقيل والأشمونى مع حاشية الصبان المتوفى عام ١٢٠٦ هـ ورســـالة فى المعانى والبيان لأحمد الدردير وكان أكثر المعاجم القديمة استعمالا هو القاموس للفيروزأبادى وتاج العروس فى شرح القاموس لمرتضى الزبيدى (١٢٠٥هـ) .

فى علوم الدين :

« أقرب المسالك لمذهب الامام مالك » للشيخ الدردير (١٢٠١هـ) فى الفقه المالكى ، ومنهاج الطالبين « للنووى فى الفقه الشافعى ، وكتاب « الاقناع » للخطيب الشربينى ، « ومختصر أبى شجاع » فى فقــه الشافعية وغير ذلك من كتب الفقه .

وشرح احياء علوم الدين للزبيدى ، والكوكب المنير فى شرح الجامع الصغير وفى الحديث الصغير للســـيوطى وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، وفى التفسير حاشية سليمان الجمل على تفسير الجلالين . وفى التوحيد شرح الجوهرة ، وشرح السنوسية الكبرى والصغرى والجوهرة لابراهيم اللقانى .

ويلاحظ أن غالبية تلك الكتب شروح تعليمية بحته تصور الاسهاب المجرد من الابتكار وتثقل كاهل الدارسين بجدل سفسطائى عقيم ، وقد ابتعد علماء ذلك العصر عن أمهات الكتب القديمة التى توجد فيها أصول الفكر الاسلامى وعناصر الابتكار [11] .

فى العلوم الوضعية :

« رسالة عين الحياة فى استنباط المياه » فى الجولوجيا « القول

---

(١١) دائرة المعارف الاســـلامية — مادة الأزهر — المجلد الثالث — ص ١٩٦ . وانظر أيضا للمؤلف « تاريخ الاصلاح فى الأزهر فى العصر الحديث »

الصريح فى علم التشريح » فى الطب ، « وعقد الفرائد فيما للمثلث من فوائد » فى الهندسة ، « والدرة اليتيمة فى الصبغة الكريمة » فى الكيمياء ، « واحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد » فى الرياضيات ، وكلها للشيخ أحمد الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٢ هـ « والدر الثمين فى علم الموازين » للشيخ حسن الجبرتى .

ولقد جرت العادة لكثير من الباحثين أن يصفوا علماء الأزهر فى نهاية العصر العثمانى بأنهم كانوا غارقين فى الروحانيات وعلوم الشريعة ، ولا يعلمون شيئا عن العلوم الوضعية ، ولا يقبلون تدريسها بالأزهر ، بل ذهب البعض الى القول بأن علماء الأزهر أفتوا بتحريم دراستها ونسبوا الكفر لمن يطالعها ويعنى بها (١٢) .

وهذا القول بعيد عن الصواب لأن طبيعة الدين الاسلامى تحتم دراسة العلوم ، فعلم المواريث يحتم دراسة الحساب ويقود الى الجبر والزكاة وضبط الكيل والميزان يفتح الباب لدراسة الأثقال والحجوم والروافع وخواص المواد التى تصنع منها ، ومراقبة الهلال لمعرفة أوائل الشهور ودراسة حركة الشمس والظل لتحديد مواقيت الصلاة ، والعدة وتحرير القبلة كلها تحتم الاهتمام بدراسة الفلك وتقسيم الزمن ، وتفتح الباب لدراسات عن الضوء والهندسة والجغرافيا وتقود الى اكتشاف البصلة (١٣) . أو كما قال الوزير التركى فى تأكيد أهمية العلوم الوضعية فى حديث له مع علماء الأزهر : « وعلم الوقت من العلوم الشرعية بل هو من شرط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصلاة والأهلة » (١٤) .

ولا جدال فى أن الفترة التى سبقت الحملة الفرنسية كانت مرحلة

---

(١٢) د. أحمد شلبى وزميله ، مرجع سبق ذكره ص ٢٢٤ .
(١٣) محمد جلال كشك — مرجع سبق ذكره — ص ٨٧ .
(١٤) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ١ ص ١٩٣ .

وصل فيها تخلفنا الثقافى الى أبشع صوره ، ومع ذلك فتاريخ الجبرتى حافل بالمعلومات عن نوعية اهتمامات الشيوخ فى هذه الفترة ، مما ينفى تماما الصورة الشائعة عن العصر .

واذا تأملنا نوعية العلوم التى ألف فيها الشيخ أحمد الدمنهورى (١٥) شيخ الجامع الأزهر تغير هذا الفهم . فالشيخ الدمنهورى ألف فى كثير من العلوم والفنون ومن أهم مؤلفاته التى تعرفنا عليها فى مجال العلوم الوضعية :

١ — رسالة عين الحياة فى استنباط المياه — فى الجيولوجيا .

٢ — القول الصريح فى علم التشريح . فى الطب .

وغير ذلك من العلوم التى سبق أن أشرنا اليها له فى الهندسة والكيمياء والرياضة وقد زاره الجبرتى المؤرخ قبل وفاته بسنتين فتذكر والده حسن الجبرتى الذى كان له علم بالعلوم الوضعية ، وبكى لذهاب اخوانه من هذا الصنف من العلماء العالمين بهذه العلوم (١٦) .

ويحدثنا الجبرتى عن عالم آخر كان معاصر للدمنهورى هو يوسف أفندى ابن أحمد المتوفى سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨م) فيذكر عنه أنه كان له تعلق بالرياضيات ، وقرأ على الشيخ حسن الجبرتى والده شيئا منها « واقتنى آلات فلكية نفيسة بيعت فى تركته » (١٧) .

وذكر الجبرتى عن والده الشيخ حسن الجبرتى أنه : « درس أشكال التأسيس فى الهندسة .. والمتوسطات والمبادىء والغايات .. ،

---

(١٥) ولد الشيخ الدمنهورى سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٩م) بمدينة دمنهور عاصمة البحيرة ومات سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨م) أى انه عاش قرابة قرن وهو القرن السابق على قرن الغزو الفرنسى وتلقى العلم بالأزهر — (انظر ترجمة الدمنهورى فى « عجائب الآثار » ج ٢ صص ٢٦ — ٢٨) .

(١٦) المصدر السابق — ج ٤ ص ٢٨ .

(١٧) المصدر السابق — ج ٢ ص ٣٥ .

والجغرافيا ، وعلم المساحة » ودرس على الشيخ عيد النمرسى علم الجبر والمقابلة والعروض وأعمال المناسـخات والكسـورات والاعداد الصم والغربال والمساحة والحساب وذكر عنه أنه كان « فريدا فى صـناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والأدهان » .

ويخبرنا عن حضور بعض طلبة الافرنج من الأوربيين الى القاهرة حيث اتصلوا بوالده ودرسوا وتبادلوا معه المعلومات والآلات العلمية بل ويعتقد الجبرتى أن هذه المعلومات التى تلقاها طلبة الافرنج عن والده كانت الأساس فى الانجازات التكنولوجية التى تحققت فى أوربا فيقول :

« وحضر اليه طلاب من الافرنج وقرأوا عليه علم الهندسة وذلك سنة تسـع وخمسين (١١٥٩ هـ — ١٧٤٦م) وأهدوا اليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسه وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك من ذلك الوقت، وأخرجوه من القوة الى الفعل ، واستخرجوا به من الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال ، واستنباط المياه وغير ذلك » (١٨) .

ومن ذلك نرى أن الجبرتى كـان على علم بدور أمته فى التقـدم الحضارى الغربى ولذلك لم يكن غريبا عليه عندما ذهب الى دار حسـن كاشف ورأى صنائع الفرنسيين فى المجمع العلمى الفرنسى ، فقد نشأ فى جو علمى فى رحاب والده حسن الجبرتى .

ويذكر الجبرتى أنه فى سـنة ١١٧٢هـ (١٨٥٩م) وقع خلل فى الموازين ، حتى جهل الناس وضعها ورسمها الأصـلى ، وظهر الخطـأ مما ترتب عليه اختلاف مقادير الموزونات وضياع الحقوق ، وتحركت همة الشيخ حسن الجبرتى اصلاح هذا الخلل ، فأحضر الصناع لذلك وحرر الموازين على أصل العلم العلمى والوضع الهندسى الصحيح ، وصـرف على ذلك أموالا كثيرة من ماله الخاص ، ثم أحضر كبار القبانين والوزانين

---

(١٨) المصدر السابق — جـ ١ ص ص ٣٨٩ — ٤١٢ .

وبين لهم الخطأ وأرشدهم الى طريق الصواب ، « حتى تحررت الموازين وانضبط أمرها وانصلح شأنها وسرت فى الناس العدالة الشرعية » (١٩) وهذا هو السبب الذى حمل الشيخ حسن الجبرتى على تصنيف كتابه المسمى « الدر الثمين فى علم الموازين » وهذا هو ثمرة العلم ونتيجة المعرفة .

ولهذا قال بعض الباحثين : « هل يختلف تاريخ الجبرتى الوالد عن تاريخ أى عالم من علماء عصر النهضة فى أوربا ؟ لولا أن تاريخهم كأمم سار الى الأمام فازداد تألق الأفراد والرواد .. فما يحيى ذكرى الأسلاف الا نجابة الأحفاد ، وتاريخنا كأمة تدهور الى الحضيض فمحت ظلاماته المعاصرة حتى نجوم الفجر الذى لم يكتمل » ثم يقول : « لولا أن علماء أوربا وجدوا نظاما ومؤسسات اجتماعية شجعتهم واحتضنت أبحاثهم . ووالد الجبرتى وأمثاله ، بددت أعمالهم سلطة سفيهه منهارة » (٢٠) .

ومن بقايا البقايا الشيخ ابراهيم بن محمد الزمزمى المتوفى سنة ١١٩٥ هـ (١٧٨١م) الذى لازم والد الجبرتى ، وأخذ عنه علم الفلك وغيره من العلوم الوضعية ، وكان عنده زيج الراصد السمرقندى نسخة بخط العجم غاية فى الدقة والاتقان ، قال الجبرتى عنها : « كنت كثيرا ما أسمع من المرحوم الوالد ذكرها ومدحها ويقول : ليس فى الدنيا : الا نسختى ونسخة الشيخ ابراهيم الزمزمى ونسخة حسن أفندى قطه مسكين ولا يعتمد على غيرهم فى الصحة لأنهم كتبوا وصححوا فى عهد الراصد » (٢١) .

وظلت هـذه البقايا حتى بداية عصر محمد على ، فقد ذكر الجبرتى فى ترجمته للوزير يوسف باشا أمير الشام (١٢٣١ هـ) ، أنه عندما حضر الى مصر قبل وفاته كان مريضا بصدره وأنه كثيرا ما يتردد

---

(١٩) المصدر السابق ج ١ ص ٤٠٣ .
(٢٠) محمد جلال كشك — مرجع سبق ذكره — ص ٩٥ .
(٢١) عجائب الآثار — ج ٢ صص ٧٣ — ٧٤ .

على الأزهر « يطالع فى كتب الطب مع بعض الطلبه المجاورين فلم ينجع فيه علاج » (٢٢) .

واذا كانت هذه الروافد قد جفت فليس ذلك راجعا الى طبيعة الدين الاسلامى ، فالاسلام كما ذكرنا يدعو الى دراسة هذه العلوم ، ولعل العزلة التى فرضها الأتراك على كثير من حواضر العالم الاسلامى وانقطاع الصلة بينها وبين بقية العالم ، كانت سببا رئيسيا لتخلف علماء الأزهر وجمودهم .

حتى اذا هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر تبين لعلماء الأزهـــر الهوة السحيقة التى ترددوا فيها ، وأدركوا بعد الشقة بينهم وبين الغرب المسيحى ، ولهذا وجدنا بينهم من نادى بعودة هذه العلوم الى الأزهر . أمثال : عبد الرحمن الجبرتى واسماعيل الخشاب وحسن العطار ، ومن بعدهم رفاعة الطهطاوى تلميذ العطار .

الاجازات العلمية :

بعد أن ينتهى الطالب الأزهرى من تحصيل علوم عصره يكون أمامه أحد طريقين : أما أن يؤثر أن يمارس مهنة التدريس بالأزهر ، وأما أن يعود الى قريته .

فالشخص الذى يختار مهنة التدريس بالأزهر يؤدى امتحانا عمليا فيستأذن أستاذه من باب الأدب والبركة ، ويجلس فى المكان الخالى ليلقى دروسه على الطلاب ، ويحضر درسه الأول جمع غفير من الطلاب وبعض المشايخ ، ويسأله الحاضرون فى كثير من القضايا العلمية ، فاذا تلعثم فى اجابة سائل ربما أقاموه ومنعوه من التدريس ، واذا عاند ربما ضربوه (٢٣) ، واذا وفق فى الاجابة على أسئلتهم فانه يستطيع أن يستمر

(٢٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٨٧ .
(٢٣) على مبارك — الخطط التوفيقية — ج ٤ ص ٢٦ .

فى عمله ويواصل التدريس ، ولا حرج عليه بعد ذلك أن يزل أو يهفو مادام قد اجتاز العاصفة الشـــديدة التى تهب ضد المدرسين فى أول عهدهم بهذا العمل • وكانت هذه الجلسة الأولى للمدرس المبتدىء بالأزهر تعد امتحانا واجازة بالتدريس ، وهذا مظهر خاص بالأزهر وغيره من المدارس والمعاهد الاسلامية ، أن تكون الاجازة منحة من التلاميذ للأستاذ أو شهادة منهم اليه (٢٤) •

أما الشخص الذى يؤثر أن يؤب الى بلدته فيمنح اجازة من شيوخه بالتدريس والفتوى ، فيها الوصية بتقوى الله ، فلم يكن بالريف طلاب يستطيعون أن يختبروا المدرس الجديد لاثبات كفاءته فكان لابد للدارس العائد من الأزهر أن يحصل على اجازة من شـــيوخه تشهد له بمقدرته العلمية ، وكانت الاجازة مطلقة أحيانا فيقول الأساتذة فيها : « قـــد أجزناه بجميع مروياتنا من معقول ومنقول وفروع وأصول وجميع ما أجازنا به مشايخنا سماعا واجازة » (٣٥) •

والغالب أن تكون الاجازة مقيدة فيذكر الشيخ أن هذا الطالب تابع حلقته فى كتاب كذا من علم كذا ، وأنه أجازه فيه ، ويأذن له فى تدريسه سواء أكان الكتاب من تأليف المدرس أو من تأليف غيره ، وقد تكون الاجازة أوسع مدى فيعترف الأستاذ فيها لتلميذه بالتبحر فى مذهب ما من مذاهب الفقه الأربعة ، ويأذن له بتدريس كتب هذا المذهب والفتيا فيه ، ولم تكن

---

(٢٤) د. احمد شلبى وزميله — مرجع سبق ذكره صص ٣٠٢ — ٣٠٣ •

(٢٥) من اجازة منحت لجدى الشيخ محمد رمضان الشافعى الدمياطى فى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢م) من مشايخه : ابراهيم الظواهرى ومحمد عبد الفتاح ومصطفى عز الشافعى واســـماعيل الحامدى المالكى وأحمد الرفاعى المالكى ، وكان بعضهم من أعضاء أول لجنة تكونت لامتحان العلماء بالأزهر فى عام ١٨٧٢م فى عصر الخديو اسماعيل (الرافعى — عصر اسماعيل — جـ ١ ص ٢٠٣) •

هذه الاجازة مقصورة على من يذهبون بعيدا عن الأزهر ، وانما حصل عليها أيضا الطلاب الذين أرادوا ممارسة التعليم بالأزهر [٢٦] .

وقد استمر هذا النوع من الاجازات لمدة قرون معمولا به فى الأزهر حتى صدر أول قانون لتنظيم الأزهر سنة ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ) [٢٧] فأصبحت الاجازة تصدر عن الأزهر بعد أداء الامتحان فى مواد محدودة وتسمى الشهادة العالمية ومع صدور هذا القانون ظل نظام الاجازات السابق من الشيوخ لطلابهم معمولا به بجانب النظام الجديد حتى أوائل القرن العشرين تقريبا .

علماء العصر : ١٢١٣ — ١٢٢٦ هـ (١٧٩٨ — ١٨١١م) :

كان علماء الأزهر يمثلون الأرستقراطية الفكرية المصرية ، وكانت الأعوام القليلة التى احتل فيها الفرنسيون مصر أعوام كفاح ونضال كثيرا ما تعطلت فيها الدراسة بالأزهر ، وقاد شيوخ الأزهر الشعب لمقاومة الفرنسيين ، وانصرف كثير من العلماء الى مباشرة حياة النضال ، وهجروا دروس العلم الا قليلا .

ومن ثم انقسم علماء هذا العصر الى فريقين : فريق شارك فى الحياة المصرية العامة ، يقودون الانتفاضات الشعبية ضد الظلم وجور الحكام ، وقد برزت هذه الفئة فى الحياة المصرية قبل عصر الحملة الفرنسية ، وسبق أن عرضنا فى الفصل الأول طرفا من نضالهم لمساندة المطالب الشعبية .

والفريق الآخر من علماء هذا العصر هم الشيوخ الذين تفرغوا للتدريس بالأزهر ورأوا أن الأولى بهم عدم مخالطة الحكام ، والمداومة على حلقات العلم .

---

(٢٦) انظر نماذج من هذه الاجازات فى كتاب وزارة الأوقاف « الأزهر تاريخه وتطوره » صص ٣٠٤ — ٣٠٥ . وفى كتاب تاريخ الاصلاح فى الأزهر للمؤلف .

(٢٧) الرافعى — عصر اسماعيل — جـ ١ صص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

وكان على رأس الجماعة الأولى الزعيم عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد محمد السادات شيخ السجادة الوفائية والشيخ محمد الأمير والشيخ سليمان الفيومى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد الدواخلى وغيرهم .

وقد أجاد هذا الفريق الاتصال بالحكام وقضاء حوائج الأهالى . وكانوا أقدر من غيرهم — من العلماء المنقطعين للعلم — على تنظيم الجماهير واعلان الاضراب العام ، وتنظيم المظاهرات الشعبية التى يجبرون بها الحكام على النزول الى مطالبهم وكانوا يعترفون أنهم ليسوا أعظم علماء الأزهر مكانة فى العلم ، وهذا ما قاله المتصدرون من المشايخ للوالى التركى « أحمد باشاكور » (المتولى على مصر سنة ١١٦١هـ) حين جاء الى القاهرة واتصل بشيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى وسأله عن معرفته بالعلوم الوضعية كالرياضيات فرد عليه الشيخ الشبراوى بقوله : « لسنا أعظم علمائها — أى مصر — بل نحن المتصدرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة وأهل الحكم فيها » (٢٨) ثم دله على عالم آخر من العلماء المنقطعين لدراسة العلم وهو الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ فوجد عنده بغيته .

وقد حاول علماء الصدارة هؤلاء التشبه بالأمراء فى الملبس (٢٩) والمسكن وسكنى الأحياء الراقية حول بركة الأزبكية ، وصاهروا الأمراء وبلغ بعضهم من النفوذ والهيبة شأنا لا بأس به ، كالشيخ محمد السادات الذى قال عنه الجبرتى : « كان يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء » (٣٠) .

وقام بعض علماء الأزهر بدور الوسيط بين المماليك والسلطات

---

(٢٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ١ ص ١٩٣ .

(٢٩) أن الذى يراجع مخلفات الزعيم عمر مكرم يدهشه ما بها من الملابس الفاخرة والأثاث الراقى .

(٣٠) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ٢٠٤ .

العثمانية فى القاهرة حين كانت تتدهور العلاقات بين الفريقين ، وحين كان المماليك يعتصمون فى أقاليم الصعيد ينظمون قواتهم للزحف على القاهرة ، واحداث انقلاب يطيح بالباشا العثمانى أو شيخ البلد الحاكم ، كما أن بعض علماء الأزهر كانت توفدهم القاهرة الى الآستانة لتسوية مسائل معلقة أو لشرح وجهات النظر لدى رجال الباب العالى .

وقد ظل نفوذ هذا الفريق من العلماء حتى قضى عليهم محمد عـلى كما سبق أن ذكرنا ، وقد انحصرت الصدارة فى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥م) فى الشيخ محمد الدواخلى والشيخ محمد العروسى وابن الشيخ الصاوى ومحمد الأمير الصغير بن الشيخ الأمير الكبير ، ويذكر الجبرتى أن علماء الصدارة فى ذلك الوقت كانوا كالآلة فى يد محمد على يصعدون اليه بالقلعة وقت ما يريد [٣١] .

وقد انخفض مستوى المتصدرين العلمى نظرا لانصرافهم الى الحياة العامة ، وهجرهم دروس العلم ، وفيما يلى تراجم لبعضهم نلقى فيهـا الضوء على وضعهم العام ومدى مشاركتهم فى الحياة العلمية .

١ — الشيخ عبد الله الشرقاوى .
٢ — الشيخ محمد السادات .
٣ — السيد / عمر مكرم .
٤ — الشيخ محمد الأمير .
٥ — الشيخ محمد المهدى .
٦ — الشيخ مصطفى الصاوى .
٧ — الشيخ سليمان الفيومى .
٨ — الشيخ محمد الدواخلى .
٩ — الشيخ عبد الفتاح بن الجوهرى .

---

(٣١) المصدر السابق — جـ ٤ ص ٢٤٠ .

الشيخ عبد الله الشرقاوى :

هو عبد الله بن حجازى المشهور بالشرقاوى ، أصله من بلدة الطويلة بشرقية بلبيس ولد بها سنة ١١٥٠ هـ وقدم الى الأزهر ودرس على علماء عصره ، وكان فى بداية حياته كما يقول الجبرتى : « فى قلة من خشونة العيش وضـيق المعيشـة فلا يطبخ فى داره الا نادرا وبعض معارفه يواسونه ويرسلون اليه الصحفة من الطعام » وظل الشرقاوى على هذه الحال الى أن عرفه الناس واتصل بأكابر عصره فراجت حالته الاقتصادية، ولبس الملابس الفاخرة التى تقتضيها حياة علماء الصدارة و « كبرتاجه » وبعد وفاة الشيخ أحمد العروسى سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣م) تولى مشيخة الأزهر ، وقاد ثورة ضد طغيان المماليك (فى ١٢٠٩هـ) الذين أسرفوا فى ظلم أهالى بلبيس ، وهى التى سبق لنا أن تحدثنا عنها فى الفصل الأول من هذه الرسـالة •

وفى عهد الحملة الفرنسية تولى رئاسة ديوان القاهرة فى أدواره الثلاثة فى عهود بونابرت وكليبر ومنو ، وكانت له مواقف مشرفة بالديوان سبق أن عرضناها •

ونأخذ من حديث الجبرتى عنه فى ترجمته وفى غيرها من كتابه أن الشيخ الشرقاوى كان محبا للمال لدرجة الطمع وكثيرا ما تشاحن مـع زملائه من العلماء على بعض الوظائف والنظارات ، وكان من أهم هـذه المشاحنات نزاع حدث بينه وبين الشيخ محمد الأمير فى بداية عصر محمد على بسبب نظارة أوقاف الجامع الأزهر وسبق أن أشرنا اليها فى الفصل الثامن من هذا البحث وتحزب العلماء بسببها الى حزبين : حزب مـع الشرقاوى وهم : محمد المهدى ومحمد الدواخلى ومحمد الشـبراوينى ومحمد الاسناوى الشهير بجاد المولى •

أما حزب الأمير فكان على رأسه : محمد السادات وعمر مكرم وبدوى الهيتمى ومصطفى الصاوى ومحمد الشنوانى •

وقد فاز الأمير لقوة أنصاره وتقرر له النظر على أوقاف الجــامع الأزهر غير أن هذه الخلافات المادية قد عمقت انقسام العلماء واستغلها محمد على كما سبق أن ذكرنا فى الاطاحة بهم • وتوفى الشرقاوى سنة ١٢٢٧هـ (١٨١٢م) •

وقد كتب الشيخ الشرقاوى رسالة فى تاريخ مصر سماها « تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والســلاطين » ومن هذه الرســالة نستطيع أن نعرف مستواه الذهنى ومدى فهمه للتاريخ ، كما نعرف أيضا قيمة ادراكه واحساسه أو رأيه فى أهل مصر •

أما رأيه فى أهل مصر وصفاتهم الغالبة ، فيقول فى ذلك :

« •• وان أهل مصر الغالب عليهم الأفراح ، واتباع الشــهوات ، والانهماك فى اللذات وتصــديق المحالات ، وفى أخلاقهم رقة وعندهم بشاشة ، وملقة ومكر وخداع ولا ينظرون فى عواقب الأمور ، وعندهم قلة الصبر فى الشدائد ، والقنوط من الفرج ، وشدة الخوف من السلطان ، ويخبرون بالأمور المستقبلة قبل أن تقع » (٣٢) •

وقد يكون هذا الذى سجله الشيخ ، بعضه أو كله من صفات أهل مصر الغالبة ولكنه ليس كل صفاتهم على التحقيق ، وليس صفة ملازمة لهم على الدوام فى كل الأزمان فهو لم يذكر لهم صفة حسنة طيبة ، فى مقابل هذه الصفات المعيبة (٣٣) •

وأما مستواه الذهنى ومدى فهمه للتاريخ فنستطيع أن ندركه فى غير موضـــع من هــذه الرسالة فقد أورد بها من الخرافات عن تاريخ الفراعنة مما لا تثبت أمام النقد التاريخى ، وقد ذكر الجبرتى رأيه فى

---

(٣٢) تحفة الناظرين على هامش فتوح الشام — مصدر سبق ذكره جـ ١ صص ١٩ — ٢٠ .

(٣٣) محمود الشرقاوى . مصر فى القرن الثامن عشر ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٥ ، الجزء الأول صص ٥٤ — ٥٥ .

هذه الرسالة حين قال فى ترجمته للشرقاوى : « وعمل تاريخا مختصرا فى نحو أربعة كراريس عند قدوم الوزير يوسف باشا الى مصر وخروج الفرنساوية منها وأهدواه اليه عدد فيه ملوك مصر ، وذكر فى آخره خروج الفرنسيس ودخول العثمانية ... وهو فى غاية البرود وغلط فيه غلطات » (٣٤) .

وقد ألف الشرقاوى كثيرا من الرسائل والكتب منها :

— التحفة السنية فى طبقات الشافعية — مخطوط فى تراجم الشافعية (٣٥)

— العقائد المشرقية — فى التوحيد — وتحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين « فى التاريخ » .

— شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى « مخطوط فى التصوف بمكتبة الأزهر .

— شرح على مقدمة محمد المعصراوى فى الأنكحة — فى الفقه الشافعى — مطبوع .

— فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى — فى الحديث — مطبوع .

— تقييدات على مسألة الأصول فى جمع الجوامع — فى الأصـول — مطبوع .

— فتح القدير الخبير بشرح تيسير التحرير — فى الفقه الشافعى — مطبوع .

— حاشية على شرح التحرير لزكريا الأنصارى — فى الفقه الشافعى — مطبوع .

— حاشية على شرح الهدهدى على السنوسية — فى التوحيد — مطبوع .

---

(٣٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٧٤ .
(٣٥) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٧٨ تاريخ ، ٢٤٣ ق .

— الجواهر السنية على العقائد المشرقية السنوسية — فى التوحيد — مخطوط بمكتبة الأزهر •

— ربيع الفؤاد فى آداب الطريق وترتيب الأوراد — فى التصوف — مطبوع •

— الفيض العرشى على الفتح القدسى — فى التصوف — مخطوط بمكتبة الأزهر •

— شرح على ورد الستار — فى التصوف — مخطوط بمكتبة الأزهر (٣٦) •

الشيخ محمد السادات :

الشيخ محمد السادات من بيت عز وشرف يتصل نسبه الى الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه (٣٧) • درس العلم بالجامع الأزهر على شيوخ عصره ، فجمع بين شرف النسب وشرف العلم ، وتولى خلافة السادات ومشيخة سجادتهم سنة ١١٨٢هـ على عهد على بك الكبير ، وكان السادات فى بداية عهده محبا للعلم مغرما بالمطالعة والمذاكرة فى المسائل الدينية والأدبية ، ومعاشرة الأدباء والفضلاء والمناقشة معهم فى النكات العلمية وأحب اقتناء الكتب من كل فن •

غير أن تصدره ومشاركته فى الحياة العامة بحكم منصبه الدينى الكبير ، قد أخذ وقته وكثرت مشاغله ، ولذلك أهمل دروس العلم • وكانت له مواقف مشرفة فى الدفاع عن الحق ، فمن ذلك موقفه عندما أوفدت

---

(٣٦) انظر مؤلفات عبد الله الشرقاوى فى الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ١٧٤ وانظر أيضا — أبو الوفا المراغى — المعجم الأصغر لتراجم ومؤلفات علماء الأزهر مخطوط بمكتبة الأزهر رقم ٨٠٠٦ خاص ، ٧٧١٣٠ عام أربعة أجزاء جـ ٢ ترجمة رقم ٤٦٩ صص ١٣٧ — ١٣٨ •

(٣٧) كما ذكر ذلك حسين أفندى الروزنامجى فى رسالته عن النظم العثمانية بمصر — انظر مجلة كلية الآداب عدد مايو ١٩٣٦ مرجع سبق ذكره ص ٢٤ •

الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلى سنة ١٢٠٠ هـ (١٧٨٦) الى مصر لمحاربة المماليك واستعادة سلطة الدولة المطلقة ، وأسرف حسن باشا فى القسوة والجبروت واستباح أموال المماليك وعزم على استرقاق أولادهم ، فتصدى له الشيخ السادات بشهامة نادرة واشتد فى مخاطبته قائلا له : « أأنت أتيت الى هذه البلدة وأرسلك السلطان الى اقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال حسن باشا : هؤلاء أرقاء لبيت المال فقال له هذا لا يجوز ولم يقل به أحد » فغضب حسن باشا وحنق على السادات ، بيد أن السادات أصر على معارضته وحمله على العدول عن قصده [٣٨] .

وابان حوادث الحملة الفرنسية تزعم ثورة القاهرة الأولى ، وكان من زعماء الثورة الثانية ، ووصفه المسيو فيلكس مانجان أنه كان يميل الى الهياج والشغب [٣٩] واضطهده الفرنسيون ، وفى عصر محمد على تولى نقابة الأشراف عقب الوقيعة بعمر مكرم كما سبق أن بينا ، ولم يترك مؤلفا علميا ومات سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣م) .

السيد عمر مكرم :

هو عمر مكرم بن سليمان مكرم بن على الأسيوطى الشهير بالتيتلاوى ، من أسرة شريفة من أسيوط ، رحل الى القاهرة فى مقتبل حياته لطلب العلم بالجامع الأزهر ، حيث قضى فى رحابه سنين عددا يتلقى العلم على أشياخ عصره ، واتصل بكبار علماء رواق الصعايدة عن قرب أمثال الشيخ على الصعيدى والشيخ أحمد العدوى الشهير بالدردير .

وكانت لرواق الصعايدة مكانة مرموقة بين أروقة الأزهر نظرا للعصبية القوية التى يتمتع بها أهل الرواق ، ونظرا لهذه المكانة التى تمتع بها رواق الصعايدة ، فقد كان المجاورون يعتبرون شيخه فى كثير

---

(٣٨) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ صص ١٩٨ — ٢١٠ .
(٣٩) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — ج ٢ ص ٢٦٥ .

من الأحيان شيخا على أهل مصر بأسرهم نظرا لنفوذه الكبير بين العلماء وأهل الأزهر وتلك المكانة كانت للشـيخ على الصعيدى المتوفى سـنة ١١٨٩هـ ، كما كانت من بعده للشيخ الدردير المتوفى سنة ١٢٠١هـ وعلى الرغم من أن الشـيخ أحمد البيلى العدوى تولى رئاسة مشيخة رواق الصعايدة بعد وفاة الدردير الا أن عمر مكرم فيما يبدو ورث هذه المكانة منذ أن تولى نقابة الأشراف سنة ١٢٠٨ هـ ، وقد اتخذ علماء الأزهـر مدفن عبد الرحمن كتخدا برواق الصعايدة مجلسا لهم يجتمعون فيه عند المشورة فى المهمات (٤٠) .

اذن فقد تأثر عمر مكرم بهذه البيئة الى حـد كبير فكونت معالم شخصيته وتلقن على أيدى مشايخ رواق الصعايدة كالصعيدى والدردير دروسـه الأولى فى الشجاعة فى مجابهة الحكام الظالمين ، والجرأة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويقـع عمر مكرم فى قمة قائمة العلماء الذين استنفدت الحيـاة العامة جهدهم وملأت عليهم تفكيرهم ، فقد شـارك فى حوادث عصره ، واتصل بأمراء المماليك فنال حظوة لدى مراد بك وابراهيم بك فى عهد استئثارهم بالسلطة فى مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقام بسفارة ناجحة للتوسط لدى والى مصر بالقاهرة للعفو عنهما فى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩١م) ولم تمض سنوات ذات عدد حتى كوفىء عمر مكرم من الأميرين ، فقد عيناه نقيبا للأشراف سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣م) عقب وفاة الشـيخ محمد البكرى (٤١) . وبدأ نجمه فى الصعود .

---

(٤٠) انظر : ترجمة على الصعيدى — الجبرتى — عجائب الآثار جـ ١ ص‌ص ٤٢٠ — ٤٢٢ . وانظر ترجمة الدردير — المصدر السابق — جـ ٢ ص‌ص ١٥٧ — ١٥٨ . وانظر أيضا على مبارك — الخطط — جـ ٤ ص‌ص ٢١ — ٢٢ .

(٤١) الجبرتى ، عجائب الآثار ، جـ ٢ ص ٢٠٦ ، ص ٢٦٧ .

وحين هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر ، ناهض الفرنسيين ورفض أن يكون من أعوان الاحتلال الفرنسى على الرغم من وسائل الاغراء التى استخدمها معه رجال الحملة • وكان عثمانيا فى نزعته ولا تثريب عليه فى نزعته العثمانية فالمجتمع الذى عاش فيه كان مجتمعا دينيا ، وكان الشعب المصرى لا ينظر الى سلطان الدولة العثمانية على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر أو مستغل ، بل كان ينظر اليه على أنه سلطان الاسلام أو سلطان المسلمين وأن الدولة العثمانية هى دولة الاسلام الكبرى تظل المسلمين بظلها الظليل (٤٢) •

ويصفه الرافعى بأنه « أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية ، وكان أكبر زعماء الشعب نفسا وأكثرهم شجاعة واقداما وأعظمهم نفوذا ، وأرفعهم كلمة ، فلا غرو أن نعده زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء » (٤٣) وقد سبق أن عرضنا كفاحه فى كثير من فصول هذه الرسالة •

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الموطن أننا لم نجد فى دفتر مخلفاته الذى عثرنا عليه فى سجلات دفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة شيئا من الكتب ، والذى يلفت النظر به ، كثرة مخلفاته من الملابس الفاخرة وغير ذلك من الأشياء التى استلزمتها حياة الزعيم ووجاهته بين رجاله عصره ، والجبرتى يقول فى هذا المعنى : « ان معظم الوجاهه والسيادة فى هذه الأزمان بالمساكن الأنيقة والملابس الفاخرة وكثرة الايراد والخدم والحشم خصوصا ان اقترن بذلك شىء من المزايا المتعدية من بذل الاحسان واكرام الضيفان فعند ذلك يصير ربه قطب الزمان وفريد العصر والأوان » (٤٤) ولا عجب فقد ترك عمر مكرم من الملابس الفاخرة ٢٩

---

(٤٢) د. عبد العزيز محمد الشناوى — عمر مكرم • مرجع سبق ذكره • ص ٣ •
(٤٣) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية ج ٢ ص ٢٥٩ •
(٤٤) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص ١٩٩ •

رداء ما بين جبة وقفطان وبنش أغلبها بالفراوى السمور الثمينة وعددا من شيلان الكشمير وغير ذلك من الأثاث الفاخر (٤٥) ، وكل هذه الأشياء كانت من مستلزمات الصدارة والسيادة التى تبوأها عمر مكرم ، وانصرف انصرافا كاملاً عن مطالعة العلم بالأزهر نظرا لانشغاله بالقضايا الشعبية (٤٦) .

الشيخ محمد الأمير :

هو الشيخ محمد بن محمد السنباوى الشهير بالأمير ، أصل أسرته من المغرب كانت لهم حصة التزام بناحية سنبو التى قطنوا بها حينا وولد المترجم سنة ١١٥٤ هـ ونسب اليها ، وارتحل مع أسرته الى القاهرة ، وطلب العلم بالأزهر وتتلمذ على شيوخ عصره كالصعيدى والدردير وحسن الجبرتى وأحمد الجوهرى وغيرهم .

والشيخ الأمير يعتبر من الشخصيات الأزهرية المتعددة الجوانب ، فقد كان يتمتع بنشاط وافر مكنه من أن يحتل مكانه فى مجتمع العلماء ابان هذه الفترة ، فنراه مع المتصدرين من العلماء الذين شاركوا فى حوادث عصرهم فى المدافعة عن الشعب ، وقام الشيخ الأمير بدور الوسيط لدى أمراء المماليك .

فيذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٠٥ هـ أن الشيخ الأمير سافر الى الآستانة فى سفارة للمماليك على اثر الخلاف الذى دب بينهم وبين الوالى اسماعيل باشا فقد عارضوا فى رحيل الباشا قبل أن يتم الحساب ويدفع ما عليه وسافر الشيخ الأمير ومعه مذكرة بهذا الموضوع الى الدولة » (٤٧) .

---

(٤٥) انظر مخلفات عمر مكرم (مسلسلة ٢٧٧ مادة ٢٠٩ ص١٢٦ من سجلات القسمة العسكرية — دفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة) .

(٤٦) انظر بقية ترجمة عمر مكرم فى الفصل الثامن من هذه الرسالة .

(٤٧) عجائب الآثار — جـ ٢ صص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

وحضر الشيخ الأمير الى مصر بعد أداء مهمته الرسمية فى ١٢ صفر ١٢٠٦ هـ ومعه خطابات الى الباشا والأمراء ، فركب المشايخ لاستقباله فى ميناء بولاق على النيل ، وقد أنعمت عليه الدولة بألف قرش نظير مهمته ، ورتبت له مرتبا يوميا يقبضه من الضربخانة المصرية فى كل يوم قرشا [٤٨] ، ونراه أيضا يشارك فى الحياة العلمية بنصيب وافر يؤهله أن يحتل مكانه أيضا مع العلماء المنقطعين للعلم حتى استحق ثناء الجبرتى فيه حين قال عنه أنه : « صاحب التحقيقات الرائقة والتأليفات الفائقة شيخ شيوخ أهل العلم وصدر صدور أهل الفهم المتفنن فى العلوم كلها نقليها وعقليها وأدبيها ، واليه انتهت الرياسة فى العلوم فى الديار المصرية ، وباهت مصر ما سواها بتحقيقاته البهية .. » [٤٩] .

ولهذا يعتبر الشيخ محمد الأمير من العلماء القلائل الذين تصدروا لالقاء الدروس فى حياة شيوخهم ، وذلك لتمكنه فى العلم وسعة اطلاعه ، حتى أنه ألف مختصرا فى فقه المالكية سماه « المجموع » فى حياة أستاذه الشيخ على الصعيدى العدوى ، وقد حاذى مختصر خليل ، وجمع فيه الراجح فى المذهب وشرحه شرحا نفيسا ، حتى آن شيخه العدوى كان اذا توقف فى دروسه فى مسألة من مسائل المذهب المالكى يقول : « هاتوا مختصر الأمير » وتلك منقبة شريفة للشيخ الأمير تشهد له بعلو قدمه فى العلم ، وهو ثالث ثلاثة شرحوا كتب الفقه المالكى بعد على الصعيدى وأحمد الدردير ، ولذلك « باهت به مصر ما سواها » كما يقول الجبرتى لكثرة تحقيقاته العلمية المفيدة على كثير من علوم عصره ، استنبط فيها « الفروع من الأصول واستخرج نفائس الدرر من بحور المعقول والمنقول » [٥٠] وقد أحصى له الشيخ أبو الوفا المراغى فى

---

(٤٨) المصدر السابق — ج ٢ ص‌ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٤٩) المصدر السابق — ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٥٠) المصدر السابق — ج ٤ ص ٣٠٤ .

كتابه : « المعجم الأصغر لتراجم ومؤلفات علماء الأزهر » حوالى ٤٥ كتابة ما بين مطبوع ومخطوط كلها موجودة بمكتبة الأزهر منها :

— ثبت الأمير فى علم المصطلح — مخطوط .

— سنن الأمير فى علم المصطلح — مخطوط .

— البدر المنير — حاشية على مختصر خليل — فى الفقه المالى — مخطوط

— حاشية على الجواهر الزكية فى حل ألفاظ العشماوية .. فى الفقــه المالكى — مخطوط .

— شرح المجموع — فى الفقه المالكى — مطبوع .

— القول الميسور فى الظل والنور — فى الفلسفة — مخطوط (٥١) .

وللأمير شروح وحواش فى النحو منها :

— حاشية على مغنى اللبيب لابن هشام — فى النحو .

— حاشية على شرح شذور الذهب لابن هشام — فى النحو .

— حاشية على الأزهرية — فى النحو .

وفى التوحيــد :

— حاشية على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرة فى التوحيد .
— مطلع النيرين فيما يتعلق بالقدرتين — فى التوحيد .

وكان يقول الشعر وقد ذكر الجبرتى بعض أشعاره فى ترجمته (٥٢) .

وكان الشيخ الأمير يقف من بعض الخرافات موقف التحرر الفكرى ، ويدلى فيها برأيه فى صراحة ، فقــد ذكــر عنه المستشرق الانجليزى :

---

(٥١) أبو الوفا المراغى — مرجع سبق ذكره ج ٢ صص ٣١٦ — ٣١٨ .
(٥٢) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ صص ٣٠٤ — ٣٠٧ .

ادوارد وليم لين : أنه وقعت بينه وبين الشيخ محمد البهائى مناقشـــة حول وجود رأس الحسين بمسجده بالقاهرة ، وقد أنكر الشيخ الأمير وجود الرأس بالمشهد الحسينى فى بعض دروسه ، لأنه لم يقم على وجودها أى دليل تاريخى •

ولقد تأثر لذلك القول الشيخ البهائى وبكى وفى نفس الليلة رأى رؤيا خلاصتها أنه رأى النبى ﷺ فسأله عن حقيقة الأمر فنبأه بأن الرأس موجود فى المشهد حقيقة ، فذهب الى الشيخ الأمير فى الصباح الباكر وقص عليه رؤيته ، غير أن الشيخ الأمير اضطر الى مجاملة الشيخ البهائى وذهب معه الى المشهد ، وأعلن أمام المزار ايمانه بوجود الرأس فيه •

ويدل هذا الموقف على تحرر الأمير الفكرى ، غير أن موقفه الأخير كان من أجل مجاراة شيخ عصره نظرا لأن هذه الحقائق تتعارض مـــع ما يؤمن به السواد الأعظم من أهل مصر حتى وقتنا هذا ، وقد تثير أقوال الأمير الجريئة غضب الجماهير ممن يؤمنون بالأساطير التاريخية وما نسج حولها من خرافات فى مصر • ولهذا يقول المستشرق لين « من المحقق أن العلماء المسلمين (فى مصر) كان يعوقهم طابع الخرافة من المضى فى بعض مناهج الدرس ، وقد تتحكم الخرافة فى البت فى نقطة كانت موضع الجدل منذ عصور » (٥٣) •

وعلى الرغم من ارتقاء الشيخ الأمير فى الناحية العلمية ، فقد كان مرهف الحس ينزعج طبعه من غير مزعج عن طريق الوهم فى كثير من الأحوال ، فضعفت قوته فى أخريات حياته ومات فى ١٠ ذى القعدة سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧م) (٥٤) •

---

(٥٣) المصريون المحدثون شـــمائلهم وعاداتهم فى القرن ١٩ — صص ١٤٧ — ١٤٨ من الترجمة العربية للاســـتاذ عدلى طـــاهر نور — مطبعة الرسالة — القاهرة ١٩٥٠ .

(٥٤) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ٣٠٦ .

الشيخ محمد المهدى :

الشيخ المهدى أصله من أقباط مصر أسلم وهو صغير دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى ، وتلقى العلم على يديه وعلى كثير من علماء عصره فمهر فى كثير من العلوم ، وجلس للتدريس بالأزهر سنة ١١٩٠ هـ فاشتهر بين الطلبة بسعة العلم وحسن الالقاء لفصاحته وحسن بيانه وسلامة تعبيره وسرعة جوابه فى كثير من القضايا العلمية .

وكان الشيخ المهدى طموحا فاستهوته الحياة العامة وتبوأ مكانا عليا لدى الأمراء والحكام وشارك علماء الوقت المتصدرين للتوسط لحل مشاكل الجماهير ، وانتفع كثيرا من هذا المركز كغيره من علماء الوقت ويصف الجبرتى وضعه هذا فيقول : « أقبلت عليه الدنيا وتداخل فى الأكابر ونال منهم حظا وافرا بحسن معاشرته وحلاوة ألفاظه ، ويقضى أشغاله وقضاياه منهم ومن حواشيهم .. ويخاطب كلا بما يليق » .

وزادت ثروة المهدى فزاد سعيه فى تحصيل المال ، وانصرف عن دروس العلم ، فباشر الشركات والمتاجر فى كثير من الأشياء مثل الكتان والقطن والأرز وغير ذلك من السلع ، والتزم بعدة حصص بالبحيرة والمنوفية والجيزة والغربية ، وبنى دارا عظيمة بحى الطبقة الراقية بالأزبكية بناحية الرويعى ، وتولى نظارة كثير من الأوقاف [٥٥] .

وسبق أن عرضنا طرفا من نشاطه ابان عصر الحملة الفرنسية فقد عينه الفرنسيون سكرتيرا للديوان ونال لديهم حظوة كبيرة ، وكان يصوغ منشوراتهم بأسلوبه الأدبى كما ذكر الجبرتى [٥٦] .

ولم يترك مؤلفا علميا مع استعداده لذلك كما قال الجبرتى فقد كان :

---

(٥٥) انظر وظائف الشيخ المهدى فى النظارة على الأوقاف فى سجلات تقارير النظار بدفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة سجل (١٩) مادة (٢٠)، وسجل (٢١) مادة (١٢٣) ، (٢٠٥) وسجل ٢٥ مادة (٣٤٣) .

« من فحول العلماء يدرس الكتب الصعاب فى المعقول والمنقول بالتحقيق والتدقيق ويقررها بالحاصل ... ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين وبعض اللاحقين ولم يشتغل بالانهماك على الدنيا لكان نادرة عصره » ولكنه كان « اذا شرع فى الاقراء فلا يتم الكتاب فى الغالب ويحضر الدرس فى الجمعة يوما أو يومين ... ولم يصنف تأليفا ولا رسالة فى فن من الفنون مع تأهله لذلك » وتوفى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥م) (٥٧) .

الشيخ مصطفى الصاوى :

مصطفى بن أحمد المعروف بالصاوى كان من رؤساء العلماء الصدور بالأزهر وكان والده من كبار التجار بالقاهرة ، وأصل أسرته من بلدة الصوة بشرقية بلبيس انتقل والده منها الى السويس ومنها الى القاهرة والتحق الصاوى الابن بالأزهر ، ودرس علوم عصره ، واشترك فى أحداث عصره فكان عضوا بديوان القاهرة الذى أنشأه الفرنسيون ، وبرع فى الأدب نثرا وشعرا وقد أورد الجبرتى بعض أشعاره فى ترجمته ، غير أنه لا يذكر عنه أنه برع فى علم من العلوم أو ألف فيه . وقال فيه « كان لطيف الذات مليح الصفات رقيق حواشى الطبع .. مهذب الأخلاق » وتوفى فى ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢١٦هـ (١٨٠١م) (٥٨) .

الشيخ سليمان الفيومى :

ولد الشيخ سليمان الفيومى ونشأ بالفيوم ، وحضر الى القاهرة والتحق بالأزهر برواق الفيمه ، وكان أول عمره ملازما للشيخ على الصعيدى وتتلمذ عليه وعلى الشيخ الدردير وغيرهما من علماء عصره وأجاد الشيخ الفيومى الاتصال بالأعيان فراجت حاله وكثرت معارفه وخاصة من الأسر المملوكية القديمة بالقاهرة وخاصة أسرة البرقوقية من

---

(٥٧) عجائب الآثار — ج ٤ ص ص ٢٤٩ — ٢٥٣ .

(٥٨) المصدر السابق — ج ٣ ص ص ٢٢٥ — ٢٢٩ .

ذرية السلطان برقوق فانتفع بصلته بهم « وتجمل بالملابس وركب البغال وأحدق به المحدقون ، وتزوج بامرأة ثرية فماتت فورثها » وتولى مشيخة رواق الفيوميين بالأزهر ، وشارك الشيخ الفيومى فى الحياة العامة وقد أرسله المماليك فى بعض سفاراتهم الى الآستانة . وابان حوادث الحملة الفرنسية كان من رؤساء الديوان الذى أنشأه بونابرت وأحبه الفرنسيون وقبلوا شفاعته ، وعينوه شيخا لمشايخ القرى ؛ وكانت داره ملتقى المظلومين وأصحاب الحاجات ، غير أنه مات فقيرا ؛ لشدة كرمه كما يقول الجبرتى : « كان كريم النفس جدا يجود وما لديه قليل » وبعد وفاته وجدوا عليه ديونا نحو عشرة آلاف ريال سامحه فيها أصحابها وكانت وفاته فى ١٥ ذى الحجة ١٢٢٤هـ (١٨٠٩م) .

ونظرا لنشاط الشيخ الفيومى فى الحياة العامة فلم يبرز فى علم من العلوم ولم يذكر له الجبرتى أنه ألف كتابا وقال عنه : « وكان مع قلة بصناعته فى العلم مشاركا بسبب التداخل فى القضايا » (٥٩) .

الشيخ محمد الدواخلى :

أصل الشيخ محمد الدواخلى من محلة الداخل من أعمال الغربية رحل أبوه الى القاهرة ، وولد المترجم بها فحفظ القرآن واجتهد فى طلب العلم على شيوخ عصره ، ولازم الشيخ عبد الله الشرقاوى واشتدت صلته به وانتفع بهذه الصلة فكان بمثابة وكيل الشرقاوى ، وألقى دروس العلم فى الفقه وغيره من العلوم وتجمع عليه الطلاب .

الا أنه كما ذكر الجبرتى كان عنده ميل عظيم للتقدم والرئاسة ولا يقنع بالكثير وأثرت فيه هذه النزعة فأحب الاتصال بالكبراء والحكام وانتفع بهذه الصلات ، واتصل بالست نفيسة المرادية زوجة مراد بك ؛

---

(٥٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٤ ص‌ص ١١٢ — ١١٤ ، وانظر أيضا ما فصلناه من أخبار الشيخ سليمان الفيومى بالفصل الثالث من هذه الرسالة .

وعينته وكيلا لها فى ادارة شئونها المالية والقضائية (٦٠) فزادت ثروته وهجر دروس العلم •

وابان عهد الحملة الفرنسية كان من أعضاء ديوان القاهرة ، وانتفع كثيرا فى أيامهم لتوسطه فى قضاء حوائج الناس ، وكان يحقد على عمر مكرم تقدمه لدى الحكام فأوقع به أيام محمد على واشترك مع المهدى والسادات فى المؤامرة عليه لدى الباشا كما سبق أن بينا ، ونال بذلك حظوة لدى محمد على فعينه فى نقابة الأشراف بعد موت السادات سنة ١٢٢٨ هـ « فركب الخيول ولبس التاج الكبير ومشت أمامه الجاويشية والمقدمون وأرباب الخدم وازدحم بيته بأرباب الدعاوى والشكاوى وعمر دار سكنهم القديمة بكفر الطماعين » بيد أن محمد على غضب عليه نظرا لتدخله فى شئونه واعتراضه على موظفيه ، فعزله من نقابة الأشراف ونفاه الى دسوق سنة ١٢٣١ هـ وكان هذا فى نظر معاصريه بمثابة « قصاص وجزاء فعله فى السيد عمر مكرم فانه كان من أكبر الساعين عليه الى أن عزلوه وأخرجوه من مصر والجزاء من جنس العمل » •

ولم يترك الدواخلى مؤلفا علميا نظرا لانشغاله بالحياة العامة وتدخله لدى الحكام ، فنقل ذلك اهتمامه من دراسة العلم الى طلب الرياسة ومات سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٧م) (٦١) •

الشيخ عبد الفتاح بن الجوهرى :

هو عبد الفتاح بن أحمد الجوهرى اشتهر باسم « فتوح الجوهرى » من بيت علم وفضل وهو أحد الاخوة الثلاثة من أبناء الجوهرى الكبير

---

(٦٠) وثيقة رقم ٣٣٤١ محفظة رقم ٦٥ من وثائق الحجج الشرعية — دار الوثائق القومية .

(٦١) راجع تفصيل الحديث عن الدواخلى فيما كتبناه عنه فى الفصل الثامن والتاسع من هذا البحث ، وانظر ترجمته فى عجائب الآثار ج ٤ صص ٣١٥ — ٣١٦ .

(أحمد ومحمد وعبد الفتاح) ولد فى سنة ١١٤١ هـ ودرس العلم على أبيه وغيره ، غير أنه كان يحب المشاركة فى الحياة العامة ويمارس التجارة ويشارك ويضارب ، ولم يكن لذلك معتنيا بالعلم ولم يلبس زى الفقهاء . قال عنه الجبرتى أنه : « أقرأ دروس العلم بالمشهد الحسينى فى رمضان مع قلة بضاعته » وجمع ثروة كبيرة من التجارة التى مارسها واشترى المماليك والعبيد والجوارى والأملاك والالتزام ، واشترك فى مقاومة الحملة الفرنسية،وكان من قواد المقاومةالشعبية،فصادر الفرنسيونأمواله كما سبق أن ذكرنا ، فاضطر الى الهجرة من القاهرة الى بلدة كوم النجار ، وهى بلدة جارية فى التزامه ، ومنها انتقل الى بلدة أقاربه شبين الكوم الى أن مات فى ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢١٥ هـ ولم يذكر عنه الجبرتى أنه برز فى علم من العلوم أو ألف كتابا ما (٦٢) .

العلماء المتفرغون لدراسة العلم :

أما الطائفة الأخرى من علماء الأزهر فى هذا العصر ، فهم العلماء الذين تفرغوا لدراسة العلم وتدريسه بالجامع الأزهر وغيره من المدارس والمساجد بالقاهرة وهؤلاء آثروا مداومة التدريس فى حلقات العلم ولا يختلطون بالأمراء والحكام الا عند الضرورة القصوى ، أو كما يقول الجبرتى : « كانوا على طرائق الأقدمين فى العفة والانجماع عما يخل بتعظيم العلم وأهله والتباعد عن بنى الدنيا الا بقدر الضرورة » (٦٣) .

وكان هذا الفريق من العلماء فى مجموعة غاية فى رقة الحال من الناحية المالية نظرا لتباعدهم عن الحكام وتعففهم عما بأيديهم من الأموال وقل أن تولى أحدهم وظائف نظارة الأوقاف أو ادارة الالتزام ومباشرة التجار ، وارتفع مستواهم العلمى وشاركوا فى الحياة العلمية بنصيب وافر وكان فى مقدمة هؤلاء :

---

(٦٢) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ صص ١٧٣ — ١٧٥ .
(٦٣) المصدر السابق — جـ ٤ ص ٢٠٠ .

الشيخ محمد الجوهرى :

محمد بن الجوهرى نجل الشيخ أحمد الجوهرى ولد سنة ١١٥١ هـ (١٧٣٨م) بحارة برجوان بالقاهرة وتلقى العلم على والده وأخيه الأكبر الشيخ أحمد وعـلى كثير من علماء عصره وكان آية فى الفهم والذكاء والتبحر فى العلم ، وجلس للتدريس بالأزهر فتجمع حوله الطلاب وزادت مرتبته بين مجتمع العلماء « وأظهر التعفف والانجماع عن خلطة الناس والذهاب والتردداد الى بيوت الأعيان والتزهد عما بأيديهم فحبه الناس » وزادت شهرة الشيخ محمد الجوهرى فسعى الأمراء الى منزله وترددوا لزيارته ، وكان يحتجب عن ملاقاتهم فى كثير من الأحيان ، وعرف عنه أنه لم يدخل بيت أمير طوال حياته ولا قابل حاكما ، الا ما سبق أن روى عنه المعلم نقولا ترك من أنه قابل بونابرت وتشفع لديه فى اخراج الخيل من الأزهر عقب ثورة القاهرة الأولى ، ومع ذلك فقد كانت شـفاعته لا ترد لدى الحكام .

وارتفعت شهرته حتى عمت أرجاء العالم الاسـلامى فوفدت عليه الوفود من الحجازوالهند والمغرب والشام وتركيا . وغضب مرة عندما تدخل الأمراء فى شئون الأزهر وعينوا الشـيخ عبد الرحمن العريشى الحنفى شيخا للأزهر ، فاعتبر الشـيخ الجوهرى هذا هزيمة للمذهب الشافعى الذى كان يمثله بمثابة المذهب الوطنى لأن عليه غالبية سكان مصر وعلمائها ، ونصرا لمذهب الأتراك والأمراء وهو المذهب الحنفى — فاعتصم الشيخ الجوهرى فى ضريح الامام الشافعى ومعه كثير من العلماء ولم يزل حتى نقض ما أبرمه الأمراء ، ورد المشيخة الى الشافعية وتولاها الشيخ أحمد العروسى وذلك سنة ١١٩٢هـ (١٧٧٨م) [٦٤] .

وقد اشترك الشيخ محمد بن الجوهرى بنصـيب وافر فى الحياة العلمية فى مصر ، فى مجالى التدريس والتأليف ، فبجانب أنه كان أستاذ

---

(٦٤) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٢ صص ٥٦ — ٥٧ .

كرسى بالأزهر ، فقد باشر التدريس أيضا بالأشرفية وزاوية القادرية بدرب شمس الدولة ، وأحيانا أخرى بمنزله المطل على بركة الأزبكية .

وترك تراثا علميا ضخما فى كثير من علوم عصره فى عدة كتب ورسائل مازال أغلبها مخطوطا بمكتبة الأزهر منها :

— تقرير على المعجم الوجيز من أحاديث الرسول العزيز — فى الحديث مخطوط .

— مرقى الوصول الى معنى الأصولى والأصول — فى الأصول — مخطوط .

— حلية ذوى الأفهام بتحقيق دلالة العام — فى الأصول — مخطوط .

— اتحاف الى منهج الطالب لأشرف المطالب — فقه شافعى — مخطوط .

— فتح الرحمن فى سهولة التوجه واتمام الأركان — فقه شافعى — مخطوط .

— حاشية على شرح ابن قاسم على أبى شجاع — فقه شافعى — مخطوط .

— القول الثابت فى أحكام النابت من الزرع — فقه عام — مخطوط .

— القول المفيد على خلاصة التوحيد — توحيد — مخطوط .

— شرح عقيدة والده المسماة « منقذة العبيد » — توحيد — مخطوط .

— خالص النفع فى بيان المطالب السبع — توحيد — مخطوط .

— التحفة البهية على نظم الأجرومية — نحو — مخطوط (٦٥) .

---

(٦٥) انظر بقية مؤلفاته فى : أبو الوفا المراغى — مرجع سبق ذكره — ج ٣ ص ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ، والجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ص ١٧٢ — ١٧٤ .

وغير ذلك من المؤلفات التى تربو على ثلاثين مؤلفا فى الفقه والحديث والتوحيد والتصوف والعقائد ، فقد وقف حياته كلها لخدمتها والتوفر عليها حتى استحق قول الجبرتى فيه أنه « الامام الألمعى والذكى اللوذعى من عجنت طينته بماء المعارف وتآخت طبيعته مع العوارف » (٦٦) .

وابان عهد الحملة الفرنسية نهبت داره التى بحى الأزبكية وسرقت كتبه التى جمعها طوال حياته ، فاغتنم وتراكمت عليه الهموم والأمراض ومات فى ٢١ ذى القعدة سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠م) .

محمد بن سلامة الشافعى :

هو محمد بن سلامة المعروف بأبى سلامة من فقها الشافعية الذين يرجع اليهم فى مشكلات الفقه ويعتمد عليهم فى دقائق المذهب ، كان غاية فى التفرغ للعلم مع دقة الحال ، درس كثيرا من العلوم النقلية والنحوية والمنطقية ، وتفقه على كثير من علماء الطبقة الأولى أمثال الشيخ على قايتباى والحفنى والبراوى والملوى وغيرهم ، وتبحر فى الأصول والفروع ، شهد له الجبرتى بطول الباع فيها فقال عنه :

« كان مستحضرا للفروع الفقهية والمسائل الغامضة فى المذاهب الأربعة ويغوص بذهنه فى الأصول الغريبة ومطالعة كتب الأصول القديمة التى أهملها المتأخرون » الا أن الدهر لم يصافيه فعاش فى خمول وضيق عيش وخشونه ملبس ، وكان مهذبا حسن المعاشرة ، جميل الخلق عرف بالصلاح والتواضع عاش على مرتب بسيط من وظيفة مؤقت فى مسجد عبد الرحمن كتخدا تجاه باب الفتوح ، ونظرا لتضلعه فى المسائل الفقهية فقد كان مستشارا قانونيا يصدر الفتاوى لأرباب القضايا ويتقاضى على ذلك بعض الأجر ، وتوفى سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠م) (٦٧) .

---

(٦٦) المصدر السابق .

(٦٧) الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٣ ص ١٧٥ .

ولم يذكر له الشيخ الجبرتى أنه ألف فى أى علم من العلوم ، وذكر له الشيخ أبو الوفا المراغى فى معجمه كتابا فى الفقه الشافعى اسـمه « تعليقات فى ضبط نصاب النقدية » نقلها عن الشيخ عمر الطحلاوى « مخطوط بمكتبة الأزهر » (٦٨) .

الشيخ محمد الحريرى :

نشأ الشيخ محمد الحريرى فى مبدأ حياته نساخا للكتب بالأجـرة ودرس بالأزهر وكان شافعى المذهب ثم تحنف وحضر دروس الفقـه الحنفى على فقهاء الحنفية فى عصره أمثال الشيخ محمد الدلجى والشيخ محمد العدوى ولازم الشيخ حسن المقدسى ملازمة كلية وتلقى عليه غالب الكتب المعروفة فى المذهب الحنفى ، وكان يكتب اجابات أستاذه عـلى فتاوى الناس ولما توفى شيخه المذكور تعين مكانه فى وظيفة الخطـابة والوعظ . وتعين مفتيا للمذهب الحنفى عقب الخلاف الذى حدث عـلى مشيخة الأزهر سنة ١١٩٢ هـ بين الشـيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية والشـيخ أحمد العروسى فى حـال حياة العريشى الذى عاداه العلماء ، وكان الحريرى أهلا لذلك وسار فيها سيرا حسنا وقصده الناس للفتوى ، وأقبلت عليه الدنيا بعد ذلك وسكن فى حى الأزبكية وتوفى عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) (٦٩) .

الشيخ أحمد الطحطاوى :

الشيخ أحمد الطحطاوى من أصل تركى حضر والده الى مصر متقلدا القضاء بطهطا من أعمال أسيوط ، وتربى أحمد بها حتى مات والده فانتقل الى القاهرة وتلقى العلم بالأزهر على علماء عصره أمثال المشايخ الحماقى والمقدسى والحريرى والطائى والعريشى وحسن الجبرتى ، وكانت له زمالة

---

(٦٨) المعجم الأصغر لتراجم ومؤلفات علماء الأزهر — ج ٣ ص ٢٥٢ .
(٦٩) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص‌ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

بالجبرتى المؤرخ حيث حضر معه شرح نور الايضاح على والده حسـن الجبرتى وقال عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ عن هذه الصلة : « كان المترجم يلائم طبع الفقير (الجبرتى) فى الصحبة وكنت معه فى غالب الأوقات أما فى الجامع أو المنزل للطافة طبعه وقرب سنى من سنه وكان الوالد يرى ذلك ويسألنى عنه اذا تخلف فى بعض الأحيان ويقول أين رفيقك الصعيدى فكان يعيد معى ويفهمنى ما يصعب على فهمه » وهذه شهادة من الجبرتى بتفوق المترجم عليه فى التحصـيل وعلو قدمه فى النجابة والفهم ، وبلغ درجة عظيمة فى فقه الأحناف أهلته لتقلد منصب الافتاء بعد وفاة الشيخ ابراهيم الحريرى مفتى الحنفية .

وضرب الشيخ الطحطاوى أروع الأمثلة فى التمسك بالحق حين رفض التوقيع على العريضة المزيفة التى كتبها الحاقدون من العلماء على عمر مكرم بايعاز من محمد على لتشويه سمعة عمر مكرم لدى الباب العالى، واستنكر ما سطروه فيها ، حتى تحامل عليه علماء الصدارة وعزلوه من مشيخة الحنفية ، وعينوا مكانه الشيخ حسن المنصورى ، ١٢٢٤ هـ ولكنه أعيد اليها بعد وفاة الشيخ المنصورى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥م) ولبس الخلع من محمد على ومن الشيخ الشنوانى شيخ الجامع الأزهر وباقى المشايخ الكبار واستحق ثناء أهل عصره حتى قال فيه الجبرتى : « ولم يختلف عليه اثنان » [٧٠] توفى سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦) .

وقد ترك الشيخ الطحطاوى عدة مؤلفات فى الفقه الحنفى منها :
حاشـية على الدر المختار شرح تنوير الأبصار — فى الفقه الحنفى فى أربع مجلدات جمع فيها المواد الهامة بالمذهب وضم اليها غيرها — مطبوع

— سنن الطحطاوى — فى مصطلح الحديث — مخطوط .

---

(٧٠) انظر تفصيلا عن حياة الطحطاوى فى الفصل التاسع من هـذا البحث — وانظر الجبرتى — عجائب الآثار — جـ ٤ ص ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

— حاشية على مراقى الفلاح شرح نور الايضاح — فى الفقه الحنفى مطبوع •

— كشف الرين عن بيان مسألة الخفين فى الفقه الحنفى — مخطوط (٧١) •

الشيخ على أبو زكرى البولاقى :

اشتهر الشيخ على أبو زكرى بالبولاقى نظرا لسكنه فى بولاق • كان فقيها ورعا ملازما لالقاء الدروس ببولاق والأزهر — ويأتى كل يوم الى الجامع الأزهر على ظهر حماره ، يقرأ الدروس ويفيد الطلبة ثم يرجع الى بولاق بعد الظهر ، وكان رقيق الحال ، ولما مات حماره الذى كان مطيته يأتى عليه كل يوم الى الأزهر لم يتخلف عن عادته مع ضعفه وعدم مقدرته وظل يأتى كل يوم ماشيا ثم يعود قافلا الى بولاق • فأشفق الخيرون من أهل بولاق على شيخهم المخلص وتجمع أهل الخير منهم واشتروا له حمارا ، وظل فى متابعة القاء الدروس ، ولم يزل على حالته فى خدمة طلبة العلم حتى توفى رحمه الله فى ٨ ذى القعدة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧) (٧٢) •

الشيخ أحمد العريشى :

هو الشيخ أحمد اليونسى المعروف بالعريشى الحنفى من بلدة خان يونس الواقعة فى جنوب فلسطين ، حضر من بلدته الى الأزهر سنة ١١٧٨ هـ وتلقى العلم على صفوة علماء عصره وفى مقدمتهم البيلى والجناحى والصبان والفرماوى وحسن الجبرتى — ونشأ فى كنف مواطنه الشيخ عبد الرحمن العريشى شيخ رواق الشوام فتتلمذ عليه ولازمه ملازمة كلية ، وسافر صحبته الى الآستانة واتصل بالعلماء الأتراك وقرأ بها بعض الكتب وعاد الى مصر ، وبعد وفاة أستاذه عبد الرحمن العريشى

---

(٧١) أبو الوفا المراغى — مرجع سبق ذكره — جـ ١ ص ٦٢ •
(٧٢) المصدر السابق — جـ ٤ ص ٣٠٧ •

سنة ١١٩٢ هـ تولى رئاسة رواق الشوام بالأزهر وأوصى له أستاذه بجميع كتبه .

وكانت للشيخ أحمد العريشى ولأستاذه من قبله عصبية قوية برواق الشوام بالأزهر ، وكثيرا ما كان ينضم رواق الأتراك الى رواق الشـــوام فى خصوماته بالأزهر فيناصره وخاصة اذا كان الخصم من رواق الصعايدة صاحب العصبية المصرية القوية ضد أروقة الآفاقين (الأجانب) ومن ذلك على سبيل المثال حادثة الخلاف على مشيخة الأزهر بين الشيخ عبد الرحمن العريشى وبين الشيخ أحمد العروسى سنة ١١٩٢ هـ (٧٣) والتى سبق أن عرضنا لها فى ترجمة محمد بن الجوهرى ، وكذلك حادثة مناصرتهم للشيخ المهدى سنة ١٢٢٧ هـ فى تولى منصب مشيخة الأزهر وسبق أن بيناها (٧٤).

وابان عصر الحملة الفرنسية تولى الشيخ أحمد العريشى منصـــب قاضى قضاة مصر باختيار أغلبية العلماء عن طريق الاقتراع العام كما سبق أن بينا ، وذلك لتضلعه فى الفتوى وتدخله فى القضايا ومباشرته القضاء ابان العصر العثمانى فكانت له خبرة سابقة أهلته لهذا المنصب ، وعقب اغتيال كليبر اضطهده الفرنسيون لكون ســـليمان الحلبى قاتل كليبر من رواق الشوام ، فعزلوه من منصبه وأعاده الجنرال منو الى منصبه .

وعندما باشر الشيخ العريشى مهام منصبه للمرة الثانية صدرت اليه الأوامر من وكيل الديوان الفرنسى (فورييه) بأن يعد قائمة بأسماء الذين تقلدوا قضاء البلاد على يديه ومن لم يتقلد فكتب فى ذلك رسالة بعنوان « دفتر علم وبيان طريق القضاة وأسماؤهم بمصر المحروسة وأقاليمها » (٧٥)

---

(٧٣) انظر تفصيل ذلك فى الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٢ صص ٥٥ — ٥٧ .

(٧٤) انظر الفصل التاسع من هذا البحث .

(٧٥) مخطوطة رقم ٣١٥١ تاريخ — دار الكتب المصرية — هى عبارة عن تسع صفحات فى نهايتها امضاء الشيخ احمد العريشى قاضى عســـاكر مصر المحروسة حالا عفا الله عنه .

وسبق لنا أن عرضنا تلخيص هـــذه الرسالة فى الفصل الرابع من هـــذا البحث ٠

وعقب خروج الفرنسيين من مصر عزله الأتراك من منصبه وعينوا بدله تركيا كما جرت بذلك عادتهم فى مصر ، وظل العريشى بعد ذلك يعمل مستشارا قانونيا يصدر الفتاوى الى أصحاب القضايا الى أن توفى سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣م) (٧٦) ٠

أثر الحملة الفرنسية فى الحياة العلمية :

هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر ، وأراد بونابرت ألا يغزو مصر بقوة السلاح فحسب بل بأسلحة من العلم الحديث ، وكان يرى فى هذه الحملة تألق نجمه ليس من الوجهة العسكرية فحسب بل من الوجهة العلمية أيضا ، فصحب معه هيئة علمية مكونة من ١٤٦ عالما (٧٧) من أقطاب المفكرين فى فرنسا ليرصدوا جهودهم للكشف عن معالم مصر ، وجهزت هذه البعثة بمجموعة كاملة من الآلات الطبيعية والرياضة ٠

وكان مما جهزت به الحملة : مطبعة عربية هى أول مطبعة قامت فى مصر بطبع الكتب والصـــحف وحازت هذه المطبعة اعجـــاب الكثيرين من المشايخ أعضاء الديوان وغيرهم من المصريين المثقفين الذين زاروها أمثال الشـــيخ المهدى ، والفيومى والصـــاوى وأعجبوا بطرق الطبع لاخراج المطبوعات العربية والفرنسية ، وكان الشيخ المهدى ممن زاروا المطبعة وسأل أسئلة عدة عن تأثير الطباعة على الحضارة وقال انه يعرف كتبا عربية كثيرة يود لو أن المطبعة طبعتها ، ونشـــأت بين المهدى ومارســـيل مدير المطبعة صداقة عظيمة فترجم مارسيل قصص الشيخ الى الفرنسية ونشرها فى باريس سنة ١٨٣٦ (٧٨) ، وأنشأ بونابرت مجمع القاهرة العلمى على

---

(٧٦) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ صص ٣٠٦ — ٣٠٧ ٠

(٧٧) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — جـ ١ ص ٧٩ ٠

(٧٨) د٠ محمد فؤاد شكرى — الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر — مرجع سبق ذكره — ص ٦٥٨ ٠

غرار المجمع العلمى الفرنسى بباريس ، ففى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ أصدر أمرا بتأسيس « المجمع العلمى المصرى » وأشار بأن الغرض من انشائه هو تقدم البحوث العلمية الخاصة بمصر ونشر هذه البحوث (٧٩) • واختار بونابرت قصرا من قصور المماليك بالقاهرة هو قصر حسن كاشف (٨٠) بحى الناصرية لكى يكون مقرا للمجمع العلمى •

وأسس الفرنسيون مكتبة ألحقوها بالمجمع العلمى تحتوى على أنفس الكتب التى جلبوها معهم من أوربا وكثير من المخطوطات التى جمعوها من مساجد القاهرة وبيوت المماليك ، وكانت المكتبة تفتح أبوابها يوميا لاستقبال الزوار ، ويعرضون عليهم ما تحتويه من ذخائر أدبية وعلمية ، وجعلوا بها قاعة خاصة للمطالعة يجتمع فيها هواة البحث والمراجعة ، وأخرى لاجراء بعض التفاعلات الكيماوية أمام الزوار •

وفى غضون السنوات الثلاث التى قضاها الفرنسيون فى مصر احتك بعض مشايخ الأزهر برجال الحملة واتصلوا بهم ، واطلعوا على علومهم ، ووقف جيل الحملة الفرنسية من علماء الأزهر موقف الدهشة من ضخامة الفارق الحضارى بين ما كانت عليه البلاد وبين ما وصل اليه العلم الفرنسى ، وقد هزته هذه الدهشة من أعماقه •

غير أن مخالفة الغزاة للمصريين فى الدين واقتحامهم للأزهر بخيولهم ، ورؤية فرنسا غازية قاهرة لهم ، وأعمالها الحربية القاسية التى باشرتها فى البلاد ، كل ذلك أقام حاجزا من عدم الثقة وسوء النية بين الغزاة وأهل البلاد ، وجعل الجيل الصاعد من علماء الأزهر يقف موقف الرفض لتلك الحملة مهما أبدت من جوانب حضارية نيرة ، وأيقنوا أن

---

(٧٩) المرجع السابق — ج ١ ص ١١٦ .

(٨٠) كان قصر حسن كاشف من أجمل قصور المماليك بالقاهرة ، ومكانه الآن المدرسة السنية بالناصرية ، وكان قد بناه حسن كاشف قبل قدوم الفرنسيين ولم يتمكن من سكناه .

السم فى العسل كما يقولون ، وبرزت بينهم حركة التمسك بالذات ورفض التبعية التى تحدثنا عنها ابان حوادث الحملة .

وكان جيل الحملة من علماء الأزهر على حق فى موقفه نظرا لأن قواد الحملة لم يبدو نية خالصة فى تطوير البلاد ، وكان جل همهم استغلال موارد البلاد الى آخر قطرة من دماء أهلها .

ونود أن نتحدث هنا عن بعض العلماء الذين نتوســم فيهم بعض آثار الاتصال بالفرنسيين ، وكان أشهرهم على ما نعلم ثلاثة هم : الشيخ عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ العصر ، والشيخ حســن العطار كبير أدباء عصره ، والشيخ اسماعيل الخشاب الأديب الشاعر .

عبد الرحمن الجبرتى (٨١) :

خرج الجبرتى مع من خرجوا من القاهرة غداة انتصار الفرنسيين فى معركة امبابة ، خوفا من بطش الغزاة الفاتحين ، وهاجر الى بلدة ابيار فقد كانت له بها حصة من الأراضى الزراعية ورثها عن والده (٨٢) وعندما كتب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى الى علماء الأزهر بالرجوع بأمر بونابرت ، كان الجبرتى ممن وصلتهم الدعوة بذلك فى ابيار فعاد الى القاهرة ، وكانت تربط الجبرتى بمشايخ الديوان صلات وصداقات سابقة ، وعلى الأخص صديقه وجليسه الشاعر اسماعيل الخشاب الذى خالط الفرنسيين وعينوه كاتبا لمحاضر جلسات الديوان ، كل هذا فتح الباب أمام الجبرتى لمخالطة الفرنسيين والاتصال بهم ، وأفاد منهم فى الحصول على الوثائق والاحصائيات التى ضمنها كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » .

---

(٨١) راجع ترجمة الجبرتى فى الفصل التاسع من هذا البحث .

(٨٢) محمود الشرقاوى مصر فى القرن الثامن عشر — مرجع ســبق ذكره — ج ١ ص ١٢ .

وعلى الرغم من ذلك فقد حمل الجبرتى بشدة على الفرنسيين لجورهم فى جمع المال وتدخلهم فى حياة المصريين ، ولم تخدعه أساليب قادتهم فى التقرب الى المصريين ومحاولتهم تخدير الشعب فى منشوراتهم التى ملئت فى نظره بالخداع والتملق ، وسبق لنا أن عرضنا لنقده لهذه الأعمـال والمنشورات ابان حوادث الحملة ، كما أنه لم يخدع بالديوان الذى أنشأه بونابرت بدعوى اشراك المصريين فى الحكم ، وحمل على الحكم الفرنسى لما نشره جنود الاحتلال من ألوان الخلاعة والمجون ، وتألم لسريان هذه العدوى الى أولاد البلد .

غير أن الجبرتى لم تمنعه كراهية الفرنسيين من اعجابه بكثير من جوانبهم النيرة ، فنراه يعجب بمحاكمة الفرنسيين لسليمان الحلبى (قاتل كليبر) ورفاقه على الرغم مما فيها من تزييف وطمس لبعض الحقائق من وجهة النظر الحديثة [٨٣] ، كما أنه لم يخف اعجابه بتفوق الفرنسيين فى علومهم ، وكثيرا ما كان يتردد على دار المجمع العلمى ، ووصف ما رآه فيها قائلا : « وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد » [٨٥] .

وقال عن مكتبة المجمع العلمى : « وفيه — أى بيت حسن كاشف — جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم ، فيجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ... واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى

---

(٨٣) انظر ما فصلناه فى هذا الصدد فى الفصل الرابع من هذا البحث .
(٨٤) عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٥ .
(٨٥) المصدر السابق — نفس الصفحة .

أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف »(٨٦).

وذكر أنه تردد على دار المجمع العلمى مرارا وأطلعه الفرنسيون على تلك الكتب التى تذخر بها مكتبة المجمع ، وكان من جملة ما رآه كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى ﷺ ، وبه صورة شريفة للرسول صورها الفرنسيون على مبلغ علمهم واجتهادهم بيده اليمنى سيف وباليسرى كتاب ، وحوله الصحابة بأيديهم السيوف ، وفى صفحة أخرى منه صور الخلفاء الراشدين وغير ذلك من التصاوير الخاصة بمقدسات المسلمين ، كما اطلع على كثير من الكتب الاسلامية المترجمة الى الفرنسية ، وغير ذلك من المخطوطات العربية وآلات الفلك والرسم والتصوير والآلات الهندسية والطب والكيمياء (٨٦) .

وعقب خروج الفرنسيين من البلاد اجتاحت مصر موجة من الاضطراب السياسى بسبب ضعف الحكم التركى وجشع الحكام العثمانيين الذين عادوا الى البلاد ينهبون ثرواتها ، ورجع الجبرتى يعيد تقييمه للحكم الفرنسى مرة أخرى مقررا أن العدل الذى جعله أساس الحكم يمكن أن يتأتى من الحاكم غير المسلم ، وأن الحكام المسلمين ليسوا فى كثير من الأحيان عادلين .

وآية هذا التغيير ما ذكره فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » فقد دون الجبرتى أحداث الحملة الفرنسية وأخرجها فى كتابه الأول « مظهر التقديس » وسجل فيه انطباعاته الأولى ازاء الحكم الفرنسى باعتباره حكما غير اسلامى ، وأهداه الى الصدر الأعظم يوسف باشا فاتح مصر .

---

(٨٦) انظر تفصيل حديثه عما شاهده لدى الفرنسيين بدار المجمع العلمى فى عجائب الآثار — جـ ٣ صص ٣٥ — ٣٧ .

ثم أعاد كتابة تاريخ الحملة مرة أخرى فى كتابه الثانى : « عجائب الآثار .. » وضمنه الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وفى هذه الصـياغة الجديدة تظهر آراء الجبرتى المعتدلة ، فقد أشاد بالفرنسيين فى عـدة مواضع لم يشر اليها اطلاقا فى كتابه الأول ، بعد أن خاب أمله فى الحكم العثمانى ، مثال ذلك ما عرضناه من اعجابه بتفوق الفرنسيين العلمى ، واعجابه بتنظيمهم للديوان ، واعجابه بمحاكمة قاتلى كليبر عـلى الرغم من اختلافنا معه فى هذا الاعجاب ، وعلق فى نهايتها بقوله : « ... بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسـلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه » [٨٧] .

ويؤخذ من قوله فى نهاية هـذه الفقرة السـابقة التى نقلناها من عجائب الآثار وهى قوله : « مما سيتلى عليك بعضه » أنه قد وضع لنفسه خطة لبيان مفاسد النظام العثمانى والمقارنة بينه وبين الحكم الفرنسى .

وعلى سبيل المثال عندما تحدث عن مفاسد نظام القضاء العثمانى وجشع القضاة العثمانيين نراه يعقد مقارنة بينه وبين الاصلاحات الفرنسية فيقول : « مع أن الفرنساوية الذين كانوا لا يتدينون بدين لما قلدوا الشيخ أحمد العريشى القضاء بين المسلمين بالمحكمة ، حددوا له حدا فى أخذ المحاصيل لا يتعداه بأن يأخذ على المائة اثنين فقط » [٨٨] .

كما يلاحظ أن الجبرتى فى كتابه « مظهر التقديس » يشـير الى الفرنسيين فى كثير من المواطن بقوله « الكفار » ولا يذكر اسم قائد من قوادهم الا مصحوبا بوصف مهين كقوله : « اللعين كفر لى » و « التعس بونابرت » و « الملعون ديبـوى » و « الكفـرة اللئام » و « الملاعين الكفار » ولكنه يحذف كل هذه الأوصاف فى كتابه « عجائب الآثار » كما

---

(٨٧) عجائب الآثار — ج ٣ ص ١٢٢ .
(٨٨) المصدر السابق ج ٤ ص ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

كان يشـــير الى العثمانيين فى « مظهر التقديس » بقوله : « عســـاكر المسلمين » أما فى « عجائب الآثار » فيطلق عليهم « العسكر » و « عساكر العثمانلى » و « العثمانيون » و « العساكر العثمانية » .

وعلى كل حال فقد تأثر الجبرتى بالعهد الفرنسى ، واختلفت أخباره بعده عما كتبه قبله واستطاع المقارنة بين الحكم العثمانى وغيره ، وصقل قلمه فكانت كتابته فى تاريخه بعد الحملة أدق وأكثـــر نقدا للحوادث ورجالها حتى أن قلمه الناقد أودى به فى حكم محمد على الى المخاطر التى تعرض لها من أعوان محمد على كما سبق أن ذكرنا .

وترك لنا الجبرتى سفرا خالدا فى تاريخ مصر وهو كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبـــار » أرخ فيه لنهاية العصر العثمانى وعصر الحملة الفرنسية وبداية عصر محمد على حتى عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢١م) وله غير ذلك .

— مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، فى تاريخ الحملة الفرنسية بمصر .

— تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ هـ الى ١٢١٦ هـ وهـــو مخطوط بمكتبة جامعة ليدن بهولندا وهو عبارة عن مذكرات الجبرتى التى كتبها بخط يده عن تاريخ الحملة بمصر غير أنها تؤرخ لســـبعة أشهر فقط من المحرم ١٢١٣ حتى نهاية رجب سنة ١٢١٣ هـ وهـــذه المذكرات مهمة لأن بها بعض الاضـــافات التى حذفها الجبرتى عند اخراج كتابيه السابقين « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » .

— مختصر تذكرة دواد فى الطب — مخطوط بمكتبة الأزهر .

— رسالة فى اعراب كلمة التوحيد — فى النحو — مخطوط بمكتبة الأزهر .

— شرح كتاب الموازين والقبابين ، لوالده الشيخ حسن الجبرتى .

— مخطوط فى علم الفلك — فى ست ورقات بدار الكتب المصرية ، يبين فيها قواعد تقويم الكواكب السبعة والأهلة والتواريخ الثلاثة ومواسمها ومواقعها فى سنة ١٢٠٩ هـ (٨٩) •

اسماعيل الخشاب :

هو اسماعيل بن سعيد الشهير بالخشاب ، كان أبوه نجارا ثم فتح مخزنا لبيع الأخشاب بالقرب من باب زويلة ، ومن ثم جاءت شهرته بالخشاب ، والتحق اسماعيل بالأزهر وتتلمذ على شيوخ عصره ، وبرع فى علوم الأدب والتصوف والتاريخ وحفظ أشياء كثيرة من الأشعار والمراسلات ، وحكايات الصوفية ، حتى صار بارعا فى الشعر واتصل بكثير من زعماء عصره وجالسهم لما كان يتمتع به من خفة الروح ودماثة الأخلاق ، ولذلك تنافس الكتاب والأمراء والتجار على صحبته وتفاخروا بمجالسته •

وعمل شاهدا (٩٠) بالمحكمة الكبرى بين القصرين وقد انتفع صديقه الجبرتى بهذه الصلة فكان ينسخ له بعض الصكوك والحجج فيها أسماء الناس وأعمارهم ويستفيد بها الجبرتى فى كتابة تاريخه •

وابان عهد الحملة الفرنسية بقى الخشاب بالقاهرة ولم يبرحها كما فعل غيره من المشايخ واتصل بالفرنسيين وخالطهم واستخدمه الفرنسيون

---

(٨٩) أبو الوفا المراغى — المعجم الأصغر — مرجع سبق ذكره — جـ ٢ ص ١٦٦ •

(٩٠) كانت وظيفة الشهود بالمحاكم العثمانية تنحصر فى عملين : **أولا :** كتابة العقود بين الناس فى معاملاتهم مستوفاة شروطها الشرعية ، **ثانيا :** كان القاضى يستعين بهم على تزكية الشهود الذين يشهدون عنده فى الخصومات ، وكان يطلق عليهم « العدول » وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة بالمحكمة أن يكون عادلا صاحب خبرة بالناس ، وأن يكون فقيها يعرف أسباب الجرح والتعديل . (محمود بن محمد بن عرنوس — تاريخ القضاء فى الاسلام — المطبعة المصرية الأهلية الحديثة بالقاهرة لم تذكر سنة الطبع — ص ١٣٢) .

كاتبا لمحاضر جلسات الديوان ، وعاون المستشرق مارسل فى طبع ونشر عدة مؤلفات ومخطوطات مثل « تاريخ مصر من الفتح العربى الى الحملة الفرنسية » وكتاب « وصايا لقمان الحكيم » و « متنوعات من الأدب الشرقى » و « حكايات الشيخ المهدى » الذى كتبه عـلى نمط « ألف ليلة وليلة » (٩١) •

وفى شهر شوال ١٢١٣ هـ عينه الفرنسيون ناظرا للكسوة الشريفة التى ترسل الى الكعبة • (الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٣ ص ٥٧) •

وفى عهد الجنرال منو وضع الفرنسيون مشروعا لاصدار جريدة يومية باللغة العربية تسمى « التنبيه » ليجمعوا فيها الحوادث اليومية من جميع دواوينهم ومنشـــوراتهم وعهدوا بتحرير موادها وضـــبط أخبارها الى اسماعيل الخشاب ولم تصدر هذه الجريدة ، وكانت مجرد مشروع جلت الحملة قبل تنفيذه •

وكانت له مجالس أدبية تجمعه مع صـــديقيه عبد الرحمن الجبرتى والشيخ حسن العطار الأديب ، فكثيرا ما كان يجتمع ثلاثتهم فى منزل الجبرتى بالصنادقية ويقول الجبرتى فى هذا : « وكثيرا ما كانا يتنادمان (أى الخشاب والعطار بدارى) لما بينى وبينهما من الصـــحبة الأكيدة والمودة العتيدة فكان يرتاحان عندى ويطرحان التكلفات التى هى على النفس شديدة » (٩٢) وكثيرا ما كان الأديبان — الخشاب والعطار — يتجاذبان أطراف الحديث فى كل فن من الفنون الأدبية والتاريخية فى حضرة الجبرتى ولا شك أن ثلاثتهم مع تقارب ميولهم كما نعلم كانت أحاديثهم ومناقشاتهم تتطرق الى مشاكل العصر واحتياجات بلدهم وليس بين أيدينا ما يدل على هذه الأشياء بالنسبة للجبرتى والخشاب ، وقد ترجم العطار عنها كما نذكر فيما يلى من ترجمته •

---

(٩١) محمد أمين حسونة — مرجع سبق ذكره — ص ٢٤٧ •

(٩٢) عجائب الآثار — جـ ٤ ص ص ٢٥٤ — ٢٥٨ •

وقد أخذ الجبرتى على الخشـــاب أنه كان ينافق أهـــل عصره من أصحاب المظاهر بشعره ، ولا عجب فى ذلك فهذه طبيعة الشعراء فى كل زمان ومكان وللخشاب مؤلف فى التاريخ ما زال مخطوطا بعنوان « تاريخ حوادث وقعت بمصر من سنة ١١٢٠ هـ الى دخول الفرنسيس » [٩٣] وتوفى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥م) ٠

الشيخ حسن العطار :

هو حسن بن محمد العطار ، ولد بالقاهرة فى ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) وهو من أصـــل مغربى ، وكان والده عطـــارا له المام بالعلم ، وكـــان حسن العطار يعمل مع والده فى مهنة العطارة ، وحبب اليه العلم فكان يختلف الى الجامع الأزهر يطالع مع المجاورين حتى جد فى طلب العلم والتحصيل على كبار مشايخ عصره كالأمير والصبان والشرقاوى والجوهرى وغيرهم ، حتى بلغ من العلوم فى زمن قليل ما هيأه للتدريس بالأزهر ٠

وقد رحل العطار من القاهرة الى أسيوط فرارا من وجه الفرنسيين وظل هناك حتى هدأت الأحوال واطمأنت النفوس ، فعاد مع العامدين وبدأت صلة العطار بالفرنسيين منذ ذلك التاريخ وتوثقت هذه الصلة حتى كان يزورهم فى مكتباتهم كما كان يفعل الجبرتى — حتى أصـــبح يتحمس لحضارتهم وعلمهم ويبشر بضرورة الانتفاع بكل ذلك يقول عنه على مبارك : « واتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ويقول : ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ويتعجب مما وصـــلت اليه تلك الأمـــة من المعارف والعلوم وكثـــرة كتبهم وتقريبها لطـــرق الاستفادة » [٩٤] ٠

---

(٩٣) توجد منه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية من نسخة باريس ٢٦ ق والتيمورية ٢١٠٧ تاريخ ٠

(٩٤) الخطط التوفيقية — ج ٤ ص ٣٨ ٠

غير أنه تهكم بهم وسخر من عاداتهم وانطباعهم على حب اللهو والمجون فقال :

ان الفرنسيين قد ضاعت دارهمهم	فى مصرنا بين حمار وخمار
وعن قريب لهم فى الشام مهلكة	يضيع لهم فيها آجال أعمار (٩٥)

والى جانب صلة العطار بالفرنسيين فى مكتباتهم ومصانعهم ، فقد كان للعطار ولع بقراءة الكتب المترجمة من اللغات الأوربية ، خاصة فى علمى التاريخ والجغرافيا حتى اشتهر عنه ذلك ، والعطار نفسه يقول فى هذا المنبع من منابع ثقافته « وقع فى زماننا أن جلبت كتب من بلاد الافرنج ، وترجمت باللغة التركية والعربية ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة أطلعنا على بعضها ، وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة الى الفعل » (٩٦) .

ويقول عنه تلميذه رفاعه الطهطاوى : « كان له ولع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة ، وله بعض تأليف فى الطب وغيره ، زيادة عن تآليفه المشهورة » (٩٧) .

كما قابل الشيخ العطار المستشرق الانجليزى ادوارد وليم لين مؤلف كتاب « المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن ١٩ » وكانت له صلة به ، ونوه لين به فى كتابه السالف وأشاد بتفوقه الأدبى ، وذكر أن ما كتبه عن العطار كان بناء على طلب منه بذلك لعلمه أنه سوف ينشر فى انجلترا كتابه عن مصر (٩٨) .

---

(٩٥) الجبرتى — عجائب الآثار — ج ٣ ص ٤٥ .

(٩٦) أحمد تيمور ، أعلام الفكر الاسلامى فى العصر الحديث ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٦٧ ص ٢٩ .

(٩٧) مناهج الألباب — مرجع سبق ذكره — صص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

(٩٨) لين مرجع سبق ذكره صص ١٤٨ — ١٤٩ .

والى جانب اتصال العطار المباشر بالثقافة الغربية والاطلاع على الكتب المترجمة ، كان للعطار وسيلة ثالثة هى الرحلة ، فقد رحل الى الشام وتركيا وعاد الى مصر وشهد له علماء عصره بالانفراد .

وتبلورت أفكار العطار بعد نضـــوجها فى خطة اصـــلاحية لتطوير الدراسة فى الأزهر ، ويمكن اجمال جهوده الاصلاحية فيما يلى :

بدأ العطار ينبه الأزهريين فى عصره الى واقعهم الثقافى والتعليمى ، ويبين لهم ضرورة ادخال المواد الممنوعة كالفلسفة والأدب والجغرافيـــا والتاريخ والعلوم الطبيعية ، كما يبين ضرورة اقلاعهم عن أســـاليبهم فى التدريس ، ووجـــوب الرجوع الى كتب الأصـــول وعدم الاكتفاء بالملخصات والمتون المتداولة وما عليها من حواشى وشروح حديثة .

وقد بدأ العطار يخرج على هذا الجمود الذى اعترى الأزهر بتدريسه هو نفسه المواد الممنوعة ، فقد بدأ يدرس الجغرافيا والأدب والتاريخ فى الأزهر وأفلح فى ادخال الدراسة الأدبية الى الأزهر على يد تلاميذه وفى مقدمتهم محمد عياد الطنطاوى الذى أوحى اليه بتدريس الأدب فى كتاب « مقامات الحريرى » حوالى سنة ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ) (٩٩) كما أنه هو نفسه قد اعتنى بالأدب عناية خاصة فلم يتحرج من انشـــائه ، فألف فيه كتابه المعروف ، وقام بتدريسه فى الأزهر وكان يبين عدم تعارض ذلك مع وقار العلم أو جلال الدين مستشهدا بالأسلاف العظام ، وتاريخ الجبرتى حافل بنماذج شعرية ونثرية له (١٠٠) .

وقد عاصر العطار أفول نجم زعماء الأزهر وضياع مجدهم السياسى فنعاهم فى شعره حين نعى أستاذه محمد بن عرفة الدسوقى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ فقال فى ذلك :

---

(٩٩) أحمد تيمور باشا — مرجع سبق ذكره — ص ٣١ .

(١٠٠) انظر نماذج من شعر العطار ونثره فى — عجائب الآثار — جـ ٣ صص ١٠١ — ١٠٢ .

أحاديث دهر قــد ألم فأوجعــا وحــل بنادى جمعنــا فتصــدعا
لقد صال فينا البين أعظم صولة فلم يخل من وقع المصيبة موضعا
وجاءت خطوب الدهر تترى فكلما مضى حادث يعقبه آخر مسرعــا
وحل بنا ما لم نكن فى حســابه من الدهر ما أبكى العيون وأفزعا
لقد كان روض العيش بالأمن يانعا فأضحى هشيما ظله متقشعا (١٠١)

ولقد أهله هذا المركز الأدبى الرفيع من أن يكون أول محرر للقسم العربى للوقائع المصرية سنة ١٨٢٨م فى عهد محمد على •

وعلى كل حال فقد حمل تلاميذ العطار آراءه الاصلاحية من بعده وكان فى طليعتهم العلامة رفاعة الطهطاوى الذى سافر باشارة أستاذه ونقل الكثير من علوم الغرب الى اللغة العربية بعد عودته الى مصر ، فكان بحق أول رائد للنهضة العلمية الحديثة ، وذلك بفضل تعاليم أســتاذه العطار •

وترك العطار كثيرا من المؤلفات القيمة فى كثير من فروع المعرفة منها :

— انشاء العطار — وهو كتاب مشهور فى المراسلات والمخاطبات وكتابه الصكوك والشروط •

— رسالة فى كيفية العمل بالاسطرلاب — مخطوط •

— ديوان من الشعر — مطبوع •

— حاشية على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع — فى الأصول — مطبوع •

— حاشية على متن السمرقندية — فى البلاغة — مطبوع •

---

(١٠١) المصدر السابق — ج ٤ صص ٢٤٧ — ٢٤٨ •

— حاشية على شرح الشيخ خالد على الأزهرية — نحو — مطبوع .
— حاشية على الرسالة الولدية للمرعشى — أدب بحث — مخطوط (١٠٢).

وذكر عنه على مبارك أنه ألف بعض الرسائل فى الطب والتشريح والرمل والزايرجة وغير ذلك وقال عنه بأنه كان يرسم المزاول النهارية والليلية (١٠٣) .

ويمكننا القول بأن هؤلاء الثلاثة — الجبرتى والخشاب والعطار — كانوا فى طليعة من اتصلوا بالفرنسيين وأصابتهم الدهشة بسبب الفارق الحضارى بين واقعهم المصرى وما وصل اليه الفاتحون ، فآمنوا بفكرة الأخذ عن الحضارة الأوربية ، وقد مر بنا أن ثلاثتهم كانوا يعقدون جلساتهم الأدبية فى منزل الجبرتى وكثيرا ما كانت تدور بينهم المناقشات الأدبية والمحاورات العلمية ولابد أنهم تطرقوا الى واقعهم الأزهرى وضرورة تغييره ، ولم يصلنا عن الجبرتى أو الخشاب شيىء من هذا . والذى وصلنا عن العطار وسبق أن أشرنا اليه فالعطار بذلك يعتبر أول من نادى باصلاح الأزهر فى العصر الحديث أو اذا أردنا الحيطة فى التعبير ، كان من أوائل من نادوا بتطوير الأزهر فى العصر الحديث لكى يساير التطور العالمى .

وعلى الرغم من أن العطار قد تولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ وظل بها الى أن توفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤م) الا أنه لم يستطيع أن يغير من واقع الأزهريين ، ويكفيه شرفا أنه كان أول رائد للحركة الاصلاحية بالأزهر ، وهى التى لم تتم الا فى عصور لاحقة بدأت بصدور قانون تطوير الأزهر فى سنة ١٨٧٢ فى عهد الشيخ محمد العباسى (*) .

---

(١٠٢) احمد تيمور باشا — مرجع سبق ذكره — ص‌ص ٢٤ — ٢٥ — وأبو الوفا المراغى — مرجع سبق ذكره — ج ٢ ص‌ص ١٠١ — ١٠٢ .
(١٠٣) انظر ترجمة العطار فى الخطط التوفيقية — ج ٤ ص‌ص ٣٨ — ٣٩ .

(*) انظر للمؤلف كتاب « تاريخ الاصلاح فى الأزهر فى العصر الحديث من ١٨٧٢ — ١٩٦١ » .

والخلاصة : أن الأزهر ابان عصر الحملة الفرنسية ومطلع القـــرن التاسع عشر قد واصل رسالته العلمية بجانب ما أداه للبلاد من خدمات فى مجال الدفاع عنها ضد الأطماع الأجنبية التى اجتاحتها ابان هذه الفترة وكان بحق مركزا لتعليم الذى تدور حوله الحركة العلمية فى البلاد ، كما كان محور الشخصية المصرية ، وأدى بفضل هذا المركز الممتاز أجل الخدمات فى حياة مصر العلمية والسياسية والاجتماعية ، فدعم اللغـــة وقواها ضد لغة الحكام الأتراك ودعم أسس الديانة الاسلامية ضد الغزو الفكرى الذى تحدثنا عنه ابان الحملة الفرنسية .

وفى بداية عصر محمد على نظر اليه هذا العاهل على أنه مؤسسة وطنية وأقوى مركز من مراكز القوى فى البلاد ، فعمل على تحطيمه ، فوضع يده على أوقافه وموارده ، ولم يفكر فى اصلاحه وانهاضه ، بل انه آثر آن يخصص كل اهتمامه فى انشاء مدارس جديدة لكى يربى فيها جيلا من المصريين يدينون بالولاء له ويكون بحق هو ولى نعمتهم كما أحب أن يلقبه المصريون بذلك .

وبدأت مؤامرة محمد على بعزل الأزهر عن الحياة العصرية بحجة أن الأزهر لا يسمح بتدريس العلوم الحديثة ، وأنشأ المدارس الحديثة معزولة عن التراث القومى والثقافة العربية ، فبعدت بذلك عن القاعدة الجماهيرية فى البلاد .

وكانت النتيجة كما يقول الأستاذ محمد جلال كشك ضربة مزدوجة : فقد خرجت تلك المدارس طبقة من أشباه المثقفين لا تصلح الا أن تكون ترجمانا للحضارة الغربية ، ووكيلة للشركات الأوروبية أو جهازا بوليسيا للحكم الغربى فى الشرق ، وجف الأزهر وابتعد عن الحياة ، وتحـــول علماؤه فعلا الى رجال كهنوت فى وحشة مع المجتمع وفى جفوة معه (١٠٤).

---

(١٠٤) من مقال للأســـتاذ كشك عن — الأزهر ثورة أجهضـــت — الحوادث — ١٩٧٣/٣/١٦ مجلة أسبوعية بيروت — لبنان — ص ٤٧ .

ولقد كان الأزهر وحده هو التربة الصالحة لاحتضان المعرفة الحديثة وتطويرها فى شكل ثقافة وطنية ، والدليل على أن الأزهر كان وحـــده القادر على تخريج علماء عرب قادرين على التطوير ، أنه عندما بـــدأ محمد على نظام المدارس الحديثة واختار نخبة من طلبة النظام الجديد وقرر ارسالهم فى بعثة الى أوربا واختاروا لهم — حرصا على تقاليد البلاد — فقيها يعلمهم الصلاة وأرسلوه معهم فكان هذا الأزهرى وحده هو الذى تمثل الحضارة الغربية وأخرج عملا فكريا ترك بصماته عـــلى الفكر حتى مطلع القرن العشرين (١٠٥) ، وقد سبق أن ذكرنا أن رفاعه الطهطاوى أخذ على محمد على عدم تطويره للأزهر ، وذلك بعد أن تبينت لرفاعة نتيجة الطفرة السطحية التى أحدثتها المدارس الحديثة فى البلاد وعاصر رفاعة بنفســـه اغلاق تلك المدارس مرة أخرى فى عصر عباس الأول .

تم بحمد الله

(١٠٥) المرجع السابق .

مصادر البحث

أولا — وثائق لم يسبق نشرها :

وثائق دفترخانه الشهر العقارى بالقاهرة

هذه الوثائق عبارة عن سجلات المحاكم الشرعية فى العصر العثمانى وقد عرفت لدى الباحثين من قبل بسجلات المحكمة الشرعية فى شبرا نظرا لأنها كانت محفوظة بها الى عهد قريب ، بيد أنها نقلت قريبا الى دفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة ، وهى موجودة بحالة جيدة غير أن غالبيتها غير مفهرسة ، ويصعب على الباحث الاهتداء الى مطلوبه بها الا بعد التنقيب المضنى . كما أن الخطوط التى كتبت بها السجلات يصعب على القارىء المبتدىء فك رموزها وأشكالها الا بمعونة بعض الخبراء الموجودين بدفترخانة الشهر ويعملون لدى الباحثين بأجر يومى .

وهذه السجلات لها أهمية بالغة فى تاريخ مصر ابان الحكم العثمانى بوجه عام ، وفى تاريخ علماء الأزهر بوجه خاص نظرا لأن جميع المعاملات اليومية كانت تسجل فيها بما فى ذلك : عقود الملكية والبيع والشراء والتنازل والهبة والوقف والاستبدال والزواج والطلاق وغير ذلك . من المعاملات وفيما يلى نورد أسماء السجلات التى رجعنا اليها فى هذا البحث مقرونة بأرقام الوثائق التى ورد ذكرها فى حواشى الرسالة :

(١) سجلات محكمة الباب العالى :

وهى عبارة عن ٥٥٩ سجلا كبيرا تبدأ بتاريخ ١٢ ربيع الأول سنة ٩٣٧هـ وتنتهى فى أول ذى الحجة سنة ١٢٩٢ هـ (٥ نوفمبر ١٥٣٠ — ٢٩ ديسمبر ١٨٧٥م) وفيما يلى أرقام السجلات والوثائق التى استعنا بها من هذه المحكمة والتى ورد ذكرها فى حواشى البحث :

١ — مسلسله رقم ٣٧٥ مادة ٢١٤ صحيفة ٦٧ .
٢ — مسلسله رقم ٣٤١ مادة ١٦٣ صحيفة ٧٤ .
٣ — مسلسله رقم ٢٥٤ مادة ٥٣٢ صحيفة ٢٩٥ .
٤ — مسلسله رقم ٣٢٧ مادة ١١١٨ صحيفة ٤٨١ .
٥ — مسلسله رقم ٣٢٠ مادة ٦٤٤ صحيفة ٢٨٢ .

(٢) سجلات محكمة القسمة العسكرية :

وهى عبارة عن ٤١٨ سجلا كبيرا تبدأ بتاريخ ٩٦١ هـ وتنتهى فى ١٢٩٢هـ (١٥٥٣ — ١٨٧٥م) وهى خاصة بحصر مخلفات الموتى وفيما يلى أرقام الوثائق التى جاء ذكرها فى البحث من هذه السجلات :

١ — مسلسلة ٢٧٧ مادة ٢٠٩ صحيفة ١٢٦ .

٢ — مسلسلة ٢٨٠ مادة ٤٦ صحيفة ٣٢ .

(٣) سجلات الديوان العالى :

وكانت تابعة للباشا العثمانى وهى عبارة عن ١٦ سجلا متوسط الحجم تبدأ بتاريخ ١١٥٤ الى ١٣٠٧ هـ (١٧٤١ — ١٨٨٩م) وفيما يلى أرقام الوثائق التى استعنا بها منها :

١ — مسلسلة ٢ مادة ٤٧٣ صحيفة ٣٠٠ .

٢ — مسلسلة ٦ مادة ٤٥٠ صحيفة ١١٧ .

٣ — مسلسلة ٦ مادة ٤٥١ صحيفة ١١٧ .

(٤) سجلات تقارير النظر :

هى عبارة عن قرارات كان يصدرها قاضى عسكر أفندى (أى قاضى القضاة بمصر) **والذى كان تركيا يعين من قبل السلطان العثمانى** بالاستانه ، وكان مقره بمحكمة الباب العالى بين القصرين بخط الجمالية المعروفة الآن ببيت القاضى ، وهذه القرارات كانت تنص على تعيين النظار على الأوقاف وغير ذلك من الوظائف بمصر وكانت سجلات تقارير النظر هذه تابعة لمحكمة الباب العالى (١) :

وعدد هذه السجلات ٤٢ سجلا صغيرا تبدأ بتاريخ ١١٣٨هـ-١٢٩٢هـ (١٧٢٥م — ١٨٧٥م) .

---

(١) ثبت لدينا أن سجلات تقارير النظر كانت تابعة لمحكمة الباب العالى فقد عثرنا على وثيقة مسجلة بسجلات تقارير النظر (مسلسلة ٢٠ مادة ٢٤٩) تنص على أمر بتعيين باشكاتب تقارير النظار بالباب العالى ، وهو السيد محمد البلبنى ريس الكتاب بالقسمتين (العربية والعسكرية) سابقا ، وذلك بأمر القاضى السيد يحيى شكونى أفندى قايم مقام بمصر المحروسة الى حضور قاضى العسكر يحيى زادة عبد الرحمن أفندى .

ثانيا — وثائق دار الوثائق القومية بالقاهرة :

(١) دفاتر المعية السنيه تركى مترجم :

هى عبارة عن المكاتبات الصادرة من محمد على الى السلطان العثمانى بالآستانة ، كما أنها تحتوى على الأوامر والقرارات التى كان يصدرها الوالى داخل البلاد وهذه هى أرقام الوثائق التى جاء ذكرها فى هذا البحث من هذه الدفاتر .

١ — وثيقة رقم ١ دفتر رقم ١ بتاريخ ١٢٢٢ هـ .
٢ — وثيقة رقم ٣٢ دفتر رقم ١ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٢٤ هـ .
٣ — وثيقة رقم ١٥٧ دفتر رقم ٣ بتاريخ ٢٨ صفر ١٢٣٤ هـ .

(٢) محافظ الفرمانات السلطانية :

تركى به تراجم لمضمون الفرامانات باللغة العربية :

١ — فرمان رقم ٦ محفظة رقم ١ بتاريخ ٢٥ رجب ١٢١٦ هـ .
٢ — فرمان رقم ٩٦ محفظة رقم ٤ بتاريخ ٢٧ شعبان ١٢١٦ هـ .

(٣) محافظ الحجج الشرعية :

هى عبارة عن حجج صـــدرت من محاكم مختلفة ، وخاصـــة بمختلف المعاملات الاجتماعية والاقتصادية وفيما يلى أرقام الحجج والمحافظ التى ورد ذكرها فى البحث :

١ — حجة رقم ٨٦٥ محفظة رقم ١٨ .
٢ — حجة رقم ٣٣٤١ محفظة رقم ٦٥ .
٣ — حجة رقم ٣٣٥١ محفظة رقم ٦٥ .
٤ — حجة رقم ٣٣٦٤ محفظة رقم ٦٥ .
٥ — حجة رقم ٣٣٨٧ محفتة رقم ٦٥ .

(٤) سجلات الجامع الأزهر :

وهى دفاتر خاصة بتسجيل طلبة الجامع الأزهر تبعا لأروقتهم المختلفة واستحقاقاتهم فى الجراية ، وهى لسنوات مختلفة بعد عام (١٩٠٠م) وهى موجودة بحالة سيئة وغير منظمة ويصعب على الباحثين الاستعانة بها ، لأنها غير مفهرسة وقد استعنا منها بالدفتر رقم ١٣ جزء ١٠ الخاص بسنة ١٩١٠م لأن به اجابات مشيخة الأزهر على استفسارات مجلس النظار عن أوقـــاف الأروقة وأسماء الواقفين بتاريخ ٤ يوليو سنة ١٩١٠م .

ثالثا — دار المحفوظات بالقاهرة :

وهذه أرقام الوثائق التى ورد ذكرها فى البحث من هذه الدار :

١ — دفتر استبدال وقف الشـــيخ عبد الله الشرقاوى نظارة حضرة الشيخ محمد الشرقاوى ناحية طوخ القراموصى باقليم الشرقية — مخزن رقم ١٤١٢

(١) ———— دفتر رقم ٤ بتاريخ ١٢٥٩ هـ .
٤٨

٢ — طلب فائض التزام باسم الشيخ على عبد الله الشرقاوى بتاريخ ٢١ صفر ١٢٤٧ هـ محفظة رقم ٨٢ — مخزن (١) تركى .

٣ — طلب تحويل استحقاقات الشيخ ابراهيم الخربتاوى من الجراية والمرتب وفائض الالتزام الى ولده الشيخ ابراهيم الخربتاوى الصغير بتاريخ ١٢٤٧ هـ محفظة ٨٢ — مخزن (١) تركى .

رابعا — وثيقة مخطوطة لم يسبق نشرها :

وهى عبارة عن مذكرات أولية كتبها عبد الرحمن الجبرتى بخط يده بعنوان : « تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ هـ الى سنة ١٢١٦هـ » بمكتبة جامعة ليدن بهولندا تحت رقم (cod ar 2437) وقد حصلنا عـــلى نسخة منها عن طريق التصوير بالميكروفيلم وهذه المخطوطة تؤرخ لســـبعة أشهر من بداية المحرم ١٢١٣هـ الى نهاية رجب ١٢١٣هـ ، وقد جاءت باضافات جديدة وهامة .

ثانيا : المصادر والمراجع التى ورد ذكرها فى حواشى البحث :

وهى مرتبة ابجديا .

١ — أبو المراغى :
المعجم الأصغر لتراجم ومؤلفات علماء الأزهر — مخطوط فى مكتبة الأزهر — أربعة أجزاء تحت رقم ٨٠٠٦ خاص و ٧٧١٣٠ عام .

٢ — أحمد حسين الصاوى (دكتور) :
فجر الصحافة فى مصر ؛ دراسة فى اعلام الحملة الفرنسية ، نشر الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٧٥ .

٣ — أحمد العريشى :
رسالة فى علم وبيان طريق القضاة وأســـماؤهم بمصر المحروســـة وأقاليمها — كتبها مؤلفها عام ١٢١٥ هـ (١٨٠٠م)— مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة — تحت رقم ٣١٥١ تاريخ .

٤ — **أحمد تيمور (باشا) :**
أعلام الفكــر الاســلامى فى العصر الحديث — لجنة نشر المؤلفات التيمورية — الطبعة الأولى — القاهرة ١٩٦٧ .

٥ — **أحمد بن محمد (ابن خلكان) :**
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — ستة أجزاء — مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٤٨ .

٦ — **احمد بن على بن عبد القادر المقريزى :**
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — ثلاثة أجزاء — طبعة مكتبة احياء العلوم — لبنان — بيروت — لم تذكر سنة الطبع .

٧ — **أحمد بن محمد بن على المقرى :**
المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير — طبعة المطبعة البهية المصرية جزءان — القاهرة — لم تذكر سنة الطبع .

٨ — **أحمد حافظ عوض :**
فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر — مطبعة مصر — القاهرة ١٩٢٥ .

٩ — **أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) :**
تاريخ التعليم فى عصر محمد على — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٣٨ .

١٠— **ادوار جوان :**
مصر فى القرن التاسع عشر — ترجمة محمد مسعود — الطبعة الثانية القاهرة ١٩٣١ .

١١— **ادوارد وليم لين :**
المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر — تعريب عدلى طاهور نور — مطبعة الرسالة — القاهرة ١٩٥٠ .

١٢— **البرت حورانى :**
الفكر العربى فى عصر النهضة — ترجمة كريم عزقول — بيروت ١٩٧٠ .

١٣— **أمين سامى (باشا) :**
تقويم النيل — مطبعة دار الكتب بالقاهرة — الطبعة الأولى — الجزء الثانى — القاهرة ١٩٢٨ .

١٤— **أمين مصطفى عفيفى عبد الله (دكتور) :**
تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث — مكتبة الأنجلو المصرية — الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٥٣ .

١٥— **أندريه ريمون :**
« الاحياء الأرستقراطية بالقاهرة فى القرن الثامن عشر مقال فى مجلة المجلة العدد ٤٩ ١ مايو ١٩٦٩ ترجمة زهير أحمد الشايب .
١٦— **توفيق الطويل (دكتور) :**
التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى — القاهرة ١٩٤٦ .
١٧— **حسن ابراهيم حسن (دكتور) :**
تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى الطبعة السادسة — أربعة أجزاء — القاهرة ١٩٦٢ .
١٨— **حسن عثمان (دكتور) :**
المجمل فى التاريخ المصرى — تاريخ مصر فى العهد العثمانى — القاهرة ١٩٤٢ .
١٩— **حسين مؤنس (دكتور) :**
الشرق الاسلامى فى العصر الحديث — الطبعة الثانية القاهرة ١٩٣٨ — المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .
٢٠— **خليل بن أحمد الرجبى :**
تاريخ محمد على باشا — مخطوط — بدار الكتب بالقاهرة — رقم ٢٣٩٠ تاريخ تيمور .
٢١— **البروفسير (ريجيس بلاشير) :**
مقدمة كتاب « التربية والتعليم فى الاسلام » للدكتور محمد أسعد طلس — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين لبنان — بيروت ١٩٥٦ .
٢٢— **رفاعة رافع الطهطاوى :**
مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية — مطبعة شركة الرغائب — الطبعة الثانية — القاهرة ١٩١٢ .
٢٣— **سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) وعبد الرحمن الرافعى :**
مصر فى العصور الوسطى — الطبعة الأولى — دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٠ .
٢٤— **سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :**
مقال عن البحوث التى قدمت فى الندوة الدولية لتاريخ القاهرة والخاصة بتاريخ الأزهر — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥١ مايو سنة ١٩٦٩ .
٢٥— **سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :**
الجماعات الأوربية فى العصور الوسطى — مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة — الطبعة الأولى — ١٩٥٩ .
٢٦— **صبحى وحيدة :**
فى أصول المسألة المصرية — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة ١٩٥٠ .

٢٧— **عبد الرحمن الجبرتى :**
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار أربعة أجزاء المطبعة العامرة الشرقية القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٢٨— **عبد الرحمن الجبرتى :**
« مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس » طبعة وزارة التربية والتعليم تحقيق أحمد زكى عطيه وعبد المنعم عامر ومحمد فهمى عبد اللطيف — جزءان — القاهرة ١٩٦١ .

٢٩— **عبد الرحمن الرافعى :**
تاريخ الحركة القومية وتتطور نظام الحكم فى مصر — جزءان — الجزء الأول الطبعة الرابعة ١٩٥٥م — الجزء الثانى الطبعة الثالثة ١٩٥٨م مكتبة النهضة المصرية — القاهرة .

٣٠— **عبد الرحمن الرافعى :**
عصر محمد على — الطبعة الثالثة — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥١م .

٣١— **عبد الرحمن زكى (دكتور) :**
القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد الى الجبرتى المؤرخ (٩٦٩— ١٨٢٥م) الدار القومية للتأليف والترجمة — القاهرة ١٩٦٦م .

٣٢— **عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :**
عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية — القاهرة ١٩٦٧م .

٣٣— **عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :**
دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى — بحث نوقش فى الندوة العلمية الدولية لألفية القاهرة — مارس — ابريل ١٩٦٩ ونشر فى المجلد الثانى من بحوث الندوة — مطبعة دار الكتب — القاهرة ؟؟

٣٤— **عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :**
صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر — بحث نوقش فى الندوة العلمية الدولية لألفية القاهرة — مارس — أبريل ١٩٦٩ . مطبعة دار الكتب القاهرة — ١٩٧١ .

٣٥— **عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :**
العلاقات المصرية الليبية فى العصور الحديثة — القاهرة ١٩٧٣ .

٣٦— **عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :**
الوحدة العربية فى التاريخ الحديث والمعاصر من أبحاث مؤتمر وزارة التربية والتعليم للسادة المفتشين الأوائل ومفتشى المواد الاجتماعية

فى كلية الآداب جامعة الأسكندرية فى الفترة من ٣ أغسطس الى ١٢ أغسطس ١٩٦٣ طبع دار المعارف .

٣٧— **عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :**
أوربا فى مطلع العصور الحديثة — دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ .

٣٨— **عبد الله الشرقاوى :**
تحفة الناظرين فى من ولى مصر من الولاة والسلاطين مطبعة مصطفى البابى الحلبى على هامش فتوح الشام — جزءان — الطبعة الرابعة — القاهرة ١٩٦٦ .

٣٩— **عفاف لطفى السيد (دكتورة) :**
الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعلماء القاهرة فى القرن الثامن عشر — بحث فى مجلة الفكر المعاصر العدد ٥١ — مايو ١٩٦٩ — ترجمة أمين العيوطى .

٤٠— **عيسى الصفتى :**
رسالة فى ارصاد الجوامك والأطيان — مسماه عطية الرحمن — الطبعة الأولى مطبعة جريدة الاسلام — القاهرة — لم تذكر سنة الطبع .

٤١— **على مبارك (باشا) :**
الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة — المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة — ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ — ١٨٨٩م) — عشرون جزءا .

٤٢— **كرستوفر هيرولد :**
(بونابرت فى مصر) ترجمة فؤاد اندراوس — دار الكتاب العربى للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٦٧ .

٤٣— **لويس عوض (دكتور) :**
تاريخ الفكر المصرى الحديث — جزءان — القاهرة ١٩٦٩ .

٤٤— **محمد أمين حسونة :**
كفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر — القاهرة ١٩٥٥ .

٤٥— **محمد أنيس (دكتور) :**
مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى — معهد الدراسات العربية العالية — القاهرة ١٩٦٢ .

٤٦— **محمد جلال كشك :**
الأزهر ثورة أجهضت — مقال فى مجلة الحوادث بتاريخ١٦/٣/١٩٧٣ — مجلة أسبوعية لبنان — بيروت .

٤٧— **محمد جلال كشك :**
ودخلت الخيل الأزهر — الدار العلمية — لبنان — بيروت ١٣٩١هـ — ١٩٧٢ م .

٤٨— **محمد رجب البيومى :**
علماء فى وجه الطغيان الدار القومية—القاهرة — لم تذكر سنةالطبع.

٤٩— **محمد عبد الله عنان :**
تاريخ الجامع الأزهر — الطبعة الثانية — القاهرة — ١٩٥٨ .

٥٠— **محمد عبده (الشيخ) :**
مقال عن الخسائر التى أصابت الشعب المصرى فى عصر محمد على — مجلة المنار — عدد ٢ يونية ١٩٠٣ وأعيد نشره فى جريدة الأخبار عدد ٢٠ يوليو ١٩٧٣ .

٥١— **محمد شفيق غربال :**
الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ — القاهرة ١٩٣٢ .

٥٢— **محمد شفيق غربال :**
مصر عند مفرق الطرق — بحث نشر فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة — المجلد الرابع الجزء الأول عدد مايو ١٩٣٦ .

٥٣— **محمد شفيق غربال :**
محمد على الكبير (سلسلة أعلام الاسلام) دار احياء الكتب العربية لقيس الحلبى — القاهرة ١٩٤٤ .

٥٤— **محمد فؤاد شكرى :**
الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر — الناشر دار الفكر العربى — القاهرة لم تذكر سنة الطبع .

٥٥— **محمد فؤاد شكرى :**
مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ الى ١٨١١) مطبعة جامعة القاهرة — القاهرة ١٩٥٨ .

٥٦— **محمد بن يوسف جوربجى جمليان هيانم :**
« صور كتب بعض علماء مصر الى سلاطين الدولة العثمانية وفرمانات صادرة من أمراء الفرنساوية بمصر » مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ١٠٠ تاريخ وقد قامت دار الكتب المصرية بالقاهرة بنسخ صورة أخرى عن نسخة سوهاج على نفقتها بخط الكاتب حسن رشيد فى سنة ١٩٣٦ تحت عنوان آخر هو : «منشورات قائد الفرنساويين فى مصر أثناء الحملة الفرنساوية تحت رقم ٦٢١٠ تاريخ وقد نقلنا عن النسخة الأخيرة .

٥٧— **محمد بن أبى السرور :**
النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية فرغ منه مؤلفه فى ذى الحجة ١٠٥٩ هـ — ١٦٤٩ م مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٢٢٦٦ تاريخ .

٥٨— محمد بن جبير :
« رحلة ابن جبير » مطبعة المشهد الحسينى — القاهرة — لم تذكر سنة الطبع .
٥٩— محمد فريد أبو حديد :
زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم — دار الهلال القاهرة ١٩٥١ .
٦٠— محمد عبد المنعم خفاجى :
الأزهر فى ألف عام — الطبعةالأولى — القاهرة ١٣٧٤هـ ثلاثة أجزاء .
٦١— محمود بن محمد بن عرنوس :
تاريخ القضاء فى الاســـلام — المطبعة المصرية الأهلية الحديثة — القاهرة — لم تذكر سنة الطبع .
٦٢— محمود الشرقـــاوى : مصر فى القرن الثامن عشر
الجزء الأول : عبد الرحمن الجبرتى — الحياة الفكرية والاجتماعية — القاهرة ١٩٥٥ .
الجزء الثانى : الأزهر والعلماء — أيام المماليك — القاهرة — ١٩٥٦
الجزء الثالث : شعبمصر وكفاحه — صفحات من سيرة محمد على — الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٥٧ .
٦٣— محمود الشرقـــاوى :
الجبرتى وكفاح الشعب — دار الهلال — القاهرة ١٩٦٦ .
٦٤— نقولا الترك (المعلم) :
ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبـــلاد الشامية — نشر وترجمة دجرانج — باريس ١٨٣٩م .
٦٥— نقولا الترك (المعلم) :
مذكرات نقولا ترك نشر وترجمة وتعليق — فيت جاستون — القاهرة مطبعة المعهد الفرنسى للاثار الشرقية ١٩٥٠ .
٦٦— وزارة الأوقاف وشئون الأزهر :
الأزهر تاريخه وتطوره — القاهرة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م وضع مقدمة الكتاب الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر .
٦٧— وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر فى ١٢ عاما .
سجل وضع تنفيذا لقرار وزارى رقم ٢ سنة ١٩٦٤ صدر عن قرار وزارة الأوقاف وشئون الأزهر وقامت باعداد السجل لجنة برئاسة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر — لم تذكر سنة الطبع .
٦٨— دائرة المعارف الاسلامية النسخة العربية :
مادة الأزهر — المجلد الثالث — صص ١٨٣ — ٢٥٥ الطبعة الثانية — مؤسسة مطابع الشعب — القاهرة ١٩٦٩ .

فهرس المحتويات

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٧٠٨٧